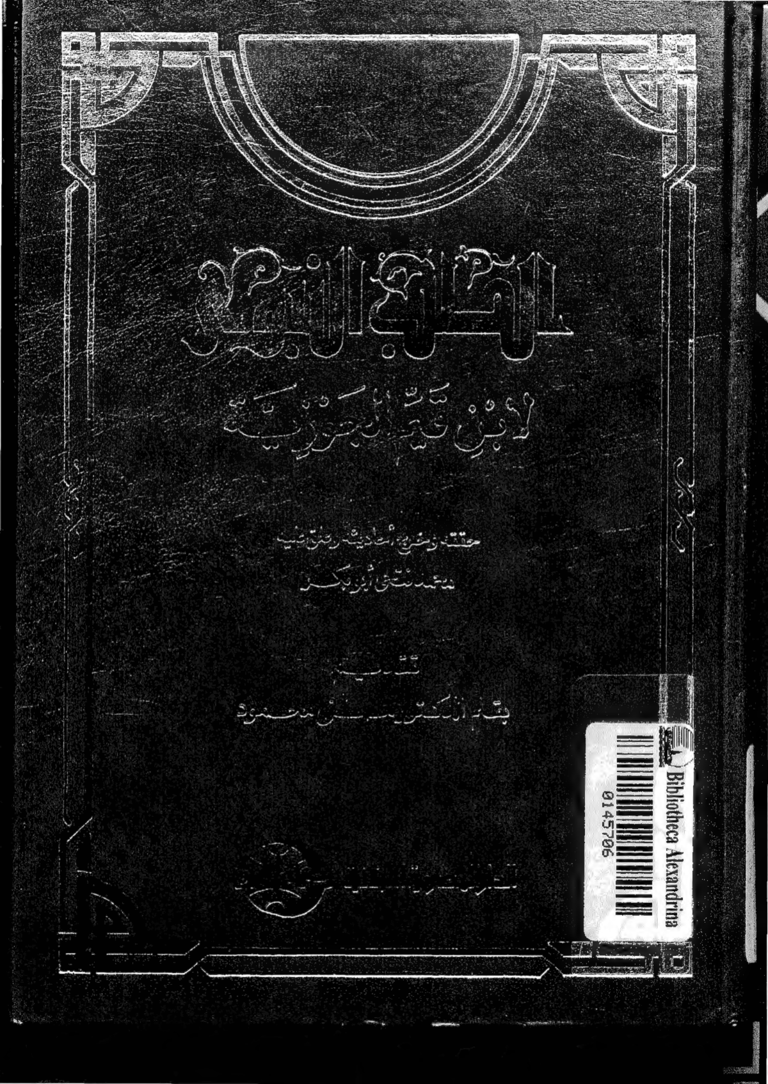
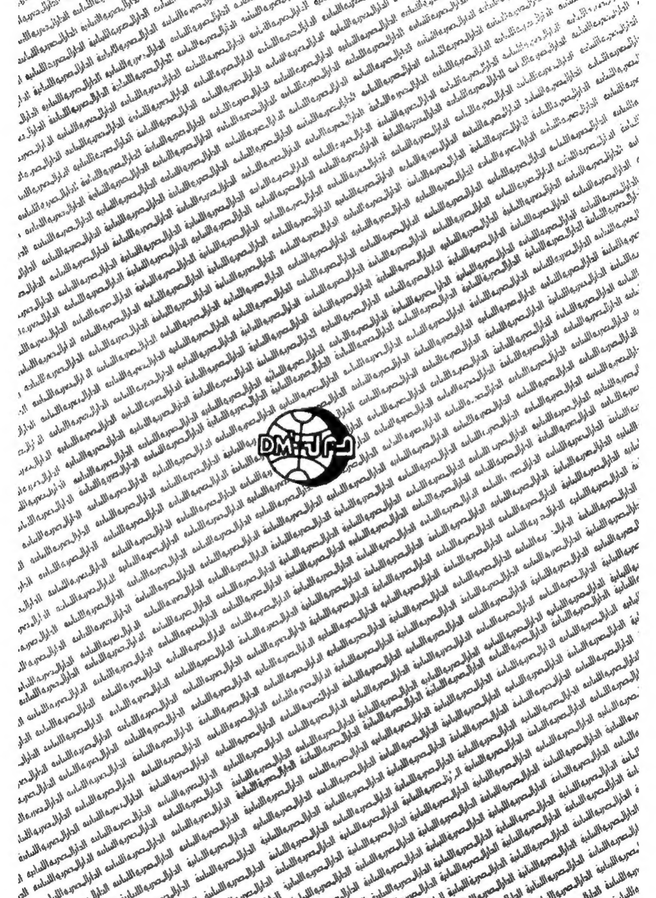
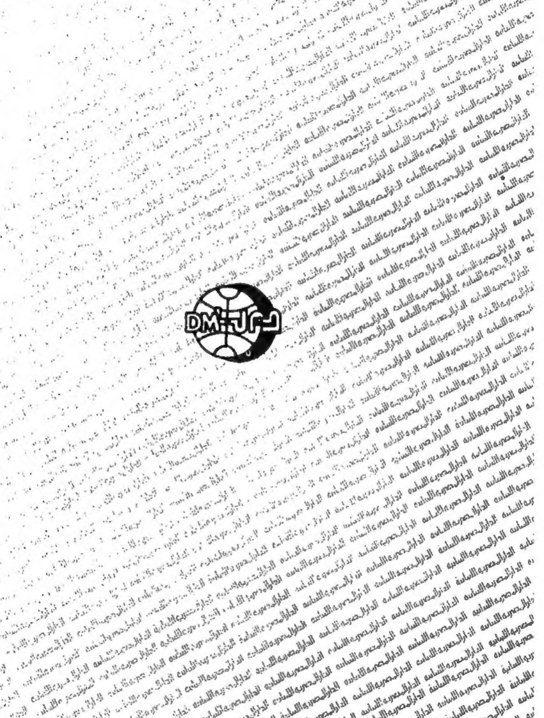


الطب النبوي
لابن قيم الجوزية
حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه
محمد فتحي أبو بكر
تقديم
بقلم الدكتور عبد الحليم محمود






الطب النبوي
لابن قيم الجوزية

الطبعة الأولى

١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

الطبعة الثانية

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م



الدار المصرية اللبنانية

طباعة • نشر • توزيع

١٦ شارع عبد الخالق ثروت - القاهرة ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣ - فاكس: ٣٩٠٩٦١٨ - برقياً: دار شادو - ص.ب: ٢٠٢٢ - القاهرة

AL-DAR AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH PRINTING — PUBLISHING — DISTRIBUTION

16 ABD EL KHALEK SARWAT St. P.O.Box 2022-Cairo-Egypt PHONE: 3936743-3923525 FAX: 3909618 CABLE DARSHADO

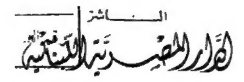
الطب النبوي

لابن قيم الجوزية

حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه
محمد فتحي أبو بكر

تقديم
بقلم الدكتور مصطفى محمود

الناشر



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم
بقلم الدكتور مصطفى محمود

علاقتى بالطب علاقة حميمة وثيقة ، فهو بالنسبة لى تاريخ ، وعِشْرَة ، وعُمْر ، ودراسة أحببتها ، واستغرقت فيها ، وباشرتها .. وقد دخلت الأدب من باب الطب ودخلت الدين من باب الحب ، وحينما أقرأ القرآن فإنى أقرؤه كرسالة حبيب ، وحينما أقرأ الحديث النبوى فإنى أقرؤه كوشوشة من أب عطوف رحيم .. فأنا لا أشعر بغُربة وأنا أسير فى هذه الدروب الشريفة ، ولا أرانى زائرًا عابرًا ، بل أرانى فى بيتى .

والطب النبوى بالنسبة لى ليس مجرد كتاب ، بل هو علم مارسته وباشرته بالفعل ، فقد طببتُ بالعسل حالات كثيرة .. وأذكر حالة أكزيما جلدية مستعصية ، مصحوبة بتشقق مؤلم حول الشرج ، لم تنفع فيها جميع المراهم والعقاقير التى تعلمناها فى كلية الطب ، واستعصت على جميع مشتقات الكورتيزون ومضادات الفطر ، وكان أى تعامل معها بالكيماويات يزيدها التهاباً .. فقلت أجرِّبُ ما قاله نبينا ، عليه الصلاة والسلام ، عن العسل . وعن الحَبَّة السوداء .. والحبة السوداء هى حَبة البَركة التى نعرفها عند العطار ، فصنعت مرهماً هو مزيج من العسل وزيت حبة البركة ، بنسبة عشرة فى المائة ، ضربتهما جيدًا حتى صنعا مزيجاً متجانساً ، ثم بسطته بلُطف على الجلد الملتهب فانطفأ الألم ، وهدأ الالتهاب لساعته ، ثم كان الشفاء بعد أيام قليلة من الاستعمال .. وذكرتُ هذه الحكاية للدكتور الظواهرى ، طبيبنا العبقرى والعالمى فى الأمراض الجلدية .. فقال لى : هذا أمر معقول ومفهوم تماماً من الناحية العلمية .

ولكن المغالاة والمبالغة والمزايدة دخلت فى كل شىء للأسف ، حتى فى الطب النبوى .. ولهذا قد يقع القارئ فى هذا الكتاب النفيس على بعض أشياء ينكرها .. وهنا يأتى الدور المشكور الذى قام به الأستاذ المحقق المدقق محمد فتحى أبو بكر ، الذى عكف على تخريج الأحاديث الواردة على القواعد الأصولية للجرح والتعديل ، وكشف لنا أن بعض هذه الأحاديث موضوع ، وبعضها ضعيف ، وبعضها غريب ، وبعضها منكر .. وهذا دور الأمانة العلمية فى رد كل شىء إلى مراجعه .

والسُّنَّةُ لم تسلم ممن زادوا ، وأضافوا ، ودسُّوا ، وغيروا ، ولكن المخلصين من كُتَّاب الحديث الشريف أخضعوا كل هذا لموازين دقيقة ، واستطاعوا تنقية هذا التراث الثمين من الكثير الذى ألمَّ به .

وهى جهود عظيمة وهائلة ، ولكنها جهود بشرية ، ويجوز عليها الخطأ والنسيان .. ألمْ يَقُلْ ربنا عن أبينا آدم : ﴿ ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ولم نجد له عزما ﴾ .

وهذا آدم النبى أبو البشرية ..
وهكذا جميع أولاده ، يجوز عليهم الخطأ والنسيان .
الله وحده هو الذى لا يضل ولا ينسى ..
بهذه الروح يجب أن نقرأ هذا الكتاب ..
وبهذه الروح سوف نفيد منه أكبر الفائدة .

د . مصطفى محمود

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَةُ المُحَقِّق

أحمد الله تعالى وأثنى عليه بما هو أهله ، وَأُصَلِّى وَأُسَلِّمُ على المبعوث هدى ورحمة للعالمين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه ، والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ، وبعد :

فهذه إلمامة سريعة عَرَّفْتُ فيها الطب فى الدولة الإسلامية ، من زاوية تاريخية ، ملقياً الضوء على الطب النبوى وأهميته ، والذين تناولوه وكتبوا عنه ، وترجَمْتُ فيها للعالم الجليل ابن قيم الجوزية ، وَبيَّنْتُ مكانته العلمية ، وأهمية كتابه الذى بين أيدينا ، من خلال المراجع الشهيرة التى تحدثَتْ عنه . ولم يَفُتْنِى فى النهاية أن أذكر الجهد المتواضع الذى بُذِلَ فى هذا الكتاب عسى أن ينال الرضا والقبول .

والله المستعان ، وهو وَلِيُّ التوفيق .

علم الطب :

يُعَرِّفُ ابن خلدون علم الطب بأنه « صناعة تنظر فى بدن الإنسان من حيث يمرض ويصحّ ، فيحاول صاحبها حفظ الصحة وبرء المرض بالأدوية والأغذية ، بعد أن يتبين المرض الذى يخص كل عضو من أعضاء البدن ، وأسباب تلك الأمراض التى تنشأ عنها ، وما لكل مرض من الأدوية ، مستدلين على ذلك بأمزجة الأدوية وقواها ، وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنضجه ، وقبوله الدواء أولاً فى السجيَّة والفضلات ، محاذين لذلك قوة الطبيعة ، فإنها المدبرة فى حالتى القوة والمرض ، وإنما الطبيب يحاذيها ويعينها بعض الشيء بحسب ماتقتضيه طبيعة المادة ، والفصل والسن . ويُسمَّى العلمُ الجامع لهذا كله علم الطب »[1]

---

(١) مقدمه ابن خلدون ص ٤٦٤ ، طبعة دار الشعب ، وص ٩١٧ طبعة دار الكتاب اللبنانى .

من هنا صار الطب مهنة إنسانية جليلة ، بل هي من أشرف المهن وأسماها ، إذْ تعمل على تخفيف الآلام والعلل والأسقام التي تصيب الإنسان فى بدنه وروحه ، ومن هنا اكتسبت هذه المهنة النبيلة تقدير البشرية منذ بدء الخليقة وحتى عصرنا هذا .

الطب عند العرب قبل ظهور الإسلام :

عرف العرب قبل الإسلام شيئاً يسيراً عن صناعة الطب ، توارثوه عن آبائهم ، أو نقلوه عن الشعوب المجاورة لهم ، كالفرس والهنود وغيرهما ، ويذكر الأستاذ عباس العقاد « أن اشتغال العرب الطويل برعى الماشية قد باعد بينهم وبين طب الكهانة والخرافة ، وقارب بينهم وبين طب التجارب العلمية ، لأنهم راقبوا الحمل والولادة والنمو ومايتمثل به من الأطوار الحيوية ، وشرَّحوا الأجسام فعرفوا مواقع الأعضاء منها ، وعرفوا عمل هذه الأعضاء فى بِنْية الحيوان نحوًا من المعرفة السليمة ، فاقتربوا من الإصابة فى تعليل المرض والشفاء »[٢]

وبجانب تلك الخبرات البسيطة التي توارثوها أو اكتسبوها من جيرانهم ، كان هناك من يستخدم الكهانة ، والسِّحر ، والرُّقى ، والتَّمائِم من أجل التخلُّص من المرض ، أو دَفْع الحَسَد وأذى العين ، أو التقرب والتودُّد إلى مَنْ يُحِبُّ ، وغير ذلك من الأغراض ، إلى أن جاء الإسلام ، فأَبْطَلَ تلك المُعْتَقَدَات وقَضَى عليها ، عملاً بقول رسول الله ﷺ « مَنْ أَتَى عَرَّافاً أَوْ كاهِناً فقد كَفَر بما أُنْزِلَ على محمد »[٣]

الطب النبوى :

« وبظهور الإسلام نشأ ضرب جديد من الطب يُسَمَّى بالطب النبوى ، يشتمل على مجموعة من الأحاديث الخاصة بالمرضى ، تحتوى على وصفات لعلاج بعض الأمراض والعلل ، كالصداع والشقيقة ، والرمد ، والجذام ، والحُمَّى ، واستطلاق البطن ، والطاعون ، ولسعة الحية والعقرب .

وفيها إشارات للمداواة بالعسل شراباً ، وبالكَيِّ والاحتجام من الشقيقة ، ووصف

---

(٢) أثر العرب فى الحضارة الأوربية ، طبعة دار المعارف ، ص ٢٦ .

(٣) أراد بالعرّاف : المُنَجِّم أو الحازِى الذى يَدَّعِى عِلْمَ الغيب الذى استأثر الله بعلمه « انظر لسان العرب ، مادة عرف » .

ألبان الإبل ، وإشارة إلى الإثمد (الكحل) وماء الكمأة للرمد ، واستعمال الحبة السوداء ، والعود الهندى ، وغير ذلك »[٤]

ونحن نلمس من خلال هذا الطب النبوى تقدير النبى ﷺ للطب والأطباء ، فقد سمح لسعد بن أبى وقاص بأن يعالجه الحارث بن كَلَدة الثقفى من مرض أصابه فى حجة الوداع ، وكان الحارث يومها على غير دين الإسلام ، وقال ﷺ : « ماأَنْزَلَ الله داء إلا أنزل له شفاء » .

هذا بالإضافة إلى الكثير من الأحاديث الواردة فى الوقاية من العدوى مثل « فِرّ مِنَ المجذوم كما تفر من الأسد » ونهيه ﷺ — عن أن يبول الناس فى الماء الراكد ، أو الماء الجارى ، وغير ذلك من الأحاديث التى ستمر علينا فى هذا الكتاب ، هذا بالإضافة إلى النصائح الغالية التى نالت استحسان الأطباء على مر العصور ، خاصة فى مجال الغذاء مثل : « حَسْب ابن آدم لُقَيْمَاتٍ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فإنْ كَانَ لابُدَّ فاعلاً فثلث لِطَعَامِهِ ، وثُلُث لِشَرَابِهِ ، وثلث لِنَفَسِهِ » و « ماملأ ابنُ آدمَ وعاءً شرًّا مِنْ بطنه » و« نحنُ قَوْمٌ لانأكُل حَتَّى نَجُوعَ ، وإذَا أَكَلْنَا لانَشْبَع » وغيرها كثير .

هذا وقد كان المسلمون يستشفون بالقرآن الكريم من الأمراض البدنية والنفسية إيماناً بقوله تعالى : ﴿ وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ﴾[٥] و ﴿ هو للذين آمنوا هدى وشفاء ﴾[٦] .

وغير ذلك من آيات الشفاء فى القرآن . وكان النبى ﷺ يقول « من لم يَسْتَشْفِ بالقرآن فلا شَفَاهُ الله » من هُنا ندرك أهمية الاستشفاء بالقرآن لدى الإنسان المؤمن بالله ورسوله ، وقد ثبت بالتجربة أن القرآن شفى الكثير من الأمراض النفسية والجسمية التى استعصى على الطب علاجها .

ازدهار الطب فى الدولة الإسلامية :

وبعد أن غمر الإسلام بنوره أرجاء الجزيرة العربية وغيرها من البقاع التي رفرفت عليها رايته ، ازدهر الطب فى الدولة الإسلامية ازدهاراً كبيراً ، وأنجب للبشرية علماء

---

(٤) تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ، للدكتور عبد الحليم منتصر . طبعة دار المعارف .

(٥) سورة الإسراء — الآية ٨٢ .

(٦) سورة فصلت — الآية ٤٤ .

وفلاسفة وأطباء يشار إليهم بالبنان ، ويعترف بفضلهم العالم أجمع ، بدءاً بالحارث بن كَلَدَة الثقفي ، وابن أبي رمثة ، وكان عالماً بصناعة اليد ، وصناعة الجراح ، والحَكَم بن أبي الحكم الدمشقي ، وولده عيسى ، وابن أبجر الكناني ، وأحمد بن حفصون وغيرهم .

وظهر العديد من الأطباء في العصرَيْن : الأموى والعَباسي ، خاصة بعد ازدهار الترجمة ، واهتمام المسلمين بترجمة كتب أبقراط وجالينوس وديسقوريدس وغيرهم من أساطين الطب اليوناني .. وأشهر هؤلاء الأطباء أبو بكر الرازى ، الطبيب والفيلسوف الإسلامى الكبير ، وابن سينا ، وابن النفيس ، وابن رشد ، وابن زهر ، وغيرهم كثير(٧) .

ويحدثنا التاريخ عن وجود طبيبات عربيّات بارزات مثل زينب الأودية ، في العصر الأموى ، وقد ورد ذكرها في كتاب « الأغاني لأبي الفرج الأصبهاني » وغيرها .

آراء حول الطب النبوى :

أما الطب النبوى الذى نحن بصدده فقد تعددت حوله آراء العلماء ، هل هو صادر عن وحى إلهي ، أو يعتمد على تجارب الرسول ومعارفه المتداولة في بيئته العربية ؟ يرى ابن خلدون فيه أن الرسول ﷺ استمده من البيئة العربية وليس عن وحى (٨) ، ويوافقه

---

(٧) انظر كتاب « طبقات الأطباء لابن جلجل وتاريخ الأطباء والفلاسفة » تحقيق فؤاد سيد ـــ طبعة مؤسسة الرسالة .

(٨) يقول ابن خلدون في « مقدمته » حينما تحدث عن الطب عند العرب :« للبادية من أهل العمران طب يبنونه في غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص ، ويتداولونه متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه ، وربما يصح منه البعض ، إلا أنه ليس على قانون طبيعي ، ولا عن موافقة المزاج . وكان عند العرب من هذا الطب كثير ، وكان فيهم أطباء معروفون كالحارث بن كَلَدة ، وغيره . والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل ، وليس من الوحي في شيء ، وإنما هو أمر كان عاديًّا للعرب ، ووقع في ذكر أحوال النبى ـــ ﷺ ـــ من نوع ذكر أحواله التي هى عادة وجِبِلَّه ، لا من جهة أن ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل ، فإنه ـــ ﷺ ـــ إنما بعث ليعلمنا الشرائع ، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات . وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » فلا ينبغي أن يُحْمَلَ شَيْءٌ من الذى وقع من الطب الذى وقع في الأحاديث الصحيحة المنقولة على أنه مشروع ، فليس هناك ما يدل عليه ، اللَّهُم إلّا إنِ استُعملَ على جِهَةِ التَّبرُّكِ ، وصِدْقِ العقد الإيماني ، فيكون له أثر عظيم في النفع . وليس ذلك من الطب المزاجيّ ، وإنما هو من آثار الكلمة الإيمانية ، كما وقع في مداواة المبطون بالعسل ونحوه » أ . هـ (انظر مقدمة ابن خلدون ـــ الفصل الخامس والعشرين – طبعة دار الكتاب اللبناني صفحة ٩١٧ – ٩١٩ . وطبعة الشعب صفحة ٤٦٤ ، ٤٦٥) .

في ذلك الدكتور عبد المنعم النمر[٩] مُخَالِفَيْنِ بذلك رأى ابن القيم ، الذى يرى أن طبّ رسول الله — ﷺ — ليس كطب الأطباء ، بل هو طب مُتَيَقَّنٌ قَطْعِيٌّ إلٰهي ، صادر عن الوحي ومشكاة النبوة ، وطب غيره أكثره حَدْسٌ وظُنون وتجارب .

والطب النبوى ينتفع به من تلقاه بالقبول واعتقاد الشفاء عليه ، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان ، فهذا الطب لايناسب إلا الأبدان الطيبة ، كما أن شفاء القرآن لايناسب إلا الأرواح الطيبة ، والقلوب الحية .

وهناك كتب متعددة عن الطب النبوى ، غير هذا الكتاب ، منها الطب النبوى للعالم الإمام شمس الدين الذهبي ، والطب النبوى لأبي نعيم الأصبهاني ، والطب النبوى لضياء الدين المقدسي ، وغيرهم .

ومازال أطباء المسلمين وغيرهم يكتبون عن هذا الطب النبوى إلى يومنا هذا ، مؤيدين له ، ومعززين رأيهم فيه بالعلم والتجربة ، خاصة بعد التقدُّم المذهل في العلوم الطبية والتقنية في هذا العصر .

---

(٩) ذكر الدكتور/ عبد المنعم النمر في كتابه « السنة والتشريع » أن الأقوال النبوية في أمور الطب والصحة « روشتات » مبنية على معارف وتجارب بشرية ، وأنها ليست ناتجة عن وحي من الله على رسوله ، شأنها شأن الأمور البشرية أو الآراء التي أصدرها الرسول ، أو الأفعال التي فعلها بناء على رأى واجتهاد له خاص ، كأمور الزراعة أو الحرب وخططها ، والمعاهدات ، والمفاوضات التي يقوم بها ، ويقرر أنه فعلها اجتهاداً منه ... أو الآراء والأفعال التي صدرت عنه عن طريق التجربة في الحياة ، أو عن طريق الجِبِلَّة والطبيعة البشرية ، كالأكل ، والنوم والتزاور .. إلخ ، هذه الأمور ليست من الشرع الذى أُمِرَ الرسول بتبليغه ، أو الذى كان من الوحى ، أو محروساً به ، وإنما هى من الأمور البشرية التى لا يُعَدّ قول الرسول أو فعله فيها تشريعاً ولا شبه تشريع ... ومثل ذلك تماماً ماصدر عن الرسول في شئون الطب ، فأغلبها — إن لم يكن كلها — من الأمور والتجارب والمعارف البشرية المعروفة قبل بعثته — ﷺ — وليست عن وحى — وليس لنا أن نقول عن الرسول فيها (وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى) بل هى تجارب ومعلومات قد يكون فيها صدق وفائدة عندهم من الناحية العملية .. فلسنا بصدد إنكار ماقد كان أو يمكن أن يكون من فوائد في وصفات الرسول العلاجية ، فهى وصفات قائمة على تجارب بشرية لا معملية ، وبعض الناس تناقلوها ، ولايزال بعضهم يتناقلونها ويعالجون أنفسهم بها ، وثبت لهم على مر الزمان والاستعمال أنها تفيد أحياناً ، كما نتناقل نحن الآن بعض الوصفات من النباتات في العلاج ، مع وجود الطب ، أو حين نيأس منه ، ونرى فائدة مَّا في استعمالها ، فهى تجارب استعمال لا تجارب معمل ، إذ لم يكن في ذلك الوقت معامل وتحاليل كما هو الآن ... »

(انظر كتاب فى رحاب السيرة والسنة – الجزء الأول – « السنة والتشريع » للدكتور عبد المنعم النمر صفحة ٩٧ — ٩٩ — طبعة دار الكتاب المصرى — اللبنانى) .

ابن القيم والطب النبوى :

إن ابن القيم حين تناول موضوع الطب النبوى تناوله بحسٍّ العالم الواعي ، والطبيب المتمكن ، فجاء كتابه هذا موسوعة طبية إسلامية جامعة .. ونال استحسان كثير من العلماء في عصره وحتى يومنا هذا ، يؤيد ذلك تعدُّد طبعاته التي صدرت عن دور النشر المختلفة في سائر أقطار العالم العربي ، وكثرة ذيوعه وانتشاره بين العامة والخاصة .

مكانة ابن القيم العلمية :

هو العالم الكبير شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن حريز الزرعي الدمشقي ، الشهير بابن قيم الجوزية ، نسبة إلى المدرسة التي أنشأها محيى الدين أبو المحاسن يوسف بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزى ، المتوفي سنة ٦٥٦ هجرية ، ولأن أباه كان قَيِّماً عليها .

ولد ابن القيم في السابع من شهر صفر سنة ٦٩١ هـ في قرية زرع من قرى حوران ، التي تبعد عن دمشق بحوالي ٥٥ ميلاً ، وكان ــ رحمه الله ــ واسع العلم ، غزير المعرفة ، امتدحه كثير من العلماء ، فقال عنه القاضي برهان الدين الزرعي : « ماتحت أديم السماء أوسع علماً منه ... ودرَّس بالصدريّة ، وأَمَّ الجَوْزية مدة طويلة ، وكتب بخطه مالا يوصف كثرة ، وصنَّف تصانيف كثيرة جدًّا في أنواع العلوم ، وكان شديد المحبة للعلم وكتابته ، ومطالعته وتصنيفه ، واقتناء كتبه ، واقتنى من الكتب مالم يحصل لغيره ، فمن تصانيفه كتاب « تهذيب سنن أبي داود » وإيضاح مشكلاته ، والكلام على مافيه من الأحاديث المَعْلُولة وكتاب « سفر الهجرتين وباب السعادتين » وكتاب « مراحل السائرين » وكتاب « زاد المسافرين » ، وكتاب « زاد المعاد ، في هدى خير العباد » (ومنه هذا الكتاب) وكتاب « أعلام المُوقِّعين عن رب العالمين » وكتاب « حادى الأرواح إلى بلاد الأفراح » . وكتاب « الروح » ، وغير هذه الكتب كثير ، مابَيْنَ مخطوطٍ ومطبوع »[١٠] .

ولا غَرْو في ذلك ، فقد تتلمذ على القاضي تقي الدين بن سليمان ، وعلى والده ، وعلى شيخ الإسلام الإمام تقي الدين أحمد بن تيمية ، ولازمه ، وأخذ عنه ، فصار مِثْله

---

(١٠) انظر شذرات الذهب في أخبار مَنْ ذَهب لأبي الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلي ، جزء ٦ صفحة ١٦٩ ، ١٧٠ ط دار المسيرة .

عالماً فذًّا مُتفنِّناً في علوم الإسلام ، وكان كما يقول تلميذه الحافظ ابن رجب : « عارفاً بالتفسير ، لايُجارَى فيه ، وبأصول الدين ، وإليه فيه المنتهى ، وبالحديث ومعانيه وفقهه ، ودقائق الاستنباط منه ، لايُلْحَق في ذلك ، وبالفقه وأصوله العربية ، وله فيها اليد الطُّولَى ، وبعلم الكلام ، وغير ذلك »[11] .

وتخرج على يديه تلاميذ نالوا مثل شهرته ، منهم : الحافظ الذهبي ، والقاضي برهان الدين الزرعي ، وابن حجر العسقلاني ، صاحب فتح البارى ، والحافظ ابن كثير ، صاحب التفسير المشهور ، وغيرهم . قال ابن كثير عن أستاذه ابن القيم : « .... كان حسن القراءة والخلق ، كثير التودد ، لايحسد أحداً ولايؤذيه ، ولايحقد على أحد ، ولا أعرف في هذا العالم في زماننا أكثر عبادة منه »[12] .

تُوفى — رحمه الله — فى الثالث عشر من شهر رجب سنة ٧٥١ هـ ، ودُفِنَ بمقبرة الباب الصغير بدمشق[13] .

طبعات الطب النبوى لابن القيم :

ونظراً لما لكتاب الطب النبوى من أهمية في مجاله ، فقد صدرت منها عدة طبعات ، منها :

(أ) طبعة دار الوعي في حلب صدرت سنة ١٤٠٦ هـ ، وقام بتحقيقها الدكتور/ عبد المعطي قلعجي ، وطُبعت ٦ طبعات — وقد صدرت الطبعة الأولى منها سنة ١٣٩٨ هـ ، وقد اعتمد المحقق في نشرها على مخطوطة بدار الكتب المصرية تحت رقم (١٦٢٧ طب) وكتبت سنة ١١٦٣ هـ ، وعدد صفحاتها ٤٧٦ صفحة . واعتمد أيضاً على كتاب « الطب النبوى » الذى طُبِعَ في القاهرة بإشراف الشيخ عبد الغني عبد الخالق سنة ١٣٧٧ هـ ، وقابل النسختين ، وأثبت الفروق بينهما ، ويُحْمد للمحقق في هذه الطبعة جهوده الكبير الذى بذله فيها .

---

(١١) المصدر السابق

(١٢) البداية والنهاية لابن كثير ، جزء ١٤ صفحة ٢٣٤ .

(١٣)انظر ترجمته في الأعلام للزركلي ، جزء ٦ صفحة ٢٨٠ و ٢٨١ .

(ب) طبعة مؤسسة الرسالة : وقد أُفْرِدَتِ الجُزء الرابع من زاد المعاد ــ وهو الجزء الخاص بالطب النبوى ــ وقامت بطبعه ككتاب مستقل تحت عنوان : (الطب النبوى) ، وقد قام بتحقيقه العالمان الجليلان « شعيب الأرنؤوط » ، و« عبد القادر الأرنؤوط » ــ وهى طبعة بذل فيها المحققان جهداً كبيراً ، وحَظِيت بالثناء والتقدير عند أهل العلم والفضل .

(جـ) طبعة مكتبة الحياة : وقد أعدها المكتب العالمي للبحوث بإشراف الأستاذ/ عبد المنعم العاني سنة ١٤٠٧ هجرية ــ وغير ذلك من طبعات متعددة .

منهج التحقيق :

وقد قمت بمقابلة هذه النسخة على زاد المعاد (طبعة مؤسسة الرسالة) وبعض الطبعات المختلفة من الطب النبوى ــ والتي أشرت إليها من قبل ... ورجعت إلى الكثير من كتب السنة والمسانيد والتراجم ، وكتب الجرح والتعديل وما تيسر لي من الكتب التي لها صلة بهذا الكتاب وتخدم موضوعه ، مما هو مثبت في مراجع تحقيق الكتاب ومصادره .

ثم قمت بتصويب كثير من الأخطاء التي وقعت في الطبعات السابقة ، والتي سيلمسها القارئ في هوامش هذا الكتاب ، هذا بالإضافة إلى ضبط الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وتخريجها ، والإشارة إلى الأحاديث المطعون في صحتها ، من حيث الضعف أو الوضع ، وغير ذلك ، بعد الرجوع إلى مصدر الحديث وتَتَبُّع رواته ، كما قمت بضبط كثير من الألفاظ والعبارات الصعبة التي يلتبس نطقها أو فهمها على القارئ ، وشرحت مدلولها تيسيراً عليه .

وأخيراً ، فإنني أرجو من القارئ الكريم أن يتجاوز عمّا يكون قد فاتنى ، أو بدر منى من هنات بين ثنايا هذا الكتاب ، فإننى لست طبيباً وهذا العلم أكبر من أن يحيط به مثلى .

والله من وراء القصد ، وهو يهدى السبيل .

محمد فتحي أبو بكر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلواته على أشرف المرسلين ، محمد خاتم النبيين ، وآله وصحبه أجمعين .

أما بعد : فَهذِه فصول نافِعَةٌ في هَدْيِه[1] ﷺ ، فى الطِّبِّ الذي تَطَبَّب به[2] ، ووَصَفَه لغيره ، نبين[3] ما فيه من الحكمة التي تعجز عقول أكبر[4] الأطباء عن الوصول إليها ، [وأَنَّ نِسبَةَ طِبِّهم إليها كَنِسْبَةِ طِبِّ العَجائزِ إلى طِبِّهم[5]] فنقول — وبالله نستعين ، ومنه نستمدُّ الحَوْلَ والقُوة .

---

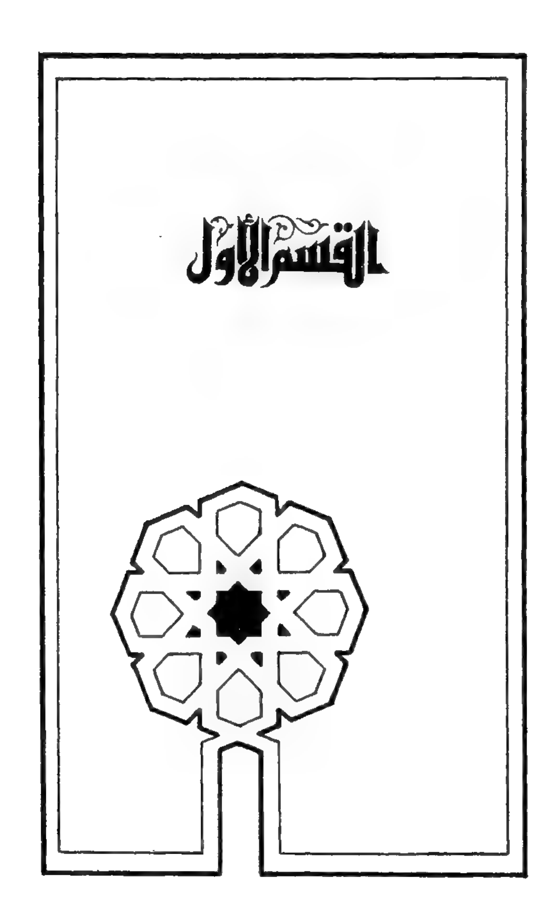
(١) الهَدْى : السيرة والطريقة .

(٢) تَطَبَّبَ بهِ : تداوَى وتعالَجَ .

(٣) فى زاد المعاد « وتبيِّن » .

(٤) فى الزاد « أكثر » .

(٥) ما بين المعقوفتين عن الزاد . وساقط من سائر النسخ .



القسم الأول

فصل

المَرضُ نَوْعَانِ : مَرَضُ القُلوبِ ، ومرضُ الأبدانِ[6] . وهما مَذْكُورانِ في القرآن .

ومرض القلوب نوعان : مرض شُبهة وشَكٍّ ، ومرض شَهْوَةٍ وَغَيٍّ . وكِلاهُمَا في القُرآن ؛ قَالَ تعَالَى في مرض الشُّبهة ﴿ **فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ، فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً** ﴾[7] . وقال تعالى ﴿ **وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْكَافِرُونَ : مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً** ﴾[8] . وقال تعالى في حَقِّ من دُعي إلى تَحكِيمِ القُرآنِ والسُّنَّة ، فَأَبَى وأَعْرَضَ : ﴿ **وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُم مُعْرِضُونَ. وَإِنْ يَكُن لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ. أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾[9] . فهذا مرض الشُّبهاتِ والشُّكوك .

وأما مَرضُ الشَّهواتِ ، فَقَال تَعالَى : ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ، إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ** ﴾[10] . فهذا مرضُ شَهْوَةِ الزِّنَى[11] . والله أعلم .

---

(٦) المراد بمرض القلوب : المرض النفسى . ومرض الأبدان هو المرض العضوى الذى يصيب الجسد بالخلل ، ويعطله عن أداء وظائفه كما ينبغى .

(٧) سورة البقرة – الآية ١٠ . والمرض هنا عبارة مستعارة للفساد الذى فى عقائدهم ، وذلك إمّا أن يكون شكاً ونفاقاً ، وإمّا جحداً وتكذيباً . وقيل : عِلل القلوب من اتباع الهوى ، كما أن علل الجوارح من مرض البدن [راجع تفسير القرطبى المجلد الأول ص ١٧٢] .

(٨) سورة المدثر – الآية ٣١ .

(٩) سورة النور – الآيات من ٤٨ – ٥٠ .

(١٠) سورة الأحزاب – الآية ٣٢ .

(١١) قيل : المراد بالمرض فى هذه الآية الشك والنفاق . وقيل . التشوّف والفضول ، وهوالفسق والغزل ، قاله عكرمة . وهذا أصوب ، وليس للنفاق مدخل فى هذه الآية [انظر تفسير القرطبى ، المجلد السادس – ص ٥٢٥٩] .

فصل

وأمّا مَرضُ الأبدان ، فَقَالَ تعَالَى : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَى حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ ، وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾[١٢] . وذكر مرض البدن في الحج والصوم والوضوء ، لسر بديع ، يبين لك عظمةَ القرآن ، والاستغناءَ به لمن فهمه وعَقَله ، عن سواه .

وذلك : أن قواعد طب الأبدان ثلاثة : حفظُ الصحة ، والحِمْيَةُ[١٣] عن المُؤْذِي ، وَاسْتِفراغُ المواد الفاسدة . فذكر سبحانه هذه الأصول الثلاثة ، في هذه المواضع الثلاثة ، فقال في آية الصوم : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنكُم مريضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾[١٤] . فأباحَ الفِطْرَ للمَريض لعُذر المرض ، وللمسافر ، طلباً لحفظ صحته وقوته ، لئلا يذهبها الصوم في السفر ، لاجتماع شِدَّةِ الحَركَة ، وما يُوجِبُه من التَّحْلِيلِ وعَدَمِ الغِذاء الذي يخلفُ ما تحَلّل ، فتخُورُ[١٥] القوة وتضعف . فأباح للمُسافر الفطرَ حفظًا لِصحَّتِه وقُوَّتِهِ عمَّا يُضعِفها .

وقَالَ في آية الحَجِّ : ﴿ فَمَنْ كَانَ مِنكُم مريضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ ، فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ﴾[١٦] . فأباح للمريض ومن به أذًى من رأسه — من قمل ، أو حِكَّة ، أو غيرهما — أن يحلق رأسه في الإحرام ، استفراغاً[١٧] لمادة الأبخرة الرَّدِيئة التي أَوْجَبَتْ له الأذَى في رَأسِه ، باحْتِقانِها تحت الشعر ، فإذا حلق رأسه تَفَتَّحَتِ[١٨] المسام ، فخرجت تلك الأبخرة منها ، فهذا الاستفراغ يُقاس عليه كُلُّ استفراغٍ يؤذي انحباسُه .

---

(١٢) سورة النور – الآية ٦١ .

(١٣) الحِمْيَة : الوقاية ، يقال : حَمَى المَريضَ حِمْيَةً : أيْ منعه ودفَع عنه ما يضره .

(١٤) سورة البقرة – الآية ١٨٤ .

(١٥) تخور : تضعف وتتكسر .

(١٦) سورة البقرة – الآية ١٩٦ . والنُّسُك : جمع نَسيكة ، وهى الذبيحة التى تُذبح تقرّباً إلى الله تعالى .

(١٧) الاستفراغ : الإخلاء والتخلّص .

(١٨) هكذا في الزاد ، وفى بعض النسخ « فتحت » .

والأشياء التي يؤذي انحِباسُها ومُدافَعتُها عَشرة : الدَّمُ إذا هاج ، والمَنِيُّ إذا تتابع[19] ، والبول ، والغَائِطُ[20] ، والرِّيحُ ، والقَيْءُ ، والعُطَاسُ ، والنَّوْمُ ، والجوعُ والعطشُ . وكل واحد ـــ من هذه العشرة ـــ يوجب حبسه داء من الأدواء بحسبه . وقد نبه سبحانه باستفراغ أدناها ـــ وهو البخار المحتقن في الرأس ـــ على استفراغ ما هو أصعب منه ، كما هي طريقة القرآن : التنبيهُ بالأدنى على الأعلى .

وأما الحِمْيَةُ ، فقالَ تعَالى في آية الوضُوء : ﴿ وَإِنْ كُنتُم مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّباً ﴾[21] : فأباح للمريض العدولَ عن الماء إلى التراب ، حِمْيَةً له ، أن يصيب جسدَه ما يؤذيه . وهذا تنبيه على الحِمية عن كُلِّ مُؤْذٍ له من داخلٍ أو خارج . فقد أرْشَدَ ـــ سُبحانَه ـــ عبادَهُ إلى أُصول الطِّبِّ [الثلاثة][22] ومجامعِ قواعده . ونحن نذكُر هَدْيَ رسول الله ﷺ في ذلك ، ونبينُ أن هَدْيَه فيه أكمل هَدْيٍ .

فأما طِبُّ القلوب ، فَمُسَلَّم إلى الرُّسُل ، صلواتُ الله وسَلامه عَليهم ، ولا سبيل إلى حصوله إلا من جهتهم وعلى أيديهم ، فإن صلاح القلوب أن تكون عارفةً بِرَبِّهَا وفاطِرِها ، وبأسمائه وَصِفَاته ، وأفعاله وأحكامه ، وأن تكون مؤثرةً لمرضاته ولِمَحَابِّه[23] ، متجنبةً لمَنَاهيه ومَسَاخِطه ، ولا صحة لها ولا حياة البتةَ إلا بذلك ، ولا سبيلَ إلى تلقِّيه إلا من جهة الرسل[24] . وما يُظَنُّ ـــ من حصول صحة القلب بدون اتِّباعهم ـــ فغلط ممن يَظن ذلك ، وإنما ذلك حياةُ نفسه البهيمية الشهوانية ، وصحتُها

---

(١٩) في الزاد « تبيّغ » بمعنى : ثار . يقال : تبيّغ الدم بفلان : أي ثار به حتى غلبه . ويقال أيضًا : تبوّغ به الدمُ فقتله .

(٢٠) الغائط : البراز .

(٢١) سورة النساء - الآية ٤٣ .

(٢٢) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٣) في الزاد « ومَحَابّه » .

(٢٤) يعني بقوله هنا : أنه لا سعادة للإنسان إلا بالتمسك بشريعة الله ، وأنّ صلاح النفوس يكون بمعرفتها بخالقها - سبحانه وتعالى - والسير على منهاجه القويم ، فتعمل بأوامر الله - تعالى - لتنال محبته ورضاه ، وتتجنب الأعمال التي نهى عنها ، والتي تثير غضبه وسخطه - والعياذ بالله - وإذا ما فعل الإنسان هذا يعيش مستريح النفس ، مطمئن القلب .

وقوَّتُها ، وحياةُ قلبه وصحته وقوته عن ذلك بمعزل ، ومن لم يميز بين هذا وهذا ، فليبك على حياة قلبه ، فإنه من الأموات ، وعلى نوره ، فإنه منغمس في بحار الظلمات .

فصل

وأمَّا طبُّ الأبدان ، فإنه نوعان : نوعٌ قد فطر الله عليه الحيوان ناطقَه وبهيمَه[٢٥] ، فهذا لا يُحتاج فيه إلى مُعالجة طبيب ، كطِبِّ الجوع والعطش ، والبرد والتعب ، بأضدادها وما يزيلها . **والثانى** : ما يحتاج إلى فكر وتأمل ، كدفع الأمراض المتشابهة الحادثة في المزاج ، بحيث يخرج بها عن الاعتدال ، إما إلى حرارة أو برودة ، أو يبوسة أو رطوبة ، أو ما يتركب من اثنين منها . وهي نوعان : إما ماديةٌ ، وإما كيفيةٌ : أعنى إما أن يكون بانصباب مادة ، أو بحدوث كيفية . والفرق بينهما أنّ أمراضَ الكيفية تكون بعد زوال الموادّ التي أوجبتها ، فتزول موادها ، ويبقى أثرها كيفية[٢٦] فى المزاج وأمراض المادة أسبابها معها تمدها . وإذا كان سبب المرض معه ، فالنظر في السبب ينبغي أن يقع أولاً ، ثم في المرض ثانياً ، ثم في الدواء ثالثاً .

أو الأمراض الآلية ، وهي التي تخرج العضو عن هيئته ، إمّا في شكل ، أو تجويف ، أو مجرى ، أو خشونة ، أو ملامسة[٢٧] ، أو عدد ، أو عظم ، أو وضع ، فإنّ هذه الأعضاء إذا تألّفت ، وكان منها البدن — سمي تألُّفها اتصالاً ؛ والخروج عن الاعتدال فيه يُسَمَّى تَفَرُّقَ الاتّصال .

أو الأمراض العامه التي تعم المتشابهة والآلية .

والأمراضُ المتشابهة هي التي يخرج بها المزاج عن الاعتدال ، وهذا الخروج يسمى مرضاً ، بعد أن يُضرَّ بالفعل إضرارًا محسوساً ، وهي على ثمانية أضرب : أربعة بسيطة ، وأربعة مركّبة . فالبسيطة[٢٨] البارد والحار ، والرطب واليابس . والمركّبةُ : الحار

---

(٢٥) فَطَرَ : خَلَقَ . والمراد بالحيوان ناطقه وبهيمه : الإنسان وذوات الأربع من الدواب .

(٢٦) هكذا فى الزاد . وفى بعض النسخ « كيفيًا » .

(٢٧) فى الزاد . « ملاسة » أى : لينٌ ونعومة .

(٢٨) هكذا فى الزاد . وفى سائر النسخ « والبسيطة » .

الرطب ، والحار اليابس ، والبارد الرطب ، والبارد اليابس . وهي إما أن تكون بانصباب مادة ، أو بغير انصباب مادة .

وإن لم يضر المرض بالفعل ، يسمى خروجاً عن الاعتدال صحة .

وللبدن ثلاثة أحوال : حال طبيعية ، وحال خارجة عن الطبيعية ، وحال متوسطة بين الأمرين . فالأولى بها يكون البدن صحيحاً ، والثانيةُ يكون بها مريضاً ، والحال الثالثةُ هي متوسطة بين الحالتين : فإن الضد لا ينتقل إلى ضدِّه إلَّا بمتوسط .

وسببُ خروج البدن عن طبيعته ، إمّا من داخله ، لأنه مركّب من الحار والبارد ، والرطب واليابس ، وإما من خارج ، فلأنّ ما يلقاه قد يكون موافقاً ، وقد يكون غير موافق .

والضررُ الذي يلحق الإنسان قد يكون من سوء المزاج ، بخروجه عن الاعتدال ، وقد يكون من فساد العضو ، وقد يكون من ضعف في القُوَى أو الأرواح الحاملة لها . ويرجع ذلك إلى زيادة ما الاعتدالُ في عدم زيادته ، أو نقصانِ ما الاعتدالُ في عدم نقصانه ، أو تفرُّقِ ما الاعتدالُ في اتصاله ، أو اتصالِ ما الاعتدالُ في تفرُّقه ، أو امتدادِ ما الاعتدالُ في انقباضه ، أو خروجِ ذي وَضْعٍ وشَكْلٍ عن وَضْعِهِ وشَكْلِه ، بحيث يُخرِجُه عن اعتداله .

فالطبيبُ هو الذي يفرقُ ما يضر بالإنسان جمعُه ، أو يجمعُ فيه ما يضرُّه تفرقُه ، أو ينقصُ منه ما يضرُّه زيادتُه ، أو يزيدُ فيه ما يضرُّه نقصُه ، فيجلبُ الصحة المفقودة ، أو يحفظُها بالشكل والشبه ، ويدفعُ العلةَ الموجودة بالضد والنقيض ويخرجُها ، أو يدفعها بما يمنع من حصولها بالحمية . وسترى هذا كله في هَدْي رسول الله ﷺ شافياً كافياً ، بحول الله وقوته ، وفضله ومعونته .

فصل

فكان من هَدْيه ﷺ فعلُ التداوي في نفسه ، والأمر به لمن أصابه مرض من أهله أو أصحابه[٢٩] . ولكن لم يكن من هَدْيه ولا هَدْيِ أصحابِه ، استعمالُ هذه الأدوية

(٢٩) في الزاد « وأصحابه » .

المركبة التي تسمى أقرباذين . بل كان غالب أدويتهم بالمفردات ، وربما أضافوا إلى المفرد ما يعاونه ، أو يكسر سَوْرته(٣٠) وهذا غالبُ طب الأمم على اختلاف أجناسها من العرب ، والترك ، وأهل البوادي قاطبةً . وإنما عُني بالمركبات الرومُ واليونانيون . وأكثرُ طب الهند بالمفردات .

وقد اتفق الأطباء على أنه متى أمكن التداوي بالغذاء لا يعدل [عنه] إلى الدواء ؛ ومتى أمكن بالبسيط لا يعدل [عنه](٣١) إلى المركب . قالوا : وكل داء قُدر على دفعه بالأغذية والحِمية ، لم يحاوَلْ دفعُهُ بالأدوية . قالوا : ولا ينبغي للطبيب أن يولَعَ بسقي الأدوية(٣٢) ، فإن الدواء إذا لم يجد في البدن داءً يحلّلُهُ ، أو وجد داءً لا يوافقه ، أو وجد ما يوافقه فزادت كميتُهُ عليه أو كيفيته ، تشبث بالصحة وعبث بها . وأربابُ التجارِب من الأطباء طِبُّهم بالمفردات غالباً ، وهم أحد فِرَق الطب الثلاث .

والتحقيقُ في ذلك أن الأدوية من جنس الأغذية ، فالأمة(٣٣) والطائفة التي غالب أغذيتها المفردات أمراضُها قليلة جدًّا ، وطبُّها بالمفردات . وأهل المدن الذين غلبتْ عليهم الأغذية المركبة ، يحتاجون إلى الأدوية المركبة . وسببُ ذلك أنّ أمراضهم في الغالب مركبةٌ ، فالأدوية المركبة أنفعُ لها . وأمراض أهل البوادي والصحاري مفردةٌ ، فيكفي في مداواتها الأدويةُ المفردة . فهذا برهان بحسب الصناعة الطبية .

ونحن نقول : إن ها هنا أمرًا آخر نسبةُ طب الأطباء إليه ، كَنِسْبَةِ طِبِّ الطُّرَقِيَّةِ(٣٤) والعجائز إلى طبهم . وقد اعترف به حُذَّاقهم وأئمتهم ، فإن ما عندهم من العلم بالطب منهم من يقول : هو قياس ، ومنهم من يقول : هو تجربة ، ومنهم من يقول : إلهاماتٌ ومناماتٌ وحَدْسٌ(٣٥) صائبٌ ؛ ومنهم من يقول : أُخذ كثير منه من الحيوانات البهيمية ،

---

(٣٠) سَوْرَته : شِدَّته وحِدَّته .

(٣١) ما بين المعقوفتين عن الزاد – في الموضعين – وساقط من سائر النسخ .

(٣٢) من المعروف أن الدواء سلاح ذو حدَّيْن ، إذا أُسِيءَ استخدامه فقد يؤدى إلى مضاعفات لا يحمد عقباها .

(٣٣) هكذا في الزاد . وفي سائر النسخ « والأمّة » .

(٣٤) الطُّرَقِيَّة : من الطَّرْقِ ، وهو الضَّرْبُ بالحصى ، وهو نوع من التكهن . وقيل : الطَّرْق أن يخلط الكاهن القطن بالصوف فيتكهن . وقيل : هو الخَطُّ في الرمل . [انظر لسان العرب – مادة طرق]

(٣٥) الحَدْس : الظَّنُّ والتَّخمين ، ويُطلق أيضًا على الفراسة .

كما نشاهد السنانير[٣٦] إذا أكلتْ ذواتِ السموم تَعْمِدُ إلى السِّراج،[٣٧] فتلغ في الزيت تتداوى به . وكما رُؤيت الحَيَّات إذا خرجت من بطون الأرض ــ وقد غَشِيَتْ أبصارُها ــ تأتي إلى ورق الرازيانج[٣٨] ، فتمرّ عيونها عليها . وكما عُهد من الطير الذي يحتقن بماء البحر عند انحباس طبعه . وأمثال ذلك مما ذكر في مبادئ الطب .

وأين يقع هذا وأمثالهُ من الوحي يوحيه الله إلى رسوله بما ينفعه ويضره ؟! فنسبةُ ما عندهم من الطِّبِّ إلى هذا الوَحْي ، كنسبة ما عندهم من العلوم إلى ما جاءت به الأنبياء . بل ها هنا من الأدوية التي تشفي من الأمراض ، مالم يهتد إليها عقولُ أكابر الأطباء ، ولم تصل إليها علومهم وتجاربهم وأقيستهم ، من الأدويةِ القلبية والروحانية ، وقوةِ القلب ، واعتمادِه على اللهِ والتوكلِ عليه ، والالتجاء إليه ، والانطراحِ والانكسارِ بين يديه ، والتذللِ له ، والصدقةِ والدعاءِ ، والتوبةِ والاستغفار ، والإحسانِ إلى الخلق ، وإغاثةِ الملهوف ، والتفريج عن المكروب ، فإن هذه الأدوية قد جَرَّبَتْهَا الأمم ــ على اختلاف أديانها ومِلَلِهَا ــ فوجدوا لها من التأثير في الشفاء مالا يصل إليه علم أعلم الأطباء ، ولا تجربتُه ، ولا قياسُه .

وقد جربنا نحن وغيرنا من هذا أمورًا كثيرة ، ورأيناها تفعلُ مالا تفعلُ الأدويةُ الحِسِّيَّةُ ، بل تصيرُ الأدوية الحِسِّيَّةُ عندها بمنزلة الأدوية الطُّرُقِيَّةِ عند الأطباء . وهذا جارٍ على قانون الحِكْمَة الإلهية ، ليس خارجاً عنها ، ولكن الأسباب متنوعة ، فإن القلب متى اتصل بربِّ العالمين ، وخَالِقِ الدَّاء والدَّوَاء ، ومُدَبِّرِ الطَّبِيعَة ومُصرفِّها على ما يشاء ــ كَانَتْ له أدْوِيةُ أُخْرَى غيرُ الأدوية التي يُعانيها القلبُ البعيدُ منه ، المعرضُ عنه .

وقد عُلِمَ أن الأرواح متى قَوِيَتْ ، وقَوِيَتِ النَّفْسُ والطَّبِيعَةُ ، تعاونا على دفع الداء وقهره ، فكيف يُنكر لمن قويتْ طبيعتُه ونفسُه ، وفرحت بقربِها من بارئها وأُنْسِها به

---

(٣٦) السَّنانير : جمع سِنَّوْر ، وهو القط .

(٣٧) السِّراج : المصباح .

(٣٨) الرازيانج : هو الشَّمَرَةُ ، أو الشَّمَار ، بقلة من الفصيلة الخيمية ، ومنه نوع حلو يُزرع ، ويؤكل ورقه وسوقه نِيئًا ، ومطبوخًا . وجاء في القانون لابن سينا أنَّ بذر الرازيانج يشبه بذر الكرفس - أي البقدونس البري الكبير . وهو يفتح السّدد ، ويحدّ البصر - أي يجعله حادًا قويًا - وزعم أبقراطس أن الهوام ترعى بذر الرازيانج الطَّري ليتقوى بصرها . كما ذكر أيضاً أنّ الحيات تحك بأعينها عليها إذا خرجت من مأويها بعد الشتاء فتضوء العين . [انظر القانون في الطب - الأدوية المفردة ص ٢٩٥] .

وحُبِّها له ، وتنعُّمِها بذكره ، وانصرافِ قُواها كُلِّها إليه ، وجَمْعِها عليه ، واستعانتِها به ، وتوكلِّها عليه — أن يكونَ ذلك لها من أكبر الأدوية ، وتُوجب لها هذه القوة دفع الألَم بالكلية* ؟! ولا يُنْكِرُ هذا إلا أجهلُ الناس ، وأغْلَظُهم[39] حجاباً ، وأكثفُهم نفساً ، وابعدَهم عن الله وعن حقيقة الإنسان[40] وسنذكر — إن شاء الله — السببَ الذي به أزالتْ قراءةُ الفاتحة داءَ اللَّدْغَةِ عَنِ اللَّدِيغ[41] ، التي رُقِي بها ، فقام حتى كان ما به قَلَبة[42] .

فهذان نوعان من الطب النبوي ، نحن — بحول الله — نتكلم عليهما بحسب الجهد والطاقة ، ومبلغ علومنا القاصرة ، ومعارفنا المتلاشية جدًّا ، وبضاعتنا المُزْجاة[43] . ولكنا نَسْتَوْهِبُ مَنْ بِيَدِهِ الخَيْرُ كُلُّه ، ونستمدُّ مِنْ فَضْلِه . فإنه العزيز الوَهَّاب .

فصل

روى مسلم في صحيحه — من حديث أبي الزُّبَيْر ، عن جابر بن عبد الله ، عن النبي ﷺ — أنه قال : « لِكُلِّ دَاءٍ دواء ، فإذَا أُصيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ »[44] .

وفي الصحيحين[45] : عن عطاءٍ ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أنزل اللهُ من داءٍ ، إلا أنزل لهُ شِفاءً[46] » .

(*) في بعض النسخ « بالكلمة » .

(٣٩) هكذا في الزاد ، وفي سائر النسخ « وأعظمهم » .

(٤٠) في الزاد « الإنسانية » .

(٤١) اللديغ : الملدوغ . وهو الذي لدغته الحية أو العقرب . ويطلق على المذكر والمؤنث .

(٤٢) القَلَبة : الإصابة بالقُلاب ، وهو داء يأخذ بالقلب . وقيل : هو داء يأخذ الإبل في رءوسها فيقلبها إلى أعلى . ويقال : ما بالمريض قَلَبَة : أي عِلَّة يُقلب منها أو ألم .

(٤٣) المزجاة : القليلة .

(٤٤) أخرجه مسلم في باب لكل داء دواء ، واستحباب التداوي [ج ١٤ ص١٩١] .

(٤٥) الصحيحان هما : صحيح البخاري ، وصحيح مسلم .

(٤٦) هذا الحديث لم يُرْوَ في صحيح مسلم ، ورُوِي في صحيح البخاري في كتاب الطب - باب ما أنزل الله داءً إلا أنزل له شفاء [ج ١٠ ص ١٣٤ من فتح الباري شرح صحيح البخاري] . ورواه ابن ماجه في سننه في كتاب الطب [ج٢ ص ١١٣٨] وفي الزوائد : إسناده حَسَن .

وفي مُسند الإمام أحمد ، من حديث زياد بن علاقةَ ، عن أُسامةَ بنِ شريكٍ ، قال : « كنت عند النبي ﷺ ، وجاءت الأعرابُ ، فقالوا : يارسول الله ؛ أَنَتَدَاوَى ؟ فقال : نعم يا عباد اللّهِ ، تَدَاوَوْا : فإن الله عز وجل لم يضَع داءً ، إلا وَضَع له شِفاءً ، غير داءٍ واحدٍ . قالوا : ما هو ؟ قال : الهرم(٤٧) » . وفي لفظ : « إنَّ اللَّهَ لم يُنْزِلْ داءً ، إلا أنزل له شفاءً ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ ، وجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ » وفي المسند ـــ من حديث ابن مسعود يرفعه « إن اللهَ عز وجل لم ينزل داءً ، إلا أنزل له شفاءً ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَه وَجَهِلَهُ مَنْ جَهِلَهُ(٤٨) » .

وفي المسند والسنن ، عن أبي خُزَامةَ ، قال : « قلت يارسول اللهِ ، أرأَيْتَ رُقىً نَسْتَرْقِيهَا ، ودواءً نتداوى به ، وتُقَاةً نَتَّقِيهَا ، هل تَرُدُّ من قَدَرِ اللهِ شيئاً ؟ فقال : هي من قدرِ اللهِ(٤٩) » .

فقد تضمنت هذا الأحاديث إثبات الأسباب والمسبَّبات ، وإبطال قولِ مَن أنكرها .

ويجوز أن يكون قوله : « لكل داءٍ دواءً » ، على عمومه ، حتى يتناول الأدواءَ القاتلة ، والأدواء التى لا يمكن طبيباً(٥٠) أن يُبرئها . ويكون الله عز وجل قد جعل لها أدويةً تُبرئها ، ولكن طَوَى علمها عن البشر ، ولم يجعل لهم إليه سبيلاً ، لأنه لا علم للخلق إلا ما علمهم الله ، ولهذا علق النبي ـــ ﷺ ـــ الشفاءَ ، على مصادفة الدواء للداء . فإنه لا شيء من المخلوقات إلّا له ضدّ ، فكل(٥١) داء له ضدّ من الدواء ، يعالج

---

(٤٧) الحديث رواه أيضاً الترمذى فى الطب ، باب ما جاء فى الدواء والحث عليه [ج ٨ ص ١٩٢] وقال عنه : حسن صحيح . ورواه ابن ماجه أيضاً فى كتاب الطب [ج٢ ص١١٣٧] وقال : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات . ورواه أبو داود فى سننه فى كتاب الطب أيضاً ، باب الرجل يتداوى . باختلاف يسير فى لفظه [ج ٤ ص ٣] .

(٤٨) رواه ابن ماجه ماعدا قوله « عَلِمَه مَنْ علمه ، وجهله مَنْ جهله » ورجاله ثقات[ج٢ ص ١١٣٨] .

(٤٩) أخرجه الترمذى وابن ماجه بالمعنى [ج ٢ ص ١١٣٧] وفى سنن ابن ماجه « أرأيت أدوية نتداوى بها ، ورقىً نسترقى بها ، وتُقًى نتَّقيها ... » أرأيت : أى أخبرنى عن هذه الأشياء . رُقًى : جمع رُقْيَة ، وهى العُوذَةُ أو التميمة التى يَرقى بها المريض ونحوه طلباً للشفاء . هى من قَدَر الله : يعنى أنه – تعالى – هو الذى قَدَّر الأسباب والمسببات ، وربط المسببات بالأسباب ، فحصول المسببات عند حصول الأسباب من جملة القدر .

(٥٠) فى الزاد « لا يمكن لطبيب » . كثير من الكُتّاب يعدُّون الفعل « أمكن » باللام ، فيقولون : « لا يمكن له أن يفعل ذلك » وكأنهم يجرونه مجرى تهيّأ وتَيَسَّر وتَسَهَّل ونحوها . وفى اللغة : أمكن فلاناً الأمر » : سهل عليه وتيسّر له . فالصواب أن يقال : « لا يمكنه أن يفعل ذلك » بترك اللام .

(٥١) فى الزاد « وكل » .

بضدّه . فعلق ــ النبي ﷺ ــ البرءَ ــ بموافقة الداء للدواء . وهذا قدر زائدٌ على مجرد وجوده ، فإن الدواء متى جاوز درجة الداء في الكيفية ، أو زاد في الكمية على ما ينبغي ــ نقله إلى داء آخرَ . ومتى قصر عنها لم يَفِ بمقاومته ، وكان العلاج قاصرًا . ومتى لم يَقَع المُداوِي على الدواء [أوْ لم يقع الدَّواء على الدّاء](٥٢) لم يَحْصُلِ الشِّفاء . ومتى لم يكن الزمان صالحاً لذلك الدواء لم ينفع . ومتى كان البَدنُ غيرَ قابل له(٥٣) ، أو القوةُ عاجزةً عن حمله ، أو ثَمَّ(٥٤) مانعٌ يمنعُ من تأثيره ــ لم يحصُلِ البرء ، لعدم المصادفة ، ومتى تمّت المصادفة حصل البرءُ [بإذن الله](٥٥) ولا بدَّ . وهذا أحسنُ المَحْمَلَيْن في الحديث .

والثاني : أن يكون من العام المرادِ به الخاصُّ ، لاسيما والداخلُ(٥٦) في اللفظ أضعاف(٥٧) الخارج منه . وهذا يُستعملُ في كلِّ لسان . ويكونُ المراد : أن الله لم يضع داءً يقبلُ الدواء ، إلّا وضع له دواءً . فلا يَدخلُ في هذا الأَدْواءُ التي لا تَقبلُ الدواء . وهذا كقوله تعالى في الريح التي سلطها على قوم عاد : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾(٥٨) أي : كلَّ شيء يقبلُ التدميرَ ، ومن شأنِ الريح أن تدمره . ونظائرُه كثيرةٌ .

ومَن تأمل خلْقَ الأضداد في هذا العالم ، ومقاومةَ بعضِها لبعض ، ودفْعَ بعضِها ببعض ، وتسليطَ بعضِها على بعض ــ تبيَّن له كمالُ قدرةِ الرب تعالى وحِكمتِه وإتقانِه ما صنعه ، وتفردُه بالربوبية والوحدانية والقهر ، وأنّ كل ما سواه فله ما يُضادُّه ويُمانِعُه ، كما أنّه الغنيُّ بذاته ، وكلُّ ما سواه محتاجٌ بذاته .

وفي[هذه](٥٩)الأحاديث الصحيحة ، الأمرُ بالتداوي ، وأنه لا يُنافي التوكلَ ، كما لا

---

(٥٢) ما بين المعقوفتين زيادة عن الزاد .

(٥٣) أي : لم يتقبله الجسم ، مثل حساسية الإنسان ضد دواء معين .

(٥٤) ثَمَّ : هناك .

(٥٥) ما بين المعقوفتين زيادة عن الزاد .

(٥٦) يخطِّئ بعض علماء اللغة زيادة الواو بعد « لا سيما » والأفضل أن يقال :« ولا سيما الداخل » .

(٥٧) في الزاد « أضعاف أضعاف » .

(٥٨) سورة الأحقاف – الآية ٢٥ .

(٥٩) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

يُنافيه دفعُ داء الجوع والعطش والحرّ والبرد بأضدادها ؛ بل لا تتم[٦٠] حقيقه التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التى نَصَبها الله مقتضياتٍ لمسبَّباتها قدرًا وشرعاً ، وإن تعطيلَها يقدح في نفس التوكل ، كما يقدح في الأمر والحكمة ، ويُضعفُه من حيث يظن مُعطِّلُها أنَّ تركها أقوى فى التوكل ، فإنَّ تَرْكَها عجزًا ينافي التوكلَ الذي حقيقته اعتمادُ القلب على الله في حصولِ ما ينفعُ العبدَ في دينه ودنياه ، ودفْعِ ما يضره في دينه ودنياه . ولا بد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب ، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع . فلا يجعلُ العبدُ عجزَهُ توكلاً ، ولا توكلَه عجزًا .

وفيها : ردٌّ على مَن أنكر التداويَ ، وقال : إن كان الشفاء قد قُدر فالتداوِي لا يفيدُ وإن لم يكن [قد][٦١] قُدِّرَ فكذلك . وأيضاً فإن المرض حصل بقَدَرِ الله ، وقَدَرُ الله لا يُدْفَعُ ولا يُردُّ .

وهذا السؤالُ هو الذى أورده الأعراب على رسول الله ﷺ . وأما أفاضلُ الصحابة فأَعْلَمُ بالله وحكمته وصفاته ، من أن يُورِدوا مثلَ هذا .

وقد أجابهم النبي ﷺ بما شَفَى وكَفَى ، فقال : هذه الأدويةُ والرُّقَى والتُّقَى هي من قَدَرِ الله ، فما خَرَجَ شيءٌ عن قَدَرِه ، بل يُرَدُّ [قَدَرُه][٦٢] بقَدَرِه . وهذا الرَّدُّ مِنْ قَدَرِه . فلا سبيل إلى الخروج عن قَدَرِه بوجه ما ، وهذا كردِّ قَدرِ الجوع والعطش ، والحر والبرد بأضدادها ، وكَرَدِّ قَدَرِ العدو بالجهاد ، كُلٌّ من قَدَرِ الله : الدافِعُ ، والمدفوعُ ، والدَّفْعُ .

ويقال لمُورِد هذا السؤال : هذا يُوجِبُ عليك أن لا تباشر سبباً من الأسباب التي تَجْلِبُ بها مَنفعة ، أو تدفعُ بها مَضَرَّة . لأن المنفعة والمضرة إن قُدِّرتا لم يكن بدٌّ من وقوعهما ، وإن لم تُقدَّرا لم يكن سبيلٌ إلى وقوعهما . وفي ذلك خرابُ الدِّين والدنيا ، وفسادُ العالَم . وهذا لا يقوله إلا دافعٌ للحق ، معاندٌ له ، فيَذكُر القَدَرَ ليدفعَ حُجةَ

---

(٦٠) هكذا فى الزاد ، وفى سائر النسخ « لايتمّ » .

(٦١) ما بين المعقوفتين زيادة عن الزاد .

(٦٢) ما بين المعقوفتين زيادة عن الزاد .

المُحِقُّ[٦٣] عليه . كالمشركين الذين قالوا ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا ﴾[٦٤] ، و ﴿ لَوْ شَاءَ اللهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا ﴾[٦٥] . فهذا قالوه دفعاً لحُجَّةِ الله عليهم بالرُّسُل .

وجوابُ هذا السائل أن يقال : بقي قسم ثالث لم تذكره ، وهو : أنَّ الله قدَّر كذا وكذا بهذا السبب ، فإنْ أتيتَ بالسَّبَبِ حصل المسبب ، وإلا فلا .

فإن قال : إن كان قدَّر لي السببَ فعلتُه ، وإن لم يقدره لي لم أتمكنْ من فعله .

قيل : فهل تَقبلُ هذا الاحتجاجَ من عبدِك وولدِك وأجيرِك ، إذا احتَجَّ به عليك — فيما أمرته به ، ونهيته عنه — فخالَفَك ؟ فإن قَبِلْتَه : فلا تَلُمْ مَن عصاك وأخذ مالَك ، وقَذف عِرْضَك ، وضيَّع حقوقَك . وإن لم تَقبلْه : فكيف يكونُ مقبولاً منك في دفع حقوق الله عليك ؟! .

وقد رُوي في أَثَرٍ يَهُودِيٍّ[٦٦] : « أن إبراهيم الخليلَ قال : ياربِّ ، مِمَّن الداءُ ؟ قال : مِنِّي . قال : فمِمَّن ٱلدَّوَاءُ ؟ قال : مني . قال : فَمَا بَالُ ٱلطَّبِيب ؟ قال : رَجُلٌ أُرْسِلُ ٱلدَّوَاءَ عَلَى يَدَيْهِ » .

وفي قوله ﷺ : « لكلِّ داءٍ دواءٌ » ، تقويةٌ لنفس المريضِ والطبيبِ ، وحَثٌّ على طلبِ ذلك الدواءِ والتفتيشِ عليه ، فإن المريض إذا استَشْعَرَتْ نفسُه أن لدائه دواءً يُزيلُه تعلَّقَ قلبُهُ بروح الرَّجاء ، وبَرِدَ من[٦٧] حرارة اليأس ، وانفَتَح له بابُ الرجاء . ومتى قويتْ نفسُه انبعثتْ حرارتُه الغريزية ، وكان ذلك سبباً لقوة الأرواح الحيوانية والنفسانية والطبيعية . ومتى قَوِيَتْ هذه الأرواح قَوِيَتِ القُوَى التي هي حاملةٌ لها ، فَقَهَرتِ المرضَ ودفعتْه . وكذلك الطبيب إذا علم أن لهذا الداءِ دواءً ، أمكنه طلبُه والتفتيشُ عليه .

---

(٦٣) هكذا بالزاد وفي بعض النسخ « لِمُحِقٍّ » . والمحق : هو الذي يقول الحق ، أو يُظهره .

(٦٤) سورة الأنعام – الآية ١٤٨ .

(٦٥) سورة النحل – الآية ٣٥ .

(٦٦) في الزاد وبعض النسخ « أَثَرٍ إسرائيليٍّ » .

(٦٧) في الزاد « وبردت عنده » .

وأمراض الأبدان عَلَى وِزَانِ أمراضِ القُلوب ، وما جَعَلَ اللهُ للقَلْبِ مرضاً إلا جعل له شفاء بضده ، فإنْ عَلِمَهُ صَاحِبُ الدَّاءِ وَاسْتَعْمَلَهُ ، وصادف داءَ قَلْبِه ، أبرأه بإذن الله تعالى .

فصل

في هَدْيِهِ ﷺ في الاحتماء من التخم ، والزيادة في الأكل على قدر الحاجة ، والقانونِ الذي ينبغي مراعاته في الأكل والشرب .

في المسند وغيره — عنه ﷺ — أنه قال : « ما مَلأَ آدَمِيٌّ وعاءً شَرًّا مِنْ بطنٍ ، بِحَسْبِ ابنِ آدمَ لُقَيْمَاتٌ يُقمنَ صُلْبَه ، فإنْ كَانَ لا بُدَّ فَاعِلاً : فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وثُلُثٌ لشَرَابِهِ ، وثُلُثٌ لِنَفَسِهِ »(٦٨) .

فصل

الأمراض نوعان : أمراضٌ مادية تكون عن زيادة مادة أفرطتْ في البدن حتى أضَرَّتْ بأفعاله الطبيعية ، وهي الأمراضُ الأكثريةُ ، وسببُها إدخالُ الطعام على البدن قبل هضم الأول ، والزيادةُ في القدر الذي يَحتاج إليه البدنُ ، وتناولُ الأغذيةِ القليلةِ النفع ، البطيئةِ الهضم ، والإكثارُ من الأغذية المختلفة التراكيب المتنوعة ، فإذا ملأ الآدميّ بطنه من هذه الأغذية ، واعتاد ذلك ، أورثته أمراضاً متنوعة ، منها بطيءُ الزوالِ أو سريعُه(٦٩) . فإذا توسط في الغذاء ، وتناول منه قدر الحاجة ، وكان معتدلاً في كميته وكيفيته ، كان انتفاعُ البدن به أكثر من انتفاعه بالغذاء الكثير .

ومراتبُ الغذاء ثلاثة : أحدها : مرتبة الحاجة . والثانية : مرتبة الكفاية . والثالثة : مرتبة الفضلة . فأخبر النبي ﷺ أنه يكفيه لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلبه ، فلا تسقط قُوَّتُه ولا تضعف معها ، فإنْ تجاوزَها فليأكل في ثُلُثِ بطنه ، ويدع الثلث الآخر للماء ، والثالث

---

(٦٨) رواه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب الاقتصاد فى الأكل وكراهة الشبع . [ج ٢ ص ١١١١] وفيه : حسب الآدميّ لقيمات : أى يكفيه لقيمات . صلبه : ظهره .

(٦٩) فى الزاد « وسريعه » .

للنَّفَس . وهذا من أنفع ما للبدن والقلب ، فإن البطن إذا امتلأ من الطعام ، ضاق عن الشراب . فإذا أُورد عليه الشراب ضاق عن النَّفَس ، وعرضَ له الكَرْبُ والتَّعَبُ ، وصار مَحْمَلُهُ[٧٠] بِمَنْزِلَةِ حامل الحمل الثقيل . هذا إلى ما يلزم ذلك من فساد القلب ، وكسل الجوارح عن الطاعات ، وتحركها في الشهوات التي يستلزمها الشِّبَعُ .

فامتلاءُ البطن من الطعام مضرٌّ للقلب والبدن ، هذا إذا كان دائماً أو أكثريًّا ، أما إذا كان في الأحيان ، فلا بأس به ، فقد شرب أبو هريرة بحضرة النبي ﷺ من اللبن ، حتى قال : « والَّذِي بعثكَ بالحقِّ لا أجدُ له مَسْلَكاً »[٧١] ، وأكل الصحابةُ بحضرته مرارًا ، حَتَّى شَبِعُوا . والشِّبَعُ المُفرط يُضعف القُوَى والبدن ، وإنْ أخصبَه ، وإنما يَقْوَى البدنُ بحسب ما يَقْبَلُ من الغذاء ، لا بِحَسَبِ كَثْرته .

ولما كان في الإنسان جزءٌ أرضيٌّ ، وجزءٌ هوائيٌّ ، وجزءٌ مائيٌّ ، قسم النبي ﷺ ، طعامَه وشرابَه ونفسَه ، على الأجزاء الثلاثة .

فإنْ قيل : فأين حَظُّ الجزء الناري[٧٢] ؟. قيل : هذه مسألةٌ تكلم فيها الأطباء ، وقالوا : إن في البدن جزءًا ناريًّا بالفعل ، وهو أحد أركانه وإسْطُقُسَّاتِهِ[٧٣] .

ونازعهم في ذلك آخرون من العقلاء — من الأطباء وغيرهم — وقالوا : ليس في البدن جزء ناري بالفعل ، واستدلوا بوجوه :

أحدها : أن ذلك الجزء الناري إما أن يُدعى أنه نزل عن الأثير واختلط بهذه الأجزاء المائية والأرضية ، أو يقال : إنه تَوَلَّدَ فيها وتَكَوَّن .

والأول مستبعد لوجهين ، أحدهما : أن النار بالطبع صاعدة ، فلو نزلت لكانتْ

---

(٧٠) في الزاد « بِحَمْلِهِ » .

(٧١) أخرج البخاري هذا الحديث في كتاب الرقاق ، باب كيف كان عيش النبي (ص) وأصحابه وتخليهم عن الدنيا [انظر ج ١١ – ص ٢٨١ ، ٢٨٢ من فتح الباري بشرح صحيح البخاري] .

(٧٢) هكذا في الزاد . وفي سائر الطبعات « جزء النار » .

(٧٣) لفظة يونانية كان القدماء يطلقونها على العناصر الأربعة : الماء ، والهواء ، والنار ، والتراب ، ومفردها « اسطقس » ، وهو الأصل البسيط يتكون منه المُرَكَّب .

بِقَاسِرٍ[٧٤] من مركزها إلى هذا العالم . الثاني : أن تلك الأجزاء النارية لابد في نزولها أن تعبر على كرة الزمهرير التي هي في غاية البرد . ونحن نشاهد في هذا العالم أن النار العظيمة تنطفئ بالماء القليل ، فتلك الأجزاء الصغيرة عند مرورها بكرة الزمهرير ــ التي هي في غاية البرد ، ونهاية العظم ــ أَوْلَى بالانطفاء .

وأما الثاني ــ وهو أن يقال : إنها تكونت ها هنا ، فهو أبعد وأبعد ، لأن الجسم الذي صار نارًا ، بعد أن لم يكن كذلك ، قد كان قبل صيرورته إمّا أرضاً ، وإمّا ماءً ، وإمّا هواءً ، لانحصار الأركان في هذه الأربعة ، وهذا الذي قد صار نارًا أولاً ، كان مختلطاً بأحد هذه الأجسام ومتصلاً بها ، والجسم الذي لا يكون نارًا إذا اختلط بأجسام عظيمة ليست بنار ولا واحدٍ منها ، لا يكون مستعدًّا لأن ينقلب نارًا ، لأنه في نفسه ليس بنار ، والأجسام المختلطة به باردة ، فكيف يكون مستعدًّا لانقلابه نارًا ؟!

وإن[٧٥] **قلتم** : لِمَ لا تكونُ هناك أجزاء نارية تقلب هذه الأجسامَ وتجعلها نارًا ، بسبب مخالطتها إياها ؟

قلنا : الكلام في حصول تلك الأجزاء النارية ، كالكلام في الأول .

فإن قلتم : إنا نرى في رَشِّ الماء على النُّورَة[٧٦] المُطْفَأة تنفصل منها نار ، وإذا وقع شعاع الشَّمسِ عَلَى البِلَّوْرَةِ ظهرت النار منها ، وإذا ضربنا الحجر على الحديد ظهرت النار . وكل هذه النارية حدثت عند الاختلاط ، وذلك يُبطل ما قررتموه في القسم الأول أيضاً .

قال المنكرون : نحن لا نُنْكِرُ أن تكونَ المُصَاكَّةُ[٧٧] الشديدة مُحْدِثَةً للنَّار ، كما في ضرب الحجارة على الحديد ، أو تكونَ قُوَّةُ تسخينِ الشَّمسِ مُحْدِثَةً للنَّار ، كما في البِلَّوْرَةِ ، لَكِنَّا نستبعدُ ذلك جدًّا في أجرامِ النبات والحيوان ، إذْ ليس في أجرامها من الاصْطِكَاكِ ما يُوجِبُ حُدوثَ النَّار ، ولا فيها من الصَّفاءِ والصِّقَال ما يبلغ إلى حَدّ

---

(٧٤) القاسر : الغالب والقاهرُ على كُرْهٍ .

(٧٥) في الزاد « فإنْ » .

(٧٦) النُّورَة : حجر الكِلْس « الجير » .

(٧٧) المُصَاكَّةُ : الضَّرْب ، أو الدَّفْع بقوة ، أو المصادمة .

البِلَّوْرَةِ ، كيف وشعاعُ الشمسِ يقع على ظاهرها ، فلا تتولد النار البَتّة ؟! فالشعاع الذي يصل إلى باطنها كيف يولِّد النار ؟!.

الوجه الثاني في أصل المسألة : أنَّ الأطباء مُجْمِعُونَ على أن الشراب العتيق في غاية السخونة بالطبع ، فلو كانت تلك السخونة بسبب الأجزاء النارية ، لكانت محالاً ، إذ تلك الأجزاء النارية مع حقارتها ، كيف يعقل بقاؤها في الأجزاء المائية الغالبة دهرًا طويلاً ، بحيث لا تنطفئ ؟! مع أنا نرى النار العظيمة تطفأ بالماء القليل .

الوجه الثالث : أنه لو كان في الحيوان والنبات جزء ناري بالفعل ، لكان مغلوباً بالجزء المائي الذي فيه ، وكان الجزء الناري مقهورًا به ، وغلبةُ بعض الطبائع والعناصر على بعض ، يقتضي انقلاب طبيعة المغلوب إلى طبيعة الغالب ، فكان يلزم بالضرورة انقلابُ تلك الأجزاء النارية القليلة جدًّا ، إلى طبيعة الماء الذي هو ضد النار .

الوجه الرابع : أن الله سبحانه وتعالى ذَكَرَ خَلْقَ الإنسانِ في كتابه ، في مواضع متعددة يُخبِرُ في بعضها أنه خلقه من ماء ، وفي بعضها أنه خلقه من تراب ، وفي بعضها أنه خلقه مِنَ المركَّبِ منهما ، وهو الطين ، وفي بعضها أنه خَلَقَهُ مِن صَلْصَالٍ كالفَخَّار ، وهو الطين الذي ضربته الشمس والريح حتى صار صلصالاً كالفخّار ، ولم يُخْبِرْ في موضع واحد أنه خلقه من نار ، بل جعل ذلك خاصيةَ إبليسَ .

وثبت في صحيح مسلم ، عن النبي ﷺ قال : « خُلِقَت الملائكةُ من نُورٍ ، وخُلِقَ الجَانُّ[٧٨] مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ ، وخُلِقَ آدمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ »[٧٩] . وهذا صريح في أنه خلقَ مِمَّا وصفه الله في كتابه فقط ، ولم يَصِفْ لنا سبحانه أنه خلقه من نار ، ولا أن في مادَّتِهِ شيئاً من النار .

الوجه الخامس : أن غاية ما يستدلون به ، ما يشاهدون من الحرارة في أبدان الحيوان ، وهي دليل على الأجزاء النارية ، وهذا لا يدل ، فإن أسباب الحرارة أعمُّ من

---

(٧٨) هكذا فى الزاد . وهو مطابق لِلَفْظ الحديث الوارد فى صحيح مسلم . وفى سائر النسخ « وخُلِقَ إبليس » . والمارج : اللهب ، المختلط بسواد النار .

(٧٩) أخرجه مسلم ، كتاب الزهد ، باب أحاديث متفرقة عن عروة عن عائشة رضى الله عنها [انظر صحيح مسلم بشرح النووى ج ١٨ ص ١٢٣] .

النار ، فإنها تكون من النار[٨٠] تارة ، وعن الحركة أخرى ، وعن انعكاس الأشعة ، وعن سخونة الهواء ، وعن مجاورة النار ، وذلك بواسطة سخونة الهواء أيضاً ، وتكون عن أسباب أخرى[٨١] ، فلا يلزم من الحرارة النارُ .

قال أصحاب النار[٨٢] : من المعلوم أن التراب والماء إذا اختلطا فلابد لهما من حرارة تقتضي طَبخَهُمَا وامتزاجَهُما ، وإلا كان كُلٌّ منهما غير مُمازِج للآخر ولا مُتَّحِدًا به ، وكذلك إذا ألْقينا البذر في الطين — بحيث لا يصلُ إليه الهواءُ ولا الشمسُ — فسد — فلا يخلو إما أن يحصل في المركَّب جسم منضج طابخ بالطبع أَوْ لا ، فإن حصل ، فهو الجزءُ الناري ، وإن لَمْ يحصل ، لم يكنِ المُركَّب مُسخِّناً بطبعه ، بل إن سخَّن كان التسخين عَرَضِيًّا ، فإذا زال التسخين العَرضِيُّ ، لم يكن الشيء حارًّا في طبعه ، ولا في كيفيته ، وكان باردًا مطلقاً . لكن من الأغذية والأدوية ما يكون حارًّا بالطبع ، فعلمنا أن حرارتها إنما كانت ، لأن فيها جوهرًا ناريًّا .

وأيضاً : فلو لم يكن في البدن جزءٌ مسخِّن ، لوجب أن يكون في نهاية البرد ، لأن الطبيعة إذا كانت مقتضية للبرد ، وكانت خالية عن المعاون[٨٣] والمعارض ، وجب انتهاءُ البرد إلى أقصى الغاية ، ولو كان كذلك لما حصل لها الإحساس بالبرد ، لأن البرد الواصل إليه إذا كان في الغاية كان مثله ؛ والشيءُ لا ينفعل عن مثله ، وإذا لم ينفعل عنه لم يُحِسَّ به ، وإذا لم يُحِسَّ به لم يتألم عنه ، وإن كان دونه فعدمُ الانفعال يكون أَوْلَى ، فلو لم يكن في البدن جزءٌ مُسَخِّن بالطبع لما انفعل عن البرد ، ولا تألم به .

قالوا : وأدلتكم إنما تُبْطِلُ قَوْلَ مَنْ يقول : الأجزاء النارية باقيةٌ في هذه المركبات على حالها وطبيعتها النارية ، ونحن لا نقول بذلك ، بل نقول : إن صورتها النوعية تفسد عند الامتزاج .

---

(٨٠) فى الزاد « من النار » .

(٨١) فى الزاد « أُخَر » .

(٨٢) أى : القائلون بأن النار داخلة فى العناصر التى خُلق منها الإنسان .

(٨٣) هكذا فى الزاد ، وفى بعض النسخ .، وفى نسخة « المعاوق » بالقاف .

قال الآخرون : لم لا يجوز أن يُقال : إن الأرض والماء والهواء إذا اختلطتْ ، فالحرارة المنضجة الطابخة لها ، هي حرارةُ الشمس وسائِر الكواكب ، ثم ذلك المُرَكَّبُ ، عند كَمال نُضجه ، يستعدُّ[٨٤] لقبول الهيئة التركيبية بواسطة السخونة ، نباتاً كان ، أو حيواناً ، أو معدناً ؟ وما المانع أن تكون السخونة[٨٥] والحرارة التي في المركبات ، هي بسبب خواصّ وقُوًى يُحْدِثُها الله تعالى عند ذلك الامتزاج ، لا من أجزاء نارية بالفعل ؟ ولا سبيل[٨٦] إلى إبطال هذا الإمكان البتة . وقد اعترف جماعة من فضلاء الأطباء بذلك .

وأمّا حديثُ إحساس البدن بالبرد ، فنقول : هذا يدل على أن في البدن حرارةً وتسخيناً ، ومن يُنكر ذلك ؟! لكن ما الدليلُ على انحصار المسخِّن في النار ؟ فإنه وإن كان كل نار مسخِّناً ، فإن هذه القضيةَ لا تنعكس كليةً ، بل عكسُها الصادقُ : « بعضُ المسخِّن نار » .

وأما قولكم بفساد صورة النار النوعية ، فأكثر الأطباء على بقاء صورتها النوعية ، والقولُ بفسادها قولٌ فاسد ، قد اعترف بفساده أفضلُ متأخِّريكم ، في كتابه المسمى « بالشفاء »[٨٧] ، وبرهَنَ على بقاء الأركان أجمعَ ، على طبائعها فى المركبات . وبالله التوفيق .

فصل

وكان علاجه ﷺ للمرض ، ثلاثة أنواع : **أحدها** : بالأدوية الطبيعية . **والثاني** : بالأدوية الإلهٰية . **والثالث** : بالمركب من الأمرين .

---

(٨٤) فى الزاد « مُسْتَعِدٌ ».

(٨٥) فى الزاد « أنَّ تلك السخونة » .

(٨٦) فى الزاد « ولا سبيل لكم » .

(٨٧) الشفاء : هو كتاب الفيلسوف أبى على الحسين المعروف بابن سينا . وقد أثارت كتاباته الفلسفية مشاعر بعض علماء المسلمين ، خاصة أبى حامد الغزالى ، الذى ألف كتابه « تهافت الفلاسفة » خاصة للردّ عليه .. ولابن القيم وأستاذه ابن تيمية مواقف ينتقدان فيها بعض كتابات ابن سينا وآرائه التى يبتعد فيها عن النهج الإسلامى القويم .

ونحن نذكر الأنواع الثلاثةَ من هَدْيه ﷺ ، فنبدأ بذكر الأدوية الطبيعية التي وصفها واستعملها ، ثم نذكر الأدوية الإلهْية ، ثم المركبة

وهذا إنما نُشير إليه إشارة ، فإن رسول الله — ﷺ — إنّما بُعِثَ هادياً ، وداعياً إلى الله وإلى جنته ، وَمُعَرِّفاً بالله ، ومُبَيِّناً للأمة مواقعَ رضاه وآمِرًا لهم بها ، ومواقعَ سَخَطِه وناهياً لهم عنها ، ومُخْبِرَهم أخبارَ الأنبياء والرسل وأحوالهم مع أممهم ، وأخبارَ تخليق العالم ، وأمر المبدأ والمعاد ، وكيفية شقاوة النفوس وسعادتها ، وأسباب ذلك .

وأما طبُّ الأبدان ، فجاء من تكميل شريعته ، ومقصودًا لغيره ، بحيث إنما يُستعمل عند الحاجة إليه ، فإذا قُدِّرَ الاستغناء[٨٨] عنه ، كان صرْفُ الهممِ والقُوَى إلى علاج القلوب والأرواح ، وحفظِ صحتها ، ودفْعِ أسقامِها ، وَحِمْيَتِها مما يُفْسِدُها — هو المقصودُ بالقصد الأول . وإصلاحُ البدن بدون إصلاح القلب لا ينفع ، وفسادُ البدن مع إصلاح القلب مَضَرَّتُهُ يَسِيرَةٌ جدًّا، وهي مَضَرَّةٌ زائلة تعقبها المنفعة الدائمة التامة . وبالله التوفيق .

---

(٨٨) في الزاد « قدر على الاستغناء » .

ذِكْرُ القِسْمِ الأَوَّل
وَهُوَ العِلَاجُ بالأدْوِيَةِ الطَّبِيعِيَّة

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ فِي عِلَاجِ الحُمَّى

ثبت في الصحيحين ، عن نافع عن ابن عمر ، أن النبي ﷺ قال : « إنمَا الحُمَّى أو شدَّة الحُمَّى مِن فَيحِ جَهَنَّمَ ؛ فَابْرُدُوهَا بِالْمَاءِ »(٨٩) .

وقد أشْكَلَ(٩٠) هذا الحَدِيثُ عَلَى كثير من جَهَلَةِ الأَطِبَّاء ، ورآه مُنَافِياً لدواء الحُمَّى وعلاجها . ونحن نبين ـــ بحول الله وقوته ـــ وجهَه وفقهَه ، فنقول :

خطابُ النبي ـــ ﷺ ـــ نوعان : عامٌّ لأهل الأرض ، وخاصٌّ ببعضهم . فالأول : كعامة خطابه . والثاني كقوله : « لَا تستقبلُوا القِبْلَةَ بغائطٍ ولَا بَوْلٍ ، ولَا تَستدبروهَا ، ولكنْ شرِّقوا أوْ غرِّبُوا »(٩١) . فهذا ليس بخطاب لأهل المشرق ولا المغرب(٩٢) ولا العراق ، ولكنْ لأهلِ المدينة وما على سَمْتِها(٩٣) ، كالشام وغيرها .

---

(٨٩) وأخرج الحديث أيضاً : ابن ماجه في سُننه في كتاب الطب ، باب الحُمّى من فيح جهنم [ج ٢ ص١١٤٩] . والفيح : سطوع الحر وشدته أى : كأنها نار جهنم فى حرّها . فابردوها : أى صيروها باردة . قيل : وتبريدها بالماء على أصل الطب فى معارضة الشىء بضده .

ويقول الدكتور على مؤنس فى كتابه « الطب النبوى » : « عند الإصابة بالحُمّى ذات الحرارة الشديدة التى قد تصل إلى ٤١ درجة ، والتى خصها النبى (ص) بأنها من فيح جهنم نجد أن المركز المنظم للحرارة بالمخ قد يصاب بالفشل فى تنظيم حرارة الجسم ، وقد يؤدى ذلك إلى هياج شديد ، ثم غيبوبة وهبوط عام . وقد يكون ذلك سبباً فى الوفاة . لذلك كان لزاماً علينا تخفيض هذه الحرارة المشتعلة بالجسم فوراً ، حتى ينتظم مركز تنظيم الحرارة بالمخ ، وليس لذلك وسيلة إلاّ وضع المريض فى ماء ، أو عمل كمّادات من الماء البارد والثلج . وإذا انخفضت شدة هذه الحرارة نجد الجسم يعود لحالته الطبيعية ، ومركز تنظيم الحرارة بالمخ يعود لعمله فى تقليل هذه الحرارة بوسائله المختلفة من تبخير وإشعاع وخلافه .

(٩٠) أشْكَلَ : التَبَس .

(٩١) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة ، باب قبلة أهل المدينة ، وأهل الشام ، والمشرق [انظر فتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ١ ص٤٩٨] وأخرجه مسلم فى صحيحه فى كتاب الطهارة ، باب الاستطابة [ج ٣ ص ١٥٢] .

(٩٢) فى الزاد « والمغرب » .

(٩٣) سَمْتَها : هيئتها .

وكذلك قوله : « مَا بَيْنَ المشرقِ والمغربِ قبلَةٌ »[٩٤] .

وإذا عُرف هذا : فخطابُه في هذا الحديث خاصٌّ بأهل الحجاز وما والاهم ، إذ كان أكثرُ الحُميَّاتِ التي تَعرض لهم ، من نوع الحُمَّي اليومية العرضية ، الحادثةِ عن شدة حرارة الشمس ، وهذه ينفعها الماءُ الباردُ : شرباً ، وَاغْتِسالاً ، فإن الحُمَّى حرارة غريبة تشتعلُ بالقلب ، وتنبثُّ منه — بتوسط الروح والدم في الشرايين والعروق — إلى جميع البدن ، فتشتعلُ فيه اشتعالاً يضر بالأفعال الطبيعية .

وهي تنقسم إلى قسمين : عرضية ، وهي الحادثةُ إمّا عن الورم ، أو الحركةِ ، أو إصابةِ حرارة الشمس أو القَيْظ[٩٥] الشديد ، ونحو ذلك . ومرضية ؛ وهي ثلاثة أنواع . وهي لا تكون إلا في مادة أولى ، ثم منها يَسْخَنُ جميع البدن . فإن كان مبدأ تعلقها بالروح ، سُمِّيَتْ : حُمَّى يوم ؛ لأنها في الغالب تزول في يوم ، ونهايتُها ثلاثة أيام . وإن كان مبدأ تعلقها بأخلاط ؛ سُمِّيَتْ : عفنية ؛ وهي أربعة أصناف : صفراوية ، وسوداوية ، وبلغمية ، ودموية ، وإن كان مبدأ تعلقها بالأعضاء الصلبة الأصلية ، سُمِّيَت : حُمَّى دِق[٩٦] . وتحت هذه الأنواع أصنافٌ كثيرة .

وقد ينتفع البدن بالحُمَّى انتفاعاً عظيماً لا يبلغه الدواء[٩٧] ، وكثيرًا ما يكون حُمَّى يوم وحمى العفن ، سبباً لإنضاج موادَّ غليظةٍ لم تكن تنضج بدونها ، وسبباً لتفتح سُدَدٍ لم تكن تصل إليها الأدوية المفتحة .

---

(٩٤) أخرجه ابن ماجه فى سُننه فى كتاب الصلاة ، باب القبلة [ج ١ ص ٣٢٣] وأخرجه الترمذى فى صحيحه فى الصلاة ، باب ما جاء أن بين المشرق والمغرب قِبلة [ج ٢ ص ١٤٠] وذكره مالك فى مُوَطَّئه عن نافع عن عمر ابن الخطاب ، فى باب ما جاء فى القبلة قال : « ما بينَ المشرقِ والمَغْربِ قِبلة إذا تُوُجِّهَ قِبَلَ البيت » [انظر الموطأ ص ١٢٨ ط الشعب] قِبَل البيت : أى ناحية الكعبة .

(٩٥) القيظ : شدة الحر .

(٩٦) حُمَّى الدِّقِّ : هى الحُمى التى تعاود المريض يوميًا ، وتصحب السل الحاد .

(٩٧) ارتفاع درجة الحرارة فى الأمراض المُعدية إجراء وقائى يتخذه الجسم ضد الجراثيم المغيرة والبكتريا والفيروسات التى لا تعيش ولا تتكاثر فى درجة عالية ، كما أن سرعة سريان الدم الناتج عن ارتفاع الحرارة تساعد فى القضاء على تلك الفيروسات ، وعلى تحسن بعض الأمراض المزمنة ، كالروماتيزم المفصلى ، كما ثبت أن مادة « الأنترفيرون التى تفرز بغزارة فى أثناء الإصابة بالحُمى ، ثبت أن لها المقدرة على القضاء على الخلايا السرطانية منذ بدء تكوينها ، هذا بجانب قدرتها على تنشيط خلايا الدم البيضاء الدفاعية التى تقى الجسم من الأمراض .

وأما الرمدُ الحديثُ والمتقادمُ فإنها تُبرئ أكثر أنواعه بُرءًا عجيباً سريعاً ، وتنفع من الفَالِج واللَّقْوَة[٩٨] والتشنج الامتلائي ، وكثيرًا من الأمراض الحادثة عن الفضول الغليظة .

وقال لي بعض فضلاء الأطباء : إن كثيرًا من الأمراض نستبشر فيها بالحُمَّى ، كما يستبشر المريض بالعافية ، فتكون الحُمَّى فيه أنفعَ من شرب الدواء بكثير ، فإنها تنضج من الأخلاط والمواد الفاسدة ، ما يضر بالبدن ، فإذا أنْضَجَتْهَا صادَفَها الدَّوَاءُ مُتَهَيِّئَةً للخروج بنضاجها فأخرجها ، فكانت سبباً للشفاء .

وإذا عُرِفَ هذا فيجوز أن يكون مُرادُ الحَديثِ من أقسام الحُمَّيَاتِ العَرَضية ، فإنها تسكن على المكان بالانغماس في الماء البارد ، وسقى الماء البارد المثلوج ، ولا يحتاج صاحبها مع ذلك إلى علاج آخر . فإنها مجرد كيفية حارة متعلقة بالروح ، فيكفي في زوالها مجرد وصول كيفية باردة تسكنها وتخمد لهبها ، من غير حاجة إلى استفراغ مادة ، أو انتظار نضج ، ويجوز أن يُرادَ به جميعُ أنواع الحُمَّيَات .

وقد اعترف فاضل الأطباء جالينوس[٩٩] : بأن الماء ينفع فيها ؛ قال في المقالة العاشرة من كتاب « حيلة البرء »[١٠٠] : « ولو أن رجلاً شابًّا ، حَسَن اللحم ، خِصبَ البدن —

---

(٩٨) الفَالِجُ : شَلَلٌ يصيب أحد شِقَّي الجسم طولاً . واللَّقْوَةُ : داءٌ يعرض للوجه ، يَعْوَجُّ منه الشِّدق .

(٩٩) جالينوس : حكيم يونانى ، وُلد حوالى سنة ١٣٠ م ، وبرع فى الطب والفلسفة وجميع العلوم الرياضية وهو ابن سبع عشرة سنة ، وتصدى للتدريس وهو ابن أربع وعشرين ، يُنْسَبُ إليه خمسمائة مؤلَّف ، أغلبها فى الطب والفلسفة ، وقد جدَّد من عِلم بقراط الطبيب والفيلسوف اليونانى المعروف ، وشرح ما غمض من كتبه ، وقد أضاف الكثير إلى ما سبقه من معارف طبية باكتشافاته التى توصل إليها بالتجريب ، وبتشريح أجسام الحيوان . وأقام الطب على نسق يوافق نظرياته التى أكدت أن كل شىء مخلوق لهدف معيّن . وظل جالينوس مرجعاً مُسَلَّمًا به فى الطب حتى القرن السادس عشر الميلادى ، وأعماله فى التشريح والفسيولوجيا لها أهمية خاصة ، وأضاف الكثير إلى المعرفة بالمخ والأعصاب والحبل الشوكى والنبض . وله فى الطب ستة عشر ديواناً . توفى حوالى سنة ٢٠٠ م وقيل ٢١٨ م .

(١٠٠) فى بعض النسخ « حلية البرء » وفى طبقات الأطباء والحكماء كذلك ، وهو خطأ ، وقد أشار المحقق إلى ذلك ، وأشار إليه أيضاً أحمد بن العسقلانى فى فتح البارى . [انظر فتح البارى شرح صحيح البخارى ج١٠ ص ١٧٧] ويحوى كتاب « حيلة البرء » أربع عشرة مقالة بيَّن فيها طريقة شفاء الأمراض ، وكيف يداوى كل مرض منها ، بطريق القياس [انظر طبقات الأطباء والحكماء لأبى داود الأندلسى] .

في وقت القيظ ، وفي وقت منتهى الحُمَّى — وليس في احشائه ورم ، استحم بماء بارد ، أو سبح فيه لانتفع بذلك » . وقال : « ونحن نأمر بذلك بلا توقف » .

وقال الرازيُّ في كتابه الكبير[١٠١] : « إذا كانت القوة قوية والحمَّى حادة جدًّا — والنضجُ بيِّنٌ ، ولا وَرَمَ في الجوف ، ولا فَتْق — ينفع الماء البارد شرباً . وإن كان العليل خِصبَ البدن ، والزمان حارٌّ ، وكان معتادًا لاستعمال الماء البارد من خارج ، فليؤْذَنْ فيه » .

وقوله : « ٱلحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ » هو شدة لهبها وانتشارها . ونظيره قوله : « شِدَّةُ الحرِّ مِن فيح جَهنمَ » . وفيه وجهان :

أُحدهما : أن ذْلك أنموذَجٌ ورقيقةٌ آشتُقَّتْ من جهنم ، ليستدلَّ بها العبادُ عليها ويعتبروا بها . ثم إن الله سبحانه قدر ظهورها بأسباب تقتضيها . كما أن الروح والفرح والسرور واللذة من نعيم الجنة ؛ أظهرها الله في هذه الدار عبرةً ودلالةً ؛ وقدَّر ظهورَها بأسباب توجبها .

والثاني : أن يكون المراد التشبيهَ ؛ فشبَّه شدة الحمى ولهبها بِفَيْح جهنم ؛ وشبَّه شدة الحر به أيضاً . تنبيها للنفوس على شدة عذاب النار ، وأن هذه الحرارة العظيمة مشبهةٌ بفَيْحها ، وهو ما يُصيب مَنْ قَرُب منها مِنْ حَرِّها .

وقوله : « فَٱبْرِدُوها » ؛ رُوي بوجهين : بقطع الهمزة وفتحها ؛ رُباعيٌّ من « أَبْرَدَ الشيءَ » : إذا صَيَّرَهُ باردًا ؛ مثل « أَسْخَنَه » : إذا صيره سخناً . والثاني : بهمزة الوصل

---

(١٠١) الرازى : هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازى . طبيب ، وكيميائى ، وفيلسوف مسلم ، وُلد بالرىّ عام ٨٦٥ م ، ودرس الرياضيات والطب والفلسفة والفلك والكيمياء والمنطق والأدب . ظل حجة فى الطب حتى القرن السابع عشر ، وألّف كثيراً من الرسائل فى شتى الأمراض ، وأشهرها « كتاب الجدرى والحصبة » . وقد ترجم إلى اللاتينية عام ١٥٦٥ م . وكتابه الكبير هو كتاب « الحاوى » . وهو أكبر موسوعة طبيّة عربية ، جمع فيه مقتطفات من مصنفات الأطباء الإغريق والعرب ، وقد ترجم إلى اللاتينية عام ١٢٧٩ م ، والجدير بالذكر أن الرازى هو أول من ابتكر خيوط الجراحة ، وصنع مراهم الزئبق ، وأجرى بحوثاً على حمض الزاج والكحول ، وكان يُطلق عليه « جالينوس العرب وطبيب المسلمين » توفى عام ٩٢٥ م .

مضمومة ، من « بَرَدَ الشيءَ يَبْرُدُه » ، وهو أفصحُ لغةً واستعمالاً ، والرباعي لغةٌ رديئة عندهم . قال [الحماسي[١٠٢]] .

إذا وجدتُ لهيبَ الْحُبِّ في كَبِدِي ... أَقْبَلْتُ نحو سِقاءِ القَوْمِ أَبْتَرِدُ

هَبْنِي بَرَدْتُ بِبَرْدِ الْمَاءِ ظاهِرَهُ ... فَمَن لِنَارٍ على الأحشاءِ تَتَّقِدُ ؟!

وقوله : « بالماء » ؛ فيه قولان : أحدهما : أنه كلُّ ماء ، وهو الصحيح .

والثاني : أنه ماء زمزمَ . واحتج أصحاب هذا القول ، بما رواه البخاريُّ في صحيحه ، عن أبي جَمْرَةَ نَصْرِ بن عمران الضُّبَعيِّ[١٠٣] قال : « كُنْتُ أُجَالِسُ ابن عباس بمكةَ ، فأخذَتْني الْحُمَّى فقال : أَبْرِدْهَا عنك بماءِ زمزمَ ، فإنَّ رسول الله ﷺ ، قال : إنَّ الْحُمَّى مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ ، فأبْرِدُوها بالماءِ » ؛ أو قال : « بماءِ زمزمَ » .

وراوِي هذا قد شك فيه ، ولو جَزَم به لكان أمرًا لأهل مكةَ بماء زمزمَ ، إذ هو متيسر عندهم ، ولغيرهم ، بما عندهم من الماء .

ثم اختلفَ من قال : إنه على عمومه ؛ هل المراد به الصدقة بالماء ؟ أو استعمالُه ؟ على قولين . والصحيح أنه استعماله[١٠٤] . وأظن أن الذي حمل من قال : المرادُ الصدقةُ به ؛ أنه أشكَل عليه استعمالُ الماء البارد في الحُمَّى ، ولم يَفهمْ وجهه . مع أن لقوله وجهاً حسناً ، وهو : أن الجزاءَ من جنس العمل . فكما أُخمِد لهيبُ العطش عن الظمآن بالماء البارد ، أَخمَدَ اللهُ لهيبَ الحُمَّى عنه جزاءً وِفاقاً ، ولكن هذا يؤخذ مِن فِقْه الحديث وإشارته ، وأما المرادُ به فاستعمالُه .

---

(١٠٢) ما بين المعقوفتين سقط من الزاد . والحماسى : هو الطِّرِمّاحُ بن حكيم الطائى ، ويكنى أبا نفر .. أحد شعراء حماسة أبى تمام ، ومن فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم . وُلد بالشام ، وانتقل إلى العراق ، وزار خراسان ، واشتغل معلماً بالكوفة والرىّ ، واعتنق مذهب الخوارج ، ولكنه لم يشترك فى حروبهم ، ومات خارجيًا . وزع شعره بين الدفاع عن مذهبه والفخر بنفسه وقومه ، وهجاء خصومهم . ويدل شعره على اتساع معرفته بالعربية والأدب الجاهلى الذى كان يحتذيه .. توفى حوالى ١٢٦ هـ .

(١٠٣) وثقه أحمد وابن سعد [انظر ترجمته فى رجال صحيح البخارى ج ٢ ص ٧٤٩ ، ٧٥٠] .

(١٠٤) فى الزاد « استعمالٌ » .

وقد ذكر أبو نُعَيْمٍ(١٠٥) وغيرُه ــ من حديث أَنَسٍ ، يَرفعُه ــ : « إذَا حُمَّ أَحَدُكُم : فَلْيَرُشَّ عَلَيْهِ المَاءَ البارِدَ ثلاثَ ليالٍ مِن السَّحَرِ » .

وفي سننِ ابن ماجَهْ ــ عن أبي هُريرةَ يرفعه ــ : « الْحُمَّى [كير] مِن كِيرِ جهنمَ ؛ فَنَحُّوهَا عَنْكُمْ بالماءِ الباردِ »(١٠٦) .

وفي المسند وغيره ــ من حديث الحسن ، عن سَمُرَةَ يرفعُه ــ: « الْحُمَّى قطعةٌ من النارِ ؛ فَابْرُدُوهَا عنكم بالماء الباردِ » .

وكان رسول الله ﷺ : إذا حُم دَعَا بِقِرْبَة من ماءٍ ، فأَفْرَغَهَا عَلَى رَأْسِه ، فاغْتَسَلَ .

وفي السنن من حديث أبي هريرةَ ، قال : « ذُكِرَت الْحُمَّى عِنْدَ رسول الله ﷺ ، فَسَبَّهَا رجلٌ ، فقال رسولُ الله ﷺ لَا تَسُبَّهَا ؛ فإنها تَنْفِي الذنُوبَ كما تَنْفِي النارُ خَبَثَ الْحَدِيدِ »(١٠٧) .

لما كانت الحُمَّى يتبعها حميةٌ عن الأغذية الرديئة ، وتناولُ الأغذيةِ والأدويةِ النافعة ؛ وفي ذلك إعانةٌ على تنقية البدن ، ونَفْي أخباثِه وفضوله ، وتصفيته من مواده الرديئة ؛ وتفعل فيه كما تفعل النارُ فى الحديد في نَفْي خبثه ، وتصفيةِ جوهره ، كانت أشبهَ الأشياء بنار الكير التي تصفي جوهر الحديد . وهذا القدر هو المعلوم عند أطباء الأبدان .

---

(١٠٥) هو أبو نُعَيم أحمد بن عبد الله بن أحمد بن إسحاق الأصبهانى ، وُلد فى أصبهان سنة ٣٣٦ هـ . وهو من أعلام المحدِّثين ، وأكابر الحفاظ والثقات ، وكتابه « حلية الأولياء » من أحسن الكتب . توفى – رحمه الله – سنة ٤٣٠ هـ .
[انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ج ١ ص ٩١ – وتذكرة الحفّاظ ج ٣ ص ١٠٩٢ – وميزان الاعتدال ج ١ ص ١١١] .

(١٠٦) ما بين المعقوفتين ساقط من النسخ المطبوعة ومثبت فى الزاد وسنن ابن ماجه [ج ٢ ص ١١٥٠] . وفى الزوائد : الحديث صحيح الإسناد ورجاله ثقات .

(١٠٧) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب الحُمّى [ج ٢ ص ١١٤٩]
وفى الزوائد ضُعِّفَ هذا الحديث لأن فى إسناده « موسى بن عبيدة » الذى قال عنه أحمد بن حنبل : إنه منكر الحديث ، وضعفه أيضاً النسائى ، وقال عنه ابن معين : ليس بشىء ، ولا يُحتج بحديثه . [انظر كتاب الضعفاء الصغير للإمام البخارى ص ٢٢١] .

وأما تصفيتُها القلبَ مِن وسخه ودَرَنه ، وإخراجها خبائثه فأمرٌ يعلمه أطباء القلوب ، ويجدونه كما أخبرهم به نبيهم رسول الله ﷺ . ولكن مرض القلب إذا صار مايُوسا(١٠٨) عن برئه ، لم ينفع فيه هذا العلاج .

فالحُمَّى تنفع البدنَ والقلبَ ، وما كان بهذه المَثابة فسبُّه ظلم وعدوان ، وذكرتُ مرة — وأنا محموم — قولَ بعض الشعراء يسبُّها :

زَارتْ مُكفِّرَةُ الذُّنُوبِ ، وَوَدَّعتْ تبًّا لها مِنْ زَائرٍ وَمُوَدِّعِ
قَالَتْ — وقدْ عَزَمَتْ على تَرْحَالِها مَاذا تُرِيدُ ؟ فقُلْتُ : أن لا تَرْجِعِي

فقلتُ : تبًّا له ؛ إذْ سَبَّ ما نهى رسول الله ﷺ عن سبِّه . ولو قال :

زَارَتْ مُكفِّرةُ الذُّنُوبِ لِصبِّها أهْلاً بها مِنْ زَائرٍ وَمُوَدِّعِ
قالتْ — وقد عزمتْ على تَرْحَالِهَا ماذَا تُرِيدُ ؟ فقلتُ : أن لا تُقْلِعي

لكَانَ أَوْلى به ، ولأقْلَعَتْ عنه . فأقلعت عني سريعاً .

وقد روي في أثر — لا أعرف حاله : « حُمَّى يَوْم كَفَّارَةُ سنةٍ » . وفيه قولان :

أحدهما : أن الحمى تدخل في كل الأعضاء والمفاصل ، وعدتُها ثلثمائة وستون مفصلاً فتكفرُ عنه — بعدد كل مفصل — ذنوبَ يوم .

والثاني : أنها تؤثر في البدن تأثيرًا لا يزول بالكلية إلى سنة ؛ كما قيل في قوله ﷺ : « منْ شَرِبَ الخَمْرَ لَمْ تُقْبَلْ لهُ صَلاةٌ أَربعينَ يوْماً » إن أثر الخمر يَبقى في جوف العبد وعروقه وأعضائه ، أربعين يوماً . والله أعلم .

قال أبو هريرةَ : « مَا منْ مَرَضٍ يصيبني أَحَبُّ إليَّ مِن الحُمَّى ، لأنها تدخلُ في كلِّ عضوٍ منِّي ، وإنَّ الله سبحَانهُ يُعْطِي كلَّ عضوٍ حظَّه مِن الأجرِ » .

وقد روى الترمذيُّ في جامعه ، من حديث رافِع بن خَدِيج ، يرفعُه : « إذَا أصَابتْ أحَدَكُمْ الحمَّى — وإنَّ الحمَّى قِطْعَةٌ مِن النَّارِ — فلْيُطفئهَا بالمَاءِ البارِدِ ويستقبِلْ نهَرًا جارياً . فلْيستقبلْ جريةَ المَاءِ بعدَ الفجرِ ، وقبلَ طلوعِ الشمس . وليقلْ : باسْمِ آللهِ ،

---

(١٠٨) أي : ميئوساً . من الفعل أيِسَ يَايَسُ « بغير همز » [انظر مادتي : يئس ، وأيس في لسان العرب] .

اللهمَّ اشْفِ عبدَكَ ، وَصَدِّقْ رَسُولَكَ . وينغمسُ فيهِ ثلاثَ غمساتٍ ، ثلاثةَ أيام ، فإنْ برئ ، وإلَّا : ففِي خمسٍ ؛ فإن لَمْ يَبْرأْ فِي خَمْسٍ فَسَبْعٌ ، فَإِنْ لَمْ يبرأْ في سَبْعٍ فتسْعٌ ؛ فَإِنَّها لا تكادُ تُجَاوِزُ التِّسْعَ بإِذنِ اللهِ(١٠٩) » .

قلت : وهو ينفع فعله — في فصل الصيف ، في البلاد الحارة — على الشَّرائِط التي تقدمت ، فإن الماء في ذلك الوقت أبردُ ما يكون ، لبعدِه من ملاقاة الشمس ، ووُفُور القُوَى في ذلك الوقت ، لما أفادها النومُ والسكونُ وبردُ الهواء ، فتجتمع(١١٠) قوةُ القوى ، وقوةُ الدواء — وهو الماء البارد — على حرارة الحمى العرضية ، أو الغِبِّ الخالصة — أعني : التي لا ورم معها ، ولا شيء من الأعراض الرديئة ، والمواد الفاسدة . فيطفئها بإذن الله ، لاسيما فى أحد الأيام المذكورة في الحديث ، وهي الأيام التي يقع فيها بُحْران(١١١) الأمراض الحادةُ كثيرًا ، لاسيما في البلاد المذكورة ، لرقةِ أخلاط(١١٢) سكانها ، وسرعة انفعالهم عن الدواء النافع .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ فِي عِلَاجِ اسْتِطْلَاقِ الْبَطْنِ

في الصحيحين — من حديث أبي المتوكل عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ —: « أن رجلاً أتى النبيَّ ﷺ ، فقال : إنَّ أخي يشتكي بطنَهُ ؛ وفي رواية : استطلقَ بطنُهُ(١١٣) فقال :

---

(١٠٩) هكذا ورد الحديث فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة اختلاف فى بعض الألفاظ عما ورد فى الزاد ، ولكنه اختلاف لا يضر بالمعنى . وعبارة : « فإن لم يبرأ فى سبع فتسع ... » عن الزاد ، وسقطت من النسخ الأخرى ، وهى مثبتة فى الترمذى فى الطب ، وقال عنه : حديث غريب . [انظر صحيح الترمذى ج ٨ ص ٢٢٦ ، ٢٢٧] وهذا الحديث بلفظه ومعناه لم يرد فيه « رافع بن خديج » بل ورد فى حديث آخر ، ورد فى الترمذى أيضاً ، وهو : « ... عن عَبَايَةَ بن رفاعة عن جده رافِعِ بن خديج عن النبى (ص) قال : الحُمَّى فَوْرٌ من النَّارِ فأبْرِدُوها بالماء » [انظر صحيح الترمذى ج ٨ ص ٢٣٠] .

(١١٠) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « فيجتمع » .

(١١١) وردت فى النسخ المطبوعة هكذا « بِحَرَّان » بكسر الأول وفتح الثانى وتشديد وفتح الثالث . وهذا خطأ والصواب ما أثبتناه . والبُحْرانُ : هو التغيرُ الذى يحدث للعليل فجأة من الأمراض الحُمِّيَّةِ الحادّة ، ويصحبه عرق غزير ، وانخفاض سريع فى الحرارة [انظر المعجم الوسيط – مادة بحر] .

(١١٢) أخلاط الإنسان فى الطب القديم : أمزجته الأربعة ، وهى : الصفراء ، والبلغم ، والدم ، والسوداء .

(١١٣) استطلق بطنه ، أى : كَثُرَ خروج ما فيه ، يريد « الإسهال » .

آسْقِهِ عسَلاً . فذهب ثم رجعَ ، فقالَ : قد سقيتُهُ فلم يُغْنِ عنه شيئاً ، وفى لفظ : فلم يَزِدْهُ إلّا آسْتِطْلاقاً . مرتين أو ثلاثاً : كلُ ذلك يقولُ له : اسْقِه عَسلاً . فقال لهُ في الثالثةِ أو الرابعةِ : صَدَقَ اللهُ وكَذَبَ بطنُ أخيكَ »(١١٤) . وفي صحيح مسلم ، في لفظ له : « إن أخي عَرِبَ بطنُهُ » ، أي : فَسد هضمُه ، واعتلتْ معدته . والاسم : « العرَبُ » بفتح الراء ؛ و « آلذَّرَبُ »(١١٥) أيضاً .

والعسل فيه منافعُ عظيمة(١١٦) ، فإنه جلاءٌ للأوساخ التي في العروق والأمعاء وغيرها ، محللٌ للرطوبات : أكلاً وطلاءً ، نافعٌ للمشايخ وأصحاب البلغم ، ومن كان مِزاجه باردًا رطباً . وهو مغذٍّ ، مُليِّنٌ للطبيعة ، حافظ لقُوَى المعاجين ، ولما استُودِع

---

(١١٤) أخرجه أيضاً الترمذى فى الطب ، باب التداوى بالعسل [ج ٨ ص٢٣٠] .

(١١٥) الذَّرَب : « الإسهال » داء يعرض للمعدة فلا تهضم الطعام ، ويفسد فيها ولا تمسكه .

(١١٦) عرف الإنسان عسل النحل منذ القدم ، وكان الطعام المفضل لديه فى كل العصور ، وهناك برديات تحمل رموزاً هيروغليفية تصف استعمالات العسل كغذاء ودواء ، وأقدم أوراق البردى فى مجموعة جورج أيبرز الخاصة بالطب والتى يعتقد أنها كُتبت بين ١٥٥٣ - ١٥٥٠ قبل الميلاد . وفيها :

* أن العسل كان يُستعمل للجروح ، ولإدرار البول ، ولراحة الأمعاء .

* وفى بردية أدوين سميث الطبية حقائق تثير الاهتمام عن الجراحة وعلاج الجروح ، وفيها يأخذ العسل دوراً بارزاً كعنصر علاجى .

* وفى الهند قديما نسب الناس إلى العسل كثيراً من المزايا الشفائية والمقوية ، وكان الدواء الذى يهب السعادة للناس ويحفظ الشباب مصنوع فى مُجمله من العسل .

* وفى اليونان كان العسل يعتبر أغلى منح الطبيعة ، وكانوا يظنون أن آلهتهم خالدة لأنها أكلت طعاماً يحوى العسل .

* وكان هوميروس يتغنى بمدائح العسل وبخصائصه الممتازة فى ملحمته الإلياذة والأوديسة .

* وقد اعترف فيثاغورث - أبو علم الرياضيات بأنه عاش إلى التسعين بفضل أكْلِهِ العَسل .

* وعاش ديموقريطس - صاحب النظرية الذَّرِّيَّة - أكثر من مائة عام ، ولما سُئل عن النصيحة فى استبقاء الصحة قال : يجب على الناس أن تأكل العسل .

* وكان بقراط الطبيب الكبير والفيلسوف القديم الذى عاش منذ ٢٥٠٠ سنة يأكل العسل باستمرار ، وكان يستعين به فى طِبِّه كعلاج لكثير من الأمراض . وأفاد بأنْ العَسل مع غيره من الأطعمة الأخرى يمنح الغذاء والصحة . وقد عاش أبو قراط حتى بلغ سنًّا متقدمة ، وهى ١٠٧ أعوام .

* وكان جالينوس الطبيب والفيلسوف الإغريقى يعتقد أن العسل علاج نافع لكثير من الأمراض ، وكان يصفه كعلاج لحالات التسمم المختلفة ، ولأمراض القناة الهضمية ، لأنه مُلَيِّن ومُطَهِّر للأمعاء .

* وكان ابن سينا العالم الكبير ينصح بالعسل لإطالة العمر ، وحفظ القدرة على العمل فى سن متأخرة ، وكان ينصح باستعماله فى الجروح السطحية فى صورة لبخة مصنوعة بِخَلْطِ العَسل والدقيق بدون ماء . =

فيه ، مذهِبٌ لكيفيات الأدوية الكريهة ، منقٍ للكبد والصدر ، مدرٌّ للبول ، موافقٌ للسعال الكائن عن البلغم . وإذا شرب حارًا بدهن الورد نفع من نهش الهوام وشرب الأفيون . وإن شُرب وحده ممزوجاً بماء نفع من عضة الكلب الكَلِب(١١٧) ، وأكلِ الفُطر(١١٨) القتال . وإذا جعل فيه اللحم الطريُّ : حفظ طراوته ثلاثة أشهر . وكذلك إن جُعل فيه القثاء والخيار والقرع والباذنجان .ويحفظ كثيرًا من الفاكهة ستة أشهر . ويحفظ جثة الموتى . ويُسمى الحافظَ الأمين . وإذ لطخ به البدن المقمل والشعر قتل قمله وصِئبَانه(١١٩) ، وطوَّل الشعر وحسَّنه ونعَّمه . وإن اكتُحل به جلا ظُلمة البصر . وإن استُن به(١٢٠) بيَّض الأسنان وصقَلها ، وحفظ صحتَها وصحةَ اللثة ؛ ويفتح أفواه العروق ، ويُدِرُّ الطَّمْثَ(١٢١) . ولعقُه على الريق يُذهب البلغم ، ويغسل خمل

= وعلى هذا فقد لاحظ الفلاسفة والأطباء القدامى الخواص العجيبة التى للعسل كغذاء ودواء . وكان العسل يستخدم منذ القدم كعلاج لجهاز التنفس ، وأمراض الكبد، والجهاز العصبى ، وعلاج الزكام ، وأمراض الرئة . وقد كتب أبو قراط أن شربة العسل تزيل البلغم ، وتوقف السعال . كما استُخدم العسل أيضاً فى علاج أمراض القلب المختلفة ، وكان ينصح مريض القلب بتناول قدر معقول من العسل يوميًا . واستُخدم كذلك لعلاج الذبحة الصدرية ، وأمراض المعدة ، والأمعاء ، وكان المثل العامى يقول (إن العسل أحسن صديق للمعدة) . هذا بالإضافة إلى أنه يساعد على الهضم ، وتفسير ذلك أن المنجنيز والحديد الموجودين فى العسل يساعدان على الهضم وتمثيل الغذاء . والعسل علاج ناجح للإمساك . وفى مصر القديمة كان العسل يعد واحدًا من أنجح الأدوية لعلاج العيون .

والعسل له فوائد جمة إذا تناوله المريض – خاصة بعد بعض العمليات الجراحية – لما له من قدرة على التعقيم ومحاربة البكتريا ، وله قيمة غذائية كبيرة للصغار والكبار على السواء ، لاحتوائه على الفيتامينات المتعددة التى تساهم فى كل العمليات الحيوية التى تحدث فى الجسم الحى .

وقد وصفه الرسول ﷺ كعلاج لبعض الأمراض ، وكان ينصح باستعماله . وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم بأنه (فيه شفاء للناس) صدق الله العظيم . وليس بعد ذلك قول .

لمزيد من المعرفة عن هذا الموضوع ، ارجع لكتاب العلاج بعسل النحل ، ترجمة الدكتور محمد العلوجى .

(١١٧) الكَلِب : الذى أصابه داء الكَلَب ، وهو مرض مُعْدٍ ، ينتقل فيروسه ، فى اللعاب بالعض من الكلب إلى الإنسان وغيره . ومن أعراضه تقلصات فى عضلات التنفس ، والبلع ، وخيفة الماء ، وجنون واضطرابات فى الجهاز العصبى .

(١١٨) الفُطر : اسم يطلق على طائفة من اللازهريات ، منها فصائل وأجناس عديدة ، وتسمى أيضاً فُطريّات . منها ما يؤكل ، وما هو سام .

(١١٩) الصِّئبان : بيض القمل . ومفرده صؤابة .

(١٢٠) أى : استاك به الإنسان .

(١٢١) الطَّمْثَ : دم الحيض .

المعدة[١٢٢] ، ويدفع الفضلات عنها ، ويسخنها تسخيناً معتدلاً ، ويفتح سددها ، ويفعل ذلك بالكبد والكلى والمثانة . وهو أقل ضررًا لسَدَد الكبد والطحال من كل حلو .

وهو — مع هذا كله — مأمونُ الغائلة[١٢٣] ، قليلُ المضار ، مضر بالعرض للصفراويين . ودفعُها : بالخل ونحوه ؛ فيعود حينئذ نافعاً له جدًّا .

وهو غذاءٌ مع الأغذية ، ودواءٌ مع الأدوية ، وشرابٌ مع الأشربة ؛ وحلوٌ مع الحلو[١٢٤] ، وطلاءٌ مع الأطلية ، ومفرِّحٌ مع المفرِّحات . فما خُلق لنا شيء في معناه أفضل منه ولا مثلَه ، ولا قريباً[١٢٥] منه . ولم يكن معوَّلُ القدماء إلا عليه . وأكثرُ كتب القدماء لا ذكر فيها للسكَّر البتةَ ، ولا يعرفونه ؛ فإنه حديث العهد ، حَدَث قريباً .

وكان النبي ﷺ يشربُه بالماء على الريق . وفي ذلك سرٌّ بديع في حفظ الصحة ، لا يدركه إلا الفَطِنُ الفاضل . وسنذكر ذلك — إنْ شاء الله — عند ذكر هَدْيِهِ في حفظ الصحة .

وفي سنن ابن ماجَهْ مرفوعاً ، من حديث أبي هريرة : « مَنْ لَعِقَ ثلاثَ غَدواتٍ كلَّ شهرٍ لَمْ يصبهُ عظيمٌ من البلاءِ »[١٢٦] .

وفي أثر آخر : « عَلَيْكُمْ بالشِّفَاءَيْن : العسلِ والقرآنِ »[١٢٧] .

فجمع بين الطب البشريِّ والإلهي ، وبين طب الأبدان وطب الأرواح ، وبين الدواء الأرضي والدواء السمائي .

---

(١٢٢) خمل المعدة : ألياف كأهداب القطيفة تغطي سطحها الباطن .

(١٢٣) الغائلة : الفساد .

(١٢٤) في الزاد « الحلوى » .

(١٢٥) هكذا في الزاد . وفي سائر النسخ المطبوعة « قريبٌ » بالرفع وهو خطأ .

(١٢٦) هكذا في الزاد . وهو مطابق لما وَرَدَ في سنن ابن ماجه . وفي النسخ المطبوعة : « عظيم البلاء » وفي سند هذا الحديث : « حدثنا الزبير بن سعيد الهاشمي عن عبد الحميد بن سالم عن أبي هريرة ... » وفي الزوائد ذكر أن إسناد هذا الحديث لين . ومع ذلك فهو منقطع . وقال البخاري : لا نعرف لعبد الحميد سماعاً من أبي هريرة . وجاء في كتاب الضعفاء الكبير ، لأبي جعفر العقيلي ، أن الزبير بن سعيد الهاشمي ضعيف الحديث ، وليس بشيء .

[انظر كتاب الضعفاء الكبير ج ٢ ص ٨٩]

(١٢٧) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب العسل [ج ٢ ص ١١٤٢] .

إذا عُرف هذا ، فهذا الذي وَصَف له النبيُّ ﷺ العسل ، كان آستطلاقُ بطنه عن تخمة أصابته عن امتلاء ؛ فأمَرَه بشرب العسل ، لدفع الفضول المجتمعة في نواحي المعدة والأمعاء ؛ فإن العسل فيه جلاءٌ ودفْعٌ للفضول ، وكان قد أصاب المعدةَ أخلاطٌ لزجةٌ تمنع استقرار الغذاء فيه للزوجتها ، فإن المعدة لها خمل كخمل المنشفة[١٢٨] ، فإذا علقت بها الأخلاط اللزجة أفسدتها وأفسدت الغذاء ، فدواؤها بما يجلوها من تلك الأخلاط . والعسلُ جلاءٌ ، والعسلُ من أحسن ما عولج به هذا الداءُ ، لاسيما إن مُزج بالماء الحار .

وفي تكرار سقيه العسلَ معنى طبيٌّ بديع ؛ وهو أن الدواءَ يجب أن يكون له مقدار وكميَّة بحسب حال الداء ، إن قصر عنه لم يزله بالكلية ، وإن جاوزه أوهن القُوى فأحدث ضررًا آخر . فلما أمره أن يسقيه العسل سقاه مقدارًا لا يفي بمقاومة الداء ، ولا يبلغ الغرض ، فلما أخبره علم أن الذي سقاه لا يبلغ مقدار الحاجة . فلما تكرر تردادُه إلى النبي ﷺ ، أكد عليه المعاودة ، ليصل إلى المقدار المقاوم للداء ، فلما تكررت الشَّرْبات بحسب مادة الداء برئ بإذن الله . واعتبارُ مقاديرِ الأدوية وكيفياتها ، ومقدارِ قوة المرض والمريض — من أكبر قواعد الطب .

وفي قوله ﷺ : « صدق الله وكذَبَ بطنُ أخيكَ » ؛ إشارةٌ إلى تحقيق نفع هذا الدواء ، وأن بقاء الداء ليس لقصور الدواء في نفسه ، ولكنْ لكذبِ البطن ، وكثرةِ المادة الفاسدة فيه . فأمَرَه بتكرار الدواء لكثرة المادة .

وليس طبُّه ﷺ كطب الأطباء ؛ فإن طبَّ النبي ﷺ متيقَّنٌ قطعي إلهيٌّ ، صادرٌ عن الوحي ، ومِشْكاة النبوة ، وكمالِ العقل . وطبُّ غيرِه أكثرُه حَدْسٌ[١٢٩] وظنونٌ وتجارِب . ولا ينكَر عدمُ انتفاع كثير من المرضى بطب النبوة ؛ فإنه إنما ينتفع به من تلقاه بالقبول واعتقادِ الشفاء به[١٣٠] ، وكمال التلقي له بالإيمان والإذعان . فهذا القرآنُ — الذى هو شفاء لما في الصدور — إن لم يُتلَقَّ هذا التَّلقي لم يحصل به شفاء الصدور من أدوائها ، بل لا يزيد المنافقين إلا رجساً إلى رجسهم ، ومرضاً إلى مرضهم . وأين يقع طبُّ الأبدان منه ؟! فطب النبوة لا يناسب إلا الأبدانَ الطيبة ، كما أن شفاء القرآن لا يناسب إلّا الأرواح الطيبة ، والقلوب الحية . فإعراض الناس عن طبِّ النبوة ،

---

(١٢٨) فى الزاد « كخمل القطيفة » .

(١٢٩) الحَدْسُ : إدراك الشيء إدراكاً مباشراً . ويطلق أيضاً على الفراسة والظن والتخمين .

(١٣٠) هكذا فى الزاد . وفى بعض النسخ المطبوعة « عليه » . وكلاهما صواب .

كإعراضهم عن الاستشفاء بالقرآن الذي هو الشفاء النافع . وليس ذلك لقصور في الدواء ، ولكن لخبث الطبيعة ، وفساد المحل وعدم قبوله . والله الموفق .

فصل

وقد اختلف الناس في قوله تعالى : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ ﴾(١٣١) ؛ هل الضمير في « فيه » راجعٌ إلى الشراب ؟ أو راجع إلى القرآن ؟ – على قولين ؛ الصحيح [منهما](١٣٢) رجوعه إلى الشراب . وهو قول ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وقتادةَ ، والأكثرين ، فإنه هو المذكور ، والكلامُ سيق لأجله . ولا ذكرَ للقرآن في الآية . وهذا الحديث الصحيحُ – وهو قوله : « صدق الله » – كالصريح فيه . والله تعالى أعلم .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ فِي الطَّاعُونِ وَعِلَاجِهِ، وَالاحْتِرَازِ مِنْهُ

في الصحيحين عن عامر بن سعد بن أبي وَقَّاص ، عن أبيه –: « أنه سمعه يَسأَل أسَامَةَ ابن زيد : ماذا سمعتَ من رسول الله ﷺ ، في الطاعون(١٣٣) ؟ فقال أُسامةُ : قال

---

(١٣١) سورة النحل – الآية ٦٩ .

(١٣٢) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(١٣٣) الطّاعون : داء وبائيٌ حاد ، سببه ميكروب يصيب الفئران ، وتنقله البراغيث إلى فئران أخرى ، وإلى الإنسان ، وكانوا يطلقون عليه اسم : الموت الأسود . وأنواعه التى تصيب الإنسان تظهر فى ثلاث صور :

١ – النوع الدُّمَّلى .

٢ – النوع التسمّمى .

٣ – النوع الرّئوى .

ويبدأ فى الأنواع الثلاثة بارتفاع فى درجة الحرارة ، مع صداع وإعياء شديدين ، ثم تظهر أعراضٌ تسممية ، كاحتقان الوجه والعينين ، وجفاف اللسان . ويبدو المريض قلقاً مذعوراً ، وتنتابه هلوسة يعقبها غيبوبة قد تنتهى بالوفاة . والنوع الدُّمّلى يظهر فى اليوم الثانى أو الثالث ، على هيئة ورم التهابىّ بإحدى الغدد السطحية ، وقد تتقيح هذه الغدد أو تمتص حسب حالة المريض ودرجة مقاومته . وقد تسوء حالة المريض فتتسرب الميكروبات من الغدة الملتهبة إلى الدم ، وتحدث تسمّمًا ميكروبيًا . وقد تتسرب الميكروبات إلى الرئتين فتحدث فيهما التهاباً رئويًا . والطاعون الرئوى أخطر الأنواع على المريض ومخالطيه معاً ، لأنه ينتشر عن طريق الرذاذ المتناثر من فتحتى الفم والأنف عندما يسعل المريض . ونظراً لعدم وجود مناعة ضد العدوى بميكروب الطاعون ، فإنّ إصابة الإنسان بواسطة هواء الشهيق يحدث به التهاباً رئوياً مُميتًا . لذا تعمل الحكومات الآن على عمل « حجر صحىّ » للمصابين بهذا المرض ، لحصر المرْضَى فى بقعة معينة ، لمنعه من الانتشار .

رسول الله ﷺ : الطاعُونُ رِجْزٌ أُرْسِلَ عَلَى طائفةٍ من بني إسرائيلَ ، وعلى مَن كان قبلكم ؛ فإذا سمعتم به بأرض فلا تدخلوا عليه ؛ وإذا وقع بأرض – وأنتم بها – فلا تخرجوا منها فِرارًا مِنْهُ »(١٣٤) .

وفي الصحيحين أيضاً : عن حَفْصَةَ بنت سِيرِينَ ؛ قالت : قال أنسُ بن مالك : قال رسول الله ﷺ : « الطاعونُ شهادةٌ لكلِّ مسلم »(١٣٥) .

الطاعون من حيث اللغةُ : نوعٌ من الوباء . قاله صاحب الصحاح . وهو عند أهل الطب : ورمٌ رديء قتَّال ، يخرج معه تلهب شديد مؤلم جدًّا ، يتجاوز المقدار في ذلك ، ويصير ما حوله في الأكثر أسود أو أخضر أو أكمدَ ؛ ويئول أمره إلى التقرح سريعاً . وفي الأكثر يحدث في ثلاثة مواضع : في الإبْط . وخلف الأذن ، والأرنبة(١٣٦) ، وفي اللحوم الرخوة .

وفي أثر عن عائشة : « أنها قالت للنبي ﷺ : الطعن قد عرفناهُ ؛ فما الطاعون ؟ قال : غُدَّةٌ كَغُدَّةِ البعير يخرج في المَرَاقِّ والإبْط »(١٣٧) .

قال الأطباء : إذا وقع الخراج في اللحوم الرخوة والمَغَابِنِ(١٣٨) ، وخلف الأذن والأرنبة ؛ وكان من جنس فاسد سُمِّيٌّ يُسَمَّى(١٣٩) طاعوناً . وسببه دم رديء مائل إلى

---

(١٣٤) الحديث أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب ما يُذكر فى الطاعون ، وأخرجه مسلم أيضاً فى باب الطاعون والطيرة والكهانة . كما رواه مالك فى موطئه ، وأحمد فى مسنده .

(١٣٥) أخرج هذا الحديث أحمد فى المسند ، وأخرجه النسائى فى كتاب الجنائز فى النهى عن البكاء على الميت ، ولفظه « ... قال ﷺ : المطعون شهيد ، والمبطون شهيد ، والغريق شهيد ، وصاحب الهَدَم شهيد ، وصاحب ذات الجنب شهيد ، وصاحب الحرق شهيد ، والمرأة تموت بِجُمْعٍ شهيدة » . المطعون : الذى قتله الطاعون ، والمبطون : الذى قتله البطن ، وصاحب الهَدَم : الذى قتله البناء المنهدم ، وصاحب ذات الجنب : هى الدُّمَّلة الكبيرة التى تظهر فى باطن الجنب وتنفجر إلى داخل ، وقلّما يسلم صاحبها . وصاحب الحرق : الذى تقتله النار ، والمرأة تموت بجمع : هى التى تموت وفى بطنها ولد . وقيل : هى التى تموت بكراً ، فإنها ماتت مع شىء مجموع فيها ، غير منفصل عنها من حمل أو بكارة .

[انظر سنن النسائى ج ٤ ص ١٤] .

(١٣٦) الأرنبة : طرف الأنف .

(١٣٧) المراق : مارَقَّ ولاَنَ من الجسم .

(١٣٨) المغابن : جمع مَغْبِن ، ويُطلق على الإبط وبواطن الأفخاذ .

(١٣٩) فى الزاد « ... سُمِّىَ طاعوناً » .

العفونة والفساد ، مستحيل إلى جوهر سُمِّيٍّ يُفسِدُ العُضْوَ ، ويُغَيِّرُ ما يليه ، وربما رشح دَماً وصديدًا ، ويؤدِّي إلى القلب كيفية رديئة ، فيحدث القيء والخفقان والغشي . وهذا الاسم – وإن كان يعم كل ورم يؤدى إلى القلب كيفية رديئة ، حتى يصير لذلك قتالًا – فإنه يختص به الحادث في اللحم الغددي ، لأنه لرداءته لا يقبله من الأعضاء ، إلا ما كان أضعف بالطبع . وأردؤه ما حدث في الإبط وخلف الأذن ، لقربهما من الأعضاء التي هي أرأس . وأسلمهُ الأحمر ثم الأصفر . والذي إلى السواد ، فلا يُفلت منه أحد .

ولما كان الطاعون يكثر في الوباء وفي البلاد الحربية[١٤٠] ، عُبر عنه بالوباء ؛ كما قال الخليل : « الوباء : الطاعون » . وقيل : هو كل مرض يعم .

والتحقيقُ أن بين الوباء والطاعون عموماً وخصوصاً [مُطلقاً][١٤١] ؛ فكلُّ طاعونٍ وباء ، وليس كلُّ وباءٍ طاعوناً . وكذلك الأمراض العامة أعمُّ من الطاعون ؛ فإنه واحد منها .

والطواعينُ خراجات ، وقروح ، وأورام رديئة حادثة في المواضع المتقدم ذكرها . قلت : هذه القروحُ والأورام والخراجات[١٤٢] ، هي ، آثارُ الطاعون ، وليست نفسه ، ولكن الأطباء لمَّا لم تدرك منه إلا الأثر الظاهرَ جعلوه نفسَ الطاعون .

والطاعونُ يعبر به عن ثلاثة أمور :

أحدها : هذا الأثر الظاهر ؛ وهو الذي ذكره الأطباء .

والثاني : الموت الحادث عنه . وهو المراد بالحديث الصحيح ، في قوله : « الطاعونُ شهادةٌ لكلِّ مُسلم » .

والثالث : السبب الفاعل لهذا الداء .

وقد ورد في الحديث الصحيح : « أنهُ بقيةُ رجز أُرسل عَلى بَني إسرائيل » ؛ وورد فيه : « أنَّه وَخزُ الجنِّ » وجاء : « أنهُ دَعوةُ نبيٍّ » .

---

(١٤٠) في الزاد « الوبيئة » .

(١٤١) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(١٤٢) في الزاد « والجراحات » .

وهذه العللُ والأسباب ليس عند الأطباء ما يدفعها ، كما ليس عندهم ما يدل عليها . والرسُل تخبر بالأمور الغائبة . وهذه الآثار التي أدركوها من أمر الطاعون ، ليس معهم ما ينفي أن تكون بتوسط الأوراح ، فإن تأثير الأرواح في الطبيعة وأمراضها وهلاكها ، أمر لا ينكره إلا من هو أجهلُ الناس بالأرواح وتأثيراتها ، انفعال الأجسام وطبائعها عنها . والله سبحانه قد يجعل لهذه الأرواح تصرفاً في أجسام بني آدم عند حدوث الوباء ، وفساد الهواء . كما يجعل لها تصرفاً عند [غلبة][143] بعض المواد الرديئة ، التي تحدث للنفوس هيئة رديئة ؛ ولا سيما عند هيجان الدم والمِرَّةِ السوداء[144] ؛ وعند هيجان المنيّ ، فإن الأرواح الشيطانية تتمكن من فعلها بصاحب هذه العوارض ، ما لا تتمكن من غيره مالم يدفعها دافع أقوى من هذه الأسباب ، من الذكر ، والدعاء ، والابتهال ، والتضرع ، والصدقة ، وقراءة القرآن ، فإنه يستنزل لذلك من الأرواح الملكية ، ما يقهر هذه الأرواح الخبيثة ، ويبطل شرَّها ، ويدفع تأثيرها . وقد جربنا – نحن وغيرنا – هذا مرارًا لا يحصيها إلا الله ، ورأينا لا ستنزال هذه الأرواح الطيبة ، واستجلاب قربها تأثيرًا عظيماً في تقوية الطبيعة ، ودفع المواد الرديئة ، وهذا يكون قبل استحكامها وتمكنها . ولا يكاد يُخرم[145] . فمن وفقه الله بادر عند إحساسه بأسباب الشر ، إلى هذه الأسباب التي تدفعها عنه ، وهي له من أنفع الدواء .

وإذا أراد الله عز وجل إنفاذ قضائه وقَدره ، أغْفَل قلب العبد عن معرفتها وتصورها وإرادتها ، فلا يشعر بها ولا يريدها ، ليقضيَ الله فيه أمرًا كان مفعولاً .

وسنزيد هذا المعنى – إن شاء الله تعالى – إيضاحاً وبياناً عند الكلام على التداوى

---

(١٤٣) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد . ومثبت فى سائر النسخ .

(١٤٤) المِرَّة : خلط من أخلاط البدن ، وهو المسمى : المزاج . وكان القدماء يعتقدون أنه ينشأ عن أن يتغلب فى الجسم أحد العناصر الأربعة ، وهى : الدم ، والصفراء ، والسوداء ، والبلغم . ومن ثَمّ كانوا يقولون بأربعة أمزجة هى : الدموى ، والصفراوى ، والسوداوى ، والبلغمى . أما المحدثون من علماء النفس فيوافقون القدماء على أن الأمزجة ترجع إلى مؤثرات جثمانية ، ولكنهم يخالفون فى عدد الأمزجة وأسبابها ، إذ يعتدون بالإفرازات التى تفرزها الغدد الصماء ، كالغدة الدرقية ، والغدة الكلوية ، ويجعلونها المؤثرات الأساسية فى تكوين المزاج .

(١٤٥) لايكاد يخرم : أى لا يعدل عنه ولا يُنْتَقص . وفى الزاد « ينخرم » .

بالرُّقى والعُوَذ[146] النبوية ، والأذكار ، والدعوات ، وفعل الخيرات . ونبين أن نسبة طب الأطباء إلى هذا الطب النبوي ، كنسبة طب الطرقيّة والعجائز إلى طبهم ، كما اعترف به حُذاقهم وأئمتهم ، ونبين أن الطبيعة الإنسانية أشد شيء انفعالاً عن الأرواح ، وأن قُوى العُوَذ الرُّقَى والدعوات فوق قُوَى الأدوية ، حتى إنها تُبطل قُوَى السموم القاتلة .

والمقصود : أن فساد الهواء جزءٌ من أجزاء السبب التام والعلة الفاعلة للطاعون ، وأن[147] فساد جوهر الهواء الموجِبُ لحدوث الوباء وفساده يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة ، لغلبة إحدى الكيفيات الرديئة عليه ، كالعفونة والنَّتْن والسُّمِّيَّة ، في أي وقت كان من أوقات السنة ، وإن كان أكثر حدوثه في أواخر الصيف ، وفي الخريف غالباً ، لكثرة اجتماع الفضلات المرارية الحادة وغيرها في فصل الصيف ، وعدم تحللها في آخره . وفي الخريف : لبرد الجو ، ورَدْغَة[148] الأبخرة والفضلات التي كانت تتحلل في زمن الصيف ، فتنحصر فتسخن وتعفن ، فتحدث الأمراض العفنة ، ولاسيما إذا صادفت البدنَ مستعدًّا قابلاً ، رهِلاً ، قليل الحركة ، كثير المواد ، فهذا لا يكاد يفلت من العطب .

وأصح الفصول فيه فصل الربيع ، قال بقراط[149] : « إن في الخريف أشدُّ ما يكون من الأمراض وأقتل ؛ وأما الربيع فأصحُّ الأوقات كلها ، وأقلُّها موتاً » . وقد جرت عادة الصيادلة ومجهزي الموتى أنهم يستدينون ويتسلَّفون في الربيع والصيف ، على فصل الخريف ، فهو ربيعهم ، وهم أشوق شيء إليه ، وأفرح بقدومه .

---

(146) العُوَذُ : جمع عُوذَة ، وهي الرُّقية يُرْقَى بها الإنسان من فزع أو جنون .
يقال : عَوَّذت فلاناً بالله وأسمائه ، وبالمعوِّذتين إذا قلت : أُعيذك بالله وأسمائه من كل شرٍّ وكل داءٍ وحاسدٍ وحَيْنٍ .
أما التعاويذ التى تُعلَّق على الإنسان من العين فقد نُهِيَ عن تعليقها ، مثل التمائم التى يعلقها الإنسان فى عنقه لدفع العين ، ففى الحديث « مَنْ عَلَّقَ تَمِيمَةً فلا أَتَمَّ اللهُ له » . أما المعاذات التى يكتب فيها آيات من القرآن وأسماء الله الحسنى فلا بأس بها .

(147) فى الزاد « فإن » .

(148) الرَّدْغَةُ والرَّدَغَةُ : الماء والطين ، والوَحَلُ الكثير الشديد .

(149) هكذا فى الزاد . وفى النسخ الأخرى « أبقراط » وكلاهما صواب . وهو من أشهر أطباء اليونان القدماء وله فى الطب كتاب الفصول ، وكتاب الأمراض الحادة ، وكتاب طبيعة الإنسان . وكتاب القروح وجراحات الرأس ، وغيرها . توفى سنة ٣٥٧ ق . م على الأرجح .

[انظر ترجمته فى طبقات الأطباء]

وقد روي في حديث : « إذا طَلَع النَّجْمُ ٱرْتَفَعَت ٱلْعَاهَةُ عن كلِّ بلدٍ » . وفُسر : بطلوع الثريا ؛ وفُسر : بطلوع النبات زمن الربيع . ومنه : ﴿ ٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴾[١٥٠] ؛ فإن كمال طلوعه وتمامه يكون في فصل الربيع ؛ وهو الفصل الذي ترتفع فيه الآفات .

وأما الثريا : فالأمراض تكثر وقت طلوعها مع الفجر وسقوطها . قال التَّمِيميُّ في كتاب « مادة البقاء » : « أشد أوقات السنة فسادًا ، وأعظمها بلية على الأجسام — وقتان : (أحدهما) وقت سقوط الثريا للمغيب عند طلوع الفجر ؛ (والثاني) وقت طلوعها من المشرق قبل طلوع الشمس على العالم ، بمنزلة من منازل القمر[١٥١] ، وهو وقت تصرُّمِ فصل الربيع وانقضائه . غير أن الفساد الكائن عند طلوعها ، أقلُّ ضررًا من الفساد الكائن عند سقوطها » . وقال أبو محمد بن قتيبةَ : « يقال : ما طلعت الثريا ولا نأتْ إلا بعاهة في الناس والإبِل ، وغروبها أَعْوَهُ[١٥٢] من طلوعها » .

وفي الحديث قولٌ ثالث — ولعله أولى الأقوال به —: أن المراد بالنجم الثريا ؛ وبالعاهة : الآفة التي تلحق الزرع والثمار ، في فصل الشتاء وصدْرِ فصل الربيع . فحصل الأمنُ عليها ، عند طلوع الثريا في الوقت المذكور ، ولذلك نهى — ﷺ — عن بيع الثمرة وشرائها قبل أن يبدوَ صلاحُها .

والمقصود الكلام على هَدْيِه — ﷺ — عند وقوع الطاعون .

فصل

وقد جمع النبي — ﷺ — للأمة في نهيه عن الدخول إلى الأرض التي هو بها ، ونهيه عن الخروج منها بعد وقوعه ؛ كمالَ التحرز منه ، فإن في الدخول في الأرض التي هو بها ، تعريضاً للبلاء ، وموافاةً له في محل سلطانه ، وإعانةَ الإنسان[١٥٣] على نفسه ، وهذا

---

(١٥٠) سورة الرحمن – الآية ٦ . وفى الزاد أثبت الواو فى « والنجم » كما وردت فى الآية الكريمة .

(١٥١) منازل القمر : مداراته التى يدور فيها حول الأرض ، يدور كلَّ ليلة فى أحدها لا يتخطاه ولا يتقاصر عنه ، وهى ثمانية وعشرون ، لكل منها اسم معين ، منها : الشرطان ، والبُطَين ، والثريا ، والدَّبَران . ولكل فصل من فصول السنة سبعة منازل .

(١٥٢) أعْوَه : أى أشدّ عاهةً . من عاهَ الزرْعُ والماشية : إذا أصابته عاهة .

(١٥٣) فى الزاد « للإنسان » .

مخالف للشرع والعقل . بل تجنُّبه(١٥٤) الدخولَ إلى أرضه من باب الحمية التى أرشد الله سبحانه إليها ؛ وهي حمية عن الأمكنة والأهوية المؤذية .

وأما نهيه عن الخروج من بلده ، ففيه معنيان :

أحدهما : حمل النفوس على الثقة بالله ، والتوكل عليه ، والصبر على أقضيته والرضا بها .

والثاني : ما قاله أئمة الطب : أنه يجب على كل محترز من الوباء أن يخرج من بدنه الرطوبات الفضلية ، ويقلل الغذاء ، ويميل إلى التدبير المجفف من كل وجه ؛ إلا الرياضة والحمام ، فإنهما يجب(١٥٥) أن يحذرا . لأن البدن لا يخلو غالباً من فضل رديء كامن فيه ، فتثيره الرياضة والحمام ، ويخلطانه بالكيموس الجيد(١٥٦) ، وذلك يجلب علة عظيمة بل يجب عند وقوع الطاعون السكون والدَّعة ، وتسكين هيجان الأخلاط . ولا يمكن الخروج من أرض الوباء والسفر منها ، إلا بحركة شديدة ، وهي مضرة جدًّا .

هذا كلام أفضل الأطباء والمتأخرين(١٥٧) . فظهر المعنى الطبي من الحديث النبوي ، وما فيه من علاج القلب والبدن ، وصلاحهما .

فإن قيل : ففي قول النبي ﷺ : « لا تخرجوا فِرارًا مِنْه » ؛ ما يبطل أن يكون أراد هذا المعنى الذي ذكرتموه ؛ وأنه لا يمنع الخروج لعارض ، ولا يحبس مسافرًا عن سفره .

قيل : لم يقل أحد ــ طبيبٌ ولا غيره ــ إن الناس يتركون حركاتِهم عند الطواعين ، ويصيرونَ بمنزلة الجماداتِ ، وإنما ينبغي فيه التقليل(١٥٨) من الحركة بحسب الإمكان . والفارُّ منه لا موجبَ لحركته إلا مجرد الفرار منه ؛ ودعته وسكونه أنفع لقلبه وبدنه ، وأقربُ إلى توكله على الله تعالى واستسلامه لقضائه . وأما مَن لا يستغني عن

---

(١٥٤) فى الزاد « تجنب » .

(١٥٥) فى الزاد « فإنهما مما يجب » .

(١٥٦) الكيموس : الخلاصة الغذائية . وهى مادة لَبَنِيَّة بيضاء ، صالحة للامتصاص ، تستمدها الأمعاء من المواد الغذائية فى أثناء مرورها بها « وهى لفظة يونانية معربة » .

(١٥٧) فى الزاد « الأطباء المتأخرين » .

(١٥٨) فى الزاد « التقلل » .

الحركة ــ كالصُّناع ، والأجراء ، والمسافرين ، والبُرُدِ ، وغيرهم ــ فلا يقال لهم : اتركوا حركاتكم جملةً ؛ وإن أُمروا أن يتركوا منها مالا حاجة لهم إليه ، كحركة المسافر فارًّا منه . والله تعالى أعلم .

وفي المنع من الدخول إلى الأرض التي قد وقع بها ، عدةُ حِكَم :

أحدها : تجنب الأسباب المؤذية ، والبعد منها .

الثاني : الأخذُ بالعافية التي هي مادةُ المعاش والمعاد .

الثالث : أن لا يستنشقوا الهواء الذي قد عَفِنَ وفَسَد ؛ فيمرضون .

الرابع : أن لا يُجاوِرُوا المَرْضَى الذين قد مَرِضُوا بذلك ؛ فيحصل لهم بمجاورتهم ، من جنس أمراضهم .

وفي سنن أبي داود مرفوعاً : « إن مِن القَرَف التلفَ »(159) . قال ابن قتيبة : القَرَف(160) : مداناة الوباء ، ومداناة المرضى .

الخامس : حميةُ النفوس عن الطِّيَرَة والعَدْوَى ؛ فإنها تتأثر بهما ، فإن الطِّيَرَة على مَن تطيَّر(161) بها .

وبالجملة ففي النهي عن الدخول في أرضه : الأمرُ بالحذر والحمية ، والنهيُ عن التعرض لأسباب التلف . وفي النهي عن الفرار منه : الأمر بالتوكل والتسليم والتفويض . فالأول تأديب وتعليم ، والثاني تفويض وتسليم .

---

(159) الحديث أخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب فى الطيرة [ج ٤ ص ١٧] وورد فى النهاية فى غريب الحديث [ج ٤ ص ٤٦] .

(160) وردت كلمة « العرق » فى النسخ المطبوعة بدل كلمة « القرف » التى وردت فى الزاد ، وفى سنن أبى داود ، وفى النهاية فى غريب الحديث . والحديث ورد فى المصدرين الأخيرين كاملاً ، ولفظه « أنه سُئل – صلى الله عليه وسلم – عن أرضٍ وَبِيئة ، فقال : دَعْهَا ، فإنَّ مِنَ القَرَفِ التَّلَف » . والقرفُ بفتحتين – ملابسة الداء ، ومداناة المَرْضَى . والتلف : الهلاك . وليس هذا من باب العدوى ، وإنما هو من باب الطب ، فإن استصلاح الهواء من أعون الأشياء على صحة الأبدان ، وفساد الهواء من أسرع الأشياء إلى الأسقام .
[انظر سنن أبى داود ج٤ ص ١٧ – وانظر غريب الحديث ج ٤ ص ٤٦]

(161) تطيَّرَ : تشاءم . والطِّيرَة : التشاؤم .

وفي الصحيح(١٦٢) : « أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام ، حتى إذا كان بِسَرْغَ(١٦٣) لَقيه أبو عبيدة بن الجرَّاح وأصحابه ، فأخبرُوه أنَّ الوباءَ قد وقع بالشام ، فاختلفوا ، فقال لابن عباس : ادع لي المهاجرين الأوَّلينَ . قال : فدعوتهم ، فاستشارهم : وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشام ، فاختلفوا ؛ فقال له بعضهم : خرجت لأمرٍ ، فلا نرى أن ترجع عنه . وقال آخرون : معك بقيةُ الناس وأصحاب رسول الله ﷺ ؛ فلا نرى أن تقدمهم على هذا الوباء . فقال عمر : ارتفعوا عنِّي . ثم قال : ادع لي الأنصار . فدعوتهم له ، فاستشارهم ، فسلكوا سبيل المهاجرين ، واختلفوا كاختلافهم . فقال : ارتفعوا عني ، ثم قال : ادع لي مَنْ هَاهنَا من مشيخةِ قريشٍ ، من مهاجرةِ الفتح . فدعوتهم له ، فلم يختلف عليه منهم رجلان ؛ قالوا : نرى أن تَرجِعَ بالناس ، ولا تُقْدِمَهُمْ على هذا الوباءِ . فَأَذَّنَ عمر في الناس : إني مُصْبِحٌ على ظَهْرٍ . فأصبحوا عليهِ . فقال أبو عُبيدة بن الجَرَّاح : يا أمير المؤمنين ؛ أفرَارًا من قَدَرِ الله تعالى ؟!. قال : لو غَيْرُك قالها يا أبا عبيدة ؛ نعم : نَفِرُّ من قَدَرِ الله تعالى إلى قَدَرِ الله تعالى ؛ أرأيت لو كانَ لك إبلٌ فهبطت وَادِياً له عُدْوَتان(١٦٤) : إحداهما خِصبَةٌ ، والأخرى جَدْبَةٌ ؛ أَلستَ إنْ رعيتها الخِصْبَةَ رعيتها بقدرِ الله تعالى ، وإن رعيتها الجَدْبةَ رعيتها بقدر الله [تعالى](١٦٥) !.. قال : فجاء عبد الرحمٰن بن عوف — وكانَ متغيباً في بعض حاجاتِهِ — فقال : إن عندي في هذا علمـاً ؛ سمعت(١٦٦) رسول الله ﷺ ، يقـول : « إذا كان بأرض وأنتـم بها فلا تَخْرُجوا فِرارًا منه ، وإذا سمعتم به بأرضٍ فلا تَقْدَموا عليه »(١٦٧) .

---

(١٦٢) يعنى : صحيح مسلم .

(١٦٣) سَرْغ : قرية بوادى تبوك عن طريق الشام ، بينها وبين المدينة ثلاث عشرة مرحلة .
[المرحلة : المسافة التى يقطعها المسافر فى نحو يوم على الراحلة] .

(١٦٤) عُدْوَة الوادى : جانبه ، بضم العين فى لغة قريش ، وبكسرها فى لغة قيس .

(١٦٥) ما بين المعقوفتين عن الزاد .

(١٦٦) فى الزاد « سمعتُ مِنْ » .

(١٦٧) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب ما يذكر فى الطاعون [ج ١٠ ص١٧٩ من فتح البارى] وفى كتاب الحيل ، باب ما يكره من الاحتيال فى الفرار من الطاعون [ج ١٢ ص ٣٤٤] وأخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها [ج ١٤ ص ٢٠٨ - ٢١٢] .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ في دَاءِ الاسْتِسْقَاءِ وَعِلاَجِهِ

في الصحيحين ــ من حديث أنس بن مالك ــ قال : « قَدِمَ رَهْطٌ من عُرَيْنَةَ وَعُكْل ، على النبي ﷺ ، فاجْتَوَوا المدينة ، فشكوا ذلك إلى النبي ﷺ ، فقال : لو خرجتم إلى إبل الصدقة ، فشربتم من أبوالها وألبانها . ففعلوا . فلما صَحُّوا : عمدوا إلى الرعاة ، فقتلوهم وَاستَاقُوا الإبل ، وحاربوا الله ورسوله . فبعث رسول الله ــ ﷺ ــ في آثارهم ، فَأُخِذُوا فَقطَّعَ أيديَهُم وأرجلهم ، وَسَمَلَ أعينهم ، وألقاهم في الشمس حتى ماتوا (١٦٨) .

والدليل على أن هذا المرض كان الاستسقاء ، ما رواه مسلم في صحيحه في هذا الحديث ــ أنهم قالوا : « إنا اجتوينا المدينةَ ، فعظمت بطونُنا ، وارتهشت أعضاؤُنا » ؛ وذكر تمام الحديث(١٦٩) .

والجوى : داء من أدواء الجوف . والاستسقاء : مَرَضٌ ماديٌّ ، سببه مادةٌ غريبة باردة ، تتخلل الأعضاء فتربو لها إما الأعضاء الظاهرة كلها ، وإما المواضع الخاليةُ من النواحي التي فيها تدبير الغِذاء والأخلاط . وأقسامُه ثلاثة : لحميٌّ وهو أصعبها ، وزقيٌّ ، وطبليٌّ .

ولما كانت الأدوية المحتاج إليها في علاجه ، هي الأدوية الجالبة التي فيها إطلاقٌ معتدل ، وإدرارٌ بحسب الحاجة ــ وهذه الأمور موجودةٌ في أبوال الإبل وألبانها ــ أمرهم النبي ﷺ بشربها . فإن في لبن اللِّقاح جلاءً وتليينا ، وإدرارًا وتلطيفاً وتفتيحاً

---

(١٦٨) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب الدواء بألبان الإبل وفى باب الدواء بأبوال الإبل ، [ج ١٠ ص ١٤١ ، ١٤٢ من فتح البارى] وأخرجه أيضا فى كتاب الديات . وأخرجه مسلم فى كتاب القسامة ، باب حكم المحاربين والمرتدين [ج ١١ ص ١٥٣ – ١٥٥] وأخرجه الترمذى أيضاً فى كتاب الطب ، باب ما جاء فى شرب أبوال الإبل . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب أبوال الإبل [ج ٢ ص ١١٥٨] والحديث صحيح مشهور ، برغم اختلاف طرقه وألفاظه . الرَّهْط : الجماعة من الرجال من سبعة إلى عشرة .
عُرَيْنَة وعُكْل : قبيلتان .

(١٦٩) الاستسقاء : مرض يتميز بانتفاخ البطن نتيجة لتجمع سائل مَصْلِيٍّ فى التجويف البريتونى .
واجتووا المدينة : أى استوخموها . وقيل : لم توافقهم ، وكرهوها لسقم أصابهم . ونفيد من الحديث : التطبيب بألبان الإبل وأبوالها ، فأما الألبان فهى غذاء ، ولا يمتنع أن تكون دواء فى بعض الأحوال لبعض الأمراض . أما أبوال الإبل فهى كانت تستعمل كدواء لما بها من الحرافة ، وفيها منفعة لأدواء البطن ، وخاصة الاستسقاء .

للسدد ؛ إذا[١٧٠] كان أكثرُ رعيِها الشِّيحَ والقَيْصُومَ والبَابُونَجَ والأُقْحُوَانَ والإِذْخِر[١٧١] ، وغير ذلك من الأدوية النافعة للاستسقاء .

وهذا المرض لا يكون إلا مع آفة في الكبد خاصة ، أو مع مشاركة . وأكثرها عن السدد فيها . ولبن اللِّقاحِ العربية نافعٌ من السدد ، لما فيه من التفتيح والمنافع المذكورة . قال الرازيُّ : « لبن اللِّقاح يشفي أوجاع الكبد ، وفساد المِزاج » . وقال اليهودي[١٧٢] : « لبن اللِّقاح أرقُّ الألبان ، وأكثرها مائيَّة وحِدَّة ، وأقلُّها غِذاء ، فلذلك صار أقواها على تلطيف الفضول ، وإطلاقِ البطن ، وتفتيح السدد . ويدل على ذلك ملوحتُه اليسيرة التي فيه لإفراط حرارة حيوانية بالطبع ، ولذلك صار أخص الألبان بتطرية الكبد ، وتفتيح سددها ، وتحليل صلابة الطعام[١٧٣] إذا كان حديثاً ؛ والنفع من الاستسقاء خاصة إذا استُعمل لحرارته التي يخرج بها من الضَّرْع ، مع بول الفصيل وهو حار ، كما يخرج من الحيوان . فإن ذلك مما يزيد في ملوحته ، وتقطيعه الفضولَ ، وإطلاقهِ البطن . فإن تعذر انحدارُه وإطلاقُه البطن وجب أن يطلق بدواء مسهل . قال صاحب القانون[١٧٤] : « ولا يلتفت إلى ما يقال : من أن طبيعة اللبن مضادة لعلاج الاستسقاء . قال : واعلم أن لبن النُّوق دواءٌ نافع ، لما فيه من الجلاء برفق ، وما فيه من خاصية ، وأن هذا اللبن شديد المنفعة ، فلو أن إنساناً أقام عليه بدل الماء والطعام شُفي به . وقد جُرِّبَ ذلك في قوم دُفِعوا إلى بلاد العرب ، فقادتهم الضرورةُ إلى ذلك ، فعُوفوا . وأنفعُ الأبوال بول الجمل الأعرابيِّ ؛ وهو النجيبُ » انتهى .

وفي القصة دليلٌ على التداوي والتطبُّب ، وعلى طهارة بول مأكول اللحم ، فإن

---

(١٧٠) فى الزاد « إذْ » .

(١٧١) الشيح : نبات سهْليٌّ من الفصيلة المركَّبة ، رائحته طيبة قوية ، وهو كثير الأنواع ، وترعاه الماشية ..
القَيْصُوم : نبات من الفصيلة المركبة ، وهو قريب من نوع الشيح ، ويكثر فى البادية .
البَابُونَج : من النباتات العشبية ، وهو من فصيلة المركبات ، ويستعمل فى الصباغة والتداوى .
الأُقْحُوان : نبات زهره أصفر أو أبيض ، وورقه يشبه أسنان المنشار . ومنه البابونج .
الإِذْخِر : حشيش طيب الرائحة ، يُطحن ويدخل فى الطِّيب .

(١٧٢) فى الزاد « الإسرائيلى » .

(١٧٣) فى الزاد « الطحال » .

(١٧٤) يعنى : ابن سينا . وكتابه : القانون فى الطب .

التداوي بالمُحرَّمات غير جائز[175] ؛ ولم يؤمروا — مع قرب عهدهم بالإسلام — بغسل أفواههم ، وما أصابته ثيابُهم من أبوالها ، للصلاة . وتأخير البيان لا يجوز عن وقت الحاجة ، وعلى مقابلة الجاني بمثل ما فعل ، فإن هؤلاء قتلوا الراعيَ ، وسَمَلُوا عينيه ، ثبت ذلك في صحيح مسلم ، وعلى قتل الجماعة وأخذِ أطرافهم بالواحد ، وعلى أنه إذا اجتمع في حق الجاني حدٌّ وقصاصٌ استوفيا معاً . فإن النبي — ﷺ — قطع أيديهم وأرجلهم حدًّا لله على جرأتهم[176] ؛ وقَتَلَهُمْ ، لِقَتْلِهِمُ الرّاعيَ ، وعلى أنَّ المُحارِبَ إذا أخذ المال وقتل ، قطعت يده ورجله في مقام واحد ، وقتل . وعلى أن الجنايات إذا تعددت تغلَّظت عقوباتها ؛ فإن هؤلاء ارتدُّوا بعد إسلامهم ، وقتلوا النفس ، ومَثَّلوا بالمقتول ، وأخذوا المال ، وجاهروا بالمحاربة . وعلى أن حكم رِدْءِ المحاربين حكم مباشرهم ؛ فإنه من المعلوم أن كل واحد منهم لم يباشر القتل بنفسه ، ولا سأل النبي ﷺ عن ذلك . وعلى أن قتل الغِيلةِ يوجب قتل القاتل حدًّا ، فلا يسقطه العفو ، ولا تعتبر فيه المكافأة . وهذا مذهب أهل المدينة ، وأحد الوجهين في مذهب أحمد اختاره شيخنا[177] ، وأفتى به .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ في عِلاجِ الجُرْحِ

في الصحيحين عن أبي حازمٍ : « أنه سمع سَهْلَ بن سعدٍ يسأل عما دُووِيَ به جُرْحُ رسولِ الله ﷺ ، يوم أُحُدٍ . فقال : جُرِح وجهه ، وكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ وهشمت البيضة على رأسه . وكانت فاطمة بنتُ رسول الله ﷺ تغسلُ الدمَ ؛ وكان عليُّ بن أبي طالب

---

(175) هنا فيه خلاف بين الفقهاء ، فأجاز بعضهم التداوى بالمحرم فى حالة الاضطرار القصوى ، إن لم يكن هناك بديل غيره . [انظر صحيح الترمذى كتاب الطب ، باب التداوى بالخمر] .

(176) فى الزاد « على حرابهم » أى : على قتالهم وفسادهم . وفى التنزيل العزيز « إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أنْ يُقَتَّلوا » [سورة المائدة – الآية 33] .

(177) يعنى به : ابن تيمية ، أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، الحرانى الدمشقى الحنبلى ، أبو العباس تقى الدين ابن تيمية . وُلد فى حران سنة 661 هـ ، وذهب به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر . أثرى المكتبة العربية والإسلامية بتصانيفه الكثيرة ، وكان كثير البحث فى فنون الحكمة ، داعية إلى إصلاح فى الدين ، آية فى التفسير والأصول ، فصيح اللسان ، ناظرَ العلماء ، واستدلَّ وبرّع فى العلم والتفسير ، وأفتى وتصدى للدرس وهو دون العشرين . توفى معتقلاً بقلعة دمشق سنة 728 هـ وخرجت دمشق كلها فى جنازته . [انظر الأعلام للزركلى ج 1 ص 140]

يسكُب عليها بالْمِجنّ ، فلما رأت فاطمة الدمَ لا يزيد إلا كَثرةً ، أخذت قطعة حصيرٍ فأحرقتها ، حتى إذا صارت رَمادًا ألصقتهُ بالجُرح ، فاستمسك الدمُ »(١٧٨) برمَادِ الحصيرِ المعمول من البَردىّ(١٧٩) . وله فعلٌ قويٌّ في حبس الدم ، لأن فيه تجفيفاً قويًّا ، وقلِةَ لَذْع ، فإن الأدوية القوية التجفيف ، إذا كان فيها لذعٌ هَيَّجَتِ الدَّمَ وجَلَبَتْه .

وهذا الرَّماد إذا نُفح(١٨٠) وحده أو مع الخل في أنف الراعِفِ قَطع رُعافَه(١٨١) .

وقال صاحب القانون : « البَرْدِيُّ ينفع من النزف ويمنعه ، ويُذَرُّ على الجراحات الطرية فيدملها(١٨٢) . والقرطاسُ المصري كان قديماً يعمل منه . ومزاجُه بارد يابس ورماده نافع من آكِلةِ الفمِ . ويحبسُ نَفثَ الدم ، ويمنع القروح الخبيثة أن تسعى » .

فَصْلٌ فِى هَدْيِهِ فِى العِلَاجِ بِشُرْبِ العَسَلِ وَالحِجَامَةِ وَالكَىِّ

في صحيح البخاري عن سعيد بن جُبيرٍ ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال :

---

(١٧٨) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد ، باب لبس البيضة [ج ٦ ص ٩٦ ، ٩٧] وأخرجه مسلم فى الجهاد أيضاً ، باب غزوة أحد [ج ١٢ ص ١٤٨] وأخرجه ابن ماجه فى سننه فى كتاب الطب ، باب دواء الجراحة [ج ٢ ص ١١٤٧] .

الرَّباعِيَة : السّن بين الثنيّة والناب ، وهى أربع ، رَباعيتان فى الفك الأعلى ، ورباعيتان فى الفك الأسفل .

والبيضة : الخُوذَة .

والمِجن : الترس ، وهو ما يُتَوَقَّى به فى الحرب .

(١٧٩) البَرْدِيُّ : نبات مائى من الفصيلة السعدية ، يشبه القصب ، ترتفع ساقه نحو متر أو أكثر ، وهو ينمو بكثرة فى منطقة المستنقعات بأعالى النيل . وصَنَعَ منه المصريون القدماء وَرَقَ البردى المعروف ، واستخدموه فى أغلب متطلبات حياتهم . فقد استخدموا الجزء الرخو فى أسفل ساقه كطعام ، وصنعوا من سيقانه أثاثهم . من صناديق ، ومناضد ، وسلال ، ومراكب للصيد .

[انظر البردى للدكتور حسن رجب سلسلة اقرأ]

(١٨٠) فى الزاد « نفخ » . ونُفِحَ : دُفِعَ أو أُعْطِىَ . ويقال أيضًا : نفحت الريح ، أى : هَبَّتْ .

(١٨١) الرُّعاف : خروج الدم من الأنف .

(١٨٢) فيدملها : أى يجعلها تندمل وتبرأ .

« الشفاء في ثلاثٍ : شَرْبَة عسلٍ ، وشَرْطة مِحْجَمٍ ، وكَيَّة نار . وأنا أَنْهى أُمتي عن الْكيِّ »(١٨٣) .

قال أبو عبد الله المازِريُّ : « الأَمراض الامتلائيةُ إما أن تكون دمويةً ، أو صفراوية ، أو بلغمية ، أو سوداويةً ، فإن كانت دمويةً فشفاؤها إخراجُ الدم ، وإن كانت من الأَقسام الثلاثة الباقية فشفاؤها بالإسهال الذي يَليق بكل خلط منها . وكأنه ـــ ﷺ ـــ نَبَّهَ بالعسل على المسهلات ، وبالحجامة على الفَصْد . وقد قال بعض الناس : إن الفصد يدخل في قوله : « شَرْطَة مِحْجَم » . فإذا أَعْيَا الدواءُ فآخرُ الطبِّ اَلْكَيُّ . فذكره ـــ ﷺ ـــ من(١٨٤) الأدوية ، لأنه يُستعمل عند غلبة الطباع لقُوَى الأدوية ، وحيثُ لا ينفعُ الدواءُ المشروب . وقوله : « أنا(١٨٥) أَنْهي أُمتي عن الكَيِّ » ، وفي الحديث الآخر : « وما أحبُّ أن أَكْتَوِيَ »(١٨٦) . إشارةٌ إلى أن يُؤَخِّرَ العلاج به حتى تدفَع الضرورة إليه ؛ ولا يعجلَ التداوي به ، لما فيه من استعجال الأَلم الشديد في دفع أَلمٍ قد يكون أضعفَ من أَلم الكي » . انتهى كلامه .

---

(١٨٣) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب الشفاء فى ثلاث [ج ١٠ ص ١٣٦ ، ١٣٧ من فتح البارى] وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب الكىّ [ج٢ ص ١١٥٥] .

الحجامة : امتصاص الدم بالمحجم .

الشفاء فى ثلاث : أى متفرقة لا مجتمعة .

شرطة محجم : شرط الحاجم إذا ضرب على موضع الحجامة ضرباً شق به الجلد . وأنهى أمّتى عن الكَىّ : لأنه أشد الثلاث ، فلا ينبغى استعماله إلاَّ لضرورة . والنهى للتنزيه . ولم يرد النبى ، ﷺ ، حصر الشفاء فى هذه الثلاثة ، فإن الشفاء قد يكون فى غيرها ، وإنما نبه على أصول العلاج . وهنا خص الحجم بالذكر – دون الفصد – لكثرة استعمال العرب وإلفهم له ، بخلاف الفصد ، فإنه – وإن كان فى معنى الحجم – لكنه لم يكن معهودًا لها غالبًا . والحجم فى البلاد الحارة أنجح من الفصد ، والفصد فى البلاد التى ليست بحارة أنجح من الحجم . [انظر فتح البارى] والآن بعد أن تقدم الطب ، وتطورت أدواته تطورت أساليب العلاج بالحجامة ، ولكن لم يعد لها الأهمية التى كانت لها فى الماضى إلاَّ فى القليل من الحالات المرضية الخاصة . والعلاج بالكىّ يستخدم الآن – بعد أن تطورت أساليبه – فى علاج الأمراض الجلدية ، وجراحات التجميل ، وفى علاج وقرحة الرحم وقرحة القرنية وغيرها .

(١٨٤) فى الزاد « فى » .

(١٨٥) فى الزاد « وأنا » .

(١٨٦) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب من اكتوى أو كَوَى غيره [ج ١٠ ص١٥٤ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب لكل داء دواء ، واستحباب التداوى [ج ١٤ ص ١٩٢] .

وقال بعض الأطباء : الأمراضُ المِزاجية إما أن تكون بمادة ، أو بغير مادة ؛ والمادية منها إما حارةٌ ، أو باردةٌ ، أو رَطبةٌ ، أو يابسةٌ ، أو ما تركب منها . وهذه الكيفيات الأربعُ منها كيفيتان فاعلتان ، وهما : الحرارةُ والبرودةُ . وكيفيتان منفعلتان ، وهما : الرطوبةُ واليبوسةُ . ويلزم من غلبة إحدى الكيفيتين الفاعلتين ، استصْحابُ كيفية منفعلة معها . وكذلك كان لكل واحد من الأخلاط الموجودة في البدن وسائر المركبات ، كيفيتان : فاعلةٌ ومنفعلةٌ .

فحصل من ذلك : أن أصل الأمراض المزاجية ، هي التابعة لأقوى كيفيات الأخلاط ، التي هي : الحرارةُ والبرودةُ . فجاء كلام النبوة في أصل معالجة الأمراض ــ التي هي الحارة والباردة ــ على طريق التمثيل ، فإن كان المرض حارًّا عالجناه بإخراج الدم ــ بالفَصْد كان أو بالحِجامة ــ لأن في ذلك استفراغاً للمادة ، وتبريدًا للمِزاج . وإن كان باردًا عالجناه بالتسخين ؛ وذلك موجود في العسل . فإن كان يحتاج مع ذلك إلى استفراغ المادة الباردة ، فالعسل أيضاً يفعل في ذلك ، لما فيه من الإنضاج والتقطيع ، والتلطيف ، والجلاء ، والتليين . فيحصل بذلك استفراغ تلك المادة برفق ، وأَمْنٍ من نكاية المسهلات القوية .

وأما الكيُّ : فلأن كُلَّ واحد من الأمراض المادية ، إما أن يكون حادًّا ، فيكون سريع الإفضاء لأحد الطرفين ، فلا يُحتاج إليه فيه . وإما أن يكون مُزْمِناً ، وأفضلُ علاجه بعد الاستفراغ الكيُّ في الأعضاء التي يجوز فيها الكيُّ ، لأنه لا يكون مزمناً إلا عن مادة باردة غليظة قد رسختْ في العضو ، وأفسدتْ مِزاجَه ، وأحالتْ جميع ما يصل[187] إليه إلى مشابهة جوهرها ، فيشتعل[188] في ذلك العضو ، فيُستخرجُ بالكَيِّ تلك المادةُ ، من ذلك المكان الذي هو[189] فيه ، بإفناء الجزء الناري الموجود بالكَيِّ لتلك المادة .

---

(١٨٧) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « يتصل » .

(١٨٨) أي : فيؤثِّر .

(١٨٩) هكذا في الزاد . وهو المناسب والصحيح . وفي النسخ المطبوعة « هي » .

فتعلمنا بهذا الحديث الشريف أَخْذَ معالجة الأمراض المادية جميعها ، كما استنبطنا معالجةَ الأمراضِ الساذَجةِ من قوله ﷺ : « إنَّ شِدَّةَ الحُمَّى مِن فَيْح جَهَنَّم ، فأَبرِدُوهَا بالماء ».

فصل

وأما الحِجَامةُ ، ففي سنن ابن ماجهْ — من حديث جُبَارَةَ بن المُغَلِّس ، وهو ضعيفٌ ، عن كَثِيرِ بن سُلَيْم — قال : سمعتُ أَنَسَ بن مالكٍ ، يقولُ : قال رسول الله ﷺ : « ما مَررتُ ليلةَ أُسْرِيَ بي بملإٍ ، إلا قالُوا : يا محمدُ ؛ مُرْ أُمتكَ بالحجامة »[190] . وروى الترمذيُّ في جامعه — من حديث ابن عباس — هذا الحديث ، وقال فيه : « عليكَ بالحجامةِ يا محمدُ »[191] .

وفي الصحيحين — من حديث طاووس ، عن ابن عباس : « أنَّ النبيَّ ﷺ احتَجمَ ، وأَعْطى الحجامَ أَجْرَه »[192] .

وفي الصحيحين أيضاً — عن حُميدٍ الطويلِ ، عن أنس : أنَّ رسول الله ﷺ ، « حجمهُ أَبُو طيبةَ ، فأَمَرَ لهُ بصَاعينِ مِن طعامٍ ؛ وكلَّمَ مواليهُ ، فخفَّفُوا[193] عنهُ مِن ضريبتِهِ ؛ وقال : خيرُ ما تَدَاويتُم بِهِ الْحِجَامة »[194] .

---

(١٩٠) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب باب الحجامة [ج ٢ ص ١١٥١] ورواه الترمذى فى كتاب الطب أيضاً ، باب ما جاء فى الحجامة ، عن ابن مسعود [ج ٨ ص ٢٠٩] وقد ضعفه ابن ماجه لوجود جبارة وكثير فى إسناده . وقال عنه الترمذى : حسن غريب ، وفى الضعفاء الكبير [ج ٤ ص ٥] أن كثير بن سليم الضبى ضعيف .

(١٩١) أخرجه الترمذى فى كتاب الطب ، باب ما جاء فى الحجامة [ج ٨ ص ٢١٠] وفيه عباد بن منصور ، وهو ضعيف مُدَلِّس ، وجرَّحهُ ابن حبّان [انظر كتاب الضعفاء الكبير ج ٢ ص ١٣٤] .

(١٩٢) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب السَّعُوط ، وفى آخره « وَاسْتَعَطَ » أى : استعمل السَّعُوط [ج ١٠ ص ١٤٧ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب لكل داء دواء [ج ١٤ ص ١٩٤] .

(١٩٣) هكذا فى الزاد ، وفى البخارى . وفى النسخ المطبوعة « فخفضوا » وهى بمعناه .

(١٩٤) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب الحجامة من الداء [ج ١٠ ص ١٥٠ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى كتاب المساقاة ، باب حِل أجرة الحجامة [ج ١٠ ص ٢٤٢] .

وفي جامع الترمذيّ : عن عباد بن منصور ، قال : سمعتُ عِكْرِمَةَ يقولُ : « كانَ لابن عباسٍ غِلمةٌ ثلاثةٌ حَجَّامُونَ ؛ فكانَ اثنانِ يُغِلَّانِ عليهِ وَعَلَى أَهْلِهِ ، وواحدٌ لحجمِهِ وحجم أهلِهِ ، فقال[(١٩٥)] : وقال ابنُ عباسٍ : قال نبيُّ الله ﷺ : « نِعْمَ العَبْدُ الحَجَّامُ : يَذْهَبُ بِالدَّمِ ، وَيُخِفُّ الصُّلْبَ ، ويجلُو عَنِ البصرِ »[(١٩٦)] وقال : إن رَسولَ الله ﷺ ــ حيث عُرِجَ بِهِ ــ ما مرَّ عَلَى مَلأٍ مِن الملائكةِ ، إلَّا قالُوا : عليكَ بالحجامةِ . وقالَ : « إنَّ خيرَ ما تحتجمونَ[(١٩٧)] فيه يومُ سبعَ عشرةَ ، ويومُ تسعَ عشرةَ ، ويومُ إحدَى وعشرينَ . وقال : إنَّ خيرَ ما تَدَاويتُمْ بِهِ السَّعوطُ ، واللَّدُودُ ، والحِجَامَةُ ، والمَشِيُّ[(١٩٩)] . وإنَّ رسولَ ﷺ لُدَّ ، فقالَ : مَنْ لَدَّنِي ؟ فَكُلُّهُمْ أَمْسَكُوا . فقال : لا يبقَى أحدٌ في البيتِ إلا لُدَّ ، إلَّا العباسَ» . قال : هذا حديث غريب . ورواه ابن ماجَةْ[(٢٠٠)] .

فصل

وأما منافعُ الحِجَامَة فإنها تُنَقِّي سطح البدن أكثرَ من الفَصْد ؛ والفصد لأعماق البدن أفضلُ . والحِجامةُ تستخرجُ الدمَ من نواحي الجلد .

قلتُ : والتحقيقُ في أمرها وأمْرِ الفصد أنهما يختلفان باختلاف الزمانِ والمكانِ ، والأسنانِ والأمزجةِ . والبلادُ[(٢٠١)] ، الحارةُ ، والأزمنةُ الحارةُ ، والأمزجة الحارة ــ التي

---

(١٩٥) في الزاد « قال » .

(١٩٦) هكذا في الزاد ، وسنن ابن ماجه . وفي بعض النسخ « يُذْهِبُ الدَّمَ ويجففُ الصلبة » . [انظر سنن ابن ماجه كتاب الطب – باب الحجامة ج ٢ ص ١١٥١] .

(١٩٧) هكذا في الزاد ، وسنن الترمذي . وفي النسخ المطبوعة « يحتجمون » .

(١٩٨) السَّعُوط : الدواء يُدْخَلُ في الأنف (النشوق) .

واللَّدُود : ما يُصَبُّ من الأدوية ونحوها في أحد شقي الفم . ويقال : لَدَّ المَرِيضَ لدًّا : إذا أخذ بلسانه فمدَّه إلى أحد شقي الفم ، وصَبَّ الدواء في الشق الآخر .

(١٩٩) المَشِيّ : الدواء المُسَهِّل .

(٢٠٠) وأخرجه الترمذي في الطب ، باب ما جاء في الحجامة [ج ٨ ص ٢١٠ ، ٢١١] والحديث ضعيف ، لأن فيه عبَّاد ابن منصور ، وقد سبق الحديث عنه .

(٢٠١) في الزاد « فالبلاد » .

دمُ أصحابها في غاية النُّضج ــ الحجامةُ فيها أنفعُ من الفَصْدِ بكثير ، فإن الدم ينضج ويَرِقُّ(٢٠٢) ويخرج إلى سطح الجسد الداخل ، فتُخرِجُ الحِجَامَةُ ما لا يُخْرِجُهُ الفَصْدُ ، ولذلك كانتْ أنفعَ للصبيان من الفَصْد ، ولِمَنْ لا يَقْوَى على الفَصْد .

وقد نص الأطباء على أن البلاد الحارةَ ، الحجامةُ فيها أنفعُ وأفضلُ من الفَصْد ؛ وتستحبُّ في وسط الشهر ، وبعد وسطه ، وبالجملة ، في الربع الثالث من أرباع الشهر ، لأن الدم في أول الشهر لم يكن بعدُ قد هاج وتَبَيَّغ(٢٠٣) ؛ وفي آخره يكونُ قد سكن . وأما في وسطه وبُعَيْده(٢٠٤) فيكونُ في نهاية التَّزيُّد .

قال صاحب القانون : « وَيُؤْمَرُ باستعمال الحِجَامة لا في أول الشهر ، لأن الأخلاط لا تكون قد تحركت وهاجت ؛ ولا في آخره ، لأنها تكون قد نقصت ، بل في وسط الشهر ، حين تكون الأخلاطُ هائجةً بالغةً في تزايدها ، لتزايد النور في جُرم القمر . وقد روي عن النبي ﷺ ــ أنه قال : « خَيْرُ ما تَدَاوَيْتُمْ بِهِ الحِجَامَةُ ، والفَصْدُ » . وفي حديث : « خير الدواءِ الحِجامة والفِصَاد(٢٠٥) » .

وقوله ﷺ : « خير ما تداويتم به الحِجَامة » ، إشارة إلى أهل الحجاز والبلاد الحارَّة ، لأن دِماءَهم رقيقة ، وهي أميَلُ إلى ظاهر أبدانهم ، لجذب الحرارة الخارجة لها إلى سطح الجسد ، واجتماعها في نواحي الجلد ؛ ولأن مسامَّ أبدانهم واسعةٌ ، وقواهم مُتخلخِلةٌ . ففي الفصد لهم خطرٌ . والحِجامة تفرُّق اتصاليٌّ إراديٌّ يتبعه استفراغٌ كلّيٌّ من العروق ، وخاصةً العروق التي لا تُفصد كثيرًا ، ولِفَصد كُلِّ واحد منها نفعٌ خاصٌّ . ففصد البَاسِلِيق(٢٠٦) ينفع من حرارة الكبد والطحال والأورام الكائنة فيهما من الدم ؛ وينفع من أورام الرئة ، وينفع [مِنَ] الشَّوْصَة(٢٠٧) وذات الجَنْبِ ، وجميع

---

(٢٠٢) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « ويروق » .

(٢٠٣) يقال : تَبَوَّغ – أو تَبَيَّغَ الدَّم بفلان : ثار به حتى غلبه .

(٢٠٤) تصغير « بعد » .

(٢٠٥) في الزاد « والفصد » .

(٢٠٦) الباسليق : وريد في الإباض ، يمتد من العَضُد على إنْسِيَّة العَضَلة ذات الرأسين .

(٢٠٧) ما بين المعقوفتين زيادة عن الزاد . والشَّوْصَة : وجع البطن من ريح . وتطلق أيضاً على اختلاج العِرْق واضطرابه .

الأمراض الدموية العارضة من أسفل الرُّكبة إلى الوَرِك . وفصد الأكحل ينفع من الامتلاء العارض في جميع البدن إذا كان دمويًّا ، وكذلك إذا كان الدم قد فسد في جميع البدن . وفَصْد القِيفالِ[٢٠٨] ينفع من العلل العارضة في الرأس والرقبة ، من كثرة الدم أو فساده . وفصْد الودَجَيْن[٢٠٩] ينفع من وجع الطحال والربو والبَهْر[٢١٠] ، ووجع الجبين .

والحجامة على الكاهل تنفع من وجع المَنْكِبِ والحلق . والحِجَامة على الأَخْدَعَيْن تنفع من أمراض الرأس وأجزائه : كالوجه ، والأسنان ، والأذنين ، والعينين ، والأنف ، والحلق ؛ إذا كان حدوث ذلك عن كثرة الدم ، أو فساده ، أو عنهما جميعاً . قال أنس رضي الله تعالى عنه : « كان رسول الله ﷺ يحتجم في الأَخْدَعيْن والكاهل »[٢١١] .

وفي الصحيحين عنه : « كان رسول الله ﷺ يحتجم ثلاثاً : واحدةً على كاهله ، واْثنتين على الأخدعيْن »[٢١٢] .

وفي الصحيح عنه : « أنه احتجم — وهو محرمٌ — في رأسه ، لِصداع كان به »[٢١٣] .

---

(٢٠٨) هكذا في الزاد . وفي بعض النسخ المطبوعة « القفال » .
والقيفال : وريد في الجانب الوَحْشيّ من العضد .

(٢٠٩) الوَدَج : عِرْق في العنق – والإنسان له ودَجَان ، أي : عِرْقان غليظان يكتنفان ثُغْرَة النحر يميناً ويسارًا .

(٢١٠) البَهْر : تتابع النَّفَس من الإعياء والإجهاد .

(٢١١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب موضع الحجامة [ج ٢ ص ١١٥٢]وأخرجه الترمذي في الطب ، باب ما جاء في الحجامة [ج ٨ ص ٢٠٩] وأخرجه أبو داود في كتاب الطب ، باب موضع الحجامة ، وفيه « أنَّ النبي (ص) احتجم ثلاثاً في الأخدعين والكاهل » [ج٤ ص ٤] .

(٢١٢) هذا الحديث لم يرد في الصحيحين (البخاري ومسلم) كما ذكر المؤلف – رحمه الله – بل ورد في سنن أبي داود في كتاب الطب ، باب موضع الحجامة [ج ٤ ص ٤] كما أخرجه أحمد في مسنده والترمذي في سننه .

(٢١٣) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب الحجامة من الشقيقة والصداع . ونص الحديث عن ابن عباس « أن رسول الله (ص) احتجم – وهو مُحْرِم – في رأسه من شقيقة كانت به » .
والشقيقة : وجع في أحد جانبي الرأس ، أو في مقدّمه . وذكر أهل الطب أنه من الأمراض المزمنة ، وسببه أبخرة مرتفعة ، أو أخلاط حارّة أو باردة ، ترتفع إلى الدماغ ، فإن لم تجد منفذاً أحدثت الصداع ، فإن مالت إلى أحد شقي الرأس أحدثت الشقيقة [انظر فتح الباري ج ١٠ ص ١٥٣] .

وفي سنن ابن ماجه ، عن عَلِيّ : « نزل جبريل على النبي — ﷺ — بحجامة الأخدعين والكاهل »[٢١٤] .

وفي سنن أبي داود — من حديث جابر —: « أن النبي ﷺ ، احتجم في وركه من وَثْءٍ كان به »[٢١٥] .

فصل

واختلف الأطباء في الحِجامة على نُقْرَةِ القفا ، وهي : القَمَحْدُوَةُ .

وذكر أبو نعيم — في كتاب الطب النبويّ — حديثاً مرفوعاً : « عليكم بالحِجَامَة في جَوْزَةِ القَمَحْدُوَةِ ، فإنها تشفي من خمسة أدواءٍ » ذكر منها الجُذَامَ . وفي حديث آخر : « عليكم بالحِجامة في جَوْزَةِ القَمَحْدُوَةِ ؛ فإنها شفاءٌ من اثنين وسبعين داءً »[٢١٦] .

فطائفةٌ منهم استحسنته ، وقالت : إنها تنفع في جحوظ[٢١٧] العين والنُّتُوءِ العارض فيها ، وكثير من أمراضها ، ومن ثِقَلِ الحاجِبَيْنِ والجَفْن ؛ وتنفع من جربه .

---

(٢١٤) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب موضع الحجامة [ج ٢ ص ١١٥٢] وهو ضعيف ، لأن فى إسناده أصْبَغ ابن نُباتة التيمى .

(٢١٥) أخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب متى تستحب الحجامة [ج ٤ ص ٥] .
والوَثْءُ : ألَمٌ يصيب اللحم ولا يبلغ العظم فَيَرِم . وفى هامش سنن أبى داود : هو وجع يصيب العضو من كسر . وفى لسان العرب : وَصْمٌ – أى ألم – يصيب اللَّحم ولا يبلغ العَظْم . وفيه أيضاً أنه : كَسْرُ اللحم لا كَسْرُ العظم . وفى بعض النسخ « احتجم ... مِنْ وَثْىٍ كانَ به » أى : مِنْ ضَعْف . وفى سنن ابن ماجه عن جابر : أن النبى (ص) سقط عن فَرَسِه على جذع فانفكت قدمه . قال وكيع : يعنى أن النبى (ص) احتجم عليها من وَثْءٍ . [انظر سنن ابن ماجه كتاب الطب ، باب موضع الحجامة ج ٢ ص ١١٥٣] وفى النَّسائى رُوِى مرة عن أنس ومرة عن جابر [انظر سنن النَّسائى كتاب مناسك الحج ، باب حجامة المحرم من عِلّة تكون به – وحجامة المحرم على ظهر القدم ج ٥ ص ١٩٤] .

(٢١٦) جاء فى مجمع الزوائد : عن صهيب قال : قال رسول الله (ص) : « عليكم بالحجامة فى جوزة القمحدوة ، فإنه داء من اثنين وسبعين داءً ، وخمسة أدواء من الجنون والجذام ، والبرص ، ووجع الضرس » . رواه الطبرانى ، ورجاله ثقات .
[انظر مجمع الزوائد ج ٥ ص ٩٧]

(٢١٧) فى الزاد « مِنْ جَحْظ » وهى لا تأتى إلاّ من الفعل جَحّظ ، بمعنى : حَدَّد النَّظَر ، وهو لا يناسب المقام هنا .
والجحوظ : نتوء حدقة العين وبروزها . ومثله « الجحاظ »
[انظر لسان العرب والمعجم الوسيط – مادة جحظ]

وَرُوِىَ أن أحمد بن حنبل احتاج إليها ، فاحتجم في جانبي قفاه ، ولم يحتجم في النُّقرة .

وممن كرهها صاحب القانون ، وقال : « إنها تُورِث النِّسيان حقًّا ؛ كما قال سيدنا ومولانا وصاحب شريعتنا محمدٌ ﷺ ، فإن مُؤَخَّرَ الدماغ موضع الحفظ ، والحجامة تذهبه » . انتهى كلامه .

ورد عليه آخرون ، وقالوا : الحديث لا يَثبتُ ؛ وإن ثبت فالحِجَامة إنما تُضعف مؤخَّرَ الدماغ ، إذا استُعمِلَتْ لغير[٢١٨] ضرورة . فأما إذا استعملت لغلبة الدم عليه[٢١٩] ، فإنها نافعة له طِباً وشَرعاً ؛ فقد ثبت عن النبي ﷺ : أنه احتَجَمَ في عدة أماكنَ من قفاه ، بحسب ما اقتضاه الحالُ في ذلك ؛ واحتَجَمَ في غير القفا ، بحسب ما دعت إليه حاجتُهُ .

فصل

والحِجَامةُ تحت الذقن تنفعُ من وجع الأسنان والوجه والحلقوم ، إذا استُعْمِلَتْ في وقتها ؛ وتُنَقِّي الرأس والفكَّيْن[٢٢٠] .

والحجامةُ على ظهر القدم تَنوبُ عن فَصْدِ الصَّافِنِ ؛ وهو : عرق عظيم عند الكعب . وتنفع من قروح الفَخِذين والساقين ، وانقطاع الطَّمْثِ ، والحِكَّةِ العارضة في الأُنْثَيَيْن .

والحجامةُ في أسفل الصدر نافعةٌ من دماميل الفخذِ وجَرَبِهِ وبُثورِه ، ومن النِّقْرِس والبواسيرِ والفِيلِ[٢٢١] وحكةِ الظهر .

---

(٢١٨) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « بغير » .

(٢١٩) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « عليها » .

(٢٢٠) هكذا فى الزاد . وفى سائر النسخ « الكفين » .

(٢٢١) النِّقْرِسُ : مَرَض مؤلم يحدث فى مفاصل القدم ، وفى إبهامها أكثر ، وكان يُسمى « داء الملوك » . والفيل : أى مرض الفيل ، وهو تضخم يحدث فى القدم والسّاق نتيجة سدّ الأوعية اللِّمْفَاوِيَّة .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ في أَوْقَاتِ الحِجَامَة

روى الترمذي في جامعه ـــ من حديث ابن عباس ، يرفعه: « إنَّ خير ما تحتجمون فيه يومُ سَابعَ عَشْرَةَ ، أو تاسِعَ عَشْرَة ، ويومُ إحدى وعشرين »(٢٢٢) .

وفيه عن أنس : « كان رسول الله ﷺ . يحتجم في الأخدعين ، والكاهل ، وكان يحتجم لسبعة عشر ، وتسعة عشر ، وفي إحدى وعشرين »(٢٢٣) .

وفي سنن ابن ماجه ـــ عن أنس مرفوعاً ـــ: « من أراد الحجامة فَلْيَتَحَرَّ سَبْعَةَ عَشَرَ ، أو تِسْعَةَ عشر ، أو إحْدَى وعِشْرِينَ ؛ ولا يَتَبَيَّغْ بأحَدِكُمُ الدَّمُ ، فيقتلَه »(٢٢٤) .

وفي سنن أبي داود ـــ من حديث أبي هريرة مرفوعاً ـــ: « من احتَجَم لِسَبْعَ عَشَرَةَ ، أو تِسْعَ عَشَرَةَ ، أو إحْدَى وعِشرين ، كانت شِفاءً من كلِّ داءٍ »(٢٢٥) . وهذا معناه : من كل داءٍ سَبَبُهُ غلبة الدم .

وهذه الأحاديث موافقة لما أجمع عليه الأطباء : أن الحجامة ـــ في النصف الثاني ، وما يليه من الربع الثالث من أرباعه ـــ أنفع من أوله وآخره ؛ وإذا استُعْمِلَتْ عند الحاجة إليها ، نفعت أيَّ وقت كان ، من أول الشهر وآخره .

قال الخَلَّال : أخبرني عصمةُ بن عصام ، قال : حدثنا حَنبل ، قال : كان أبو عبد الله أحمد بن حنبل يحتجم أيَّ وقت هاج به الدم ، وأيَّ ساعة كانت .

وقال صاحب القانون : « أوقاتها في النهار ، الساعة الثانية أو الثالثة . ويجب توقيتُها بعد الحمَّام ، إلا فيمن دمُهُ غليظ ، فيجب أن يستحِمَّ ، ثم يستجم(٢٢٦) ساعة ، ثم يحتجم » انتهى .

---

(٢٢٢) ورد – في متن الحديث – في الترمذي « يوم سَبْعَ عشرة ، ويوم تِسْعَ عَشْرَة » وسنده ضعيف ، لأن فيه عباد بن منصور . وقد أشرنا إلى ذلك من قبل .

(٢٢٣) أخرجه الترمذي في كتاب الطب ، باب ما جاء في الحجامة [ج ٨ ص ٢٠٩] وفيه « لسبع عشرة وتسع عشرة » وقال الترمذي : حسن غريب .

(٢٢٤) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب في أيِّ الأيام يحتجم [ج ٢ ص ١١٥٣] .
وفي الزوائد : إسناده ضعيف ، لضعف النهاس بن قَهْم . والمتن صحيح .

(٢٢٥) أخرجه أبو داود في كتاب الطب ، باب متى تُستحب الحجامة [ج ٤ ص ٤ ، ٥] وسنده حسن .

(٢٢٦) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « يحم » تحريف .

وتكره عندهم الحجامة على الشِّبع ، فإنها ربما أورثت سددًا وأمراضاً رديئة ، ولاسيما[٢٢٧] إذا كان الغذاء رديئاً غليظاً .

وفي أثر : « الحجامةُ عَلَى الريق دَوَاءٌ ، وَعَلَى الشبع داءٌ ، وفي سبعة عشر من الشهر شفاءٌ » .

واختيار هذه الأوقات للحجامة ، فيما إذا كانت على سبيل الاحتياط والتحرز من الأذى ، وحفظاً للصحة . وأما فى مداواة الأمراض فحيثما وُجد الاحتياج إليها ، وجَب استعمالها .

وفي قوله : « لَا يَتَبَيَّغ بأحدِكم الدمُ ، فيقتُلَه » دلالة على ذلك ، يعني : لئلا يتبيغ ؛ فحذف حرف الجر من « أن » ، ثم حُذفت « أن » . و « التَّبَيُّغُ » : الهَيْجُ ؛ وهو مقلوب البغي . وهو بمعناه ، فإنه بغيُ الدم وهيجانه . وقد تقدم أن الإمام أحمدَ كان يحتجم أيَّ وقتٍ احتاج من الشهر .

فصل

وأما اختيار أيام الأسبوع للحجامة ، فقال الخلّال في جامعه : « أخبرنا حرب بن إسماعيل ، قال : قلتُ لأحمد : تُكره الحجامة في شيء من الأيام ؟ قال : قد جاء فى الأربعاء والسبت » . وفيه عن الحسين بن حسان : « أنه سأل أبا عبد الله عن الحجامة : أيَّ وقت تكره ؟ فقال : في يوم السبت ، ويوم الأربعاء ؛ ويقولون : يوم الجمعة » .

وروى الخلال — عن أبي سلمةَ وأبي سعيد المُقبُريّ ، عن أبي هريرة ، مرفوعاً —: « مَن احْتَجَمَ يوم الأربعاء ، أو يوم السبت ، فأصابه بياضٌ أو بَرَصٌ ، فلا يَلُومَنَّ إلّا نفسهُ » .

وقال الخلال : أخبرنا محمد بن على بن جعفر : أن يعقوب بن بختان حدثهم ، قال : « سُئِلَ أحمد عن النُّورَةِ والحجامةِ يوم السبت ويوم الأربعاء ، فكرهها وقال : بلغني عن رجلٍ أن تَنَوَّرَ[٢٢٨] واحتجم (يعني : يوم الأربعاء) ؛ فأصابه البَرَصُ فقلت[٢٢٩] له كأنه تهاوَنَ بالحديث ؟ قال : نعم » .

---

(٢٢٧) فى الزاد « لاسيما » .

(٢٢٨) تَنَوَّر : أى الطّلى بالنُّورَةِ ، وهى أخلاط من أملاح الكالسيوم والباريوم تستعمل لإزالة الشَعر .

(٢٢٩) فى الزاد « قلت » .

وفي كتاب « الأفراد » للدَّارَقطنيِّ ــ من حديث نافع ــ قال : قال لي عبد الله بن عمر : تَبيَّغَ بي الدم ، فَابْغِ لي حَجَّاماً ؛ ولا يكن صبياً ، ولا شيخاً كبيرًا ، فإني سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « الحِجَامَةُ تَزِيدُ الحافِظَ حِفْظاً ، والعاقل عقلاً ، فاحْتَجِمُوا على اسْمِ الله تعالى ، ولا تَحْتَجِمُوا الخميسَ والجُمعة والسبت والأحد ، واحتجموا الاثنين . وما كان من جُذَام ولا بَرصٍ ، إلا نزل يوم الأربعاء »(٢٣٠) . قال الدارقطنيُّ : تَفَرَّدَ به زيادُ بن يحيى ؛ وقد رواه أيوب عن نافع ، وقال فيه : « واحْتَجِمُوا يومَ الاثنين والثلاثاء ، ولا تحتَجِموا يوم الأربعاء » .

وقد روى أبو داود في سننه ــ من حديث أبي بكرَةَ ــ « أنه كان يكره الحِجَامة يَوْمَ الثلاثاء ، وقال : إن رسول الله ﷺ ، قال : يَوْمُ الثُّلاثَاءِ يَوْمُ الدَّم ، وفيهِ سَاعَةٌ لا يَرْقَأُ فيها(٢٣١) الدمُ »(٢٣٢) .

فصل

وفي ضمن هذه الأحاديث المتقدمَةِ : استحبابُ التداوي ، واستحبابُ الحِجَامة ، وأنها تكون في الموضع الذى يقتضيه الحال ، وجوازُ احتجامِ المُحْرِم ، وإنْ آل إلى قطع شيء من الشَّعر ، فإن ذلك جائز . وفي وجوب الفديةِ عليه نظر ؛ ولا يَقوى الوجوبُ . وجوازُ احتجامِ الصائم ، فإن فى صحيح البخاريِّ : « أنَّ رسول الله ﷺ آحْتَجَمَ وهو صائم »(٢٣٣) ؛ ولكن : هل يُفطِرُ بذلك ، أم لا ؟ مسألة أخرى ، الصوابُ : الفطرُ بالحجامة ، لصحته عن رسول الله ﷺ ، من غير معارضٍ . وأصحُّ ما يعارَضُ به : حديثُ حِجَامتِهِ وهو صائم ، ولكنْ لا يَدلُّ على عدم الفطر إلا بعد أربعة أمور :

---

(٢٣٠) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب فى أى الأيام يحتجم [ج ٢ ص ١١٥٣] .

(٢٣١) هكذا فى الزاد ، وفى النسخ المطبوعة « فيه » أى : فى الوقت .

(٢٣٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب متى تستحب الحجامة [ج ٤ ص ٥] وسنده ضعيف . وفى نسخه الطب النبوى لعبد الغنى عبد الخالق : أن كل الأحاديث التى ذكرت فيها الأيام ، ضعيفة ، فقد قال الحافظ فى الفتح : نقل الخلال عن أحمد أنه – يعنى النبى ، ﷺ – كره الحجامة فى هذه الأيام ، وإن كان الحديث لم يثبت . وقال الفيروزابادى فى سفر السعادة : وباب الحجامة واختيارها فى بعض الأيام ، وكراهتها فى بعضها ، ما ثبت فيه شيء ، وكفى بقولهما حجة . أ . هـ .

(٢٣٣) أخرجه البخارى فى كتاب الصوم ، باب الحجامة والقيء للصائم [ج ٤ ص ١٧٤ من فتح البارى] .

أحدها : أن الصوم كان فرضاً . **الثاني** : أنه كان مقيماً . **الثالث** : أنه لم يكن به مرضٌ احتاج معه إلى الحجامة . **الرابع** : أن هذا الحديثَ متأخرٌ عن قوله : « أفطرَ الحاجِمُ والمحجُومُ »(٢٣٤).

فإذا ثَبَتَتْ هذه المقدِّمات الأربعُ ، أمكن الاستدلالُ بفعله ﷺ ، على بقاء الصوم مع الحِجامة ، وإلا فما المانعُ أن يكونَ الصومُ نفلاً يجوز الخروجُ منه بالحِجامة وغيرها ، أو من رمضانَ لكنه في السفر ، أو من رمضانَ في الحَضَر ، لكن دعت الحاجةُ إليها ، كما تدعو حاجةُ مَن بِهِ مرضٌ إلى الفطر ، أو يكونَ فرضاً من رمضانَ في الحضر من غير حاجة إليها ، لكنه مُبقًى على الأصل . وقوله : « أفْطَر الحاجمُ والمحجومُ » ؛ ناقلٌ ومتأخِّرٌ . فَتَعيَّنَ(٢٣٥) المصيرُ إليه . ولا سبيل إلى إثبات واحدة من هذه المقدماتِ الأربع ؛ فكيف بإثباتها كلها ؟! .

وفيها دليل على استئجار الطبيبِ وغيره ، من غير عقد إجارة ؛ بل يُعطيه أُجرةَ المِثل ، أو ما يُرضيه .

وفيها دليلٌ على جواز التكسُّب بصناعة الحجامة ، وإن كان لا يَطيب للحُرِّ أكلُ أجرتِهِ من غير تحريم عليه . فإن النبي ﷺ ، أعطاه أجره ، ولم يَمنَعه من أكله . وتسميتُهُ إياه خبيثاً ، كتسميته للثوم والبصل خبيثين ، ولم يلزم من ذلك تحريمُهما .

وفيها دليلٌ على جواز ضرب الرجُلِ الخَرَاجَ على عبده كلَّ يوم شيئاً معلوماً ، بقدر طاقته ؛ وأن للعبد أن يتصرف فيما زاد على خَرَاجه . ولو مُنع من التصرف فيه(٢٣٦) ، لكان كسبُه كلُّه خراجاً ، ولم يكن لتقديره فائدةٌ . بل مازاد على خراجه ، فهو تمليكٌ من سيده له ، يَتَصرَّف فيه كما أراد . والله أعلم .

---

(٢٣٤) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الصيام ، باب ما جاء فى الحجامة للصائم . وأخرجه الدارمى فى سننه فى كتاب الصوم ، باب الحجامة تفطر الصائم [ج ٢ ص ١٤] ورواه أبو داود فى كتاب الصوم ، باب فى الصائم يحتجم [ج ٢ ص ٣٠٨] .

(٢٣٥) فى الزاد « فيتعين » .

(٢٣٦) « فيه » ساقطة من الزاد .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي قَطْعِ العُرُوقِ وَالكَيِّ

ثبت في الصحيح — من حديث جابرِ بن عبد الله —: « أن النبيَّ ﷺ بعَثَ إلى أُبَيِّ ابن كعبٍ طَبِيباً ، فَقَطَعَ له عِرْقاً ، وكَوَاه عليه »[٢٣٧] .

ولما رُمِيَ سعدُ بن معاذٍ في أَكْحَلِهِ حَسَمَهُ النبيُّ ﷺ ؛ ثم وَرِمَتْ فحسمَهُ ثانيةً . و (الحَسْمُ) هو : الكَيُّ . وفي طريق آخر : « أن النبي ﷺ ، كَوَى سعدَ بن مُعاذٍ في أَكْحَلِهِ بِمِشْقَصٍ ، ثم حسمَهُ سعد بن مُعاذٍ ، أو غيرُه من أصحابه » . وفي لفظ آخرَ : « أن رجلا من الأنصار رُمِيَ في أَكْحَلِهِ بِمِشْقَصٍ ، فأمر النبي ﷺ ، فكُوِيَ » .

وقال أبو عُبيدٍ : « وقد أُتِيَ النبيُّ ﷺ ، برجلٍ نُعِتَ له الكَيُّ ، فقال : اكْوُوهُ وارْضِفُوهُ »[٢٣٨] . قال أبو عُبيدةَ : الرَّضْفُ : الحجارة تُسخَّنُ ثم تكمدُ بها .

وقال الفضل بن دُكَين : حدثنا سُفيانُ ، عن أبي الزُّبيرِ ، عن جابر « أن النبيَّ ﷺ كَوَاهُ في أَكْحَلِه » .

وفي صحيح البخاريِّ — من حديث أنس —: « أنه كُوِيَ من ذاتِ الجَنْبِ : والنبيُّ ﷺ حَيٌّ »[٢٣٩] .

وفي الترمذيِّ عن أنسٍ : « أن النبي ﷺ ، كَوَى أسْعَدَ بن زُرَارة من الشَّوْكَةِ »[٢٤٠] .

وقد تقدم الحديث المتفقُ عليه ؛ وفيه : « ومَا أُحِبُّ أن أَكْتَوِيَ » ؛ وفي لفظ آخرَ : « وأنا أَنْهَى أُمَّتِي عن الكَيِّ » .

---

(٢٣٧) أخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب لكل داء دواء [ج١٤ ص ١٩٢] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب من اكتوى [ج ٢ ص ١١٥٦] .

(٢٣٨) وفى رواية ابن مسعود : « إنْ شئتم فاكووه ، وإنْ شئتم فارضفوه » ، الرَّضْفُ : الكَيُّ بالحجارة المحماة على النار .

(٢٣٩) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب ذات الجنب [ج ١٠ ص ١٧٢ من فتح البارى] .

(٢٤٠) أخرجه الترمذى فى الطب ، باب ما جاء فى الرخصة فى الكَيّ [ج ٨ ص ٢٠٨] .

وفي جامع الترمذيّ وغيره ـــ عن عمرانَ بن حصين ـــ: « أن النبيَّ ﷺ ، نَهَى عن الكَيِّ . قال : فابْتُلِينَا فاكْتوَيْنا ؛ فما أفلحْنا ، ولا أنجحنا »[٢٤١] ؛ وفي لفظ : « نُهِينا عن الكَيِّ » وقال : « فما أفلحْنا ولا أنجعنا »[٢٤٢] .

قال الخطابيُّ : « إنما كَوى سعدًا ليَرْقأَ الدمُ من جُرحه ، وخاف عليه أنْ يَنْزِفَ فيَهْلِكَ . والكيُّ مستعملٌ في هذا الباب ، كما يُكْوَى مَن تُقْطَعُ يدهُ أو رجلُه . وأما النهيُ عن الكَيِّ ، فهو أن يَكتويَ طلباً للشفاء . وكانوا يعتقدون أنه متى لم يَكتوِ هَلَكَ ؛ فنهاهم عنه لأجل هذه النيةِ . وقيل : إنما نَهى عنه عمرانَ بن حُصَيْنٍ خاصةً ؛ لأنه كان به ناصُورٌ ، وكان موضعه خطِرًا ، فنهى[٢٤٣] عن كيِّه . فيُشْبِهُ أن يكونَ النهيُ منصرفاً[٢٤٤] إلى الموضع المخوفِ منه . والله تعالى أعلم .

وقال ابن قتيبة : الكيُّ جنسانِ : كيُّ الصحيح لئلا يَعتَلَّ ؛ فهذا الذي قيل فيه : « لمْ يتوكلْ مَن اكتوَى » ؛ لأنه يريد أن يَدفعَ القَدَر عن نفسه . والثاني : كيُّ الجرْح إذا نَغِلَ[٢٤٥] ، والعُضوِ إذا قُطعَ ، ففي هذا الشفاءُ . وأمّا إذا كان الكيُّ للتداوي الذي يجوز أن يَنجحَ ، ويجوز أن لا ينجح[٢٤٦] ؛ فإنه إلى الكراهة أقربُ . انتهى .

وثبت في الصحيح ـــ من حديث السبعين ألفاً الذين يدخلون الجنةَ بغير حساب : « أنهم الذينَ لَا يَسْتَرقُونَ ، ولا يكتوون ، ولَا يتطيَّرونَ ؛ وعَلَى ربهِمْ يتوكلُونَ »[٢٤٧] .

---

(٢٤١) أخرجه الترمذى فى الطب ، باب ما جاء فى كراهية التداوى بالكَيِّ [ج ٨ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧] وقال الترمذى عنه : حسن صحيح .

(٢٤٢) فى الزاد « فما أفْلَحْنَ ولا أنْجَحْنَ » . وقد وَرَدَ هكذا فى سنن أبى داود ، فى كتاب الطب ، بابٌ فى الكى [ج ٤ ص ٥] وذكر فى هامشه : أنه – أى الحديث – هكذا بنون الإناث ، ومرجعها الكيّات المفهومة من الكلام . وفى بعضها بنون المتكلمين : « فما أفْلَحْنَا ولا أنْجَحْنَا » . كما روى : « فما أفلحنا ولا أنْجَعْنا » بالعين ، وهو المناسب ، إذْ يُقال : نَجَعَ الدواء (بالعين) : إذا ظَهَرَ أثره .

(٢٤٣) فى الزاد « فنهاه » .

(٢٤٤) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « متصرفاً » .

(٢٤٥) نَغِلَ : فَسَدَ .

(٢٤٦) فى الزاد « ينجع » بدل « ينجح » فى الموضعين .

(٢٤٧) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب مَنْ لم يَرْقِ [ج ١٠ ص ٢١١ من فتح البارى] .

فقد تضمنتْ أحاديثُ الكيِّ أربعةَ أنواع : **أحدها** : فعلُه . **والثاني** : عدمُ محبتِه له . **والثالث** : الثناء على مَنْ تركه . **والرابع** : النهي عنه .

ولا تَعَارُضَ بينها ــ بحمد الله تعالى ــ فإنَّ فِعلَه يدلُّ على جوازه ، وعدمَ محبتِه له لا يدُلُّ على المنع منه . وأما الثناءُ على تاركِه فيدلُّ على أنَّ تَرْكَه أَوْلَى وأفضلُ . وأما النهيُ عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة ، أو عن النوع الذي لا يُحتاجُ إليه ، بل يفعل خوفاً من حدوث الداء . والله أعلم .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ الصَّرْعِ *

أخرجا في الصحيحين ــ من حديث عطاء بن أبي رَبَاح ــ قال : قال ابنُ عباس : « أَلَا أُرِيكَ ٱمْرَأَةً مِن أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ ؟ قلتُ : بَلَى . قَالَ : هَذِهِ ٱلْمَرْأَةُ ٱلسَّوْدَاءُ ، أَتَتِ النبيَّ ﷺ ، فقَالَتْ : إِنِّي أُصْرَعُ ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ ؛ فَادْعُ اللهَ لِي . فقَالَ : إنْ شِئْتِ صَبَرْتِ ولَكِ الجنةُ ؛ وإنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ لكِ أن يُعافِيَكِ . فَقَالَتْ : أَصْبِرُ . قالتْ : فإنِّي أَتَكَشَّفُ ؛ فَادعُ اللهَ أَنْ لَّا أَتكشَّفَ . فدعا لها »(٢٤٨) .

---

* الصرع : داء عصبي يتميز بنوبات فجائية من فقدان الوعي ، تقترن غالباً بالتشنج . وتتفاوت هذه النوبات في شدتها ومعدل ترددها ، وفي الوقت الذي تستغرقه . وقد تكون النوبة هينة عابرة لا تكاد تلحظ ، أو تكون بالغة الشّدة ، وقد تقع النوبة بغتة بلا نذير ، وقد ينذر بها حس سابق وهمٌ غريب يُسمى : الهورة (النسمة أو الفوحة) يعترى أحد الحواس ، كالبصر ، أو السمع ، أو الذوق ، أو الشم ، أو اللمس ، كأن يرى المريض شبحاً ، أو يسمع صوتاً ، أو يشم رائحة ، ويعقب ذلك وقوع المريض صارخاً على الأرض فاقداً وعيه ، ثم تتملكه رعدة تشنجية تتصلب فيها العضلات ، وقد يتوقف فيها التنفس مؤقتاً ، وقد يعض المريض لسانه في أثناء النوبة ويتبول على نفسه ، وقد تحدث له إصابات أو حوادث عرضية خطيرة ، من جرّاء هذه النوبات . ويعقب النوبة خَوَر القُوَى ، واستغراق في النوم ، يصحو منه المريض خالي الذهن من تذكر ما حدث له .

والصرع مجهول السبب في الغالب ، وإنْ كان يتسبب أحياناً من بعض أمراض المخ أو الجمجمة ، التي من شأنها أن تُحدِث ضغطًا على المخ . وهو يعتبر عارضاً أكثر منه مرضاً . ويبدأ ظهوره عادة في مقتبل العمر . ويُستعان في تشخيص هذه العلة حديثاً بجهاز يُسمى « رسّام المخ الكهربائي » ويقصر العلاج على مراعاة الراحة ، وإعطاء المهدئات .

(٢٤٨) أخرجه البخاري في كتاب المَرضَى ، باب فضل مَنْ يُصْرَعُ من الريح [ج ١٠ ص ١١٤ من فتح الباري] وأخرجه مسلم في كتاب البر والصّلة والآداب ، باب ثواب المؤمن فيما يصيبه [ج ١٦ ص ١٣١] .

قلت : الصَّرْعُ صرعانَ : صَرْعٌ من الأرواح الخبيثة الأرضية ، وصَرْعٌ من الأخلاط الرديئة . والثاني هو الذي يتكلم فيه الأطباء ، في سببه وعلاجه .

وأما صَرْعُ الأرواح ، فأئمتُهم وعقلاؤهم يعترفون به ، ولا يدفعونه . ويعترفون بأن علاجَه مقابلة[٢٤٩] الأرواح الشَّريفةِ الخَيِّرَةِ العُلْويَّة ، لتلك الأرواح الشِّرِّيرة الخبيثة ، فتدفع[٢٥٠] آثارَها ، وتعارضُ أفعالَها وتبطلها . وقد نص على ذلك بقراط[٢٥١] في بعض كتبه ، فذكر بعض علاج الصَّرْع ، وقال : « هذا إنما ينفع في الصَّرْع الذي سببُه الأخلاط والمادة . وأمَّا الصَّرْعُ الذي يكون من الأرواح ، فلا ينفع فيه هذا العلاج » .

أمَّا جهلةُ الأطباء وسقطهم وسِفْلَتُهُم ، ومَن يعتقدُ بالزندقة فضيلةً — فأولئك ينكرون صَرْعَ الأرواح ، ولا يُقرون بأنها تُؤثر في بدن المصروع ، وليس معهم إلا الجهلُ ، وإلَّا ، فليس في الصناعة الطبية ما يَدفع ذلك ، والحِسُّ والوجودُ شاهدٌ به . وإحالتهم ذلك على غلبة بعض الأخلاط ، هو صادق في بعض أقسامه ، لا في كلِّها .

وقدماءُ الأطباء كانوا يسمون هذا الصَّرْعَ : المرضَ الإلهي ؛ وقالوا : إنه من الأرواح . وأما جالينوسُ وغيرُه ، فتأوَّلُوا عليهم هذه التسميةَ ، وقالوا إنما سمُّوها[٢٥٢] بالمرض الإلهيِّ ، لكون هذه العلة تَحدث في الرأس ، فَتَضُرُّ بالجزء الإلهي الطاهر[٢٥٣] الذي مسكنُه الدماغُ .

وهذا التأويل نشأ لهم من جهلهم بهذه الأرواح ، وأحكامِها ، وتأثيراتها . وجاءت زنادقةُ الأطباء ، فلم يُثبتوا إلا صَرْع الأخلاطِ وحده . ومن له عقل ومعرفة بهذه الأرواح وتأثيراتها ، يضحك من جهل هؤلاء ، وضعف عقولهم .

وعلاج هذا النوع يكون بأمرين : أمْرٍ من جهة المصروع ، وأمْرٍ من جهة المعالج . فالذي من جهة المصروع ، يكون بقوةِ نفسه وصدْقِ توجهه إلى فاطر هذه الأرواح

---

(٢٤٩) في الزاد « بمقابلة » .

(٢٥٠) في الزاد « فتدافع » .

(٢٥١) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أبقراط » وكلاهما صواب .

(٢٥٢) في الزاد « سموه » أي : المرض .

(٢٥٣) في الزاد « الطاهر » .

وبارئها ، والتعوُّذِ الصحيح الذي قد تواطأ عليه القلبُ واللسان ، فإن هذا نوع محاربة ؛ والمحارَب لا يتم له الانتصاف من عدوه بالسلاح إلا بأمرين(٢٥٤) : أن يكون السلاح صحيحاً في نفسه جيدًا ، وأن يكون الساعدُ قويًّا . فمتى تخلَّف أحدُهما لم يُغْنِ السلاحُ كثيرَ طائلٍ ؛ فكيف إذا عُدِمَ الأمران جميعاً ، يكون القلب خراباً من التوحيد والتوكلِ والتقوى والتوجه ؛ ولا سلاحَ له ؟!

والثاني من جهة المعالج ، بأن يكون فيه هذان الأمران أيضاً ؛ حتى إن من المعالجينَ من يكتفي بقوله : آخرُجْ منه ؛ أو يقول باسم الله ؛ أو يقول :(٢٥٥) لا حول ولا قوة إلا بالله . والنبيُّ ﷺ ، كان يقولُ : « آخْرُجْ عَدُوَّ الله ؛ أنا رَسُولُ الله »(٢٥٦) .

وشاهدتُ شيخنَا يُرسِلُ إلى المَصْرُوعِ مَنْ يخاطبُ الروحَ التي فيه ، ويقولُ : قال لكِ الشيخُ : اخرُجي فإنَّ هذا لا يَحِلُّ لكِ . فيُفيقُ المصرُوعُ . . وربَّما خاطبها بنفسه . وربما كانت الروحُ ماردةً ، فيُخْرِجُها بالضرب ؛ فيُفيقُ المصروعُ ؛ ولا يُحِسُّ بألم . وقد شاهدنا ـــ نحنُ وغيرُنا ـــ منه ذلك مرارًا .

وكان كثيرًا ما يَقرأ في أذن المصروع : ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ؟! ﴾(٢٥٧) .

وحدثني « أنه قرأها مرة في أذن المصروع ، فقالت الروح : نعمْ ؛ ومد بها صوته .

---

(٢٥٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « لأمرين » .

(٢٥٥) في الزاد « يقول » في الموضعين .

(٢٥٦) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب الفزع والأرق وما يتعوّذ منه [ج ٢ ص ١١٧٤] ، ولفظه « عن عثمان ابن أبي العاص ، قال : لمّا استعملني رسول الله (ص) على الطائف ، جعل يَعْرِضُ لي شَيْءٌ في صلاتي ، حتى ما أدري ما أُصَلِّي ، فلما رأيت ذلك ، رحلْتُ إلى رسول الله (ص) فقال : « ابنُ أبي العاص ؟ » قلت : نعم يا رسول الله ! قال : « ما جاء بك ؟ » قلتُ : يا رسول الله عرض لي شيء في صلواتي حتى ما أدري ما أُصَلِّي . قال : « ذاكَ الشَّيطانُ ، ادْنُهْ » فدنوتُ منه ، فجلستُ على صدور قَدَمَيَّ . وقال : « أخْرُجْ عَدُوَّ الله » ففعل ذلك ثلاث مرات ، ثم قال : « الْحَقْ بِعَمَلِكَ » . قال ، فقال عثمان : « فَلَعَمْرِي ما أَحْسِبُهُ خالطني بَعْدُ » .

وفي الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات ، ورواه الحاكم وقال : حديث صحيح الإسناد . وفي المسند من حديث يعلى بن مرة عن النبي (ص) أنه أتته امرأة بابن لها قد أصابه لَمَمٌ ، فقال له النبي (ص) : « أخرجْ عدوَّ الله ، أنا رسول الله » . قال : فبرأ ، فأهدتْ له كَبْشَيْنِ وشيئاً من أقط وسمن ، فقال رسول الله (ص) : « يا يعلى ، خذ الأقط والسمن ، وخُذْ أحد الكبشين ، وَرُدَّ عليها الآخر » . ورجاله ثقات .

(٢٥٧) سورة المؤمنون – الآية ١١٥ .

قال : فأخذت له عصاً ، وضربتُه بها في عروق عنقه ، حتى كلَّتْ يدَايَ من الضرب . ولم يَشُكَّ الحاضرون بأنه(٢٥٨) يموتُ لذلك الضرب . ففي أثناء الضرب ، قالَتْ : أنَا أُحِبُّه ، فقلتُ لها : هو لا يُحِبُّك ، قالتْ : أنَا أريد أنْ أَحُجَّ به ، فقلتُ لها : هو لا يُريدُ أنْ يَحُجَّ معَكِ ، فقالت : أنا أَدَعُه كَرامةً لكَ ، (قال) قلتُ : لا ؛ ولكنْ : طاعةً لله ولرسولِه ، قالتْ : فأنَا أخرُجُ منه ، قال : فقَعَد المصروعُ يَلتفتُ يميناً وشمالاً ، وقال : ما جاء بي إلى حضرة الشيخ ؛ قالوا له : وهذا الضربُ كله ، فقال : وعلى أي شيء يَضربُني الشيخ ، ولم أُذْنِبْ ؟ ولم يَشعُرْ بأنه وقع به الضربُ(٢٥٩) البتة » .

وكان يعالِجُ بآية الكرسيِّ ، وكان يأمر بكثرة قراءة(٢٦٠) المصروع ومَن يعالجه بها ، وبقراءة المعوِّذتين .

وبالجملة ، فهذا النوعُ من الصَّرْع وعلاجه لا ينكرُه إلا قليلُ الحظ من العلم والعقل والمعرفة . وأكثرُ تسلطِ الأرواح الخبيثةِ على أهلِهِ ، تكون من جهة قلةِ دينهم ، وخراب قلوبهم وألسنتهم من حقائق الذكرِ والتعاويذِ ، والتحصُّناتِ النبويَّةِ والإيمانيَّة ، فَتلْقى الروحُ الخبيثة الرجلَ ، أعزلَ لا سلاح معه ؛ وربما كان عُرياناً فيؤثر فيه هذا .

ولو كُشِفَ الغطاءُ لرأيتَ أكثرَ النفوسِ البشريةِ صَرْعَى مع(٢٦١) هذه الأرواح الخبيثةِ ؛ وهي في أسرها وقبضتها تسوقُها حيثُ شاءتْ ، ولا يمكنُها الامتناعُ عنها ، ولا مخالفتها ، وبها الصَّرْعُ الأعظمُ الذي لا يُفيقُ صاحبُه إلا عند المفارقة والمعاينةِ ، فهناك يتحقَّقُ أنه كان هو المصروع حقيقةً . وبالله المستعان .

وعلاجُ هذا الصَّرْع : باقتران العقلِ الصحيح إلى الإيمان بما جاءتْ به الرسلُ ، وأن تكون الجنةُ والنارُ نُصبَ عينه ، وقِبلَة قَلْبِه ؛ ويستحضر أهلَ الدنيا وحلولَ المَثُلاتِ(٢٦٢) والآفات بهم ، ووقوعِها خِلالَ ديارهم ، كمواقع القَطْر ؛ وهم صَرْعَى لا يُفيقون .

---

(٢٥٨) في الزاد « أنه » .

(٢٥٩) في الزاد « ضرب » .

(٢٦٠) في الزاد « قراءتها » .

(٢٦١) سقطت « مع » من الزاد .

(٢٦٢) هكذا في الزاد ومعناها : العقوبات . ومفردها « مَثُلَة » . وفي النسخ المطبوعة « المثولات » وهي لا تؤدي المعنى المراد هنا . [انظر المصباح المنير والقاموس المحيط وغيرهما من المعاجم].

وما أشدَّ داء[٢٦٣] هذا الصرع . ولكن لما عَمَّتِ البليةُ به بحيثُ لا يرى إلا مصروعا[٢٦٤] لم يَصِرْ مستغرَباً ولا مستنكرًا ، بل صار لكثرة المَصْرُوعين ، عَيْنُ المستنكَرِ المستغرَبِ خلافه .

فإذا أراد الله بعبد خيرًا أفاقَ من هذه الصَّرعة ، ونظر إلى أبناء الدنيا مصروعِينَ حولَه يميناً وشمالاً ، على اختلافِ طبقاتهم ، فمنهم من أطبَقَ به الجنونُ ، ومنهم من يُفيق أحياناً قليلةً ويعودُ إلى جنونه ، ومنهم من يُجنُّ مرة ويفيقُ أخرى[٢٦٥] فإذا أفاق عَمِل عَمَل أهل الإفاقةِ والعقل ، ثم يُعَاوِدُه الصَّرْعُ فيقَعُ في التَّخَبُّط[٢٦٦] .

فصل

وأما صَرْعُ الأخلاط فهو علةٌ تمنع الأعضاء النَّفسية[٢٦٧] عن الأفعال والحركةِ والانتصابِ ، منعاً غير تام . وسببُه خلطٌ غليظ لزج ، يسدُّ منافذ بطون الدماغ سدة غير تامة ، فيمتنعُ نفوذُ الحس والحركة فيه ، وفي الأعضاء ، نفوذًا ما[٢٦٨] من غير انقطاع بالكلية . وقد يكون[٢٦٩] لأسباب أُخَرَ ، كريح غليظ يحتبسُ في منافذ الروح ، أو بخارٍ رديء يرتفع إليه من بعض الأعضاء ، أو كيفية لاذعة . فينقبضُ الدماغُ لدفع المؤذي ، فيتبعُه تشنُّجٌ في جميع الأعضاء ؛ ولا يمكن أن يبقى الإنسان معه منتصباً ، بل يسقطُ ويظهرُ في فيه الزَّبَدُ غالباً .

وهذه العلةُ تُعَدُّ من جملة الأمراض الحادة[٢٧٠] ، باعتبار وقت وجوده المؤلم خاصة . وقد تُعَدُّ من جملة الأمراض المُزْمنةِ ، باعتبار طول مُكثِها ، وعُسْرِ بُرئها ؛ لاسيما إن

---

(٢٦٣) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أعناه » .

(٢٦٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « بحيث ينظر الإنسان لا يرى إلا مصروعاً » .

(٢٦٥) في الزاد « ومنهم من يُفيق مرّة ، ويُجَنُّ أُخرَى » .

(٢٦٦) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « في التخبيط » .

(٢٦٧) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « النفيسة » .

(٢٦٨) في الزاد « نفوذاً تامًا » .

(٢٦٩) في الزاد « تكون » .

(٢٧٠) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « الحادثة » .

جاوز في السن خمساً وعشرين سنة . وهذه العلة في دماغه ، وخاصة في جوهره ، فإن صرْعَ هؤلاء يكون لازماً . قال أبقراط : « إن الصرعَ يَبقَى في هؤلاء حتى يموتوا » .

إذا عُرف هذا ، فهذه المرأة التي جاء الحديث أنها كانت تُصرَعُ وتَنكشف[٢٧١] ، يجوز أن يكون صرْعها من هذا النوع ، فوعدها النبي ﷺ الجنة بصبرها على هذا المرض ؛ ودعا لها أن لا تنكشف[٢٧٢] ؛ وخيرَّها بين الصبر والجنة ، وبين الدعاء لها بالشفاء ، من غير ضمان ، فاختارت الصبرَ والجنةَ .

وفي ذلك دليلٌ على جواز تَرْك المعالجةِ والتداوي ، وأن علاجَ الأرواح بالدعواتِ والتوجُّه إلى الله ، يفعلُ مالا ينالُه علاجُ الأطباء ؛ وأن تأثيرَه وفعلَه ، وتأثُّرَ الطبيعةِ عنه وانفعالها أعظمُ من تأثيرِ الأدويةِ البدنية ، وانفعالِ الطبيعة عنها ، وقد جربنا هذا مرارًا نحن وغيرُنا .

وعقلاءُ الأطباء معترفون بأن في فِعْلِ[٢٧٣] القوَى النفسيةِ وانفعالاتها ، في شفاء الأمراض ، عجائب ، وما على الصناعة الطِّبية أضرُّ من زنادقة القوم وسِفْلتهم وجُهالهم .

والظاهر أن صرع هذه المرأة كان من هذا النوع . ويجوز أن يكون من جهة الأرواح ، ويكون رسول الله ﷺ قد خيرَّها بين الصبر على ذلك مع الجنة ، وبين الدعاء لها بالشفاء ، فاختارت الصبر والسَّترَ . والله أعلم .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في عِلاجِ عِرْقِ النَّسَا*

روى ابن ماجه في سننه ــ من حديث محمد بن سِيرينَ عن أنس بن مالك ــ قال :

---

(٢٧١) في الزاد « وتتكشف » .

(٢٧٢) في الزاد « أن لا تتكشف » .

(٢٧٣) في الزاد « لِفِعْل » .

(*) عرق النَّسا : ألم يمتد على مسار العصب الوركى من الألية إلى معصم القدم ، ويشتد هذا الألم جدًا إذا ما ثنيت الساق الممتدة عند مفصل الحوض . ومن علامات المرض اعتماد المريض على ساقه الأخرى فى الوقوف مع ثنيه الساق المصابة . ويصاحب الألم تنميل ، أو خَدَر ، أو نخز ووجع فى مواضع معينة . وقد تتسبب هذه الحالة من بعض الإصابات التى تتناول العصب المذكور ، أو من ضغط يقع عليه بسبب ورم أو غيره ، أو من التهابات روماتيزمية تصيب الأنسجة المحيطة به ، أو من امتصاص تسممى من بؤرات متعفنة ، أو من مرض السكر ، أو من تعرض للبرد الشديد . وتعالج الحالة وقتيًا بالتزام الراحة ، والمسكنات ، والضمادات الساخنة ، أمّا علاجها الأساسىّ فبإزالة أسبابها . ومن أنواع العلاج التى تستعمل أحياناً فى هذه الحالة : حقن غشاء العصب بمحلول ملحى ، واتباع ذلك بتدليك الساق وتحريكها .

سمعتُ رسول الله ﷺ ، يقول : « دواءُ عِرْقِ النَّسَا أَلْيَةُ شاةٍ أعْرَابِيَّةٍ تُذابُ ، ثم تُجزَّأُ ثلاثة أجزاء ، ثُمَّ يُشرَبُ على الرِّيق ، في كلِّ يومٍ جزءٌ »(٢٧٤) .

عرق النَّسَا : وجعٌ يبتدئُ من مِفْصَلِ الوَرِك ، وينزل من خلف على الفَخِذ ، وربما [امتد](٢٧٥) على الكعب . وكلما طالت مدتُه زاد نزولُه وتُهزَلُ(٢٧٦) الرجلُ والفَخِذ .

وهذا الحديثُ فيه معنى لغويٌّ ، ومعنى طِبيٌّ .

فأما المعنى اللغويُّ فدليلٌ على جواز تسمية هذا المرض بعِرْقِ النَّسَا ؛ خلافاً لمن منع هذه التسمية ، وقال : النَّسَا هو العِرْقُ نفسه ، فيكونُ من باب إضافة الشيء إلى نفسه . وهو ممتنعٌ .

وجواب هذا القائل من وجهين : **أحدهما** : أن العرق أعمُّ من النسا ؛ فهو من باب إضافة العام إلى الخاص ، نحو : كل الدراهم أو بعضها(٢٧٧) . **الثاني** : أن النَّسا هو المرضُ الحالُّ بالعِرْق ؛ والإضافة فيه من باب إضافة الشيء إلى محله وموضعه . قيل : وسمي بذلك لأن ألمه يُنسي ما سواه . وهذا العِرْقُ ممتد من مِفْصَلِ الوَرِك ، وينتهي إلى آخر القدم وراء الكعب ، من الجانب الوحشي فيما بين عظم الساق والوتر .

وأما المعنى الطبيُّ ، فقد تقدم أن كلام رسول الله ﷺ نوعان ، **أحدهما** : عامٌّ بحسب الأزمان والأماكن ، والأشخاص والأحوال . **والثاني** : خاصٌّ بحسب هذه الأمور أو بعضها . وهذا من هذا القِسم ، فإن هذا خطابٌ للعرب وأهل الحجاز ومَن جاوَرَهم ، ولاسيما أعراب البوادي . فإن هذا العلاج من أنفع العلاج لهم ؛ فإن هذا المرض يَحدث من يُبْس ، وقد يحدث من مادة غليظة لزجة ، فعلاجُها بالإسهال . « والأَليةُ » فيها الخاصيتان : الإنضاج والتليين ؛ ففيها الإنضاج والإخراج . وهذا المرضُ يَحتاج علاجُه إلى هذين الأمرين .

---

(٢٧٤) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب دواء عرق النَّسا [ج ٢ ص ١١٤٧] وفى الزوائد : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات .

(٢٧٥) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٧٦) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « ويهزل » .

(٢٧٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « وبعضها » .

وفي تعيين الشاةِ الأعرابيةِ لِقِلّة(٢٧٨) فضولِها ، وصِغر مقدارِها ، ولُطف جوهرِها ، وخاصيَّةُ مرعاها ، لأنها ترعى أعشابَ البَرِّ الحارةَ كالشِّيح والقَيْصُوم ، ونحوهما . وهذه النباتاتُ إذا تغذَّى بها الحيوانُ ، صار في لحمه من طبعها ، بعد أن يُلَطِّفَها تغذيةً بها ، ويُكسِبهَا مِزاجاً ألطَفَ منها ، ولاسيما الألية . وظهورُ فعلِ هذه النباتاتِ في اللبن ، أقوى منه في اللحم ، ولكنَّ الخاصيةَ التي في الألية — من الإنضاج والتَّلْيين — لا تُوجد في اللبن . وهذا كما(٢٧٩) تقدم أن أدويةَ غالب الأمم والبوادي هي الأدوية(٢٨٠) المفردة ؛ وعليه أطباءُ الهند . وأما الروم واليونانُ فيَعتنُون بالمُركَّبة . وهم متفِقون كلُّهم على أن من مهارة(٢٨١) الطبيب أن يداويَ بالغِذاء ، فإنْ عَجَزَ فبالمفرد ، فإن عجز فبما كان أقلَّ تركيباً .

وقد تقدم أن غالب عادات العرب وأهلِ البوادي الأمراض البسيطة ؛ فالأدوية البسيطة تناسبُها ، وهذه لبساطة أغذيتهم في الغالب . وأما الأمراض المركبة فغالباً تحدث(٢٨٢) عن تركيب الأغذية وتنوعها واختلافها ، فاختيرت لها الأدوية المركبة . والله تعالى أعلم .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ يُبْسِ الطَّبْعِ وَاحْتِيَاجِهِ إِلَى مَا يُمَشِّيهِ وَيُلَيِّنُهُ

روى الترمذيُّ في جامعه ، وابن ماجه في سننه — من حديث أسماء بنت عُمَيْس — قالت : « قال رسول الله ﷺ : بماذا كنت تَسْتَمْشِينَ ؟ قالت : بالشُّبْرُم . قال : حارٌّ

---

(٢٧٨) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « قلة » .

(٢٧٩) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « مِمّا » .

(٢٨٠) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « بالأدوية » .

(٢٨١) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « سعادة » .

(٢٨٢) فى الزاد « فغالباً ما تحدث » .

جارٌّ . ثم قالت : استمشيْتُ بالسَّنا . فقال : لو كان شيءٌ يشفي من الموت لكان السَّنا »[٢٨٣] .

وفي سنن ابن ماجه ، عن إبراهيم بن أبي عَبْلَةَ ، قال : « سمعت عبد الله بن أم حرام[٢٨٤] – وكان قد[٢٨٥] صلى مع رسول الله ﷺ ، القبلتين – يقول : سمعت رسول الله ﷺ يقول : عليكم بالسَّنا والسَّنُّوت[٢٨٦] ، فإن فيهما شفاءً من كلِّ داءٍ إلَّا السَّامَّ ، قيل : يا رسول الله ، وما السامُّ ؟ قال : الموتُ »[٢٨٧] .

قوله : « بماذا كنتِ[٢٨٨] تستمشين ؟ » أي : تُلَيِّنين[٢٨٩] الطبع حتى يمشي ولا يصير بمنزله الواقف ، فيؤذي باحتباس النَّجْوِ[٢٩٠] . ولهذا سمي الدواءَ المسهل : مَشِيًّا ؛ على وزن فعيل . وقيل : لأن المسهول يكثر المَشيّ والاختلاف للحاجة .

وقد روى : « بماذا تستشفين ؟ فقالت : بالشُّبْرُم » . وهو من جملة الأدوية اليتوعية[٢٩١] ، وهو : قِشرِ عرق الشجرة . وهو حارٌّ يابس في الدرجة الرابعة ، وأجوده المائل إلى الحمرة ، الخفيفُ الرقيقُ الذي يشبه الجلد الملفوف ، وبالجملة ، فهو من الأدوية التي أوصى الأطباءُ بترك استعمالها ، لخطرها وفرطِ إسهالها .

---

(٢٨٣) أخرجه الترمذى فى الطب ، باب ما جاء فى السَّنا [ج ٨ ص ٢٢٤] وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب دواء المشى [ج ٢ ص ١١٤٥] . تستمشين : تسهلين بطنك . والشبرم : حَبٌّ يشبه الحمص ، يُطبخ به ويُشرب ماؤه للتداوى . وقيل : إنه نوع من الشيح . السَّنا : نبات شُجَيْرِيّ من الفصيلة القَرْنِيّة ، زهره مُصْفَرٌّ ، وحَبُّهُ مُفَلْطَح رقيق ، كَلَوِيُّ الشكل تقريباً ، يُتَداوى بورقه بعد نقعه ، ويستخدم كَمُلَيِّن فى حالات الإمساك . كما يتداوى بثمره . وأجود أنواعه الحجازى ، ويُعرف بالسَّنا المَكّيّ .

(٢٨٤) هو عبد الله بن عمرو بن قيس ، أبو أُبَيّ ، وغلب عليه « ابن أم حرام » . وهو ابن خالة أنس بن مالك ، وأمه أم حرام بنت ملحان ، امرأة عبادة بن الصامت ، فهو ربيب عبادة .. عُمِّرَ حتى رَوَى عنه إبراهيم بن أبى عبلة .
[انظر ترجمته فى أُسد الغابة ج ٢ ص ٢١٣ ، ٣٥٢] .

(٢٨٥) هكذا فى الزاد وفى سنن ابن ماجه . وفى النسخ المطبوعة « مِمَّا » بدل « قد » .

(٢٨٦) السَّنُّوت : بالفتح والضم : العسل ، وقيل : الكمون . وسيأتى ذكره .

(٢٨٧) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب السَّنا والسَّنُّوت .

(٢٨٨) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « بِمَ » .

(٢٨٩) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « تليين » .

(٢٩٠) النَّجْو : ما يخرج من البطن من ريح وغائط .

(٢٩١) اليتوعية : المُسهلة .

وقوله ﷺ « حارٌّ جارٌّ » . ويُروَى « حارٌّ يارٌّ » قال أبو عبيد : وأكثر كلامهم بالياء . قلت : وفيه قولان : **أحدهما** : أن الحارَّ الجارَّ بالجيم : الشديدُ الإسهال ؛ فوصفه بالحرارة وشدة الإسهال ؛ وكذلك هو ، قاله أبو حنيفة الدِّينَوَرِيُّ . **والثاني** – وهو الصواب – : أن هذا من الإتباع الذي يُقصد به تأكيد الأول ، ويكون بين التأكيد اللفظي والمعنوي . ولهذا يُراعون فيه إتباعه في أكثر حروفه . كقولهم حَسَنٌ بَسَنٌ أي : كامل الحسن . وقولهم : حَسَنٌ قَسَنٌ بالقاف . ومنه شَيْطَانٌ لَيْطَانٌ ، وحارٌّ جارٌّ . مع أن في الجار معنى آخر ، وهو الذي يجر الشيء الذي يصيبه ، من شدة حرارته وجذبه له ، كأنه ينزعه ويسلخه . « ويار » إما لغة في « جار » ؛ كقولهم : صِهْري وصِهْريج ، والصهارى والصهاريج . وإما إتباع مستقل .

وأما « السَّنا »(٢٩٢) ففيه لغتان : المد والقصر . وهو نَبْتٌ حِجَازِيّ ، أفضله المكي وهو : دواء شريف مأمون الغائلة ، قريب من الاعتدال ، حارٌّ يابس في الدرجة الأولى ؛ يُسَهِّلُ الصَّفْرَاء والسَّوْداءَ ويُقَوي جِرْمَ القلب . وهذه فضيلة شريفة فيه . وخاصيتُه : النفع من الوسواس السوداوي ، ومن الشقاق العارض في البدن ؛ ويفتح العَضَل ، [وينفع من](٢٩٣) انتشار الشعر ؛ ومن القمل والصداع العتيق ، والجرب والبثور ، والحِكَّة والصَّرْع . وشرب مائه مطبوخاً أصلحُ من شربه مدقوقاً . ومقدارُ الشربة منه ثلاثة(٢٩٤) دراهم ، ومن مائه خمسة(٢٩٥) دراهم ، وإنْ طبخ معه شيء من زهر البنفسج والزبيب الأحمر المنزوع العجم ، كان أصلح .

قال الرازيُّ : « السَّناء والشاهترج(٢٩٧) يسهلان الأخلاط المحترقة ، وينفعان من الجرب والحِكة . والشَّربة من كلّ واحد منهما : من أربعة دراهم إلى سبعة دراهم » .

---

(٢٩٢) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « السناء » .

(٢٩٣) ما بين المعقوفتين زيادة عن الزاد .

(٢٩٤) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « إلى ثلاثة » .

(٢٩٥) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « إلى خمسة » .

(٢٩٦) العَجَم : النَّوَى من التمر والعِنَب والنَّبق ، وغير ذلك .

(٢٩٧) الشاهترج : نبات عشبى برىّ ، تفوح منه عند الفرك مادة طيّارة ، تفعل فعل الدخان ، تأخذ الأنف وتدمع العين . وهو هاضم ، ومُدِرٌّ للبول ، وخافض للحرارة ، ومفيد فى الأمراض الجلدية .

وأما « السَّنوتُ » ففيه ثمانية أقوال : **أحدها** : أنه العسل . **والثاني** : أنه رُبُّ عُكَّة السمن[٢٩٨] يخرج خططاً سوداء على السمن . حكاهما عمر بن بكر السَّكْسَكِيُّ . **الثالث** : أنه حَبٌّ يشبه الكمون وليس به . قاله ابن الأعرابي . **الرابع** : أنه الكمُّون الكرمانيّ . **الخامس** : أنه الرازيانج . حكاهما أبو حنيفة الدِّينَوريُّ عن بعض الأعراب . **السادس** : أنه الشبت[٢٩٩] **السابع** : أنه التمر . حكاهما أبو بكر بن السُّنِّيّ الحافظ . **الثامن** : أنه العسل الذي يكون في زقاق السمن . حكاه عبد اللطيف البغدادي . قال بعض الأطباء : وهذا أجدر بالمعنى وأقرب إلى الصواب ، أي : يخلط السناء مدقوقاً بالعسل المخالط للسمن ، ثم يُلعق ؛ فيكون أصلحَ من استعماله مفردًا ؛ لما في العسل والسمن من إصلاح السنا وإعانته[٣٠٠] على الإسهال . والله أعلم .

وقد روى الترمذي وغيره – من حديث ابن عباس يرفعه – : « إنَّ خيرَ ما تداويتم به السَّعوطُ واللَّدود ، والحِجَامَة ، والمَشِيُّ »[٣٠١] والمَشِيُّ هو : الذي يمشِّي الطبع ويُلَيِّنه ، ويُسَهِّل خُرُوجَ الخَارج .

فَصلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في عِلاجِ حِكَّةِ الجِسْمِ ومَا يُولِّدُ القَمْل

[جاء][٣٠٢] في الصحيحين من حديث قَتادةَ ، عن أنس بن مالك ، قال : « رَخَّص رسولُ الله ﷺ لعبد الرحمٰن بن عوفٍ والزُّبَيْر بن العوَّام – رضي الله تعالى عنهما – في لُبْس الحريرِ ؛ لِحِكَّةٍ كانت بهما » . وفي رواية : « أن عبدَ الرحمٰن بن عوْف والزبيرَ

---

(٢٩٨) رَبُّ السمن : ثفله الأسود . والعُكة : بفتح العين وضمها : زِقُّ السمن الصغير .

(٢٩٩) الشَّبَت : نبات عُشبيٌّ من الفصيلة الخيمية ، تُستعمل أوراقه وبذوره في إكساب الأطعمة نكهة طيبة ، وهو مُقوٍّ للمَعِدة والقلب ، طارد للغازات ، مهد

(٣٠٠) في الزاد « وإعانته له » .

(٣٠١) أخرجه الترمذي ، وفي سنده عباد بن منصور ، وهو ضعيف . وقد سبقت الإشارة إليه .

(٣٠٢) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

ابن العوام – رضي الله تعالى عنهما – شَكَوَا القَمْلَ إلى النبي ﷺ ، في غَزاة لهما ؛ فَرَخَّصَ لهما في قُمُصِ الحرير . ورأيته عليهما »[٣٠٣] .

هذا الحديث يتعلق به أمران : أحدُهما فقهيٌّ ، والآخَرُ طبيٌّ .

فأما الفقهيُّ ، فالذي استقرت عليه سنته – ﷺ – : إباحةُ الحرير للنساء مطلقاً ، وتحريمه على الرجال إلا لحاجة ، أو مصلحةٍ[٣٠٤] راجحةٍ . فالحاجة إما من شدة البرد ، ولا يَجدُ غيرَه ، أو لا يجدُ سُترة سواه . ومنها : لباسُه للجرب[٣٠٥] والمرض ، والحِكَّةِ وكثرة القَمْل . كما دل عليه حديث أنس هذا الصحيح .

والجواز أصحُّ الروايتين عن الإمام أحمدَ ، وأصح قولي الشافعي ، إذ الأصلُ عدمُ التخصيص . والرخصةُ إذا ثبتت في حَقِّ بعض الأمة لمعنًى ، تَعَدَّتْ إلى كُلِّ من وُجِدَ فيه ذلك المعنى . إذ الحُكْمُ يعُمُّ بعُمُوم سببه .

ومن منع منه قال : أحاديثُ التَّحْريم عامةٌ ، وأحاديث الرخصةِ يحتملُ اختصاصُها بعبد الرحمٰن بن عَوف والزبير ، ويحتمل تَعديها إلى غيرهما . وإذَا احْتُملَ الأمران ، كان الأخذ بالعموم أولى ، ولهذا قال بعض الرواة في هذا الحديث : « فلا أدري : أبَلَغَتِ الرُّخصةُ مَنْ بعدَهُما ؛ أم لا ؟ » .

والصحيح : عمومُ الرخصة ؛ فإنه عُرْف خطاب الشرع في ذلك ، ما لم يُصَرِّحْ بالتخصيص ، وعدم إلحاق غير مَن رَخَّصَ له أوَّلا به . كقوله لأبي بُرْدَةَ [في تضحيته بالجَذعة من المَعْزِ][٣٠٦] : « تَجْزِيكَ ولَنْ تَجْزِيَ عَنْ أَحَدٍ بَعْدَكَ » . وكقوله تعالى

---

(٣٠٣) أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد ، باب الحرير فى الحرب [ج ٦ ص ١٠٠ من فتح البارى] وأخرجه أيضاً فى كتاب اللباس ، باب ما يرخَّصُ للرّجال من الحرير للحِكَّة [ج ١٠ ص ٢٩٥ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى كتاب اللباس والزينة ، باب إباحة لبس الحرير للرجل إذا كان به حِكّة [ج ١٤ ص ٥٢ ، ٥٣] وأخرجه النَّسائى فى الزينة ، باب الرخصة فى لبس الحرير [ج ٨ ص ٢٠٢] .

(٣٠٤) فى الزاد « ومصلحة » .

(٣٠٥) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « إلباسه للحرب » . ربما يعنى : لِمَنْ فاجأته الحرب ، ولم يجد لباساً غيره .

(٣٠٦) ما بين المعقوفتين زيادة من الزاد . وساقطة من النسخ المطبوعة .

لنبيه — ﷺ — في نكاح مَنْ وهَبتْ نفسها له : ﴿ خَالِصَةً لَكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٣٠٧] .

وتحريمُ الحرير إنما كان سَدًّا للذريعة ؛ ولهذا أُبيح لنساء ، وللحاجة ، والمصلحة الراجحة . وهذه قاعدةُ ما حُرِّمَ لسَدِّ الذَّرائع ، فإنه يُباح عند الحاجة والمصلحة الراجحة ، كما حُرِّم النظر ، سَدًّا لذريعة الفعل ، وأبيح منه ما تدعو إليه الحاجة والمصلحةُ الراجحة . وكَما حُرِّمَ التنفُّل بالصلاة في أوقات النهي ، سدًّا لذريعة المشابَهة الصوريةِ بعُبَّاد الشمسِ ، وأُبِيحَتْ للمصلحة الراجحة . وكما حُرِّم رِبا الفضلِ سدًّا لذريعةِ رِبا النَّسيئَة ؛ وأُبيح منه ما تدعو إليه الحاجة من العَرَايا[٣٠٨] . وقد أشبَعْنا الكلام فيما يَحِلُّ ويَحْرُمُ : من لباس الحرير ؛ في كتاب : « التَّحْبِير ، لما يَحِلُّ وَيحْرُمُ من لِباس الحَريرِ » .

فصل

وأما الأمر الطبيُّ ، فهو : أن الحريرَ من الأدوية المُتَّخَذَة من الحيوان ، ولذلك يُعَدُّ في الأدوية الحيوانية . لأن مَخْرَجَهُ من الحيوان . وهو كثيرُ المنافع ، جليلُ الموقع . ومن خاصيَّته تقويةُ القلب وتَفريحُه ، والنفع من كثير من أمراضه ، ومن غلبة المِرَّةِ السوداء والأدواءِ الحادثة عنها ، وهو مُقَوٍّ للبصر إذا اكْتُحِلَ به . والخامُ منه — وهو المستعملُ في صناعة الطب — حار يابس في الدرجة الأولى . وقيل : حار رطب فيها . وقيل : معتدل [في صناعة الطب][٣٠٩] . وإذا اتُّخِذَ منه مَلْبُوسٌ كان معتدلَ الحرارة في مزاجه ، مسخِّناً للبدن ، وربما برد البدن بتسمينه إياه .

---

(٣٠٧) سورة الأحزاب – الآية ٥٠ .

(٣٠٨) العرايا : جَمع عَرِيّة ، وهى النخلة يعريها صاحبها رجلاً محتاجاً ، فيجعل له ثمرة عامها ، مقابل أن يأخذ بثمرتها تمراً ، قبل أن تحرز ثمرتها ، لمكان حاجته . وفى الحديث ، أنه (ﷺ) رخّصَ فى العرايا بعد نهيه عن المزابنة . والمزابنة : هى بيع الرطب فى رءوس النخل بالتمر ، ونهى عن ذلك ، لأنه بيع مجازفة من غير كَيْل ولا وزن ، وفى لسان العرب أعْرَى فلانٌ ثَمَرَ نَخْلَةٍ : إذا أعطاه إيّاها يأكل رطبها . وليس فى هذا بيع ، وإنما فضل ومعروف .

(٣٠٩) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

قال الرازيُّ : « الإبْرَيْسَمُ[٣١٠] أسخنُ من الكتَّان ، وأبردُ من القطن ؛ يُربي اللحمَ . وكلُّ لباس خشن فإنه يُهْزِلُ ويصلب البشرة ، وبالعكس » .

قلتُ : والملابسُ ثلاثة أقسام : قسمٌ يُسخنُ البدن ويدفئه ، وقسم يدفئُه ولا يُسخنه ، وقسمٌ لا يُسخنه ولا يدفئُه ، وليس هناك ما يسخنه ولا يدفئُه ؛ إذ ما يسخنه فهو أولى بتدفئته ، فملابسُ الأوبار والأصواف تسخن وتدفئ ، وملابسُ الكتان والحرير والقطن تدفئ ولا تُسخن ، فثياب الكتَّان باردة يابسة ، وثيابُ الصوف حارة يابسة ، وثيابُ القطن معتدلة الحرارة ، وثيابُ الحرير أَلينُ من القطن وأقلُّ حرارةً منه . قال صاحب المنهاج : « ولُبسه لا يُسخن كالقطن ، بل هو معتدل » . وكل لباس أملسَ صقيلٍ فإنه أقلُّ إسخاناً للبدن ، وأقلُّ عوناً في تَحَلُّلِ ما يتحلل منه ، وأحْرَى أن يُلبسَ في الصَّيْفِ وفي البلاد الحارَّةِ .

ولمّا كانت ثيابُ الحرير كذلك ، وليس فيها شيء من اليُبْس والخشونة الكائنَيْن[٣١١] في غيرها ، صارتْ نافعةً من الحِكَّة ، إذِ الحِكَّةُ لا تكونُ إلا عن حرارة ويُبس وخُشونةٍ ، فلذلك رخَّص رسول الله ﷺ ، للزُّبير وعبدِ الرحمنْ ، في لباس الحرير لمداواةِ الحِكَّةِ . وثياب الحرير أبعدُ عن تولُّدِ القمل فيها ، إذ كان مِزَاجُها مخالفاً لِمزاج ما يتولَّدُ منه القمل .

وأما القسمُ الذي لا يدفئ ولا يسخنُ فالمُتَّخَذُ من الحَدِيدِ والرَّصاص والخشب والتُّراب ونحوها .

فإن قيل : فإذا كان لباسُ الحرير أعدلَ اللباس وأوفَقَه للبدن ؛ فلماذا حَرَّمَتْهُ الشَّرِيعَةُ الكاملةُ الفاضلةُ ، التي أباحتِ الطَّيِّبَاتِ ، وحَرَّمَتِ الخبائثَ ؟

قيل : هذا السؤال يجيبُ عنه كُلُّ طائفة ــ من طوائف المسلمين ــ بجواب .

فمُنْكِرُو الحِكَم والتَّعليل لمَّا رُفِعَتْ قاعدةُ التعليلِ من أصلها ، لم يحتاجوا إلى جوابٍ عن هذا السؤال[٣١٢] .

---

(٣١٠) الإبْرَيْسَمُ : الحرير .

(٣١١) في النسخ المطبوعة « الكائنتين » .

(٣١٢) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « لم تحتج إلى جواب هذا السؤال » .

ومُثْبِتُو التعليلِ والحِكَمِ ــ وهم الأكثرون ــ منهم مَن يُجيبُ عن هذا بأن الشريعةَ حَرَّمَتْهُ لتَصيرَ النفوسُ عنه ، وتَتْرُكَه لله ، فتُثابَ على ذلك ، لاسيما ولها عوضٌ عنه بغيره .

ومنهم مَنْ يُجيبُ عنه بانه خُلِقَ في الأصْلِ للنساء كالحلية بالذهب ، فَحُرِّمَ على الرجالِ لما فيه من مَفْسَدَةِ تَشَبُّهِ الرِّجالِ بالنِّسَاء . ومنهم من قال : حُرِّمَ لما يُورِثُه من الفَخْرِ والخُيَلاءِ والعُجْبِ .

ومنهم من قال : حُرِّمَ لما يورثه بملامسته للبدن(٣١٣) من الأنوثةِ والتَّخَنُّثِ ، وضدِّ الشهامة والرجولةِ ، فإن لُبسه يَكسبُ القلبَ صفةً من صفات الإناث ، ولهذا لا تكاد تجدُ من يَلبَسُه في الأكثر ، إلا وعلى شمائله من التخنُّثِ والتأنُّثِ والرِّخاوةِ ، ما لا يَخفي حتى لو كان من أشهم الناس وأكثرهم فحوليةً ورجوليةً ، فلابد أن يَنْقُصَه لُبسُ الحرير منها إن(٣١٤) لم يُذهبْهَا . ومَن غَلُظَتْ طباعهُ وكَثُفتْ عن فهم هذا فليُسلِّمْ للشَّارع الحكيم . ولهذا كان أصح القولين : أنه يَحْرُمُ على الولي أن يُلبسه الصبيَّ ، لما يَنشأ عليه من صفات أهل التأنيثْ .

وقد روى النسائيُّ ــ من حديث أبي موسى الأشعريِّ عن النبي ــ ﷺ ــ أنه قال : « إن الله أحلّ لإناثِ أُمَّتِي الحريرَ والذَّهبَ ، وحَرَّمَه عَلى ذُكُورِها » ؛ وفي لفظٍ : « حُرِّم لِباسُ الحَريرِ والذَّهَبِ عَلى ذُكورِ أمّتي ، وأُحِلَّ لإناثِهِم »(٣١٥) .

وفى صحيح البخارى : عن حُذَيفة ، قال : « نهى رسول الله ﷺ ، عن لبس الحرير والدِّيباج ، وأن يُجْلَسَ عليه ، وقال : هو لهم فى الدُّنيا ، ولكم فى الآخرة »(٣١٦) .

---

(٣١٣) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « ... للبدن لملاسته » والملاسة : النعومة واللِّين .

(٣١٤) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « وإنْ » .

(٣١٥) أخرجه النَّسائى فى كتاب الزينة ، باب تحريم الذهب على الرجال [ج ٨ ص ١٦١] .

(٣١٦) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ، باب لبس الحرير للرجال ، وقدر ما يجوز منه [ج ١٠ ص ٢٨٤ من فتح البارى] . وأخرجه النَّسائى بمعناه فى كتاب الزينة ، فى النهى عن لبس الديباج [ج ٨ ص ١٩٨ ، ١٩٩] .

فصل في هديه ﷺ في علاج ذات الجنب

روى الترمذي في جامعه — من حديث زيد بن أرقمَ — أن النبي ﷺ ، قال : « تَدَاوَوْا من ذاتِ الجَنْبِ بالقُسْطِ البَحْرِيِّ والزَّيْتِ »(٣١٧) .

وذات(٣١٨) الجنب — عند الأطباء — نوعان : حقيقيٌّ ، وغيرُ حقيقيّ . فالحقيقيُّ : ورمٌ حارٌّ يَعْرِضُ في نواحي الجنب في الغشاء المستبطن للأضلاع . وغير الحقيقى : أَلَم يُشبِهُهُ ، يَعْرِضُ في نواحي الجنبِ عن رياح غليظة مؤذيةٍ ، تحتقن بين الصِّفاقات(٣١٩) ، فتحدث وجعاً قريباً من وجع ذات الجنب الحقيقي ، إلا أن الوجع في هذا القسم ممدودٌ ، وفي الحقيقي ناخسٌ .

قال صاحب القانون : « قد يَعْرِضُ في الجَنْبِ والصِّفاقات والعَضَل ، التي في الصدر والأضلاع ونواحيها ، أورامٌ مؤذية جدًّا موجِعةٌ ، تسمى : شَوْصةً ، وَبِرساماً ، وذاتَ الجَنْب . وقد تكون أيضاً أوجاعاً في هذه الأعضاء ، ليست من ورم ، ولكن من رياح غليظة ، فيظن أنها من هذه العلة ، ولا تكون . قال : واعلم أنَّ كُلَّ وجع في الجنب قد يُسَمَّى ذاتَ الجنْب ، اشتقاقاً من مكان الألم ، لأن معنى ذاتِ الجنب : صاحبةُ الجنب . والغرضُ به ها هُنا وجعُ الجنب ، فإذا عَرَضَ في الجنب أَلَمٌ عن أي سبب كان ، نُسِبَ إليه . وعليه حُمِلَ كلام بقراط(٣٢٠) في قوله : إن أصحاب ذات الجنبِ ينتفعون بالحمام . وقيل : المُرَادُ به كُلُّ مَنْ به وَجَعُ جنبٍ ، أو وَجَعُ رئةٍ من سُوء مِزاج ، أو مِنْ أخلاطٍ غليظة أو لذاعة ، من غير وَرم ولا حُمى » .

قال بعض الأطباء : وأما معنى ذات الجنب ، في لغة اليونان ، فهو ورمُ الجنب الحار ، وكذلك ورمُ كل واحد من الأعضاء الباطنة ، وإنما سُمِّيَ ذات الجنب ورمُ ذلك

---

(٣١٧) أخرجه الترمذى فى الطب ، باب ما جاء فى دواء ذات الجنْب [ج ٨ ص ٢٢٣] .
وقال عنه : حديث حسن غريب ، لا نعرفه إلاّ من حديث ميمون عن زيد بن أرقم . وقد رَوَى عن ميمون غَيْرُ واحدٍ ، هذا الحديث .

(٣١٨) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « ذلت » .

(٣١٩) الصّفاقات : الجلد الباطن تحت الجلد الظاهر .

(٣٢٠) فى بعض النسخ « أبقراط » .

العضو ، إذا كان ورَماً حارًّا فقط . ويلزم ذاتَ الجنب الحقيقي خمسةُ أعراض ، وهي الحُمَّى ، والسّعال ، والوَجَعُ النَّاخِس ، وضيق النَّفَس ، والنبضُ المِنْشَارِيّ[٣٢١] .

والعلاج الموجود في الحديث ليس هو لهذا القسم ، لكن للقسم الثاني الكائن عن الريح الغليظة ، فإن القُسْطَ البحريَّ ــ وهو العود الهنديُّ ؛ على ما جاء مُفَسَّرًا في أحاديث أُخَرَ ــ صِنفٌ من القُسط إذا دُقَّ دَقًّا ناعماً ، وخُلط بالزيت المُسَخَّن ، ودُلِكَ به مكان الريح المذكور ، أو لُعِقَ ــ كان دواءً موافقاً لذلك ، نافعاً له ، مُحَلِّلاً لمادته ، مُذْهِباً لها ، مقوياً للأعضاء الباطنة ، مفتحاً للسُّدَدِ . والعودُ المذكور في منافعه كذلك . قال المسيحيُّ[٣٢٢] : « العود حار يابس قابض ، يحبِسُ البطن ، ويُقوي الأعضاء الباطنة ، ويطردُ الريح ، ويفتح السُّدَد ؛ نافعٌ من ذات الجنب ، ويُذهِبُ فضلَ الرطوبة . والعود المذكور جيد للدماغ . قال : ويجوز أن ينفع القُسطُ مِن ذات الجنب الحقيقيةِ أيضاً ، إذا كان حدوثُها عن مادة بلغمية ، لاسيما في وقت انحطاط العلة . والله أعلم » .

وذاتُ الجنب من الأمراض الخطرة . وفي الحديث الصحيح عن أُم سَلمةَ ، أنها قالت : « بدأ رسول الله ﷺ بمرضِه في بيت ميمُونةَ ، وكان كُلَّما خفَّ عليه خرج وصلَّى بالناس ، وكان كلما وجد ثِقَلاً ، قال : « مُرُوا أبا بكرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ » . واشتد شكواه حتى غُمِرَ عليه من شدةِ الوجع ، فاجتمع[٣٢٣] عنده نساؤه ، وعمُّه

---

(٣٢١) هذه الأعراض التى جاءت هنا تنطبق على المرض الصدرى ، أو ما يُسمى بذات الرئة ، وهو مرض يعرف باسم « النومونيا » . وأعراض ذات الرئة تتمثل فى آلام الصدر والسعال ، والبصق المختلط أحياناً بلون الصدأ ، والحرارة المرتفعة ، والقشعريرة ، والوهن الشديد ، ويكون النفس ضحلاً أو متعسّراً ، وتخرج من الصدر أصوات شبيهة بالغرغرة « الحشرجة » . ومن أعراضه ألم البطن والرعشة والصداع .

ويعالج هذا المرض بمضادات الجراثيم ، والتتراسكلين ، والكلورامفنيكول ، والسلفا ، والإسعاف بالأكسوجين . [انظر صحة العائلة ودليل الرجل الطبى لغليل بيدس]

(٣٢٢) هو عيسى بن يحيى الجرجانى (أبو سهل) طبيب وحكيم متقن للعربية ، وعنه أخذ ابن سينا صناعة الطب . توفى وله من العمر أربعون سنة . ومن تصانيفه : إظهار حكمة الله تعالى فى خلق الإنسان . وكتاب فى العلم الطبيعى ، وكفاية الطب الكلى ، وكتاب فى الوباء ، وكتاب تعبير الرؤيا . توفى حوالى سنة ٣٩٠ هـ . وقيل ٤٠١ هـ . [انظر الأعلام للزركلى ج ٥ ص ٢٩٧ ، ٢٩٨]

(٣٢٣) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « ... حتى غُمِرَ عليه ، ومن شدة الوجع اجتمع ... » .

العباس ، وأمُّ الفضل بنت الحارث ، وأسماءُ بنت عُمَيْس . فتشاوروا في لدِّهِ ، فلدُّوه[٣٢٤] وهو مغمورٌ . فلما أفاق قال : مَنْ فَعَلَ بي هذا ؟ هذا من عمل نساءٍ جِئْنَ مِنْ ها هنا . وأشار بيده إلى أرض الحبشةِ . وكانت أُمُّ سلمةَ وأسماء لَدَّتاهُ . فقالوا : يا رسول الله ؛ خشينا أن يكون بِكَ ذاتُ الجنب . قال : فَبِمَ لَدَدْتُمُوني ؟ قالوا : بالعُودِ الهنديِّ ، وشيءٍ من وَرْسٍ وقَطَرَاتٍ[٣٢٥] من زيت . فقال : ما كان اللهُ لِيَقْذِفَني بذلك الدَّاءِ . ثم قال : عزمت عليكم أنْ لا يَبْقَى في البَيْتِ أحدٌ إلا لُدَّ ، إلَّا عَمِّيَ العَبَّاس » .

وفي الصحيحين : عن عائشةَ رضي الله تعالى عنها ؛ قالت : « لَددنَا رسول الله ﷺ ؛ فأشار : أنْ لا تَلُدُّوني . فقلنا : كراهِيةُ المريض للدواء . فلما أفاق قال : ألم أنْهَكُمْ أنْ لا تَلُدُّوني ؟! لا يبقى منكم أَحَدٌ إلا لُدَّ ، غير عَمِّي العباسِ : فإنه لَمْ يَشْهَدْكُم »[٣٢٦] .

قال أبو عبيد عن الأصمعيِّ : « اللَّدُودُ : ما يُسقى الإنسان في أحد شِقَّي الفم ؛ أُخِذ من لَدِيدَي الوادي ، وهما جانباه . وأما الوَجُورُ فهو في وسط الفم » . قلت : واللَّدُودُ (بالفتح) هو : الدواءُ الذي يُلَدُّ به ؛ والسَّعُوطُ : ما أُدْخِلَ من أنفه .

وفي هذا الحديث ــ من الفقه ــ معاقبةُ الجاني بمثل ما فعل سواء ، إذا لم يكن فِعْلُه محرماً لحقّ الله ، وهذا هو الصواب المقطوع به لبضعة عشر دليلاً قد ذكرها في موضع آخر . وهو منصوص أحمد . وهو ثابت عن الخلفاء الراشدين . وترجمة المسألة بالقصاص في اللطمة والضربة ، وفيها عِدَّةُ أحاديث لا مُعارِضَ لها البَتَّةَ ، فيتعين القولُ بها .

---

(٣٢٤) لدُّوه : أي جعلوا في جانبي فمه دواء بغير اختياره .

(٣٢٥) في النسخ المطبوعة « وقَطِرَانٍ » .

(٣٢٦) أخرجه البخاري في كتاب المغازي ، باب مرض النبي (ﷺ) ووفاته . [ج ٨ ص ١٤٧ من فتح الباري] وفي كتاب الطب ، باب اللَّدود . [ج ١٠ ص ١٦٦] وفي كتاب الديات ، باب إذا أصاب قوم من رجل يُعَاقب أم يقتص منهم كلهم . [ج ١٢ ص ٢٢٧] وأخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب لكل داء دواء [ج ١٤ ص ١١٩] .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ الصُّدَاعِ وَالشَّقِيقَةِ

روى ابن ماجه في سننه ، حديثاً في صحته نظرٌ [هو][٣٢٧] : « أن النبي ﷺ كان إذا صدِّع غَلَّف رأسه بالحنَّاءِ ؛ ويقول : إنه نافع بإذن الله من الصُّداع »[٣٢٨] .

والصُّداع : ألم في بعض أجزاء الرأس أو كله .[٣٢٩] فما كان منه في أحد شِقَّي الرأس لازماً يُسَمَّي : شقيقةً ، وإن كان شاملاً لجميعِهِ لازماً يسمى : بيضةً وخُوذَةً ، تشبيهاً ببيضة السلاح التي تشتمل على الرأس كلّه . وربما كان في مؤخّر الرأس أو في مقدمه . وأنواعه كثيرة ، وأسبابه مختلفة . وحقيقة الصداع : سخونة الرأس واحتماؤه ، لما دار فيه من البخار [الذي][٣٣٠] يطلب النفوذ من الرأس ، فلا يجد منفذًا فيصدعه ، كما يصدع الوِعَاء[٣٣١] إذا حَمِيَ ما فيه وطلب النفوذ . فكل شيء رطب إذا حَمِيَ طلب مكاناً أوسع من مكانه الذي كان فيه . فإذا عرض هذا البخار في الرأس كلّه ، بحيث لا يمكنه التَّفَشِّي والتحلل وجال في الرأس سمي : السَّدَرَ .

والصُّداع يكون عن أسباب عديدة[٣٣٢] **أحدها** : من غلبة واحدة من الطبائع الأربعة . **والخامس** : يكون من قروح تكون في المعدة ، فيألم الرأس لذلك الورم ، لاتصال[٣٣٣] العصب المنحدر من الرأس بالمعدة . **والسادس** : من ريح غليظة تكون في المعدة ، فتصعَدُ إلى الرأس فتصدعه . **والسابع** : يكون من ورم في عروق المعدة ، فيألَمُ

---

(٣٢٧) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٣٢٨) الحديث الذى فى ابن ماجه ورد فى كتاب الطب ، باب الحناء . ونصه : من سَلْمَى أمّ رافع ، مولاة رسول الله (ﷺ) قالت : « كان لا يصيب النبى (ﷺ) قَرْحَةٌ ولا شَوْكَةٌ إلاّ وضَعَ عليها الحِنَّاء » . [سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١١٥٨] وسيأتى بعد قليل .

(٣٢٩) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « أو فى كله » .

(٣٣٠) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٣٣١) فى الزاد « الوعى » بمعنى : المِدَّة والقيح .

(٣٣٢) من مسببات الصداع : إجهاد البصر ، وأمراض العين (مثل الجلوكوما) ، وتقيح جيوب الأنف ، والإمساك وعسر الهضم ، والحُمَّى ، والإرهاق ، والتوتر العصبى والعاطفى .

(٣٣٣) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « .... للاتصال من » .

الرأسُ بألم المعدة ، للاتصال الذي بينهما . **والثامن** : صُداع يحصل عن[٣٣٤] امتلاء المعدة من الطعام ، ثم ينحدر ويبقى بعضُه نيئاً ، فيصدع الرأس ويثقله . **والتاسع** : يعرض بعد الجماع ، لتخلخل[٣٣٥] الجسم ، فيصل إليه من حر الهواء ، أكثر من قدره . **والعاشر** : صداع يحصل بعد القيء والاستفراغ ، إما لغلبة اليبس ، وإما لتصاعد الأبخرة من المعدة إليه . **والحادي عشر** : صُداع يَعْرِضُ عن شِدَّةِ الحر وسخونة الهواء . **والثاني عشر** : ما يَعْرِضُ من شدة البرد ، وتكاثف الأبخرة في الرأس ، وعدم تَحَلُّلِها . **والثالث عشر** : ما يحدث من السهر ، وحبس النوم . **والرابع عشر** : ما يحدُث مِنْ ضَغْطِ الرأس ، وحَمْلِ الشيء الثقيل عليه . **والخامس عشر** : ما يحدُث مِنْ كثرة الكلام ، فَتَضْعُفُ قوةُ الدماغ لأجله . **والسادس عشر** : ما يحدث من كثرة الحركة ، والرياضة المفرطة . **والسابع عشر** : ما يحدثُ من الأعراض النفسانية : كالهموم والغموم ، والأحزان والوساوس[٣٣٦] ، والأفكار الرديئة . **والثامن عشر** : ما يحدث من شدة الجوع ؛ فإن الأبخرة لا تجد ما تعمل فيه ، فتكثر وتتصاعد إلى الدماغ فتؤلمه . **والتاسع عشر** : ما يحدث من[٣٣٧] ورم في صِفاق الدماغ ، ويجد صاحبُه كأنه يُضْرَبُ بالمَطارِق على رأسه . **والعشرون** : ما يحدث بسبب الحُمَّى ، لاشتعال حرارتها فيه ، فيتألم . والله أعلم .

فصل

وسبب صُداع الشقيقة[٣٣٨] مادة في شرايين الرأس وحدها ، حاصلة فيها ، أو مرتقية إليها ؛ فيقبلُها الجانب الأضعف من جانبيه . وتلك المادة إمّا بُخارية ، وإما أخلاط حارة

---

(٣٣٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « من » .

(٣٣٥) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « لتخلل » .

(٣٣٦) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « والوسواس » .

(٣٣٧) في الزاد « عن » .

(٣٣٨) الشقيقة : ألم ينتشر في نصف الرأس والوجه ، ويُطلق عليه : الصداع النصفي . ويصطحب غالباً باضطراب بصري ، كغموض المرئيات أو ازدواجها ، أو توهم رؤية نقط سوداء ، وبالغثيان والقيء والدوار . وسببها المباشر هو تمدد شرايين العنق والمخ ، الذي يؤدي إلى زيادة تنبه الأعصاب ، ومن ثمّ إلى الألم . وتعالج بالمسكنات وبالعقاقير القابضة للشرايين .

أو باردة ، وعلامتها الخاصة بها ضَرَبان الشَّرايين وخاصة في الدموي . وإذا ضبطت بالعصائب ، ومُنعت من[٣٣٩] الضَّرَبان ، سَكَن الوجع .

وقد ذكر أبو نعيم في كتاب « الطب النبوي » له : أن هذا النوع كان يُصيب النبي ﷺ ، فَيمكُث اليوم واليَوْمَيْنِ ، ولا يخرج . وفيه : عن ابن عباس ، قال « خطبنا رسول الله ﷺ وقد عَصَّبَ رَأْسَه بِعِصَابةٍ » .

وفي الصحيح : « أنه قال في مرض موته : « وَارَأْسَاه » . وكان يعصب رأسه في مرضه »[٣٤٠] .

وعَصْبُ الرأس ينفع في وجع الشَّقيقة ، وغيرها من أوجاع الرأس .

فصل

وعلاجه يختلف باختلاف أنواعه وأسبابه ، فمنه ما عِلاجُهُ بالاستفراغ ، ومنه ما علاجه بتناول الغذاء ، ومنه ما علاجه بالسُّكون والدَّعَة ، ومنه ما علاجه بالضِّمادات ، ومنه ما علاجه بالتَّبريد ، ومنه ما علاجه بالتسخين ، ومنه ما علاجه بأن يجتنب سَماعَ الأصواتِ والحَركات .

إذا عُرِفَ هذا ، فعلاج الصداع ــ في هذا الحديث ــ بالحِنَّاء ، هو جزئيٌّ ، لا كُلِّيٌّ ، وهو علاج نوع من أنواعه . فإن الصداع إذا كان من حرارة مُلْهِبَة[٣٤١] ، ولم يكن من مادةٍ يجب استفراغها ــ نفع فيه الحناءُ نفعاً ظَاهِرًا ، وإذا دُقَّ وضُمِّدَتْ به

---

(٣٣٩) « من » ساقطة من النسخ المطبوعة .

(٣٤٠) أخرجه البخارى فى كتاب المرضَى ، باب مارُخص للمريض أن يقول : إنِّى وَجِعٌ ، أو وارَأْساه [ج ١٠ ص ١٢٢ من فتح البارى] وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر فى كتاب الجنائز ، باب ما جاء فى غسل الرجلِ امرأته ، وغسل المرأة زوجها ، ونصه عن عائشة رضى الله عنها قالت : « رجع رسول الله (ص) من البقيع ، فوجدنى وأنا أجد صداعاً فى رأسى ، وأنا أقول : « وارأساه » . فقال : « بل أنا يا عائشةُ وارأساه » ثم قال : ما ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِى فَقُمْتُ عَلَيْكِ فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ وصَلَّيْتُ عليكِ ودَفَنْتُكِ » [سنن ابن ماجه ج ١ ص ٤٧٠] وفى الزوائد : إسناد رجاله ثقات . ورواه الدَّرامى أيضًا عن عائشة فى باب وفاة النبى [ج ١ ص ٣٧ ، ٣٨] .

(٣٤١) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « ملتهبة » .

الجَبْهَةُ مع الخل ، سَكَّن الصُّدَاعَ . وفيه قوة موافقة للعصب ، إذا ضُمِّدَ به سَكَّنَ[٣٤٢] أوجاعه . وهذا لا يختص بوجع الرأس ، بل يَعُمُّ الأعضاءَ ، وفيه قبضٌ تشد به الأعضاءُ . وإذا ضُمِّدَ به موضعُ الورَم الحار والملتهب ، سَكَّنه .

وقد روى البخاريُّ في تاريخه ، وأبو داودَ في السنن : « أن رسولَ الله ﷺ ، ما شَكا إليه أحدٌ وجَعاً في رأسِهِ ، إلَّا قال : [له][٣٤٣] : احْتَجِمْ . ولا شَكا إليه وجَعاً في رجْلَيْه ، إلَّا قال له : اخْتَضِبْ بالحِنَّاء »[٣٤٤] .

وفي الترمذيِّ : عن سَلْمَى أمِّ رافعٍ ، خادمةِ النبي ﷺ ، قالتْ : « كان لا يُصيبُ النبيَّ ﷺ ، قَرْحَةٌ ولا شَوْكَةٌ ، إلَّا وَضَع عليها الحِنَّاءَ »[٣٤٥] .

فصل

والحِناءُ باردٌ في الأولى ، يابسٌ في الثانية . وقوةُ شجر الحناء وأغصانها ، مُرَكَّبَةٌ من قوة محللة اكتسبتْها من جوهرٍ فيها مائيٍّ حار باعتدال ، ومن قوة قابضةٍ اكتسبتْها من جوهر فيها أرضيٍّ بارد .

ومن منافعة : أنه مُحَلِّلٌ نافع من حرق النار ، وفيه قُوَّةٌ مُوافِقَةٌ للعصب إذا ضُمِّدَ

---

(٣٤٢) في الزاد « سكنت » .

(٣٤٣) ما بين المعقوفتين عن الزاد .

(٣٤٤) أخرجه أبو داود في كتاب الطب ، بابٌ في الحجامة [ج ٤ ص ٤] وسنده ضعيف ، لأن فيه عبيد الله بن علي بن أبي رافع . قال عنه أبو حاتم : لا يُحتج بحديثه .

(٣٤٥) أخرجه الترمذي في الطب ، باب ما جاء في التداوي بالحناء عن سلمى أيضاً . وقد أشرنا إليه من قبل . وقال ابن العربي : « قد أكثر الناس في الحناء ، ووضعت فيها الأحاديث عن النبي – عليه السلام – بالكذب ، واتباع الجهال وطلاب المعاش بالباطل عند الناس تقرباً إلى قلوبهم ، ولا يوجد فيها شيء إلا عن ضعف الحديث ... » [انظر صحيح الترمذي ج ٨ ص ٢١١ ، ٢١٢] وفي مجمع الزوائد ، كتاب الطب ، باب دواء الصداع وغيره بالحناء ، عن أبي هريرة قال : « كان رسول الله (ﷺ) إذا نزل عليه الوحي صُدِّعَ فيغلف رأسه بالحناء » . رواه البزار ، وقال الهيثمي : فيه الأحوص بن حكيم ، وقد وثق ، وفيه ضعف كثير ، وأبو عون لم أعرفه [مجمع الزوائد ج ٥ ص ٩٨] .

به ، وينفع إذا مُضِغَ من قروح الفَم والسُّلاق[٣٤٦] العارض فيه . ويبرئُ القلاع[٣٤٧] الحادث في أفواه الصبيان . والضِّماد به ينفع من الأورام الحارة المُلهبة ، ويفعل في الخراجات[٣٤٨] فعل دم الأخوَين[٣٤٩] وإذا خُلِطَ نَوْرُه[٣٥٠] مع الشمع المُصَفَّى ودهن الورد ينفع من أوجاع الجنب .

ومن خواصه : أنه إذا بدأ الجُدَرِيُّ يَخْرج بصبي ، فَخُضِبَتْ أسافل رجليهِ بحنّاءٍ ، فإنه يُؤْمَنُ على عينيه أن يخرج فيها شيء منه . وهذا صحيح مُجَرَّبٌ لا شك فيه . وإذا جُعِلَ نَوْرُه بين طَيِّ ثياب الصوف طَيَّبَها ، ومَنَع السُّوسَ عنها . وإذا نُقِعَ ورقُه في ماءٍ عذب يغمُره ، ثم عُصِرَ وشُرِبَ من صَفْوِه أربعين يوماً ، كُل يوم عشرون درهماً مع عشرة دراهم سكر ، ويغذَّى عليه بلحم الضأن الصغير ــ فإنه ينفع من ابتدا الجُذَام بخاصيَّةٍ فيه عجيبه .

وحكي أنَّ رجلاً تشققت أظافير أصابع يده ، وأنه بذل لمن يُبرئه مالاً ، فلم يجد ، فوصفت له امرأة أن يشرب عشرة أيام حِناءً ، فلم يُقْدِمْ عليه . ثم نقعه بماء وشربه ، فبرأ ، ورجعت أظافيرُه إلى حسنها .

والحِناء إذا أُلزِمَتْ به الأظفار معجوناً حسَّنها ونفعها ، وإذا عُجِنَ بالسمن ، وضُمِّدَ به بقايا الأورام الحارة التي تَرْشَحُ ماءً أصفر نفعها ، ونفع من الجرَبِ المُتَقَرِّح المزمن ، منفعة بليغةً . وهو يُنْبِتُ الشَّعْرَ ويقويه ويُحَسِّنُهُ ، ويُقَوِّيَ الرأس . وينفع من النُّفاطات والبثور العارضة في الساقين والرجلين ، وسائر البدن .

---

(٣٤٦) السُّلاق : بَثْرٌ يخرج فى أصل اللسان ، وتَقَشُّرٌ فى أصول الأسنان .

(٣٤٧) القُلاع : مرض يصيب الصغار ، وأعراضه ظهور نقط بيضاء فى الفم والحلق . وسببه العدوى بفُطر خاص .

(٣٤٨) فى الزاد « الجراحات » .

(٣٤٩) دم الأخوين : قيل عنه فى تذكرة داود إنه صمغ نخلة بالهند أو هو عصارة نبات صبر سقطرا وقال داود الأنطاكى والصحيح أنّا لا نعرف أصله وإنما يجلب هكذا من نواحى الهند . وأجوده الخالص الحمرة ، الإسفنجى الجسم ، الخفيف ... يحبس الدم والإسهال ويدمل ، ويمنع سيلان الفضول وحرارة الكبد .

(٣٥٠) نَوْرُه : زَهْرَة .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي مُعَالَجَةِ الْمَرْضَى بِتَرْكِ إِعْطَائِهِمْ مَا يَكْرَهُونَهُ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَأَنَّهُمْ لَا يُكْرَهُونَ عَلَى تَنَاوُلِهِمَا

روى الترمذي في جامعه ، وابن ماجه ، عن عقبة بن عامر الجُهَنِيِّ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تُكرِهُوا مَرْضَاكُم عَلَى الطَّعَامِ والشَّرَابِ ؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يُطْعِمُهُمْ ويَسْقِيهِمْ »(٣٥١) .

قل بعضُ فُضَلاء الأطباء : ما أَغْزَرَ فوائدَ هذه الكلمة النبوية ، المشتملة على حِكَم إلٰهية ؛ لاسيما للأطباء ولمن يُعالج المَرْضَى ، وذلك أن المريضَ إذا عافَ الطَّعَامَ أو الشراب ، فذلك لاشتغال الطبيعة بمجاهدةِ المرض ، أو لسقوط شهوته أو نُقْصَانها ، لضعف الحرارة الغريزية ، أو خمودها ، وكيفما كان ، فلا يجوز حينئذ إعطاءُ الغِذَاء في هذه الحالة .

واعلم أن الجوعَ إنما هو طلبُ الأعضاء للغذاء ، لتُخْلِفَ الطبيعة به عليها ، عِوَضَ ما يتحلل منها ، فتجذب الأعضاء القُصْوَى من الأعضاء الدُّنيا ، حتى ينتهي الجذبُ إلى المَعِدَة ، فيحِسُّ الإنسان بالجوع ، فيطلب الغذاء . وإذا وُجِدَ المَرَضُ اشتغلت الطبيعة بمادته وإنضاجها وإخراجها ، عن طلب الغذاء أو الشراب ، فإذا أُكْرِهَ المَرِيضُ على استعمال شيء من ذلك تَعَطَّلَتْ به الطبيعة عن فعلها ، واشتغلت بهضمه وتدبيره عن إنضاج مادة المرض ودفْعه . فيكون ذلك سببا لضرر المريض ، ولاسيما في أوقات البُحْرَان(٣٥٢) ، أو ضعفِ الحار الغريزي ، أو خموده . فيكون ذلك زيادةً في البليَّةِ ، وتعجيل النازلة المتوقَّعة . ولا ينبغي أن يُستَعْمَلَ في هذا الوقت والحال ، إلا ما يحفَظُ عليه قوَّته وَيُقَوِّيها ، من غير استعمال مزعج للطبيعة البتة . وذلك يكون بما لَطُفَ قِوَامُه

---

(٣٥١) أخرجه الترمذى فىالطب باب ما جاء : لا تكرهوا مرضاكم على الطعام والشراب [ج ٨ ص ١٩٥] وقال : حديث حسن غريب . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب لا تكرهوا المريض علىالطعام [ج ٢ ص ١١٤٠] وفى الزوائد : إسناده حسن .

(٣٥٢) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « البحارين » جمع بُحْران ، وهو : التَّغَيُّر الذى يحدث للمريض فجأة فى الأمراض الحُمِّيَّة الحادَّة ، ويصحبه عرق غزير ، وانخفاض سريع فى الحرارة .

من الأشْرِبَةِ والأغذية ، واعتدَلَ[٣٥٣] مِزاجه ، كشراب اللَّينوفر[٣٥٤] والتفاح والورد الطَّرِيّ ، وما أشبه ذلك . ومن الأغذية مَرَق[٣٥٥] الفراريج المعتدلة الطيبة[٣٥٦] فقط ، وإنعاش قواه بالأرابيح[٣٥٧] العَطِرَةِ المُوافِقَة ، والأخبار السارة ، فإن الطبيب خادمُ الطبيعة ومعينها ، لا معيقها .

واعلم أن الدم الجيد هو المغذي للبدن ، وأن البَلْغَمَ دم فِجٌّ[٣٥٨] ، قد نَضِجَ بعضَ النُّضْج ، فإذا كان بعض المرضى في بدنه بلغم كثير وعُدِمَ الغذاء ــ عطَفتِ الطبيعةُ عليه ، وطبختْه وأنضجته ، وصَيَّرَتْهُ دماً وغذت به الأعضاء ، واكتفت به عما سواه . والطبيعة هى[٣٥٩] القوة التي وكَّلها الله سبحانه بتدبير البدن وحفظه وصحتِه ، وحراسته مدة حياته .

واعلم أنه قد يُحتاج في النُّدرة إلى إجبار المريض على الطعام والشراب ، وذلك في الأمراض التي يكون معها اختلاطُ العقل . وعلى هذا فيكونُ الحديث من العامِّ المخصوص ، أو من المطلَقِ الذي قد دلَّ على تقييده دليلٌ . ومعنى الحديث : أن المريضَ قد يعيش بلا غذاء أياماً ، لا يعيش الصحيحُ في مثلها .

وفي قوله ﷺ : « فإنَّ الله يُطعمهُم وَيَسْقِيهِم » معنى لطيفٌ زائد على ما ذكره الأطباءُ ، لا يعرفُه إلا من له عناية بأحكام القُلوب والأرواح ، وتأثيرها في طبيعة البدنِ ، وانفعال الطبيعة عنها ، كما تَنْفَعِلُ هي كثيرًا عن الطبيعة . ونحن نشير إليه إشارةً ، فنقول : النفس إذا حصل لها ما يَشْغَلُهَا مِنْ مَحْبُوبٍ ، أو مَكْرُوهٍ ، أو مَخُوف ــ

---

(٣٥٣) فى النسخ المطبوعة « واعتدال » .

(٣٥٤) اللَّينوفر : والأشهر فيه : النَّيْلُوفر : جنس نباتات مائية تنبت فى الأنهار والمناقع ، ومنه أنواع تزرع فى الأحواض لورقها وزهرها . ومن أنواعه اللوتس ، وتسمى فى مصر عرائس النيل . وشرابه ملطف جداً ومُسَكِّن للصداع ، وشرابه مفيد أيضاً للسعال [انظر القانون فى الطب ص ٢٠٦ ، ٢٠٧] .

(٣٥٥) فى النسخ المطبوعة « أمراق » .

(٣٥٦) فى النسخ المطبوعة « المُطَيَّبَة » .

(٣٥٧) فى النسخ المطبوعة « بالأرابيح » جمع أريج ، وهو الريح الطيبة .

(٣٥٨) الفِجُّ مِن كُل شَيْء : مالم يَنْضَج .

(٣٥٩) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « هو » .

اشتغلَتْ به عن طلب الغذاء والشراب ، فلا تُحِسُّ بجوع ولا عطش ، بل ولا حر ولا برد ، بل تشتغل به عن الإحساس بالمؤلم(٣٦٠) الشديد الألم ، فلا تُحِسُّ به ، وما من أحد إلا وقد وَجد في نفسه ذلك أو شيئاً منه . وإذا اشتغلت النفس بما دهمها وورد عليها لم تُحِسَّ بألم الجوع .

فإن كان الوارد مُفَرِّحاً قَوِيَّ التَّفْرِيح قام لها مَقَامَ الغذاء ، فشبعتْ به ، وانتعشتْ قُواها وتضاعفت ، وجرَتِ الدَّمَويَّةُ في الجسد حتى تظهرَ في سطحه ، فَيُشْرِقُ وجهُهُ ، وتظهر دمويته ، فإن الفرح يُوجِبُ انبساطَ دم القلب ، فينبعثُ في العروق ، فتمتلئُ به ، فلا تطلبُ الأعضاءُ حَظَّهَا(٣٦١) من الغذاء المعتاد ، لاشتغالها بما هو أحبُّ إليها وإلى الطبيعة منه . والطبيعة إذا ظَفِرَتْ بما تُحِبُّ ، آثرته على ما هو دونه .

وإن كان الواردُ مؤلماً أو مُحْزِناً أو مَخُوفاً(٣٦٢) ، اشتغلتْ بِمُحَارَبته ومُقَاوَمَته ومُدافَعَتِهِ عن طَلَبِ الغذاء ، فهي — في حال حربها — في شغل عن طلب الطعام والشراب ، فإن ظَفِرَتْ في هذا الحرب انتعشت قواها ، وأخلَفت عليها نظير ما فاتها من قوة الطعام والشراب ، وإنْ كانت مغلوبةً مقهورة انحطتْ قواها بحسب ما حصل لها من ذلك ، وإنْ كانت الحرب بينها وبين هذا العدو سِجَالاً ، فالقُوَّةُ تظهر تارة ، وتَخْتَفِي(٣٦٣) أخرى . وبالجملة ، فالحرب بينهما على مثال الحرب الخارج بين العَدُوَّيْنِ المُتَقَاتِلَيْنِ(٣٦٤) ؛ والنصر للغالب ، والمغلوب إمّا قتيل ، وإمّا جريح ، وإما أسير .

فالمريض له مَدَدٌ من الله تعالى يُغَذِّيهِ به زائدًا على ما ذكره الأطباء من تغذيته بالدم ، وهذا المددُ بحسب ضعفِهِ وَانْكِسَارِهِ ، وَانْطِرَاحِهِ بين يدي رَبِّهِ عَزَّ وجَلَّ . فيحصلُ له من ذلك ما يُوجِبُ له قُرْباً من ربه . فإنَّ العبدَ أقرب ما يكون من ربه إذا انْكَسَرَ قَلْبُهُ ؛

---

(٣٦٠) في الزاد « المؤلم » .

(٣٦١) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « معلومها » .

(٣٦٢) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « وتخوّفًا » .

(٣٦٣) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « وتَخْفَى » .

(٣٦٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « المتقابلين » .

ورحمةُ ربه [عندئذٍ][٣٦٥] قريبة منه ، فإن كان وَلِيًّا له حصل له من الأغذية القلبية ما تَقوَى به قُوَى طبيعته ، وتَنتعشُ به قواه ، أعظمَ من قوتها وانتعاشها بالأغذية البدنية . وكلما قَوِيَ إيمانُه وَحُبُّهُ لِرَبِّه وأُنسُه به وفَرَحُه به ، وقَوِيَ يقينه بربه ، واشتد شوقه إليه ورضاه به وعنه ـــ وجَد في نفسه من هذه القوة ، مالا يُعَبَّر عنه ، ولا يُدْرِكُه وَصْفُ طبيب ، ولا يَنالُهُ علمه .

ومَنْ غَلُظَ طَبْعُهُ ، وكَثُفَتْ نَفْسُهُ عن فَهْمِ هذا والتصديق به ـــ فلينظرْ حالَ كثيرٍ من عُشّاقِ الصُّوَرِ الذين قد امتلأتْ قُلوبُهم بِحُبِّ ما يَعْشَقُونَهُ من صورة ، أو جاهٍ ، أو مال ، أو علم . وقد شاهد الناس من هذا عجائبَ في أنفسهم ، وفي غيرهم .

وقد ثبت في الصحيح ـــ عن النبي ﷺ ـــ أنه كان يُواصِلُ في الصيام الأيامَ ذواتِ العددِ ، وينهَى أصحابَه عن الوصَال ، ويقول : « لستُ كَهَيْئَتِكُم ؛ إني أَظَلُّ يُطْعِمُنِي رَبِّي ويَسْقِيني »[٣٦٦] . ومعلومٌ أن هذا الطعامَ والشراب ليس هو الطعامَ الذي يأكله الإنسانُ بفمه ، وإلّا لم يكن مُواصِلاً ، ولم يَتحقق الفرق ، بل لم يكم صائماً ، فإنه قال : « أَظَلُّ يُطْعِمُني رَبِّي ويَسْقِيني » . وأيضاً ، فإنه فَرَق بينه وبينهم في نفس الوصال ، وأنه يَقْدِرُ منه على مالا يَقْدِرُون عليه ، فلو كان يأكلُ ويشرب بفمه ، لم يَقُلْ . « لَستُ كَهَيْئَتِكُم » ، وإنما فَهِمَ هذا من الحديث ، مَنْ قَلَّ نصيبُه من غذاء الأرواح والقلوب . وتأثيره في القوة وإنعاشِها واغتذائها به ، فوقَ تأثير الغذاء الجسمانيِّ . والله الموفق .

(٣٦٥) ما بين المعقوفتين عن الزاد . وساقط من النسخ المطبوعة .

(٣٦٦) أخرجه البخارى فى كتاب الصوم ، باب الوصال ، وباب التنكيل لمن أكثر الوصال ، [ج ٤ ص ٢٠٢ من فتح البارى] والأخير عن أبى هريرة عن النبى (ص) قال : « إياكم والوصال - مرتين - قيل : إنك تُواصِل . قال : إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقين ، فاكلفوا من العمل ما تطيقون . وأخرجه مسلم فى كتاب الصيام ، باب النهى عن الوصال [ج ٧ ص ٢١١ ، ٢١٢ بشرح النووى ؟ . وأخرجه أبو داود فى كتاب الصوم فى : باب فى الوصال [ج ٢ ص ٣٠٦ ، ٣٠٧] بألفاظ مختلفة .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في عِلَاجِ العُذْرَةِ، وفي العِلَاجِ بالسَّعُوطِ

ثبت في الصحيحين أنه قال : « خيرُ مَا تَدَاوَيْتُم به الحِجَامةُ ، والقُسْطُ البَحْرِيُّ ، ولا تعذِّبُوا صِبْيانكُم بالغَمْزِ من العُذْرَةِ »[٣٦٧] .

وفي السنن والمسند عنه ــ من حديث جابر بن عبد الله ــ قال : « دَخَل رسولُ الله ﷺ ، على عائشة ، وعِنْدها صَبِيٌّ يسِيلُ منخراهُ دماً ؛ فقال : ما هذا ؟ فقالوا : به العُذْرَةُ ، أو وَجَعٌ في رَأسِهِ . فقال : وَيلكُنَّ ؛ لا تَقْتُلْنَ أَوْلَادَكُنَّ ، أَيُّما امْرَأَةٍ أَصَابَ وَلَدَهَا عُذْرَةٌ أو وَجَعٌ في رَأْسِهِ فَلْتَأْخُذْ قُسْطاً هِنْدِيًّا ، فَلْتَحُكَّهُ بماءٍ ثم تُسْعِطْهُ إيَّاهُ . فَأَمَرَتْ عائشةُ رضي الله عنها ، فَصُنِعَ ذلك بالصَّبِي فَبَرأ »[٣٦٨] .

قال أبو عُبَيْدٍ : « عن أبي عُبَيْدَةَ : العذرةُ : تَهَيُّجٌ في الحَلْقِ من الدم ، فإذا عُولِج منه ، قيل : قد عُذِرَ به فهو معذورٌ » انتهى . وقيل : العُذْرَةُ : قَرحةٌ تخرج فيما بين الأذن والحلق ، وتَعرض للصبيان غالباً .

وأما نفعُ السَّعُوط منها بالقُسْط المحكوك ، فلأن العُذْرَةَ مادتُها دم يغلب عليه البلغمُ ، لكن تولده في أبدان الصِّبيان [أكثر][٣٦٩] . وفي القُسْط تجفيفٌ يَشدُّ اللَّهاةَ ويرفعها إلى مكانها ، وقد يكون نفعُه في هذا الداء بالخاصية . وقد ينفع في الأدواء الحارة ، والأدوية الحارة بالذات تارة ، وبالعَرَض أخرى . وقد ذكر صاحب القانون في معالجة سُقوط اللَّهاة : القُسطَ مع الشَّب اليماني وبَزر المَرْو .

---

(٣٦٧) أخرجه البخارى فى باب الحجامة من الداء [ج ١٠ ص ١٥٠ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى كتاب المساقاة ، باب حل أجرة الحجامة [ج ١٠ ص ٢٤٢] . والقُسط : عود يُجاء به من الهند ، ويستخدم فى حالات الصداع والزكام ، ويستخدم أيضاً كبخور ، وكسعوط « نشوق » وسيأتى فى القسم الثانى من هذا الكتاب فى حرف القاف .
ومعنى قوله : « لا تعذبوا صبيانكم بالغمز من العذرة » أى : لا تغمزوا حَلْق الصبى بسبب العذرة – وهى وجع الحلق والتهاب اللوزتين – بل داووه بالقُسط البحرى .

(٣٦٨) أخرجه ابن ماجه عن أم قيس بنت مِحْصَن بلفظ مختلف ، فى كتاب الطب ، باب دواء العُذرة ، والنهى عن الغمز [ج ٢ ص ١١٤٦] ورواه أبو داود فى سننه عن أم قيس أيضاً ، فى كتاب الطب ، باب العلاق [ج ٤ ص ٨] ورواه أحمد وأبو يعلى والبزار ، فى الزوائد فى كتاب الطب باب القسط [ج ٥ ص ٩٢] ورجاله ثقات .

(٣٦٩) ما بين المعقوفتين عن الزاد . وساقط من النسخ المطبوعة .

والقُسْطُ البحريُّ المذكور في الحديث، هو[٣٧٠] العود الهندي؛ وهو الأبيض منه، وهو حلو، وفيه منافع عديدة. وكانوا يعالجون أولادهم بغَمْزِ اللَّهاة، وبالعِلَاق. وهو شيء يُعَلِّقونه على الصِّبيان. فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك، وأرشدهم إلى ما هو أنفعُ للأطفال، وأسهلُ عليهم.

والسَّعُوطُ: ما يُصَبُّ في الأنف؛ وقد يكون بأدوية مُفْردة ومُرَكَّبة، تُدَقُّ وتُنْخَلُ وتُعْجَنُ وتُجَفَّفُ، ثم تُحَلُّ عند الحاجة، ويُسْتَعَطُ بها في أنف الإنسان، وهو مُسْتَلْقٍ على ظهره، وبين كتفيه ما يرفعُهما لينخفض[٣٧١] رأسُه، فيَتَمَكَّن السَّعُوطُ من الوصول إلى دِماغه، ويستخرج ما فيه من الداء بالعُطَاسِ. وقد مدح النبي – ﷺ – التداويَ بالسَّعوط فيما يُحتاج إليه فيه. وذكر أبو داودَ في سننه: «أن النبيَّ ﷺ، اسْتَعطَ»[٣٧٢].

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ الْمَفْؤُودِ

روى أبو داودَ في سننه – من حديث مُجاهِدٍ، عن سعد[٣٧٣] – قال: «مَرِضْتُ مَرَضاً، فأتاني رسولُ الله ﷺ، يَعُودُني. فَوَضَعَ يَدَهُ بَيْنَ ثَدْيَيَّ، حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَهَا عَلَى فُؤَادِي؛ وقال لي[٣٧٤] إنَّكَ رجُلٌ مَفْؤُودٌ؛ فأْتِ[٣٧٥] الحَارِثَ بْنَ كَلَدَةَ من

---

(٣٧٠) هكذا في الزاد. وفي النسخ المطبوعة «فهو».

(٣٧١) في الزاد «لتنخفض».

(٣٧٢) أخرجه أبو داود عن ابن عباس في كتاب الطب، باب السَّعُوط [ج ٤ ص ٦] واسْتَعَطَ: أي أدخل الدواء في أنفه.

(٣٧٣) ذكر الدكتور قلعجي في هامش «الطب النبوي» نقلا عن مختصر السنن للمنذري أن مجاهداً لم يدرك سعداً، وإنما يروي عن مصعب بن سعد. (قاله أبو حاتم) وقال أبو زرعة الرازي: مجاهد عن سعد مرسل. ا. هـ. وفي أسد الغابة أن سعد (بن أبي وقاص) توفي ما بين سنة ٥٤ هـ – ٥٨ هـ. وفي رجال مسلم أن مجاهد (بن جبر) الذي روى عنه، ولد سنة ٢١ هـ في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي بمكة سنه ١٠٢ أو ١٠٣ هـ، وبهذا يكون عُمْر مجاهد عند وفاة سعد ٣٣ سنة أو ٣٧ سنة [انظر أسد الغابة ج ٢ ص ٣٦٦. وانظر رجال مسلم ج ٢ ص ٢٤٣].

(٣٧٤) في سنن أبي داود «فقال».

(٣٧٥) في سنن أبي داود «ائت».

ثَقِيفٍ(٣٧٦) ، فإنَّه رجُلٌ يتطَبَّبُ فليأْخُذْ سَبْعَ تَمَرَاتٍ مِنْ عَجْوَةِ المَدِينَةِ ، فَلْيَجأْهُنَّ(٣٧٧) بنَواهُنَّ ، ثم لِيَلُدَّكَ(٣٧٨) بهِنَّ »(٣٧٩) .

المَفْؤُودُ : الذي أُصيبَ فُؤَادهُ ، فهو يشتكيه ، كالمبطون : الذي يشتكي بطنه . واللُّدُودُ : ما يُسقاه الإِنسانُ من أحد جانبي الفم . وفي التمر خاصيَّةٌ عجيبةٌ لهذا الداء ، ولاسيَّما تمر المدينة ، ولاسيَّما العجوة منه . وفي كونها سبعاً خاصيةٌ أخرى تُدْرَكُ بالوَحْي .

وفي الصحيحين ــ من حديث عامر بن سعد بن أبي وَقَّاصٍ ، عن أبيه ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَصبَّحَ بسبعِ تمراتٍ من تمر العالِيَة ، لم يَضُرَّهُ ذلك اليومَ سُمٌّ وَلَا سِحْرٌ » . وفي لفظ : « مَنْ أَكَلَ سَبْعَ تَمَراتٍ مِمَّا بَيْن لَابَتَيْها(٢٨٠) ، حين يصبحُ ، لم يَضُرَّهُ سمٌّ حتىٰ يمسي »(٣٨١) .

والتَّمْرُ حَارٌّ في الثانية ، يابِسٌ في الأولى . وقيل : رطبٌ فيها . وقيل : معتدل . وهو غذاءٌ فاضلٌ حافظٌ للصحة ، لاسيما لمن اعتاد الغِذَاءَ به كأهل المدينة وغيرهم . وهو من أفضل الأغذية في البلاد الباردةِ والحارةِ التى حرارتُها في الدرجة الثانية ، وهو لهم أنفعُ منه لأهل البلاد الباردة ، لبرودةِ بواطن سكانها ، وحرارةِ بواطن سكان البلاد الباردة ، ولذلك يُكثر أهلُ الحجاز واليمن والطائف ، وما يليهم ــ من البلاد المشابهةِ لها ــ من الأغذية الحارة ، مالا يتأتَّى لغيرهم ، كالتمر والعسل . وشاهدناهم يَضَعُون في أطعمتهم من الفُلْفُل والزَّنْجبيل ، فوقَ ما يضعه غيرهم ، نحو عشرة أضعاف أو أكثر ، ويأكلون

---

(٣٧٦) فى سنن أبى داود « أخا ثقيف » .

(٣٧٧) يعنى : فَلْيَكْسِرْهُنَّ ويدقّهنّ حتى يصرن كالحساء .

(٣٧٨) من اللّدد ، وهو : صب الدواء فى الفم . وقد تقدم .

(٣٧٩) هذا الحديث أخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب تمرة العجوة [ج ٤ ص ٧ ، ٨] .

(٢٨٠) لابتيها : المراد لا بَتَا المدينة ، وهما حَرَّتَانِ تكتنفانها . والحَرَّة : أرض ذات حجارة سود .

(٢٨١) أخرجه البخارى فى كتاب الأطعمة ، باب العجوة ، باختلاف فى اللفظ [ج ٩ ص ٥٦٩] وفى كتاب الطب باب الدواء بالعجوة للسِّحر [ج ١٠ ص ٢٣٨] وفى كتاب الطب أيضاً ، باب شُرب السُّم والدواء به [ج ١٠ ص ٢٤٧ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى الأشربة ، باب فضل تمر المدينة [ج ١٤ ص ٢ بشرح النووى] .

الزنجبيل كما يأكل غيرهم الحلوى . ولقد شاهدت من يَتَنَقَّل به منهم كما[٣٨٢] يتنقل بالنُّقْل[٣٨٣] . ويوافقهم ذلك ، ولا يضرهم لبرودةِ أجوافهم ، وخروج الحرارة إلى ظاهر الجسد ، كما تُشاهدُ مياه الآبار تبرد في الصيف ، وتسخن في الشتاء . وكذلك تنضج المعدة من الأغذية الغليظة ، في الشتاء ، مالا تنضجه في الصيف .

وأمّا أهل المدينة ، فالتمر لهم يكاد أن يكون بمنزلة الحنطة لغيرهم ؛ وهو قوتُهم ومادتُهم . وتمرُ العالية من أجود أصناف تمرهم ، فإنه متينُ الجسم ، لذيذ الطعم ، صادق الحلاوة .

والتمر يدخل في الأغذية والأدوية والفاكهة ؛ وهو يُوافق أكثر الأبدان ، مقوٍّ للحار الغريزي . ولا يتولد عنه من الفضلات الرديئة ، ما يتولد عن غيره من الأغذية والفاكهة ؛ بل يمنع لمن اعتاده ، من تعفن الأخلاط وفسادها .

وهذا الحديثُ من الخطاب الذي أُريدَ به الخاصُّ ، كأهل المدينة ومَن جاوَرَهم . ولا ريب أن للأمكنة اختصاصاً بنفع[٣٨٤] كثير من الأدوية في ذلك المكان دون غيره ؛ فيكون الدواء الذي قد ينبت[٣٨٥] في هذا المكان نافعاً من الداء ، ولا يوجد فيه ذلك النفعُ إذا نبت في مكان غيره ، لتأثير نفس التُّربة ، أو الهواء ، أو هما جميعاً ، فإن للأرض خواصَّ وطبائعَ يقارب اختلافها اختلاف طبائع الإنسان . كثير من النبات يكون في بعض البلاد غذاءً مأكولاً ، وفي بعضها سُمًّا قاتلاً . وَرُبَّ أدويةٍ لِقَوْمٍ أغذية لآخرين ، وأدوية لقوم من أمراض هي أدوية لآخرين في أمراض سواها ؛ وأدوية لأهل بلد[٣٨٦] لا تناسب غيرهم ولا تنفعهم .

وأمّا خاصية السَّبع ، فإنها قد وقعت قدْراً وشرعاً : فخلق الله عز وجل السمواتِ سبعاً ، والأَرَضِينَ سبعاً ، والأيام سبعاً ، والإنسان كمل خلقه في سبعة أطوار . وشرع

---

(٣٨٢) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « كان » .

(٣٨٣) النُّقْل ، بفتح النون المشددة وضمها : ما يتنقل به على الشراب من فواكه وغيرها . أو مايُتَفكَّهُ به من جوز ولوز وبندق ونحوها .

(٣٨٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « ينفع » .

(٣٨٥) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « نبت » .

(٣٨٦) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « بلاد » .

الله [سبحانه][٣٨٧] لعباده الطواف سبعاً ، والسعي بين الصفا والمروة سبعاً ورَمْيَ الجمارِ سبعاً سبعاً ، وَتكبيراتِ العيدين سبعاً في الأولى . وقال ﷺ : « مُرُوه بالصلاةِ لسبعٍ »[٣٨٨] . وَإِذَا صار للغلام سبع سنين خُيِّرَ بَيْنَ أَبَوَيْهِ[٣٨٩] في رواية ؛ وفي رواية أخرى : أَبوهُ أَحَقُّ به مِنْ أُمِّهِ ؛ وفي ثالثة : أُمُّهُ أَحَقُّ به . وأمر النبي ﷺ في مرضه أن يُصبَّ عليه من سبع قِرَبٍ[٣٩٠] . وَسخر الله الريح على قوم عادٍ سبع ليال . وَدَعَا النبي ﷺ أن يعينه الله على قومه بسبعٍ كسبعِ يوسفَ[٣٩١] . ومَثَّلَ الله سبحانه ما يُضاعِفُ به صَدَقَةَ المُتَصَدِّقِ بِحَبَّةٍ أنبتتْ سَبْعَ سنابلَ في كلِّ سُنْبلة مائة حبةٍ ، والسنابلِ التي رآها صاحب يوسفَ سبعاً ، والسنين التي زرعوها دأْباً سبعاً ، وتُضَاعَفُ الصدقة إلى سبعمائة ضِعف إلى أضعاف كثيرة . ويدخل الجنة من هذه الأمة بغير حساب سبعون ألفاً .

فلا ريب أن لهذا العدد خاصيةً ليست لغيره ، والسبعة جمعت معاني العدد كله وخواصَّه . فإن العدد شفعٌ ووتْر . والشفع أول وثان ، والوتر كذلك . فهذه أربع مراتب : شفع أول وثان ، ووتر أول وثان . ولا تجتمع هذه المراتب في أقل من سبعة ، وهي عدد كامل جامع لمراتب العدد الأربعة ؛ أعني : الشفع والوتر ، والأوائل والثواني ، ونعني بالوتر الأول : الثلاثة ، وبالثاني : الخمسة ؛ وبالشفع الأول : الاثنين ، وبالثاني : الأربعة . وللأطباء اعتناءٌ عظيم بالسبعة ، ولاسيما في البحارين . وقد قال

---

(٣٨٧) ما بين المعقوفتين زيادة عن الزاد .

(٣٨٨) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة ، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة . ونصه : « مُرُوا الصَّبيَّ بالصلاة إذا بلغ سبع سنين ، وإذا بلغ عَشْرَ سنين فاضربوه عليها » . ورواه الدارقطنى فى سننه فى كتاب الصلاة ، باب الأمر بتعليم الصلوات والضرب عليها ، بألفاظ وطرق مختلفة [انظر سنن الدارقطنى ج ١ ص ٢٣٠ ، ٢٣١] .

(٣٨٩) فى سنن ابن ماجه فى كتاب الأحكام ، باب تخيير الصبى بين أبويه ، عن أبى هريرة ، أنّ النبىَّ (ص) خيَّر غلاماً بين أبيه وأمّه وقال : « ياغُلَامُ ، هذه أمُّكَ ، وهذا أبوك » [ج ٢ ص ٧٨٧ ، ٧٨٨] . وفى سنن أبى داود ، فى كتاب الطلاق ، باب مَنْ أحَقُّ بالولد : « .... هذا أبوك ، وهذه أمك ، فَخُذْ بِيَدِ أيّهما شئت » . فأخذ بيد أمه فانطلقت به [ج ٢ ص ٢٨٤] .

(٣٩٠) أخرجه البخارى فى كتاب المغازى ، باب مرض النبى ووفاته [ج٨ ص ١٤١ من فتح البارى] عن عائشة ، وأخرجه الدارمى فى سننه باب فى وفاة النبى (ص) [ج ١ ص ٣٨] .

(٣٩١) أخرجه البخارى فى كتاب الاستسقاء ، باب دعاء النبى (ص) : اجعلها عليهم سنين كسِنِى يوسف [ج ٢ ص ٤٩٢ ، ٤٩٣ من فتح البارى] .

بقراط(٣٩٢) : « كل شيء في هذا العالم فهو مقدَّرٌ على سبعة أجزاء » ؛ والنجوم سبعة ، والأيام سبعة ، وأسنان الناس سبعة أولها طفل إلى سبع ، ثم صبيٌّ إلى أربع عشرة ، ثم مراهقٌ ، ثم شابٌّ ، ثم كهلٌ ، ثم شيخٌ ، ثم هَرِمٌ إلى منتهى العمر . والله تعالى أعلم بحكمته وشرعه ، وقدْره في تخصيص هذا العدد هل هو لهذا المعنى ؟ أو لغيره ؟

ونفع هذا العدد من هذا التمر ، من هذا البلد ، من هذه البقعة بعينها ، من السم والسِّحر — بحيث تمنع إصابته من الخواصِّ التي لو قالها بقراطُ(٣٩٣) وجالينوس وغيرهما من الأطباء ، لتلقَّاها عنهم الأطباءُ بالقبول والإذعان والانقياد ، مع أن القائل إنما معه الحَدْسُ والتخمين والظنُّ . فَمَنْ كلامه كلّه يقينٌ وقطعٌ وبرهانٌ ووحيٌ أولى أن تُتلقى أقواله بالقبول والتسليم ، وترك الاعتراض . وأدوية السُّموم تارة تكون [بالكيفية ، وتارة تكون](٣٩٤) بالخاصية ، كخواص كثير من الأحجار والجواهر واليواقيت . والله أعلم .

فصل

ويجوز نفع التمر المذكور في بعض السموم ، فيكون الحديث من العام المخصوص ، ويجوز نفعه ، لخاصية تلك البلد ، وتلك التربة الخاصة ، من كل سم ، ولكن ها هنا أمر لابد من بيانه ، وهو : أن مِن شرط انتفاع العليل بالدواء قبوله واعتقادَه النفع به ؛ فتقبله الطبيعة ، فتستعين به على دفع العلة ، حتى إن كثيرًا من المعالجات ينفع(٣٩٥) بالاعتقاد وحسن القبول ، وكمال التَّلقِّي . وقد شاهد الناس من ذلك عجائب ، وهذا لأن الطبيعة يشتد قبولها له ، وتفرح النفس به ، فتنتعش القوة ، ويقوى سلطان الطبيعة ، وينبعث الحار الغريزي ، فيساعد على دفع المؤذي . وبالعكس يكون كثير من الأدوية نافعاً لتلك العلة ، فيقطع عملَه سوءُ اعتقاد العليل فيه ، وعدم أخذ الطبيعة له بالقبول ، فلا يجدي عليها شيئاً .

---

(٣٩٢) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أبقراط » .

(٣٩٣) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أبقراط » .

(٣٩٤) مابين المعقوفتين عن الزاد . وساقط من النسخ المطبوعة .

(٣٩٥) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « تنفع » .

واعتبر هذا بأعظم الأدوية والأشفية(٣٩٦) ، وأنفعها للقلوب والأبدان ، والمعاش والمعاد ، والدنيا والآخرة ، وهو القرآن الذي هو شفاءٌ من كل داء ، كيف لا ينفع القلوب التي لا تعتقد فيه الشفاء والنفع ، بل لا يزيدها إلا مرضاً على(٣٩٧) مرضها . وليس لشفاء القلوب دواءٌ قط أنفع من القرآن ، فإنه شفاؤها التام الكامل الذي لا يغادر فيها سقماً إلا أبرأه ، ويحفظ عليها صحتها المطلقة ، ويحميها الحِمْيَة التامة من كل مُؤْذٍ ومُضِرٍّ ، ومع هذا فإعراض أكثر القلوب عنه ، وعدم اعتقادها الجازم الذي لا ريب فيه أنه كذلك ، وعدم استعماله والعدول عنه إلى الأدوية التي ركبها بنو جنسها(٣٩٨) — حال بينها وبين الشفاء به ، وغلبت العوائد ، واشتد الإعراض ، وتمكنت العلل والأدواءُ المزمنة من القلوب ؛ وتربَّى المرضى والأطباء على علاج بني جنسهم ، وما وضَعَهُ(٣٩٩) لهم شيوخهم ، ومَنْ يُعَظِّمُونَه ويحسنون به ظنونهم ، فعظم المصابُ ، واستحكم الدَّاءُ(٤٠٠) ، وتركبت أمراضٌ وعللٌ أعيَا عليهم علاجها ؛ وكلَّما عالجوها بتلك العلاجات الحادثة تفاقَمَ أمرها وقَوِيَتْ . ولسانُ الحالِ يُنادِي عليهم :

ومِن العجائِبِ — والعجائِبُ جَمَّةٌ   قُرْبُ الشِّفَاءِ ؛ وما إليه وُصُولُ
كَالْعِيسِ في البيْداءِ يَقْتُلُها الظَّما   والماءُ فَوْقَ ظُهُورِها مَحْمُولُ

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في دَفْعِ ضَرَرِ الأَغْذِيَةِ والفَاكِهَةِ وإِصْلاحِهَا بِمَا يَدْفَعُ ضَرَرَهَا، وَيُقَوِّي نَفْعَهَا

ثبت في الصحيحين — من حديث عبد الله بن جعفر — قال : « رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يأكُلُ الرُّطَبَ بِالقِثَّاءِ »(٤٠١) .

---

(٣٩٦) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « والأسقية » .

(٣٩٧) فى الزاد « إلى » .

(٣٩٨) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « جنسها » .

(٣٩٩) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « وصفه » .

(٤٠٠) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « الدواء » .

(٤٠١) أخرجه البخارى فى كتاب الأطعمة ، باب القثاء بالرطب ، وباب القثاء ، وباب اللونين أو الطعامين [ج ٩ ص ٥٦٤ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى كتاب الأشربة ، باب أكل القثاء بالرطب [ج ١٣ ص ٢٣٦ بشرح النووى] وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب القثاء والرطب يجمعان [ج ٢ ص ١١٠٤] .

والرُّطَب حار رَطْبٌ في الثانية ، يُقَوِّي المَعِدَةَ الباردة ويُوافقها ، ويزيد في الباه . ولكنه سريع التَّعَفُّن ، مُعَطِّش ، مُعَكِّر للدم ، مُصَدِّع ، مولد للسدد ، ووجع المثانة ، ومضر بالأسنان . والقثاء بارد رطب في الثانية ، مسكن للعطش ، مُنعِش للقُوَى بشمه ، لما فيه من العطرية ، مُطْفِئٌ لحرارة المَعِدَةِ الملتهبة ، وإذا جُفِّفَ بزره وَدُقَّ ، واستُحْلِبَ بالماء وشُرِبَ سَكَّنَ العطش ، وَأَدرَّ البول ، ونفع من وجع المثانة . وإذا دُقَّ ونُخِلَ ، ودُلِّكَ به الأسنان ، جلاها . وإذا دُقَّ وَرَقُهُ ، وعُمِلَ منه ضماد مع المَيْبَخْتَج(٤٠٢) نفع من عضة الكَلْب الكَلِب .

وبالجملة ، فهذا حار ، وهذا بارد ، وفي كل منهما صلاح الآخر ، وإزالةٌ لأكثر ضرره ، ومقاومة كل كيفية بضدها ، ودفع سَوْرتها بالأخرى ، وهذا أصل العلاج كله ، وهو أصل في حفظ الصحة ، بل علم الطب كله يُستفاد من هذا . وفي استعمال ذلك وأمثالِهِ في الأغذية والأدوية ، إصلاحٌ لها وتعديلٌ ، ودفعٌ لما فيها من الكيفيات المضرة ؛ لِمَا يُقَابِلُها ، وفي ذلك عونٌ على صحة البدن وقُوَّته وخِصبِه .

قالت عائشة رضي الله عنها : « سَمَّنُوني بكل شيء ، فلم أسمَنْ ، فسَمَّنوني بالقِثَّاء والرُّطَبِ ، فَسَمِنْتُ » .

وبالجملة ، فدفعُ ضررِ البارد بالحار ، والحارِّ بالبارد ، والرَّطب باليابس ، واليابس بالرَّطب ، وتعديلُ أحدِهما بالآخر ، من أبلغ أنواع العلاجات ، وحفظ الصحة .

ونظيرُ هذا ما تقدم من أمره بالسَّنا والسَّنُوت ، وهو العسل الذي فيه شيء من السمن يصلح به السَّنا ويعدله . فصلوات الله وسلامه على من بُعِثَ بعمارة القلوب والأبدان ، وبمصالح الدنيا الآخرة .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في الحِمْيَةِ

الدواء كله شيئان : حِمْيَةٌ ، وحِفْظُ صِحَّةٍ . فإذا وقَع التَّخْلِيطُ اُحْتِيجَ إلى الاستفراغ الموافق . وكذلك مدارُ الطب كله على هذه القواعد الثلاث .

---

(٤٠٢) هكذا في الزاد ، وفي القانون في الطب (كتاب الأدوية المفردة والنباتات) . وفي النسخ المطبوعة وتذكرة داود « الميفختج » .. والكلمة فارسية معناها عصير العنب المطبوخ ، وهو نافع لوجع الكلى والمثانة .

والحِمْيَةُ حِمْيَتَانِ : حِمْيَةٌ عَمَّا يَجْلِبُ المَرَض ، وحمية عمّا يزيده ، فيقف على حاله . فالأولى[403] : حِمْيَةُ الأصِحّاءِ . والثانية : حِمْيَةُ المَرْضَى . فإن المريض إذا احتمى ، وقف مَرضُهُ عن التزايد ، وأخذت القوى في دفعه .

والأصل في الحمية قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنتُم مَرْضَى ، أَوْ عَلَى سَفَرٍ ، أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِن ٱلْغَائِطِ ، أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ، فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّباً ﴾[404] . فَحَمَى المريضَ من استعمال الماء ، لأنه يَضُرُّه .

وفي سنن ابن ماجه وغيره ، عن أُمِّ المُنْذِرِ بِنْتِ قَيْسٍ الأَنْصَارِيَّةِ ، قالت : « دَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ومَعهُ عليٌّ ، وَعَلِيٌّ نَاقِهٌ مِنْ مَرَضٍ ، ولَنَا دَوَال مُعَلَّقَةٌ ، فَقَامَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عليه وسلم ، يأكل منها ، وقام عليٌّ يأكل منها ، فطفِقَ رسول الله ﷺ يقول لعليّ : إنكَ ناقِهٌ ، حَتَّى كَفَّ . قَالَتْ : وَصَنَعْتُ شَعِيرًا وَسِلْقًا ، فَجِئْتُ به ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَلِيٍّ : مِنْ هَذَا أَصِبْ ، فَإِنَّهُ أَنْفَعُ لَكَ » ؛ وفي لفظ : « فقال : مِنْ هَذَا فأَصِبْ ، فإنه أَوْفَقُ لَكَ »[405] .

وفي سنن ابن ماجه أيضاً ، عن صُهَيْبٍ ، قال : « قَدِمْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ — وبَيْنَ يدَيْهِ خُبزٌ وتَمرٌ — فقال : ادْنُ فَكُلْ . فأَخَذْتُ تَمْرًا فأَكَلْتُ . فَقَالَ : أَتأْكُلُ تَمْرًا وَبِكَ رَمَدٌ ؟! فَقُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ ؛ أَمْضَغُ مِنَ النَّاحِيَةِ الأُخْرَى فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ »[406] .

وفي حديث محفوظ عنه ﷺ : « إنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا حَمَاهُ مِنَ الدُّنْيَا ، كَمَا

---

(٤٠٣) في الزاد « فالأولى » .

(٤٠٤) سورة النساء – الآية ٤٣ . وسورة المائدة – الآية ٦ .

(٤٠٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب الحمية ، باختلاف يسير في ألفاظه [ج ٢ ص ١١٣٩] وأخرجه الترمذي في كتاب الطب ، باب ما جاء في الحمية [ج ٨ ص ١٩٠ ، ١٩١] وقال الترمذي : حسن غريب . ورواه أبو داود في كتاب الطب ، باب الحمية [ج ٤ ص ٣] .

ناقِهٌ مِنْ مَرَض : أي برئ ولا يزال به ضعف . دوالٍ : جمع دالية ، وهي العِذْقُ من البُسْرِ يُعَلَّق حتى إذا أرطب أُكِلَ . سِلقاً : السِّلْقُ ، بقلة لها ورق طوال ، وأصل ذاهب في الأرض ، وورقها غَضٌّ طريّ يُؤكل مطبوخاً .

(٤٠٦) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب الحمية [ج ٢ ص ١١٣٩] وفي الزوائد : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات .

يَحْمِي أَحَدُكُمْ مَرِيضَهُ عَنِ الطَّعَامِ والشَّرابِ » . وفي لفظ : « إنّ الله يَحْمِي عَبْدَهُ المُؤْمِنَ من الدُّنْيا »(٤٠٧) .

وأما الحديث الدائر على ألْسِنَةِ كثير من الناس : « الحِمْيَةُ رأس الدواءِ ، والمَعِدَةُ بيت الدَّاءِ ؛ وعوِّدوا كل جسم ما اعتاد » ؛ فهذا الحديث إنما هو من كلام الحارث بن كَلَدَةَ طبيب العرب(٤٠٨) ، ولا يصحُّ رفْعُه إلى النبي ﷺ . قاله غَيْرُ واحد من أئمة الحديث .

ويذكر عن النبي ﷺ : « أن المَعِدَة حوضُ البدن ، والعروق إليها واردةٌ ، فإذا صَحَّتِ المَعِدَةُ صدرتِ العُروقُ بالصحة ، وإذا سَقِمَتِ المَعِدَةُ صدرت العروقُ بالسَّقم » .

وقال الحارث : « رأسُ الطِّبِّ الحِمْيَة » والحِمْيةُ عندهم للصحيح في المضرة ، بمنزلة التخليط للمريض والنَّاقِهِ . وأنفع ما تكون الحِمْيَةُ للنَّاقِهِ من المرض ، فإن طبيعته لم ترجع بعدُ إلى قُوَّتها ، والقوة الهاضمة ضعيفةٌ ، والطبيعة قابلة ، والأعضاء مستعدة ، فتخليطه يوجب انتكاسها ، وهو أصعب من ابتداء مرضه .

وَاعْلَمْ أن في مَنْعِ النبيِّ ﷺ لعليّ من الأكل من الدَّوالي وهو ناقِهٌ ، أحسنَ التدبير ، فإن الدَّوالىَ أَقْنَاءٌ من الرُّطَب تُعَلَّقُ في البيت للأكل ، بمنزلة عناقيد العنب . والفاكهة تضرُّ بالنَّاقِهِ من المرض ، لسُرْعَةِ استحالتها ، وضعف الطبيعة عن دفعها ، فإنها لم تتمكن بَعدُ مِنْ قوَّتها(٤٠٩) وهي مشغولةٌ بدفع آثار العلة وإزالتها من البدن . وفي الرُّطَبِ خاصَّةً نَوْعُ ثِقَلٍ على المَعِدَة ، فتشتغل بمعالجته وإصلاحه ، عما هي بصدده من إزالة بقية

---

(٤٠٧) رواه أحمد فى مسنده ، ورواه الترمذى فى بداية كتاب الطب . باب ما جاء فى الحمية عن قتادة بن النعمان أن رسول الله (ص) قال : « إذا أحَبَّ اللهُ عبداً حَمَاهُ الدنيا كما يظل أحدكم يحمى سقيمه الماء » [ج ٨ ص ١٨٨ ، ١٨٩] .

(٤٠٨) الحارث بن كَلَدة الثقفى ، طبيب العرب فى عصره ، وأحد الحكماء المشهورين ، من أهل الطائف . رحل إلى بلاد فارس ، فأخذ الطب عن أهلها ، وَلِد قبل الإسلام ، وعاش حتى أيام معاوية بن أبى سفيان . وكان النبى (ص) يأمر مَنْ به عِلّة فيتطبَّب عنده .. له كلام فى الحكمة ، وله كتاب« محاورة فى الطب » بينه وبين كسرى أنو شروان .

[انظر الأعلام للزركلى ج ٢ ص ١٥٩]

(٤٠٩) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « فإنها بعد لم تتمكن قوتها » .

المرض وآثاره ، فإما أن تقف تلك البقية ، وإما أن تتزايد ، فلمَّا وُضع بين يديه السِّلْقُ والشَّعِيرُ ، أمره أن يُصِيبَ منه ، فإنه من أنفع الأغذية للنَّاقِه ، فإن في ماء الشعير من التبريد والتغذية ، والتلطيف والتليين ، وتقوية الطبيعة ــ ما هو أصلح للنَّاقِه ، ولاسيَّما إذا طُبِخَ بأصول السِّلق ، فهذا من أوفق الغذاء لمن في مَعِدَتِهِ ضَعْفٌ ، ولا يتولد عنه من الأخلاط ، ما يُخَافُ منه .

وقال زيدُ بن أسلم[٤١٠] : « حَمَى عُمَرُ رضي الله عنه مريضاً له ، حتى إنه من شدة ما حَماه ، كان يَمَصُّ النَّوَى » . وبالجملة ، فالحِمية من أكبر الأدوية قبل الداء ، فتمنع حصوله ، وإذا حصل ، فتمنع تزايدهُ وانتشارَهُ .

فصل

ومما ينبغي أن يُعْلَمَ أن كثيرًا مما يُحمى عنه العليلُ والنَّاقِه والصحيح ، إذا اشتدَّتِ الشهوة إليه ، ومالت إليه الطبيعة ، فتناول منه الشيءَ اليسيرَ الذى لا تعجزُ الطبيعة عن هضمه ــ لم يضرَّه تناوُله ، بل ربما انتفع به ، فإن الطبيعة والمعدة تتلقَّيانِه بالقبول والمحبة ، فيُصلحان ما يُخشى من ضرره . وقد يكون أنفعَ من تناوُل ما تكرهُهُ الطبيعة ، وتدفعه من الدواء ، ولهذا أقرَّ النبيُّ ﷺ ، صُهَيْباً ــ وهو أرمدُ ــ على تناولِ التَّمَرَاتِ اليسيرة ، وعلم أنها لا تَضُرُّه .

ومن هذا ما يُرْوَى عن عليّ : « أنه دخل عَلَى رسولِ الله ﷺ ، وهو أرْمَدُ ــ وَبيْنَ يَدَيِ النبيِّ ﷺ تمرٌ يأكُله ــ فقال : يا عليُّ ، تشتهيه ؟ وَرَمَى إليه بتمرة ، ثم بأخرى ، حتى رَمَى إليه سبْعاً . ثم قال : حَسْبُك يا عليّ » .

ومن هذا ما رواه ابن ماجهْ في سننه ــ من حديث عِكْرِمَةَ ، عن ابن عباس : « أنَّ النبيَّ ﷺ عادَ رَجُلاً ، فقال له : ما تَشْتَهِي ؟ فقال : أشْتَهِي خُبْزَ بُرّ . وفي لفظٍ :

---

(٤١٠) هو : زيد بن أسلم العدوى العمرى ، أبو أسامة – أو أبو عبد الله – فَقِيهٌ مُفَسِّرٌ ، من أهل المدينة . كان مع عمر بن عبد العزيز أيام خلافته . كان ثقة ، كثير الحديث ، له حلقة فى المسجد النبوى ، وله كتاب فى التفسير ، رواه عنه ولده عبد الرحمن .

[انظر الأعلام ج ٣ ص ٩٥]

أشتَهِي كَعْكاً . فقال النبيُّ ﷺ : مَن كانَ عندَهُ خُبزُ بُرٍّ ، فَلْيَبْعَثْ إلى أخيه . ثم قال : إذا اشتَهَى مريضُ أحدِكُم شيئاً ، فَلْيُطعِمْه »(٤١١) .

ففي هذا الحديثِ سِرٌّ طِبِّيٌّ لطيف ، فإن المريض إذا تناول ما يشتهيه عن جوع صادق طبيعيّ ، وكان فيه ضررٌ ما ــ كان أنفعَ وأقلَّ ضررًا مما لا يشتهيه ، وإن كان نافعاً في نفسه ، فإن صِدْق شهوتِهِ ، ومحبَّةَ الطبيعة [له](٤١٢) تدفعُ(٤١٣) ضررَه . وبُغْضُ الطبيعة وكراهتُها للنافع ، قد يَجْلِبُ لها منه ضررًا . وبالجملة ، فاللذيذُ المُشْتَهَى تُقْبِلُ الطبيعةُ عليه بعناية ، فتهضمه على أحْمَدِ الوجوه ، سيما عند انبعاثِ النفس إليه بصِدْقِ الشهوة ، وصحةِ القوة . والله أعلم .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في عِلَاجِ الرَّمَدِ بالسُّكُونِ وَالدَّعَةِ وَتَرْكِ الحَرَكَةِ ، والحِمْيَةِ مِمَّا يَهِيجُ الرَّمَدَ

وقد تقدم : أن النبيَّ ﷺ حَمَى صُهَيْباً من التمر ، وأنكر عليه أَكْلَه وهو أرمدُ . وَحَمَى عليًّا من الرُّطب لمَّا أصابه الرمدُ .

وذكر أبو نُعَيْم في كتاب الطب النبوي : « أنه ﷺ كان إذا رَمِدَتْ عينُ امرأةٍ من نسائه لم يأتِهَا حَتَّى تَبرَأَ عينُها » .

الرَّمدُ : ورم حار يَعرِضُ في الطبقة الملتحمة من العين ؛ وهو بياضها الظاهر . وسببُه : انصبابُ أحد الأخلاط الأربعة ، أو ريحٌ حارة تكثُرُ كميتُها في الرأس والبدن ، فينبعث منها قِسطٌ إلى جوهر العين ، أو ضربةٌ تصيب العين ، فتُرسل الطبيعةُ إليها من

---

(٤١١) أخرجه ابن ماجه في كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عيادة المريض [ج ١ ص ٤٦٣] وفي كتاب الطب ، باب المريض يشتهي الشيء [ج ٢ ص ١١٣٨] وفي سنده صفوان بن هبيرة ، وهو ليّن الحديث . وفي الضعفاء الكبير : ليس له إلا هذا الحديث الذي أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب [انظر الضعفاء الكبير ج ٢ ص ٢١٢] .

(٤١٢) مابين المعقوفتين عن النسخ المطبوعة ، وساقط من الزاد .

(٤١٣) في الزاد « يدفع » .

الدم والروح مقدارًا كثيرًا ، تَرُومُ بذلك شفاءَها مِمَّا عَرَضَ لها ، ولأجل ذلك يَرِم[٤١٤] العضو المضروب . والقياس يوجب ضده .

واعلم أنه كما يرتفع من الأرض إلى الجو بُخاران : أحدهما حار يابس ، والآخرُ حار رَطب ، فينعقدان سحاباً متراكماً ، ويمنعان أبصارَنا من إدراك السماء — فكذلك يرتفعُ من قعر المعدة إلى منتهاها مِثلُ ذلك ، فيمنعان النظَر ، ويتولَّد عنهما عِلَلٌ شتَّى ، فإن قَوِيَتِ الطبيعةُ على ذلك ، ودفعتْه إلى الخياشيم أحدث الزُّكامَ ، وإن دفعتْه إلى اللَّهاة والمَنْخِرَيْنِ أحدث الخُنَاقَ ، وإن دفعتْه إلى الجَنْبِ أحدث الشَّوْصةَ ، وإن دفعتْه إلى الصدر أحدث النَّزلةَ ، وإن انحدر إلى القلب أحدث الخَبْطَةَ ، وإن دفعتْه إلى العين أحدث رمدًا ، وإن انحدر إلى الجوف أحدث السَّيلانَ ، وإن دفعتْه إلى منازل الدماغ أحدث النِّسيانَ ، وإن ترطبتْ أوعيةُ الدماغ منه ، وامتلأت به عروقُه أحدث النومَ الشديد ، ولذلك كان النومِ رَطباً ، والسهرُ يابساً . وإن طلب البخارُ النفوذَ من الرأس ، فلم يقدر عليه ، أعقبه الصُّداع والسهر ، وإن مال البخار إلى أحد شِقَّي الرأس ، أعقبه الشَّقِيقة ، وإن ملك قِمَّةَ الرأس ووسَطَ الهامة ، أعقبه داء البَيْضة ، وإن بُرِّد منه حجابُ الدماغ أو سَخُنَ أو ترطَّب وهاجتْ منه أرياحٌ ، أحدث العُطاسَ ، وإن أهاج الرطوبة البلغمية فيه ، حتى غلب الحار الغريزي أحدث الإغماء والسُّكات[٤١٥] . وإن أهاج المِرَّة السوداءَ ، حتى أظلم هواء الدماغ أحدث الوَسْوَاسَ[٤١٦] . وإن فاض ذلك إلى مجاري العَصَب ، أحدث الصَّرْعَ الطبيعيَّ ، وإن ترطبتْ مجامعُ عَصب الرأس ، وفاض ذلك في مجاريه ، أعقبه الفالج[٤١٧] ، وإن كان البخار من مِرَّةٍ صفراءَ ملتهبة محمية للدماغ ، أحدث البِرْسامَ[٤١٨] ، فإنْ شَرَكَهُ الصَّدْرُ في ذلك ، كان سِرْسَاماً[٤١٩] . فافهم هذا الفصلَ .

---

(٤١٤) هكذا في الزاد ، وفى النسخ المطبوعة « يورم » . وفى اللسان عن المحكم : وَرِمَ يَرِمُ ، بالكسر ، « نادر » ، «قياسه : ورم يَوْرَمُ . قال : « لم نسمع به » . [انظر لسان العرب] .

(٤١٥) هكذا في الزاد . وفى النسخ المطبوعة « والسكتات » . والسُّكات : داء يمنع من الكلام . ويطلق أيضاً على موت السكتة .

(٤١٦) الوسواس : مرض يختلط معه الذهن .

(٤١٧) الفالج : شلل يصيب أحد شِقَّي الجسم طولاً .

(٤١٨) البِرْسام : ذات الجنب ، وهو التهاب فى الغشاء المحيط بالرئة .

(٤١٩) السِّرْسام : ورم فى حجاب الدّماغ تحدث عنه حُمّى دائمة ، وتتبعها أعراض رديئة كالسَّهر ، واختلاط الذهن .

والمقصودُ : أن أخلاط البدن والرأس تكون متحركة هائجة في حال الرَّمَد ، والجماعُ مما يَزيد حركتَها وثَوَرانَها ، فإنه حركةٌ كلية للبدن والروح والطبيعة . فأمَّا البدن فيسخُنُ بالحركة لا مَحالة ، والنفس تشتدُّ حركتها طلباً للذة واستكمالها ، والروح تتحرك تبعاً لحركة النفس والبدن ، فإن أول تعلق الروح من البدن بالقلب ، ومنه ينشأ الروح وينبثُّ في الأعضاء . وأما حركةُ الطبيعة ، فَلأَجْلِ أَنْ[٤٢٠] ترسِلَ ما يجب إرساله من المَنِيِّ ، على المقدار الذي يجب إرسالُه .

وبالجملة فالجماعُ حركة كلية عامة ، يتحرك فيها البدن وقُواه وطبيعته وأخلاطه ، والروح والنفس . فكل حركة فهي مثيرة للأخلاط مرققةٌ لها ، توجب دفعَها وسيلانها إلى الأعضاء الضعيفة ، والعينُ فى حال رمدها أضعف ما تكون[٤٢١] ، فأضرُّ ما عليها حركةُ الجماع . قال بقراط[٤٢٢] في كتاب الفصول : « وقد يَدُلُّ ركوبُ السُّفُنِ أن الحركة تُثَوِّر[٤٢٣] الأبدان » . هذا مع أن في الرمد منافعَ كثيرة ، منها : ما يستدعيه من الحِمية والاستفراغ ، وتنقية الرأس والبدن من فضلاتهما وعفوناتهما ، والكفِّ عما يؤذي النفس والبدن من الغضب والهم والحزن ، والحركاتِ العنيفة ، والأعمال الشاقة . وفي أثر سلفيّ : « لا تكرهوا الرَّمَدَ ، فإنه يقطع عروق العَمَى » .

ومن أسباب علاجه ملازمةُ السكون والراحة ، وتركُ مس العين والاشتغال بها ، فإن أضداد ذلك يوجب انصبابَ المواد إليها . وقد قال بعضُ السلف : « مَثَلُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مَثَلُ العَيْنِ ، ودَوَاءُ العَيْنِ تَرْكُ مَسِّهَا » .

وقد رُوي في حديث مرفوع — الله أعلم به — « علاجُ الرَّمد تقطيرُ الماءِ الباردِ في العين » . وهو من أنفع[٤٢٤] الأدوية للرمد الحار ، فإن الماء دواء بارد يُستعان به على إطفاء[٤٢٥] حرارة الرمد ، إذا كان حارًّا ، ولهذا قال عبد الله بن مسعود ، رضي الله

---

(٤٢٠) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « فلأَنْ » .

(٤٢١) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « يكون » .

(٤٢٢) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « أبقراط » .

(٤٢٣) أى تُهيّجها . ويقال : ثارتْ نَفْسُه : إذا جَشَأَتْ أَوْ جاشَتْ .

(٤٢٤) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « أكبر » .

(٤٢٥) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « طفيه » .

عنه ، لامرأته زينبَ ــ وقد اشتكتْ عينُها ــ: « لو فَعَلْتِ كما فَعَلَ رسول الله ﷺ ، كان خيرًا لكِ وأجدَرَ أنْ تُشفَيْ : تَنْضَحِينَ في عينِك الماءَ ، ثم تقولينَ : أَذْهِبِ الباسَ(٤٢٦) رَبَّ النَّاسِ وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي ، لا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ ، شفاءً لا يُغَادِرُ سُقْماً »(٤٢٧) .

وهذا مما تقدم مرارًا أنه خاصٌّ ببعض البلاد ، وبعض أوجاع العين ، فلا تَجْعَلْ(٤٢٨) كلام النبوَّة الجُزئيَّ الخاص كليًا عاماً ، ولا الكُلِّيَّ العامَّ جزئيًّا خاصًّا ، فيقع من الخطأ وخلاف الصواب ما يقعُ . والله أعلم .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ الخَدَرَانِ الكُلِّيِّ الَّذِي يَجْمُدُ مَعَهُ البَدَنُ

ذكر أبو عبيدٍ في « غريب الحديث » ــ من حديث أبي عثمانَ النَّهْدِيِّ : « أن قومًا مَرُّوا بشجرةٍ فأكَلُوا منها ، فكأنما مَرَّتْ بهم ريحٌ فأجمدتْهُم ، فقال النبي ﷺ : قَرِّسُوا الماء في الشِّنَانِ ، وصبُّوا عليهم فيما بين الأذانَيْن »(٤٢٩) ثم قال أبو عبيد : « قَرِّسُوا يعني : بَرِّدُوا . وقولُ الناس : قد قَرَس البردُ ، إنما هو من هذا بالسِّين ، ليس بالصاد . والشِّنانُ : الأسقِيةُ والقِربُ الخُلقانُ . يقال للسِّقاء : شَنٌّ ، وللقربة : شَنَّةٌ . وإنما ذكر الشِّنانَ دون الجِرَّة (٤٣٠) لأنها أشدُّ تبريدًا للماء . وقوله : بين الأذانَيْن ، يعني أذانَ الفجر والإقامة ، فسمى الإقامة أذانا » انتهى كلامه .

قال بعض الأطباء : وهذا العلاج من النبي ﷺ ، من أفضلِ علاج هذا الداء ، إذا كان وقوعُه بالحجاز ، وهي بلاد حارة يابسةٌ ، والحَار الغريزيُّ ضعيف في بواطن

---

(٤٢٦) في الزاد « البأس » بالهمز .

(٤٢٧) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب تعليق التمائم [ج ٢ ص ١١٦٦ ، ١١٦٧] وأخرجه أبو داود أيضاً في كتاب الطب ، باب في تعليق التمائم [ج ٤ ص ٩ ، ١٠] .

(٤٢٨) في الزاد « يُجْعَل » .

(٤٢٩) ورد في غريب الحديث لابن الجوزي ، في باب الشين مع النون [ج ١ ص ٥٦٤] وباب القاف مع الراء [ج ٢ ص ٢٢٣] .

(٤٣٠) في الزاد « الجُدَد » .

سكانها ، وصبُّ الماء البارد عليهم في الوقت المذكور – وهو أبردُ أوقاتِ اليوم – يوجبُ جَمْعَ الحار الغريزي المنتشرِ في البدن الحاملِ لجميع قُواه ، فيقوي القوة الدافعة ، ويجتمع من أقطار البدن إلى باطنه الذي هو مَحَلُّ ذلك الداء ، ويستظهر بباقي القوى على دفع المرض المذكور ، فيدفعه بإذن الله عَزَّ وجَلَّ . ولو أن بقراط (٤٣١) أو جالينوس أو غيرهما وَصَفَ هذا الدواء لهذا الداء ، لخَضَعَتْ له الأطباءُ ، وعَجِبوا من كمال معرفته .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في إصْلاحِ الطَّعامِ الذي يَقَعُ فيهِ الذُّبابُ وإرْشادُه إلى دَفْعِ مَضَرّاتِ السُّمُومِ بأضْدادِها

في الصحيحين — من حديث أبي هُريرة — أن رسول الله ﷺ قال : « إذَا وَقَعَ الذُّبَابُ في إنَاءِ أَحَدِكُم فَامْقُلُوهُ ، فإنَّ في أَحَدِ جَنَاحَيْهِ دَاءً ، وفي الآخرِ شِفَاءً »(٤٣٢) .

وفي سنن ابن ماجه ، عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ، أن رسول الله ﷺ قال : « أَحَدُ جَنَاحَي الذُّبَابِ سمٌّ ، والآخر شِفَاءٌ ، فإذَا وَقَعَ في الطَّعَام فامْقُلُوه ، فإنه يُقَدِّمُ السُّمَّ ، ويُؤَخِّرُ الشِّفَاءَ »(٤٣٣) .

هذا الحَدِيثُ فيه أمْرَان : أمرٌ فقهيٌّ ، وأمر طبي . فأما الفقهي : فهو دليلٌ — ظاهر الدلالةِ جدًّا — على أن الذباب إذا مات في ماء أو مائع ، فإنه لا يُنَجِّسُهُ ، وهذا قول جمهور العلماء ، ولا يُعْرَفُ في السَّلف مخالفٌ في ذلك .

وَوَجه الاستدلال به : أن النبي — ﷺ — أمر بِمَقْلِهِ ، وهو غَمْسُهُ في الطعام ، ومعلوم أنه يموت من ذلك ، ولاسيما إذا كان الطعام حارًّا ، فلو كان يُنَجِّسه لكان أمرًا

---

(٤٣١) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أبقراط » .

(٤٣٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب إذا وقع الذباب في الإناء [ج ١٠ ص ٢٥٠ من فتح الباري] وفيه : « فليغمسه » بدل « فامقلوه » وهي بمعناها . ولم يخرجه مسلم في صحيحه كما ذكر المؤلف رحمه الله . وأخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة ، باب الذباب يقع في الطعام [ج ٢ ص ٣٦٥] بزيادة في آخره .

(٤٣٣) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب يقع الذباب في الإناء [ج ٢ ص ١١٥٩] .

بإفساد الطعام ، وهو ـــ ﷺ ـــ إنما أمر بإصلاحه . ثم عُدِّيَ(٤٣٤) هذا الحُكم إلى كل مالا نفسَ له سائلة ، كالنحلة والزُّنْبور والعنكبوت ، وأشباهِ ذلك ، إذ الحكمُ يَعُمُّ بعموم عِلَّتِه ، وينتفي لانتفاء سببه ، فلما كان سبب التنجيس هو الدم المحتقن في الحيوان بموته ، وكان ذلك مفقودًا فيما لا دم له سائل ـــ انتفى الحكم بالتنجيس ، لانتفاءِ علته .

ثم قال مَنْ لم يحكُم بنجاسة عظم الميتةِ ، إذا كان هذا ثابتاً في الحيوان الكامل ـــ مع ما فيه من الرُّطوبات والفضلات ، وعدم الصلابة ـــ فثبوته في العظم ، الذى هو أبعد عن الرطوبات والفضلات واحتقان الدم ، أولى ، وهذا في غاية القوة ، فالمصير إليه أولى .

وأول من حُفظ عنه في الإسلام أنه تكلم بهذه اللفظة ـــ فقال : مالا نفسَ له سائلةٌ ـــ إبراهيم النَّخَعِيُّ(٤٣٥) رضي الله عنه ، وعنه تلقاها الفقهاءُ . والنفس في اللغة يعبر بها عن الدم . ومنه « نَفَسَتِ المرأة » بفتح النون : إذا حاضت ، و « نُفِسَت » بضمها : إذا ولدت .

وأما المعنى الطبيُّ ، فقال أبو عبيد : « معنى « اُمْقُلُوه » : اغمسوه ليخرج الشفاءُ منه ، كما خرج الداءُ . يقال للرجلين : هما يَتَمَاقلان ، إذا تغاطَّا في الماء » .

واعلم أن في الذباب عندهم قُوَّةً سُمِّيَّةً يدل عليها الورم والحِكَّةُ العارضة عن لسعِهِ ، وهي بمنزلة السِّلاح ، فإذا سقط فيما يؤذيه ، اتقاه بسلاحه ، فأمر النبيُّ ﷺ أن يقابلَ تلك السُّمِّيَّةَ بما أودعه الله سبحانه في جناحه الآخر من الشفاء ، فيُغْمسَ كُلّه في الماء والطعام ، فيقابلَ المادةَ السُّمية المادةُ النافعة ، فيزول ضررُها . وهذا طِبٌّ لا يهتدي إليه كبار الأطباء وأئمتهم ، بل هو خارج من مِشكاة النبوة . ومع هذا فالطبيب العالم العارف الموفَّقُ ، يخضع لهذا العلاج ، ويقرُّ لمن جاء به بأنه أكمل الخلق على الإطلاق ، وأنه مؤيد بوحي إلهيْ خارج عن القوى البشرية .

---

(٤٣٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « عدا » .

(٤٣٥) هو : إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود ، أبو عمران النَّخَعي ، من مذحج ، وُلد سنة ٤٦ هجرية ، وكان من أكابر التابعين صلاحاً ، وصِدْق رواية ، وحفظاً للحديث .. من أهل الكوفة . مات سنة ٩٦ هـ مختفياً من الحَجّاج . قال فيه صلاح الصفدي : فقيه العراق ، كان إماماً مجتهداً ، له مذهب . ولمّا بلغ الشعبيّ مَوْتُهُ قال : والله ما ترك بعده مثله . [الأعلام ج ١ ص ٧] .

وقد ذكر غير واحد من الأطباء أن لسع الزُّنبور والعقرب إذا دُلِّكَ موضعه بالذباب نفع منه نفعاً بيِّناً وسكَّنه ، وما ذاك إلا للمادة التي فيه من الشفاء ، وإذا دُلِّكَ به الورم الذي يخرج فى شعر العين ، المُسَمَّى شَعْرَةً ـ بعد قطع رءوس الذباب ـ أبرأه(*) .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ البَثْرَةِ

ذكرَ ابنُ السُّني في كتابه ، عن بعض أزواج النبيِّ ﷺ ، قالت : « دخل عليَّ رسول الله ﷺ ـ وقد خرج لي إصبعي بَثْرَةٌ ـ فقال : عِنْدَكِ ذَرِيرة ؟ قلت : نعم . قال : ضَعِيها عليها وَقُولي(٤٣٦) : اللَّهُمَّ مُصَغِّرَ الكَبِيرِ ، ومُكَبِّرَ الصَّغِيرِ ، صَغِّرْ ما بي »(٤٣٧) .

الذَّرِيرةُ : دواء هندي يُتَّخَذُ من قصب الذَّرِيرة . وهي حارة يابسة ، تنفعُ من أورام المَعِدَة والكبد والاستسقاء ، وتُقَوِّي القلب لطيبها .

وفي الصحيحين عن عائشة ، أنها قالت : « طيَّبْتُ رسول الله ﷺ بيدي ، بذَرِيرةٍ ، في حَجَّةِ الوداع ، لِلْحِلِّ والإِحْرَام »(٤٣٨) .

والبَثْرَة : خُراج صغير يكون عن مادة حارة تدفعها الطبيعة ، فتسترقُّ مكانا من الجسد تخرج منه ، فهي محتاجة إلى ما يُنضجها ويُخرجها . والذَّرِيرةُ أَحَدُ ما يفعل بها ذلك ، فإن فيها إنضاجاً وإخراجاً مع طِيب رائحتها ، مع أن فيها تبريدًا للنارية التي في تلك المادة ، ولذلك(٤٣٩) قال صاحب القانون : « إنه لا أَفْضَلَ لحَرْقِ النَّارِ من الذَّرِيرة بدُهْنِ الورد والخل » .

(*) لمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع انظر كتاب « مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها » لعبد الله القصيمى [من ص ٦٧ – ٧٢] . وانظر كتاب « فى رحاب السنة » للدكتور عبد المنعم النمر [ج ١ ص ١٠٢ – ١١٧] .

(٤٣٦) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « ... وقال : قولى ... » .

(٤٣٧) وأخرجه أيضاً أحمد بن حنبل والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

(٤٣٨) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ، باب الذَّرِيرة [ج ١٠ ص ٣٧١ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى كتاب الحج ، باب استحباب الطيب قبل الإحرام [ج ٨ ص ١٠٠ بشرح النووى] .

(٤٣٩) فى الزاد « وكذلك » .

فصل في هديه ﷺ في علاج الأورام والخراجات التي تبرأ بالبط والبزل

يذكر عن عليٍّ أنه قال : « دخلتُ مع رسول الله ﷺ على رجلٍ يَعُودُه ، بظهره ورمٌ ، فقالوا : يا رسول الله ، بهذه مِدَّةٌ . قال : بُطُّوا[٤٤٠] عنه . قال عليٌّ : فما بَرِحْتُ حتى بُطَّتْ ، والنبي ﷺ شاهدٌ » .

ويذكر عن أبي هريرة : « أنَّ النبي ﷺ أمر طبيباً أن يَبُطَّ بطن رجل أَجْوَى[٤٤١] البطن ، فقيل : يا رسول الله ، هل ينفع الطِّبُّ ؟ قال : الذي أنزل الداء ، أنزل الدواء فيما شاء » .

الورم : مادة في حجم العضو ، لفضل مادة غير طبيعية ، تنصبُّ إليه ، وتوجد[٤٤٢] في أجناس الأمراض كلها . والموادُّ التي يكون[٤٤٣] ، عنها من الأخلاط الأربعة والمائية والريح وإذا اجتمع الورمُ سُمِّيَ خُرَاجاً . وكلُّ ورم حار يئول أمره إلى أحد ثلاثة أشياء : إما تحلل ، وإما جمع مِدَّة ، وإما استحالةٍ إلى الصَّلابة ، فإن كانت القوة قوية آستولت على مادة الورم وحللته ، وهي أصلح الحالات التي يئول حال الورم إليها ، وإن كانت دون ذلك أنضجت المادة وأحالتْها مِدَّةً بيضاءَ ، وفتحت لها مكانا أسالتْها منه . وإن نقصت عن ذلك أحالت المادة مِدَّةً غير مستحكمة النُّضج ، وعجزت عن فتح مكان في العضو تدفعها منه ، فيخاف على العضو الفساد بطول لبثها فيه ، فيحتاج حينئذ إلى إعانة الطبيب ، بالبَطِّ أو غيره ، لإخراج تلك المادة الرديئة المفسدة للعضو .

وفي البطِّ فائدتان : **إحداهما** : إخراج المادة الرديئة المفسدة . **والثانية** : منع اجتماع مادة أخرى إليها تقوِّيها .

---

(٤٤٠) يقال :بطَّ الدُّمَّل ، أي : شقه لاستخراج الصديد منه .

(٤٤١) أجْوَى : من الجَوَى ، وهو داء الجوف ، والماء المُنتن الذى يكون فى البطن . وقد مر فى هديه (ص) فى الاستسقاء وعلاجه ، وسيأتى بعد قليل .

(٤٤٢) فى الزاد « ويوجد » .

(٤٤٣) فى الزاد « تكون » .

وأما قوله في الحديث الثاني : « إنه أمر طبيباً أن يُبطَّ بطن رجل أجْوَى البطن » . فالجوَى يقال على معانٍ ، منها : الماءُ المُنْتِنُ الذي يكون في البطن ، يحدث عنه الاستسقاءُ .

وقد اختلف الأطباء في بزله لخروج هذه المادة فمنعته(٤٤٤) طائفةٌ منهم لخطرِه ، وبُعْدِ السلامة معه ، وجوَّزته طائفةٌ أخرى ، وقالت : لا علاج له سواه . وهذا عندهم إنما هو في الاستسقاء الزِّقيِّ ، فإنه — كما تقدم — ثلاثة أنواع : طبليٌّ : وهو الذي ينتفخ معه البطن بمادة ريحية ، إذا ضربت عليه سُمع له صوتٌ كصوت الطَّبل . ولحميٌّ : وهو الذي يربو معه لحم جميع البدن بمادة بلغمية ، تفشُو مع الدم في الأعضاء ، وهو أصعب من الأول . وزِقِّيٌّ : وهو الذي يجتمع معه في البطن الأسفل مادةٌ رديئة يُسمع لها عند الحركة خَضخضةٌ كخضخضةِ الماء في الزِّق . وهو أردأ أنواعه عند الأكثرين من الأطباء . وقالت طائفة : أردأ أنواعه اللَّحْميُّ ، لعموم الآفة به .

ومن جملة علاج الزِّقي ، إخراج ذلك الماء بالبَزْل ، ويكون ذلك بمنزلة فصد العروق لإخراج الدم الفاسد ، لكنه خَطرٌ كما تقدم . وإن ثبت هذا الحديث ، فهو دليلٌ على جواز بزله . والله أعلم .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في عِلاجِ المَرْضَى بِتَطْيِيبِ نُفُوسِهِمْ، وَتَقْوِيَةِ قُلُوبِهِمْ

روى ابن ماجه في سننه — من حديث أبي سعيد الخدريِّ — قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا دخلتم على المريض فَنَفِّسُوا له في الأجل ، فإنَّ ذلك لا يردُّ شيئاً ، وهو يطيِّبُ نفس المريض »(٤٤٥) .

(٤٤٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « فمنعه » .

(٤٤٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عيادة المريض[ج ١ ص ٤٦٢] وفي سنده موسى بن محمد ابن إبراهيم التيمي .. قال عنه البخاري : منكر الحديث . [انظر الضعفاء الكبير ج ٤ ص ١٦٩] وأخرجه أيضاً الترمذيفي الطب باب التنفيس في أجَل المريض [ج ٨ ص ٢٢٨] وقال الترمذي : حديث غريب . والتنفيس هو : التفريج عن المريض ، وذلك إمّا أن يكون بالدعاء له بطول العمر ، أو بالشفاء ونحوه .

في هذا الحديث نوع شريف جدًا من أشرف أنواع العلاج ، وهو الإرشاد إلى ما يطيِّب نفس العليل ، من الكلام الذي تقوى به الطبيعة ، وتنتعش به القوة ، وينبعث به الحارُّ الغريزي ، فيتساعد على دفع العلة أو تخفيفها ، الذي هو غاية تأثير الطبيب .

وتفريح نفس المريض ، وتطييب قلبه ، وإدخال ما يسرُّه عليه ـــ له تأثيرٌ عجيب في شفاء علَّته ، وخفَّتها ، فإن الأرواح والقُوى تقوى بذلك ، فتساعد الطبيعة على دفع المؤذي . وقد شاهد الناس كثيرًا من المرضى تنتعش قواه بعيادة من يحبونه ويعظِّمونه ، ورؤيتهم لهم ولطفهم بهم ومكالمتهم إياهم ، وهذا أحد فوائد عيادة المرضى التي تتعلق بهم ، فإن فيها أربعةَ أنواع من الفوائد : نوعٌ يرجع إلى المريض ، ونوعٌ يعود على العائد ، ونوعٌ يعود على أهل المريض ، ونوعٌ يعود على العامة .

وقد تقدم في هديه ﷺ أنه كان يسأل المريض عن شكواه ، وكيف يجده ؟ ويسأله عما يشتهيه ، ويضع يده على جَبْهته ، وربما وضعها بين ثديَيْه ، ويدعو له ، ويصف له ما ينفعه في عِلَّته . وربما توضَّأ وصَبَّ على المريض من وَضوئه . وربما كان يقول للمريض : « لا بأس عليكَ طَهورٌ إن شاء الله تعالى »(٤٤٦) . وهذا من كمال اللطف ، وحُسن العلاج والتدبير .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في عِلَاجِ الأَبْدَانِ بِمَا اعْتَادَتْهُ مِنَ الأَدْوِيَةِ وَالأَغْذِيَةِ ، دُونَ مَا لَمْ تَعْتَدْهُ

هذا أصل عظيم من أصول العلاج ، وأنفعُ شيء فيه ، وإذا أخطأه الطبيبُ ضرَّ المريضَ من حيثُ يظن أنه ينفعه ، ولا يعدِلُ عنه إلى ما يجدهُ من الأدوية في كُتُب الطب ، إلا طبيب جاهل ، فإن ملاءمةَ الأدوية والأغذية للأبدان بحسب استعدادِها وقبولها . وهؤلاء أهل البوادي والأكَّارُون(٤٤٧) وغيرُهم ، لا ينجَعُ فيهم شراب اللينوفر والورد الطري ولا المُغْلَى ، ولا يؤثر في طباعهم شيئاً ، بل عامةُ أدوية أهل الحضر وأهل الرَّفاهية ، لا تُجدي عليهم . والتجربة شاهدة بذلك .

---

(٤٤٦) أخرجه البخاري في كتاب المرضى ، باب مايقال للمريض [ج ١٠ ص ١٢١ من فتح الباري] .

(٤٤٧) الأكَّارون : الحرَّاثون والزُّرَّاع .

ومن تأمل ما ذكرناه — من العلاج النبويّ رآه كلَّه موافقاً لعادَةِ العليل وأرضه ، وما نشأ عليه . فهٰذا أصل عظيم من أصول العلاج يجب الاعتناء به ، وقد صرح به أفاضل أهل الطب ، حتى قال طبيبُ العرب ، بل أطَبُّهم ، الحارثُ بن كَلَدَةَ — وكان فيهم كبقراط[٤٤٨] في قومه —: « الحِمية رأس الدواء ، والمَعِدةُ بيتُ الداء ، وعوِّدُوا كلَّ بدنٍ ما اعتاد » ، وفي لفظ عنه : « الأزْمُ دواءٌ » . والأزم : الإمساكُ عن الأكل ، يَعني به الجوعَ . وهو من أكبر الأدوية في شفاء الأمراض الامتلائية كلِّها ، بحيث إنه أفضلُ في علاجها من المستفرغات ، إذا لم يُخَفْ من كثرة الامتلاء ، وهَيَجانِ الأخلاط وحدَّتِها وغليانِها .

وقوله : « المَعِدة بيتُ الداء » ، المَعِدةُ : عضو عصبيٌّ مجوَّفٌ كالقَرْعَة في شكلها[٤٤٩] مركَّب من ثلاث طبقات ، مؤلفةٍ من شظايا دقيقةٍ عصبية ، تسمى اللِّيفَ ، ويحيط بها لحم ، وليفُ إحدى الطبقات بالطول ، والأخرى بالعَرْض ، والثالثةِ بالوَرْب . وفم المَعِدَة أكثر عصباً ، وقعرها أكثر لحماً ، وفي باطنها خَمْل ، وهي محصورة في وسط البطن ، وأميَلُ إلى الجانب الأيمن قليلًا ، خُلِقَتْ على هذه الصفة لحكمةٍ لطيفة من الخالق الحكيم سبحانه . وهي بيتُ الداء ، وكانت مَحَلًّا للهضم الأول ، وفيها يَنضَجُ الغذاء ، وينحدرُ منها بعد ذلك إلى الكبد والأمعاء ، ويتخلف منه فيها فضلاتٌ عجزت القوة الهاضمة عن تمام هضمها ، إمّا لكثرةِ الغذاء ، أو لرداءته ، أو لسوءِ ترتيب في استعماله له ، أو لمجموع ذلك ، وهذه الأشياء بعضُها مما لا يتخلص الإنسان منه غالباً ، فتكونُ المَعِدَة بيت الداء لذلك ، وكأنه يُشير بذلك إلى الحث على تقليل الغِذاء ، ومنْع النفس من اتِّباع الشهوات والتحرُّز عن الفضلات .

وأما العادةُ ، فلأنها كالطبيعة للإنسان ، ولذلك يقال : العادةُ طبعٌ ثانٍ . وهي قوةٌ عظيمة في البدن ، حتى إن أمرًا واحدًا إذا قيس إلى أبدان مختلفة العادات ، كان مختلفَ النسبة إليها ، وإنْ كانت تلك الأبدانُ متفقةً في الوجوه الأخرى . مثالُ ذلك أبدانٌ ثلاثة حارة المزاج في سن الشباب ، أحدُها : عُوِّد تناوُلَ الأشياءِ الحارة . والثاني : عُوِّدَ تناول

---

(٤٤٨) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « كأبقراط » .

(٤٤٩) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « شكله » .

الأشياء الباردة . والثالث : عُوِّدَ تناول الأشياء المتوسطة . فإن الأول متى تناول عسلاً لم يُضَرَّ به . والثاني متى تناوله : أضَرَّ به . والثالث : يُضرّ به قليلاً . فالعادةُ ركنٌ عظيم في حفظ الصحة ، ومعالجةِ الأمراض . ولذلك جاء العلاجُ النبويُّ بإجراء كل بدن على عادته في استعمال الأغذية والأدوية ، وغيرِ ذلك .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في تَغْذِيَةِ المَرِيضِ بأَلْطَفِ مَا اعْتَادَهُ مِنَ الأَغْذِيَةِ

في الصحيحين من حديثِ عُرْوَةَ ، عن عائشةَ : « أنها كانتْ إذا ماتَ الميتُ من أهلِها ، فاجتَمَعَ لذلك النساءُ ثم تفرَّقْنَ ، إلا أهلها وخاصتَّها[٤٥٠] ، أمَرَتْ بِبُرْمَةٍ من تَلْبينةٍ فَطُبِخَتْ ، ثم صُنِع ثريدٌ ، فَصُبَّتِ التَّلْبِينَةُ عليها ، ثم قالت : كُلْنَ منها ، فإني سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقولُ : التلبينةُ مَجَمَّةٌ لفؤادِ المريضِ تَذْهَبُ بِبَعْضِ الحُزْنِ »[٤٥١] .

وفي السنن ، من حديث عائشةَ أيضاً ، قالتْ : قال رسول الله ﷺ : « عليكُمْ بالبَغيضِ النافع ، التَّلْبين »[٤٥٢] ، قالت : « وكان رسولُ الله ﷺ إذا اشتكَى أحدٌ من أهله لم تَزَلِ البُرْمةُ على النارِ ، حتى ينتهيَ أحدُ طرَفَيْهِ » يَعني : يَبْرأُ أو يموت . وعنها : « كان رسولُ الله ﷺ إذا قيل له : إن فلاناً وَجِعٌ لا يطعَمُ الطعامَ ، قال : عليكُم بالتَّلْبينة فحُسُّوه إيَّاها . ويقول : والذي نَفْسي بيدِه ، إنها تغسلُ بطنَ أحدِكم كما تَغْسلُ إحداكُنَّ وجهَهَا من الوَسَخ »[٤٥٣] .

---

(٤٥٠) في الزاد « ثم تفرقن إلى أهلهن » . وفي سائر النسخ مثل ما هنا ، وهو مطابق لِمَا جاء بالصحيحين .

(٤٥١) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة ، باب التَّلْبِينَة [ج ٩ ص ٥٥٠ من فتح الباري] وأخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب التداوي بالعود الهندي [ج ١٤ ص ٢٠٢ بشرح النووي] .

(٤٥٢) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب التلبينة [ج ٢ ص ١١٤٠] .

(٤٥٣) أخرجه الترمذي في الطب ، باب ما يُطْعَمُ المريض ، بلفظ مختلف [ج ٨ ص ١٩٣ ، ١٩٤]وقال الترمذي : حسن صحيح .

التلبين : وهو الحَسَاءُ الرقيق الذي هو في قِوَام اللبن ، ومنه اشتُق اسمُه . قال الهَرَوِيُّ : « سميتْ تَلبينةً : لشبهها باللبن ، لبياضِها ورقتِها » . وهذا الغذاء هو النافع للعليل ، وهو الرقيق النضيج ، لا الغليظ النِّيءُ . وإذا شئت أن تعرف فضل التَّلْبِينَةِ ، فاعرفْ فضل ماء الشعير ، بل هي أفضلُ من ماء الشعير لهم(٤٥٤) ، فإنها حساء متخذ من دقيق الشعير بنُخالته ، والفرق بينها وبين ماء الشعير أنه يُطبخ صَحاحاً ، والتَّلبينة تُطبخ منه مطحوناً ، وهي أنفع منه لخروج خاصيَّةِ الشعير بالطحن .

وقد تقدم أن للعاداتِ تأثيرًا في الانتفاع بالأدوية والأغذية ، وكانت عادةُ القوم أن يتخذوا ماء الشعير منه مطحوناً ، لا صَحاحاً . وهو أكثرُ تغذيةً ، وأقوى فعلاً ، وأعظمُ جَلاءً . وإنما اتخذه أطباءُ المدن منه صَحَاحاً ليكونَ أرقَّ وألطفَ ، فلا يَثقُل على طبيعة المريض ، وهذا بحسب طبائع أهل المُدُن ورَخاوتِها ، وثِقلِ ماءِ الشعير المطحون عليها .

والمقصودُ أن ماء الشعير مطبوخاً صَحاحاً ، يَنفذُ سريعاً ، ويَجلو جَلاءً ظاهرًا ، ويُغذى غِذاءً لطيفاً . وإذا شُرِبَ حارًّا كان إجلاؤه أقوى ، ونفوذُه أسرعَ وإنماؤه للحرارة الغريزية أكثر ، وتلميسُه لسطوح المعدة أوفقَ .

وقولُه ﷺ : « فيها مجمةٌ لفؤاد المريض » ، يُروى بوجهين : بفتح الميم والجيم ، وبضم الميم وكسر الجيم ، والأول أشهر . ومعناه : أنها مريحةٌ له ، أي تُريحهُ وتسكِّنُه . من « الإجْمام » وهو : الراحة .

وقوله : « تَذْهَبُ ببعض الحُزْن » ، هذا — والله أعلم — لأن الغم والحزن يَبْرُدان المِزاجَ ، ويُضعفان الحرارةَ الغريزية ، لميل الروح الحامل لها إلى جهة القلب ، الذي هو منشؤها . وهذا الحَساءَ يُقوِّي الحرارة الغريزية ، بزيادته في مادتها ، فتزيل أكثرَ ما عرض له من الغم والحزن .

وقد يقال — وهو أقربُ — إنها تَذهبُ ببعض الحزن ، بخاصيَّةٍ فيها من جنس خواصِّ الأغذية المفرِّحة ، فإن من الأغذية ما يُفرِّح بالخاصية . والله أعلم .

---

(٤٥٤) هكذا فى النسخ المطبوعة . وفى الزاد « بل هى ماء الشعير لهم » وربما كان النقص من الناسخ أو وقع سهواً من المطبعة ، فالسياق يستدعى ما ذكرناه .

وقد يقال : إن قُوى الحزين تَضعفُ باستيلاء اليُبْس على أعضائه ، وعلى معدته خاصةً ، لتقليل الغذاء . وهذا الحَسَاء يُرطبها ويقويها ويغذيها ، ويفعل مثل ذلك بفؤاد المريض . لكن المريض كثيرًا ما يجتمع في معدته خَلْطٌ مَرَارِيٌّ أو بَلْغَمِيٌّ أو صَديديٌّ ؛ وهذا الحساءُ يَجلو ذلك عن المعدة ويَسْرُوه ، ويَحْدُره[٤٥٥] ويُميعه ، ويعدِّل كيفيتَه ، ويَكسر سَوْرته ــ فيُريحها ؛ ولاسيما لِمَن عادتُه الاغتذاء بخبز الشعير ، وهي عادة أهل المدينة إذ ذاك ، وكان هو غالبَ قوتِهم ، وكانت الحِنطة عزيزة عندهم . والله أعلم .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ السُّمِّ الَّذِي أَصَابَهُ بِخَيْبَرَ مِنَ الْيَهُودِ

ذكر عبد الرزَّاق ، عن مَعْمَر ، عن الزُّهريِّ ، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك : « أن امرأةً يهوديةً أهدَتْ إلى النبي ﷺ شاةً مَصْلِيَّةً بِخَيْبَرَ ، فقال : ما هذا ؟[٤٥٦] قالَتْ : هديَّةٌ . وحَذِرَتْ أن تقول : مِنَ الصَّدَقة ؛ فلا يأْكُل منها ، فأكل [منها][٤٥٧] النبيُّ ﷺ ، وأكل الصَّحابةُ . ثُم قال : أمسِكُوا . ثم قال للمرأة : هل سَمَّمتِ هذه الشاةَ ؟ قالتْ : من أخبَرَك بهذا ؟ قال : هذا العظمُ ــ لساقِها وهو في يده ــ قالتْ : نعمْ . قال : لِمَ ؟ قالتْ : أردتُ إن كنتَ كاذباً أن يَستريحَ منك الناسُ ، وإن كنتَ نبيًّا لم يَضرُّك . قال : فاحتَجَم النبيُّ ﷺ ثلاثةً على الكاهِلِ ، وأمَرَ أصحابَه أن يَحتجِموا ؛ فاحتجموا فمات بعضُهم » .

وفي طريق أخرى : « واحتَجَمَ رسولُ الله ﷺ على كاهِلِه ، من أجْلِ الذي أكَلَ من الشَّاة . حَجَمَه أبو هِندٍ بالقَرْنِ والشَّفْرة ــ وهو مولًى لبني بَيَاضَة من الأنصار ــ وبَقِيَ بعد ذلك ثلاث سنين ، حتى كان وجعُه الذي تُوفِّي فيه ، فقال : مازِلتُ أجِدُ من

---

(٤٥٥) يحدره : يمشيه ويدفعه .

(٤٥٦) في الزاد « ما هذه » .

(٤٥٧) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

الأُكْلة التي أُكلتُ من الشاةِ يومَ خَيْبَرَ ، حتى كان هذا أَوَانَ انْقِطَاع الأَبْهَر منِّي . فتُوفِّي رسول الله ﷺ شهيدًا »(٤٥٨) . قاله موسى بن عقبة(٤٥٩) .

معالجةُ السُّم تكون بالاستفراغات ، وبالأدوية التي تُعارض فعل السمِّ وتُبطله ، إما بكيفياتها ، وإما بخواصها . فمن عَدِم الدواءَ ، فليبادرْ إلى الاستفراغ الكُلِّي . وأنفعُه الحجامةُ ، لاسيَّما إذا كان البلد حارًّا ، والزمانُ حارًّا ، فإن القوة السُّمِّيَّةَ تَسري إلى الدم ، فَتنبعثُ في العروق والمجاري حتى تصل إلى القلب ، فيكون الهلاكُ ، فالدمُ هو المنفذ الموصل للسم إلى القلب والأعضاء ، فإذا بادر المسمومُ وأخرج الدم خرجتْ معه تلك الكيفيةُ السُّمية التي خالطتْه ، فإن كان استفراغاً تاماً لم يَضرَّه السُّم ، بل إما أن يَذهب ، وإما أن يَضعف ، فتقوى عليه الطبيعة ، فتبطل فعلَه أو تضعفه .

ولمَّا احتَجَم النبيُّ ﷺ ، احتَجم في الكاهلِ ـــ وهو أقربُ المواضع التي يُمكن(٤٦٠) فيها الحجامة ، إلى القلب ـــ فخرجت المادةُ السُّمية مع الدم ، لا خُروجاً كُليًّا ، بل بَقِيَ أثرها مع ضعفه ، لما يُريد الله سبحانه ، من تكميلِ مراتبِ الفضل كلِّها له .

فلمّا أراد الله إكرامَه بالشهادة ، ظهر تأثيرُ ذلك الأثر الكامِن من السم ، ليَقضي الله أمرًا كان مفعولاً ، وظهر سرُّ قوله تعالى لأعدائه من اليهود : ﴿ **أَفَكُلَّمَا**(٤٦١) **جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ ، فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ ، وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ** ﴾(٤٦٢) فجاء بلفظ « كَذَّبتم » بالماضي الذي قد وقع منه وتحقق ، وجاء بلفظ « تَقتُلون » بالمستقبل الذي يتوقَّعونه وينتظرونه . والله أعلم .

---

(٤٥٨) أخْرِجَ هذا الحديث ، والذىقبله ، بطرق وألفاظ مختلفة .. أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب ما يُذكر فى سمّ النبى (ﷺ) عن أبى هريرة بلفظ مختلف [ج ١٠ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥ من فتح البارى] وأخرجه الدارمى فى سننه فى باب ما أكرم النبى (ص) من كلام الموتى [ج ١ ص ٣٢ – ٣٥] .

(٤٥٩) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة جاء الاسم فى بداية فقرة جديدة ، ونُسِبَ إليه كلام المصنف هكذا : « قال موسىبن عقبة : معالجة السم ... » الخ . وهذا لبس . والصواب ما جاء فى الزاد ، حيث إن الحديث المذكور أخرجه موسى بن عقبة فى كتاب المغازى عن الزهرى .

(٤٦٠) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « تمكن » .

(٤٦١) فى الزاد « أوَكلّما » خطأ ... وما هنا مطابق – للآية ، والنسخ المطبوعة .

(٤٦٢) سورة البقرة – الآية ٨٧ .

فصل في هديه ﷺ في علاج السحر الذي سحرته اليهودية

قد أنكر هذا طائفةٌ من الناس ، وقالوا : لا يجوز هذا عليه ، وظنوه نقصاً وعيباً . وليس الأمرُ كما زَعَموا ، بل هو من جنس ما كان يَعتَريه ﷺ ، من الأسقام والأوجاع ، وهو مرض من الأمراض ، وإصابتُه به كإصابته بالسُّم لا فرقَ بينهما .

وقد ثبت في الصحيحين ، عن عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : « سُحِر رسولُ الله ﷺ ، حتى إنْ كان لَيُخَيَّلُ إليه أنه يأتي نساءَه ، ولم يأتِهِنَّ »[٤٦٣] . وذلك أشدُّ ما يكون من السحر .

قال القاضي عِيَاضٌ : « والسِّحر مرضٌ من الأمراض ، وعارضٌ من العلل ، يجوز عليه ﷺ كأنواع الأمراض ، ممَّا لا يُنكَرُ ولا يَقدَحُ في نُبوته . وأمَّا كونُه يُخيَّل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله ، فليس في هذا ما يُدخل عليه داخلةً في شيء من صدقه ، لقيام الدليل والإجماع على عِصمَتِه من هذا ، وإنَّما هذا فيما يجوز طُرُوُّه[٤٦٤] عليه في أمر دنياه التي لم يُبعثْ لسببها ، ولا فُضِّل من أجلها ، وهو فيها عُرضةٌ للآفات كسائر البشر . فغيرُ بعيد أنه يُخيَّلُ إليه من أمورها ما لا حقيقةَ له ، ثم يَنجلي عنه كما كان » .

والمقصود ذكرُ هَدْيِه في علاج هذا المرض ، وقد رُوي عنه [فيه][٤٦٥] نوعان : أحدهما — وهو أبلغهما — استخراجُه وإبطاله[٤٦٦] ، كما صح عنه ﷺ : « أنه سأل ربَّه سبحانه في ذلك ، فَدلَّ عليه ، فاستَخرجَه من بئر ، فكان في مِشْطٍ ومُشَاطَةٍ ، وجُفِّ طَلْعة ذَكَر ، فلمَّا استَخْرَجه ذهب ما به ، حتى كأنَّما أُنْشِطَ[٤٦٧] من عِقال » . فهذا من أبلغ ما يُعالَجُ به المَطْبُوب . وهذا بمنزلة إزالة المادة الخبيثة وقلْعِها من الجسد بالاستفراغ .

---

(٤٦٣) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب : هل يستخرج السحر [ج ١٠ ص ٢٣٢ من فتح البارى] وأخرجه مسلم بلفظ مختلف فى كتاب السلام ، باب السحر [ج ١٤ ص ١٧٤ بشرح النووى] .

(٤٦٤) طروُّه : حدوثه .

(٤٦٥) ما بين المعقوفتين عن الزاد .

(٤٦٦) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « وتبطيلُه » .

(٤٦٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « نُشِطَ » .

والنوع الثاني : الاستفراغُ في المحل الذي يَصلُ إليه أذى السِّحر . فإن للسحر تأثيرًا في الطبيعة وهَيَجانِ أخلاطها ، وتشويشِ مِزاجها ، فإذا ظهر أثرُهُ في عضو ، وأمكن استفراغُ المادة الرديئة من ذلك العضو — نَفَع جدًّا .

وقد ذكر أبو عُبيدٍ فى كتاب « غريب الحديث » له — بإسناده عن عبد الرحمن ابن أبي لَيْلَى — : « أن النبيَّ ﷺ احْتَجَم على رأسه بقَرْنٍ حين طُبَّ » قال أبو عُبيد : « معنى (طُبَّ) أي : سُحر » .

وقد أُشكَل هذا على مَن قلَّ علمُه ، وقال : ما للحجامة والسِّحرِ ؟ وما الرابطةُ بين هذا الداءِ وهذا الدواءِ ؟ ولو وَجد هذا القائل أبقراطَ أو ابنَ سينا أو غيرَهما ، قد نَصَّ على هذا العلاج — لَتَلَقَّاه بالقبول والتسليم ، وقال : قد نَص عليه من لا نَشكُّ في معرفته وفضله .

فاعلم أن مادة السِّحر الذى أصيب به النبى ﷺ ، انتهت إلى رأسه ، إلى إحدى قواه التي فيه ، بحيث كان يُخيَّل إليه أنه يفعل الشيءَ ولم يفعله ، وهذا تصرُّف من الساحر في الطبيعة والمادة الدموية ، بحيث غلبت تلك المادة على البطن المقدم منه ، فغيرت مِزاجه عن طبيعته الأصلية .

والسِّحر مركَّب(٤٦٨) من تأثيرات الأرواح الخبيثة ، وانفعال القوى الطبيعية عنها ، [وهو سحر التمريجات](٤٦٩) . وهو أشد ما يكون من السحر ، ولاسيَّما في الموضع الذى انتهي إليه السحر . واستعمال الحجامة على ذلك المكان الذى تضررت أفعاله بالسحر — من أنفع المعالجة ، إذا استعملت على القانون الذى ينبغي . قال أبقراطُ : « الأشياءُ التي ينبغي أن تستفرغ يجب أن تُستفرغ من المواضع التي هى إليها أميلُ ، بالأشياء التي تصلح لاستفراغها » .

وقالت طائفة من الناس : إن رسول الله ﷺ لمَّا أصيب بهذا الداءِ ، وكان يخيَّل إليه أنه فعل الشيء ولم يفعله — ظَن أن ذلك عن مادة دموية أو غيرها ، مالت إلى جهة الدماغ ، وغلبت على البطن المقدم منه ، فأزالت مزاجه عن الحالة الطبيعية له — وكان

---

(٤٦٨) فى الزاد « هو مُرَكَّب » .

(٤٦٩) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد . ومثبت فى النسخ المطبوعة ، والسياق يستدعى وجوده .

استعمال الحجامة ــ إذ ذاك ــ من أبلغ الأدوية ، وأنفع المعالجة ، فاحتجم ، وكان ذلك قبل أن يوحي إليه أن ذلك من السحر ، فلما جاءه الوحي من الله تعالى ، وأخبره أنه قد سُحر ــ عدل إلى العلاج الحقيقيِّ ، وهو استخراج السحر وإبطاله ، فسأل الله سبحانه ، فدلَّه على مكانه ، فاستخرجه ، فقام كأنما نشط من عقال . وكان غاية هذا السحر فيه إنما هو في جسده وظاهر جوارحه ، لا على عقله وقلبه ، ولذلك لم يكن يعتقد صحة ما يخيّل إليه ، من إتيان النساءِ ، بل يعلم أنه خيال لا حقيقة له . ومثل هذا قد يحدث من بعض الأمراض . والله أعلم .

فصل

ومن أنفع علاجات السِّحر الأدوية الإلهية ، بل هي أدويته النافعة بالذات ، فإنه من تأثيرات الأرواح الخبيثة السُّفْلية . ودفع تأثيرها يكون بما يعارضها ويقاومها ، من الأذكار والآيات والدعوات ، التي تُبطل فعلها وتأثيرَها ، وكلما كانت أقوى وأشد ، كانت أبلغ في النُّشرة[٤٧٠] . وذلك بمنزلة التقاءِ جيشين ، مع كلٍّ واحد منهما عدته وسلاحه ، فأيُّهما غلب الآخر قهره وكان الحكم له ، فالقلب إذا كان ممتلئاً من الله ، مغمورًا بذكره ، وله ــ من التوجُّهات والدعوات ، والأذكار والتعوُّذات ــ وِرْدٌ لا يُخِلُّ به يطابق فيه قلبه لسانه ، كان هذا من أعظم الأسباب التي تمنع إصابة السحر له ، ومن أعظم العلاجات له بعد ما يصيبه .

وعند السَّحَرَة أن سِحرَهم إنما يتم تأثيره في القلوب الضعيفة المنفعلةِ ، والنفوس الشهوانية التى هى معلقة بالسفليات ، ولهذا[فإن][٤٧١]غالب ما يؤثر في النساءِ والصبيان ، والجهال وأهل البوادي ، ومَن ضعف حظُّه من الدين والتوكل والتوحيد ، ومَن لا نصيبَ له من الأوراد الإلٰهية ، والدعوات والتعوُّذات النبوية ، وبالجملة ، فسلطان تأثيره في القلوب الضعيفة المنفعلة ، التي يكون ميلُها إلى السُّفليات .

---

(٤٧٠) النُّشْرَة : ضَرْبةٌ من الرُّقْيَة والعلاج يُعَالَجُ به مَنْ كان يُظن أنَّ به مَسًّا من الجن . سُمِّيتْ : نُشرة ، لأنه يُنشَّرُ بها عنه ما خامَره من الداء ، أى : يُكْشَف ويُزَال . [انظر لسان العرب ، مادة نشر]

(٤٧١) ما بين المعقوفتين عن الزاد .

قالوا : والمسحور هو الذي يعين على نفسه ؛ فإنا نجد قلبه متعلقاً بشيء ، كثير الالتفاتِ إليه ، فيتسلط على قلبه بما فيه من الميل والالتفات . والأرواح الخبيثة إنما تتسلط على أرواح تلقاها مستعدةً لتسلُّطِها عليها ، بميلها إلى ما يناسب تلك الأرواح الخبيثة ، وبفراغِها من القوة الإلهية ، وعدم أخذها للعدة التي تحاربها بها ، فتجدها فارغة لا عدة معها ، وفيها ميلٌ إلى ما يناسبها ، فتتسلط عليها ، ويتمَكن تأثيرها فيها بالسحر وغيره . والله أعلم .

* * *

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي الاسْتِفْرَاغِ بِالْقَيْءِ

روى الترمذيُّ في جامعه ــ عن مَعْدَانِ بن أبي طَلْحَةَ ، عن أبي الدَّرْدَاء : « أن النبي ﷺ قَاءَ فَتَوضَّأ . فلقيت ثَوْبانَ في مسجد دِمَشْق ، فذكرتُ له ذلك . فَقَالَ : صَدَقَ ، أنا صببتُ له وَضُوءَهُ »(٤٧٢) . قال الترمذيُّ : وهذا أصح شيء في الباب .

القيءُ : أحد الاستفراغات الخمسة التي هي أصول الاستفراغ ، وهي : الإسهال ، والقيءُ ، وإخراج الدم ، وخروج الأبخرة ، والعَرق . وقد جاءت بها السنة .

أما الإسهال ، فقد مرَّ في حديث : « خيرُ ما تداويتم به المَشِيُّ » ، وفي حديث « السَّنا »(٤٧٣) .

وأما إخراج الدم ، فقد تقدم في أحاديث الحِجامة .

وأما استفراغ الأبخرة ، فنذكره عقيب هذا الفصل إن شاء الله .

وأما الاستفراغ بالعَرق ، فلا يكون غالباً بالقصد ، بل بدفع الطبيعة له إلى ظاهر الجسد ، فتصادف المسامَّ مفتَّحةً فيخرج منها .

والقيءُ استفراغٌ من أعلى المعدة ، والحقنة من أسفلها ، والدواءُ من أعلاها وأسفلها . والقيء نوعان : نوع بالغلبة والهيجان ، ونوع بالاستدعاء والطلب . فأما

---

(٤٧٢) أخرجه الترمذي في الطهارة ، باب الوضوء من القيء والرُّعاف [ج ١ ص ١٣٦] .

(٤٧٣) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « السناء » .

الأول ، فلا يسوغ حبسه ودفعه إلا إذا أفرط وخِيف منه التلف ، فيُقطع بالأشياء التي تمسكه . وأما الثاني ، فأنفعه عند الحاجة ، إذا رُوعي زمانه وشروطه التي تذكر .

وأسبابُ القيء عشرة :

أحدها : غلبة المِرَّة الصفراء ، وطُفُوُّها على رأس المعدة ؛ فتطلب الصعود .

الثاني : من غلبة بلغم لزج قد تحرك في المعدة ، واحتاج إلى الخروج .

الثالث : أن يكون من ضعف المعدة في ذاتها ، فلا تهضم الطعام ، فتقذفه إلى جهة فوق .

الرابع : أن يخالطها خلط رديء ينصبُّ إليها ، فيسيء هضمها ، ويضعف فعلها .

الخامس : أن يكون من زيادة المأكول أو المشروب على القدر الذي تحتمله المعدة ، فتعجزُ عن إمساكه ، فتطلب دفعه وقذفه .

السادس : أن يكون من عدم موافقة المأكول والمشروب لها ، وكراهتها له ، فتطلب دفعه وقذفه .

السابع : أن يحصل فيها ما يثوِّرُ الطعامَ بكيفيته وطبيعته ، فتقذف به .

الثامن : القرف ، وهو موجب غثَيانِ النفس وتَهَوُّعِها .

التاسع : من الأعراض النفسانية ، كالهم الشديد والغم والحزن ، وغلبة اشتغال الطبيعة والقوى الطبيعية به ، واهتمامها بوروده ، عن تدبير البدن وإصلاح الغذاء وإنضاجه وهضمه ، فتقذفه المعدة ، وقد يكون لأجل تحرُّك الأخلاط عند تخبُّط النفس ، فإن كل واحد من النفس والبدن ينفعل عن صاحبه ، ويؤثر في كيفيته(٤٧٤) .

العاشر : نقل الطبيعة ، بأن يرى من يتقيأ فيغلبه هو القيء من غير استدعاء ، فإن الطبيعة نَقَّالة .

وأخبرني بعض حُذَّاقِ الأطباء ، قال : كان لي ابن أخت حَذَقَ في الكحْل ، فجلس كحَّالاً ، فكان إذا فتح عين الرجل ، ورأى الرَّمد وكحله ، رَمِد [هو](٤٧٥) . وتكرر

---

(٤٧٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « ويؤثر كيفيته في كيفيته » .

(٤٧٥) ما بين المعقوفتين عن الزاد .

ذلك منه ، فترك الجلوس . قلت له : فما سبب ذلك ؟ قال : نقلُ الطبيعة ، فإنها نقّالة . قال : وأعرف آخرَ كان رأي خُرَاجا في موضع من جسم رجل يحكُّه ، فحك هو ذلك الموضع ، فخرجت فيه خُراجة .

قلت : وكلُّ هذا لابد فيه من استعداد الطبيعة ، وتكون المادة ساكنةً فيها غير متحركة ، فتتحرك لسبب من هذه الأسباب . فهذه أسباب لتحرك المادة ، لا أنها هي الموجبه لهذا العارض .

فصل

ولما كانت الأخلاط في البلاد الحارة والأزمنة الحارة ، ترِق وتنجذب إلى فوق ــ كان القيء فيها أنفع . ولما كانت في الأزمنة الباردة والبلاد الباردة ، تغلُظ ويصعب جذبها إلى فوق ــ كان استفراغُها بالإسهال أنفع .

وإزالة الأخلاط ودفعها يكون[٤٧٦] بالجذب والاستفراغ ، والجذب يكون من أبعد الطرق ، والاستفراغ من أقربها ، والفرق بينهما أن المادة إذا كانت عاملة في الانصباب أو الترقي ، لم تستقر بعد ، فهي محتاجة إلى الجذب ، فإن كانت متصاعدة جذبت من أسفل ، وإن كانت منصبةً جذبت من فوق ، وأما إذا استقرت في موضعها استُفرغت من أقرب الطرق إليها .

فمتى أضرت المادة بالأعضاء العليا اجتُذبت من أسفل ، ومتى أضرت بالأعضاء السفلى اجتذبت من فوق ، ومتى استقرت استفرغت من أقرب مكان إليها .

ولهذا احتجم النبيُّ ﷺ على كاهِله تارة ، وفي رأسه أخرى ، وعلى ظهر قدمه تارة ، فكان يستفرغ مادة الدم المؤذي من أقرب مكان إليه . والله أعلم .

فصل

والقيء يُنقّي المعدة ويقويها ، ويُحد البصر ، ويزيل ثقل الرأس ، وينفع قروح الكُلَى والمثانة ، والأمراض المزمنة ، كالجذام والاستسقاء ، والفالِج ، والرِّعشة . وينفع اليَرقان .

---

(٤٧٦) في الزاد « تكون » .

وينبغي أن يستعمله الصحيح في الشهر مرتين متواليتين ، من غير حفظ دور ، ليتدارك الثاني ما قصر عنه الأول ، وينقيَ الفضلاتِ التي انصبت بسببه . والإكثار منه يَضر المعدة ويجعلها قابلة للفضول ، ويُضر بالأسنان والبصر والسمع ، وربما صدع عرقاً ، ويجب أن يجتنبه مَن به ورمٌ في الحلق ، أو ضعفٌ في الصدر ؛ أو دقيقُ الرقبة ، أو مستعدٌ لنَفْث الدم ، أو عَسِيرُ الإجابة له .

وأمَّا ما يفعله كثير مِمَّن يُسيء[٤٧٧] التدبير — وهو أن يمتلئَ من الطعام ، ثم يَقذفه ففيه آفاتٌ عديدة ، منها : أنه يُعجل الهَرَم ، ويُوقع في أمراض رديئة ، ويَجعل القيءَ له عادة .

والقيءُ مع اليُبوسة وضعفِ الأحشاء ، وهُزالِ المَرَاقِّ[٤٧٨] ، أو ضعفِ المُسْتقيء — خطرٌ . وأحمَدُ أوقاتِه الصيفُ والربيع ، دون الشتاء والخريف . وينبغي عند القيء أن يعصب العينين ، ويَقْمُطَ البطن ، ويغسلَ الوجه بماء بارد عند الفراغ ، وأن يشرب عقبه[٤٧٩] شراب التفاح مع يسير من مصطكي[٤٨٠] . وماءُ الورد ينفعه نفعاً بيِّناً . والقيء يستفرغ من أعلى المعدة ، ويجذب من أسفل . والإسهال بالعكس . قال أبقراط : « وينبغي أن يكون الاستفراغ في الصيف من فوق ، أكثرَ من الاستفراغ بالدواء ، وفي الشتاء من أسفل » .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في الإرْشَادِ إلى مُعَالَجَةِ أحْذَقِ الطَّبِيبَيْنِ

ذكر مالك في موطئه — عن زيد بن أسلمَ —: « أن رجلاً في زمن[٤٨١] رسول الله ﷺ جُرح ، فاحتَقَن الدمُ[٤٨٢] . وأن الرجلَ دعا رجُلَيْن من بني أنمار ، فنَظَرا إليه .

(٤٧٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « من سيئي » .

(٤٧٨) يعنى : مَرَاقٌ البطن ، وهى مارقّ منه ولانَ فى أسافله .

(٤٧٩) فى الزاد « عقيبه » .

(٤٨٠) المصطكى : مادة شفافة ، لها مظهر زجاجى ، ولونها أصفر شاحب أو قاتم ، ترشح من لحاء شجر من فصيلة البطْميّات الذى ينبت بريًا فى سواحل البحر المتوسط من أسبانيا إلى سوريا ، وتستخدم فى البخور ، كما أنها تُمْضَغ لتقوية الأسنان ، وإزالة الرائحة الكريهة من الفم ، كما يستخدم محلول المصطكى لتسكين ألم الأسنان .

(٤٨١) فى الزاد « زمان » .

(٤٨٢) فى الزاد « فاحتقن الجرحُ الدّم » .

فزَعَم أنَّ رسولَ الله ﷺ ، قال لهما : أيُّكما أطَبُّ ؟ فقالا : أو في الطِّبِّ خيرٌ يا رسول الله ؟! فقال : أنزَل الدواءَ الذي أنزل الداء » .

ففي هذا الحديث أنه ينبغي الاستعانةُ ، في كل علم وصناعة بأحذقِ مَنْ فيها فالأحذق ، فإنه إلى الإصابة أقربُ . وهكذا يجب على المستفتي أن يستعينَ على ما نَزل به ، بالأعلم فالأعلم . لأنه أقربُ إصابةً ممَّن هو دونَه . وكذلك من خفيتْ عليه القِبْلةُ ، فإنه يقلدُ أعلمَ مَن يَجدُه ، وعلى هذا فَطَر الله عبادَه . كما أن المسافر في البر والبحر ، إنَّما سكونُ نفسه وطمأنينتُه إلى أحْذقِ الدليلَيْن وأخبَرِهما ، وله يَقصدُ ، وعليه يَعتمدُ ، فقد اتفقتْ على هذا الشريعةُ والفطرةُ والعقلُ .

وقولهُ ﷺ : « أنزل الدواءَ الذي أنزَل الداءَ » قد جاء مثلُه عنه في أحاديثَ كثيرةٍ . فمنها : ما رواه عمرو بن دِينارٍ عن هلال بن يسَاف ؛ قال : « دخل رسولُ الله ﷺ ، على مريض يعودُه ، فقال : أرسِلُوا إلى طبيبٍ . فقال قائلٌ : وأنتَ تقولُ ذلك يا رسولَ الله ؟! قال : نعمْ ، إن الله عز وجل لم يُنْزِلْ داءً إلَّا أنزَلَ له دواءً » . وفي الصحيحين ــ من حديث أبي هريرةَ ، يَرفعُه ــ : « ما أنزلَ اللهُ من داءٍ ، إلا أنزل له شفاءً » وقد تقدم هذا الحديثُ وغيرُه .

واختُلف في معنى إنزال(٤٨٣) الداء والدواء ، فقالت طائفةٌ : إنزالُه إعلامُ العبادِ به ، وليس بشيء ، فإن النبيَّ ﷺ أخبرَ بعموم الإنزال لكل داءٍ ودوائه ، وأكثرُ الخلق لا يعلمون ذلك . ولهذا قال : « عَلِمَهُ مَن عَلِمَه ، وجَهِلَه من جَهِلَه » .

وقالت طائفةٌ : إنزالُهما خَلقُهما ووضْعُهما في الأرض ، كما في الحديث الآخر : « إن الله لم يَضعْ داءً ، إلَّا وَضَعَ له دواءً » . وهذا ــ وإن كان أقربَ من الذي قبله ــ فلَفظةُ « الإنزال » أخصُّ من لفظة « الخلق » و « الوضع » . فلا ينبغي إسقاطُ خصوصيةِ اللفظة ، بلا موجِب .

وقالت طائفةٌ : إنزالُهما بواسطةِ الملائكة الموكَّلين بمباشرة الخلق ، من داء ودواء ، وغيرِ ذلك ، فإن الملائكة موكلةٌ بأمر هذا العالَم ، وأمر النوع الإنسانيِّ ــ من حين

---

(٤٨٣) في الزاد « أنزل » .

سقوطِه في رَحِم أمّه إلى حين موته ، فإنزالُ الداء والدواءِ مع الملائكة . وهذا أقرب من الوجهين قبلة .

وقالت طائفةٌ : إن عامة الأدْواءِ والأدوية هي بواسطة إنزال الغيثِ من السماء ، الذي تتولد به الأغذيةُ والأقواتُ ، والأدويةُ والأدواءُ ، وآلاتُ ذلك كله ، وأسبابُه ومكمِّلاتُه ، وما كان منها من المعادن العُلوية ، فهي تَنزل من الجبال ، وما كان منها — من الأودية والأنهار والثمار — فداخلٌ في اللفظ على طريق التغليبِ والاكتفاء عن الفعلين بفعل واحد يتضمنها . وهو معروف من لغة العرب ، بل وغيرها من الأمم ، كقول الشاعر :

عَلَفْتُهَــا تِبْنــاً وَمَــاءً بارِدًا حَتَّى غَدَتْ هَمَّالَةً ، عَيْنَاها(٤٨٤)

وقال الآخر :

وَرَأَيْتُ زَوْجَكِ قَدْ غَدَا مُتَقَلِّــدًا سَيْفــاً وَرُمْحَـــا(٤٨٥)

وقال الآخر : « وَزَجَّجْنَ الْحَواجِبَ وَالْعُيُونا(٤٨٦) » .

وهذا أحسن مما قبله من الوجوه والله أعلم .

وهذا من تمام — حكمة الرب عز وجل ، وتمام ربوبيته ، فإنه كما ابتلى عباده بالأدواء ، أعانهم عليها بما يسَّره لهم من الأدوية . وكما ابتلاهم بالذنوب ، أعانهم عليها بالتوبة ، والحسنات الماحية ، والمصائب المكفِّرة وكما ابتلاهم بالأرواح الخبيثة — من الشياطين — أعانهم عليها بجند من الأرواح الطيبة ، وهم الملائكة . وكما ابتلاهم بالشهوات ، أعانهم على قضائها بما يسَّره لهم شرعاً وقدَرًا ، من المشتهيات اللذيذة النافعة . فما ابتلاهم سبحانه بشيء ، إلا أعطاهم ما يستعينون به على ذلك البلاء ،

---

(٤٨٤) والتقدير : وسقيتها ماءً . حَذَف الفِعل « سقى » واكتفى بالفعل . المذكور « علف » .

(٤٨٥) والتقدير : وحاملاً رمحًا .

(٤٨٦) والتقدير : وكحّلْنَ العيونا . وفى الزاد أتى بالبيت كاملاً :

« إذا مـــا الغـــانيـــاتُ بَـــرَزْنَ يـــومـــاً وَزَجَّجْـــنَ الحـــواجِبَ والعُيـــونـــا »

[انظر مغنى اللبيب ، باب الحذف ، وانظر اللسان مادة : زجج]

ويدفعونه به ، ويبقى التفاوت بينهم في العلم بذلك ، والعلم بطريق حصوله ، والتوصل إليه . وبالله المستعان .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي تَضْمِينِ مَنْ طَبَّ النَّاسَ وَهُوَ جَاهِلٌ بِالطِّبِّ

روى أبو داود ، والنَّسائيُّ ، وابن ماجه — من حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده — قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تَطَبَّبَ ولَمْ يُعْلَمْ منه الطِّبُّ قبل ذلك ، فهو ضَامِنٌ »(٤٨٧) .

هذا الحديث يتعلق به ثلاثة أمور : أمرٌ لُغوي ، وأمرٌ فِقهي ، وأمرٌ طبي .

فأما اللغوي ، فالطِّبُّ (بكسر الطاء) في لغة العرب ، يقال على معانٍ منها : الإصلاح . يقال : طببته ، إذا أصلحته . ويقال : له طِبٌّ بالأمور ، أي لُطفٌ وسياسة . قال الشاعر :

وإذا تَغَيَّرَ مِنْ تميم أمرُها　　　كنتَ الطبيبَ لها برأيٍ ثاقِبِ

ومنها : الحِذق . قال الجوهريُّ : كلُّ حاذقٍ طبيب عند العرب . قال أبو عبيد : أصل الطب الحذق بالأشياء ، والمهارة بها . يقال للرجل : طبٌّ وطبيب ، إذا كان كذلك ، وإن كان في غير علاج المريض . وقال غيره : رجل طبيبٌ ، أي : حاذقٌ . سمي طبيباً : لحذقه وفِطْنته . قال علقمة(٤٨٨) .

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي　　　خَبِيرٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ ، أَوْ قَلَّ مَالُهُ　　　فَلَيْسَ لَهُ فِي وُدِّهِنَّ(٤٨٩) نَصِيبُ

---

(٤٨٧) أخرجه أبو داود فى كتاب الديات ، باب فيمن تطبب بغير علم [ج ٤ ص ١٩٥] وأخرجه النسائى فى القسامة ، فى « صفة شبه العمد » [ج ٨ ص ٥٢ ، ٥٣] وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب من تطبب ولم يُعْلَم منه طب [ج ٢ ص ١١٤٨] .

(٤٨٨) هو : علقمة بن عَبَدة بفتح العين والباء — ابن ناشرة بن قيس من بنى تميم ، شاعر جاهلى من الطبقة الأولى ، كان معاصراً لامرئ القيس ، وله معه مساجلات . [انظر خزانة الأدب للبغداد ج ٣ ص ٢٨٢ — ٢٨٤]

(٤٨٩) فى الزاد « مِنْ وُدِّهِنَّ » .

وقال عنترةُ :

إنْ تُغْدِفي دُوني الْقِنَاعَ فَإنَّنِي   طَبٌّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلْئِمِ(٤٩٠)

أي : إن تُرخي عني قِناعك ، وتَستُري وجهك رغبةً عني — فإني خبيرٌ حاذقٌ بأخذ الفارس الذي قد لبس لأمةَ حربه .

ومنها : العادة . يقال : ليس ذلك بِطبيٍّ ، أي : عادتي . قال فَرْوَةُ بن مُسَيْكٍ(٤٩١) :

فَمَا إنْ طِبُّنَا جُبْنٌ وَلَكِنْ   مَنَايَانَا وَدَوْلَــةُ آخَرِينَـا(٤٩٢)

وقال أحمد بن الحسين [المتنبى](٤٩٣) .

وَمَا التِّيهُ طِبِّي فِيهِمُ غَيْرَ أَنَّنِي   بَغِيضٌ إلَيَّ الْجَاهِلُ الْمُتَعَاقِلُ(٤٩٤)

ومنها : السِّحر . يقال : رجل مطبوب ، أي : مسحور .

---

(٤٩٠) هو : عنترة بن شداد العَبْسِيّ . والبيت من مُعَلَّقته الشهيرة التى يستهلُّها بقوله :

هل غادَرَ الشُّعراء مِنْ مُتَرَدَّم .

تغدفى ، أى : ترخى القناع على الوجه .

المُسْتَلْئم : لابس اللَّأمة ، وهى الدِّرْع . [انظر شرح القصائد السبع الطوال ، لأبى بكر الأنبارى ص ٣٢٥]

(٤٩١) هو : فروة بن مُسَيْك بن الحارث المرادىّ ، صحابى من اليمن ، كان موالياً لملوك كندة فى الجاهلية .. وفَدَ على النبى (ص) سنة ٩ أو ١٠ هـ ، وأسلم ونزل على سعد بن عبادة ، وتعلم القرآن وفرائض الإسلام . استعمله النبى (ص) على مراد – قبيلته – ومذحج ، ، وزبيد ، وكتب له كتاباً فيه فرائض الصدقة .. قاتل أهل الرِّدَّة بعد وفاة النبى (ص) وبقى إلى خلافة عمر بن الخطاب . توفى حوالى سنة ٣٠ هـ .

[انظر الأعلام للزركلى ج ٥ ص ٣٤٥]

(٤٩٢) قبل هذا البيت :

« فَــإنْ نَغْلِــبْ فَغَــلَّابُــونَ قِــدْمــاً   وَإنْ نُغْلَبْ فَغَيْرُ مُغَلَّبِينَــا »

وبعده :

« كَــذاكَ الــدَّهْرُ دَوْلَتُــهُ سِجَــالٌ   تَكُرُّ صُرُوفُــهُ حِينــاً فَحِينــا »

[انظر اللسان مادة طبب ، وانظر ديوان المتنبى ج ٣ ص ٢٣٧]

(٤٩٣) ما بين المعقوفتين عن الزاد . والمتنبى : من كبار شعراء العرب ، وأفضل شعره فى الحكمة وفلسفة الحياة ، وله ديوان شرحه طائفة من كبار الأدباء ، كابن جِنّى ، وأبى العلاء المَعَرّى ، والواحدى ، والعكبرى ، وغيرهم .

(٤٩٤) فى النسخ المطبوعة « المتغافل » . وفى الزاد مثل ما هنا ، وهو مطابق لما جاء بالديوان . والبيت من قصيدة يمدح فيها سيف الدولة عند دخول رسول الروم عليه . ومعناه :

أن الكبر ليس عادتى وديدنى ، غير أنّى أبغض الجاهل الذى يتكلف ، ويرى أنه عاقل . [انظر ديوان المتنبى ج ٢ ص ٢٣٢ – ٢٣٨] .

وفي الصحيح ، من حديث عائشة : « لمّا سحرت يهود رسول الله ﷺ ، وجلس الملكان عند رأسه وعند رجليه ، فقال أحدهما : ما بال الرجل ؟ قال الآخر : مطبوبٌ . قال : من طبَّه ؟ قال : فلان اليهوديُّ » .

قال أبو عبيد : إنما قالوا للمسحور : مطبوب ، لأنهم كنَّوا بالطِّب عن السِّحر ، كما كنَّوا عن اللَّديغ[٤٩٥] فقالوا : سليمٌ ، تفاؤلاً بالسلامة . وكما كنَّوْا بالمفازة عن الفلاة المهلكة التي لا ماء فيها ، فقالوا : مَفازةٌ ، تفاؤلاً بالفوز من الهلاك .

ويقال الطِّبُّ ، لنفس الداء[٤٩٦] . قال ابن أبي الأسلتِ[٤٩٧] .

أَلَا مَنْ مُبْلِغٌ حَسَّانَ عَنِّي   أَسِحْرٌ كَانَ طِبُّكَ أَمْ جُنُونُ ؟

وأما قول الحماسيِّ :

فإن كُنْتَ مطبُوباً فلا زلْتَ هكذَا   وإن كنت مسحورًا فلا برِئَ السحرُ

فإنه أراد بالمطبوب : الذي قد سُحر ، وأراد بالمسحور : العليلَ بالمرض . قال الجوهري : « ويقال للعليل : مسحور » ، وأنشد البيت . ومعناه : إن كان هذا الذي قد عراني ، منك ومن حبكِ ، أسأل الله دوامه ، ولا أريد زواله ، سواء كان سحرًا أو مرضاً .

و « الطب » مثلثُ الطاء ، فالمفتوح الطاءِ هو : العالم بالأمور ؛ وكذلك الطبيبُ يقال له : طَبٌّ أيضاً . و « الطِّب » بكسر الطاء : فعلُ الطبيب . و « الطُّب » بضم الطاء : اسم موضع . قاله ابن السِّكِّيت . وأنشد :

فَقُلْتُ : هَلِ انْهَلْتُم بِطُبِّ رِكَابَكُم   بجائِزَة الماءِ التي طاب طِينُهَا ؟

وقوله ﷺ : « من تَطَبَّب » ـــ ولم يقل : من طبَّ ـــ لأن لفظ التفعل يدل على

---

(٤٩٥) اللديغ : الملدوغ ، وهو الذى عضّته الحيّةُ أو العقرب .

(٤٩٦) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « الدواء » .

(٤٩٧) هو : صيفى بن عامر الأسلت بن جُشَم بن وائل الأوْسِىّ الأنصارىّ ، أبو قيس ، شاعر جاهلى من حكمائهم ، وكان رأس الأوس وشاعرها وخطيبها ، وقائدها فى حروبها ، وكان يكره الأوثان ويبحث عن دين يطمئن إليه ، فلقى علماء من اليهود ورهباناً وأحباراً ، ووَصِفَ له دين إبراهيم فقال : أنا على هذا . ولما ظهر الإسلام اجتمع برسول الله (ص) وتريّث فى قبول الدعوة ،فمات بالمدينة فى السنة الأولى للهجرة قبل أن يسلم .

تكلُّف الشيء والدخول فيه بعسر وكلفة ، وأنه ليس من أهله . كتَحَلُّم ، وتشجُّع ، وتصبُّر ، ونظائرها . وكذلك بنوا « تكلَّف » على هذا الوزن . قال الشاعر :

« وقيسَ عَيلانَ ومن تَقَيَّسَا »(٤٩٨)

وأما الأمر الشرعيُّ . فإيجاب الضمان على الطبيب الجاهل ، فإذا تعاطى علم الطب وعمله ، ولم يتقدم له به معرفة ــ فقد هَجم بجهله على إتلاف الأنفس ، وأقدم بالتهور على مالم يعلمه ، فيكون قد غرَّر بالعليل ، فليزمه الضمان لذلك . وهذا إجماع من أهل العلم .

قال الخطَّابيُّ : لا أعلم خلافاً في أن المعالج إذا تعدَّى فتَلِفَ المريض كان ضامناً ، والمتعاطي علماً أو عملاً لا يعرفه ، متعد ، فإذا تولَّد من فعله التلف ضمن الدية ، وسقط عنه القَوَدُ ، لأنه لا يستبدُّ بذلك بدون إذن المريض ، وجنايةُ المُتطبب ــ في قول عامةِ الفقهاء ــ على عاقِلَتِه .

قلت : الأقسام خمسة ، **أحدها** : طبيب حاذق أعطى الصنعة حقها ، ولم تجنِ يده ، فتولَّد من فعله ــ المأذون [فيه](٤٩٩) من جهة الشارع ، ومن جهة من يطبُّه ــ تلفُ العضو أو النفس ، أو ذهابُ صفةٍ ، فهذا لا ضمان عليه اتفاقاً ، فإنها سِرايةُ مأذونٍ فيه ، وهذا كما إذا خَتَنَ الصَّبيَّ في وقت ، وسنُّه قابلٍ للختان ، وأعطى الصنعة حقَّها ، فتلف العضو أو الصبيُّ ــ لم يضمن . وكذلك إذا بطَّ من عاقل أو غيره ما ينبغي بَطُّهُ في وقته ، على الوجه الذي ينبغي ، فتلف به ــ لم يضمن . وهكذا سِراية كل مأذون فيه لم يتعدَّ الفاعل في سببها ، كسِراية الحدِّ بالاتفاق ، وسِرايةِ القِصاص عند الجمهور ، خلافاً لأبي حنيفة [رحمه الله](٥٠٠) في إيجابه للضمان بها ، وسراية التعزير ، وضرب الرجل

---

(٤٩٨) الرجز للعجاج . وقبله هذا البيت :

« وإنْ دَعَوْتَ مِنْ تَميمٍ أرْؤُسَا »

وجواب « إنْ » في البيت الثالث بعده :

« تقاعَسَ العِزُّ بنا فاقْعَنْسَسَا »

وقيس عيلان : أبو قبيلة من مُضَر . وتقيس : أى تشبَّهَ بهم ، أو تَمَسَّكَ مِنْهُم بسبب ، إما بِحِلْفٍ أو جِوَار أو ولاء ومعنى تقاعس : ثبت وانتصب . وكذلك : اقْعَنْسَسَ . [انظر لسان العرب مادة قيس]

(٤٩٩) ما بين المعقوفتين عن الزاد .

(٥٠٠) ما بين المعقوفتين – إلى نهاية الفصل – ساقط من الزاد .

امرأته ، والمعلم الصَّبيَّ ، والمستأجِر الدابة ، خلافاً لأبي حنيفة والشافعي [رحمهما الله] في إيجابهما الضمان في ذلك ، واستثنى الشافعي [رحمه الله] ضرْبَ الدابة .

وقاعدة الباب ــ إجماعاً ، ونزاعاً ــ أن سراية الجناية مضمونةٌ بالاتفاق ، وسراية الواجب مُهدرةٌ بالاتفاق ، وما بينهما ففيه النزاع ، فأبو حنيفةَ [رحمه الله] أوجب ضمانه مطلقاً ، وأحمد ومالكٌ [رحمهما الله] أهدرا ضمانه ، وفرق الشافعيُّ [رحمه الله] بين المقدَّر ، فأهدر ضمانه ، وبين غيرِ المقدَّر ، فأوجبَ ضمانه ، فأبو حنيفة [رحمه الله] نظر إلى أن الإذن في الفعل إنما وقع مشروطاً بالسلامة . وأحمد ومالك [رحمهما الله] نظرا إلى أن الإذن أسقط الضمانَ . والشافعيُّ [رحمه الله] نظر إلى أن المقدَّر لا يمكن النقصان منه ، فهو بمنزلة النصِّ . وأما غيرُ المقدر ــ كالتَّعزيرات ، والتأديبات ــ فاجتهاديةٌ ، فإذا تلف بهما ضمن ، لأنه في مَظِنَّة العدوان .

فصل

القسم الثاني : متطبِّبٌ جاهل باشرت يدُه من يَطُبُّه ، فتلف به ، فهذا إن علم المجنيُّ عليه أنه جاهل لا علم له ، وأذن له في طِبِّه ــ لم يضمن . ولا يخالف(٥٠١) هذه الصورة ظاهرُ الحديث ، فإن السِّياق وقوة الكلام يدلُّ على أنه غرَّ العليل ، وأوهمه أنه طبيب ، وليس كذلك .

وإن ظن المريض أنه طبيب ، وأذن له في طبه لأجل معرفته ــ ضمن الطبيبُ ما جنت يده . وكذلك إنْ وصَف له دواءً يستعمله ، والعليل يظن أنه وصفه لمعرفته وحِذْقه فتلف به ــ ضمنه . والحديث ظاهر فيه أو صريح .

فصل

القسم الثالث : طبيب حاذق أُذِنَ له ، وأعطى الصنعة حقها ، لكنه أخطأت يده ، وتعدت إلى عضو صحيح فأتلفه ، مثل : أنْ سبقت يد الخاتن إلى الكَمَرة(٥٠٢) ، فهذا

---

(٥٠١) في الزاد « تخالف » .

(٥٠٢) الكَمَرَة : رأس الذكر .

يضمن ، لأنها جناية خطإٍ ، ثم إن كانت الثُّلث فما زاد فهو على عاقِلَتِه . فإن لم تكن[٥٠٣] عاقلة ، فهل تكون الدِّية في ماله ؟ أو في بيت المال ؟ على قولَين هما روايتان عن أحمد .

وقيل : إن كان الطبيب ذِمّيًّا ففي ماله ، وإن كان مسلماً ففيه الروايتان .

فإن لم يكن بيت المال ، أو تعذَّر تحميله فهل تسقط الدِّية ؟ أو تجب في مال الجاني ؟ فيه وجهان ، أشهرهما : سقوطُها .

فصل

القسم الرابع : الطبيب الحاذق الماهر بصناعته ، اجتهد فوصف للمريض دواء ، فأخطأ في اجتهاده فقتله ، فهذا يُخَرَّجُ على روايتين : **إحداهما** : أن دية المريض في بيت المال . **والثانية** : أنها على عاقلة الطبيب . وقد نص عليهما الإمام أحمد في خطإ الإمام والحاكم .

فصل

القسم الخامس : طبيب حاذق أعطى الصنعةَ حقها ، فقطع سِلْعةً ، من رجل أو صبي أو مجنون ، بغير إذنه أو إذن وليِّه ، أو ختَن صبياً بغير إذن وليِّه ، فتلف ، فقال بعض أصحابنا : يضمن ، لأنه تولَّد من فعلٍ غير مأذون فيه . وإن أذن له البالغ أو وليُّ الصبي والمجنون لم يضمن ، ويحتمل أن لا يضمن مطلقاً ، لأنه محسنٌ ، وما على المحسنين من سبيلٍ . وأيضاً فإنه إن كان متعدِّياً فلا أثر لإذن الوليّ في إسقاط الضمان ، وإن لم يكن متعدِّياً فلا وجه لضمانه .

فإن قلت : هو متعدٍّ عند عدم الإذن ، غير متعدٍّ عند الإذن ، قلت : العدوان وعدمه إنما يرجع إلى فعله هو ، فلا أثر للإذن وعدمه فيه . وهذا موضع نظر .

---

(٥٠٣) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « يكن » .

فصل

والطبيب – في هذا الحديث – يتناول من يطبُّ بوصفه وقوله ، وهو الذي يُخَصُّ باسم الطبائعي ، وبمِرْوَدِهِ ، وهو الكحَّال ، وبمبضعه ومراهمه ، وهو الجرائحيُّ ، وبموساه ، وهو الخاتن ، وبريشته ، وهو الفاصد ، وبمحاجمه ومِشرطه ، وهو الحَجّام ، وبخلعه ووصله ورباطه ، وهو المجبِّر ، وبمكواته وناره ، وهو الكوَّاء . وبقربته ، وهو الحاقن . وسواءٌ كان طبه لحيوان بهيم أو إنسان ، فاسم الطبيب يطلق لغةً على هؤلاء كلهم ، كما تقدم ، وتخصيص الناس له ببعض أنواع الأطباء ، عُرْفٌ حادث ، كتخصيص لفظ الدابة بما يخصُّها به كل قوم .

فصل

والطبيب الحاذق هو : الذي يراعي في علاجه عشرين أمرًا :

أحدها : النظر في نوع المرض ، من أي الأمراض هو ؟.

الثاني : النظر في سببه ، من أي شيء حدث ؟ والعلةُ الفاعلة التي كانت سبب حدوثه ، ما هي ؟ .

الثالث : قوة المريض ، وهل هي مقاومة للمرض ، أو أضعف منه ، فإن كانت مقاومةً للمرض مستظهرة عليه تركها والمرضَ ، ولم يحركْ بالدواء ساكناً .

الرابع : مِزاجُ البدن الطبيعي ما هو ؟ . **الخامس** : المزاجُ الحادث على غير المجرى الطبيعي . **السادس** : سنُّ المريض . **السابع** : عادته . **الثامن** : الوقت الحاضر من فصول السنة ، وما يليق به . **التاسع** : بلدُ المريض وتربتُه . **العاشر** : حال الهواء في وقت المرض . **الحادي عشر** : النظر في الدواء المضادِّ لتلك العلة .

الثاني عشر : النظرُ في قوة الدواء ودرجته ، والموازنة بينها وبين قوة المريض .

الثالث عشر : أن لا يكون كلُّ قصده إزالةَ تلك العلة فقط ، بل إزالتها على وجهٍ يأمن معه حدوثِ أصعب منها . فمتى كان إزالتُها لا يؤمن معها حدوث علةٍ أخرى أصعب منها ، أبقاها على حالها ، وتلطيفُها هو الواجب . وهذا كمرض أفواه العروق ، فإنه متى عُولج بقطعه وحبسه ، خِيف حدوث ما هو أصعبُ منه .

الرابع عشر : أن يعالج بالأسهل فالأسهل ، فلا ينتقل من العلاج بالغذاء إلى الدواء ، إلا عند تعذُّره ، ولا ينتقل إلى الدواء المركب ، إلا عند تعذُّرِ الدواء البسيط . فمن حِذق الطبيب[٥٠٤] ، علاجه بالأغذية بدل الأدوية ، وبالأدوية البسيطة بدل المركبة .

الخامس عشر : أن ينظر في العلة ، هل هي مما يمكن علاجُها ، أولا ؟ فإن لم يمكن علاجُها حفظ صناعته وحُرمته ، ولا يحمله الطمع على علاج لا يفيد شيئاً .

وإن أمكن علاجها ، نظر : هل يمكن زوالها ، أم لا ؟ فإن علم أنه لا يمكن زوالها ، نظر : هل يمكن تخفيفُها وتقليلُها ، أم لا ؟ فإن لم يمكن تقليلها ، ورأى أن غاية الإمكان إيقافُها وقطع زيادتها ــ قصد بالعلاج ذلك ، وأعان القوة ، وأضعف المادة .

السادس عشر : أن لا يتعرض للخلط قبل نضجه باستفراغ ، بل يقصد إنضاجه ، فإذا تم نضجُه بادر إلى استفراغه .

السابع عشر : أن يكون له خبرة باعتلال القلوب والأرواح وأدويتها ؛ وذلك أصل عظيم في علاج الأبدان ، فإن انفعال البدن وطبيعته عن النفس والقلب أمرٌ مشهود ، والطبيب إذا كان عارفاً بأمراض القلب والروح وعلاجهما ، كان هو الطبيب الكامل ، والذى لا خبرة له بذلك ــ وإن كان حاذقاً في علاج الطبيعة وأحوال البدن ــ نصفُ طبيب ، وكلُّ طبيب لا يداوي العليل بتفقُّد قلبه وصلاحه ، وتقويةِ أرواحه وقُواه بالصدقة وفعل الخير والإحسان ، والإقبال على الله والدار الآخرة ــ فليس بطبيب ، بل متطَبِّبٌ قاصر . ومن أعظم علاجات المرض فعل الخير والإحسان ، والذكر والدعاء ، والتضرع والابتهال إلى الله ، والتوبة . ولهذه الأمور تأثير في دفع العلل وحصول الشفاء ، أعظمُ من الأدوية الطبيعية ، ولكن بحسب استعداد النفس وقبولها ، وعقيدتِها في ذلك ونفعه .

الثامن عشر : التلطف بالمريض والرفق به ، كالتلطف بالصبى .

التاسع عشر : أن يستعمل أنواع العلاجات الطبيعية والإلهية ، والعلاج بالتخييل ،

---

(٥٠٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « سعادة الطبيب » .

فإن لحذاق الأطباء في التخييل أمورًا عجيبة لا يصل إليها الدواء ، فالطبيب الحاذق يستعين على المرض بكل مُعين .

العشرون : وهو ملاك أمر الطبيب ــ أنْ يجعل علاجه وتدبيره دائرًا على ستة أركان(٥٠٥) : حفظ الصحة الموجودة ، وردُّ الصحة المفقودة بحسب الإمكان ، وإزالة العلة أو تقليلها بحسب الإمكان ، واحتمال أدنى المفسدتَيْن لإزالة أعظمهما ، وتفويت أدنى المصلحَتَيْن أعظمهما ، فعلى هذه الأصول الستة مدارُ العلاج . وكل طبيب لا تكون هذه أخِيَّته(٥٠٦) التي يرجع إليها ، فليس بطبيب . والله أعلم .

فصل

ولما كان للمرض أربعة أحوال : ابتداء وصعودٌ وانتهاءٌ وانحطاطٌ ، تعين على الطبيب مراعاة كل حال من أحوال المرض بما يناسبها ويليق بها ، ويستعمل في كل حال ما يجب استعماله فيها ، فإذا رأي في ابتداء المرض أن الطبيعة محتاجة إلى ما يحرك الفضلات ويستفرغها لنضجها ، بادر إليه ، فإن فاته تحريك الطبيعة في ابتداء المرض ــ لعائق منع من ذلك ، أو لضعف القوة وعدم احتمالها للاستفراغ ، أو لبرودة الفصل ، أو لتفريط وقع ــ فينبغي أن يحذر كل الحذر أن يفعل ذلك في صعود المرض ، لأنه إن فعله تحيرت الطبيعة لاشتغالها بالدواء ، وتخلت عن تدبير المرض ومقاومته بالكلية ، ومثاله : أن يجيءَ إلى فارس مشغول بمواقعة عدوه ، فيشغله عنه بأمر آخر ، ولكن الواجب في هذه الحال أن يعين الطبيعة على حفظ القوة ما أمكنه .

فإذا انتهى المرض ووقف وسكن ، أخذ في استفراغه واستئصال أسبابه ، فإذا أخذ في الانحطاط كان أولى بذلك ، ومثال هذا مثال العدو إذا انتهت قوته ، وفرغ سلاحه ، كان أخذه سهلاً ، فإذا ولَّى وأخذ في الهرب كان أسهل أخذًا . وحدته وشوكته إنما هي في ابتدائه وحال استفراغه ، وسعة قوته . فهكذا الداء والدواء سواء .

---

(٥٠٥) هكذا في الزاد ، وفي سائر النسخ ، وما ذُكِر فيها سوى خمسة أركان ، وليس ستة كما ذكر المصنف رحمه الله .

(٥٠٦) الأخِيَّة : الحُرْمَةُ والذِّمَّة .

فصل

ومن حذق الطبيب أنه حيث أمكن التدبير بالأسهل ، فلا يعدل إلى الأصعب ، ويتدرج من الأضعف إلى الأقوى ، إلّا أن يخاف فوت القوة حينئذ ، فيجب أن يبتدئ بالأقوى . ولا يقيم في المعالجة على حال واحدة ، فتألفها الطبيعة ويقلّ انفعالها عنه ، ولا تجسر على الأدوية القوية في الفصول القوية ، وقد تقدم أنه إذا أمكنه العلاج بالغذاء ، فلا يعالج بالدواء ، وإذا أشكل عليه المرض أحارٌّ هو أم بارد ؟ فلا يقدم حتى يتبين له ، ولا يجربه بما يخاف عاقبته ، ولا بأس بتجربته بما لا يضر أثره .

وإذا اجتمعت أمراض بدأ بما تخصه واحدة من ثلاث خصال . **إحداها**(٥٠٧) : أن يكون برء الآخر موقوفاً على برئه ، كالورم والقرحة ، فإنه يبدأ بالورم .

الثانية(٥٠٨) : أن يكون أحدهما سبباً للآخر ، كالسّدة والحمى العفنة ، فإنه يبدأ بإزالة السبب .

الثالثة(٥٠٩) : ان يكون أحدهما أهم من الآخر ، كالحاد والمزمن ، فيبدأ بالحاد ، ومع هذا فلا يغفل عن الآخر .

وإذا اجتمع المرض والعرض بدأ بالمرض ، إلا أن يكون العرض أقوى كالقولنج ، فيسكن الوجع أولاً ، ثم يعالج السدة . وإذا أمكنه أن يعتاض عن المعالجة بالاستفراغ ، بالجوع أو الصوم أو النوم ، لم يستفرغه ، وكل صحة أراد حفظها ، حفظها بالمثل أو الشبه ، وإن أراد نقلها إلى ما هو أفضل منها ، نقلها بالضد .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي التَّحَرُّزِ مِنَ الأَدْوَاءِ المُعْدِيَةِ بِطَبْعِهَا، وَإِرْشَادِ الأَصِحَّاءِ إِلَى مُجَانَبَةِ أَهْلِهَا

ثبت في صحيح مسلم ــ من حديث جابر بن عبد الله ــ « أنه كان في وفد ثَقِيف رجل مجذومٌ ، فأرسل إليه النبيُّ ﷺ : ارجعْ فقد بايعناك »(٥١٠) .

---

(٥٠٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « أحدها » .

(٥٠٨) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « الثانى » .

(٥٠٩) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « الثالث » .

(٥١٠) أخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب اجتناب المجذوم ونحوه ، عن عمرو بن الشريد عن أبيه [ج ١٤ ، ص ٢٢٨ بشرح النووى] وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب الجذام [ج ٢ ص ١١٧٢] .

وروى البخاري في صحيحه تعليقاً ـــ من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ـــ أنه قال : « فِرَّ مِنَ المَجْذوم ، كما تَفِرُّ من الأسد »(٥١١) .

وفي سنن ابن ماجه ، من حديث ابن عباس ، أن النبي ﷺ قال : « لا تُدِيمُوا النَّظَرَ إلى المَجْذُومِين »(٥١٢) .

وفي الصحيحين ، من حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ »(٥١٣) .

ويُذكر عنه ﷺ : « كلِّم المجذوم وبينك وبينه قِيدُ رُمْحٍ أو رمحين »(٥١٤) .

الجذام(٥١٥) : علة رديئة تحدث من انتشار المِرَّة السوداء في البدن كله ، فيفسد مزاج الأعضاء وهيئتها وشكلها ، وربما فسد في آخره أوصالها(٥١٦) حتى تتأكَّل الأعضاء

---

(٥١١) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب الجُذام [ج ١٠ ص ١٥٨ من فتح البارى] .

(٥١٢) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب الجذام [ج ٢ ص ١١٧٢] وفى الزوائد : رجال إسناده ثقات .

(٥١٣) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب لا هامة ، وباب لا عدوى [ج ١٠ ص ٢٤١ ، ٢٤٢ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صَفَر [ج ١٤ ص ٢١٥ ، ٢١٦ بشرح النووى] ومعنى الحديث كما جاء فى صحيح مسلم : لا يورد صاحب الإبل المِرَاض إبلَهُ على إبل صاحب الإبل الصحاح ، لأنه ربما أصابها المَرض بفعل الله وقدره الذى أجرى به العادة ، لا بطبعها ،فيحصل لصاحبها ضرر بمرضها .

(٥١٤) فى مجمع الزوائد : عن على بن أبى طالب ، عن النبى (ص) قال :
« لا تديموا النظر إلى المجذومين ، وإذا كَلَّمتموهم فليكن بينكم وبينهم قِيد رُمح » . رواه عبد الله بن أحمد ، وفيه الفرج بن فضالة ، وثَّقَهُ أحمد وغيره ، وضَعَّفَهُ النَّسائى وغيره .[ج ٥ ص ١٠٣ ، ١٠٤] .

(٥١٥) الجذام : مرضٌ مُعْدٍ مُزْمِن ، يتسبب من عَدْوَى بميكروب يُسمى : باسيل الجذام ، والجذام نوعان : دَرَنِى ، وعصبى ، يَتَمَيَّزُ الأول بأورام صغيرة على الجسم ، وبخاصة على الوجه ، وقد يشمل الأغشية المخاطية المبطنة للمسالك التنفسية العليا ، من أنف وحلق وحنجرة . ويَتَمَيَّزُ الثانى بظهور بقع على سطح الجلد ، لونها أفتح من لون بشرة الجلد المريض ، وتتميز هذه البقع بفقدانها لحاستى اللمس والألم ، فإذا لُمِسَتْ أو غُزِّتْ بمادَّة حادَّة أو ساخنة لم يشعر المريض بشىء . وكلما أُزْمِنَ المرض بالجذام الدرنى انتشرت الدرنات وتجمد الجلد وتضخم ، وإذا كان المرض من النوع العصبى ، فإن الأجزاء التى تغذيها الأعصاب المصابة بالمرض يصيبها ضمور ينتج عنه تشويه ، تختلف صورته ودرجته حسب مُدَّة المَرض وموضع الإصابة . وتنتقل العَدْوى عن طريق المخالطة الوثيقة بالمَرْضَى ، ودخول الميكروبات الجسم ، سواء عن طريق جرح أو خَدْش فى الجلد ، أو بواسطة الغشاء المبطن للأنف .

(٥١٦) فى الزاد « اتصالها » .

وتسقط . ويسمى : داء الأسد . وفي هذه التسمية ثلاثة أقوال للأطباء : **أحدها** : أنها لكثرة ما تعتري[٥١٧] الأسد . **والثاني** : لأن هذه العلة تُجَهِّمُ وجه صاحبها ، وتجعله في سحنة الأسد . **والثالث** : أنه يفترس من يقرُبه أو يدنو منه بدائه ، افتراسَ الأسد .

وهذه العلة — عند الأطباء — من العلل المعدية المتوارثة . ومقاربُ المجذوم وصاحب السل ، يسقَمُ برائحته . فالنبي ﷺ — لكمال شفقته على الأمة ونصحه لهم — نهاهم عن الأسباب التي تعرضهم لوصول العيب والفساد إلى أجسامهم وقلوبهم . ولا ريب أنه قد يكون في البدن تهيُّؤ واستعداد كامن لقبول هذا الداء ؛ وقد تكون الطبيعة سريعة الانفعال ، قابلةً للاكتساب من أبدان من تجاوره وتخالطه ، فإنها نقالة ، وقد يكون خوفها من ذلك ووهمها ، من أكثر[٥١٨] أسباب إصابة تلك العلة لها ، فإن الوهم فعال مستَوْلٍ على القوى والطبائع ، وقد تصل رائحة العليل إلى الصحيح ، فتُسقمه ، وهذا مُعَايَنٌ في بعض الأمراض ، والرائحة أحد أسباب العدوى ، ومع هذا كله ، فلابد من وجود استعداد البدن وقبوله لذلك الداء ، وقد تزوج النبي ﷺ امرأةً ، فلما أراد الدخول بها وجَد بكَشْحِها بياضاً ، فقال : « اَلْحَقِي بأهلِك » .

وقد ظن طائفة من الناس أن هذه الأحاديثَ مُعَارَضَةٌ بأحاديثَ أخرَ تُبطلها وتناقضها . فمنها ما رواه الترمذي — من حديث جابر[٥١٩] : « أن رسول الله ﷺ ، أخذ بيَدِ رجل مجذومٍ ، فأدخلها معه في القصعة ، وقال : كلْ باسم الله ، ثقةً بالله ، وتوكلاً عليه »[٥٢٠] . ورواه ابن ماجه ، [من حديث جابر بن عبد الله][٥٢١] . وبما ثبت في الصحيح — عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ — أنه قال : « لا عَدْوَى ، ولا طيَرَةَ » .

---

(٥١٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « يعترى » .

(٥١٨) فى الزاد « من أكبر » .

(٥١٩) هكذا فى الزاد ، وهو مطابق لما جاء فى صحيح الترمذى ، وفى سنن ابن ماجه وسنن أبى داود . أمّا ما جاء فى النسخ المطبوعة « من حديث عبد الله بن عمر » فهو خطأ .

(٥٢٠) أخرجه الترمذى فى كتاب الأطعمة ، باب ما جاء فى الأكل مع المجذوم [ج ٨ ص ١٠ ، ١١] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب الجذام [ج ٢ ص ١١٧٢] . وأخرجه أبو داود فى آخر كتاب الطب ، باب الطيرة [ج ٤ ص ٢٠] .

(٥٢١) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

ونحن نقول : لا تعارض — بحمد الله — بين أحاديثه الصحيحة ، فإذا وقع التعارض : فإما أن يكون أحد الحديثين ليس من كلامه ﷺ ، وقد غَلِطَ فيه بعض الرواة مع كونه ثقةً ثَبتاً ، فالثقة يَغْلَطُ أو يكونُ أحدُ الحديثين ناسخاً للآخر ، إذا[522] كان مِمّا يَقْبَلُ النَّسْخَ أو التعارض في فهم السامع ، لا في نفس كلامه ﷺ ، فلابد من وجه من هذه الوجوه الثلاثة ، وإما حديثان صحيحان صريحان ، متناقضان من كل وجه ، ليس أحدهما ناسخاً للآخر — فهذا لا يوجد أصلا ، ومعاذ الله أن يوجد فى كلام الصادق المصدوق ، الذي لا يخرج من بين شفتيه إلا الحقُّ ، والآفة من التقصير في معرفة المنقول ، والتمييز بين صحيحه ومعلوله ، أو من القصور في فهم مراده — ﷺ — وحمل كلامه على غير ما عناه به ، أو منهما معاً ، ومن ها هنا وقع من الاختلاف والفساد ما وقع . وبالله التوفيق .

قال ابن قتيبة[523] في كتاب « اختلاف الحديث » له — حكايةً عن أعداء الحديث وأهله — « قالوا : حديثان متناقضان ، رويتم عن النبي ﷺ ، أنه قال : لا عَدْوَى ولا طِيَرةَ . وقيل له : إن النُّقْبة تقع بِمشْفَرِ البعيرِ فيجرب لذلك الإبلُ ، قال : فما أعدَى الأولَ .؟ ثم رويتم : لا يُوردُ ذو عاهة على مُصِحّ ؛ وفِرَّ من المجذومِ فِرارَك من الأسد ، وأتاه رجل مجذوم ليُبايِعه على الإسلام[524] ، فأرسل إليه البَيْعةَ ، وأمَرَه بالانصراف ولم يأذن له . وقال : الشُّؤْمُ في المرأة والدارِ والدابةِ ، قالوا : وهذا كله مختلِفٌ لا يُشبه بعضُه بعضاً ، قال أبو محمد : ونحن نقول : إنه ليس فى هذا اختلاف ، ولكل معنى منها وقتٌ وموضع ، فإذا وُضع موضعَه زال الاختلاف » .

والعدوى جنسان : **أحدهما** : عدوى الجذام ، فإن المجذوم تشتد رائحته حتى يُسْقِمَ مَنْ أطالَ مُجالسَته ومُحادثته ، وكذلك المرأةُ تكون تحت المَجْذُوم ، فتضاجعه في شِعار واحد ، فيوصل إليها الأذى ، وربما جُذِمَتْ ، وكذلك ولدُه يَنزِعون في الكبر إليه ،

---

(٥٢٢) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « فإذا » .

(٥٢٣) هو : عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى : عَلَمٌ من أعلام الإسلام ، وإمام حُجّة من أئمة أهل العلم . له تصانيف كثيرة مشهورة منها : غريب القرآن ، وغريب الحديث ، وعيون الأخبار ، والمعارف وغيرها . وُلِدَ سنة ٢١٣ هـ وتوفى — رحمه الله — سنة ٢٧٦ هـ . [انظر ترجمته فى : تاريخ بغداد (ج ١٠ ص ١٧٠ — ١٧١) وسير أعلام النبلاء (ج ٣ ص ٢٩٦ — ٢٩٧) وميزان الاعتدال ج ٢ ص ٥٠٣]

(٥٢٤) فى الزاد « ليبايعه بيعة الإسلام » .

وكذلك من كان به سُلٌّ ودِقٌّ ونُقْبٌ ، والأطباء تأمر أنْ لا يُجالَسَ المَسْلُولُ ولا المجذومُ ؛ ولا يريدون بذلك معنى العدوى ، وإنما يريدون به معنى تغيُّرِ الرائحة ، وأنها قد تُسْقِمُ من أطال اشتمامَها ، والأطباء أبعد الناس عن الإيمان بيُمْن وشؤم ، وكذلك النُّقْبَةُ تكون بالبعير ــ وهو جَرَبٌ رَطب ــ فإذا خالط الإبلَ أو حاكَّها وأَوَى في مَباركها ، وصل إليها بالماء الذي يَسيل منه وبالنَّطف ، نحو ما به ، فهذا هو المعنى الذي قال فيه النبي ﷺ : لا يوردُ ذو عاهة على مُصِح ، كره أن يُخالط المَعْيُوه[٥٢٥] الصحيحَ لئلا ينالَه من نَطَفه وحِكَّته نحو ما به[٥٢٦] . قال : وأما الجنسُ الآخر من العدوى ، فهو الطاعون ينزل ببلد ، فيخرج منه خوفَ العدوى . وقد قال ﷺ : « إذا وقَع ببلدٍ وأنتم به ، فلا تخرُجوا منه ، وإذا كان ببلد فلا تدخلوه » ، يريد بقوله : لا تخرجوا من البلد إذا كان فيه ، كأنكم تظنون أن الفِرار من قدَر الله يُنجيكم من الله ، ويريد [بقوله : و][٥٢٧] إذا كان ببلد فلا تدخلوه ، أنَّ[٥٢٨] مُقَامَكم في الموضع الذي لا طاعون فيه ، أسْكَنُ لقلوبكم ، وأطيبُ لعيشكم . ومن ذلك المرأةُ تعرف بالشؤم أو الدارُ ، فينال الرجلَ مكروهٌ أو جائحةٌ ، فيقول : أَعْدَتْني بشؤمها ، فهذا هو العدوى الذى قال فيه رسول الله ﷺ : « لا عدوى » .

وقالت فرقة أخرى : بل الأمرُ باجتناب المجذوم والفِرار منه على الاستحباب والاختيار والإرشاد ، وأما الأكل معه ، ففعله لبيان الجواز ، وأن هذا ليس بحرام .

وقالت فرقة أخرى : بل الخطابُ بهذين الخطابين جزئيٌّ لا كليٌّ ، فكلُّ واحد خاطبه النبي ﷺ بما يليق بحاله ، فبعضُ الناس يكون قويَّ الإيمان قويَّ التوكل ، يدفع قوةُ تَوَكُّلِهِ قُوَّةَ العَدْوَى ، كما تدفع قوةُ الطبيعة قوةَ العلة ، فتُبْطلها ، وبعضُ الناس لا يَقوى على ذلك ، فخاطبه بالاحتياط والأخذ بالتحفظ ، وكذلك هو ﷺ فَعل الحالتين معاً ، لتقتدي به الأمةُ فيهما ، فيأخذ من قَوِيَ من أمته بطريقة التوكل [والقوة][٥٢٩] والثقة بالله ، ويأخذ مَنْ ضَعُف منهم بطريقة التحفظ والاحتياط ، وهما طريقان صحيحان ،

---

(٥٢٥) المَعْيُوه : المريض .

(٥٢٦) فى الزاد « مما به » . ونَطَفه : فساده .

(٥٢٧) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٥٢٨) فى الزاد « أنّ » .

(٥٢٩) ما بين المعقوفتين عن الزاد .

أحدهما للمؤمن القوي ، والآخر للمؤمن الضعيف ، فتكون لكل واحد من الطائفتين حجةٌ وقدوةٌ بحسب حالهم وما يناسبهم ، وهذا كما أنه ﷺ كَوى ، وأثنى على تاركِ الكيّ ، وقَرَن تَرْكَهُ بالتوكُّل وتَرْك الطِّيرة ، ولهذا نظائرُ كثيرة ، وهذه طريقة لطيفةٌ حسنة جدًّا ، من أعطاها حقَّها ، ورُزق فقْه نفسه(٥٢٠) فيها أزالت عنه تعارضاً كثيرًا يظنه بالسُّنَّةِ الصَّحِيحة .

وذهبت فرقة أخرى إلى أن الأمر بالفِرار منه ومجانبته ، لأمر طبيعي ، وهو انتقال الداء منه بواسطة الملامسة والمخالطة والرائحة ، إلى الصحيح ، وهذا يكون مع تكرير المخالطة والملامسة له ، وأما أكلُه معه مقدارًا يسيرًا من الزمان ، لمصلحة راجحة ، فلا بأس به ، ولاتحصُل العَدْوَى من مرة واحدة ولحظة واحدة ، فنهى سدًّا للذَّريعة ، وحمايةً للصحة ، وخالطه مخالطةً مّا ، للحاجة والمصلحة ، فلا تعارض بين الأمرين .

وقالت طائفة أخرى : يجوز أن يكون هذا المجذومُ الذي أكل معه ، بِهِ مِنَ الجُذام أمرٌ يسير لا يُعْدِي مثله ، وليس الْجَذْمَى كلهم سواءً ، ولا العدوى حاصلة من جميعهم ، بل منهم من لا تضرُّ مخالطته ولا تُعدي ، وهو من أصابه من ذلك شيء يسير ، ثم وقف واستمر على حاله ، ولم يُعْدِ بَقِيَّةَ جسمه ، فهو أن لا يُعديَ غيره أَوْلَى وأَحْرَى .

وقالت فرقة أخرى : إن الجاهلية كانت تعتقد أن الأمراض المعدية تعدي بطبعها ، من غير إضافة إلى الله سبحانه ، فأبطل النبي ﷺ اعتقادهم ذلك ، وأكل مع المجذوم ليبينَ لهم أن الله سبحانه هو الذي يُمْرِضُ ويَشْفِي . ونهى عن القرب منه ليتبينَ لهم أن هذه الأسباب التي جعلها الله مُفضية إلى مسبباتها ، ففي نهيه إثباتُ الأسباب ، وفي فعله بيان أنها لا تستقِلّ بشيء ، بل الربُّ سبحانه إن شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئاً ، وإن شاء أبقى عليها قواها فأثَّرت .

وقالت فرقة أخرى : بل هذه الأحاديث فيها الناسخ والمنسوخ ، فَيُنْظَرُ في تاريخها ، فإن عُلِمَ المتأخر منها حُكِمَ بأنه الناسخ ، وإلا توقفنا فيها .

وقالت فرقة أخرى : بل بعضُها محفوظ ، وبعضها غير محفوظ ، وتكلمت في حديث « لا عدوَى » وقالت : قد كان أبو هريرة يرويه أوّلاً ، ثُم شَكَّ فيه فتركه ، وراجعوه

(٥٢٠) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « نفْس » .

فيه ، وقالوا له : سمعناك تُحَدِّثَ [به][٥٣١] ؛ فأَبَى أن يُحَدِّثَ به . قال أبو سلمة : فلا أدري أنسيَ أبو هريرة ؟ أم نَسَخَ أحدُ الحديثين الآخر ؟ وأما حديث جابر : « أن النبي ﷺ أخذ بيدِ مجذوم ، فأدخلها معه في القصعة » ؛ فحديثٌ لا يثبت ولا يَصِحُّ ، وغاية ما قال فيه الترمذي أنه غريب لم يصحِّحْه ، ولم يحسِّنه ، وقد قال شعبة وغيره : اتقوا هذه الغرائب ، قال الترمذي : ويُروي هذا مِنْ فعل عمر ؛ وهو أثبت . فهذا شأن هذين الحديثين اللذين عُورِضَ بهما أحاديث النهي ــ أحدهما : رجع أبو هريرة عن التحديث به وأنكره ، والثاني : لا يَصِحُّ عن رسول الله ﷺ . والله أعلم .

وقد أشبعنا الكلام في هذه المسألة ، في كتاب المفتاح[٥٣٢] ، بأطولَ من هذا . وبالله التوفيق .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في المَنْعِ مِنَ التَّدَاوِي بالمُحَرَّمَاتِ

روى أبو داود في سننه ــ من حديث أبي الدرداء [رضي الله عنه][٥٣٣] قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله أنْزَلَ الدَّاء والدَّوَاءَ ، وجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً ، فَتَداوَوْا ، ولا تَدَاوَوْا بالمُحَرَّم »[٥٣٤] .

وذكر البخاري في صحيحه ، عن ابن مسعود : « إنَّ اللهَ لم يَجْعَلْ شِفَاءَكُمْ فيما حُرِّم عَلَيْكُم »[٥٣٥] .

وفي السنن ، عن أبي هريرة ، قال : « نهى رسول الله ﷺ عن الدواء الخبيث »[٥٣٦] .

---

(٥٣١) ما بين المعقوفتين عن الزاد .

(٥٣٢) يعني به كتابه « مفتاح دار السعادة » .

(٥٣٣) ما بين المعقوفتين عن الزاد .

(٥٣٤) أخرجه أبو داود في كتاب الطب ، باب في الأدوية المكروهة [ج ٤ ص ٧] .

(٥٣٥) أخرجه البخارى فى كتاب الأشربة ، باب شراب الحلواء والعسل [ج ١٠ ص ٧٨ من فتح البارى] .

(٥٣٦) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب النهى عن الدواء الخبيث [ج ٢ ص ١١٤٥] . وأخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب فى الأدوية المكروهة [ج ٤ ص ٦ ، ٧] . وأخرجه أيضاً الترمذى فى الطب ، باب ما جاء فيمَنْ قتل نفسه بِسُمٍّ أو غيره [ج ٨ ص ١٩٩] .

وفي صحيح مسلم ، عن طارق بن سُوَيْد الجُعْفيِّ : « أنه سأل النبي ﷺ عن الخمر ، فنهاه أو كَرِه أن يصنعها . فقال : إنما أصنعها للدَّواء ، فقال : إنه ليس بدواءٍ ، ولكنه داءٌ »[٥٣٧] .

وفي السنن : « أنه ﷺ ، سُئِل عن الخمر : يجعلُ في الدواء ، فقال : إنها داءٌ ، وليست بالدواءِ » . رواه أبو داودَ والترمذي[٥٣٨] .

وفي صحيح مسلم ، عن طارق بن سُوَيد الحضرميِّ ، قال : « قلت : يا رسول الله ، إنَّ بأرضنا أعناباً نَعتصرُها ، فنشرب منها ؟ قال : لا . فراجعتُه ، قلتُ : إنَّا نستشفي للمريض . قال : إن ذلك ليس بشفاءٍ ، ولكنه داء »[٥٣٩] .

وفي سنن النسائي : « أن طبيباً ذَكر ضِفدِعاً في دواءٍ عند رسول الله ﷺ ، فنهاه عن قتلها »[٥٤٠] .

ويذكر عنه ﷺ ، أنه قال : « من تداوى بالخمر فلا شفاه الله » .

المعالجة بالمحرَّمات قبيحةٌ عقلاً وشرعاً ، أمَّا الشرعُ ، فما ذكرْنا من هذه الأحاديثِ وغيرها .

وأمَّا العقلُ ، فهو أن الله سبحانه إنما حرمه لخُبثه ، فإنه لم يُحرم على هذه الأمة طيِّباً عقوبةً لها ، كما حرمه على بني إسرائيلَ بقوله : ﴿ **فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ** ﴾[٥٤١] وإنما حرم على هذه الأمة ما حرَّم لخبثه ، وتحريمُه له حمية لهم ، وصيانة عن تناوله . فلا يناسب أن يُطْلَبَ به الشفاءُ من الأسقام والعلل ؛ فإنه وإن

---

(٥٣٧) أخرجه مسلم فى كتاب الأشربة ، باب تحريم التداوى بالخمر [ج ١٣ ص ١٥٢ بشرح النووى] .

(٥٣٨) أخرجه أبو دواد فى كتاب الطب ، باب فى الأدوية المكروهة ، بلفظ مختلف . [ج ٤ ص ٧] . وأخرجه الترمذى فى الطب ، باب ما جاء فى كراهية التداوى بالمسكر [ج ٨ ص ١٩٩ – ٢٠٢] .

(٥٣٩) لم يرد هذا الحديث فى صحيح مسلم بهذا اللفظ ، بل وَرَدَ الحديث – قبل السابق – عن طارق بن سويد الجعفى . وأخرج ابن ماجه هذا الحديث فى كتاب الطب ، باب النهى أنْ يتداوى بالخمر [ج ٢ ص ١١٥٧] .

(٥٤٠) أخرجه النسائى فى كتاب الصيد ، باب الضفدع [ج ٧ ص ٢١٠] وأخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب فى الأدوية المكروهة [ج ٤ ص ٧] .

(٥٤١) سورة النساء – الآية ١٦٠

أثر في إزالتها ، لكنه يُعقب سَقَماً أعظمَ منه في القلب ، بقوة الخبث الذي فيه ، فيكون المداوى به قد سعى في إزالة سُقم البدن ، بسقم القلب .

وأيضا : فإن تحريمه يقتضي تجنُّبه والبعد عنه بكل طريق ، وفي اتخاذه دواءً حضٌّ على الترغيب فيه وملابسته . وهذا ضد مقصود الشارع .

وأيضاً : فإنه داء كما نص عليه صاحب الشريعة ؛ فلا يجوز أن يُتخذ دواءً .

وأيضاً : فإنه يُكسب الطبيعةَ والروح صفةَ الخبث ، لأن الطبيعة تنفعل عن كيفية الدواء انفعالًا بيِّناً . فإذا كانت كيفيته خبيثة ، اكتسبت الطبيعةُ منه خبثاً ؛ فكيف إذا كان خبيثاً في ذاته ؟ ولهذا حرم الله سبحانه على عبادة الأغذيةَ والأشربة والملابس الخبيثة ، لما تكتسب(٥٤٢) النفس من هيئة الخبث وصفته .

وأيضاً : فإن في إباحة التداوي به ، ولاسيَّما إذا كانت النفوس تميل إليه ، ذريعةً إلى تناوله للشهوة واللذة ، لاسيَّما إذا عرفت النفوس أنه نافع لها ، مزيلٌ لأسقامها ، جالبٌ لشفائها ، فهذا أحب شيء إليها ، والشارع سدَّ الذريعة إلى تناوله بكل ممكن ، ولا ريب أن بين سدِّ الذريعة إلى تناوله ، وفتح الذريعة إلى تناوله تناقضاً وتعارضاً .

وأيضا : فإن في هذا الدواء المحرَّم من الأدواء ، ما يزيد على ما يُظن فيه من الشفاء . وليُفرضْ(٥٤٣) الكلام في أم الخبائث التى ما جعل الله لنا فيها شفاء قط ، فإنها شديدة المضرة بالدماغ الذي هو مركز العقل عند الأطباء وكثير من الفقهاء والمتكلمين . قال أبقراط في أثناء كلامه في الأمراض الحادة : « ضرر الخمرة بالرأس شديد ، لأنه يسرع الارتفاع إليه ، ويرتفع بارتفاعه الأخلاط التي تعلو في البدن ، وهو لذلك(٥٤٤) يضر بالذهن » . وقال صاحب الكامل : « إن خاصيَّة الشراب الإضرارُ بالدماغ والعَصَب » .

وأمّا غيرُه من الأدوية المحرَّمة ، فنوعان :

أحدهما : تعافه النفس ، ولا تنبعث لمساعدته الطبيعةُ على دفع المرض ، كالسموم

---

(٥٤٢) فى الزاد « تكسب » .

(٥٤٣) فى الزاد « ولنفرض » .

(٥٤٤) فى الزاد « كذلك » .

ولحوم الأفاعي ، وغيرها من المُستَقْذرَات ، فيبقى كَلًّا على الطبيعة مثقلاً لها ، فيصير حينئذ داءً ، لا دواءً .

والثاني : مالا تَعافُه النفس ، كالشراب الذي تستعمله الحوامل مثلاً ، فهذا ضررُه أكثر من نفعه ، والعقل يقضي بتحريم ذلك ، فالعقل والفِطرةُ مطابقٌ للشرع في ذلك .

وها هنا سر لطيف في كون المحرمات لا يستشفى بها ، فإنَّ شرط الشفاء بالدواء ، تلقِّيه بالقبول واعتقاد منفعته ، وما جعل الله فيه من بركة الشفاء ، فإن النافع هو المبارَك ، وأنفع الأشياء أبركُها ، والمبارَكُ من الناس أينما كان هو الذي يُنتفَع به حيث حل . ومعلوم أن اعتقاد المسلم تحريم هذه العين ، مما يحول بينه وبين اعتقاد بركتها ومنفعتها وبين حسن ظنه بها ، وتلقِّي طبعِهِ لها بالقبول ، بل كلَّما كان العبد أعظمَ إيماناً كان أكرَهَ لها ، وأسوأ اعتقادًا فيها ؛ وطبعُه أكره شيء لها . فإذا تناولها في هذه الحال كانت داء له لا دواء ، إلا أن يزول اعتقادُ الخبث فيها ، وسوءُ الظن والكراهةُ لها بالمحبة ، وهذا ينافي الإيمانَ ، فلا يتناولها المؤمن قط إلا على وجه داء . والله أعلم .

فصل في هديه ﷺ في علاج القمل الذي في الرأس وإزالته

في الصحيحين عن كعب بن عُجْرةَ ، قال : « كان بي أذًى من رأسي ؛ فحُمِلْتُ إلى رسول الله ﷺ ــ والقَملُ يَتناثَرُ على وجهي ــ فقال : ما كنتُ أُرَى الجَهْدَ قد بَلَغ بكَ ما أُرى » ؛ وفي رواية : « فأمَرَه : أن يحلِقَ رأسَه ، وأن يُطعِمَ فَرَقاً بيْن ستةٍ ، أو يُهديَ شاة ، أو يصومَ ثلاثة أيامٍ »(٥٤٥) .

القمل يتولد في الرأس والبدن من شيئين : خارج عن البدن ، وداخلٍ فيه . فالخارجُ ، الوسخ والدنس المتراكم(٥٤٦) في سطح الجسد . والثاني ، من خلط رديء عفن ، تدفعه الطبيعة بين الجلد واللحم ، فيتعفن بالرطوبة الدموية في البشرة بعد

---

(٥٤٥) أخرجه البخارى فى كتاب المحصر ، باب الإطعام فى الفدية نصف صاع [ج ٤ ص ١٦ . من فتح البارى] وذكر أطراف هذا الحديث فى عشرة مواضع . وأخرجه مسلم فى كتاب الحج ، باب جواز حلق الرأس للمحرم [ج ٨ ص ١٢٠ بشرح النووى] .

(٥٤٦) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « المُرَكَّب » .

خروجها من المسام ، فيكون منه القمل ، وأكثر ما يكون ذلك بعد العلل والأسقام ، بسبب الأوساخ . وإنما كان في رؤوس الصبيان أكثر ، لكثرة رطوباتهم ، وتعاطيهم الأسبابَ التي تولد القمل ، ولذلك حلَق النبي ﷺ رؤوسَ بني جعفر ، ومن أكبر علاجه حَلْقُ الرأس لتنفتح[٥٤٧] مسامُّ الأبخرة ، فتتصاعد الأبخرة الرديئة ، فتضعف مادة الخلط . وينبغي أن يطلى الرأسُ بعد ذلك ، بالأدوية التي تقتل القمل وتمنع تولده .

وحلق الرأس ثلاثة أنواع : أحدها : نُسك وقُربة ، والثاني : بدعة وشرك ، والثالث : حاجة ودواء .

فالأول : الحلق في أحد النُّسُكين : الحجِّ أو العُمرة .

الثاني : حلق الرأس لغير الله سبحانه ، كما يحلقها المريدون لشيوخهم ، فيقول أحدهم : أنا حلقتُ رأسي لفلان ، وأنت حلقته لفلان ، وهذا بمنزلة أن يقول : سجدت لفلان . فإن حلْق الرأس خضوعٌ وعبودية وذل ، ولهذا كان من تمام الحج . حتى إنه عند الشافعي [رحمه الله][٥٤٨] ركنٌ من أركانه ، لا يتم إلا به . فإنه وضعُ النواصي بين يدي ربها ، خضوعاً لعظمته ، وتذللاً لعزته ، وهو من أبلغ أنواع العبودية ، ولهذا كانت العرب إذا أرادت إذلالَ الأسير منهم وعتقِه ، حلقوا رأسه وأطلقوه ، فجاء شيوخ الضلال والمزاحمون للربوبية ـــ الذين أساسُ مشيختهم على الشرك والبدعة ـــ فأرادوا من مريديهم أن يتعبدوا لهم ، فزينوا لهم حلْق رؤوسهم لهم كما زينوا لهم السجود لهم ، وسمُّوه بغير اسمه ، وقالوا : هو وضعُ الرأس بين يدي الشيخ ، ولعمرُ الله ، إن السجود لله هو وضعُ الرأس بين يديه سبحانه . وزينوا لهم أن يَنذِرُوا لهم ، ويتوبوا لهم ، ويحلفوا بأسمائهم ، وهذا هو اتخاذُهم أرباباً وآلهةً من دون الله . قال تعالى : ﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ ٱللهُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ : كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ ٱللهِ ، وَلٰكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ• وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا ٱلْمَلَائِكَةَ وَٱلنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ؛ أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ** ﴾[٥٤٩] .

---

(٥٤٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « لينفتح » .

(٥٤٨) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٥٤٩) سورة آل عمران – الآيتان : ٧٩ ، ٨٠ .

وأشرفُ العبودية عبوديةُ الصلاة ، وقد تقاسمها الشيوخ والمتشبهون بالعلماء والجبابرة ، فأخذ الشيوخ منها أشرف ما فيها ، وهو السجود ، وأخذ المتشبهون بالعلماء منها الركوعَ ، فإذا لقيَ بعضُهم بعضاً ركع له كما يركع المصلي لربه سواء ، وأخذ الجبابرة منهم القيامَ ، فيقوم الأحرار والعبيد على رؤوسهم عبوديةً لهم ، وهم جلوس .

وقد نهى رسول الله ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة ، على التفصيل ، فتعاطِيها مخالفةٌ صريحة له ، فنَهى عن السجود لغير الله ، وقال : « لا يَنبغِي لأحدٍ أن يَسجدَ لأحد » ، وأنكر على مُعاذٍ لمَّا سَجد له ، وقال : « مَهْ »(٥٥٠) ، وتحريمُ هذا معلوم من دينه بالضرورة ، وتجويزُ من جوَّزه لغير الله ، مُراغمَةٌ لله ورسوله ، وهو من أبلغ أنواع العبودية . فإذا جوز هذا المشركُ هذا النوعَ للبشر ، فقد جوز عبوديّة غير(٥٥١) الله . وقد صح أنه قيل له : « الرجلُ يَلقي أخاه ، أيَنْحَني له ؟ قال : لا . قيل أيَلْتَزِمُه ويُقبِّله ؟ قال : لا . قيل : أيُصافحه ؟ قال : نعم »(٥٥٢) .

وأيضاً : فالانحناءُ عند التحية سجود . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا ﴾(٥٥٣) ، أي منحنين . وإلا : فلا يمكن السجود والدخولُ(٥٥٤) على الجباه .

وصح عنه النهيُ عن القيام وهو جالس ، كما تعظِّم الأعاجمُ بعضَها بعضاً ، حتى منع ذلك(٥٥٥) في الصلاة ، وأمَرَهم إذا صلَّى جالساً أنْ يُصَلُّوا جلوساً وهم أصِحّاء لا عُذرَ لهم ، لئلا يقوموا على رأسه وهو جالس ، مع أن قيامهم لله ، فكيف إذا كان القيامُ تعظيماً وعبودية لغيره سبحانه !

---

(٥٥٠) مَهْ : اسم فِعْل أمر ، معناه : أكْفُفْ .

(٥٥١) فى الزاد « العبودية لغير الله » .

(٥٥٢) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الأدب ، باب المصافحة ، عن أنس بن مالك قال : « قلنا : يا رسول الله ، أيَنْحَنِى بعضنا لبعض ؟ قال : لا . قُلْنا : أيَعْتَنِقُ بعضُنا بعضاً ؟ قال : لا . ولكن تصافحوا » [ج ٢ ص ١٢٢٠]

(٥٥٣) سورة البقرة – الآية ٥٨ .

(٥٥٤) فى الزاد « وإلاّ ، فلا يمكن الدخول » .

(٥٥٥) فى الزاد « حتى منع من ذلك » .

والمقصود أن النفوس الجاهلة الضالة أسقطتْ عبودية الله سبحانه ، وأشركت فيها من تعظمه[٥٥٦] من الخلق ، فسجدت لغير الله ، وركعت له ، وقامت بين يديه قيام الصلاة ، وحلفت بغيره ، ونذرتْ لغيره ، وحلقت لغيره ، وذبحت لغيره ، وطافت لغير بيته ، وعظمتْه بالحب والخوف والرجاء والطاعة ، كما يعظِّم الخالق ، بل أشد ، وسوتْ من تعبُده من المخلوقين برب العالمين . وهؤلاء هم المضادون لدعوة الرسل ، وهم الذين بربهم يَعدِلون ، وهم الذين يقولون ـــ وهم في النار مع آلهتهم يختصمون ـــ: ﴿ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[٥٥٧] وهم الذين قال فيهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ ، والَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لله ﴾[٥٥٨] . وهذا كله من الشرك ، والله لا يغفر أنْ يُشْرَكَ به .

فهذا فصل معترض في هديه في حلق الرأس ، ولعله أهم مما قُصد من الكلام فيه . والله أعلم .



---

(٥٥٦) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « يعظمه » .

(٥٥٧) سورة الشعراء – الآيتان : ٩٧ ، ٩٨ .

(٥٥٨) سورة البقرة – الآية ١٦٥ .



فصول

في هديه ﷺ

في العلاج بالأدوية الروحانية الإلهية المفردة، والمركّبة منها، ومن الأدوية الطبيعية

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ المُصَابِ بِالعَيْنِ

روى مسلم في صحيحه ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « العَيْن حقٌّ ، ولو كان شيءٌ سابِقَ القَدَر لسبقتْه العين »[١] وفي صحيحه أيضاً عن أنس : « أن النبي ﷺ رخص في الرُّقية من الحُمَةِ والعَيْنِ والنَّمْلَة »[٢] . وفي الصحيحين ، من حديث أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « العينُ حقٌّ »[٣]

وفي سنن أبي داود ، عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : « كان يُؤْمَرُ العائنُ فيتوضأ ، ثم يغتسل منه المَعِينُ »[٤] . وفي الصحيحين عن عائشة ، قالت : « أمرني النبي ﷺ ، أو أمر أن نسترْقِيَ من العين »[٥] .

وذكر الترمذي – من حديث سفيان بن عُيَينةَ ، عن عمرو بن دينار ، عن عروة بن عامر ، عن عُبيد بن رفاعة الزُّرَقيِّ – : « أن أسماء بنت عُمَيْس قالت : يا رسول الله ؛ إن بَنِي جعفر تُصيبهُم العَينُ ، أفأسترْقي لهم ؟ فقال : نعم ، فلو كان شيءٌ يسبقُ القضاءَ ، لسبقته العين »[٦] . قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

---

(١) أخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب الطب والمرض والرقى [ج ١٤ ص ١٧١ بشرح النووى] وأخرجه الترمذى فى الطب ، باب ما جاء فى الرقية من العين [ج ٨ ص ٢١٤] .

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة [ج ١٤ ص ١٨٥ بشرح النووى] والحُمَة : السم . والنملة : قروح تخرج فى الجنب .

(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب العين حق [ج ١٠ ص ٢٠٣ من فتح البارى] وفى كتاب اللباس ، باب الواشمة [ج ١٠ ص ٣٧٩] وأخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب الطب والمرض والرقى [ج ١٤ ص ١٧١ بشرح النووى] .

(٤) أخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب ما جاء فى العين [ج ٤ ص ٩] .

(٥) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب رقية العين [ج ١٠ ص ١٩٩ من فتح البارى] .
وأخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة [ج ١٤ ص ١٨٤ بشرح النووى] .

(٦) أخرجه الترمذى فى الطب ، باب ما جاء فى الرقية من العين [ج ٨ ص ٢١٤] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب من استرقى من العين [ج ٢ ص ١١٦٠] .

وروى مالك رحمه الله ، عن ابن شهاب ، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف قال : رأى عامر بن ربيعة سهل بن حنيف يغتسل ، فقال : والله ما رأيت كاليوم ، ولا جِلْدَ مُخَبَّأَةٍ عذراء[٧] . قال : فلُبِطَ[٨] سهلٌ ، فأتى رسول الله ﷺ عامرًا ، فتَغَيَّظَ عليه ، وقال : عَلامَ يقتلُ أحدكم أخاه ؟ ألا بَرَّكْت ، اغتسل له . فغسل له عامرٌ وجهه ويديه ، ومِرفقيه وركبتيه ، وأطراف رجليه ، وداخلة إزاره في قدح ، ثم صبَّ عليه ، فراح مع الناس »[٩] .

وروى مالك رحمه الله أيضاً – عن محمد بن أبي أمامة بن سهل ، عن أبيه – هذا الحديث ، وقال فيه : « إن العيْنَ حقٌّ ، توضَّأْ لهُ . فتوضأ له »[١٠] وذكر عبد الرزّاق – عن مَعْمرٍ عن ابن طاوس عن أبيه – مرفوعاً : « العينِ حقٌّ ولو كان شيء سابق القَدَرِ لسبقتْهُ العين ، وإذا[١١] استُغْسِل أحدُكم فليغتسل » . ووصْله صحيحٌ .

قال الزهري[١٢] : يؤمر الرجل العائن بقدح ، فيُدخل كفه فيه[١٣] فيتمضمض ، ثم يمجُّه[١٤] في القدح ، ويغسل وجهه في القدح ؛ ثم يدخل يده اليسرى ، فيصب على ركبته اليمنى في القدح ، ثم يدخل يده اليمنى ، فيصب على ركبته اليسرى ، ثم يغسل

---

(٧) يعني : أنّ جِلْدَ سَهْل كجلد المُخَبَّأة ، وهي : الجارية التي في خِدرها لا تراها العيون ، ولا تبرز للشمس فتغيرها . أي أنه : يُبْدي إعجابه بحسنه .

(٨) فَلُبِطَ سهل : أيْ صُرِع وسقط على الأرض .

(٩) أخرجه مالك في موطئه في كتاب العين ، باب الوضوء من العين ، باختلاف يسير في ألفاظه . وفي آخره : « فراح سهل مع الناس ليس به بأس » وفي رواية ثانية ، في الموطأ أيضاً : « فراح سهل مع رسول الله (ص) ليس به بأس » . [انظر الموطأ ص ٥٨٣ – ط الشعب] . وأخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب العين [ج ٢ ص ١١٦٠] .

(١٠) انظر المصدرين السابقين .

(١١) هكذا في الزاد ، وهو مطابق لرواية الحديث الذى أخرجه الترمذي في الطب ، باب ما جاء أن العين حق والغسل لها [ج ٨ ص ٢١٦] وفي النسخ المطبوعة « فإذا » .

(١٢) في النسخ المطبوعة « الترمذي » ولم أجد له هذا الوصف . وفي الزاد « الزهري » وهذا الوصف له . وقد أشار إليه النووي في صحيح مسلم في باب الطب والمرض والرقى [ص ١٧٢] . وأشار إليه ابن حجر العسقلاني في فتح الباري [ج ١٠ ص ٢٠٤] .

(١٣) هكذا في الزاد ، وفي النسخ المطبوعة « في فيه » أي : في فمه .

(١٤) يمجه : يلقي به ويلفظه .

داخلة إزاره ، ولا يوضع القدح في الأرض ، ثم يُصب على رأس الرجل الذي تصيبه[١٥] العين ، من خلفه ، صبَّةً واحدة .

والعين عينان : عين إنسية ، وعين جنِّية ، فقد صح عن أم سلمة : « أن النبي ﷺ ، رأى في بيتها جاريةً في وجهها سَفْعَة[١٦] ، فقال : استرْقُوا لها ، فإن بها النَّظرة »[١٧] .

قال الحسين بن مسعود الفرَّاء : وقوله « سَفْعَة » أي : نظرة يعني من الجن ، يقول : بها عينٌ أصابتْها من نظَرِ الجن أنفَذُ من أسِنَّة الرماح .

ويُذْكر عن جابر – يرفعه : « إن العين لتُدْخِلُ الرَّجُل القبرَ ، والجملَ القِدْرَ »[١٨] . وعن أبي سعيد : « أن النبي ﷺ ، كان يتعوَّذ من الجان ، ومن عين الإنسان »[١٩] .

فأبطلت طائفة – ممن قلَّ نصيبهُم من السمع والعقل – أمْرَ العين ، وقالوا : إنما ذلك أوهام لا حقيقة لها ، وهؤلاء من أجهل الناس بالسمع والعقل ، ومن أغلظهم حجاباً ، وأكثفهم طباعاً ، وأبعدهم معرفة عن الأرواح[٢٠] والنفوس وصفاتها ، وأفعالها وتأثيراتها .

---

(١٥) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « يصيبه » .

(١٦) هكذا فى الزاد – فى الموضعين . وهو مطابق لرواية متن الحديث كما ورد فى الصحيحين . والسُّفْعة : الصُّفْرة ، أو السَّواد المشرب بحُمرة . وفى النسخ المطبوعة « سَفْقَة » ، والسَّفقة : المرض الجلدى .

(١٧) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب رُقية العين [ج ١٠ ص ١٩٩ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة [ج ١٤ ص ١٨٥ بشرح النووى] .

(١٨) أخرجه أبو نعيم فى الحلية ، وقال عنه : حديث غريب تفرَّد به معاوية عن شعيب بن أيوب ، والأخير من شيوخ أبى داود . وقال عنه أبو داود : إنى لأخاف الله فى الرواية عنه . ووصفه ابن حبان بالتدليس . [انظر الحلية لأبى نعيم ج ٧ ص ٩٠ – وانظر طبقات المدلسين لابن حجر العسقلانى ص ٦٠ ، ٦١ – وانظر ميزان الاعتدال للذهبى ج ٢ ص ٢٧٥] .

(١٩) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب من استرقى من العين [ج ٢ ص ١١٦١] . وأخرجه الترمذى فى الطب ، باب ما جاء فى الرقية بالمعوذتين [ج ٨ ص ٢١٤] وتمام الحديث :
« فلما نزلت المَعَوِّذَتان أخَذَ بهما ، وتركَ ما سوى ذلك » .

(٢٠) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « وأبعدهم من معرفة الأرواح » .

وعقلاءُ الأمم – على اختلاف مللهم ونحلهم – لا تدفع أمر العين ولا تنكره ، وإن اختلفوا في سببه ، ووجهة[٢١] تأثير العين . فقالت طائفة : إن العائن إذا تكيفت نفسه بالكيفية الرديئة ، انبعث من عينه قوة سُمِّيَّةٌ تتصل بالمعين ، فيتضرر . قالوا : ولا يستنكر هذا ، كما لا يستنكر انبعاث قوة سُمِّية من الأفعى ، تتصل بالإنسان فيهلك . وهذا أمر قد اشتهر عن نوع من الأفاعي أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ، فكذلك العائنُ .

وقالت فرقة أخرى : لا يُستبعد أن ينبعث من عين بعض الناس جواهرُ لطيفة غيرُ مرئية ، فتتصل بالمَعِين وتتخلل مسامَّ جسمه ، فيحصل له الضرر .

وقالت فرقة أخرى : قد أجرى الله العادة بخلق ما يشاء من الضرر ، عند مقابلة عين العائن لمن يَعِينهُ ، من غير أن يكون منه قوة ، ولا سببٌ ، ولا تأثيرٌ أصلاً .

وهذا مذهب منكري الأسباب والقُوى والتأثيرات في العالَم ، وهؤلاء قد سدوا على أنفسهم باب العلل والتأثيرات والأسباب ، وخالفوا العقلاء أجمعين . ولا ريب أن الله سبحانه خلق في الأجسام والأرواح قُوى وطبائعَ مختلفة ، وجعل في كثير منها خواصَّ وكيفياتٍ مؤثرة ، ولا يمكن العاقل إنكار تأثير الأرواح في الأجسام ، فإنه أمر مشاهد محسوس ، وأنت ترى الوجه كيف يحمرُّ حمرة شديدة إذا نظر إليه من يحتشمه ويستحي منه ، ويصفرُّ صفرة شديدة عند نظر من يخافه إليه ، وقد شاهد الناسُ من يَسقَم من النظر وتضعف قواه ، وهذا كله بواسطة تأثير الأرواح ، ولشدة ارتباطها بالعين ، ينسبُ الفعل إليها ، وليست هي الفاعلة ، وإنما التأثير للروح ، والأرواح مختلفة في طبائعها وقواها ، وكيفياتها وخواصها ، فروحُ الحاسد مؤذية للمحسود أذًى بَيِّناً ، ولهذا أمر الله سبحانه رسوله أن يستعيذ به من شرِّه .

وتأثير الحَاسد في أذَى المحسود ، أمر لا ينكره إلا مَنْ هو خارج عن حقيقة الإنسانية ، وهو أصل الإصابة بالعين ، فإن النفس الخبيثة الحاسدة تتكيف بكيفية خبيثة ، وتقابل المحسود ، فتؤثر [فيه][٢٢] بتلك الخاصية . وأشبهُ الأشياء بهذا الأفعى ،

---

(٢١) في الزاد « وجهة » .

(٢٢) ما بين المعقوفتين عن الزاد .

فإن السم كامن فيها بالقوة ، فإذا قابلتْ عدوَّها انبعث[٢٣] منها قوة غضبية ، وتكيفت [نفسها][٢٤] بكيفية خبيثة مؤذية . فمنها ما تشتد كيفيتها وتقوى حتى تؤثّرَ في إسقاط الجنين ، ومنها ما يؤثر في طمس البصر ، كما قال النبي ﷺ ، في الأبْتر وذى الطُّفْيَتَيْن من الحيَّات : « إنهما يلتمسان البصر ، ويُسقطان الحَبَلَ »[٢٥] ومنها ما تؤثر في الإنسان كيفيتها بمجرد الرؤية ، من غير اتصال به ، لشدة خبث تلك النفس ، وكيفيتها الخبيثة المؤثرة .

والتأثير غير موقوف على الاتصالات الجسمية ، كما يظنه من قلَّ علمه ومعرفته بالطبيعة والشريعة . بل التأثير يكون تارة بالاتصال ، وتارة بالمقابلة ، وتارة بالرؤية ، وتارة بتوجه الروح نحو من يؤثر فيه ، وتارة بالأدعية والرُّقَي والتعوُّذات ، وتارة بالوَهْم والتخيُّل .

ونفسُ العائن لا يتوقف تأثيرها على الرؤية ، بل قد يكون أعمى ، فيوصف له الشيء فتؤثر نفسه فيه وإن لم يره . وكثير من العائنين يؤثر في المَعِين بالوصف من غير رؤية. وقد قال تعالى لنبيه : ﴿ وَإِنْ يَكادُ الذين كفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بأبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ ﴾ [٢٦] ؛ وقال : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إذا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَد * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إذا حَسَدَ ﴾[٢٧] . فكلُّ عائن حاسدٌ ، وليس كلُّ حاسد عائناً ، فلمَّا كان الحاسد أعم من العائن كانت الاستعاذة منه استعاذة من العائن ، وهي سهام تخرج من نفس الحاسد والعائن ، نحوَ المحسود

---

(٢٣) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « انبعث » .

(٢٤) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٥) أخرجه مسلم فى كتاب قتل الحيات وغيرها ، من حديث ابن عمر [ج ١٤ ص ٢٣١ بشرح النووى] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب قتل ذى الطُّفيتين عن عائشة [ج ٢ ص ١١٦٩] . الأبتر : قصير الذَّنَب ، أو الذى لا ذَنَب له . والطفيتان : الخطَّان الأبيضان على ظهر الحية . ويلتمسان البصر ، أى : يقصدان البصر بالسم . وقيل : يخطفان البصر ويطمسانه بمجرد نظرهما إليه ، بخاصة جعلها الله فى بصريهما . يسقطان الحَبَل – وفى مسلم : يستسقطان الحبل – معناه : أن المرأة الحامل إذا نظرت إليهما وخافت ، أسقطت الحمل غالباً .
[عن المصدرين السابقين] .

(٢٦) سورة القلم – الآية ٥١ .

(٢٧) سورة الفلق .

والمَعِين ، تصيبهُ تارة وتخطئه تارة ، فإن صادفَتْهُ مكشوفاً لا وقاية عليه أثرتْ فيه ولابُدَّ ، وإن صادفَته حَذِرًا شاكِي السلاح ، لا منفذَ فيه للسهام لم تؤثر فيه ، وربما رُدَّتِ السهامُ على صاحبها ، وهذا بمثابة الرمي الحسي سواء ، فهذا من النفوس والأرواح ، وذاك من الأجسام والأشباح ، وأصله من إعجاب العائن بالشيء ، ثم تتبعه[28] كيفية نفسه الخبيثة ، ثم تستعين على تنفيذ سُمها بنظرة إلى المعين .

وقد يَعينُ الرجلُ نفسه ، وقد يَعين بغير إرادته ، بل بطبعه ، وهذا أردأ ما يكون من النوع الإنساني . وقد قال أصحابنا وغيرهم من الفقهاء : « إن مَن عُرِفَ بذلك حبَسه الإمامُ ، وأجرَى له ما يُنفق عليه إلى الموت » . وهذا هو الصواب قطعاً .

فصل

والمقصود العلاج النبويُّ لهذه العلة . وهو أنواع .

وقد رَوَى أبو داودَ في سننه ، عن سهل بن حُنَيف ، قال : « مررْنا بسيْلٍ ، فدخلتُ فاغتسلتُ فيه ، فخرجتُ محموماً . فنُمي ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فقال : مُرُوا أبا ثابت يَتعوَّذُ[29] . قال : فقلت : يا سيدي ؛ والرُّقَى صالحة ؟ فقال : لا رُقيةَ إلا في نَفْسٍ أو حُمَةٍ أو لَدْغَة »[30] والنفْس : العين ، يقال : أصابت فلاناً نفس ، أي عين . والنافس : العائن . واللَّدغة : بدال مهملة وغين معجمة ، وهي ضربة العقرب ونحوها .

فمِن التعوُّذات والرُّقي الإكثارُ من قراءة المعوِّذتين وفاتحة الكتاب وآية الكرسي .

ومنها : التعوذاتُ النبوية ، نحو : أعوذ بكلمات الله التَّامات مِنْ شَرِّ ما خَلَق . ونحو : أعوذ بكلمات اللهِ التَّامَّةِ ، من كُلِّ شيطان وهامَّة ، ومن كلِّ عَيْنٍ لامَّة . ونحو : أعوذ بكلمات الله التامّاتِ التي لا يُجَاوِزُهُنَّ بَرٌّ ولا فاجرٌ ، من شر ما خلق وذرَأ وبرأ ، ومن شر ما ينزل من السماء ، ومن شرِّ ما يَعرُج فيها ، ومن شر ما ذرأ في الأرض ، ومن شر ما

---

(٢٨) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « يتبعه » .

(٢٩) هكذا فى الزاد ، وهو مطابق لما ورد فى سنن أبى داود . وفى النسخ المطبوعة « يتعوذه » .

(٣٠) أخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب ما جاء فى الرقى [ج ١٤ ص ١١] والحُمة : سُمٌّ كل شيء يَلْدغُ أو يلسع من الحيات والعقارب ، ونحوها .

يخرج منها ، ومن شر فِتن الليلِ والنهار ، ومن شر طَوَارق الليل [والنهار][31] ، إلا طارقاً يَطرُق بخير يا رحمان .

ومنها : أعوذ بكلمات الله التامَّةِ من غضبه وعقابه ، ومن شر عباده ، ومن هَمَزات الشياطينِ وأن يَحضُرونِ .

ومنها : اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم وكلماتك التامَّات ، من شر ما أنت آخِذٌ بناصيته ؛ اللهم أنت تكشف المأثَمَ والمَغْرَمَ ، اللهم إنه لا يُهزم جندُك ، ولا يُخلف وعدك ، سبحانك وبحمدك .

ومنها : أعوذ بوجه الله العظيم الذي لا شيء أعظمُ منه ، وبكلماته التامات التي لا يجاوزهنَّ برٌّ ولا فاجرٌ ، وبأسماء[32] الله الحسنى – ما علمت منها وما لم أعلمْ – من شر ما خلق وذرأ وَبَرَأ ، ومن شر كل ذي شرّلا أطيق شره ، ومن شر كل ذي شر أنت آخِذٌ بناصيته ، إن ربي على صراط مستقيم .

ومنها : اللهم أنت ربيّ ، لا إلهٰ إلا أنت ، عليك توكلت ، وأنت ربُّ العرش العظيم ، ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، أعلم أن الله على كل شيء قدير ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، وأحصى كل شيء عددًا ، اللهم إني أعوذ بك من شر نفسي ، وشر الشيطان وشِرْكِه ، ومن شر كل دَابَّة أنت آخِذ بناصيتها ، إن ربي على صراط مستقيم .

وإن شاء قال : تحصنتُ بالله الذي لا إلهٰ إلا هو إلهي وإلهٰ كل شيء ، واعتصمت بربي وربّ كل شيء ، وتوكلت على الحي الذي لا يموت ، واستَدْفَعْتُ الشرَّ بلا حولَ ولا قوة إلا باللهِ ، حسبي الله ونعمَ الوكيل ، حسبي الربّ من العباد ، حسبي الخالق من المخلوق ، حسبي الرَّازق من المرزوق ، حسبي الذي[33] هو حسبي ، حسبي الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يُجيرُ ولا يجارُ عليه ، حسبي الله وكفى ، سمع الله لمنْ دعا ،

---

(٣١) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٣٢) في الزاد « وأسماء » .

(٣٣) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « حَسْبِيَ الله » .

وليس[٣٤] وراء الله مرمًى ؛ حسبي الله لا إلهَ إلا هو ، عليه توكلت ، وهو ربُّ العرش العظيم .

ومَن جرب هذه الدعوات والعُوَذ عَرف مقدار منفعتها ، وشدة الحاجة إليها ، وهي تمنع وصول أثر العائن وتدفعه بعد وصوله ، بحسب قوة إيمان قائلها ، وقوة نفسه واستعداده ، وقوة توكله وثبات قلبه ، فإنها سلاح ، والسلاحُ بضاربه .

فصل

وإذا كان العائن يخشى ضرر عينه وإصابتها للمعين ، فليدفع شرها بقوله : اللهم بارك عليه ، كما قال النبي ﷺ ، لعامر بن ربيعة — لما عان سهل بن حنيف — : « ألا برّكْتَ » ، أي قلت : اللهم بَارِكْ عليه .

ومما يدفع به إصابة العين ، قول : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله . روى هشام بن عروة عن أبيه أنه كان إذا رأى شيئا يُعجبه ، أو دخل حائطاً من حيطانه — قال : « ما شاء لا قوة إلا بالله » .

ومنها : رُقية جبريل عليه السلام ، للنبي ﷺ ، التي رواها مسلم في صحيحه : « باسم اللهِ أَرْقِيكَ ، مِنْ كُلِّ دَاءٍ يُؤْذِيكَ ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَوْ عَيْنِ حَاسِدٍ اللهُ يَشفِيكَ ، باسْمِ اللهِ أَرْقِيكَ »[٣٥] .

ورأى جماعة من السلف أَنْ تُكْتَبَ[٣٦] له الآيات من القرآن ، ثم يشربها . قال مجاهد : « لا بأس أن يكتب القرآن ويغسله ويسقيه المريض » . ومثله عن أبي قِلابَةَ . ويذكر عن ابن عباس أنه أمر أَنْ يُكتَبَ لامرأة تَعَسَّرَ عليها ولادها ، أثَرٌ من القرآن ، ثم يُغْسَل وتُسقى[٣٧] . وقال أيوب : « رأيت أبا قِلابَةَ كتب كتاباً من القرآن ، ثم غسله بماء وسقاه رجلاً كان به وجعٌ »

---

(٣٤) في الزاد « ليس » .

(٣٥) أخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب الطب والمرض والرقى [ج ١٤ ص ١٧٠ بشرح النووي] .

(٣٦) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « يكتب » .

(٣٧) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أنه أمر أن يكتب لامرأة يتعسّر عليها ولادها، آيتان من القرآن ، يغْسَل ويُسقى » .

فصل

ومنها : أن يؤمر العائنُ بغسل مَغابنه وأطرافه ، وداخلة إزاره ، وفيه قولان :

أحدهما : أنه فرجه . **والثاني** : أنه طرفُ إزاره الداخل الذي يلي جسده من الجانب الأيمن ، ثم يُصَبُّ على رأس المعين من خلفه بغتة . وهذا مما لا يناله علاج الأطباء ؛ ولا ينتفع به من أنكره ، أو سخر منه أو شك فيه ، أو فعله مُجَرِّباً لا يعتقد أن ذلك ينفعه .

وإذا كان في الطبيعة خواصٌ لا تعرف الأطباء عللها البتةَ ، بل هي عندهم خارجةٌ عن قياس الطبيعة تفعل بالخاصِّية ، فما الذي يُنكره زنادقتهم وجهلتهم من الخواص الشرعية ؟! هذا مع أن في المعالجة بهذا الاستغسال ، ما تشهد له العقول الصحيحة ، وتقر لمناسبته . فاعلم أن تِرياق سُم الحية في لحمها ، وأن علاج تأثير النفس الغضبية في تسكين غضبها ، وإطفاء ناره ، بوضع يدك عليه ، والمسح عليه ، وتسكين غضبه ، وذلك بمنزلة رجل معه شعلة من نار ، وقد أراد أن يقذفك بها ، فصببت عليها الماء وهي في يده ، حتى طفئتْ . ولذلك أُمِرَ العائن أن يقول : اللّهم بارك عليه ؛ ليدفع تلك الكيفيةَ الخبيثة بالدعاء الذي هو إحسان إلى المعين ، فإن دواء الشيء بضده . ولما كانت هذه الكيفية الخبيثة تظهر في المواضع الرقيقة من الجسد ، لأنها تطلب النفوذ فلا تجد أَرَقَّ من المغابن وداخلةِ الإزار — ولاسيَّما إن كان كنايةً عن الفرج — فإذا غسلت بالماء بطل تأثيرها وعملها . وأيضاً : فهذه المواضع للأرواح الشيطانية بها اختصاص . والمقصود أن غسلها بالماء يطفيءُ تلك النارية ، ويَذْهَبُ بتلك السُّمِّيَّة ، وفيه أمر آخر ، وهو وصول أثر الغسل إلى القلب ، من أرق المواضع وأسرعها تنفيذًا ، فيطفيءُ تلك النارية والسُّمية بالماء ، فيشفي المعين ، وهذا كما أن ذوات السموم إذا قتلت بعد لسعها خف أثر اللسعة عن الملسوع ووَجد راحته[38] ، فإن أنفُسها تمد أذاها بعد لسعها وتوصله إلى الملسوع ؛ فإذا قتلت خف الألم ، وهذا مشاهد ، وإن كان من أسبابه فرح الملسوع واشتفاءُ نفسه بقتل عدوه ؛ فتقوى الطبيعة على الألم فتدفعه . وبالجملة ، غسل العائن يذهب تلك الكيفية التي ظهرت منه ، وإنما ينفع غسله عند تكيف نفسه بتلك الكيفية .

فإن قيل : فقد ظهرت مناسبة الغسل ، فما مناسبة صب ذلك الماء على المعين ؟

---

(٣٨) في الزاد « راحة » .

قيل : هو في غاية المناسبة ، فإن ذلك الماء أطفأ[39] تلك النارية ، وأبطل تلك الكيفية الرديئة من الفاعل ؛ فكما طُفِئت به النار[40] القائمة بالفاعل ، طفئت به وأبطلت عن المحل المتأثر ، بعد ملابسته للمؤثر العائن ، والماءُ الذي يطفأ به الحديد ، يدخل في أدوية عدة طبيعية ذكرها الأطباء . فهذا الذي طفئ به نارية العائن ، لا يستنكر أن يدخل في دواء يناسب هذا الدّاء[41] .

وبالجملة فطب الطبائعية وعلاجهم بالنسبة إلى العلاج النبويِّ ، كطب الطُّرقية بالنسبة إلى طبهم ، بل أقل ، فإن التفاوت الذي بينهم وبين الأنبياء أعظم ، وأعظم من التفاوت الذي بينهم وبين الطرقية ، بما لا يدرك الإنسان مقداره ، فقد ظهر لك عقد الإخاء الذي بين الحكمة والشرع ، وعدم مناقضة أحدهما للآخر ، والله يهدي من يشاء إلى الصواب ، ويفتح لمن أدام قرع باب التوفيق منه كل باب ، وله النعمة السابغة[42] ، والحجة البالغة .

فصل

ومن علاج ذلك أيضاً والاحتراز منه ، ستر محاسن من يخاف عليه العين ، بما يردها عنه ، كما ذكر البغويُّ في كتاب شرح السنة : « أن عثمان رضي الله عنه ، رأى صبيًّا مليحاً ، فقال : دَسِّمُوا نُونَتَه لئلا تصيبه العين » ؛ ثم قال في تفسيره : ومعنى « دسموا نونته » أي : سوِّدوا نونته ؛ والنونة : النُّقرة التي تكون في ذقن الصبي الصغير .

وقال الخطابي في غريب الحديث له : « عن عثمان أنه رأى صبيًّا تأخذه العين ، فقال : دسِّموا نونته ، فقال أبو عمرو : سألت أحمد بن يحيى عنه ، فقال : أراد بالنونة النقرة التي في ذقنه ، والتدسيمُ : التسويد . أراد : سوِّدوا ذلك الموضع من ذقنه ، ليرد العين ، قال : ومن هذا حديث عائشة : أن رسول الله ﷺ ، خطب ذات يوم وعلى

---

(٣٩) في الزاد « فإن ذلك الماء ماء طُفِئ به تلك النارية » .

(٤٠) في الزاد « النارية » .

(٤١) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « الدواء » .

(٤٢) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « السابقة » .

رأسه عمامة دسماء ، أي : سوداء » ؛ أراد الاستشهاد على اللفظة . ومن هذا أخذ الشاعر قوله :

أَمَا كَانَ أَحْوَجَ ذَا الْكَمَالِ إِلَى   عَيْبٍ يُوَقِّيهِ مِنَ الْعَيْنِ !!

فصل

ومن الرُّقَي التي ترد العين ، ما ذُكر عن أبي عبد الله السَّاجي[٤٣] : « أنه كان في بعض أسفاره للحج أو الغزو ، على ناقة فارِهةٍ ؛ وكان في الرُّفقة رجل عائن قلَّما نظر إلى شيء إلا أتلفه ، فقيل لأبي عبد الله : احفظْ ناقتكَ من العائن ، فقال : ليس له إلى ناقتي سبيلٌ . فأخبر العائنُ بقوله ، فتحيَّنَ غَيبةَ أبي عبد الله ، فجاء إلى رَحْله ، فنَظر إلى الناقة ، فاضطربتْ وسقطت ، فجاء أبو عبد الله ، فأُخبر أن العائن قد عانها ، وهي كما ترى ، فقال : دُلوني عليه ، فدُل ، فوقف عليه ، وقال : باسم الله ، حَبْسٌ حابسٌ ، وحجرٌ يابسٌ وشهابٌ قابسٌ ، رددتُ عين العائن عليه ، وعلى أحبِّ الناس إليه ؛ ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۞ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾[٤٤] فخرجتْ حَدَقَتا العائنِ ، وقامت الناقة لا بأس بها » .

فصل

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي الْعِلَاجِ الْعَامِّ لِكُلِّ شَكْوَى بِالرُّقْيَةِ الْإِلَهِيَّةِ

روى أبو داود في سننه ، من حديث أبي الدرداء ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « مَن اشتكى منكم شيئاً أو اشتكاه أخ له ، فَلْيَقُلْ : ربنا الله الذي في السماء ، تقدَّسَ اسمك ، أَمْرُكَ[٤٥] في السماء والأرض ، كما رَحْمَتُك في السماء ، فاجعل رحمتك

---

(٤٢) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أبي عبد الله التَّياحي » تحريف ، والصواب ما ورد بالزاد . وأورد أبو نعيم تلك القصة عنه في الحلية [ج ٩ ص ٣١٦ ، ٣١٧] .

(٤٤) سورة المُلك – الآيتان : ٣ ، ٤ .

(٤٥) هكذا في الزاد . وفي سنن أبي داود .. وفي النسخ المطبوعة « وأمرك » .

في الأرض ، واغفر لنا حُوبنا وخطايانا ، أنت ربُّ الطَّيِّبين ؛ أنزل رحمةً من رحمتك[٤٦] ، وشفاءً من شفائك على هذا الوجع . فيَبْرأ بإذن الله »[٤٧] .

وفي صحيح مسلم ، عن أبي سعيد الخُدْري : « أن جبريل عليه السلام أتى النبيَّ ﷺ ، فقال : يا محمد ، آشتكَيْتَ ؟ قال[٤٨] : نعم . فقال جبريل عليه السلام : باسم الله أُرقيكَ ، من كل داءٍ[٤٩] يؤذيكَ ، ومن شر كل نفْسٍ أو عين حاسِدٍ آللهُ يَشفيك ، باسم الله أرقيكَ »[٥٠] .

فإن قيل : فما تقولون في الحديث الذي رواه أبو داود : « لا رُقيةَ إلا من عينٍ أو حُمَةٍ » ؟ والحُمةُ : ذوات السُّموم كلها .

فالجواب : أنه ﷺ لم يرد به نفي جواز الرقية في غيرها ، بل المراد به : « لا رقية أوْلَى وأنفعُ منها في العين والحُمَةِ . ويدل عليه سياق الحديث ، فإن سهل بن حُنيف قال له لما أصابته العين : أوَ فى الرُّقَى خير ؟ فقال : لا رقية إلا فى نفس أو حُمة » . ويدل عليه سائر أحاديث الرقى العامة والخاصة ، وقد روى أبو داود من حديث أنس ، قال : قال رسول الله ﷺ : لا رقية إلا من عينٍ أو حمةٍ أو دم لا يرقأ »[٥١] . وفي صحيح مسلم عنه أيضاً : « رخص رسول الله ﷺ في الرُّقية من العين والحُمةِ والنملة »[٥٢] .

---

(٤٦) هكذا فى الزاد ، وفى سنن أبى داود . وفى النسخ المطبوعة « رحمة من عندك » .

(٤٧) أخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب كيف الرقى [ج ٤ ص ١٢] .

(٤٨) فى الزاد وفى صحيح مسلم « فقال » .

(٤٩) فى الزاد وفى صحيح مسلم « من كل شيء » .

(٥٠) أخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب الطب والمرض والرقى [ج ١٤ ص ١٧٠ بشرح النووى] .

(٥١) أخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب ما جاء فى الرقى [ج ٤ ص ١١] .

(٥٢) أخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحُمة [ج ١٤ ص ١٨٤ ، ١٨٥ بشرح النووى] .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي رُقْيَةِ اللَّدِيغِ بِالفَاتِحَةِ

أخرجا في الصحيحين من حديث أبي سعيد الخدري ، قال : « آنطلَق نفر من أصحاب النبي ﷺ في سفرةٍ سافروها ، حتى نزلوا على حَيٍّ من أحياء العرب ، فاسْتَضَافوهم فأبَوْا أن يُضَيِّفُوهُم . فَلُدِغَ سيِّدُ ذلك الحيِّ ، فَسَعَوْا له بكل شيء لا ينفعه شيء ، فقال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الرهط الذين نزلوا ، لعلّهم أن يكون عند بعضهم شيء .. فأتوهم فقالوا : يا أيها الرهطُ ، إن سيِّدنَا لُدِغَ وسعينا له بكل شيء لا ينفعه [شيء][53] ؛ فهل عند أحدٍ منكم من شيء ؟ فقال بعضهم : نعم ، والله إني لأرْقي ؛ ولكن آستَضَفْناكُم فلم تُضَيِّفُونَا ، فما أنا بِرَاقٍ حتى تجعلوا لنا جُعْلاً ، فصالَحُوهم على قَطِيع من الغنم ، فَانْطلَق يَتْفِلُ عليه ، ويقرأ : الحمد لله ربِّ العالمين . فكأنَّما نَشِطَ[54] من عِقَالٍ ، فانطلق يمشي وما به قَلَبَة ، قال : فَأَوْفَوْهُم جُعْلَهُم الذي صالحوهم عليه ، فقال بعضهم : اقتسموا . فقال الذي رَقَى : لا تفعلوا حتى نأتي رسُولَ الله ﷺ ، فنذكُرَ له الذي كان ، فننظُرَ ما يأمرنا . فقدِمُوا على رسول الله ﷺ ، فذكروا له ذلك ، فقال : وما يُدْرِيكَ أنَّها رُقْيَةٌ ، ثم قال : قد أَصَبْتُمْ ؛ آقتسِمُوا وَاضْرِبُوا لي معكم سَهْماً »[55] .

وقد روى ابن ماجه في سننه ، من حديث علي ، قال : قال رسول الله ﷺ : « خير الدواء القرآن »[56] .

ومن المعلوم أن بعض الكلام له خواص ومنافع مجرَّبة ، فما الظنُّ بكلام رب العالمين ، الذي فَضْلُهُ على كل كلام كَفَضْلِ الله على خلقه ، الذي هو الشفاءُ التام ، والعصمةُ النافعة ، والنور الهادي ، والرحمة العامة ، الذي لو أُنزل على جَبَلٍ لتصدَّعَ من

---

(53) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد ، ومثبت في النسخ المطبوعة وفي متن الحديث عند البخاري .

(54) في الزاد « فكأنما أُنْشِطَ » وفي النسخ المطبوعة ومتن الحديث « لكأنما نُشِطَ » .

(55) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب النَّفْث في الرُّقية [ج 10 ص 209 من فتح الباري] . وأخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب جواز أخذ الأجرة على الرقية بالقرآن أو الأذكار [ج 14 ص 187 بشرح النووي] .

(56) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب الاستشفاء بالقرآن [ج 2 ص 1169] .

عظمته وجلالته . قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٥٧] . و « من » ها هنا لبيان الجنس ، لا للتبعيض ، هذا أصح القولين . كقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾[٥٨] . وكُلُّهم من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فما الظنُّ بفاتحة الكتاب التي لم ينزَّل في القرآن ولا في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور مثلها ، المتضمنة لجميع معاني كتب الله ، المشتملة على ذكر أصول أسماء الرب [تعالى][٥٩] ومجامعها ، وهي : الله ، والرب ، والرحمن ، و [الرحيم][٦٠] ، وإثبات المعاد ، وذكرُ التوحيدين : توحيدِ الربوبية ، وتوحيدِ الإلهية ؛ وذكرُ الافتقار إلى الربِّ سبحانه في طلب الإعانة ، وطلب الهداية ، وتخصيصه سبحانه بذلك ، وذكرُ أفضل الدعاء على الإطلاق وأنفعِهِ وأفرضه ، وما العبادُ أحوج شيء إليه ، وهو الهداية إلى صراطه المستقيم المتضمنِ كمالَ معرفته وتوحيده وعبادته ، بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نَهى عنه ، والاستقامة عليه إلى الممات ، ويتضمن ذِكْر أصناف الخلائق وانقسامهم إلى مُنْعمٍ عليه بمعرفته[٦١] والحقِّ والعمل به ومحبته وإيثاره ، ومغضوب عليه بعدوله عن الحق بعد معرفته له ، وضالٍّ بعدم معرفته له ، وهؤلاء أقسام الخليقة ، مع تضمنها لإثبات القدَر والشرع ، والأسماء والصفات ، والمعاد والنبوات ، وتزكيةِ النفوس ، وإصلاح القلوب ، وذكر عدل الله وإحسانه ؛ والرَّدِّ على جميع أهل البدع والباطل . كما ذكرنا ذلك في كتابنا الكبير [مدارج السالكين][٦٢] في شرحها !؟ . وحقيقٌ بسورةٍ هذا بعض شأنها ، أن يُسْتَشْفَى بها من الأدواء ، ويُرْقَى بها اللَّديغ .

وبالجملة ، فما تضمنته الفاتحة — من إخلاص العبودية ، والثناء على الله ، وتفويض الأمر كُلِّه إليه ، والاستعانة به والتوكل عليه ؛ وسؤاله مجامع النِّعم كلها ، وهي الهداية التي تجلبُ النِّعَمَ ، وتدفع النِّقم — من أعظم الأدوية الشافية الكافية .

---

(٥٧) سورة الإسراء – الآية ٨٢ .

(٥٨) سورة الفتح – الآية ٢٩ .

(٥٩) ما بين المعقوفتين عن الزاد . وساقط من النسخ المطبوعة .

(٦٠) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٦١) في الزاد « بمعرفة الحق » .

(٦٢) ما بين المعقوفتين عن الزاد . وساقط من النسخ المطبوعة .

وقد قيل : إن موضع الرُّقيه منها ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[٦٣] . ولا ريبَ أن هاتين الكلمتين من أقوى أجزاء هذا الدواء ؛ فإن فيهما ـــ من عموم التفويض والتوكل ، والالتجاء والاستعانة ، والافتقار والطلب ، والجمع بين أعلى الغايات ، وهي عبادة الرب وحده ، وأشرف الوسائل ، وهي الاستعانةُ به على عبادته ـــ ما ليس في غيرها .

ولقد مَرَّ بي وقت بمكة سَقِمْتُ فيه ، وفَقَدْتُ الطبيبَ والدواء ؛ فكنت أتعالج بها ، آخذُ شَرْبَةً من ماء زمزم ، وأقرؤها عليها مرارًا ، ثم أشربه فوجدت بذلك البرءَ التام ، ثم صِرْتُ أعتمد ذلك عند كثير من الأوجاع ، فأنتفع بها غاية الانتفاع .

فصل

وفي تأثير الرُّقى بالفاتحة وغيرها ، في علاج ذَوَاتِ السُّموم ، سرٌّ بديع ، فإن ذواتِ السموم أثَّرت بكيفيات نفوسها الخبيثة كما تقدم ، وسِلاحها : حُمَتُها[٦٤] التي تلدغ بها ، وهي لا تلدغ حتى تغضَب ، فإذا غضبت ثار فيها السُّمُّ[٦٥] ، فتقذفه بآلتها . وقد جعل الله سبحانه لكل داءٍ دواءً ، ولكل شيء ضدًّا ، ونفس الراقي تفعل في نفس المُرْقَى ، فيقع بين نفسيهما فعلٌ وانفعالٌ ، كما يقع بين الداء والدواء فتقوى نفسُ المُرْقَى[٦٦] وقوته بالرقية على ذلك الداء ، فيدفعه بإذن الله ، ومدار تأثير الأدوية والأدواء ، على الفعل والانفعال ، وهو كما يقع بين الداء والدواء الطبيعيين ، يقع بين الداء والدواء الروحانيين ، والروحاني والطبيعيِّ . وفي النَّفْث والتَّفل استعانة بتلك الرطوبة والهواء ، والنَّفَسِ المباشر للرقية والذكر والدعاء ، فإن الرُّقية تخرج من قلب الراقي وفمه ، فإذا صاحَبَها شيءٌ من أجزاء باطنه ـــ من الريق والهواء والنفس ـــ كانت أتمَّ تأثيرًا ، وأقوى فعلاً ونفوذاً ، ويحصُل بالازدواج بينهما كيفيةٌ مؤثرة ، شبيهةٌ بالكيفية الحادثة عند تركيب الأدوية .

---

(٦٣) سورة الفاتحة – الآية ٥ .

(٦٤) هكذا فى النسخ المطبوعة . وفى الزاد « حُماتها » . وهى جمع « حُمَة » . تقدم شرحها .

(٦٥) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « السموم » .

(٦٦) فى الزاد « نفس الراقى » .

وبالجملة ، فنفسُ الراقي تُقابل تلك النفوسَ الخبيثة ، وتزيد بكيفية نَفسِه ، وتستعين بالرقية وبالنفْثِ على إزالة ذلك الأثر . وكلَّما كانت كيفيةُ نَفَس الراق أقوى ، كانت الرقيةُ أتمَّ ، واستعانتُهُ بنفْثه كاستعانة تلك النفوسِ الرديئة بلسعها ، وفي النفث سِرٌّ آخر ، فإنه مما تستعين[٦٧] به الأرواح الطيبة والخبيثة ، ولهذا تفعلُه السَّحَرةُ ، كما يفعله أهل الإيمان . قال تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ ﴾[٦٨] . وذلك : لأن النفْسَ تَتَكَيَّفُ بكيفية الغضب والمحاربة ، وترسل أنفاسها سهاماً لها ، وتمدها بالنفث والتفل الذى معه شيء من الريق[٦٩] مصاحب لكيفية مؤثرة ، والسَّواحرُ تستعين بالنفث استعانة بينةً ، وإن لم تتصل بجسم المسحور ، بل تنفثُ على العُقدة وتعقدها وتتكلم[٧٠] بالسحر ، فيعمل ذلك في المسحور بتوسط الأرواح السُّفلية الخبيثة ، فتقابلها الروح الزكية الطيبة ، بكيفية الدفع والتكلم بالرقية ، وتستعينُ بالنفث ، فأيُّهما قَوِيَ كان الحكمُ له . ومقابلةُ الأرواح بعضها لبعض ومحاربتها وآلتها ، من جنس مقابلة الأجسام ومحاربتها وآلتها سواءً ، بل الأصلُ في المحاربة والتقابلِ للأرواح ، والأجسامُ آلتها وجندها ، ولكنْ مَنْ غَلَبَ عليه الحِسُّ لا يشعر بتأثيرات الأرواح وأفعالها وانفعالاتها ، لاستيلاء سُلطان الحِسِّ عليه ، وبُعْدِهِ من عالم الأرواح وأحكامها وأفعالها .

والمقصود : أن الروح إذا كانت قوية ، وتكيفتْ بمعاني الفاتحة ، واستعانت بالنفث والتفْل ــ قابلتْ ذلك الأثَرَ الذي حصل من النفوس الخبيثة ، فأزالته . والله أعلم .

فصل في هديه ﷺ في علاج لدغة العقرب بالرقية

روى ابن أبي شَيْبَةَ في مسنده ، من حديث عبد الله بن مسعود ، قال : « بَيْنَما[٧١]

---

(٦٧) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « يستعين » .

(٦٨) سورة الفلق – الآية ٤ .

(٦٩) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « من ريق » .

(٧٠) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « وإنْ لم يتصل بجسم المسحور ، بل ينفث على العقدة ويعقدها ، ويتكلم بالسحر » .

(٧١) في الزاد « بينا » .

رسولُ الله ﷺ يصلِّي ، إذ سجد فَلَدَغَتْه عقربٌ في إصبعه ، فانصرفَ رسول الله ﷺ ، وقال : لعن الله العقربَ ، ما تَدَعُ نبيًّا ولا غيره . قال : ثم دعا بإناءٍ فيه ماءٌ ومِلحٌ ، فَجَعَلَ يَضَعُ موضِعَ اللَّدغة في الماء والمِلْح ، ويقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ ، والمُعَوِّذَتَيْن . حتى سكنتْ »[٧٢] .

ففي هذا الحديث ، العلاجُ بالدواء المركب من الأمرين : الطبيعيِّ والإلٰهِي .

فإن في سورة الإخلاص ــ من كمال التوحيد العِلميِّ الاعتقاديِّ ، وإثبات الأَحَدِيَّة لله ، المستلزمة نفى كلِّ شركة عنه ، وإثبات الصمدية المستلزمة لإثبات كل كمال له ، مع كونِ الخلائق تَصمُدُ إليه في حوائجها ، أي : تقصده الخليقة وتتوجه إليه عُلويُّها وسُفليُّها ، ونفي الوالد والولد والكُفْء عنه ، المتضمن لنفي الأصل والفرع والنظير والمماثل ــ مِمَّا[٧٣] اختصت به ، وصارت تعدل ثُلث القرآن ، ففي اسمه « الصمد » إثباتُ كل الكمال ، وفي نفي الكفء التنزيهُ عن الشبيه والمثال ، وفي « الأحد » نفيُ كل شريك لذي الجلال ، وهذه الأُصول الثلاثة هي مجامع التوحيد .

وفي المعوِّذتين الاستعاذةُ من كل مكروه جملة وتفصيلاً ، فإن الاستعاذة من شر ما خلق تعم كل شر يُستعاذُ منه ، سواء كان في الأجسام أو الأرواح . والاستعاذة من شر الغاسق ، وهو الليل ، وآيتِهِ ــ وهو القمر إذا غاب ــ تتضمن الاستعاذة من شر ما ينتشر فيه من الأرواح الخبيثة التي كان نور النهار يحول بينها وبين الانتشار ، فلما أظلم الليل عليها وغاب القمر انتشرت وعاثت ، والاستعاذة من شر النفاثات في العقد تتضمن الاستعاذة من شر السواحر وسحرهن ، والاستعاذة من شر الحاسد تتضمن الاستعاذة من النفوس الخبيثة المؤذية بحسدها ونظرها ، والسورة الثانية تتضمن الاستعاذة من شر شياطين الإنس والجن ، فقد جمعت السورتان الاستعاذة من كل شر وهما شأن عظيم في الاحتراس والتحصن من الشرور قبل وقوعها ، ولهذا أوصى النبي ﷺ عقبةَ بن عامر ،

---

(٧٢) وفى مجمع الزوائد ، باب ما جاء فى الرقى للعين والمرض وغير ذلك عن على قال : « لدغت النبى (ص) عقرب ، وهو يصلى ، فلم فرغَ قال : لعَنَ الله العقرب ، لا تدع مصليًا ولا غيره . ثم دعا بماء وملح ، فجعل يمسح عليها ويقرأ : « قل يا أيها الكافرون ، وقل أعوذ برب الفلق ، وقل أعوذ برب الناس » رواه الطبرانى فى الصغير . وإسناده حسن [مجمع الزوائد ج ٥ ص١١٤] .

(٧٣) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « ما » .

بقراءتهما عقب كل صلاة . ذكره الترمذيُّ في جامعه . وفي هذا سر عظيم في استدفاع الشرور من الصلاة إلى الصلاة . وقال : « ما تَعَوَّذَ المتعوِّذون بمثلهما » . وقد ذكر أنه ﷺ سُحِرَ في إِحْدَى عشرةَ عُقدَةً ، وأنّ جبريلَ نزل عليه بهما ، فجعَلَ كُلَّما قرأ(٧٤) آيةً منهما انحلتْ عقدةٌ ، حتى انحلت العُقَدُ كلُّها وكأنما نَشِطَ(٧٥) من عَقَال » .

وأما العلاج الطبيعي فيه ، فإن في المِلح نفعاً لكثير من السموم ، ولاسيما لدغة العقرب ، قال صاحب القانون : « يضمَّد به مع بزر الكتّان للسع العقرب » . وذكره غيره أيضاً ، وفي المِلْح من القوة الجاذبة المحللة ما يجذب السموم ويحللها ، ولمَّا كان في لسعها قوةٌ نارية تحتاج إلى تبريد وجذْب وإخراج — جمع بين الماءِ المبرد لنار اللسعة ، والمِلْح الذي فيه جذبٌ وإخراج . وهذا أتم ما يكون من العلاج وأيسره وأسهله ، وفيه تنبيه على أن علاج هذا الداء بالتبريد والجذب والإخراج . والله أعلم .

وقد روى مسلم في صحيحه ، عن أبي هريرة ، قال : « جاء رجل إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، ما لقيت من عقرب لدغتني البارحة ! فقال : أما لو قلت حين أمسيْتَ : أعوذ بكلماتِ الله التامَّات من شرِّ ما خلق ؛ لم تضرُّك »(٧٦) .

واعلم أن الأدوية [الطبيعية](٧٧) الإلهية تنفع من الداء بعد حصوله ، وتمنع من وقوعه ، وإن وقع لم يقع وقوعاً مضرًّا وإن كان مؤذياً . والأدوية الطبيعية إنما تنفع بعد حصول الداء . فالتعوُّذات والأذكَارُ إما أن تمنع وقوع هذه الأسباب ، وإما أن تحول بينها وبين كمال تأثيرها ، بحسب كمال المتعوِّذ(٧٨) وقوته وضعفه . فالرُّقَى والعُوَذُ تُستعمل لحفظ الصحة ، ولإزالة المرض .

أما الأول ، فكما في الصحيحين ، من حديث عائشة، [قالت](٧٩) : «كان رسول

---

(٧٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « يقرأ » .

(٧٥) في الزاد « أُنْشِطَ » .

(٧٦) في النسخ المطبوعة « يضرك » وفي الزاد وصحيح مسلم مثل ما هنا . والحديث أخرجه مسلم في كتاب الذكر والدعاء ، باب الدعوات والتعوذ [ج ١٧ ص ٣٢ بشرح النووي] . وأخرجه ابن ماجه بمعناه عن أبي هريرة أيضاً في كتاب الطب ، باب رقية الحية والعقرب [ج ٢ ص ١١٦٢] . وفي الزوائد : إسناده صحيح ورجاله ثقات .

(٧٧) ما بين المعقوفتين عن الزاد .

(٧٨) في الزاد « التعوذ » .

(٧٩) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

الله ﷺ ، إذا أوى إلى فراشِهِ ، نَفَثَ في كَفَّيْهِ بقُلْ[٨٠] هو الله أحدٌ والمعوِّذتين ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يدُه من جسده »[٨١] .

وكما في حديث عُوذة أبي الدَّرْداء المرفوع : « اَللَّهم أنت ربي ، لا إلهٰ إلا إنت ، عليك توكلت وأنت ربُّ العرش العظيم » ؛ وقد تقدم . وفيه : « مَن قالها أولَ نهاره لَمْ تُصبْه مصيبةٌ حتى يمسيَ ؛ ومن قالها آخر نهارِهِ لم تصبْه مصيبةٌ حتى يصبح » .

وكما في الصحيحين : « مَن قرأ الآيتَيْن من آخر سورة البقرة ، في ليلة ، كَفَتَاه » .

وكما في صحيح مسلم ــ عن النبي ﷺ ــ : « من نزل منزلاً ، فقال : أعوذ بكلمات الله التامَّات مِن شرِّ ما خلق ، لم يضرَّه شيءٌ حتى يرتحل من منزله ذلك » .

وكما في سنن أبي داود : أن رسول الله ﷺ كان في السفر ، يقول بالليل : « يا أرضُ ؛ ربِّي وربُّكِ الله ، أعوذ بالله من شرِّكِ وشرِّ ما فيكِ ، وشرِّ ما يدبُّ عليكِ ؛ أعوذ بالله من أسد وأسْوَدَ ، ومن الحية والعقرب ، ومن ساكن البلد ، ومن والدٍ وما ولد »[٨٢] .

وأما الثاني ، فكما تقدم : من الرُّقية بالفاتحة ، والرُّقية للعقرب وغيرها مما يأتي .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي رُقْيَةِ النَّمْلَةِ

قد تقدم من حديث أنس ــ الذي في صحيح مسلم :ــ « أنه ﷺ ، رخَّص في الرُّقية من الحُمَةِ والعين والنَّمْلَة » .

---

(٨٠) في الزاد « قل » .

(٨١) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب النفث في الرقية [ج ١٠ ص ٢٠٩ من فتح الباري] . وأخرجه مسلم عن عائشة بلفظ مختلف في كتاب السلام ، باب رقية المريض ، وفيه « أنّ النبي (ص) كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمُعوِّذات وينفث ، فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها » . [ج ١٤ ص ١٨٢ بشرح النووي] .

(٨٢) أخرجه أبو داود عن عبد الله بن عمرو في كتاب الجهاد ، باب ما يقول الرجل إذا نزل المنزل [ج ٣ ص ٣٤ ، ٣٥] .

وفي سنن أبي داود ، عن الشِّفاء بنت عبد الله ، قالت : « دخل عليَّ رسول الله ﷺ ـــ وأنا عند حفصةَ ـــ فقال : ألا تُعلِّمين هذه رُقْيَةَ النَّمْلَةِ كَمَا عَلَّمْتِيها الكتابة »(٨٣) .

النَّمْلة : قروح تخرج في الجَنْبَيْن ، وهو داء معروف . وسمي نملة : لأن صاحبه يُحس في مكانه كأن نملة تَدِبُّ عليه وَتَعَضُّه . وأصنافها ثلاثة .

قال ابن قتيبة وغيره : كان المجوس يزعمون أن ولد الرجل من أخته ، إذا خُطَّ على النملة شُفِي صاحبها . ومنه قول الشاعر :

وَلَا عَيْبَ فِينَا غَيْرَ نَسْلٍ لِمَعْشَرٍ   كِرامٍ ، وأَنَّا لَا نَخُطُّ عَلَى النَّمْلِ(٨٤)

وروى الخَلَّال : « أن الشِّفاء بنت عبد الله كانت ترقي في الجاهلية من النملة ، فلمَّا هاجرت إلى النبي ﷺ ـــ وكانت قد بايعته بمكة ـــ قالت : يا رسول الله ، إنِّي كنت أرقي في الجاهلية من النملة ، وإني أريد أن أَعْرِضَهَا عليك . فعرضَتْها(٨٥) فقالت : باسم الله ضَلَّت(٨٦) حتى تعود من أفواهها ولا تضرُّ أحدًا اللهم اكشف الباسَ(٨٧) ، ربَّ الناس . قال : ترقي بها على عود سبع مرات ، وتقصد مكاناً نظيفاً ، وَتَدْلُكُه على حجر بخَلِّ خَمْرٍ حاذقٍ ، وتَطْلِيه على النملة » . وفي الحديث دليلٌ على جواز تعليم النساء الكتابة .

***

(٨٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب ما جاء فى الرقى [ج ٤ ص ١١] .

(٨٤) فى الزاد « غير عُرْفٍ » و « لا تخطُّ » بالخاء المعجمة . وفى بعض النسخ « غير حَظٌ » . والبيت هنا مطابق لما جاء فى اللسان وبعض النسخ . ومعناه : أننا لسنا بمجوس تَنْكِحُ الأخوات . وفسره ابن الأعرابى : أنّا كرام ، ولا نأتى بُيوتَ النملِ فى الجَنْب لتَحْفِرَ على ما جمع لنأكله . [انظر لسان العرب ، مادة : نمل] .

(٨٥) فى الزاد « فَعَرَضَتْ عليه » .

(٨٦) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « ضَلَّتْ حتى يعود » وفى أسد الغابة « صلوا صلب جبر تعوذا » وبهامشه : لا ندرى ما معناه . قال : ترقى بها على عود كُرْكُم ، أى : زعفران – سبع مرار ، وتقصد مكاناً نظيفاً ، ثم تدلكه على حَجَر بِخَلِّ خَمْرٍ ثقيف ، وتطليه على النملة [انظر أسد الغابة ج ٧ ص ١٦٢ ، ١٦٣] .

(٨٧) فى الزاد « البأس » بالهمز .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي رُقْيَةِ الْحَيَّةِ

قد تقدم قوله : « لا رُقْيَةَ إلا في عَيْنٍ أو حُمَةٍ » . **الحمة** : بضم الحاء وفتح الميم وتخفيفها .

وفي سنن ابن ماجه ، من حديث عائشة : « رخص رسول الله ﷺ في الرُّقية من الحيةِ والعقرب »(٨٨) . ويذكر عن ابن شهاب الزهري ، قال : « لَدَغَ بعض أصحاب رسول الله ﷺ حَيَّةٌ ، فقال النبي ﷺ : هل من راقٍ ؟ فقالوا : يا رسول الله ؛ إن آل حزم كانوا يرقون رقيةَ الحيةِ ؛ فلما نهيت عن الرُّقى : تركوها . فقال : ادعوا عُمارة بن حزم . فدعوه فعرض عليه رُقاه ، فقال : لا بأس بها . فأذن له فيها ، فرقاه » .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي رُقْيَةِ الْقَرْحَةِ وَالْجُرْحِ

أخرجا في الصحيحين عن عائشة ، قالت : « كان رسول الله ﷺ ، إذا اشتكى الإنسان أو كانت به قَرْحةٌ أو جُرحٌ ، قال بإصبعه هكذا (ووضع سفيانُ سبَّابته بالأرض ثم رفعها) ، وقال : باسم الله تربةُ أرضِنا ، بريقةِ بعضِنا ، يُشْفَى(٨٩) سقيمُنا ، بإذنِ ربنا »(٩٠) .

---

(٨٨) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب رقية الحية والعقرب [ج ٢ ص ١١٦٢] .

(٨٩) هكذا فى الزاد ، وهو مطابق لرواية البخارى وأبى داود . وفى النسخ المطبوعة « لِيُشْفَى » وهو مطابق لرواية مسلم وابن ماجه .

(٩٠) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب رقية النبى [ج ١٠ ص ٢٠٦ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب استحباب الرقية من العين والنملة والحمة [ج ١٤ ص ١٨٤ بشرح النووى] . وأخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب كيف الرقى [ج ٤ ص ١٢ ، ١٣] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب رقية الحية والعقرب [ج ٢ ص ١١٦٣] .

هذا من العلاج [السهل][91] الميسر النافع المركب ؛ وهي معالجة لطيفة يعالج بها القُروحُ والجراحات الطرية ، لاسيما عند عدم غيرها من الأدوية ، إذ كانت موجودة بكل أرض . وقد علم أن طبيعة التراب الخالص باردة يابسة ، مجففةٌ لرطوبات القروح والجراحات ، التي تمنع الطبيعةُ من جودة فعلها ، وسرعةِ اندمالها ، لاسيما في البلاد الحارة ، وأصحاب الأمزجة الحارة ، فإن القروح والجراحات يتبعها — في أكثر الأمر — سوءُ مزاج حارٌ ، فيجتمع حرارة البلد والمزاج والجراح ، وطبيعةُ التراب الخالص باردة يابسة أشد من برودة جميع الأدوية المفردة الباردة ، فتقابل برودةُ التراب حرارةَ المرض ، لاسيما إن كان التراب قد غُسِلَ وجُفِّف . ويتبعها أيضاً كثرة الرطوبات الرديئة والسيلان ، والتراب مجفف لها ، مزيل — لشدة يبسه وتجفيفه — للرطوبة الرديئة المانعة من بُرئها . ويحصل به — مع ذلك — تعديل مزاج العضو العليل . ومتى اعتدل مزاج العضو قويت قواه المدبرة ، ودفعت عنه الألم بإذن الله .

ومعنى الحديث : أنه يأخذ من ريق نفسه على إصبعه السبابة ، ثم يضعها على التراب ، فيعلق بها منه شيء ، فيمسح به على الجرح ويقول هذا الكلام ، لما فيه من بركة ذِكْرِ اسم الله ، وتفويضِ الأمر إليه ، والتوكل عليه ، فينضم أحدُ العلاجين إلى الآخر ، فَيَقْوَى التأثير .

وهل المراد بقوله : « تربة أرضنا » ؛ جميع الأرض ؟ أو أرض المدينة خاصةً ؟ فيه قولان . ولا ريب أن من التربة ما تكون فيه خاصية ينفع بخاصيته من أدواءٍ كثيرة ، ويشفي بها أسقاماً رديئة . قال جالينوس : « رأيت بالإسكندرية مَطْحُولين ومُستسقين[92] كثيرًا ، يستعملون طين مصر ، ويطلون به على سُوقهم وأفخاذهم وسواعدهم وظهورهم وأضلاعهم ، فينتفعون به منفعة بينه . قال : وعلى هذا النحو ، فقد ينفع[93] هذا الطلاء للأورام العفنة والمترهِّلة الرخوة . قال : وإني لأعرف قوماً ، ترهلتْ أبدانهم كلها من كثرة استفراغ الدم من أسفل ، انتفعوا بهذا الطين نفعاً بيِّناً ، وقوماً آخرين شَفَوْا به أوجاعاً مزمنة ، كانت متمكنة في بعض الأعضاء تمكناً شديدًا ،

---

(91) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(92) أي ، مرضى بالطِّحال والاستسقاء .

(93) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « يقع » .

فبرأت وذهبت أصلاً » . وقال صاحب الكتاب المسيحي : « قوة الطين المجلوب من كنوس — وهي جزيرة المُصْطَكي — قوة تجلو وتغسل[٩٤] ، وتنبت اللحم في القروح ، وتختم القروح » انتهى .

وإذا كان هذا في هذه التربات ، فما الظن بأطيب تربة على وجه الأرض وأبركها ، وقد خالطت ريق رسول الله ﷺ ، وقارنت رقيته باسم ربه وتفويض الأمر إليه ؟! وقد تقدم أن قوى الرقية وتأثيرها بحسب الراقي وانفعال المرقي عن رقيته . وهذا أمر لا ينكره طبيب فاضل عاقل مسلم ؛ فإن انتفي أحد الأوصاف ، فليقل ما شاء .

فصل في هديه ﷺ في علاج الوجع بالرقية

روى مسلم في صحيحه ، عن عثمان بن أبي العاص : « أنه شكا إلى رسول الله ﷺ وجعاً يجدُه في جسده منذ أسلم ، فقال النبي ﷺ : ضع يدكَ على الذي تألَّمُ من جسدك ، وقل : باسم الله ثلاثاً ، وقل سبع مراتٍ : أعوذُ بعزةِ الله وقدرته ، من شر ما أجدُ وأحاذرُ »[٩٥] .

ففي هذا العلاج — من ذكر اسم الله والتفويض إليه ، والاستعاذة بعزته وقدرته من شر الألم — ما يَذهب به ، وتكرارُه ليكون أنجع وأبلغ ، كتكرار الدواء لإخراج المادة . وفي السبع خاصيةٌ لا توجد في غيرها .

وفي الصحيحين : « أن النبي ﷺ كان يُعَوِّذُ[٩٦] بعض أهله ، يمسحُ عليه بيده

---

(٩٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أو تغسل » .

(٩٥) أخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء[ج ١٤ ص ١٨٩ بشرح النووي] . وأخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب ماعَوَّذَ به النبي (ص) وما عُوِّذَ به [ج ٢ ص ١١٦٤] .

(٩٦) هكذا في الزاد ، وهو مطابق لرواية البخاري . وفي النسخ المطبوعة « يعود » بالدال المهملة .

اليُمنَى ، ويقول : اللهم رب الناس ، أذهب الباس ، واشفِ أنتَ الشافي ، لا شفاءَ إلا شفاؤك ، شفاءً لا يغادر سقماً »(٩٧) .

ففي هذه الرُّقيةِ ، توسلٌ إلى الله بكمال ربوبيته ، وكمال رحمتِه بالشفاء ، وأنه وحده الشافي ، وأنه لا شفاء إلا شفاؤه ، فتضمنت التوسل إليه بتوحيده وإحسانه وربوبيته .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في عِلَاجِ حَرِّ المُصِيبَةِ وَحُزْنِهَا

قال تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّابِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۝ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾(٩٨) .

وفي المسند عنه ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « ما مِن أحدٍ تصيبه مصيبةٌ فيقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم أجُرْني في مصيبَتي ، وَأَخْلِفْ لي خيرًا منها — إلا آجَرَه الله في مصيبته ، وأَخْلَفَ له خيرًا منها »(٩٩) .

وهذه الكلمة من أبلغ علاج المصاب ، وأنفعه له في عاجلته وآجلته ، فإنها تتضمن أصلين عظيمين ، إذا تحقق العبد بمعرفتهما تسلى عن مصيبته .

أحدهما : أن العبد وأهله وماله ملكٌ لله عز وجل حقيقةً ، وقد جعله عند العبد عاريةً . فإذا أخذه منه ، فهو كالمعير ، يأخذ متاعه من المستعير ، وأيضاً : فإنه محفوف بعدَمَيْن : عدمٍ قبله ، وعدمٍ بعده ، وملكُ العبد له مُتعة مُعارة في زمن يسير ، وأيضاً : فإنه ليس [هو](١٠٠) الذي أوجده عن عدمه ، حتى يكون ملكه حقيقة ، ولا هو الذي

---

(٩٧) أخرجه البخاري في كتاب الطب ، باب مسح الراقي الوجع بيده اليمنى [ج ١٠ ص ٢١٠ من فتح الباري] . وأخرجه مسلم في كتاب السلام ، باب استحباب رقية المريض [ج ١٤ ص ١٨٠ ، ١٨١ بشرح النووي] .

(٩٨) سورة البقرة – الآيات من ١٥٥ – ١٥٧ .

(٩٩) أخرجه مسلم أيضاً في كتاب الجنائز ، باب ما يقال عند المصيبة [ج ٦ ص ٢٢٠ بشرح النووي] .

(١٠٠) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

يحفظه من الآفات بعد وجوده ، ولا يُبقي عليه وجوده ، فلس له فيه تأثير ولا ملكٌ حقيقي ، وأيضاً فإنه متصرِّف فيه بالأمر ، تصرُّف العبد المأمور المنهيِّ ، لا تصرُّف المُلاكِ ، ولهذا لا يباح له من التصرفات فيه ، إلا ما وافق أمرَ مالكه الحقيقي .

والثاني : أن مصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحقِّ ، ولابد أن يُخلِّف الدنيا وراء ظهره ، ويجيءَ ربه فردًا — كما خلقه أولَ مرة — بلا أهل ولا مال ولا عشيرة ، ولكن بالحسنات والسيئات ، فإذا كانت هذه بداية العبد وما خُوِّله ونهايته ، فكيف يفرح بموجود ، أو يأسى على مفقود ! ففِكرة العبد(١٠١) في مبدئه ومعاده ، من أعظم علاج هذا الداء .

ومن علاجه : أن يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليُخطئَه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبَه . قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ ، إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا ، إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللهِ يَسِيرٌ ، لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ ، وَٱللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾(١٠٢) .

ومن علاجه : أن ينظر إلى ما أُصيبَ به ، فيجدَ ربه قد أبقى عليه مثله أو أفضل منه ، وادَّخر له — إن صبر ورضي — ما هو أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعافٍ مضاعفة ، وأنه لو شاء لجعلها أعظمَ مما هي .

ومن علاجه : أن يُطفئَ نارَ مصيبته ببرد التأسِّي بأهل المصائب ، وليعلم أنه في كل وادٍ بنو سعد(١٠٣) ؛ ولينظر يَمْنةً ، فهل يرى إلا مِحنةً ؟ ثم ليعطف يَسْرةً ، فهل يرى إلا حسرةً ؟ وأنه لو فتش العالم لم ير فيهم إلا مبتلًى إما بفوات محبوب ، أو حصول مكروه ، وأن سرور(١٠٤) الدنيا أحلام نوم ، أو كظلٍّ زائل ، إن أضْحَكَتْ قليلا ،

---

(١٠١) فى الزاد « ففكره فى مبدئه » .

(١٠٢) سورة الحديد – الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

(١٠٣) هذا مَثَلٌ قاله الأَضْبَطُ بنُ قُرَيْعٍ السَّعْدِيُّ لمَّا تحوَّلَ عن قومه وانتقل فى القبائل ، فلما لمْ يَحْمَدْهُم رجَعَ إلى قومه وقال : « فى كل وادٍ بنو سَعْد » يعنى سَعْدَ بْنَ زَيْدِ مَناة بن تميم .

[أنظر لسان العرب ، مادة سعد] .

(١٠٤) فى الزاد « شرور » .

أبكَتْ كثيراً ، وإن سرَّتْ يوماً ، ساءتْ دهراً ، وإن مَتَّعتْ قليلاً ، منعت طويلا ، وما ملأت دارًا خيرةً ، إلا ملأتها عَبْرَةً ، ولا سرته بيوم سرور ، إلا خَبَّأَتْ له يوم شرور .

قال ابن مسعود ، رضي الله عنه : « لكُل فرحةٍ تَرْحةٌ ، وما مُلِئَ بيت فرحاً ، إلا مُلِئَ تَرحاً » .

وقال ابن سيرين : « ما كان ضحكٌ قَطُّ ، إلا كان من بعده بكاءٌ » .

وقالت هند بنت النعمان[105] : « لقد رأيتُنا ونحن من أعزِّ الناس وأشدِّهم مُلْكاً ، ثم لم تغب الشمسُ حتى رأيتُنا ونحن أقلُّ الناس ، وإنه حقٌّ على الله ألَّا يملأ داراً خَيْرةً ، إلا ملأها عَبرةً » .

وسألها رجل أن تحدثَه عن أمرها ، فقالت : « أصبحنا ذات صباح وما في العرب أحدٌ إلا يرجونا ، ثم أمسينا وما في العرب أحد إلا يرحمُنا » .

وبكت أختُها حُرقَةُ بنت النعمان يوماً — وهي في عزها — فقيل لها : ما يُبكيكِ ؟ لعل أحدًا آذاكِ ؟ قالت : « لا ؛ ولكن رأيت غضارة[106] في أهلي ، وقلَّما امتلأت دارٌ سرورًا ، إلا امتلأت حزناً » .

قال إسحاق بن طلحة : « دخلت عليها يوماً ، فقلت لها : كيف رأيت عبرات الملوك ؟ فقالت : ما نحن فيه اليومَ خيرٌ مما كنا فيه بالأمس[107] ؛ إنا نجد في الكتب : أنه ليس من أهل بيت يعيشون في خيْرة ، إلا سيُعقَبون بعدها عبرةً ؛ وإن الدهر لم يظهر لقوم بيوم يحبونه ، إلا بَطَنَ لهم بيوم يكرهونه . ثم قالت :

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالأَمْرُ أَمْرُنَا ... إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوقَةٌ نَتَنَصَّفُ[108]

فَأُفٍّ لِدُنْيَا لَا يَدُومُ نَعِيمُهَا ... تَقَلَّبُ تَارَاتٍ بِنَا ، وَتَصَرَّفُ »

---

(١٠٥) هي هند بنت النعمان بن المنذر ملك الحيرة .. من رَبّات النُّبل والشرف ، والشعر والأدب . ويُنْسَبُ إليها دير هند الصغرى بالحيرة . [انظر خبرها في أعلام النساء ج ٥ ص ٢٥٩ – ٢٦٥] .

(١٠٦) الغضارة : السّعة والنعيم في العيش .

(١٠٧) في الزاد « الأمس » .

(١٠٨) نَتَنَصَّف : نخدم . والسُّوقَة : الرعية وعامة الناس ، تطلق على الواحد والمثنى والمجموع .

ومن علاجها : أن يعلم أن الجزع لا يردها ، بل يضاعفها . وهو في الحقيقة من تزايُدِ المرض .

ومن علاجها : أن يعلم أن فوت ثواب الصبر والتسليم ــ وهو من[109] الصلاة والرحمة والهداية التي ضمِنَها الله على الصبر والاسترجاع ــ أعظمُ من المصيبة في الحقيقة .

ومن علاجها : أن يعلم أن الجَزَعَ يُشْمِتُ عدوَّه ، ويُسيء صديقه ، ويُغضب ربه ، ويَسر شيطانه ، ويُحبط أجره ، ويُضعف نفسه ، وإذا صبرَ واحتسب أقصى[110] شيطانه ، ورده خاسئاً ، وأرضى ربه ، وسر صديقه ، وساء عدوه ، وحَمَل عن إخوانه ، وعزَّاهم هو قبل أن يُعزوه ، فهذا هو الثبات والكمال الأعظم ، لا لطمُ الخدود وشقُّ الجيوب ، والدعاءُ بالويل والثُّبور ، والسخَطُ على المقدور .

ومن علاجها : أن يعلم أن ما يعقبه الصبر والاحتساب ــ من اللذة والمسرة ــ أضعافُ ما كان يحصل له ببقاء ما أُصيبَ به ، لو بقي عليه ، ويكفيه من ذلك بيتُ الحمد الذي يُبني له في الجنة ، على حمده لربه واسترجاعه ، فلينظرْ أيُّ المصيبتين أعظمُ : مصيبةُ العاجلة ؟ أو مصيبةُ فوات بيت الحمد في جنة الخلد ؟

وفي الترمذي مرفوعاً : « يودُّ ناس يومَ القيامة أن جلودَهم كانت تُقرضُ بالمقاريض في الدنيا ، لما يرون من ثواب أهل البلاء »[111] .

وقال بعض السلف : « لولا مصائبُ الدنيا ، لورَدْنا القيامة مفاليسَ » .

ومن علاجها : أن يُرَوِّح قلبه برَوْح رجاء الخلَف من الله ، فإنه من كل شيء عوض ، إلا الله فما منه عوضٌ . كما قيل :

مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذَا ضَيَّعْتَهُ عِوَضٌ ... وَمَا مِنَ اللهِ إِنْ ضَيَّعْتَهُ عِوَضُ

---

(١٠٩) فى الزاد « وهو الصلاة » .

(١١٠) فى الزاد « انفى شيطانه » أى : أبعده ، وتَغَلَّبَ عليه .

(١١١) أخرجه الترمذى فى كتاب الزهد [ج ٩ ص ٢٤٥] عن جابر يرفعه : « يَوَدُّ أهل العافية يوم القيامة حين يُعْطَى أهلَ البلاء الثواب لو أن جلودهم كانت قُرِضَتْ فى الدنيا بالمقاريض » . وقال الترمذى : حديث غريب .

ومن علاجها : أن يعلم أن حظه من المصيبة ما تحدثه له ، فمن رَضِيَ فله الرضا ، ومن سخِط فله السُّخْط ، فحظُّك منها ما أحدثته لك ، فاختر [إما][112] خيرَ الحظوظ ، أو شرَّها . فإن أحدثت له سخطاً وكفراً كُتب في ديوان الهالكين ، وإن أحدثت له جزعاً وتفريطاً في ترك واجب ، أو [في][113] فعل محرم كُتب في ديوان المفرِّطين ، وإن أحدثتْ له شكايةً وعدم صبرٍ كُتب في ديوان المغبونين ، وإن أحدثتْ له اعتراضاً على الله ، وقدحاً في حكمته فقد قرع باب الزندقة أو ولجه ، وإن أحدثت له صبراً وثباتاً لله كُتب في ديوان الصابرين ، وإن أحدثت له الرضا [عن الله][114] كُتب في ديوان الراضين ، وإن أحدثت له الحمد والشكر كُتب في ديوان الشاكرين ، وكان تحت لواء الحمد مع الحمَّادين ، وإن أحدثت له محبةً واشتياقاً إلى لقاء ربه كتب في ديوان المحبين المخلصين .

وفي مسند الإمام أحمد والترمذيّ ، من حديث محمود بن لَبيد يرفعه : « إن الله إذا أحبَّ قوماً ابتلاهم ، فمن رَضِيَ فله الرضا ، ومن سَخِطَ فله السُّخْطُ » ؛ زاد أحمد : « ومن جَزِعَ فله الجَزَعُ » .

ومن علاجها : أن يعلم أنه وإن بلغ في الجزع غايتَه ، فآخر أمره إلى صبر الاضطرار ، وهو غير محمود ولا مُثاب .

قال بعض الحكماء : « العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ، ما يفعله الجاهل بعد أيام . ومَن لم يَصْبِرْ صَبْرَ الكرام ، سلا سلُوَّ البهائم » . وفي الصحيح مرفوعاً : « الصبرُ عند الصَّدْمة الأولى » . وقال الأشعث بن قيس : « إنك إن صبرت إيماناً واحتساباً ؛ وإلا سلوتَ سُلُوِّ البهائم » .

ومن علاجها : أن يعلم أن أنفع الأدوية له موافقة ربه وإلٰهه فيما أحبه ورضيه له ، وأن خاصيَّة المحبة وسرَّها موافقة المحبوب ، فمن ادعى محبة محبوب ، ثم سَخِطَ ما يُحبه وأحبَّ ما يَسخطه ــ فقد شهد على نفسه بكذبه ، وتمقَّت إلى محبوبه .

---

(112) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(113) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(114) ما بين المعقوفتين من الزاد . وساقط من النسخ المطبوعة .

وقال أبو الدرداء : « إن الله إذا قضى قضاء ، أحب أن يُرضَى به » . وكان عمران ابن الحصين ، يقول في علّته : « أحبُّه إليَّ : أحبُّه إليه » . وكذلك قال أبو العالية .

وهذا دواء وعلاج لا يَعمل إلا مع المحبين ، ولا يمكن كل أحد أن يتعالج به .

ومن علاجها : أن يوازِن بين أعظم اللَّذَّتَيْنِ والتمتعين وأدْوَمِهما : لذةِ تمتعه بما أُصيبَ به ، ولذة تمتعه بثواب الله له ، فإنْ ظهر له الرجحان ، فآثر الراجح ، فليحمَدِ الله على توفيقه ، وإنْ آثر المرجوحَ من كل وجه فليعلم أن مصيبته في عقله وقلبه ودينه ، أعظمُ من مصيبته التى أصيب بها فى دنياه .

ومن علاجها : أن يعلم أن الذي ابتلاه بها أحكمُ الحاكمين ، وأرحمُ الراحمين ، وأنه سبحانه لم يرسل إليه البلاءَ ليهلكه ، ولا ليعذبه به ، ولا ليَجْتاحَه ؛ وإنما افتقده به ليمتحن صبره ورضاه عنه وإيمانه ، وليسمع تضرعه وابتهالَه ، وليراه طريحاً ببابه ، لائذًا بجنابه ، مكسور القلب بين يديه ، رافعاً قصص الشكوى إليه .

قال الشيخ عبد القادر : « يا بني ، إن المصيبةَ ما جاءت لتهلكَك ، وإنَّما جاءت لتمتحنَ صبرك وإيمانك . يا بني ، القدرُ سَبُعٌ ، والسَّبُعُ لا يأكل الميتةَ » .

والمقصود : أن المصيبة كِيرُ العبد الذي يُسْبَكُ به حاصله ، فإما أن يخرج ذهباً أحمر ، وإما أن يخرجَ خَبثاً كله . كما قيل :

سَبَكْنَاه ونَحْسِبُـهُ لُجَيْنـاً فأَبْدَى ٱلْكِيرُ عَنْ خَبَثِ ٱلْحَدِيدِ

فإن لم ينفعه هذا الكِيرُ في الدنيا ، فبيْنَ يديه الكيرُ الأعظم ، فإذا علم العبد أن إدخاله كِيرَ الدنيا ومَسبكَها خيرٌ له من ذلك الكير والمسبك ، وأنه لابد من أحد الكِيرين ، فليعلم قدرَ نعمة الله عليه في الكير العاجل .

ومن علاجها : أن يعلم أنه لولا مِحَنُ الدنيا ومصائبها ، لأصاب العبدَ ــ من أدْواء الكِبْر والعُجب ، والفرعنة وقسوة القلب ــ ما هو سببُ هلاكه عاجلاً وآجلاً ، فمن رحمةِ أرحم الراحمين أن يتفقده في الأحيان بأنواع من أدوية المصائب ، تكون حِمْيَةً له من هذه الأدواء ، وحفظاً لصحة عبوديته ، واستفراغاً للمواد الفاسدة الرديئة المهلكة منه ، فسبحان من يرحم ببلائه ، ويبتلي بنعمائه ! كما قيل :

قَدْ يُنْعِمُ ٱللهُ بِٱلْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ وَيَبْتَلِي ٱللهُ بعْضَ ٱلْقَوْمِ بِٱلنِّعَمِ

فلولا أنه سبحانه يداوي عباده بأدوية المحن والابتلاء ، لطَغَوْا وبَغَوْا وعَتَوْا ، والله سبحانه إذا أراد بعبد خيراً سقاه دواءً — من الابتلاء والامتحان — على قدر حاله ، يستفرغ به من الأدواء المهلكة ، حتى إذا هَذَّبَه ونقاه وصفَّاه ، أهَّله لأشرف مراتب الدنيا ، وهي عبوديته ، وأرفع ثواب الآخرة ، وهو رؤيته وقربه .

ومن علاجها : أن يعلم أن مرارة الدنيا هي بعينها حلاوة الآخرة ، يَقلِبُها الله سبحانه كذلك ، وحلاوة الدنيا بعينها مرارةُ الآخرة . ولأنْ ينتقل من مرارة منقطعة ، إلى حلاوة دائمة — خيرٌ له من عكس ذلك .

فإن خَفِيَ عليك هذا فانظر إلى قول الصادق المصدوق : « حُفَّتِ الجنةُ بالمَكَارِهِ ، وحُفَّت النارُ بالشَّهواتِ » .

وفي هذا المقام تفاوتت عقولُ الخلائق ، وظهرت حقائق الرجال ، فأكثرهم آثر الحلاوة المنقطعة ، على الحلاوة الدائمة التي لا تزول ؛ ولم يحتمل مرارة ساعة بحلاوة الأبد ، ولا ذُلَّ ساعة لعزِّ الأبد ، ولا محنة ساعة لعافية الأبد ، فإن الحاضر عنده شهادة ، والمنتظر غيب ، والإيمان ضعيفٌ ، وسلطان الشهوة حاكم ، فتوَلَّد من ذلك إيثارُ العاجلة ، ورفض الآخرة .

وهذا حال النظر الواقع على ظواهر الأمور وأوائلها ومبادئها ، وأما النظر الثاقب الذي يَخرق حُجُب العاجلة ، ويُجاوزه إلى العواقب والغايات فله شأن آخرُ .

فادع نفسك إلى ما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته ، من النعيم المقيم ، والسعادة الأبدية ، والفوز الأكبر ، وما أعدَّ لأهل البطالة والإضاعة ، من الخِزْي والعقاب ، والحسرات الدائمة ، ثم اختَرْ أيُّ القِسْمين أليقُ بك ، و ﴿ **كُلٌّ يَعْمَلُ على شَاكِلَتِهِ** ﴾[115] ، وكل أحد يصبُو إلى ما يناسبه وما هو الأولى به ، ولا تستطِلْ هذا العلاج ، فشدةُ الحاجة إليه — من الطبيب والعليل — دعت إلى بسطه ، وبالله التوفيق .

فَصْلٌ في هَدْيِهِ ﷺ في عِلَاجِ الكَرْبِ وَالهَمِّ وَالغَمِّ وَالحَزَنِ

أخرجا في الصحيحين — من حديث ابن عباس — أن رسول الله ﷺ ، كان يقول

---

(١١٥) سورة الإسراء – جزء من الآية ٨٤ .

عند الكرْب : « لا إلهٰ إلا الله العظيم الحليم ، لا إلهٰ إلا الله ربُّ العرش العظيم ، لا إلهٰ إلا الله ربُّ السموات [السبع] ، وربُّ الأرض ، ربُّ العرش الكريم »(١١٦).

وفي جامع الترمذيّ عن أنس : « أن رسول الله ﷺ ، كان إذا حَزَبَه أمرٌ(١١٧) ، قال : « يا حيُّ يا قيومُ برحْمتكَ أستغيث »(١١٨) . وفيه عن أبي هريرة : أن النبي ﷺ كان إذا أهمَّهُ الأمرُ ، رَفع طرفه إلى السماء ، فقال : سبحان الله العظيم ، وإذا اجتهد فى الدعاء ، قال : يا حي يا قيومُ » .

وفي سنن أبي داود ، عن أبي بكر(١١٩) ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « دعوات المكروب : اللهم رحمتكَ أرجو ؛ فلا تَكِلني إلى نفسي طرْفة عين ، وأصلح لي شأني كلّه ؛ لا إلهٰ إلا أنت »(١٢٠) وفيها أيضاً عن أسماء بنت عُميس ،قالت :قال لى رسُول الله ﷺ : « ألَا أعلِّمك كلماتٍ تقوليهنَّ عند الكرْبِ ـــ أو فى الكرْب ـــ : الله ربي لا أشرك به شيئاً »(١٢١)، وفي رواية : أنها تقال سبع مرات .

وفي مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود ، عن النبي ﷺ ، قال : « ما أصاب عبداً هَمٌّ ولا حَزنٌ ـــ فقال : اللَّهُمَّ إني عَبْدُكَ ، ابْنُ عَبْدِكَ ، ابنُ أَمَتِكَ ، ناصيتي بيدك ، ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ ، عَدْلٌ فيَّ قضاؤكَ ، أسألُكَ بكُلِّ اسْمٍ هُوَ لك ، سَمَّيْتَ به نَفْسَكَ ، أو أنْزَلْتَهُ في كِتَابك ، أوْ عَلَّمْتَهُ أحَدًا من خَلْقِكَ ، أو استأْثَرْتَ به في عِلْم الغَيْب عندك ،

---

(١١٦) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات ، باب الدعاء عند الكرب [ج ١١ ص ١٤٥ من فتح البارى] . وفى كتاب التوحيد [ج ١٣ ص ٤٠٥ وص ٤١٥ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء ، باب دعاء الكرب [ج ١٨ ص ٤٧ بشرح النووى] . وما بين المعقوفتين لم ترد فى متن الحديث الوارد فى الصحيحين .

(١١٧) حَزَبَهُ أمْرٌ : اشتد عليه . وفى الترمذى : كَرَبَهُ أمرٌ . وهى بمعناه .

(١١٨) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعاء [ج ١٣ ص ٥٠] .

(١١٩) هكذا فى الزاد ، وفى سنن أبى داود .. وفى النسخ المطبوعة « عن أبى بكر الصديق » خطأ ، والأول هو الصواب .

(١٢٠) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ، باب ما يقول إذا أصبح [ج ٤ ص ٣٢٤] .

(١٢١) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة ، باب فى الاستغفار [ج ٢ ص ٨٧] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الدعاء ، باب الدعاء عند الكرب [ج ٢ ص ١٢٧٧] .

أن تَجْعَل القُرْآنَ العَظِيمَ رَبيع قَلبي ، ونُورَ صَدْري ، وجَلاءَ حُزْني ، وذهابَ هَمِّي ـــ إلا أَذْهَب الله حُزْنَهُ وهَمَّهُ ، وأبدلَهُ مَكَانَهُ فَرحاً »(١٢٢) .

وفي الترمذيّ عن سعد بن أبي وقاص ، قال : قال رسول الله ﷺ : « دعوة ذي النون إذ دعا ربه وهو في بطن الحوت : ﴿ لا إلهَ إلا أنت سُبْحَانَكَ إنِّي كُنْتُ من الظالِمين ﴾ لمْ يَدْعُ بها رجل مسلم فى شيء قط ، إلا استجيب له »(١٢٣) . وفي رواية : « إني لأعلم كلمة لا يقولها مكروب إلا فرَّج الله عنه ؛ كلمة أخي يونس » .

وفي سنن أبي داود ، عن أبي سعيد الخدري ، قال : دخل رسول الله ﷺ ـــ ذات يوم ـــ في المسجد ، فإذا هو برجل من الأنصار ، يقال له : أبو أمامة . فقال : يا أبا أمامة ، مالي أراك في المسجد في غير وقت الصلاة ؟ فقال : هموم لزمتْني وديون يا رسول الله . فقال : ألا أُعلِّمُكَ كلاماً إذا أنت قلته ، أذهب الله عزّ وجل هَمَّكَ وقضى دَيْنَك ؟ قال : قلت : بَلى يا رسول الله . قال : قُلْ ـــ إذا أصبحت ، وإذا أمسيت ـــ : اللهُمَّ إني أَعُوذُ بك من الهَمِّ والحَزَن ، وأعوذُ بك من العَجْزِ والكَسَل ، وأعوذ بك من الجُبْن والبُخْل ؛ وأعوذ بك من غَلَبَة الدَّين ، وقَهْر الرِّجال . قال : ففعلتُ ذلك فأذهب الله عزّ وجل هَمِّي ، وقَضَى عنِّي دَيْني »(١٢٤) .

وفي سنن أبي داود ، عن ابن عباس ، قال : قال رسول الله ﷺ : « من لزِمَ الاستغفار جعلَ الله له من كل هَمٍّ فَرَجاً ، ومن كلِّ ضيق مخرجاً ورزقه من حيث لا يحتسب »(١٢٥) .

وفي المسند : « أن النبي ﷺ ، كان إذا حزَبه أمر فزِع إلى الصلاة » وقال الله تعالى : ﴿ واستعينوا بالصَّبْرِ والصَّلَاةِ ﴾(١٢٦) .

---

(١٣٢) أورد مجمع الزوائد هذا الحديث أيضا فى باب دعاء من أصابه همٌّ أو حزن .. وزاد بعد تمامه : « قالوا : يا رسول الله ، ينبغى لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات ؟

قال . أجَل ، ينبغى لمن سمعهن أن يتعلمهن » رواه أيضاً أبو يعلى والطبرانى والبزار . [أنظر مجمع الزوائد ج ١٠ ص ١٨٩ ، ١٩٠] .

(١٣٣) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعاء ، دعوة ذى النون [ج ١٣ ص ٣٢] .

(١٣٤) أخرجه أبو داود فى آخر كتاب الصلاة ، باب الاستعاذة [ج ٢ ص ٩٣] .

(١٣٥) أخرجه أبو داود فى كتاب الصلاة ، باب الاستغفار [ج ٢ ص ٨٥] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الأدب ، باب الاستغفار [ج ٢ ص ١٢٥٤ ، ١٢٥٥] .

(١٣٦) سورة البقرة – الآية ٤٥ .

وفي السنن : « عليكمْ بالجهاد ، فإنه [بابٌ][127] من أبواب الجنةِ ، يدفع الله به عن النفوسِ الهمَّ والغمَّ » .

ويذكر عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ : « مَن كثرت همومه وغمومه ، فلْيكْثر من قول : لا حَوْلَ ولا قوة إلّا بالله » . وثبت في الصحيحين : أنها كنزٌ من كنوز الجنة . وفي الترمذي : أنها باب من أبواب الجنة .

هذه الأدوية تتضمن خمسة عشر نوعاً من الدواء ـــ فإن لم تقو على إذهاب داء الهم والغم والحزن ، فهو داءٌ قد استحكم وتمكنت أسبابه ، ويحتاج إلى استفراغ كُلّيٌّ :

الأول : توحيد الرُّبوبية .

الثاني : توحيد الإلهيه .

الثالث : التوحيد العلمي الاعتقادي .

الرابع : تنزيه الرب تعالى عن أن يظلم عبده ، أو يأخذه بلا سبب من العبد يوجب ذلك .

الخامس : اعتراف العبد بأنه هو الظالم .

السادس : التوسُّل إلى الرب تعالى بأحبِّ الأشياء [إليه][128] وهو : أسماؤه وصفاته ، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات : الحيُّ القيوم .

السابع : الاستعانة به وحده .

الثامن : إقرار العبد له بالرَّجاء .

التاسع : تحقيقُ التوكل عليه ، والتفويض إليه ، والاعترافُ له بأنَّ ناصيته في يده يُصرِّفُه كيف يشاء ، وأنه ماضٍ فيه حُكْمُه ، عَدْلٌ فيه قَضَاؤُه .

العاشر : أن يَرْتع قَلْبُه في رِياض القرآن ، ويجعله لقلبه كالربيع للحيوان ؛ وأن يستضيء به في ظُلُمات الشبهات والشهوات ، وأن يتسلى به عن كل فائت ، ويتعزي به عن كل مصيبة ، ويستشفي به من أدواء صدره ، فيكون جلاءَ حزنه ، وشفاءَ همِّه وغَمِّه .

---

(١٢٧) ما بين المعقوفتين عن الزاد .

(١٢٨) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

الحادى عشر : الاستغفارُ .

الثاني عشر : التوبةُ .

الثالث عشر : الجهاد .

الرابع عشر : الصلاةُ .

الخامس عشر : البراءةُ من الحَول والقوة ، وتفويضهما إلى مَن هُما بِيدِه .

فَصْلٌ فِي بَيَانِ جِهَةِ تَأْثِيرِ هَذِهِ الأَدْوِيَةِ فِي هَذِهِ الأَمْرَاضِ

خلق الله – سبحانه – ابن آدم وأعضاءَه ، وجعل لكل عضو منها كمالاً ، إذا فقده أحسَّ بالألم ، وجعل لِمِلْكِها – وهو القلب – كمالاً ، إذا فَقَده حَضَرته أسقامُه وآلامُه من الهموم والغُموم والأحزان .

فإذا فقدت العينُ ما خُلِقَتْ له من قوة الإبصار ؛ وفقدت الأُذنُ ما خُلقتْ له من قوة السمع ؛ و[فقد](١٢٩) اللسانُ ما خُلق له من قوة الكلام – فقدتْ كمالها .

والقلبُ خُلقَ لمعرفة فاطِره ومحبته وتوحيده ، والسرور به ، والابتهاج بحبه ، والرضا عنه ، والتوكل عليه ، والحب فيه ، والبغض فيه ، والموالاة فيه ، والمعاداة فيه ، ودوامِ ذكره ؛ وأن يكون أحب إليه مِنْ كل ما سواه ، وأرجي عنده من كل ما سواه ، وأجلّ في قلبه من كل ما سواه ؛ ولا نعيم له ولا سرور ولا لذة – بل ولا حياة – إلا بذلك ، وهذا له بمنزلة الغذاء والصحة والحياة ، فإذا فقد غذاءه وصحته وحياته ، فالهموم والغموم والأحزان مسارعة من كل صَوْب إليه ، ورَهْنٌ مُقيمٌ عليه .

ومن أعظم أدوائه الشركُ والذنوب والغفلة ، والاستهانة بمَحابِّه ومَراضيه ، وتركُ التفويض إليه ، وقلة الاعتماد عليه ، والركون إلى ما سواه والسخطُ بمقدوره ، والشكُّ في وعده ووعيده .

---

(١٢٩) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

وإذا تأملتَ أمراض القلب وجدتَ هذه الأمور وأمثالها هي أسبابها ، لا سبب لها سواها . فدواؤه – الذي لا دواءَ له سواه – ما تضمَّنَتْهُ هذه العلاجاتُ النبوية من الأمور المضادة لهذه الأدواء ، فإن المرض يُزال بالضد ، والصحة تُحفظ بالمثل ، فصحته تحفظ بهذه الأمور النبوية ، وأمراضُه بأضدادها .

فالتوحيد يفتح للعبد بابَ الخير والسرور واللذة والفرح والابتهاج ، والتوبةُ استفراغ للأخلاط والموادّ الفاسدة التي هي سببُ أسقامه ، وحميةٌ له من التخليط ؛ فهي تُغلق عنه بابَ الشرور ، فيفتح له باب السعادة والخير بالتوحيد ، ويُغلق باب الشرور بالتوبة والاستغفار .

قال بعض المتقدمين من أئمة الطب : « من أراد عافية الجسم فَلْيُقَلِّلْ من الطعام والشراب ، ومن أراد عافية القلب فلْيَتْرِكِ الآثام » . وقال ثابت بن قُرَّةَ : « راحة الجسم في قلة الطعام ، وراحة الرُّوح في قلة الآثام ، وراحة اللسان في قلة الكلام » .

والذنوب للقلب بمنزلة السُّموم ، إنْ لَمْ تُهْلِكْهُ أضعفَتْهُ ولا بُدَّ ، وإذا ضَعفَتْ(١٣٠) قُوَّتُه لم يقدرْ على مُقاوَمة الأمراض . قال طبيبُ القلوب عبدُالله بن المُبارك :

رَأَيْتُ الذُّنُوب تُميت القُلُوبَ ... وَقَدْ يُورِثُ الذُّلَّ إدْمَانُها
وَتَرْكُ الذُّنُوبِ حَياةُ القلوب ... وَخَيْرٌ لَنفسِكَ عِصْيانُها

فالهوى أكبرُ أدوائها ، ومخالفته أعظم أدويتها ، والنفس في الأصل خُلقتْ جاهلة ظالمة فهي لجهلها تظن شفاءَها في اتباع هواها ، وإنما فيه تلفُها وعطَبُها ، ولظُلمها لا تقبل من الطبيب الناصح ، بل تضعُ(١٣١) الداء موضع الدواء فتعتمده ، وتضعُ الدواء موضع الداء فتجتنبهُ ، فيتولّد – من بين إيثارها للداء ، واجتنابها للدواء — أنواع من الأسقام والعِلل التي تعيي الأطباءَ ويتعذَّرُ معها الشفاءُ . والمصيبة العظمى أنها تُركِّبُ ذلك على القدر ؛ فتبرئ نفسها ، وتلومُ ربها بلسان الحال دائماً وَيقوى اللومُ حتى يُصَرِّحَ به اللسان .

وإذا وصل العليلُ إلى هذه الحال ، فلا يطمع في بُرئه ، إلا أن تتداركه رحمة من ربه ، فيحييه حياة جديدة ، ويرزقه طريقة حميدة ، فلهذا كان حديث ابن عباس في دعاء

---

(١٣٠) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أضعفت » .

(١٣١) هكذا في الزاد في الموضعين .. وفي النسخ المطبوعة « يضع » .

الكرب ، مشتملاً على توحيد الإلهيَّة والربوبية ، ووصف الرب سبحانه بالعظمة والحلم . وهاتان الصفتان مستلزمتان لكمال القدرة والرحمة والإحسان والتجاوز ، ووصفه بكمال ربوبيته للعالم العُلويِّ والسُّفلي ، والعرشِ الذي هو سقفُ المخلوقات وأعظمها ، والرُّبوبية التامة تستلزم توحيدَهُ ، وأنه الذي لا تنبغي العبادةُ والحُبُّ والخوف والرجاء والإجلال والطاعة إلَّا له ، وعظمته المطلقة تَستَلْزِمُ إثْبَاتَ كُلِّ كَمالٍ له ، وسلْبَ كل نقص وتمثيل عنه ، وَحِلْمُه يستلزمُ كَمَالَ رحمتِهِ وإحسانِهِ إلى خَلقه .

فَعلمُ القلب ومعرفته بذلك توجب محبته وإجلاله وتوحيده ، فيحصل له من الابتهاج واللذة والسرور ما يدفع عنه ألم الكرب والهم والغم ، وأنت تجد المريض إذا ورد عليه ما يَسُرُّهُ ويُفْرِحُه ويُقَوي نَفسَهُ ، كيف تَقْوى الطبيعة على دَفْعِ المرضِ الحسِّي ، فحصول هذا الشفاء للقلب أوْلى وأحرى .

ثم إذا قابلت بين ضيق الكرب وسعة هذه الأوصاف – التي تضمنها دعاءُ الكرب – وجدته في غاية المناسبة لتفريج هذا الضيق ، وخروج القلب منه إلى سَعة البَهْجة والسُّرور . وهذه الأمور إنما يصدِّق بها من أشرقت فيه أنوارها ، وباشر قلبه حقائقها .

وفي تأثير قوله : « يا حيُّ يا قيومُ برحمتك أستغيثُ » في دفع هذا الداء – مناسبة بديعة . فإنّ صفة الحياة متضمنة لجميع صفات الكمال ، مستلزمة لها ، وصفة القيُّومية متضمنه لجميع صفات الأفعال ، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سُئل به أعطى – هو : اسم الحي القيوم . والحياة التامَّةُ تُضادُّ جميع الأسقام والآلام ، ولهذا لَما كَمُلَت حياة أهل الجنة لم يلحقهم هَمٌّ ولا غَمٌّ ولا حَزَن ، ولا شيء من الآفات . ونقصان الحياة – يضر بالأفعال ، ويُنافي(١٣٢) القيومية . فكمالُ القيومية لكمال الحياة ، فالحيُّ المطلق التام لا تفوتُه(١٣٣) صفة الكمال البتة ، والقيوم لا يتعذَّرُ عليه فعل ممكنٌ البتة ، فالتوسل بصفة الحياة والقيومية ، له تأثير في إزالة ما يُضادُّ الحياة ، ويضر بالأفعال .

---

(١٣٢) فى الزاد « تضر بالأفعال ، وتنافى ... » .

(١٣٣) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « يفوته » .

ونظير هذا توسُّل النبي ﷺ إلى ربه – بربوبيته لجبريل وميكائيلَ وإسرافيلَ – أن يهديه لما اختُلف فيه من الحق بإذنه ، فإن حياة القلب بالهداية ، وقد وكَّل الله سبحانه هؤلاء الأملاك الثلاثة بالحياة : فجبريل موكَّل بالوحي الذي هو حياة القلوب ، وميكائيل بالقَطر الذي هو حياة الأبدان والحيوان ، وإسرافيل بالنَّفخ في الصُّور الذي هو سبب حياة العالم وعَوْد الأرواح إلى أجسادها . فالتوسل إليه سبحانه ، بربوبيّة[١٣٤] هذه الأرواح العظيمة الموكَّلةَ بالحياة ، له تأثير في حصول المطلوب .

والمقصود أن لاسم الحيِّ القيوم تأثيراً خاصاً في إجابة الدعوات ، وكشف الكربات .

وفي السنن وصحيح أبي حاتم مرفوعاً : « اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ واحدٌ ، لا إِلَٰهَ إلا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيم ﴾[١٣٥] ؛ وفاتحة آل عمران : ﴿ الٓمٓ ، اللهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الحيُّ الْقَيُّومُ ﴾[١٣٦] . قال الترمذيُّ : حديث صحيح[١٣٧] .

وفي السنن وصحيح ابن حبان أيضاً ، من حديث أنس : « أن رجلا دعا ، فقال : اللهم ؛ إنِّي أسألك بأن لك الحمد ، لا إلٰهَ إلا أنت المنان بديع السمٰوات والأرض ، ياذا الجلال والإكرام ، يا حيُّ يا قيوم . فقال النبي ﷺ : لقد دعا الله باسمه الأعظم ، الذي إذا دُعي به أجاب ، وإذا سئل به أعطى »[١٣٨] .

ولهذا كان النبي ﷺ ، إذا اجتهد في الدعاء ، قال : « يا حيُّ يا قيوم » .

وفي قوله : « اللهم رحمتك أرجو ، فلا تكلني إلى نفسي طَرفة عين ، وأصْلِحْ لي شأني كُله ، لا إلٰهَ إلّا أنت » من تحقيق الرجاء لمن الخيرُ كله بيديه ، والاعتماد عليه

---

(١٣٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « بربوبيته » .

(١٣٥) سورة البقرة – الآية ١٦٣ .

(١٣٦) سورة آل عمران – الآيتان ١ ، ٢ .

(١٣٧) أخرجه الترمذي في أبواب الدعاء ، آخر باب جامع الدعوات ، عن النبي (ص) [ج ١٣ ص ٢٢] . وأخرجه ابن ماجه في كتاب الدعاء ، باب اسم الله الأعظم [ج ٢ ص ١٢٦٧] . وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب الدعاء [ج ٢ ص ٨٠] وأخرجه الدارمي في باب فضل أول سورة البقرة وآية الكرسي [ج ٢ ص ٤٥٠] .

(١٣٨) أخرجه ابن ماجه في كتاب الدعاء ، باب اسم الله الأعظم [ج ٢ ص ١٢٦٨] وأخرجه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب الدعاء [ج ٢ ص ٧٩ ، ٨٠] .

وحده ، وتفويض الأمر إليه ، والتضرع إليه أن يتولّى إصلاح شأنه ، ولا يَكِلَهُ إلى نفسه ، والتوسُّل إليه بتوحيده – مِمَّا[139] له تأثير قويٌّ في دفع هذا الداء ، وكذلك قوله : « الله ربيّ لا أشركُ به شيئا » .

وأما حديث ابن مسعود : « اللهم إني عبدُك ابن عبدِك » ففيه من المعارف الإلهيّة ، وأسرار العبودية ، مالا يتّسع له كتاب ، فإنه يتضمن الاعتراف بعبوديته وعبُوديَّة آبائه وأمهاته ، وأن ناصيته بيده يُصرِّفُها كيف يشاء ، فلا يملك العبد دونه لنفسه ، نفعاً ولا ضرًّا ، ولا موتاً ولا حياةً ، ولا نشورًا ، لأن مَنْ ناصيته بيد غيره فليس إليه شيءٌ من أمره ، بل هو عانٍ في قبضته ، ذليل تحت سلطان قهره .

وقوله : « ماضٍ فيَّ حُكمُكَ ، عَدْلٌ فيَّ قضاؤك » متضمّنٌ لأصلين عظيمين عليهما مدارُ التوحيد .

أحدهما : إثباتُ القَدَر ، وأن أحكام الرب تعالى نافذةٌ في عبده ، ماضيةٌ فيه ، لا انفكاك له عنها ، ولا حيلةَ له في دفعها .

والثاني : أنه سبحانه عَدْلٌ في هذه الأحكام ، غير ظالم لعبده ، بل لا يخرج فيها عن موجَب العدل والإحسان ، فإن الظلم سببه حاجةُ الظالم أو جهلُه أو سفهُه ؛ فيستحيل صدورُه ، مِمَّن هو بكل شيء عليمٌ ، ومَن هو غنيٌّ عن كل شيء ، وكلُّ شيء فقيرٌ إليه ، ومن هو أحكم الحاكمين . فلا تخرج ذرة من مقدوراته عن حكمته وحمده ، كما لم تخرج[140] عن قدرته ومشيئته ، فحكمته نافذة حيثُ نفذت مشيئته وقدرته ، ولهذا قال نبي الله هود ، صلى الله على نبينا وعليه وسلم – وقد خوفه قومه بآلهتهم – : ﴿ **إنِّي أشهدُ الله واشهَدوا أنّي بريءٌ مِمَّا تشركون منْ دُونه فكيدُوني جَميعاً ثمّ لا تُنظرونِ ، إني تَوَكَّلْتُ عَلَى الله رَبِّي وَرَبِّكُمْ ، مَا مِنْ دَابة إلا هُو آخِذٌ بِنَاصيَتها ، إنَّ ربِّي عَلَى صراطٍ مُسْتقيم** ﴾[141] أي : مع كونه سبحانه آخذًا بنواصي خلقه وتصريفهم كما يشاء ، فهو على صراط مستقيم ، لا يتصرفُ فيهم إلا بالعدل والحكمة ، والإحسان

---

(١٣٩) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « ما » .

(١٤٠) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « يخرج » .

(١٤١) سورة هود ، الآيات من ٥٤ – ٥٦ .

والرحمة . فقوله : « ماضٍ فيَّ حكمك » ؛ مطابق لقوله : ﴿ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ ، وقوله : « عَدْلٌ فيَّ قَضاؤُكَ » مطابقٌ لقوله : ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ .

ثم توسّل إلى ربه بأسمائه التي سمَّى بها نفسه ، ما عَلِمَ العبادُ منها ، وما لم يَعْلموا . ومنها : ما أستأثره في علم الغيب عنده فلم يُطلع عليه ملَكاً مُقَرَّباً ، ولا نبيًّا مُرْسَلا . وهذه الوسيلة أعظم الوسائل ، وأحبها إلى الله ، وأقربها تحصيلاً للمطلوب .

ثم سأله أن يجعل القرآن لقلبه كالربيع الذي يرتعُ فيه الحيوان ، وكذلك القرآن ، ربيعُ القلوب ، وأن يجعله شفاءَ همِّه وغمه ؛ فيكون له بمنزلة الدواء الذي يستأصل الدَّاء ، ويعيدُ البدن إلى صحته واعتداله ، وأن يجعله لحزنه كالجلاء الذي يجلو الطُّبوع والأصدية وغيرها ، فأحرى بهذا العلاج – إذا صدق العليل في استعماله – أن يُزيل عنه داءه ، ويعقبه شفاء تامًّا وصحة وعافيةً والله الموفق .

وأما دعوة ذي النون ، فإن فيها من كمال التوحيد والتنزيه للرب تعالى ، واعتراف العبد بظلمه وذنبه ، ما هو من أبلغ أدوية الكرْب والهَمِّ والغَمِّ ، وأبلغ الوسائل إلى الله – سبحانه – في قضاء الحوائج ، فإن التوحيد والتنزيه يتضمنان إثبات كل كمال لله ، وسلب كلِّ نقص وعيب وتمثيل عنه ، والاعتراف بالظلم يتضمن إيمان العبد بالشرع والثواب والعقاب ، ويوجب انكساره ورجوعه إلى الله واستقالة(١٤٢) عثرته ، والاعتراف بعبوديته وافتقاره إلى ربه فهاهُنا أربعة أمور قد وقع التوسلُ بها : التوحيد ، والتنزيه ، والعبودية ، والاعتراف .

وأما حديث أبي أُمامة : « اَللَّهُمَّ إني أعوذُ بكَ مِنَ الهَمِّ والحَزَنِ » ؛ فقد تضمن الاستعاذةَ من ثمانية أشياءَ كلُّ اثنين منها قَرينان مُزدَوِجان : فالهمُّ والحزَنُ أخوان ، والعجزُ والكسلُ أخوان ، والجُبنُ والبُخلُ أخوان ، وضَلَعُ الدَّيْن(١٤٣) وغلبةُ الرجال أخوان . فإن المكروه المؤلم إذا ورد على القلب ، فإما أن يكون سببه أمرًا ماضياً فيوجب له الحزن ، وإن كان أمرًا متوقعاً في المستقبل أوجب الهمَّ ، وتخلف العبد عن مصالحه

---

(١٤٢) في الزاد « واستقالته » .

(١٤٣) ضَلَعُ الدَّيْن : ثِقَلُه وشِدّته .

وتفويتها عليه ، إما أن يكون من عدم القدرة وهو العجزُ ، أو من عدم الإرادة وهو الكسل ، وحبسُ خيره ونفعه عن نفسه وعن بني جنسه ، إما أن يكون منْعَ نفعه ببدنه ، فهو الجُبن ، أو بماله ، فهو البخل ، وقهرُ الناس له إما بحق ، فهو ضَلَعُ الدَّيْن ، أو بباطل ، فهو غَلبةُ الرجال . فقد تضمن الحديثُ الاستعاذةَ من كل شر .

وأما تأثيرُ الاستغفار في دفع الهم والغم والضيق ، فلِمَا اشترَك في العلم به أهل الملل وعقلاءُ كل أمة ، أن المعاصيَ والفسادَ توجب الهم والغم ، والخوفَ والحزن ، وضيقَ الصدر ، وأمراضَ القلب ، حتى إن أهلها إذا قَضَوْا منها أوطارَهم ، وسئمتها نفوسهم ـ ارتكبوها دفعاً لما يجدونه في صدورهم من الضيق والهم والغم ، كما قال شيخ الفسوق[144] .

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ   وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

وإذا كان هذا تأثير الذنوب والآثام في القلوب فلا دواءَ لها إلا التوبةُ والاستغفار .

وأما الصلاةُ فشأنها في تفريح القلب وتقويته ، وشرحِه وابتهاجه ولذته أكبر شأن . وفيها من اتصالِ القلب والرُّوح بالله وقربه ، والتنعُّم بذكره ، والابتهاج بمناجاته ، والوقوفِ بين يديه ، واستعمالِ جميع البدن وقُواه وآلاته في عبوديته ، وإعطاء كلِ عضو حظَّه منها ، واشتِغاله عن التعلُّق بالخَلْقِ[145] وملابستِهم ومحاورتهم ، وانجذاب قُوى قلبه وجوارحه إلى ربه وفاطره ، وراحتِه من عَدوِّه حالةَ الصلاة ـ ما صارتْ به من أكبر الأدوية والمفرِّحات ، والأغذية التي لا تُلائم إلا القلوبَ الصحيحة ، وأمَّا القلوبُ العليلة ، فهي كالأبدان [العليلة][146] لا تُناسبها الأغذية الفاضلة .

فالصلاةُ من أكبر العون على تحصيلِ مصالح الدنيا والآخرة ، ودفع مفاسد الدنيا والآخرة ، وهي منْهاةٌ عن الإثم ، ودافعةٌ لأدواء القلوب ، ومَطْرَدةٌ للداءِ عن الجسد ،

---

(١٤٤) هو : أبو بصير ، ميمون بن قيس بن جندل ، المعروف بالأعشى . والبيت من قصيدة له يمدح فيها رَهْطَ عبد المَدان بن الدَّيَّان ، سادة نجران من بني الحارث بن كعب ، يبدؤها بقوله :

أَلَمْ تَنْـهَ نَفْسَـكَ عَمَّـا بِهَـا   بَلَى عَـادَهَـا بعضُ أَطْرَابِهَـا

[انظر ديوان الأعشى الكبير ، شرح وتعليق د . محمد حسين ص ١٧١] .

(١٤٥) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « بالمخلوق » .

(١٤٦) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

ومنوِّرةٌ للقلب ، ومُبيضةٌ للوجه ، ومُنشطة للجوارح والنفس ، وجالبة للرزق ، ودافعةٌ للظلم ، وناصرةٌ للمظلوم ، وقامعةٌ لأخلاط الشهوات ، وحافظة للنعمة ، ودافعةٌ للنِّقمة ، ومنزلةٌ للرحمة ، وكاشفة للغمَّة ، ونافعةٌ من كثير من أوجاع البطن .

وقد روى ابن ماجه في سننه من حديث مجاهد ، عن أبي هريرة ، قال : « رآني رسول الله ﷺ وأنا نائم أشكو من وجع بطني ، فقال لي . يا أبا هريرة ، أَشِكَمَتْ(١٤٧) دَرْد ؟ قال : قلتُ : نعم يا رسول الله . قال . قم فصلِّ ، فإن في الصلاة شفاءً »(١٤٨) .

وقد رُوى هذا الحديثُ موقوفاً عَلَى أبي هريرةَ ، وأنه هو الذي قال ذلك لمجاهد . وهو أشبه . ومعنى هذه اللفظةِ بالفارسية : أيوجعُكَ بطنُكَ ؟

فإن لم ينشرح صدر زنديق الأطباء بهذا العلاج ، فيخاطبُ بصناعة الطب ، ويقالُ له : الصلاة رياضة النفس والبدن جميعاً ، إذ كانت تشتمل على حركات وأوضاع مختلفة من الانتصاب ، والركوع ، والسجود ، والتَّورُّك ، والانتقالات ، وغيرها من الأوضاع التي يتحرك معها أكثر المفاصل ، وينغمز معها أكثر الأعضاء الباطنة — كالمعدة والأمعاء ، وسائر آلات النفس والغذاء . فما يُنكر أن(١٤٩) في هذه الحركات تقويةً وتحليلاً للمواد — ولاسيَّما بواسطة قوةِ النفس وانشراحِها في الصلاة — فتقوى الطبيعة ، فيندفع الألم .

ولكن داء الزندقةِ والإعراض عما جاءت به الرسل ، والتَّعوُّض عنه بالإلحاد — داءٌ ليس له دواءٌ إلا نارٌ ﴿ تَلَظَّى ۝ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا ٱلْأَشْقَى ۝ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴾(١٥٠) .

وأمَّا تأثيرُ الجهاد في دفع الهم والغم ، فأمرٌ معلوم بالوجدان ، فإن النفس متى تركتْ صائلَ الباطل وصولته واستيلاءَه ، اشتد همُّها وغمها ، وكربُها وخوفها . فإذا جاهدته لله [تعالى](١٥١) أبدل الله ذلك الهمَّ والحزن ، فرحاً ونشاطاً وقوةً . كما قال تعالى :

---

(١٤٧) هكذا فى الزاد ، وفى سنن ابن ماجه . وفى النسخ المطبوعة « إشكَم » وهى كلمة فارسية معناها : بطن – والتاء فيها للخطاب – وه دَرْد » بمعنى : وَجَع .

(١٤٨) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب الصلاة شفاء [ج ٢ ص ١١٤٤] .

(١٤٩) فى الزاد « أن يكون » .

(١٥٠) سورة الليل – الآيات من ١٤ – ١٦ .

(١٥١) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ ، وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ ، وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ﴾[١٥٢] . فلا شيءَ أذهبُ لجوَى القلب وغمِّه وهمه وحزنه ، من الجهاد . والله المستعان .

وأمَّا تأثيرُ « لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله » في دفع هذا الداءِ ، فلِما فيها من كمالِ التفويض ، والتَّبرِّي[١٥٣] من الحول والقوة إلا به ، وتسليمِ الأمر كله له ، وعدم منازعته في شيء منه ، وعمومِ ذلك لكل تحوُّلٍ من حال إلى حال في العالم العُلْويِّ والسُّفْليِّ ، والقوةِ على ذلك التحولِ ، وأن ذلك كله بالله وحده . فلا يقوم لهذه الكلمة شيء .

وفي بعض الآثار : « أنه ما ينزلُ ملكٌ من السماء ولا يَصْعَدُ إليها ، إلا بلَا حَولَ ولا قُوةَ إلَّا بالله » . ولها تأثيرٌ عجيب في طرد الشيطان . والله المستعان .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي عِلَاجِ الْفَزَعِ وَالْأَرَقِ الْمَانِعِ مِنَ النَّوْمِ

روى الترمذيُّ في جامعه ، عن بُريدةَ ، قال : شكا خالدٌ إلى النبي ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، ما أنام الليل من الأرقِ . فقال النبي ﷺ : « إذا أوَيْتَ إلى فِراشِك ، فقلْ : اَللهم ربَّ السَّمٰواتِ السَّبْعِ وما أظَلَّتْ ، وربَّ الأَرَضِينَ وما أَقَلَّتْ ، وربَّ الشياطينِ وما أضلَّت ، كُنْ لي جارًا مِنْ شرِّ خَلْقِكَ كلهم جميعاً : أنْ يفرُطَ عليَّ أحدٌ منهم ، أو يَبغَي عَلَيَّ ، عزَّ جَارُكَ ، وجلَّ ثَناؤُكَ ، ولا إله غيرُك »[١٥٤] .

وفيه أيضاً ، عن عمرو بن شُعيب ، عن أبيه ، عن جده : « أن رسول الله ﷺ ، كان يعلِّمُهم من الفزع : أعوذُ بكلماتِ الله التامَّةِ من غضبه وعقابه وشرِّ عباده ، ومن

---

(١٥٢) سورة التوبة – الآيتان : ١٤ ، ١٥ .

(١٥٣) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « والتبرئ » بالهمز .

(١٥٤) رواه الترمذى فى أبواب الدعاء [ج ١٣ ص ٤٩] وفى سنده الحَكَم بنُ ظُهَيْر الفزارى ، وهو متروك ، منكر الحديث . [انظر الضعفاء الصغير للبخارى ص ٦٥] وقال الترمذى عن هذا الحديث : هذا حديث ليس إسناده بالقوى ، والحكم بن ظهير قد ترك حديثه بعض أهل الحديث . ويُرْوَى هذا الحديث عن النبى (ص) مرسلاً من غير هذا الوجه .

همزاتِ الشياطينِ ، وأعوذُ بك ربِّ أن يَحضُرُونِ . قال : وكان عبد الله بن عمرو[١٥٥] يعلمُهنَّ من عَقَل من بنيه ، ومن لم يعقلْ كتبه فأعلقه[١٥٦] عليه »[١٥٧] .

ولايخفى مناسبة هذه العوذة لعلاج هذا الداء .

فصل في هديه ﷺ في علاج داء الحريق وإطفائه

يذكر عن عمرو بن شُعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم الحريقَ فكبروا ، فإن التكبيرَ يُطفِئه »[١٥٨] .

لما كان الحريق سببُه النارُ ، وهي مادةُ الشيطان التي خُلق منها ، وكان فيه من الفساد العام ، ما يناسبُ الشيطان بمادته وفعلِه ، كان للشيطان إعانة عليه وتنفيذ له ، وكانت النارُ تطلب بطبعها العلوَّ والفسادَ . وهذان الأمران ـــ وهما العلوُّ في الأرض والفسادُ ـــ هما هَدْي الشيطان ، وإليهما يدعو ، وبهما يُهلِكُ بني آدم ، فالنار والشيطان كل منهما يُريد العلوَّ في الأرض والفسادَ ، وكبرياءُ الربِّ عز وجل تَقْمَعُ الشيطانَ وفِعْلَه .

ولهذا كان تكبيرُ الله عز وجل ، له أثرٌ في إطفاء الحريق ، فإن كبرياء الله عز وجل لا يقوم لها شيء ، فإذا كَبَّرَ المُسْلِمُ رَبَّه ، أثَّرَ تكبيرُه في خمود النار وخمود الشيطان التي

---

(١٥٥) هكذا فى الزاد ، وهو مطابق لما ورد عند أبى داود ، وهو الذى أرجحه ، فأبو عمرو شعيب بن محمد ، حفيد عبد الله بن عمرو بن العاص ، وهو أحد المحدثين عنه . [انظر تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٤٢] . وفى النسخ المطبوعة « عُمر » وهو مطابق لما ورد فى الترمذى – وهو تصحيف .

(١٥٦) هكذا فى الزاد ، وفى سنن أبى داود .. وفى النسخ المطبوعة « وعَلَّقه » .

(١٥٧) أخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب كيف الرُّقى [ج ٤ ، ص ١٢] وأخرجه الترمذى فى أبواب الدعاء [ج ١٣ ص ٥٢] وقال عنه : حديث حسن غريب .

(١٥٨) أخرجه ابن السُّنى فى عمل اليوم والليلة ، وفى سنده القاسم بن عبد الله العُمَرى ، وهو متروك ، رماه أحمد بالكذب . وقال عنه يحيى : ليس بشىء . ورماه الدارقطنى بالضعف [انظر الضعفاء الصغير للإمام البخارى ص ١٩٦] وفى الضعفاء الكبير ، قال ابن أبى مريم – تعليقاً على هذا الحديث : « هذا الحديث سمعه ابن لهيعة من زياد بن يونس الحضرمى ، رجلٌ كان يسمع معنا الحديث عن القاسم بن عبد الله بن عمر ، وكان ابن لهيعة يستحسنه ، ثم إنه بعدُ قال إنه يرويه عن عمرو بن شعيب » . وابن لهيعة هذا رماه علماء الحديث بالضعف وقال : ليس بقوى الحديث ، ولايحتج به . [انظر الضعفاء الكبير لأبى جعفر العقيلى ج ٢ ص ٢٩٢ – ٢٩٦] .

هي مادته ، فيطفئ الحريق ، وقد جربنا نحن وغيرنا هذا ، فوجدناه كذلك . والله أعلم .

فصل في هديه ﷺ في حفظ الصحة

لما كان اعتدالُ البدن وصحتُه وبقاؤه ، إنما هو بواسطة الرطوبة المقاومةِ للحرارة ، فالرطوبة مادته ، والحرارة تنضجُها وتدفع فضلاتِها ، وتصلحها وتلطفها ، وإلا أفسدت البدن ولم يمكن قيامُه . وكذلك الرطوبة ، هي غِذاءُ الحرارة ، فلولا الرطوبةُ لأحرقتِ البدن وأيبسَتْه وأفسدته ، فقِوام كل واحدة منهما بصاحبتها ، وقوام البدن بهما جميعاً ، وكل منهما مادة للأخرى ، فالحرارة مادة للرطوبة ، تحفظُها وتمنعها من الفساد والاستحالة ، والرطوبة مادة للحرارة ، تغذوها وتحملها ، ومتى مالتْ إحداهما إلى الزيادة على الأخرى ، حصل لمزاج البدن الانحرافُ ، بحسب ذلك . فالحرارة دائماً تحلّل الرطوبة ، فيحتاج البدن إلى مابه يُخلَف عليه ما حلّلته الحرارة — لضَرُورة[159] بقائه — وهو الطعام والشراب . ومتى زاد على مقدار التحلُّل ضعُفتِ الحرارةُ عن تحليل فضلاته ، فاستحالتْ موادَّ رديئةً ، فعاثتْ في البدن وأفسدتْ ، فحصلت الأمراض المتنوعة بحسب تنوُّع موادِّها ، وقبولِ الأعضاء واستعدادِها .

وهذا كله مستفاد من قوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ﴾[160] . فأرشد عباده إلى إدخال ما يُقيم البدنَ من الطعام والشراب ، عِوضَ ما تحلل منه ، وأن يكون بقدر ما ينتفع به البدنُ في الكمِّية والكيفية ، فمتى جاوز ذلك كان إسرافاً . وكلاهما مانعٌ من الصحة ، جالبٌ للمرض ، أعني : عدمَ الأكل والشرب ، أو الإسرافَ فيه .

فحفظُ الصحة كلُّه في هاتين الكلمتين الإلٰهيَّتين . ولا ريب أن البدن دائماً في التحلل والاستخلاف ، وكلَّما كثر التحللُ ضعفت الحرارة لفناء مادتها ، فإن كثرة التحلل تفني الرطوبة ، وهي مادة الحرارة ، وإذا ضعفت الحرارة ضعف الهضم ، ولا يزال كذلك

---

(١٥٩) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « ضرورة » .

(١٦٠) سورة الأعراف – الآية ٣١ .

حتى تَفْنَى الرطوبةُ ، وتنطفئَ الحرارة جملةً ، فيستكمِلُ العبد الأَجَلَ الذي كتب الله له أن يصل إليه .

فغاية علاج الإنسان لنفسه ولغيره حراسة البدن إلى أن يصل إلى هذه الحالة ، لا أنه يستلزم بقاءَ الحرارة والرطوبة اللتين بقاءُ الشباب والصحة والقوة بهما ، فإن هذا مما لم يحصل لبشر في هذه الدار . وإنما غاية الطبيب أن يحميَ الرطوبة عن مفسداتها من العفونة وغيرها ، ويحميَ الحرارة عن مضعِفاتها ، ويعدل بينهما بالعدل في التدبير الذي به قام بدن الإنسان ، كما أن به قامت السمٰوات والأرض ، وسائر المخلوقات إنما قوامُها بالعدل .

وَمَن تأمل هَدْيَ النبي ﷺ ، وجده أفضل هَدْيٍ يمكن حفظ الصحة به ، فإنَّ حفْظَها موقوف على حسن تدبير المَطْعَمِ والمَشْرَب ، والمَلْبَس والمسكن ، والهواء ، والنوم واليقظة ، والحركة والسكون ، والمَنكَح ، والاستفراغ والاحتباس . فإذا حصَلَتْ هذه على الوجه المعتدل الموافق الملائم للبدن والبلد والسن والعادة — كان أقرب إلى دوام الصحة [والعافية][161] أو غلبتِها إلى انقضاء الأجل .

ولمَّا كانت الصحة [والعافية] من أجلِّ نعم الله على عبده ، وأجزل عطاياه ، وأوفر مِنَحِه — بل العافية المطلقة أجلُّ النعم على الإطلاق — فحقيق لمن رُزِقَ حظًّا من التوفيق ، مراعاتها وحفظها ، وحمايتها عما يضادُّها .

وقد روى البخاري في صحيحه — من حديث ابن عباس — قال : قال رسول الله ﷺ : « نِعمتان مغبونٌ فيهما كثير من الناس : الصحةُ والفراغُ »[162] .

وفي الترمذي وغيره — من حديث عبيد الله[163] بن محصَن الأنصاري — قال : قال رسول الله ﷺ : « من أصبح مُعافًى فى جسده ، آمِناً في سِرْبه ، عنده قوتُ يومه —

---

(١٦١) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد فى الموضعين .

(١٦٢) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق [ج ١١ ص ٢٢٩ من فتح البارى] .
وأخرجه الترمذى فى أبواب الزهد [ج ٩ ص ١٨١ ، ١٨٢] .

(١٦٣) هكذا فى الزاد ، وفى الترمذى ، وفى ابن ماجه .. وفى النسخ المطبوعة « عبد الله » تصحيف .. وكانت له صحبة [انظر أسد الغابة ج ٣ ص ٥٣٠].

فكأنما حِيزَتْ له الدنيا(١٦٤) » .. وفي الترمذي أيضاً ـــ من حديث أبي هريرة ، عن النبي ﷺ ـــ أنه قال : « أول ما يُسأل عنه العبد يوم القيامة ، من النعيم ، أن يقال له : ألم نُصِحَّ لكَ جسمك ، ونرَوِّكَ من الماءِ البارد ؟! »(١٦٥) . ومِنْ ها هنا ، قال مَنْ قال مِنَ السلف ـــ في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾(١٦٦) قال عن الصحة .

وفي مسند الإمام أحمد أن النبي ﷺ ، قال للعباس : « يا عباس يا عمَّ رسول الله ، سَلِ اللهَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرَة »(١٦٧) . وفيه عن أبي بكر الصِّديق ، قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « سلوا الله اليقينَ والمُعافاةَ ، فما أُوتيَ أحد ـــ بعد اليقين ـــ خيرًا من العافية » . فجمع بين عافيتي الدين والدنيا . ولا يتمُّ صلاح العبد في الدارين ، إلا باليقين والعافية ، فاليقين يدفع عنه عقوبات الآخرة ، والعافية تدفع عنه أمراض الدنيا في قلبه وبدنِه .

وفي سنن النسائي ، من حديث أبي هريرة يرفعه : « سلوا الله العفوَ والعافية والمعافاة ، فما أُوتيَ أحد ـــ بعد يقين ـــ خيراً من مُعافاة » . وهذه الثلاثة تتضمَّن إزالة الشرور الماضية ، بالعفو ، والحاضرة ، بالعافية ، وَالمستقبلة ، بالمعافاة ، فإنها تتضمن المداومة والاستمرار على العافية .

وفي الترمذي مرفوعاً : « ما سُئل الله شيئاً أحبَّ إليه من العافية »(١٦٨) .

وقال عبد الرحمن بن أبي ليلى عن أبي الدَّرْداء : « قلت : يارسول الله ، لأنْ أُعافَى فأشكُرَ ، أحَبُّ إليَّ من أن أُبتَلى فأصْبِرَ . فقال رسول الله ﷺ : ورسولُ الله يحبُّ معكَ العافية » .

ويذكر عن ابن عباس : « أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : ما أسأل

---

(١٦٤) أخرجه الترمذى فى أبواب الزهد [ج ٩ ص ٢٠٨] وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب القناعة [ج ٢ ص ١٣٨٧] وحيزت له الدنيا ، أى : جُمِعَتْ .

(١٦٥) أخرجه الترمذى فى أبواب التفسير – من سورة التكاثر . وقال عنه : حديث غريب .

(١٦٦) سورة التكاثر – الآية ٨ .

(١٦٧) وأخرجه الترمذى أيضاً فى أبواب الدعاء [ج ١٢ ص ٥٥] .

(١٦٨) أخرجه الترمذى فى أبواب الدعاء [ج ١٢ ص ٤٦] وقال عنه : حديث غريب .

الله بعد الصلوات الخمس ؟ فقال : سَلِ الله العافية . فأعاد عليه ، فقال له في الثالثة : سل الله العافية في الدنيا والآخرة »(١٦٩) .

وإذًا كان هذا شأن العافية والصحةِ ، فنذكُرُ من هديه ﷺ ، في مراعاة هذه الأمور ، ما يتبيَّنُ لمن نظر فيه أنه أكمل الهدى على الإطلاق ، ينال به حفظ صحةِ البدن والقلب ، وحياة الدنيا والآخرة . والله المستعان ، وعليه التُّكلان . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي الْمَطْعَمِ وَالْمَشْرَبِ*

فأما المطعمُ والمشرب فلم يكن من عادته ﷺ ، حبسُ النفسِ على نوع واحد من الأغذية ، لا يتعدَّاه إلى ما سواه ، فإن ذلك يضر بالطبيعة جدًّا ، وقد يتعذر عليها أحياناً ، فإن لم يتناول غيرَه ضعفَ أو هلكَ ، وإن تناول غيره لم تقبله الطبيعة ، وَاستَضرَّ(١٧٠) به ، فقصرها على نوع واحد دائماً ـــ ولو أنه أفضل الأغذية ـــ خطرٌ مُضر .

بل كان يأكل ما جَرتْ عادةُ أهل بلده بأكله ، من اللحم ، والفاكهة ، والخبز والتمر ، وغيره ، مما ذكرناه في هديه في المأكول ، فعليك بمراجعته هناك(١٧١) .

وإذا كان في أحد الطعامين كيفيةٌ تحتاج إلى كسر وتعديل ، كَسَرها وعدَّلها بضدها إن أمكن ، كتعديله(١٧٢) حرارةَ الرطب بالبطيخ ، وإن لم يجد ذلك ، تناوَله على حاجة وداعية من النفس من غير إسراف ، فلا تتضرر به الطبيعة .

وكان إذا عافت نفسه الطعام لم يأكله ، ولم يحملها إيَّاه على كره ، وهذا أصل عظيم

---

(١٦٩) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الدعاء ، باب الجوامع من الدعاء [ج ٢ ص ١٢٦٥] ، وزاد عليه فى آخره : « فإذا أُعْطِيتَ العَفْوَ والعافية فى الدنيا والآخرة فقد أَفْلَحْتَ » .

(*) هذا العنوان لم يرد فى الزاد .

(١٧٠) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « فاستضرَّ » .

(١٧١) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « ها هنا » .

(١٧٢) فى الزاد « كتعديل » .

في حفظ الصحة ، فمتى أكل الإنسان ما تعافه نفسه ولا تشتهيه[١٧٣] كان تضررّه به أكثر من انتفاعه .

قال أبو هريرة :[١٧٤] « ما عاب رسولُ الله ﷺ طعاماً قط ، إن اشتهاه أكلَه ، وإلا تركه ولم يأكُلْ منه »[١٧٥] ولمَّا قُدِّمَ إليه الضبُّ المشويُّ لم يأكُلْ منه ، فقيل له : أهو حرامٌ ؟ قال : « لا ، ولكنْ لم يكن بأرضِ قومي ، فأجِدُني أعافهُ »[١٧٦] . فراعى عادتَه وشهوتَه ، فلمَّا لم يكن يعتاد أكله بأرضه ، وكانت نفسه لا تشتهيه أمسَكَ عنه ، ولم يَمنع مِن أكله من يشتهيه ، ومَنْ عادتُه أكلُه .

وكان يحب اللحم ، وأحبُّه إليه الذراعُ ومقدَّم الشاة ، ولذلك سُمَّ فيه .

وفي الصحيحين : « أُتيَ رسول الله ﷺ بلحم ، فرُفع إليه الذراعُ ، وكانت تُعجبهُ » . وذكر أبو عُبيد وغيره ، عن ضباعةَ بنت الزُّبير : « أنها ذَبحتْ في بيتها شاةً ، فأرسل إليها رسولُ الله ﷺ أنْ أطْعِمِينا من شاتكم . فقالت للرسول : ما بقيَ عندَنا إلَّا الرَّقبةُ ، وإني لأستحي أنْ أُرسلَ بها إلى رسول الله ﷺ . فرجع الرسولُ فأخبره ، فقال : ارجعْ إليها ، فقلْ لها : أرسِلي بها ، فإنها هاديةُ الشاةِ وأقربُ إلى الخير ، وأبعدُها من الأذى » .

ولا ريب أن أخفَّ لحمِ الشاة لحمُ الرقبة ، ولحمُ الذراع والعضد . وهو أخفُّ على المعدة ، وأسرعُ انهضاماً . وفي هذا مراعاةُ الأغذية التي تجمع ثلاثةَ أوصاف : (الأول)[١٧٧] كثرةُ نفعها وتأثيرها في القُوى . (الثاني) : خفتُها على المعدة ، وعدمُ

---

(١٧٣) في الزاد « ولا يشتهيه » .

(١٧٤) هكذا في الزاد ، وهو مطابق لما ورد في سند الحديث عند البخاري وأبي داود ، وابن ماجه ، وغيرهم .. وفي النسخ المطبوعة « قال أنس » وربما كان ذلك وَهْمًا من المصنف ، رحمه الله ، فلم أعثر على هذا الحديث مرويًا عن أنس ، بل رُوي عن أبي هريرة .

(١٧٥) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة ، باب ماعاب النبي (ص) طعاماً [ج ٩ ص ٥٤٧ من فتح الباري] . وأخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة ، باب النهي أن يعاب الطعام [ج ٢ ص ١٠٨٥] . وأخرجه أبو داود في كتاب الأطعمة ، باب في كراهية ذم الطعام [ج ٣ ص ٣٤٦] .

(١٧٦) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد ، باب الضب [جـ ٩ ص ٦٦٢ ، ٦٦٣ من فتح الباري] . وأخرجه مسلم في كتاب الصيد والذبائح ، باب إباحة الضب [جـ ١٣ ص ٩٧ – ١٠٣] .

(١٧٧) في الزاد « أحدها » .

ثقلها عليها . (الثالث) : سرعة هضمها . وهذا أفضل ما يكون من الغِذاء . والتغذِّي باليسير من هذا ، أنفعُ من الكثير من غيره .

وكان يُحب الحَلْواء والعسل . وهذه الثلاثة ــ أعني : اللحمَ ، والعسلَ ، والحلواءَ ــ من أفضل الأغذية ، وأنفعِها للبدن والكبد والأعضاء ، وللاغتذاء بها نفعٌ عظيم فى حفظ الصحة والقوة ، ولا يَنْضرُّ[178] منها إلا مَن به علةٌ وآفة .

وكان يأكل الخبز مأدُوماً ما وَجَدَ له إداماً ، فتارةً يَأدِمهُ باللحم ، ويقول : « هو سيِّدُ طعامِ أهل الدنيا والآخرة »[179] . رواه ابن ماجه وغيره . وتارة بالبطيخ ، وتارةً بالتمر . فإنه وضع تمرة على كِسْرة ، [شعير][180] ، وقال : « هذا إدامُ هذه » . وفي هذا ــ من تدبير الغذاء ــ أن خبز الشعير بارد يابس ، والتمر حار رطب على أصح القولين ، فأدمُ خبز الشعير به من أحسن التدبير ، لاسيَّما لمن تلك عادتُهم ، كأهل المدينة . وتارةً بالخَل ، ويقول : « نِعمَ الإدامُ الخَلُّ » . وهذا ثناءٌ عليه بحسب مقتضى الحال الحاضر ، لا تفضيلٌ له على غيره ، كما يظن الجهالُ . وسببُ الحديث : « أنه دخل على أهله يوماً ، فقدَّموا له خبزًا ، فقال : هل عندَكم مِن إدامٍ ؟ قالوا : ما عندَنا إلَّا خَلٌّ . فقال : نِعمَ الإدامُ الخلُّ » .

والمقصود : أن أكل الخبز مأدومًا من أسباب حفظ الصحة ، بخلاف الاقتصار على أحدهما وحده . وسُمي الأدمُ أدماً : لإصلاحه الخبزَ وجعلِه ملائماً لحفظ الصحة . ومنه قوله في إباحته للخاطب النظرَ : « إنه أحْرَى أنْ يُؤْدَمَ بينَهما » ، أي : أقربُ إلى الالتئام والموافقة ، فإن الزوج يدخل على بصيرة ، فلا يندم .

وكان يأكل من فاكهة بلده عند مجيئها ، ولا يَحتمِي عنها ، وهذا أيضاً من أكبر أسباب حفظ الصحة ، فإن الله سبحانه ــ بحكمته ــ جعل في كل بلد[181] من

---

(١٧٨) فى الزاد «يتَنفر» .

(١٧٩) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب اللحم [جـ ٢ ص ١٠٩٩]وفى سنده سليمان بن عطاء الحرانى ، وهو مُتَّهَمٌ بالوضع والضعف ، وقال عنه البخارى : فى حديثه بعض المناكير . وجرّحَهُ ابن حبان [انظر الضعفاء الكبير جـ ٢ ص ١٢٤] .

(١٨٠) مابين المعقوفتين عن الزاد .

(١٨١) فى الزاد « بلدة » .

الفاكهة ، ما ينتفع به أهلُها في وقته ، فيكون تناوُله من أسباب صحتِهم وعافيتهم ، ويُغني عن كثير من الأدوية . وقلَّ مَن احتَمى عن فاكهة بلده خشيةَ السُّقم ، إلا وهو من أسقم الناس جسماً ، وأبعدِهم من الصحة والقوة .

وما في تلك الفاكهة ــ من الرطوبات فحرارةُ الفصل والأرض ، وحرارةُ المعدة تنضجها ، وتدفعُ شرها ، إذا لم يُسْرف فى تناولها ، ولم يحمِّل منها الطبيعةَ فوق ما تحتمله ، ولم يُفسد بها الغذاء قبل هضمه ، ولا أفسَدَها بشرب الماء عليها ، وتناولِ الغذاء بعد التحلّي منها ، فإن القُولَنْج كثيرًا ما يَحدث عند ذلك ، فَمن أكل منها ما ينبغي ، في الوقت الذي ينبغي ، على الوجه الذي ينبغي ــ كانت له دواءً نافعاً .

فَصْلٌ فِى هَدْيِهِ ﷺ فِى هَيئَةِ الجُلُوسِ لِلأَكْلِ

صح عنه أن قال : « لا آكل مُتَّكئًا »(١٨٢) وقال : « إنما أجلسُ كما يجلس العبدُ ، وآكلُ كما يأكل العبدُ » . وروى ابن ماجه في سننه : « أنه نَهى أن يأكلَ الرجلُ وهو منبطحٌ على وجهه »(١٨٣) .

وقد فُسر الاتكاءُ بالتربُّع ، وفسر بالاتكاء على الشيء ، وهو الاعتماد عليه ، وفسر بالاتكاء على الجنب . والأنواعُ الثلاثة من الاتكاء ، فنوعٌ منها يُضر بالأكل ، وهو الاتكاء على الجنب . فإنه يمنعُ مجرَى الطعام الطبيعي عن هيئته ، ويَعوقُه عن سرعة نفوذه إلى المعدة ، ويضغط المعدةَ ، فلا يستحكم فتحُها للغذاء . وأيضاً فإنها تميل ولا تبقى منتصبةً ، فلا يصل الغذاء إليها بسهولة .

وأما النوعان الآخران ، فمن جلوس الجبابرة المنافي للعبودية ، ولهذا قال : « آكل كما يأكل العبد » ، وكان يأكل وهو مُقْع ، ويذكر عنه : « أنه كان يجلسُ للأكل مُتورِّكًا على ركبتيه ، ويضعُ بطن قدمِه اليُسرى ، على ظهر قدمه اليمنى » ، تواضعاً لربه عز

---

(١٨٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأطعمه ، باب الأكل مُتكِئاً ، [جـ ٩ ص ٥٤٠] . وأخرجه ابن ماجه أيضا فى كتاب الأطعمة ، باب الأكل متكئاً ، [جـ ٢ ص ١٠٨٦] . وأخرجه أبو داود فى كتاب الأطعمة ، باب ماجاء فى الأكل متكئاً [جـ ٢ ص ٢٢٨] .

(١٨٣) أخرجه ابن ماجه فى آخر كتاب الأطعمة ، باب النهى عن الأكل مُنبطحاً [جـ ٢ ص ١١١٨] .

وجل ، وأدبًا بين يديه ، واحترامًا للطعام وللمؤاكِل . فهذه الهيئة أنفعُ هيئات الأكل وأفضلُها ، لأن الأعضاء كلها تكون على وضعها الطبيعي ، الذي خلقها الله سبحانه عليه ، مع ما فيها من الهيئة الأدبية . وأجودُ ما آغتذى الإنسان إذا كانت أعضاؤه على وضعها الطبيعي ، ولا يكون كذلك إلا إذا كان الإنسان منتصبًا الانتصابَ الطبيعي . وأردأ الجلسات للأكل الاتكاءُ على الجنب ، لما تقدم من أن المريء وأعضاء الازدراد تضيق عند هذه الهيئة ، والمعدة لا تبقى على وضعها الطبيعي ، لأنها تنعصر مما يلي البطن بالأرض ، ومما يلي الظهر بالحجاب الفاصل بين آلات الغذاء وآلات النَّفَس(١٨٤) .

وإن كان المراد بالاتكاء الاعتماد على الوسائد والوطاءِ الذي تحت الجالس ، فيكون المعنى : أني إذا أكلت لم أقعد متكئاً على الأوْطِية والوسائد ، كفعل الجبابرة ومَن يُريد الإكثار من الطعام ، لكني آكل بُلْغَةً كما يأكل العبد .

فصل

وكان يأكل بأصابعه الثلاث ، وهذا أنفع ما يكون من الأكلات ، فإن الأكل بإصبع أو إصبعين لا يَسْتلذُّ به الآكل ولا يُمريه ، ولا يُشبعه إلا بعد طول ، ولا تفرح آلاتُ الطعام والمعدة بما ينالها في كل أكلة ، فتأخذها على إغماض ، كما يأخذ الرجل حقَّه حبةً أو حبتين أو نحو ذلك ، فلا يلتذُّ بأخذه ، ولا يسرّ به . والأكل بالخمسة والراحة يوجب ازدحام الطعام على آلاته وعلى المعدة ، وربما انْسَدَّتِ(١٨٥) الآلاتُ فمات ، وتُغصبُ الآلات على دفعه ، والمعدةُ على احتماله ، ولا يجد له لذةً ولا استمراءً . فأنفع الأكل أكله ﷺ ، وأكلُ من اقتدى به بالأصابع الثلاث .

فصل

ومَن تدبَّر أغذيته ﷺ ، وما كان يأكله ، وجَده لم يجمع قط بين لبن وسمك ، ولا بين لبن وحامض ، ولا بين غذاءَين حارَّين ، ولا باردين ، ولا لزجين ، ولا قابضين ولا مسهلين ، ولا غليظين ، ولا مُرخيَيْن ، ولا مستحيلين إلى خلط واحد ، ولا بين

---

(١٨٤) في الزاد « التنفس » .

(١٨٥) هكذا في الزاد ، وفي النسخ المطبوعة « انْسَدَّت » .

مختلفَين ، كقابض ومسهل ، وسريع الهضم وبطيئه ، ولا بين شَوِيّ وطبيخ ولا بين طَرِيّ وقَدِيد ، ولا بين لبن وبيض ، ولا بين لحم ولبن . ولم يكن يأكل طعاماً في وقت شدة حرارته ، ولا طبيخاً بائتاً يسخن له بالغد ، ولا شيئاً من الأطعمة العَفِنة والمالحة ، كالكَوَامِخ والمخلَّلات والملوحات ، وكلّ هذه الأنواع ضارٌّ مولِّدٌ لأنواع من الخروج عن الصحة والاعتدال .

وكان يُصلح ضرر بعض الأغذية ببعض — إذا وَجد إليه سبيلاً — فيكسر حرارةَ هذا ببرودة هذا ، ويبوسةَ هذا برطوبة هذا — كما فعل في القِثَّاء والرطب ، وكما كان يأكل التمر بالسمن — وهو الحَيْس . ويشرب نقيع التمر يلطِّف به كَيْمُوساتِ الأغذية الشديدة .

وكان يأمر بالعَشاء ولو بكف من تمر ، ويقول : « تركُ ٱلعشاءِ مَهْرَمةٌ » . ذكره الترمذيُّ في جامعه ، وابن ماجه في سننه(١٨٦) .

وذكر أبو نعيم عنه : « أنه كان ينهى عن النوم على الأكل ، ويذكر أنه يقسِّي القلب » . ولهذا في وصايا الأطباء لمن أراد حفظ الصحة : أن يمشيَ بعد العشاء خطواتٍ ولو مائة خطوة ، ولا ينام عقبه ، فإنه مضر جدًّا . وقال مسلموهم : أو يصلي عقيبه ، ليستقرَّ الغذاء بقعر المعدة ، فيسهل هضمه ويجودَ بذلك .

ولم يكن من هديه أن يشرب على طعامه فيفسده ، ولاسيَّما إن كان الماء حارًّا أو باردًا ، فإنه رديءٌ جدًّا . قال الشاعر :

لا تَكنْ عِنْدَ أَكْلِ سُخْنٍ وَبَرْدٍ … وَدُخُولِ ٱلْحَمَّامِ تَشْرَبُ مَاءَ
فَإذَا ما ٱجْتَنَبْتَ ذلكَ حقًّا … لَمْ تَخَفْ ما حَيِيت في ٱلْجَوْفِ داءَ

ويكره شرب الماء عقيبَ الرياضة والتعب ، وعقيب الجِمَاع ، وعقيب الطعام وقبله ، وعقيب أكل الفاكهة — وإن كان الشرب عقيب بعضها ، أسهل من بعض — وعقب الحمام ، وعند الانتباه من النوم . فهذا كله مناف لحفظ الصحة ، ولا اعتبار بالعوائد ، فإنها طبائع ثوانٍ .

---

(١٨٦) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب ترك العشاء [جـ ٢ ص ١١١٢] ونصه : « لاتدعوا العَشاء وَلَوْ بِكَفٍّ من تَمْر ، فإنَّ تَرْكَهُ يُهْرِمُ » ، وفى سنده إبراهيم بن عبد السلام وهو ضعيف . ورواه الترمذى عن أنس فى كتاب الأطعمة ، باب ماجاء فى فضل العشاء [جـ ٨ ص ٤٥] . وقال عنه : إنه حديث مُنْكَر .

فصل في هديه ﷺ في الشراب *

وأما هديه في الشراب ، فمن أكمل هدي يُحفظ به الصحة ، فإنه كان يشرب العسل الممزوج بالماء البارد ، وفي هذا من حفظ الصحة ، مالا يَهتدي إلى معرفته إلا أفاضل الأطباء،فإن شُربه ولعْقَه على الريق يذيب البلغم ، ويغسل خَمْل المعدة ، ويجلو لزوجتها ، ويدفع عنها الفضلات ، ويسخنها باعتدال ، ويدفع سددها ، ويفعل مثل ذلك بالكبد والكلَى والمثانة ، وهو أنفع للمعدة من كل حلو دخلها ، وإنما يضر بالعرض لصاحب الصفراء ، لحِدَّته وحِدَّة الصفراء ، فربما هيجها ، ودفع مضرته لهم بالخل ، فيعود حينئذ لهم نافعًا جدًّا . وشربه أنفع من كثير من الأشربة ، المتخذة من السكر أو أكثرها ، ولاسيَّما لمن لم يعتد هذه الأشربة ، ولا أَلِفَها طبعُه ، فإنه إذا شربها لا تلائمه(١٨٧) مُلاءَمة العسل ، ولا قريباً منه ، والمحكَّمُ في ذلك العادة ، فإنها تهدم أُصولاً ، وتبني أصولاً .

وأما الشراب إذا جَمَعَ وصْفَي الحلاوة والبرودة ، فمن أنفع شيء للبدن ، ومن أكبر أسباب حفظ الصحة ، وللأرواح والقُوى والكبد والقلب ، عشقٌ شديد له ، واستمدادٌ منه . وإذا كان فيه الوصفان ، حصَلَتْ به التغذية ، وتنفيذ الطعام إلى الأعضاء وإيصاله إليها ، أتمَّ تنفيذ .

والماء البارد رطب ، يقمع الحرارة ، ويحفظ على البدن رطوباته الأصلية ، ويرد عليه بدل ما تحلَّل منها ، ويرقِّق الغذاء ، ويُنفِذه في العروق .

واختلف الأطباء : هل يُغذِّي البدن ؟ على قولين :

فأثبتت طائفةٌ التغذية به ، بناءً على ما يشاهدونه من النمو والزيادة والقوة في البدن به ، ولاسيَّما عند شدة الحاجة إليه .

قالوا : وبين الحيوان والنبات قدرٌ مشترك من وجوه عديدة ، منها : النمُّو والاغتذاءُ

---

* هذا العنوان لم يرد في الزاد .

(١٨٧) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « لايلائمه » .

والاعتدال . وفي النبات قوة حسٌّ [وحركة](١٨٨) تناسبه ، ولهذا كان غذاءُ النبات بالماء ، فما ينكر أن يكون للحيوان به نوع غذاء ، وأن يكون جزءًا من غذائه التام .

قالوا : ونحن لا ننكر أن قوة الغذاء ومعظمه في الطعام ، وإنما أنكرنا أن لا يكون للماء تغذية البتة . قالوا : وأيضاً الطعام إنما يُغذّى بما فيه من المائية ، ولولاها لما حصلت به التغذيةُ .

قالوا : ولأن الماء مادة حياة الحيوان والنبات ، ولا ريب أن ما كان أقرب إلى مادة الشيء حصلت به التغذية ، فكيف إذا كانت مادته الأصلية ؟! قال الله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾(١٨٩) .. فكيف ننكر(١٩٠) حصول التغذية بما هو مادة الحياة على الإطلاق .

قالوا : وقد رأينا العطشان إذا حصل له الرِّيُّ بالماء البارد ، تراجعت إليه قواه ونشاطُه وحركته ، وصبرَ عن الطعام ، وانتفع بالقدر اليسير منه . ورأينا العطشان لا ينتفع بالقدر الكثير من الطعام ، ولا يجد به القوة والاغتذاء . ونحن لا ننكر أن الماء يُنفِذ الغذاء إلى أجزاء البدن ، وإلى جميع الأعضاء ، وأنه لا يتم أمر الغذاء إلا به ، وإنما ننكر على من سلب* قوة التغذية عنه البتة ، ويكاد قوله عندنا يدخل في إنكار الأمور الوجدانية .

وأنكرت طائفةٌ أخرى حصول التغذية به . واحتجت بأمور ، يرجع حاصلُها إلى عدم الاكتفاء به ، وأنه لا يقوم مقام الطعام ، وأنه لا يزيد في نمُوّ الأعضاء، ولا يخلف عليها بدل ما حللته الحرارة ، ونحو ذلك مما لا ينكره أصحاب التغذية ، فإنهم يَجعلون تغذيته بحسب جوهره ولطافته ورقته ، وتغذية كل شيء بحسبه ، وقد شوهد الهواءُ الرطب البارد اللين اللذيذ يُغذّي بحسبه ، والرائحة الطيبة تُغذّي نوعاً من الغذاء . فتغذية الماء أظهر وأظهر .

والمقصود : أنه إذا كان باردا ، وخالطه ما يحليه ـــ كالعسل أو الزبيب أو التمر أو السكر ـــ كان من أنفع ما يدخل البدن ، وحفظ عليه صحته ، فلهذا كان أحبّ

---

(١٨٨) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(١٨٩) سورة الأنبياء – الآية ٣٠ .

(١٩٠) هكذا فى الزاد ، وفى النسخ المطبوعة « ينكر » .

(*) هكذا فى الزاد ، وفى النسخ المطبوعة « سلبه » .

الشراب إلى رسول الله ﷺ ، البارد الحلو . والماءُ الفاتر ينفخ ويفعل ضدّ هذه الأشياء .

ولما كان الماء البائت أنفع من الذي يشرب وقتَ استقائه ، قال النبي ﷺ ـــ وقد دخل إلى حائط أبي الهيثم بن التيهان : « هل من ماءٍ بات في شَنَّة ؟ » فأتاه به ، فشرب منه ، رواه البخاري ولفظُه : « إن كان عندَكم ماءٌ باتَ في شَنَّة ، وإلّا كَرِعْنا »(١٩١) .

والماءُ البائت بمنزلة العجين الخمير ، والذي شُرب لوقته بمنزلة الفَطير . وأيضا فإن الأجزاء الترابية والأرضية تفارقُهُ إذا بات ، وقد ذُكر أن النبي ﷺ كان يُستَعْذَبُ له الماء ، ويُختار البائتُ منه . وقالت عائشة : « كان رسول الله ﷺ ، يُستَقَى له الماء العذْبُ من بئر السُّقْيا »(١٩٢) .

والماء الذي في القِرب والشِّنان ، ألذُّ من الذي يكون في آنية الفَخَّار والأحجار وغيرهما ، ولاسيَّما أسقيةَ الأدم ، ولهذا التمسَ النبي ﷺ ماءً بات في شَنَّةٍ ، دون غيرها من الأواني . وفي الماء ـــ إذا وُضع في الشِّنان وقِرب الأدَم ـــ خاصةٌ لطيفةٌ ، لما فيها من المسامِّ المنفتحة [التى](١٩٣) يرشح منها الماء . ولهذا [كان](١٩٣) الماء في الفخار(١٩٤) الذي يرشح ، ألذُّ منه وأبرد في الذي لا يرشح . فصلواتُ الله وسلامه على أكمل الخلق ، وأشرفهم نفسا ، وأفضلهم هَدْيا في كل شيء ، لقد دَلَّ أمته على أفضل الأمور وأنفعها لهم في القلوب والأبدان ، في الدنيا(١٩٥) والآخرة .

قالت عائشة [رضى الله عنها](١٩٦) : « كان أحبُّ الشراب إلى رسول الله ﷺ ، الحُلوَ الباردَ » . وهذا يحتمل: أن يريد به الماءَ العذبَ ـــ كمياه العيون والآبار الحلوة ـــ فإنه كان يُستعذب له الماء . ويحتمل أن يريد به الماءَ الممزوجَ بالعسل ، أو الذي نُقع فيه التمرُ أو الزبيبُ ، وقد يقال ـــ وهو الأظهر ـــ: يعمُّهما جميعا .

---

(١٩١) أخرجه البخارى فى كتاب الأشربة ، باب الكَرْع فى الحوض [ج١٠ ص ٨٨ من فتح البارى] . والشَّنَّة : القِرْبَةُ الصغيرة يكون الماء فيها أبرد من غيرها .

(١٩٢) أخرجه أبو داود فى سننه فى آخر كتاب الأشربة ، باب فى إيكاء الآنية [جـ ٢ ص ٢٤٠] .

(١٩٣) مابين المعقوفتين عن الزاد فى الموضعين .

(١٩٤) فى النسخ المطبوعة «الذى فى الفخار» .

(١٩٥) فى الزاد « والدنيا » .

(١٩٦) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

وقولُه في الحديث الصحيح : « إن كان عندكَ ماء باتَ في شَنٍّ ، وإلَّا كَرِعْنا » ، فيه دليلٌ على جواز الكَرْع ، وهو : الشرب بالفم من الحوض والمِقْراةِ ونحوها . وهذه — والله أعلم — واقعةُ عين دعت الحاجةُ فيها إلى الكَرْع بالفم ، أو قاله مبيِّناً لجوازه ، فإن من الناس من يكرهُه ، والأطباءُ تكاد تحرمُه ، ويقولون : إنه يُضِرُّ بالمعدة . وقد رُوي في حديث — لا أدري ما حاله — عن ابن عمر [رضي الله عنهما][197] : « أن النبي ﷺ نهانا أنْ نشرب على بطوننا — وهو : الكَرع ، ونهانا أنْ نغترفَ باليد الواحدة ، وقال : لا يَلَغ أحَدُكم كَمَا يَلَغُ الكَلْبُ ، ولا يَشْرَبْ بِاللَّيْلِ من إناءٍ حَتَّى يَخْتَبِره ، إلَّا أنْ يكونَ مُخَمَّرًا »[198] .

وحديثُ البخاريِّ أصحُّ من هذا . وإن صح فلا تعارُضَ بينهما ، إذ لعلَّ الشربَ باليد لم يكن يمكن حينئذٍ ، فقال : وإلا كَرِعْنا . والشربُ بالفم إنما يضرُّ إذا انكبَّ الشارب على وجهه وبطنه ، كالذي يشرب من النهر والغدير ، فأمَّا إذا شرب مُنتصباً بفمه ، من حوض مرتفع ونحوِه — فلا فرْقَ بين أن يشرب بيده أو بفمه .

فصل

وكان من هَدْيِهِ الشرُب قاعدًا ، هذا كان هديَه المعتادَ . وصحَّ عنه أنه نهى عن الشرب قائماً[199] وصح عنه أنه أمر الذي شرب قائماً أن يَسْتَقِيء[200] وصح عنه أنه شرب قائماً[201] .

---

(١٩٧) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(١٩٨) هذا الحديث لم يرد هنا كاملاً . وقد أخرجه ابن ماجه فى سننه فى كتاب الأشربة باب الشرب بالأكف والكرع [جـ ٢ ص ١١٢٤] . وفى الزوائد : فى إسناده بقية . وقال الدميرى : هذا حديث منكر ، انفرد به المصنف [ابن ماجه] وزياد بن عبد الله [الراوى] لا يكاد يعرف .

(١٩٩) أخرجه ابن ماجه عن أنس فى كتاب الأشربة ، باب الشرب قائماً [جـ ٢ ص ١١٣٢] . وفى صحيح مسلم عن أنسٍ وعن أبى سعيد الخدرى [جـ ١٣ ص ١٩٤ ، ١٩٧ بشرح النووى] . وفى سنن أبى داود [جـ ٢ ص ٢٣٦] عن أنس ، ولفظه : « أنَّ رسول الله (ﷺ) نهى عن الشرب قائماً » .

(٢٠٠) ورد هذا الحديث فى صحيح مسلم عن أبى هريرة فى باب فى الشرب قائماً ، ولفظه : « قال رسول الله (ﷺ) : لايشربَنَّ أحد منكم قائماً ، فمَن نَسِيَ فَلْيَسْتَقِيءْ » [جـ ١٣ ص ١٩٧ بشرح النووى] .

(٢٠١) فى سنن ابن ماجه فى كتاب الأشربة ، باب الشرب قائماً ، عن ابن عباس ، قال : « سقيت النبيَّ (ﷺ) من زَمْزَمَ فَشَرِب قائماً » . [جـ ٢ ص ١١٣٢] .

قالت[٢٠٢] طائفة : هذا ناسخ للنهي . وقالت طائفةٌ : بل مبيِّنٌ أن النهي ليس للتحريم ، بل للإرشاد وتركِ الأَوْلى . وقالت طائفةٌ : لا تعارُضَ بينهما أصلاً ، فإنه إنما شرب قائماً للحاجة ، فإنه جاء إلى زمزمَ — وهم يَستقُون منها — فاستَقَى ، فناولُوه الدَّلْوَ ، فشرب وهو قائم . وهذا كان موضعَ حاجة .

وللشرب قائماً آفاتٌ عديدة ، منها : أنه لا يحصل به الرِّيُّ التام ، ولا يستقر في المعدة حتى يَقسمَه الكبدُ على الأعضاء ، وينزلُ بسرعة وحِدَّة إلى المعدة ، فيُخشى منه أن يُبردَ حرارتَها ويشوشها ، ويُسرع النفوذ إلى أسافل البدن بغير تدريج ، وكلُّ هذا يُضر بالشارب . وأمَّا إذا فعله نادرًا أو لحاجة لم يَضره .

ولا يعترضُ بالعوائد على هذا ، فإنّ العوائد طبائعُ ثوانٍ ، ولها أحكامٌ أخرى ، وهي بمنزلة الخارج عن القياس عند الفقهاء .

فصل

وفي صحيح مسلم — من حديث أنس بن مالك — قال : « كان رسول الله ﷺ يَتنفَّسُ في الشراب ثلاثاً ، ويقولُ : إنه أَرْوَى وأَمْرَأ وأَبْرأ »[٢٠٣] .

الشراب — في لسان الشارع وحمَلَةِ الشرع — هو الماء . ومعنى تنفُّسِه في الشراب : إبانته[٢٠٤] القدح عن فيه وتنفُّسه خارجَه ، ثم يعود إلى الشراب ، كما جاء مصرَّحاً به في الحديث الآخر : « إذا شربَ أحدُكم فلا يَتنفسْ في القدح ، ولكنْ ، لِيُبِن الإناءَ عن فيه »[٢٠٥] .

---

(٢٠٢) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « فقالت » .

(٢٠٣) أخرجه مسلم في الأشربة ، باب كراهة النفس في الإناء [جـ ١٢ ص ١٩٨ ، ١٩٩ بشرح النووي] .

(٢٠٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « إبانة » .

(٢٠٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأشربة ، باب التنفس في الإناء عن أبي هريرة ، ولفظه : « قال رسول الله (ﷺ) : إذا شرب أحدكم فلا يتنفسْ في الإناء ، فإذا أراد أن يعود فلينحِّ الإناء ثم لِيَعُدْ ، إن كان يريد » . وفي الزوائد : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات [جـ ٢ ص ١١٣٣] . وفي سنن أبي داود في كتاب الأشربة ، باب النفخ في الشراب ، عن ابن عباس ، قال : « نهى رسول الله (ﷺ) أن يُتَنَفسَ في الإناء أو يُنْفَخَ فيه » [جـ ٣ ، ص ٣٣٨] . وفي الترمذي عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه ، أنَّ رسول الله (ﷺ) قال : « إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء » قال الترمذي : حديث حسن صحيح [جـ ٨ ص ٨٠ ، ٨١] .

وفي هذا الشُّرب حكمٌ جَمَّة ، وفوائد مهمة ، وقد نبَّه ﷺ على مَجامِعها ، بقوله : « إنه أروَى وأمرَأ وأبرأ » . فأروَى : أشدُّ ريًا وأبلغُه وأنفعُه . وأبرأ : أفعلَ من البُرء ـــ وهو الشفاء ـــ أي : يُبرئ من شدة العطش ودائه ، لتردُّدِه على المعدة الملتهبة دفعات ، فتُسكِّن الدفعةُ الثانية ما عجزت الأولى عن تسكينه ، والثالثةُ ما عجزت الثانية عنه ، وأيضا فإنه أسلمُ لحرارة المعدة ، وأبقى عليها من أن يَهجُم عليها الباردُ وَهْلَةً واحدة ، ونَهْلةً واحدة .

وأيضاً : فإنه لا يُروي لمصادفته لحرارة العطش لحظةً ، ثم يُقلع عنها ولما تُكسَرْ سَوْرتُها وَحِدَّتُها ، وإن انكسرتْ لم تبطل بالكلية ، بخلاف كسرِها على التمهُّل والتدريج .

وأيضاً : فإنه أسلمُ عاقبةً ، وآمنُ غائلةً من تناوُل جميع ما يُروِي دفعةً واحدة ، فإنه يُخاف منه أن يُطفئَ الحرارة الغريزية ـــ بشدةِ برده ، وكثرةِ كميته ـــ أو يُضعفها ، فيؤدِّي ذلك إلى فساد مزاج المعدة والكبد ، وإلى أمراض رديئة ، خصوصاً في سكان البلاد الحارة ـــ كالحجاز واليمن ونحوهما ـــ أو في الأزمنة الحارة ـــ كشدة الصيف ـــ فإن الشرب وَهْلةً واحدةً مَخُوفٌ عليهم جدًّا ، فإن الحار الغريزي ضعيف في بواطن أهلها ، وفي تلك الأزمنة الحارة .

وقوله : « وأمْرَأ » هو أفعل من : مَرِئ الطعامُ والشرابُ في بدنه : إذا دخله وخالطه بسهولة ولذة ونفع . ومنه : ﴿ **فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً** ﴾(٢٠٦) هنيئاً في عاقبته ، مريئاً في مذاقه . وقيل : معناه أنه أسرعُ انحدارًا عن المَرِيء ، لسهولته وخفته عليه ، بخلاف الكثير ، فإنه لا يسهل على المريء انحدارهُ .

ومن آفات الشرب نَهْلَةً واحدة ، أنه يُخاف منه الشَّرَق ، بأن ينسدَّ مجرى الشراب ـــ لكثرة الوارد عليه ـــ فيغصَّ به . فإذا تنفس رُويدًا ثم شرب ، أمِنَ من ذلك . ومن فوائده : أن الشارب إذا شرب أول مرة ، تصاعد البخارُ الدخانيُّ الحار ـــ الذي كان على القلب والكبد ـــ لورود الماء البارد عليه ، فأخرجتْه الطبيعة عنها . فإذا شرب مرة واحدة ، اتفق نزولُ الماء البارد وصعودُ البخار ، فيتدافعان ويتعالجان ، ومن ذلك يحدث الشرقُ والغُصة ، ولا يهنّأ(٢٠٧) الشارب بالماء ، ولا يُمرئه ، ولا يتم ريُّه .

---

(٢٠٦) سورة النساء - الآية ٤ .

(٢٠٧) في الزاد « ولايتهنأ » .

وقد روى عبد الله بن المبارك ، والبَيْهَقِيُّ ، وغيرهُما ــ عن النبي ﷺ ــ : « إذا شربَ أحدُكم ، فليمُصَّ الماءَ مصًّا ، ولا يَعُبَّ عبًّا ، فإنَّ(٢٠٨) الكُبَادَ من العَبِّ » .

والكُبَاد بضم الكاف وتخفيف الباء ــ هو : وجع الكبد . وقد عُلم بالتجربة أن ورود الماء جملةً واحدة على الكبد يؤلمها ، ويُضعف حرارتها . وسببُ ذلك المضادةُ التي بين حرارتها ، وبين ما ورد عليها من كيفية المبرود وكميته ، ولو ورد بالتدريج شيئاً فشيئاً لم يضادَّ حرارتها ، ولم يُضعفْها ، وهذا مثاله ، صبُّ الماءِ البارد على القِدْر وهي تفور ، لا يضرُّها صبُّه قليلاً قليلاً .

وقد روى الترمذيّ في جامعه ــ عنه ﷺ ــ : « لا تشربُوا نَفَساً واحدًا كشُرب البعير ، ولكن : اشْرَبُوا مَثْنَى وثُلاثَ ، وسَمُّوا إذا أنتم شَرِبْتُم ، وَاحْمَدُوا إذا أنتم فَرَغْتُم »(٢٠٩) .

وللتسمية فى اول الطعام والشراب ، وحمدِ الله في آخره ــ تأثيرٌ عجيب في نفعه واستمرائه ، ودفع مضرته . قال الإمام أحمد : « إذا جمع الطعام أربعاً فقد كَمُل : إذا ذُكر اسمُ الله في أوله ، وحُمِدَ اللهُ في آخرِه ، وكثرتْ عليه الأيدي ، وكان من حِلّ » .

فصل

وقد روى مسلم في صحيحه ــ من حديث جابر بن عبد الله ــ قال : سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : « غطُّوا الإناءَ ، وأَوْكُوا السِّقَاءَ ، فإنَّ في السَّنَةِ ليلةً يَنْزِلُ فيها وَبَاءٌ لا يَمُرُّ بإناءٍ ليسَ عليه غِطاءٌ ، أوسقاءٍ(٢١٠) ليس عليه وِكاءٌ ــ إلا وقع فيه من ذلك الداء »(٢١١) .

---

(٢٠٨) فى الزاد « فإنه من الكباد » .

(٢٠٩) أخرجه الترمذى فى الأشربة ، باب ماجاء فى التنفس فى الإناء [جـ ٨ ص ٧٧ ، ٧٨] وقال الترمذى : هذا حديث غريب . وفى سند هذا الحديث يزيد بن سنان الجَزَرِىّ ، أبو فَرْوَة الرّهاوِىّ ، وقد ضَعّفه أحمد ، وابن معين ، وتركه النَّسائى . [انظر الضعفاء الكبير جـ ٤ ص ٣٨٢] .

(٢١٠) هكذا فى الزاد ، وفى صحيح مسلم .. وفى النسخ المطبوعة « وسقاء » .

(٢١١) أخرجه مسلم فى كتاب الأشربة ، باب استحباب تغطية الإناء ، وإيكاء السقاء وآخره « ... إلا نزل فيه من ذلك الوباء » بدل جملة « إلا وقع فيه من ذلك الداء » [جـ ١٣ ص ١٨٦] .

وهذا مما لا تناله علوم الأطباء ومعارفهم ، وقد عرفه من عرفه من عقلاء الناس بالتجربة . قال الليث بن سعد ـــ أحد رواة الحديث :ـــ « الأعاجمُ عندنا يتقون تلك الليلة فى السنة ، في كانُون الأول منها » .

وصح عنه : أنه أمَرَ بتخمير الإناء ، ولو أن يَعرض عليه عودًا . وفي عرض العود عليه ـــ من الحكمة ـــ أنه لا ينسى تخميرَه ، بل يعتادُه حتى بالعود . وفيه أنه ربما أراد الدَّبِيبُ أن يسقط فيه ، فيمرُّ على العود ، فيكون العود جسرًا له يمنعه من السقوط فيه .

وصح عنه : أنه أمَرَ عند إيكاءِ الإناء ، بذكر اسم الله . فإنَّ ذِكْرَ اسم الله ـــ عند تخمير الإناء ـــ يطرد عنه الشيطان ، وإيكاؤه يطرد عنه الهَوامَّ . ولذلك أمر بذكر اسم الله في هذين الموضعين ، لهذين المعنيين .

وروى البخاري في صحيحه ـــ من حديث ابن عباس :ـــ « أن رسول الله ﷺ ، نهى عن الشرب مِن فِيِّ السِّقاء »(٢١٢) .

وفي هذا آدابٌ عديدة ، منها : أنَّ تردُّدَ أنفاس الشارب فيه يُكسبه زُهومة ورائحة كريهة ، يُعاف لأجلها . ومنها : أنه ربما غلب الداخل إلى جوفه ـــ من الماء ـــ فتضرَّر به . ومنها : أنه ربما كان فيه حيوان لا يشعر به ، فيؤذيه . ومنها : أن الماء ربما كان فيه قَذاةٌ أو غيرُها ، لا يراها عند الشرب فتَلِج جوفه . ومنها : أن الشرب كذلك يملأ البطن من الهواء ، فيضيق عن أخذ حظه من الماء ، أو يزاحمُه ، أو يؤذيه . ولغير ذلك من الحِكم .

فإن قيل : فما تصنعون بما في جامع الترمذيِّ : « أن رسول الله ﷺ ، دعا بإداوةٍ يوم أُحُد ، فقال : اخْتَنِثْ(٢١٣) فمَ الإداوةِ . ثم شرب منها منفِيها »(٢١٤) .؟

قلنا : نكتفي فيه بقول الترمذي : « هذا حديث ليس إسناده بصحيح ، وعبد الله بن

---

(٢١٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأشربة ، باب الشرب من فَمِ السِّقَاء [جـ ١٠ ص ٩٠ من فتح البارى] .

(٢١٣) فى الزاد « اخْنُثْ » وهو مطابق لما ورد فى سنن أبى داود . ومعنى اختناث الأسقية : أن يثنى رءوسها ويعطفها ، ثم يشرب منها .

(٢١٤) أخرجه الترمذى فى الأشربة ، ولفظه : « رأيت النبى (ﷺ) قام إلى قِرْبَة مُعَلَّقَة فَخَنَثَها ، ثم شَرِبَ مِنْ فِيها » [جـ ٨ ص ٨٣ ، ٨٤] . وأخرجه أبو داود فى كتاب الأشربة ، باب فى اختناث الأسقية ، ولفظه مطابق لما هنا [جـ ٣ ص ٣٣٦ ، ٣٣٧] .

عمر العُمريُّ يُضَعَّفُ من قِبَلِ حفظه . ولا أدري : سمع من عيسى ، أوْلا ؟ » . انتهى .
يريد : عيسى بن عبد الله ، الذي رواه عنه عن رجل من الأنصار .

فصل

وفي سنن أبي داود — من حديث أبي سعيد الخُدريِّ — قال : « نهى رسول الله ﷺ ، عن الشرب مِن ثُلْمةِ[٢١٥] القدح ، وأنْ يُنْفَخَ في الشَّراب »[٢١٦] .

وهذا من الآداب التي يتم[٢١٧] بها مصلحة الشارب . فإن الشرب من ثُلمة القدح فيه عدةُ مفاسد :

أحدها : أن ما يكون على وجه الماء — من قَذًى أو غيره — يجتمع إلى الثُّلمة ، بخلاف الجانب الصحيح .

الثاني : أنه ربما شوَّش على الشارب ، ولم يتمكن من حسن الشرب من الثُّلمة .

الثالث : أن الوسخ والزُّهومة تجتمع في الثُّلمة ، ولا يصل إليها الغَسلُ ، كما يصل إلى الجانب الصحيح .

الرابع : أن الثُّلمة محلُّ العيب في القدح ، وهي أردأُ مكان فيه ، فينبغي تجنُّبه وقصدُ الجانب الصحيح ، فإن الرديء من كل شيء لا خير فيه . ورأى بعض السلف رجلاً يشتري حاجة رديئة ، فقال : « لا تفعل ، أما علمت أنَّ الله نزع البركة من كل رديء » !

الخامس : أنه ربما كان في الثُّلمة شقٌّ أو تحديدٌ يجرح فمَ الشارب . ولغيرِ هذه المفاسد .

وأما النفخ في الشراب فإنه يكسبه من فم النافخ رائحة كريهة ، يُعاف لأجلها ، ولاسيَّما إن كان متغيِّرَ الفم . وبالجملة : فأنفاس النافخ تخالطه .

ولهذا ، جمع رسول الله ﷺ — بين النهي عن التنفُّس في الإناء ، والنفخ فيه — في

---

(٢١٥) هكذا فى الزاد ، وهو مطابق لما جاء فى سنن أبى داود .. وفى النسخ المطبوعة « فى ثلمة » .

(٢١٦) أخرجه أبو داود فى كتاب الأشربة ، باب فى الشرب من ثلمة القدح[جـ ٣ ص ٣٣٧] .

(٢١٧) فى الزاد « تتم » .

الحديث الذي رواه الترمذيُّ وصححه ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما[٢١٨] ، قال : « نهى رسول الله ﷺ أن يُتَنَفَّسَ في الإناء ، أو يُنْفَخَ فيه »[٢١٩] .

فإن قيل : فما تصنعون بما في الصحيحين ــ من حديث أنس ــ : « أن رسول الله ﷺ كان يتنفَّسُ فى الإناء ثلاثاً » ؟.

قيل : نُقابلُه بالقبول والتسليم ، ولا معارضة بينه وبين الأول ، فإن معناه : أنه كان يتنفس في شربه ثلاثاً ، وذكر الإناءَ ، لأنه آلة الشرب ، وهذا كما جاء في الحديث الصحيح : « أن إبراهيم ابن رسول الله ﷺ ــ مات في الثَّدْي » ؛ أي : في مُدة الرَّضاع .

فصل

وكان ﷺ يشرب اللبن ، خالصاً تارة ، ومَشُوباً بالماء أخرى . وفي شرب اللبن الحلو في تلك البلاد الحارة ــ خالصاً ومَشوباً ــ نفع عظيم في حفظ الصحة ، وترطيب البدن ، ورَيِّ الكبد ؛ ولاسيَّما اللبنَ الذي ترعى دوابُّه الشيحَ والقَيْصومَ والخُزامى ، وما أشبهها ، فإن لبنها غذاءٌ مع الأغذية ، وشرابٌ مع الأشربة ، ودواءٌ مع الأدوية .

وفي جامع الترمذي ــ عنه ﷺ :ــ « إذا أكل أحدكم طعاماً ، فليقلْ : اللهم ، بارك لنا فيه ، وأطعمنا خيرًا منه . وإذا سُقي لبناً ، فليقل : اللهم ، بارك لنا فيه ، وزدنا منه . فإنه ليس شيء يُجزِئ منَ الطعام والشرابِ ، إلَّا اللبنُ » . قال الترمذى : هذا حديث حسن .

فصل

وثبت في صحيح مسلم : « أنه ﷺ كان يُنْتبذ[٢٢٠] له أول الليل ، ويشربه إذا أصبح ــ يومَه ذلك ، والليلة التي تجيء ، والغد والليلة الأخرى ، والغد إلى العصر ، فإن بقي منه شيء سقاه الخادم ، أو أمر به فصبَّ » .

---

(٢١٨) فى الزاد « عنه » .

(٢١٩) أخرجه الترمذى فى الأشربة ، باب ماجاء فى كراهية النفخ فى الشراب [جـ ٨ ص ٨٠] وأخرجه أبو داود فى كتاب الأشربة ، باب فى النفخ فى الشراب والتنفس فيه [جـ ٢ ص ٢٢٨] وغيرهما .

(٢٢٠) فى الزاد « يُنْبَذُ » .

وهذا النبيذ هو : ماء يُطرح[٢٢١] فيه تمرٌ يحلّيه ، وهو يدخل في الغذاء والشراب ، وله نفعٌ عظيم في زيادة القوة ، وحفظِ الصحة . ولم يكن يشربه بعدَ ثلاث ـــ خوفاً من تغيُّره إلى الإسكار .

فَصْلٌ فِي تَدْبِيرِهِ ﷺ لِأَمْرِ المَلْبَسِ

وكان من أتم الهدى ، وأنفعه للبدن ، وأخفّه عليه ، وأيسره لُبساً وخلعاً . وكان أكثر لُبسه الأردية والأُزُر . وهي أخف على البدن من غيرها . وكان يلبس القميص ، بل كان أحب الثياب إليه .

وكان هديه في لبسه لما يلبسه ، أنفع شيء للبدن ، فإنه لم يكن يطيل أكمامه ويوسعها ، بل كانت كُمُّ قميصه إلى الرُّسْغ ، لا تجاوز[٢٢٢] اليد ، فتشقّ على لابسها ، وتمنعه خفة الحركة والبطش ، ولا تقصُرُ عن هذه ، فتبرُزَ للحر والبرد .

وكان ذيل قميصه وإزاره إلى أنصاف الساقين ، لم يتجاوز الكعبين ، فيؤذيَ الماشي ، ويجعله كالمقيَّد . ولم يقصر عن عَضلة ساقه[٢٢٣] ، فتنكشفَ فيتأذَّى بالحر والبرد .

ولم تكن عمامته بالكبيرة التى يؤذي الرأس حملُها ويضعفُه ، ويجعله عرضةً للضعف والآفات ، كما يشاهد من حال أصحابها ، ولا بالصغيرة التي تقصرُ عن وقاية الرأس من الحر والبرد ، بل وسطاً بين ذلك ، وكان يُدخلها تحت حَنكه ، وفي ذلك فوائد عديدة ، فإنها تقي العنق الحر والبرد ، وهو أثبت لها ، ولا سيَّما عند ركوب الخيل والإبل ، والكرِّ والفرِّ . وكثير من الناس اتخذ الكلاليب عوضاً عن التحنك[٢٢٤] . ويابُعدَ ما بينهما في النفع والزينة ! وأنت إذا تأملت هذه اللِّبسة ، وجدتها من أنفع اللِّبسات وأبلغها في حفظ صحة البدن وقوته ، وأبعدها من التكلف والمشقة على البدن .

---

(٢٢١) فى الزاد « هو ما يُطْرَح .. » .

(٢٢٢) فى الزاد « لايُجَاوز » .

(٢٢٣) فى الزاد « ساقيه » .

(٢٢٤) فى الزاد « الحَنَك » . والحَنَك : ماتحت الذَّقن من الإنسان وغيره .

وكان يلبس الخفاف في السفر دائماً أو أغلب أحواله — لحاجة الرِّجلين إلى ما يقيهما من الحر والبرد — وفي الحضر أحياناً .

وكان أحب ألوان الثياب إليه البياضَ والحِبَرة ، وهي : البرود المحبَّرة . ولم يكن من هديه لُبس الأحمر ، ولا الأسود ، ولا المُصبغ ، ولا المصقول .

وأما الحلة الحمراء التي لبسها ، فهي الرداء اليمانيُّ الذي فيه سواد وحمرة وبياض ، كالحلة الخضراء ، فقد لبس هذه وهذه ، وقد تقدم تقرير ذلك ، وتغليظ من زعم أنه لبس الأحمر القاني بما فيه كفاية .

فَصْلٌ في تَدْبِيرِهِ ﷺ لأَمْرِ المَسْكَنِ

لمَّا علم ﷺ أنه على ظهرِ سيرٍ ، وأن الدنيا مرحلة مسافرٍ — ينزلُ فيها مدة عمره ، ثم ينتقل عنها إلى الآخرة — لم يكن من هديه وهدي أصحابه ومن تبعه ، الاعتناءُ بالمساكن وتشييدها ، وتعليتها وزَخرفتها وتوسيعها ، بل كانت من أحسن منازل المسافر ، تقي الحرَّ والبرد ، وتستر عن العيون ، وتمنع من ولوج الدواب ولا يُخاف سقوطها لفرطِ ثقلها ، ولا تعشعش فيها الهوام لسعتها ، ولا تعتَوِرُ عليها الأهوية والرياح المؤذية لارتفاعها ، وليست تحت الأرض ، فتؤذىَ ساكنها ، ولا في غاية الارتفاع عليها ، بل وسط ، وتلك أعدل المساكن وأنفعها ، وأقلها حرًّا وبردًا ، ولا تضيقُ عن ساكنها فينحصر ، ولا تفضل عنه بغير منفعة ولا فائدة فتأوى الهوام فى خلوها . ولم يكن فيها كنف تؤذي ساكنها برائحتها ، بل رائحتها من أطيب الروائح ، لأنه كان يحب الطِّيب ولا يزال عنده ، وريحه هو من أطيب الرائحة ، وعَرْفه(٢٢٥) من أطيب الطيب ولم يكن في الدار كنيف تظهر رائحته . ولا ريب أن هذه من أعدل المساكن وأنفعها ، وأوفقها للبدن وحفظِ صحته .

***

(٢٢٥) فى الزاد « وَعَرَقُه » . والعَرْفُ : الريح مطلقاً ، وأكثر مايُسْتَعْمَلُ فى الريح الطيبة .

فصل في تدبيره ﷺ لأمر النوم واليقظة

وَمَنْ[٢٢٦] تدبَّر نومه ويقظته ﷺ وجَده أعدلَ نوم وأنفعَه للبدن والأعضاء والقُوى ، فإنه كان ينام أولَ الليل ، ويستيقظ [في][٢٢٧] أول النصف الثاني ، فيقومُ ويَستاك ويتوضأ ويصلي ما كتب الله له ، فيأخذ البدن والأعضاء والقُوى حظَّها من النوم والراحة ، وحظَّها من الرياضة ، مع وُفورِ الأجر . وهذا غاية صلاح القلب والبدن والدنيا والآخرة .

ولم يكن يأخذ من النوم فوقَ القدر المحتاج إليه ، ولا يمنعُ نفسه من القدر المحتاج إليه منه ، وكان يفعله على أكمل الوجوه ، فينامُ ــ إذا دعتْه الحاجةُ إلى النوم ــ على شِقه الأيمن ، ذاكرًا الله حتى تغلبَه عيناه ، غيرَ ممتلئ البدنِ من الطعام والشراب ، ولا مباشرٍ بجنبه الأرضَ ، ولا متخذٍ للفُرش المرتفعة ، بل له ضِجَاع من أدَم[٢٢٨] حشوهُ ليف ، وكان يَضطجع على الوِسادة ، ويضع يده تحت خدِّه أحياناً .

ونحن نذكر فصلاً في النوم ، والنافع منه والضار . فنقول :

النوم : حالة للبدن يَتبعُها غوْر الحرارة الغريزية والقوى إلى باطن البدن ، لطلب الراحة ، وهو نوعان : طبيعيٌّ وغير طبيعيّ . فالطبيعيُّ : إمساك القُوى النفسانية على أفعالها ، وهي قوي الحِسِّ والحركة الإرادية ، ومتى أمسكتْ هذه القوى عن تحريك البدن ، استَرخى ، واجتمعتْ الرطوباتُ والأبخرة ــ التي كانت تتحلَّل وتتفرَّق بالحركات واليقظة ــ في الدماغ الذي هو مبدأ هذه القُوى ، فيتخدَّرُ ويَسترخِي ، وذلك النومُ الطبيعي . وأمَّا النومُ غيرُ الطبيعي ، فيكونُ لعَرض أو مرض ، وذلك بأن تستوليَ الرطوباتُ على الدماغ استيلاءً لا تقدر اليقظةُ على تفريقها ، أو تَصعَدَ أبخرةٌ رَطبة كثيرة ــ كما يكون عقيبَ الامتلاء من الطعام والشراب ــ فتُثقِلَ الدماغ وتُرخيَه ، فيتخدرَ ويقعَ إمساكُ القُوى النفسانية عن أفعالها ، فيكون النومُ .

وللنوم فائدتان جليلتان ، **إحداهما** : سكونُ الجوارح وراحتُها مما يَعرض لها من التعب ، فيُريح الحواسَّ من نَصَب اليقظة ، ويُزيل الإعياء والكَلال . **والثانية** : هضم

---

(٢٢٦) في الزاد « مَنْ » .

(٢٢٧) مابين المعقوفتين عن الزاد .

(٢٢٨) ضجاعٌ مِنْ أَدَم ، أي : فراش من جلد .

الغذاء ، ونُضج الأخلاط ، لأن الحرارة الغريزية ــ في وقت النوم ــ تغور[٢٢٩] إلى باطن البدن ، فتُعين على ذلك . ولهذا يبرُد ظاهره ، ويحتاج النائم إلى فضل دِثار .

وأنفع النوم أن ينامَ على الشّق الأيمن ، ليستقرَّ الطعام بهذه الهيئة في المعدة ، استقرارًا حسناً ، فإنَّ المعدة أميَل إلى الجانب الأيسر قليلاً ، ثم يتحول إلى الشق الأيسر قليلاً ، ليسرعَ الهضم بذلك لاستمالة المعدة على الكبد ، ثم يَستقرّ نومُه على الجانب الأيمن ، ليكونَ الغذاء أسرعَ انحدارًا عن المعدة ، فيكونُ النوم على الجانب الأيمن بُداءة نومه ونهايته . وكثرةُ النوم على الجانب الأيسر مضرٌّ بالقلب ، بسبب ميل الأعضاء إليه ، فتنصبُّ إليه المواد .

وأردأ النوم ، النومُ على الظهر ، ولا يَضرُّ الاستلقاء عليه للراحة من غير نوم .

وأردأُ منه أن ينام منبطحاً على وجهه . وفي المسند وسنن ابن ماجه ، عن أبي أُمامةَ ، قال : « مرَّ النبي ﷺ على رجل نائم في المسجد ، منبطح على وجهه ، فضربَه برجله ، وقال : قُمْ ــ أو اقعدْ ــ فإنها نومةٌ جُهَنَّمِيَّةٌ »[٢٣٠] .

قال أبقراطُ في كتاب التَّقدِمة : « وأما نومُ المريض على بطنه ، من غير أن يكون عادتُه في صحته جرتْ بذلك ، فذلك يدلُّ على اختلاط عقل ، وعلى ألمٍ في نواحي البطن » . قال الشراح لكتابه : لأنه خالف العادة الجيدة ، إلى هيئة رديئة ، من غير سبب ظاهر ولا باطن .

والنومُ المعتدل ممكِّنٌ للقُوى الطبيعية من أفعالها ، مريحٌ للقوة النفسانية ، مكثِّرٌ من جوهر حاملها ، حتى إنه ربَّما عاد بإرخائه مانعاً من تحلُّل الأرواح .

ونومُ النهار رديء يورث الأمراضَ الرطوبية والنوازلَ ، ويُفسد اللون ، ويُورث الطِّحال ، ويُرخي العصبَ ، ويُكسل ، ويُضعف الشهوة ، إلَّا في الصيف وقتَ

---

(٢٢٩) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « تفور » .

(٢٣٠) وأخرجه أيضا أبو داود بمعناه فى كتاب الأدب ، باب فى الرجل ينبطح على بطنه ، عن يعيش بن طخفة ، عن أبيه – وكان من أصحاب الصُّفَّة – وفيه : « فبينما أنا مضطجع فى المسجد من السَّحَر – على بطنى ، إذا رجل يحركنى برجله ، فقال : « إنَّ هذه ضَجْعَةٌ يُبْغِضُها الله » ، وقال : فنظرت فإذا رسول الله ﷺ » . [جـ ٤ ص ٣٠٩] .

الهاجرة . وأردؤه نومُ أول النهار . وأردأُ منه النومُ آخره بعد العصر . ورأى عبد الله بن عباس آبناً له نائماً نومة الصُّبحة ، فقال له : « قم ، أتنام في الساعة التى تُقسمُ فيها الأرزاق ؟! » .

وقيل : نوم النهار ثلاثة : خُلقٌ ، وخُرق(٢٣١) وحُمق . فالخلق : نومة الهاجرة ، وهي خُلق رسول الله ﷺ . والخُرق(٢٣١) : نومة الضحى تشغل(٢٣٢) عن أمر الدنيا والآخرة . والحُمق : نومة العصر . قال بعض السلف : « من نام بعد العصر فاختُلس عقله — فلا يلومنَّ إلا نفسه » . وقال الشاعر :

أَلَا إِنَّ نَوْمَاتِ ٱلضُّحَى تُورِثُ ٱلْفَتَى   خَبَالاً ، وَنَوْمَاتُ ٱلْعُصَيْرِ جُنُونُ

ونوم الصُّبحة يمنع الرزق ، لأن ذلك وقتٌ تطلبُ فيه الخليقةُ أرزاقها ، وهو وقتُ قسمة الأرزاق ، فنومُه حرمانٌ إلا لعارض أو ضرورةٍ ، وهو مضر جدًّا بالبدن ، لإرخائه البدن ، وإفسادِه للفضلات التي ينبغي تحليلها بالرياضة ، فيُحدث تكسُّرًا وَعِيًّا وضعفاً وإن كان قبل التبرُّز والحركة والرياضة وإشغالِ المعدة بشيء ، فذلك الداء العُضال المولِّد لأنواع من الأدواء .

والنومُ في الشمس يُثير الداءَ الدَّفين . ونومُ الإنسان — بعضُه في الشمس ، وبعضُه في الظل — رديء . وقد روى أبو داودَ في سننه — من حديث أبي هريرة — قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذَا كَانَ أَحَدُكُم فِي الشَّمْسِ ، فَقَلَصَ عنه الظِّلُّ — فَصَارَ بَعْضُهُ فِي الشَّمْسِ ، وبعضُه في الظِّلِّ — فَلْيَقُمْ » . وفي سنن ابن ماجه وغيره — من حديث بُريدَة ابن الحُصيَب : « أن رسول الله ﷺ نهى أَنْ يَقْعُدَ الرجلُ بين الظِّلِّ والشمس » . وهذا تنبيه على منع النوم بينهما .

وفي الصحيحين ، عن البَرَاء بن عازِب ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أتيت مَضْجَعَكَ : فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلاة ، ثم آضطجِعْ على شِقِّكَ الأيمن ، ثم قُلْ : ٱللَّهُمَّ إني أَسْلَمْتُ نَفْسِي إليكَ ، ووجَّهتُ وجْهي إليكَ ، وفوَّضْتُ أمري إليكَ ، وألْجأْتُ ظَهْري إليكَ ، رَغْبَةً ورَهْبَةً إليكَ ، لا ملجأَ ولا مَنْجا منك إلَّا إليكَ ، آمنْتُ بكتابكَ الذي

---

(٢٣١) فى الزاد « وحرق .. والحرق » .

(٢٣٢) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « يشغل » .

أَنْزَلْتَ ، ونبيِّكَ الذي أرْسَلْتَ . وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ كَلامِكَ ، فَإنْ مِتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ ، مِتَّ على الفِطْرَة » (٢٣٣) .

وفي صحيح البخاريِّ عن عائشة : « أنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ إذا صَلَّى رَكْعَتَي الفَجْرِ — يعني سُنَّتَها اضْطَجَعَ على شِقِّهِ الأيمنِ » (٢٣٤) .

وقد قيل : إن الحكمة في النوم على الجانب الأيمن أن لا يستغرقَ النائم في نومه ، لأن القلب فيه ميلٌ إلى جهة اليسار ، فإذا نام على جنبه الأيمن طلب القلبُ مُسْتَقَرَّه من الجانب الأيسر ، وذلك يمنع من استقرار النائم واستثقاله في نومه ، بخلاف قراره في النوم على [الجانب] (٢٣٥) اليسار ، فإنه مُستَقَرُّه ، فيحصل بذلك الدَّعةُ التامة ، فيستغرق الإنسان في نومه ويَستثقِل ، فيفوتُه مصالح دينه ودنياه .

ولما كان النائم بمنزلة الميت ، والنومُ أخو الموت — ولهذا يستحيل على الحي الذى لا يموت [سبحانه] (٢٣٦) ، وأهلُ الجنة لا ينامون فيها — وكان (٢٣٧) النائم محتاجاً إلى من يحْرُس نفسه ويحفظها مما يَعْرِضُ لها من الآفات ، ويحْرُسُ بدنه أيضاً من طوارق الآفات ، وكان ربُّه وفاطرُه تعالى هو المتولي لذلك وحده ، علَّم النبي ﷺ النائمَ ، أن يقولَ كلماتِ التفويض والالتجاء والرغبة والرهبة ، ليَستدعيَ بها كَمَالَ حفظِ الله له وحراسته لنفسه وبدنه ، وأرشده مع ذلك إلى أن يَستذكرَ الإيمان وينامَ عليه ، ويجعلَ التَّكلُّمَ به آخرَ كلامه ، فإنه ربما توفاه الله في منامه ، فإذا كان الإيمان آخر كلامه دَخَلَ الجنة .

فتضمَّن هذا الهديُ في المنام ، مصالح القلب والبدن والروح ، في النوم واليقظة ، والدنيا والآخرة . فصلوات الله وسلامه على من نالَتْ به أمتُه كلَّ خير .

---

(٢٣٣) أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات ، باب الضَّجْع على الشِّقِّ الأيمن [جـ ١١ ص ١٠٩ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى باب الدعاء عند النوم [جـ ١٧ ص ٣٢ – ٣٤ بشرح النووى] .

(٢٣٤) أخرجه البخارى فى كتاب التهجد ، باب الضِّجعة على الشِّق الأيمن بعد ركعتى الفجر [جـ ٣ ص ٤٣ من فتح البارى] .

(٢٣٥) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٣٦) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٣٧) فى الزاد « كان » .

وقوله : « أسلَمْتُ نفْسي إليكَ » ، أي : جعلتُها مُسْلِمَةً لك تسليمَ العبدِ المملوك نفسَه إلى سيده ومالكه .

وتوجيهُ وجههِ إليه يتضمَّن إقباله بالكُلِّية على ربه ، وإخلاصَ القصد والإرادة له ، وإقرارَهُ بالخضوع والذل والانقياد . قال تعالى : ﴿ **فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ : أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ** ﴾[٢٣٨] . وذكر الوجه ، إذ هو أشرفُ ما في الإنسان ، ومَجْمَعُ الحواس . وأيضاً : ففيه معنى التوجُّهِ والقصدِ ، من قوله :

أَسْتَغْفِرُ اللهَ ذَنْباً لَسْتُ مُحْصِيَهُ   رَبُّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الْوَجْهُ وَالْعَمَلُ[٢٣٩]

وتفويض الأمر إليه ، ردُّه إلى الله سبحانه ، وذلك يوجب سكون القلب وطمأنينته ، والرضا بما يقضيه ويختاره له ، مما يحبه ويرضاه . والتفويض من أشرف مقامات العبودية ، ولا علة فيه ، وهو من مقامات الخاصة ، خلافاً لزاعمي خلافِ ذلك .

وإلجاءُ الظَّهر إليه سبحانه يتضمَّن قوةَ الاعتماد عليه ، والثقة به والسكون إليه ، والتوكل عليه ، فإن من أسند ظهره إلى ركن وثيق لم يخف السقوط .

ولمَّا كان للقلب قوَّتان : قوة الطلب ، وهي الرغبة ، وقوة الهرب ، وهي الرهبة ، وكان العبد طالباً لمصالحه ، هارباً من مضارِّه ــ جمع الأمرين في هذا التفويض والتوجُّه ، فقال : « رغبةً ورهبةً إليك » .

ثم أثنى على ربه بأنه لا مَلجأ للعبد سواه ، ولا منْجاً له منه غيره ، فهو الذي يلجأ إليه العبد ، ليُنجيَه من نفسه . كما في الحديث الآخر : « أعوذ برضاك من سَخطكَ ، وبعفوك[٢٤٠] من عقوبتكَ ، وأعوذ بك منك » . فهو سبحانه الذي يعيذُ عبدَه ، وينجيه من بأسه الذي بمشيئته وقدرته ، فمنه البلاء ومنه الإعانةُ ومنه ما يُطلب النجاةُ منه ، وإليه الالتجاءُ في النجاة . فهو الذي يُلجأ إليه في أن يُنجيَ مما منه ، ويُستعاذُ به مما منه ، فهو ربُّ كل شيء ، ولا يكون شيء إلا بمشيئته . ﴿ **وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا**

---

(٢٣٨) سورة آل عمران – الآية ٢٠ .

(٢٣٩) هكذا ورد البيت كاملاً في الزاد . وفي النسخ المطبوعة وردت الشطرة الثانية منه فقط .

(٢٤٠) في الزاد « وبمعافاتك » .

كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴾(٢٤١) ، ﴿ قُلْ : مَنْ ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا ، أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ﴾(٢٤٢) .

ثم ختم الدعاءَ بالإقرار بالإيمان بكتابه ورسوله ، الذي هو ملاكُ النجاة والفوز في الدنيا والآخرة . فهذا هديُه في نومه :

لَوْ لَمْ يَقُلْ إِنِّي رَسُولٌ لَكَا   نَ شَاهِدٌ فِي هَدْيِهِ يَنْطِقُ

فصل

وأمَّا هديُه في يقظته ، فكان يَستيقظ إذا صاح الصارخ ـــ وهو الدِّيك ـــ فيحمَدُ الله تعالى ويكبِّره ، ويهلِّله ويدعوه ، ثم يَستاك ، ثم يقوم إلى وُضُوئه ، ثم يَقف للصلاة بين يَدَي ربه ، مُناجياً له بكلامه ، مُثنياً عليه ، راجياً له ، راغباً راهباً . فأيُّ حفظٍ لصحةِ القلبِ والبدن والرُّوح والقوى ، ولنعيم الدنيا والآخرة فوق هذا ؟!.

فصل

وأمَّا تدبيرُ الحركة والسكون ـــ وهو الرياضة ـــ فنذكرُ منها فصلاً يُعلم منه مطابقةُ هديِه في ذلك ، لأكملِ أنواعِه وأحمدِها وأصوبها . فنقول :

من المعلوم افتقارُ البدن ـــ في بقائه ـــ إلى الغذاء والشراب ، ولَا يَصير الغذاءُ بجملته جزءًا من البدن ، بل لابد أن يبقى منه عند كل هَضْم بقيةٌ ما ، إذا كثرتْ على ممر الزمان اجتمع منها شيء له كميةٌ وكيفية ، فيضر بكميته ، بأن يسدَّ ويُثقلَ البدن ، ويُوجبَ أمراضَ الاحتباس ، وإن استفرغ تأذَّى البدن بالأدوية ، لأن أكثرها سُمِّيَّة ، ولا تخلو من إخراج الصالح المنتفع به ، ويضر بكيفيته ، بأن يسخن بنفسه ، أو بالعَفن ، أو يبردُ بنفسه ، أو يضعف الحرارة الغريزية عن إنضاجه .

وسدد الفضلات ـــ لا محالةَ ـــ ضارةٌ تُرِكَتْ أو استُفرغت . والحركةُ أقوى الأسباب في منع تولُّدِها ، فإنها تُسخِّن الأعضاء ، وتُسيل فضلاتها ، فلا تجتمعُ على طول

---

(٢٤١) سورة الأنعام – الآية ١٧ .

(٢٤٢) سورة الأحزاب – الآية ١٧ .

الزمان ؛ وتُعَوِّد البدنَ[٢٤٣] الخفةَ والنشاط ، وتجعله قابلاً للغذاء ، وتصلِّب المفاصلَ ، وتقوِّي الأوتارَ والرباطاتِ ، وتؤمن جميعُ الأمراض المادية ، وأكثر الأمراض المِزاجية — إذا استُعمل القدرُ المعتدل منها[٢٤٤] في وقته ، وكان باقي التدبير صواباً .

ووقتُ الرياضة ، بعدَ انحدار الغذاء وكمال الهضم . والرياضةُ المعتدلة هي التي تحمرُّ فيها البشرة وتربُو ويَتَندَّي فيها البدنُ . وأما التي يلزمها سيلانُ العرق فمفرطةٌ ، وأيُّ عضو كثرتْ رياضته قوِيَ ، وخصوصاً على نوع تلك الرياضة . بل كلُّ قوة فهذا شأنُها ، فإن مَن استكثَر من الحفظ قويتْ حافظتُه ، ومَن استكثَر من الفكر قويتْ قُوَّتُهُ المُفكِّرة . ولكل عضوٍ رياضةٌ تخصُّه ، فللصدرِ القراءةُ ، فليبتدئ فيها من الخفية إلى الجهر بتدريج ، ورياضةُ السمع ، بسمعِ الأصوات والكلام بالتدريج ، فينتقل من الأخف إلى الأثقل ، وكذلك رياضةُ اللسان في الكلام ، وكذلك رياضةُ البصر ، وكذلك رياضةُ المشي بالتدريج شيئاً فشيئاً .

وأمَّا ركوبُ الخيل ، ورميُ النُّشَّاب ، والصراعُ ، والمسابقةُ على الأقدام — فرياضةٌ للبدن كلِّه ، وهي قالعة لأمراض مُزمنةٍ ، كالجُذام ، والاستسقاء ، والقُولَنج .

ورياضة النفوس : بالتعلُّم والتأدُّب ، والفرح والسرور ، والصبر والثبات والإقدام ، والسماح[٢٤٥] وفعْل الخير ، ونحو ذلك ، مما تَرْتاض به النفوس ، ومن أعظم رياضتها الصبرُ والحب ، والشجاعة والإحسان ، فلا تزالُ تَرتاض بذلك شيئاً فشيئاً ، حتى تصيرَ لها هذه الصفاتُ هيئات راسخةً ، وملكاتٍ ثابتة .

وأنت إذا تأمَّلت هديَه ﷺ في ذلك ، وجدتَه أكملَ هديٍ حافظٍ للصحة والقُوى ، ونافعٍ في المعاش والمعاد .

ولا ريب أن الصلاة نفسَها فيها ، من حفظِ صحة البدن ، وإذابة أخلاطه وفضلاته ما هو من أنفع شيء له سوى ما فيها من حفظِ صحة الإيمان ، وسعادةِ الدنيا والآخرة . وكذلك قيامُ الليل ، من أنفع أسباب حفظ الصحة ، ومن أمنع الأمور لكثير من الأمراض المزمنة ، ومن أنشط شيء للبدن والروح والقلب ، كما في الصحيحين ، عن

---

(٢٤٣) هكذا في الزاد وفي النسخ المطبوعة « ويَتَعَوَّد البدن .. ويجعله .. ويُصلِّب .. ويقوّى .. ويؤمن .. » .

(٢٤٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « منه » .

(٢٤٥) في الزاد « والسماحة » .

النبي ﷺ ، أنه قال : « يَعقِدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحَدِكُم ـــ إذا هُو نَامَ ـــ ثَلَاثَ عُقَدٍ ، يَضْرِبُ على كل عُقْدَةٍ : عليك ليلٌ طويلٌ فارقُدْ . فإنْ هو استيقَظ ، فذكَرَ اللّهَ انحلَّتْ عُقْدَةٌ . فإنْ تَوَضَّأَ انحلَّتْ عقدةٌ ثانيةٌ . فإنْ صلَّى انحلَّت عقدُهُ كُلُّها ، فأصبحَ نَشِطاً طَيِّبَ النَّفسِ ، وإلَّا أصبح خبيثَ النفسِ كسلانَ »(٢٤٦) .

وفي الصوم الشرعي من أسبابِ حفظ الصحة ، ورياضةِ البدن والنفس مالا يدفعُه صحيحُ الفطرة .

وأما الجهادُ وما فيه من الحركات الكلية ، التي هي من أعظم أسباب القوة ، وحفظ الصحة ، وصلابةِ القلب والبدن ، ودفعِ فضلاتهما ، وزوالِ الهم والغم والحزن ـــ فأمرٌ إنَّما يعرفه مَنْ له منه نصيبٌ . وكذلك الحجُّ وفعلُ المناسك . وكذلك المسابقةُ على الخيل ، وبالنِّصال(٢٤٧) ، والمشيُ في الحوائج وإلى الإخوان ، وقضاءُ حقوقهم ، وعيادة مرضاهم ، وتشييعُ جنائزهم ، والمشيُ إلى المساجد للجُمُعات والجماعات ، وحركةُ الوضوء والاغتسال وغير ذلك .

وهذا أقلُّ ما فيه الرياضةُ المعينة على حفظِ الصحة ، ودفع الفضلات . وأما ما شُرِع له ـــ من التوصُّل به إلى خيرات الدنيا والآخرة ، ودفع شرورهما ـــ فأمرٌ وراء ذلك .

فعلمتَ أن هديه فوق كل هديٍ في طبِّ الأبدان والقلوب ، وحفظِ صحتهما ، ودفع أسقامهما . ولا مزيدَ على ذلك لمن قد أحضر رشده . وبالله التوفيق .

فَصْلٌ فِي الْجِمَاعِ وَالْبَاهِ وَهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ فِيهِ (*)

وأما الجماعُ والباهُ ، فكان هديُه فيه أكملَ هدي ، تُحفظ(٢٤٨) به الصحةُ ، وتتم(٢٤٩)

(*) هذا العنوان لم يرد في الزاد .

(٢٤٦) أخرجه البخارى عن أبى هريرة فى كتاب التهجد ، باب عقد الشيطان على قافية الرأس إذا لم يُصَلِّ بالليل [جـ ٣ ص ٢٤ من فتح البارى] ، وفى كتاب بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده [جـ ٦ ص ٣٣٥] ولم أقف عليه فى صحيح مسلم .

(٢٤٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « بالنصال » .

(٢٤٨) فى الزاد « يَحفظ » .

(٢٤٩) هكذا فى الزاد ، وفى النسخ المطبوعة « ويتم » .

به اللذةُ وسرور النفس ، ويحصل به مقاصدُه التي وُضع لأجلها ، فإن الجماعَ وُضِعَ في الأصل لثلاثة أمور هي مقاصدُه الأصلية .

أحدها : حفظُ النسل ، ودوامُ النوع [الإنساني](٢٥٠) إلى أن تتكاملَ العدةُ التي قدَّر الله بروزَها إلى هذا العالم .

الثاني : إخراجُ الماء الذي يضر احتباسُه واحتقانُه بِجُمْلَة البدن .

الثالث : قضاءُ الوَطر ، ونيلُ اللذة ، والتمتعُ بالنعمة . وهذه وحدها ــ هي الفائدة التي في الجنة ، إذ لا تناسُلَ هناك ، ولا احتقانَ يستفرغُه الإنزالُ .

وفضلاءُ الأطباء يرون أن الجماع من أحد(٢٥١) أسباب حفظ الصحة . قال جالينوسُ : « الغالبُ على جوهر المَنيِّ النارُ والهواءُ ، ومِزاجُه حار رطب ، لأن كونه من الدم الصافي الذي تغتذي به الأعضاء الأصلية » .

وإذا ثبت فضل المنيِّ ، فاعلم أنه لا ينبغي إخراجُه إلا في طلب النسل ، أو إخراج المحتقن منه ، فإنه إذا دام احتقانه أحدث أمراضاً رديئة ، منها : الوسواسُ والجنون والصَّرع ، وغير ذلك ، وقد يُبرِئ استعماله من هذه الأمراض كثيرًا ، فإنه إذا طال احتباسُه فسد واستحال إلى كيفية سُمِّيَّة ، تُوجب أمراضاً رديئة كما ذكرنا . ولذلك تدفعُه الطبيعة [بالاحتلام](٢٥٢) إذا كثُر عندها ــ من غير جماع .

وقال بعض السلف : « ينبغي للرجل أن يتعاهد من نفسه ثلاثاً : ينبغي أن لا يدَع المشيَ ، فإن آحتاج إليه يوماً قدَر عليه . وينبغي أن لا يدَع الأكل ، فإن أمعاءه تضيق . وينبغي أن لا يدعَ الجماعَ ، فإن البئر إذا لم تُنزحْ ذهب ماؤها » .

وقال محمد بن زكريا : « من ترك الجماعَ مدةً طويلة ضَعُفَتْ قُوى أعصابه وانسدت(٢٥٣) مجاريها ، وتقلَّص ذَكَرُهُ . قال : ورأيتُ جماعة تركوه لنوع من التقشف فبردَتْ أبدانُهم ، وعسُرَتْ حركاتُهم ، ووقعتْ عليهم كآبةٌ بلا سبب ، وقلتْ شهواتُهم وهضمُهُم » انتهى .

---

(٢٥٠) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٥١) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أحمد » .

(٢٥٢) مابين المعقوفتين عن الزاد .

(٢٥٣) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « واشتدّ » .

ومن منافعه : غضُّ البصر ، وكفُّ النفس ، والقدرة على العفة عن الحرام ، وتحصيلُ ذلك للمرأة ، فهو ينفع نفسه في دنياه وأخراه ، وينفع المرأة .

ولذلك كان النبي ﷺ يتعاهدُه ويُحبه ، ويقول : « حُبِّبَ إليَّ مِن دنياكُمُ النساءُ والطيبُ »(٢٥٤) . وفي كتاب الزهد للإمام أحمد ـــ في هذا الحديث ـــ زيادة لطيفه ، وهي : « أصبِرُ عن الطعام والشراب ، ولا أصبرُ عنهنَّ » .

وحثَّ على التزويج أُمته ، فقال : « تزوَّجوا ، فإنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ »(٢٥٥) . وقال ابن عباس : « خيرُ هذه الأمة أكثَرُها نساءً »(٢٥٦) . وقال [ﷺ](٢٥٧) : إني أتزوَّجُ النساءَ [وآكلُ اللحمَ](٢٥٧) وأنامَ وأقوم ، وأصومُ وأفطرُ ، فمن رغِبَ عن سنَّتي فليس منِّي »(٢٥٨) وقال : « يا معشرَ ٱلشبابِ ، من ٱستطاع منكم ٱلباءة فلْيَتَزَوَّجْ ، فإنه أغضُّ للبصرِ ، وأحفظُ للفرج . ومن لم يستطعْ فعليه بالصوم ، فإنه له وِجاءٌ »(٢٥٩) . ولما تزوج جابر ثَيِّباً ، قال له : « هلَّا بِكرًا تلاعبها وتُلاعِبُكَ »(٢٦٠) .

روى ابن ماجه في سُننه ـــ من حديث أنس بن مالك ـــ قال : قال رسول الله

---

(٢٥٤) أخرجه النَّسائي في كتاب عِشْرَة النساء ، باب حُب النساء [جـ ٧ ص ٦١ ، ٦٢ بشرح السيوطي] وتمامه : « وجعلت قره عيني في الصلاة » . وسنده حسن .

(٢٥٥) أخرجه النسائي في كتاب النكاح ، باب كراهية تزويج العقيم [جـ ٦ ص ٦٥ ، ٦٦ بشرح السيوطي] و لفظه : « تَزَوَّجوا الوَلُودَ الوَدُودَ ، فإني مُكاثر بكم الأُمم » ، وأخرجه أبو داود في كتاب النكاح أيضاً ، باب النهي عن تزويج مَنْ لم يلد من النساء [جـ ٢ ص ٢٢٠] .

(٢٥٦) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب كثرة النساء [جـ ٩ ص ١١٣ من فتح الباري] عن سعيد بن جبير ، ولفظه : « قال لي ابن عباس : هل تزوجت ؟ قلت : لا . قال : فتزوَّجْ ، فإنَّ خير هذه الأُمَّة أكثرها نساء » .

(٢٥٧) مابين المعقوفتين لم يرد بالزاد في الموضعين .

(٢٥٨) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب الترغيب في النكاح [جـ ٩ ص ١٠٤ من فتح الباري] . وأخرجه مسلم في النكاح ، باب استحباب النكاح لِمَن تاقت نفسه إليه [جـ ٩ ص ١٧٥ ، ١٧٦ بشرح النووي] .

(٢٥٩) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب قول النبي (ﷺ) من استطاع الباءة فليتزوج [جـ ٩ ص ١٠٦ من فتح الباري] . وأخرجه مسلم أيضاً في كتاب النكاح ، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه [جـ ٩ ص ١٧٢ ، ١٧٥ بشرح النووي] . وأخرجه النسائي في الحث على النكاح [جـ ٦ ص ٥٧ ، ٥٨ بشرح السيوطي] . والباءة : القدرة على مُؤَن النكاح . ومن استطاع الباءة ، أي : بلغ الجماع وقدر عليه .

(٢٦٠) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب تزويج الثَّيِّبات [جـ ٩ ص ١٢١ من فتح الباري] وفيه « .. فهلَّا جارية تلاعبها وتلاعبك » . وأخرجه النسائي في كتاب النكاح ، باب نكاح الأبكار [جـ ٦ ص ٦١ بشرح السيوطي] .

ﷺ : « من أراد أنْ يلقى الله طاهرًا مطهَّرًا فَلْيَتزوَّج الحرائر »(٢٦١) . وفي سننه أيضاً — من حديث ابن عباس ، يرفعه — قال : « لم نر للمُتَحابَّين مثل النِّكاح »(٢٦٢) .

وفي صحيح مسلم — من حديث عبد الله بن عَمْرو(٢٦٣) — قال : قال رسول الله ﷺ : « الدنيا متاعٌ ، وخَيْرُ متاع الدنيا المرأةُ الصالحةُ »(٢٦٤) .

وكان ﷺ يُحرِّض أمته على نكاح الأبكار الحسان ، وذوات الدين . وفي سنن النسائي ، عن أبي هريرةَ ، قال : « سُئل رسولُ الله ﷺ : أيُّ النساءِ خير ؟ قال : التي تَسرُّه إذا نَظَر ، وتُطِيعُهُ إذا أَمَر ، ولا تُخالِفُه فيما يَكرَهُ في نفسِها ومالِه »(٢٦٥) . وفي الصحيحين ، عنه عن النبي ﷺ ، قال : « تُنكَحُ المرأةُ لمالِهَا ، ولحسَبِها ، ولِجَمَالِها ، ولِدينِها . فاظفَرْ بذاتِ الدِّين ، تَرِبَتْ يَدَاكَ »(٢٦٦) .

وكان يَحثُّ على نكاح الوَلُود ، وَيَكرهُ المرأة التي لا تلد . كما في سنن أبي داودَ — عن مَعْقِل بن يسار —: « أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ ، فقال : إني أصبتُ امرأةً ذات حَسَب وجمالٍ ، وإنها لا تَلِدُ ، أفأتزوَّجُها ؟ قال : لا . ثم أتاه الثانيةَ ، فنَهاه ، ثم أتاه الثالثةَ ، فقال : تزوَّجُوا الوَدُودَ الولود ، فإني مُكَاثِرٌ بكم الأُمَمَ »(٢٦٧) .

وفي الترمذي عنه مرفوعاً : « أربعٌ من سُنَن المرسلين : النكاحُ ، والسِّواكُ ،

---

(٢٦١) أخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح ، باب تزويج الحرائر والولود [جـ ١ ص ٥٩٨] وفي الزوائد : إسناده ضعيف ، لضعف كثير بن سليم . وفي سنده أيضاً سلاَّم بن سوّار ، وفي أحاديثه مناكير .

(٢٦٢) أخرجه ابن ماجه في أول كتاب النكاح ، باب ماجاء في فضل النكاح [جـ ١ ص ٥٩٣] . وفي الزوائد : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات .

(٢٦٣) في الزاد ، وفي النسخ المطبوعة « عبد الله بن عمر » . وفي صحيح مسلم « عبد الله بن عَمْرو » . وفي سنن النسائي « عبد الله بن عمرو بن العاص » .

(٢٦٤) أخرجه مسلم في كتاب الرضاع ، باب استحباب نكاح البكر ، [جـ ١٠ ص ٥٦ بشرح النووي] . وأخرجه النسائي في كتاب النكاح ، باب المرأة الصالحة [جـ ٦ ص ٦٩ بشرح السيوطي] .

(٢٦٥) أخرجه النسائي في كتاب النكاح ، باب أي النساء خير [جـ ٦ ص ٦٨ بشرح السيوطي] .

(٢٦٦) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الدِّين [جـ ٩ ص ١٣٢ من فتح الباري] . وأخرجه مسلم في كتاب الرضاع ، باب استحباب نكاح ذات الدِّين [جـ ١٠ ص ٥١ بشرح النووي] .

(٢٦٧) أخرجه أبو دواد في كتاب النكاح ، باب النهي عن تزويج من لم يلد من النساء [جـ ٢ ص ٢٢٠] .

والتَّعَطُّرُ ، والحِناءُ »(٢٦٨) . رُوي في الجامع : بالنون ، والياء(٢٦٩) . وسمعتُ أبا الحجَّاج الحافظَ ، يقول : « الصواب : أنه الخِتَان ، وسقطت النون من الحاشية . وكذلك رواه المَحَامِلِيُّ عن شيخ أبي عيسى الترمذي » .

وممَّا ينبغي تقديمُهُ على الجماع : ملاعبة(٢٧٠) المرأة وتقبيلُها ، ومصُّ لسانها .

وكان رسول الله ﷺ ، يُلاعبُ أهله ويقبلُها . وروى أبو داودَ في سننه : « أنه ﷺ كان يقبِّلُ عائشةَ ويمصُّ لسانَها »(٢٧١) . ويُذْكر عن جابر بن عبد الله ، قال : « نَهَى رسولُ الله ﷺ عن المُواقعة قبلَ المُلاعَبَة » .

وكان رسول الله ﷺ ، ربما جامع نساءَه كلَّهن بغُسل واحد ، وربما اَغتَسَلَ عند كل واحدة منهن . فروى مسلم في صحيحه ، عن أنس : « أن النبي ﷺ كان يَطوفُ على نسائه بغسْلٍ واحد »(٢٧٢) . وروى أبو داودَ في سننه ـــ عن أبي رافع مولَى رسول الله ﷺ ـــ : « أن رسول الله ﷺ طاف على نسائه في ليلة ، فاغتَسَلَ عند كلِّ اَمرأةٍ منهنَّ غُسلاً . فقلتُ : يا رسول الله ، لو اَغتسلتَ غُسلاً واحدًا ، فقال : هذا[أزكى و](٢٧٣)أطهرُ وأطيبُ »(٢٧٤) .

---

(٢٦٨) أخرجه الترمذى عن أبى أيوب فى أول كتاب النكاح ، باب ماجاء فى فضل التزويج والحث عليه [جـ ٤ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩] . وقال الترمذى : حديث حسن غريب .

(٢٦٩) يعنى : « الحناء » و« الحياء » .

(٢٧٠) هكذا فى الزاد ، وفى النسخ المطبوعة « ملاعبته » .

(٢٧١) أخرجه أبو داود فى كتاب الصوم ، باب الصائم يبلع الريق [جـ ٢ ص ٣١٢] .

(٢٧٢) أخرجه مسلم فى كتاب الحيض ، باب جواز نوم الجنب ، واستحباب الوضوء له [جـ ٣ ص ٢١٧ بشرح النووى] . وأخرجه البخارى فى كتاب النكاح ، باب من طاف على نسائه فى غُسل واحد ، وهو عن أنس أيضاً ، ولفظه « أنّ نبيّ الله (ﷺ) كان يطوف على نسائه فى الليلة الواحدة ، وله يومئذ تسع نِسْوَة » [جـ ٩ ص ٣١٦ من فتح البارى] وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطهارة ، باب ماجاء فيمن يغتسل من جميع نسائه غُسلاً واحداً [جـ ١ ص ١٩٤] .

(٢٧٣) مابين المعقوفتين عن الزاد . وهو مطابق للحديث الذى رواه أبو داود ، وابن ماجه فى سننهما ، وساقط من النسخ المطبوعة .

(٢٧٤) أخرجه أبو داود فى كتاب الطهارة ، باب الوضوء لمن أراد أن يعود [جـ ١ ص ٥٦] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطهارة ، باب فيمن يغتسل عند كل واحدة غسلاً [جـ ١ ص ١٩٤] .

وشُرع للمُجامع ــ إذا أراد العَوْدَ قبل الغُسْل ــ الوضوءُ بين الجِمَاعَيْن ، كما روى مسلم في صحيحه ــ من حديث أبي سعيد الخدريِّ ــ قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا أتى أحدُكُم أهله ، ثم أراد أن يعود فلْيَتَوَضأْ » .

وفي الغُسل والوضوء بعد الوطء ــ من النشاطِ وطيبِ النفس ، وإخلافِ بعض ما تحلَّل بالجماع ، وكمالِ الطهر والنظافة ، واجتماع الحار الغريزي إلى داخل البدن بعد انتشاره بالجماع ، وحصولِ النظافة التي يُحبها الله ويُبغض خلافها ــ ما هو من أحسن التدبير في الجماع ، وحفظِ الصحة والقُوى فيه .

فصل

وأنفعُ الجماع ما حصلَ بعد الهضم ، وعند آعتدال البدن ، في حَرِّه وبرده ، ويُبوسته ورطوبته ، وخَلائه وامتلائه . وَضَرَره عند امتلاء البدن أسهلُ وأقل من ضرره عند خُلُوِّه . وكذلك ضررُه عند كثرة الرطوبة أقلُّ منه عند اليبوسة، وعند حرارته أقلُّ منه عند برودته . وإنما ينبغي أن يُجامعَ إذا آشتدتِ الشهوةُ ، وحصَّل الانتشارُ التام الذي ليس عن تكلُّف ، ولا فكرٍ في صورة ، ولا نظرٍ متتابع .

ولا ينبغي أن يستدعيَ شهوةَ الجماع ويتكلفها ، ويحمل نفسه عليها ، وليُبادرْ إذا هاجتْ به كثرةُ المنيِّ ، واشتد شبقُهُ ، وليحذرْ جماع العجوز ، والصغيرة ــ التي لا يُوطأُ مثلُها ، والتي لا شهوة لها ــ والمريضةِ ، والقبيحةِ المنظرِ ، والبَغيضة ، فوطءُ هؤلاء يوهن القُوى ، ويُضعف الجماع بالخاصِّية .

وغلط من قال من الأطباء : إن جماع الثَّيِّب أنفعُ من جماع البكر ، وأحفظُ للصحة ، وهذا من القياس الفاسد ، حتى ربما حذر منه بعضُهم ، وهو مخالف لما عليه عقلاءُ الناس ، ولِما اتفقتْ عليه الطبيعةُ والشريعة . وفي جماع البكر ــ من الخاصِّية ، وكمالِ التعلُّق بينها وبين مُجامعها ، وامتلاءِ قلبها من محبته ، وعدم تقسيم هواها بينه وبين غيره ــ ما ليس للثيب .

وقد قال النبي ﷺ لجابر ــ: « هلَّا تزوجتَ بِكرًا ! » .

وقد جعل الله سبحانه ــ من كمالِ نساء أهل الجنة من الحُور العين ــ: أُنهن لم

يَطْمِثْهُنَّ أحدٌ قبل من جُعِلْنَ له من أهل الجنة . وقالت عائشةُ للنبي ﷺ : « أرأيتَ لو مَرَرْتَ بشجرةٍ قد أُرْتِعَ فيها ، وشجرةٍ لم يُرْتَعْ فيها ، ففي أيِّهما كنتَ تُرتِعُ بعيرَك ؟ قال : في التي لم يُرْتَعْ فيها »(٢٧٥) . تريد : أنه لم يأخذ بكرًا غيرَها .

وجماعُ المرأة المحبوبة في النفس يقلُّ إضعافُهُ للبدن مع كثرةِ استفراغه للمنيِّ .

وجماعُ البغيضة يُحلُّ البدن ، ويوهن القُوى مع قلةِ استفراغه .

وجماعُ الحائض حرامٌ طبعاً وشرعاً ، فإنه مضرٌّ جدًّا ، والأطباءُ قاطبةً تحذِّر منه .

وأحسنُ أشكالِ الجماع أن يعلوَ الرجل المرأةَ مُستفرِشاً لها ، بعد المُلاعبة والقُبلة ، وبهذا سُمِّيَتِ المرأةُ فِراشاً . كما قال ﷺ : « الولدُ لِلفِراش »(٢٧٦) . وهذا من تمام قواميَّة الرجل على المرأة ، كما قال تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى ٱلنِّسَاءِ ﴾(٢٧٧) . وكما قيل :

إِذَا رُمْتُهَا كَانَتْ فِرَاشاً يُقِلُّنِي وَعِنْدَ فَرَاغِي خَادِمٌ يَتَمَلَّقُ(٢٧٨)

وقد قال تعالى : ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ ، وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ ﴾(٢٧٩) . وأكملُ اللباس وأسبَغُه على هذه الحال ، فإن فِراش الرجل لباسٌ له ، وكذلك لحافُ المرأة لباسٌ لها . فهذا الشكلُ الفاضل مأخوذٌ من هذه الآية ، وبه يَحسن موقعُ استعارةِ اللباس من كل من الزوجين للآخر .

وفيه وجه آخر ، وهو أنها تنعطفُ عليه أحياناً ، فتكون عليه كاللباس . قال الشاعر :

إِذَا مَا ٱلضَّجِيعُ ثَنَى عِطْفَهُ(٢٨٠) تَثَنَّتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسَا

---

(٢٧٥) أخرجه البخارى فى كتاب النكاح ، باب نكاح الأبكار [جـ ٩ ص ١٢٠ من فتح البارى].

(٢٧٦) أخرجه البخارى فى كتاب الوصايا ، باب قول المُوصِى لِوَصِيِّه : تَعَاهَدْ وَلَدِى ، من حديث عائشة ، في قصة مخاصمة سعد بن أبى وقَّاص ، وعبد بن زَمْعة فى ابن وليدة زمعة [جـ ٥ ص ٢٧١ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى كتاب الرضاع ، باب الولد للفراش وتوقى الشبهات [جـ ١٠ ص ٣٦ ، ٣٧ بشرح النووى] .

(٢٧٧) سورة النساء – الآية ٣٤ .

(٢٧٨) فى الزاد « خادم يتملق » .

(٢٧٩) سورة البقرة – الآية ١٨٧ .

(٢٨٠) فى الزاد « ثَنى جيدَها » .

وأردأُ أشكاله : أن تعلوَه المرأةُ ، ويجامَعها على ظهره ، وهو خلاف الشكل الطبيعي الذي طبع الله عليه الرجل والمرأة ، بل نوع الذكر والأنثى ، وفيه من المفاسد أن المَنِيَّ يتعسر خروجه كُلُّه ، فربما بقي في العضو منه بقية فيتعفنُ ويفسد ، فيضر .

وأيضاً : فربما سال إلى الذَّكر رطوبات من الفرج . وأيضاً : فإن الرحِم لا يتمكن من الاشتمال على الماء ، واجتماعِهِ فيه ، وانضمامِهِ عليه لتَخْلِيق الولد .

وأيضاً : فإن المرأة مفعول بها طبعاً وشرعاً ، وإذا كانت فاعلة خالفتْ مقتضى الطبع والشرع . وكان أهل الكتاب إنما يأتون النساء على جنوبهن ــ على حَرْفٍ – ويقولون هذا أيسرُ للمرأة .

وكانتْ قريش والأنصار تَشْرَح النساءَ على أقْفَائِهِن ، فعابَتِ اليهود عليهم ذلك . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لكُمْ ، فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ** ﴾(٢٨١) .

وفي الصحيحين عن جابر ، قال : « كانت اليهود تقول : إذا أتى الرجل امرأته ، من دُبُرِها ، في قُبُلِها كان الولد أحول ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **نساؤكم حرث لكم ، فأتوا حرثكم أنَّى شئتم** ﴾(٢٨٢) ، وفي لفظ لمسلم : « إن شاء مُجبِّيةً وإن شاء غير مجبِّيةٍ ، غير أن ذلك في صمامٍ واحدٍ »(٢٨٣) . والمجبِّية : المُنْكَبَّة على وجهها . والصمام الواحد : الفرْج ، وهو موضع الحرْثِ والولد .

وأما الدُّبرُ : فلم يُبَحْ قطّ على لسان نبي من الأنبياء . ومن نسب إلى بعض السلف إباحة وطء الزوجة في دبرها ، فقد غلِط عليه .

وفي سنن أبي داود ، عن أبي هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ملعونٌ من أتى المرأة في دُبُرِها »(٢٨٤) . وفي لفظ لأحمد وابن ماجه : « لا ينظر الله إلى رجل جامع

---

(٢٨١) سورة البقرة – الآية ٢٢٣ .

(٢٨٢) أخرجه البخاري في كتاب التفسير ، باب : نساؤكم حرث لكم [جـ ٨ ص ١٨٩ من فتح الباري] . وأخرجه مسلم في كتاب النكاح ، باب جواز جماع الرجل امرأته في قُبُلها من ورائها [جـ ١٠ ص ٦ بشرح النووي] . وأخرجه ابن ماجه في كتاب النكاح ، باب النهي عن إتيان النساء في أدبارهن [جـ ١ ص ٦٢٠] .

(٢٨٣) أخرجه مسلم في الباب السابق [جـ ١٠ ص ٧ بشرح النووي] .

(٢٨٤) أخرجه أبو داود في كتاب النكاح [جـ ٢ ص ٢٤٩] .

امرأته في دبرها »[٢٨٥] . وفي لفظ الترمذي وأحمد : « مَن أتى حائضاً ، أو امرأته في دبرها ، أو كاهناً فصدقه – فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ »[٢٨٦] . وفي لفظ للبيهقي : « مَنْ أتى شيئاً – من الرجال والنساء – في الأدبار فقد كفر » .

وفي مصنف وكيع : حدثني زَمْعَة بن صالح ، عن ابن طاوس ، عن أبيه ، عن عمرو ابن دينار ، عن عبدالله بن يزيد ، قال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه : قال رسول الله ﷺ : « إن الله لا يستحي من الحقّ ، لا تأتُوا النساء في أعجازِهنَّ » ، وقال مرة : « في أدبارهن »[٢٨٧] . وفي الترمذي ، عن علي بن طلق[٢٨٨] قال . قال رسول الله ﷺ : « لا تأتوا النساءَ في أعجازهنَّ ، فإن الله لا يستحي من الحقِّ »[٢٨٩] . وفي الكامل لابن عَدِي – من حديثه عن المحامِلي ، عن سعيد بن يحيى الأمويّ – قال : حدثنا محمد بن حمزَةَ ، عن زيد بن رَفيع ، عن أبي عبيدة ، عن عبدالله بن مسعود يرفعه : « لا تأتوا النساء في أعجازهن » .

وروينا ــ من حديث[٢٩٠] الحسن بن علي الجوهريّ ، عن أبي ذرّ ، مرفوعاً : « مَن أتى الرجال أو النساء[٢٩١] في أدبارهِن ، فقد كفر » .

وروى إسماعيل بن عيَّاش ، عن شُريك بن أبي صالح ، عن محمد بن المُنْكَدِر ، عن جابر يرفعه : « استَحْيُوا من الله – فإن الله لا يستحي من الحقّ – لا تأتوا النساء في

---

(٢٨٥) أخرجه ابن ماجه فى كتاب النكاح ، باب النهى عن إتيان النساء فى أدبارهن [جـ ١ ص ٦١٩] . وفى الزوائد : إسناده صحيح . والحديث قد رواه أبو داود والترمذى بلفظ قريب من هذا .

(٢٨٦) أخرجه أيضاً ابن ماجه ، فى كتاب الطهارة ، باب النهى عن إتيان الحائض [جـ ١ ص ٢٠٩] .

(٢٨٧) زمعة بن صالح ، اتهمه البخارى بالمخالفة ، وضَعَّفَهُ النسائى ، وتركه ابن مهدى [انظر خبره فى الضعفاء الكبير جـ ٢ ص ٩٤] . وأخرجه أيضاً ابن ماجه من حديث خُزَيمة بن ثابت فى كتاب النكاح ، باب النهى عن إتيان النساء فى أدبارهن [جـ ١ ص ٦١٩] وفى الزوائد : فى إسناده حجّاج بن أرطاة ، وهو مُدَلِّس . والحديث منكر لايصح من وجه ، كما ذكره غير واحد ، ورواه الترمذى من حديث على بن طلق .

(٢٨٨) هكذا فى الزاد . وهو مطابق لما ورد فى صحيح الترمذى وغيره . وفى النسخ المطبوعة « طلق بن على » .

(٢٨٩) أخرجه الترمذى فى كتاب الرضاع ، باب ماجاء فى كراهية إتيان النساء فى أدبارهن [جـ ٥ ص ١١٢ بشرح ابن العربى] . وقال الترمذى : حديث حسن .

(٢٩٠) فى الزاد « فى حديث » .

(٢٩١) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « والنساء » .

حُشوشِهِنَّ » . ورواه الدارقُطنيُّ من هذه الطريق ، ولفظه : « إن الله لا يستحي من الحق ، ولا يَحلُّ إتيانُ (٢٩٢) النساء في حُشُوشِهِنَّ »(٢٩٣) .

وقال البغويُّ : حدثنا هُدْبَةُ ، حدثنا همَّام ، قال : سئل قتادة عن الذي يأتي امرأته في دبرها ، فقال : حدثني عمرو بن شعيب – عن أبيه ، عن جده – أن رسول الله ﷺ قال : « تلك اللوطِيَّة الصغرى » . وقال [الإمام](٢٩٤) أحمد رحمه الله – في مسنده : حدثنا عبد الرحمن ، قال : حدثنا همَّام ، أخبرنا عن قتادَةَ ، عن عمرو ابن شعيب ، عن أبيه ، عن جده : فذكره .

وفي المسند أيضاً ، عن ابن عباس [قال](٢٩٥) : « أنزلت هذه الآية : ﴿ نِساؤُكُمْ حَرْثٌ لكُمْ ﴾ ، في أناس من الأنصار : أَتَوْا رسول الله ﷺ ، فسألوه . فقال : ائْتِها على كلِّ حال إذا كان في الفرْج » .

وفي المسند أيضاً ، عن ابن عباس ، قال : « جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، هلكتُ . فقال : وما الذى أهلكَكَ ؟ قال : حَوَّلْتُ رَحْلِي البارحَةَ . قال : فلم يَرُدَّ عليه شيئاً ، فأوحى الله إلى رسوله : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لكُمْ ، فَأْتُوا حَرْثَكُم أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ أَقْبِلْ وأَدبِرْ ، واتَّقِ الحَيْضَةَ والدُّبُرَ » .

وفي الترمذي – عن ابن عباس مرفوعاً – « لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلاً أو امرأة في الدُّبر »(٢٩٦) .

وروينا – من حديث أبي علي الحسن بن الحسين بن دوما ، عن البَراء بن عازب يرفعه : « كفر بالله العظيم عشرة من هذه الأمة : القاتل ، والساحر ، والدَّيُّوثُ ، وناكحُ المرأة في دُبرِها ، ومانع الزكاة ، ومَن وجدَ سعة فمات ولم يحجَّ ، وشارب الخمر ، والساعي في الفتن ، وبائع السلاح من أهل الحرب ، ومَن نكَح ذات مَحْرَمٍ منه » .

---

(٢٩٢) فى الزاد « مأتاك » وهو مطابق لما ورد فى سنن الدار قطنى .

(٢٩٣) أخرجه الدار قطنى فى كتاب النكاح (جـ ٣ ص ٢٨٨) .

(٢٩٤) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٩٥) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٩٦) أخرجه الترمذى فى كتاب الرضاع ، باب ماجاء فى كراهية إتيان النساء فى أدبارهن [جـ ٥ ص ١١٢] وقال الترمذى : حديث حسن غريب .

وقال عبد الله بن وهب : حدثنا عبد الله بن لَهيعةَ ، عن مِشرَح بن هاعانَ ، عن عقبةَ بن عامر ، أن رسول الله ﷺ ، قال : « ملعونٌ من يأتي النساء في محاشِّهِنَّ » ، يعني : أدبارهن .

وفي مسند الحارث بن أبي أُسامة ــ من حديث أبي هريرة ، وابن عباس ــ قالا : خطبنا رسول الله ﷺ قبل وفاته ، وهي آخرُ خُطبةٍ خطبها بالمدينة حتى لحق بالله عز وجل ، وعظنا فيها وقال : « مَن نكَحَ امرأةً(٢٩٧) في دُبرها ، أو رجلاً أو صبيًا حُشِرَ يوم القيامة وَرِيحُهُ أَنْتَنُ من الجيفةِ ، يتأذى به الناس حتى يَدْخُلَ النّارَ ، وأَحْبَطَ اللهُ أَجْرَهُ ، ولا يَقْبَلُ منه صرْفاً ولا عَدْلاً ويُدْخَلُ في تابوتٍ من نارٍ ، ويُسَدُّ(٢٩٨) عليه بمساميرَ مِنْ نارٍ » . قال أبو هريرة : هذا لِمَنْ لَمْ يَتُبْ .

وذكر أبو نعيم الأصبهاني ــ من حديث خزيمة بن ثابت يرفعه ــ: « إن الله لا يستحي من الحقِّ ، لا تأتوا النساءَ في أعجازهنَّ » .

وقال الشافعي : « أخبرني عمي محمد بن علي بن شافع ، قال : أخبرني عبد الله بن علي بن السائب ، عن عمرو بن أُحَيْحة بن الجلّاح ، عن خزيمة بن ثابت ــ: « أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن إتيان النساءِ في أدبارهنَّ ، فقال . حلالٌ . فلمَّا ولَّى دعاه ، فقال : كيف قلتَ ؟ في أيِّ الخُرْبَتَيْنِ ؟ أو في أي الخرْزَتَيْنِ ؟ أو في أي الخصْفَتَيْنِ ؟ أمِن دبرِها في قُبلِها : فنعمْ ، أمَّا(٢٩٩) من دبرها فى دبرها فلا ، فإن(٣٠٠) الله لا يستحي من الحق ، لا تأتوا النساءَ في أدبارهنَّ » .

قال الرَّبيع : « فقيل للشافعي : فما تقول ؟ فقال : عمي ثقةٌ ، وعبد الله بن علي ثقة ، وقد أثنى على الأنصاري خيرًا . يعني (عمرو بن الجلّاح) ، وخزيمة ممن لايُشك في ثقته ، فلست أرخِّص فيه ، بل أنهَى عنه » .

قلت : ومن هاهنا ، نشأ الغلط على من نُقل عنه الإباحة من السلف والأئمة ، فإنهم أباحوا أن يكون الدبرُ طريقاً إلى الوطء في الفرج ، فيطأ من الدبر ، لا في الدبر ، فاشتبه

---

(٢٩٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « امرأته » .

(٢٩٨) فى الزاد « ويُشَدُّ » .

(٢٩٩) فى الزاد « أمْ » .

(٣٠٠) فى الزاد « إنَّ » .

على السامع مَن نفى ، أوْ لم يظن بينهما فرقاً[٣٠١] . فهذا الذي أباحه السلف والأئمة ، فغلط عليهم الغالط أقبح الغلط وأفحشة .

وقد قال تعالى : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ﴾[٣٠٢] ، قال مجاهد : « سألت ابن عباس عن قوله تعالى : ﴿ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ﴾ ، فقال : تأتيها من حيث أُمرت أن تعتزلها . يعني في الحيض » . وقال علي بن أبي طلحة عنه : « يقول : في الفرج ، ولاتَعْدُه إلى غيره » .

وقد دلت الآية على تحريم الوطء في دبرها ، من وجهين :

أحدهما : أنه إنما أباح إتيانها في الحرث ــ وهو موضع الولد ــ لا في الحَشّ الذي هو موضع الأذى . وموضع الحرث هو المراد من قوله : ﴿ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ ﴾ الآية . قال [تعالى][٣٠٣] : ﴿ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾[٣٠٤] وإتيانها في قبلها من دبرها ، مستفاد من الآية أيضاً . لأنه قال : ﴿ أَنَّى شِئْتُم ﴾ ، أي من حيث شئتم[٣٠٥] من أمام ، أو من خلْف . قال ابن عباس : ﴿ فَأْتُوا حرثكم ﴾ يعني الفرجَ .

وإذا كان الله حرم الوطء في الفرج ، لأجل الأذى العارض ، فما الظن بالحُشّ الذي هو محلُ الأذى اللازم مع زيادة المفسدة بالتعرض لانقطاع النسل ، والذريعة القريبة جدًّا من أدبار النساء ، إلى أدبار الصبيان .

وأيضاً : للمرأة[٣٠٦] حقٌّ على الزوج في الوطء ، ووطؤها[٣٠٧] في دبرها يفوِّتُ حقَّها ، ولا يقضى وطَرَها ، ولا يُحَصِّلُ مقصودها .

وأيضاً : فإن الدبر لم يتهيأ لهذا العمل ولم يُخلق له ، وإنما الذي هُيِّئَ له الفرجُ ، فالعادلون عنه إلى الدُّبُر خارجون عن حِكْمَةِ الله وشرعه جميعاً .

---

(٣٠١) فى الزاد « فاشتبه على السامع (من) بـ (فى) ولم يظن بينهما فرقاً » .

(٣٠٢) سورة البقرة – الآية ٢٢٢ .

(٣٠٣) مابين المعقوفتين لم يرد بالزاد .

(٣٠٤) سورة البقرة – الآية ٢٢٣ .

(٣٠٥) فى الزاد « من أين شئتم » .

(٣٠٦) فى الزاد « فللمرأة » .

(٣٠٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « وطؤها » .

وأيضاً : فإن ذلك مضرٌّ بالرجل ، ولهذا يَنهى عنه عقلاء الأطباء ، من الفلاسفة وغيرهم ، لأن للفرج خاصيَّة في اجتذاب الماء المحتقن ، وراحة الرجل منه ، والوطء في الدبر لا يعين على اجتذاب جميع الماء ، ولا يخرج كلَّ المحتقن لمخالفته للأمر الطبيعي .

وأيضاً : يضر من وجه آخَرَ ، وهو إحواجُه إلى حركات متعبة جدًّا ، لمخالفته للطبيعة .

وأيضاً : فإنه محل القذر والنَّجْوِ ، فيستقبله الرجل بوجهه ، ويلابسُه .

وأيضاً : فإنه يضر بالمرأة جدًّا ، لأنه وارد غريب ، بعيد عن الطباع منافر لها غاية المنافرة .

وأيضاً : فإنه يُحْدِثُ الهَمَّ والغَمَّ ، والنفرةَ عن الفاعل والمفعول .

وأيضاً : فإنه يُسَوِّدُ الوَجْهَ ، ويظلم الصدر ، ويَطمِسُ نُورَ القلب ، ويكسو الوجه وحشةً تصير عليه كالسِّيماء ، يعرفها من له أدنى فِراسة

وأيضاً : فإنه يُوجب النُّفرة والتباغض الشديد ، والتقاطع بين الفاعل والمفعول ، ولا بُدَّ .

وأيضاً : فإنه يفسد حال الفاعل والمفعول فسادًا لا يكاد يُرجَى بعده صلاح ، إلا أن يشاءَ الله بالتوبة النصوح .

وأيضاً : فإنه يذهبُ بالمحاسن منهما ، ويكسوهما ضِدَّها . كما يذهب بالمودة بينهما ، ويبدلهما بها تباغضاً وتلاعُناً .

وأيضاً : فإنه من أكبر أسباب زوال النِّعَم ، وحُلول النِّقَم ، فإنه يوجب اللَّعْنَةَ والمَقْتَ من الله ، وإعراضه عن فاعله ، وعدم نظره إليه ، فأيُّ خير يرجوه بعد هذا ؟ وأيُّ شر يأمنُه ؟ وكيف حياة عبد قد حلتْ عليه لعنة الله ومقته ، وأعرض عنه بوجهه ، ولم ينظر إليه !.

وأيضاً : فإنه يذهب بالحياء جملةً ، والحياءُ هو حياة القلوب ، فإذا فقدها القلبُ ، استحسَن القبيحَ ، واستقبح الحَسَن ، وحينئذٍ فقد استَحكَم فسادُه .

وأيضاً : فإنهُ يُحيل الطباعَ عما ركبها الله [عليه][٣٠٨] ، ويُخرج الإنسانَ عن طبعه

---

(٣٠٨) مابين المعقوفتين ساقط من

إلى طبع لم يركب الله عليه شيئا من الحيوان ، بل هو طبع منكوس ، وإذا نُكِسَ الطبعُ انتكَسَ القلب والعمل والهدى ، فيستطيب — حينئذٍ — الخبيثَ من الأعمال والهيئات ، ويفسد حاله وعمله وكلامه بغير اختياره .

وأيضاً : فإنه يُورِث من الوقاحة والجُرأة مالا يورثه سواه .

وأيضاً : فإنه يورث من المهانة والسِّفال والحَقارة مالا يورثه غيره .

وأيضاً : فإنه يكسو العبدَ من حُلة المقت والبغضاء وازدراءِ الناس له ، واحتقارِهم إيَّاه ، واستصغارِهم له ، ما هو مشاهدٌ بالحس . فصلاة الله وسلامه على مَن سعادةُ الدنيا والآخرة في هَدْيِهِ واتباعِ ما جاء به ، وهلاكُ الدنيا والآخرة فى مخالفة هديه وما جاء به .

فصل

والجماع الضار نوعان : ضارٌّ شرعاً ، وضارٌّ طبعاً .

فالضار شرعاً : المحرَّم ، وهو مراتب بعضُها أشد من بعض ، والتحريمُ العارض منه أخفُّ من اللازم ، كتحريم الإحرام ، والصيام والاعتكاف ، وتحريم المُظاهِرِ منها قبل التكفير ، وتحريم وطء الحائض، ونحو ذلك ، ولهذا لا حدَّ في هذا الجماع .

وأما اللازمُ فنوعان : **نوعٌ** لا سبيل إلى حِلِّه البته ، كذوات المَحارم ، فهذا من أضر الجماع ، وهو يُوجب القتل حدًّا عند طائفة من العلماء ، كأحمدَ بن حنبلٍ — رحمه الله — وغيره . وفيه حديث مرفوع ثابت(٣٠٩) . **والثاني** : ما يمكن أن يكون حلالاً ، كالأجنبية ، فإن كانت ذاتَ زوج ، ففي وطئها حَقَّان : حقٌّ لله ، وحق للزوج ، فإن كانت مكرَهة ، ففيه ثلاثةُ حقوق . وإن كان لها أهل وأقاربُ — يلحقهم العار بذلك — صار فيه أربعةُ حقوق ، فإن كانت ذات مَحْرَم منه ، صار فيه خمسةُ حقوق . فمضرةُ هذا النوع بحسب درجاته في التحريم .

---

(٣٠٩) جاء فى سنن ابن ماجه - كتاب الحدود ، باب من تزوج امرأة أبيه من بعده - عن البراء بن عازب قال : « مَرَّ بى خالى [وفى سنن أبى داود عمى] ، وقد عَقَدَ له النبيُّ (ﷺ) لواءً . فقلت : أين تريد ؟ فقال : بعثنى رسول الله (ﷺ) إلى رجل تزوج امرأة أبيه مِنْ بَعْدِه ، فأَمَرَنى أنْ أَضْرِب عُنُقَه [سنن ابن ماجه جـ ٢ ص ٨٦٩] وأخرجه أبو داود أيضاً فى كتاب الحدود ، باب الرجل يَزْنى بحريمه [جـ ٤ ص ١٥٧] .

وأما الضار طبعاً ، فنوعان أيضاً : نوعٌ ضار بكيفيته كما تقدم ، ونوعٌ ضار بكميته ، كالإكثار منه ، فإنه يُسقط القوة ، ويُضر بالعصب ، ويُحدث الرعشةَ والفالج والتشنج ، ويُضعف البصر وسائرَ القُوى ، ويُطفئُ الحرارةَ الغريزية ، ويُوسع المجاريَ ويجعلها مستعدة للفضلات المؤذية .

وأنفعُ أوقاته ما كان بعد انهضام الغذاء في المعدة ، وفي زمانٍ معتدلٍ ، لا على جوع ، فإنه يُضعف الحار الغريزي ، ولا على شبع ، فإنه يُوجب أمراضاً سَدَدِيَّةً[٣١٠] ولا على تعب ، ولا إثْر حمام ، ولا استفراغ ، ولا انفعالٍ نفساني ، كالغم والهم والحزن ، وشدةِ الفرح .

وأجودُ أوقاته بعد هَزيع من الليل ، إذا صادف انهضامَ الطعام ، ثم يغتسل أو يتوضأ وينام عقبه ، فيرَجع[٣١١] إليه قواه ، وليحذر الحركة والرياضة عقبه ، فإنها مُضرة جدًّا .

فصل في هديه ﷺ في علاج العشق

هذا مرض من أمراض القلب ، مخالفٌ لسائر الأمراض ، في ذاته وأسبابه وعلاجه ، وإذا تمكن واستَحكَم عزَّ على الأطباء دواؤه ، وأعيا العليلَ داؤه .

وإنَّما حكاه الله سبحانه — في كتابه — عن طائفتين من الناس ، من النساء ، وعشاقِ الصبيان المُرْدان ، فحكاه عن امرأة العزيز في شأن يوسفَ ، وحكاه عن قوم لوط ، فقال تعالى — إخبارًا عنهم لمَّا جاءَتِ الملائكةُ لوطاً —: ﴿ **وَجَاءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرونَ ۝ قَالَ : إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ۝ وَٱتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ ۝ قَالُوا : أَوَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ۝ قَالَ : هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ ۝ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ** ﴾[٣١٢] .

---

(٣١٠) في الزاد « شديدة » .

(٣١١) في الزاد « فَتَرَاجَعَ » أي : فتتراجع .

(٣١٢) سورة الحِجْر – الآيات من ٦٧ – ٧٢ .

وأمَّا ما زعمه بعضُ من لم يقدر رسولَ الله ﷺ حقَّ قدره أنه ابتُلِيَ به في شأن زينبَ بنت جَحْش ، وأنه رآها فقال : « سُبْحَانَ مُقَلِّب القلوب ! » وأخذتْ بقلبه ، وجعل يقول لزيد بن حارثةَ : أمسكْها ، حتى أنزل الله عليه : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ ، وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ، وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ﴾[٣١٣] ـ فظنَّ هذا الزاعمُ أن ذلك في شأن العشق ، وصنف بعضهم كتاباً في العشق ، وذكر فيه عشق الأنبياء ، وذكر هذه الواقعة . وهذا من جهلِ هذا القائل بالقرآن وبالرسل وتحميله كلامَ الله ما لا يحتمله ، ونسبته رسولَ الله ﷺ إلى ما برَّأه الله منه ، فإن زينب بنت جحش كانت تحتَ زيدِ بن حارثةَ ، وكان رسول الله ﷺ قد تبنَّاه ، وكان يُدعى : ابن[٣١٤] محمد ، وكانت زينب فيها شَمَمٌ وترفُّعٌ عليه ، فشاور رسول الله ﷺ في طلاقها ، فقال له رسول الله ﷺ : « أَمْسِكْ عليك زوجَكَ وَاتَّقِ الله » ؛ وأخفى في نفسه أن يَتزوَّجها إن طلَّقها زيد ، وكان يخشى من قَالَةِ الناس : إنه تزوج امرأة ابنه ، لأن زيدًا كان يُدعى ابنَه ، فهذا هو الذي أخفاه في نفسه ، وهذه هي الخشية من الناس التي وقعت له ، ولهذا ذكر سبحانه هذه الآية يعدِّدُ فيها نعمه عليه ، لا يعاتبه فيها ، وأعلمه أنه لا ينبغي له أن يخشى الناس فيما أَحَلَّ الله له ، وأن الله أحق أن يخشاه ، فلا يتحرَّجْ ما أحله له ، لأجل قول الناس ، ثم أخبره أنه سبحانه زَوَّجَهُ إيَّاها بعد قضاء زيد وطرَه منها ، لتقتديَ أُمَّتُه به في ذلك ، ويتزوجَ الرجل بامرأة ابنه من التَّبَنِّي ، لا امرأةِ ابنه لصُلْبِهِ . ولهذا قال في آية التحريم : ﴿ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ ﴾[٣١٥] . وقال في هذه السورة : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ﴾[٣١٦] وقال في أولها : ﴿ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ، ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ﴾[٣١٧] فتأملْ هذا الذَّبَّ عن رسول الله ﷺ ، ودَفْعَ طعنِ الطاعنين عنه . وبالله التوفيق .

---

(٣١٣) سورة الأحزاب – الآية ٣٧ .

(٣١٤) في الزاد « زيد بن محمد » .

(٣١٥) سورة النساء – الآية ٢٣ .

(٣١٦) سورة الأحزاب – الآية ٤٠ .

(٣١٧) سورة الأحزاب – الآية ٤ .

نَعَمْ ، كان رسول الله ﷺ يُحب نساءه ، وكان أحبُّهن إليه عائشةُ ، رضي الله عنها ، ولم تكن تبلغ محبتُه لها ولا لأحد — سوى ربه — نهايةَ الحب ، بل صح [عنه](٣١٨) أنه قال : « لو كنتُ مُتَّخِذًا من أهل الأرض خليلاً ، لاتَّخَذْتُ أبا بكرٍ خليلاً »(٣١٩) وفي لفظ : « وإن صاحبَكم خليلُ الرحمنْ » .

فصل

وعشقُ الصُّوَر إنما تُبتلَى به القلوبُ الفارغة من محبة الله تعالى ، المعرضةُ عنه ، المتعوِّضةُ بغيره عنه ، فإذا امتلأ القلب من محبة الله والشوقِ إلى لقائه ، دفعَ ذلك عنه مرض عشق الصُّوَر ، ولهذا قال تعالى في حق يوسف : ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ، إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(٣٢٠) . فدل على أن الإخلاص سببٌ لدفع العشق ، وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرتُه ونتيجته ، فصرفُ المُسبَّب صرفٌ لسببه .

ولهذا قال بعض السلف : « العشقُ حركة قلب فارغ » . يعني فارغاً مما سوى معشوقه . قال تعالى : ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغاً ، إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ ﴾(٣٢١) ، أي فارغاً من كل شيء إلا من موسى ، لفرطِ محبتها له ، وتعلقِ قلبها به .

والعشق مركب من أمرين : استحسانٍ للمعشوق ، وطمعٍ في الوصول إليه ، فمتى انتفى أحدهما انتفى العشقُ .

وقد أعيتْ عِلَّةُ العشق على كثير من العقلاء، وتكلم فيها بعضهم بكلام يُرغبُ عن ذكره إلى الصواب . فنقول : قد استقرت حكمة الله عز وجل — في خلقه وأمره — على وقوع التناسب والتآلف بين الأشباه ، وانجذابِ الشيء إلى موافقه ومجانسه بالطبع ،

---

(٣١٨) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٣١٩) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة ، باب قول النبى (ﷺ) : لو كنتَ مُتَّخِذاً خليلاً [جـ ٧ ص ١٧ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة ، فضائل أبى بكر الصِّدِّيق [جـ ١٥ ص ١٥٠ – ١٥٣ بشرح النووى] .

(٣٢٠) سورة يوسف – الآية ٢٤ .

(٣٢١) سورة القصص – الآية ١٠

وهروبه من مخالفه ونُفرته عنه بالطبع ، فَسِرُّ التمازج والاتصال في العالم العُلوي والسُّفلي ، إنما هو التناسب والتشاكل ، والتوافق ، وسرُّ التباين والانفصال إنما هو ، لعدم التشاكل والتناسب ، وعلى ذلك تمامُ[٣٢٢] الخلق والأمر ، فالمِثْلُ إلى مثله مائلٌ ، وإليه صائرٌ، والضدُّ عن ضده هاربٌ وعنه نافر ، وقد قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ﴾[٣٢٣] . فجعل سبحانه عِلَّةَ سكون الرجل إلى امرأته ، كونها من جنسه وجوهره ، فَعِلَّةُ السكون المذكور — وهو الحب — كونُها منه ، فدل على أن العِلَّةَ ليست بِحُسْنِ الصورة ، ولا الموافقة في القصد والإرادة ، ولا في الخلق والهدى ، وإن كانت هذه أيضاً من أسباب السكون والمحبة .

وقد ثبت في الصحيح ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « الأرواحُ جنودٌ مُجَنَّدةٌ ، فَمَا تَعَارَفَ منها ائْتَلَفَ ، وما تَنَاكرَ منها اختَلَفَ »[٣٢٤] . وفي مسند الإمام أحمد ، وغيره — في سبب هذا الحديث —: « أن امرأة بمكةَ كانت تُضْحِكُ النَّاسَ ، فجاءت إلى المدينة ، فنزلتْ على امرأة تُضْحِكُ الناس ، فقال النبي ﷺ : الأرواح جنود مجندة » الحديث .

وقد استقرتْ شريعته — سُبحانه — أن حُكم الشيءِ حُكْمُ مثله ؛ فلا تُفَرِّقُ شريعته بين متماثلين أبدًا ، ولا تجمعُ بين مضادَّين ، ومَنْ ظَنَّ خِلافَ ذلك فإمَّا لقلة علمه بالشريعة ، وإما لتقصيره في معرفة التماثُلِ والاختلاف ، وإمَّا لنسبته إلى شريعته ما لم ينزلْ به سلطاناً ، بل يكونُ من آراء الرجال ، فبحكمته وعدلِه ظهر خَلقُه وشرعُه ، وبالعدل والميزان قام الخلقُ والشَّرْعُ ، وهو التسوية بين المُتَماثِلَيْن ، والتفريق بين المختلفَيْن ، وهذا كما أنه ثابت في الدنيا ، فهو كذلك يومَ القيامة ، قال تعالى : ﴿ ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ، مِنْ دُونِ اللهِ ، فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ ﴾[٣٢٥] . قال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وبعدَه الإمامُ أحمد ، رحمه الله : « أزواجهم :

---

(٣٢٢) في الزاد « قام الخلق » .

(٣٢٣) سورة الأعراف – الآية ١٨٩ .

(٣٢٤) أخرجه البخارى من حديث عائشة فى كتاب الأنبياء ، باب الأرواح جنود مجندة [جـ ٦ ص ٣٦٩ من فتح البارى] وأخرجه مسلم من حديث أبى هريرة فى كتاب البر والصلة والآداب . باب الأرواح جنود مجندة [جـ ١٦ ص ١٨٥ بشرح النووى] وأخرجه أبو داود فى كتاب الأدب ، باب من يؤمر أن يجالس [جـ ٤ ص ٢٦٠] .

(٣٢٥) سورة الصافات – الآيتان ٢٢ ، ٢٣ .

أشباهُهم ونظراؤهم » . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفوسُ زُوِّجَتْ ﴾[٣٢٦] ، أي : قُرِنَ كُلُّ صاحب عمل بشكله ونظيره ، فقُرن بين المُتَحابين في الله في الجنة ، وقُرِنَ بين المُتَحابِّيْن في طاعة الشيطان في الجَحيم . فالمرءُ مع مَن أَحَبَّ ، شاء أو أبَى . وفي صحيح[٣٢٧] الحاكم وغيره . عن النبي ﷺ : « لا يُحِبُّ المَرْءُ قوماً إلَّا حُشِرَ مَعهم » .

والمحبة أنواع متعددة ، فأفضلها وأَجَلُّها : المحبةُ في الله ولله ، وهي تستلْزِمُ مَحَبَّةَ ما أَحَبَّ اللهُ ، وتستلزِمُ مَحَبَّةَ الله ورسوله . ومنها : محبة الاتفاق في طريقة ، أو دين ، أو مذهب ، أو نِحْلَةٍ ، أو قرابة ، أو صناعة ، أو مرادٍ مَّا . ومنها : محبةٌ لنَيْل غَرَضٍ من المحبوب ، إمَّا مِنْ جَاهِهِ ، أو مِن ماله ، أو من تعليمه وإرشاده ، أو قضاء وطر منه ، وهذه هي المحبة العَرَضيَّة ، التي تزول بزوال مُوجِبها ، فإنَّ مَن وَدَّك لأمر ولَّى عنك عند انقضائه[٣٢٨] .

وأمَّا محبةُ المشاكلة والمناسبة التي بين المحب والمحبوب ، فمحبةٌ لازمة ، لا تزول إلا لعارض يُزيلها ، ومحبةُ العشق من هذا النوع ، فإنها استحسان روحانيٌّ ، وامتزاج نفسانيٌّ ، ولا يَعرِض في شيء من أنواع المحبة من الوَسْواس والنُّحول ، وشَغْل البال والتلف ــ ما يعرض من العشق .

فإن قيل : فإذا كان سببُ العشق ما ذكرتم من الاتصال والتناسب الروحانيِّ ــ فما بالُه لا يكون دائماً من الطرَفين ، بل تجدُه كثيرًا من طرف العاشق وحده ؟ فلو كان سببُه الاتصالَ النفسي ، والامتزاجَ الروحاني ، لكانت المحبة مشتركةً بينهما .

فالجواب : أن السبب قد يتخلف عنه مسبَّبه لفوات شرط ، أو لوجود مانع ، وتخلُّف المحبة من الجانب الآخر ، لابد أن يكون لأحد ثلاثة أسباب ، **الأول** : عِلَّةٌ في المحبة ، وأنها محبة عرضية ، لا ذاتية ، ولا يجب الاشتراك في المحبة العرَضية ، بل قد يلزمها نُفرةٌ من المحبوب . **الثاني** : مانعٌ يقوم بالمحِب ــ يمنع محبة محبوبه له ــ إما في خَلْقِهِ ، أو خُلُقه ، أو هديه ، أو فعله ، أو هيئته ، أو غير ذلك . **الثالث** : مانعٌ يقوم

---

(٣٢٦) سورة التكوير – الآية ٧ .

(٣٢٧) فى الزاد « مستدرك » .

(٣٢٨) هكذا فى الزاد وفى النسخ المطبوعة « فإنَّه مَنْ وَدَّكَ لأمْرٍ ، وَلَّى عِنْدَ انقضائه » .

بالمحبوب يمنع مشاركته للمحبّ فى محبته ، ولولا ذلك المانع لقام به من المحبة لمحبه مثل ما قام بالآخر .

فإذا انتفتْ هذه الموانعُ ، وكانت المحبة ذاتية ــ فلا يكون قطُّ إلا من الجانبين .

ولولا مانعُ الكبر والحسد والرياسة والمعاداة في الكفار ، لكانت الرسل أحبَّ إليهم من أنفسهم وأهليهم وأموالهم ، ولمَّا زال هذا المانع من قلوب أتباعهم ، كانت محبتهم لهم فوقَ محبة الأنفس والأهل والمال .

فصل

والمقصود أن العشق لما كان مرضاً من الأمراض ، كان قابلاً للعلاج ، وله أنواع من العلاج ، فإن كان مما للعاشق سبيلٌ إلى وصل محبوبه شرعاً وقدَرًا ، فهو علاجه ، كما ثبت فى الصحيحين ، من حديث ابن مسعود ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومَنْ لم يستطِعْ فعليه بالصوم ، فإنه له وِجَاءٌ » . فدَل المحبُّ على علاجين : أصليٌّ وبدلي ، وأمره بالأصلي ــ وهو العلاج الذي وُضع لهذا الداء ــ فلا ينبغي العدول عنه إلى غيره ما وَجد إليه سبيلاً .

وروى ابن ماجه في سننه ــ عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ــ أنه قال : « لم نر للمُتحابَّيْن مثلَ النكاح »(٣٢٩) . وهذا هو المعنى الذي أشار إليه سبحانه ــ عقيب إحلال النساء حرائرِهن وإمائهن عند الحاجة ــ بقوله : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ، وَخُلِقَ ٱلْإِنسَانُ ضَعِيفاً ﴾(٣٣٠) . فذِكْرُ تخفيفِه [سبحانه](٣٣١) في هذا الموضع ، وإخبارُه عن ضعف الإنسان ــ يدل على ضعفه عن احتمال هذه الشهوة ، وإنه سبحانه خفف عنه أمرها بما أباحه له من أطايب النساء مَثْنى وثُلاثَ ورُباعَ ، وأباح

---

(٣٢٩) أخرجه ابن ماجه فى كتاب النكاح ، باب ماجاء فى فضل النكاح [جـ ١ ص ٥٩٣] . وفى الزوائد : إسناده صحيح ، ورجاله ثقات .

(٣٣٠) سورة النساء – الآية ٢٨ .

(٣٣١) مابين المعقوفتين لم يرد فى الزاد .

له ما شاء ، مما ملكتْ يمينه ، ثم أباح له أن يتزوج بالإماء ــ إن احتاج إلى ذلك ــ علاجاً لهذه الشهوة ، وتخفيفاً عن هذا الخُلق الضعيف ، ورحمة به .

فصل

وإن كان لا سبيلَ للعاشق إلى وصال معشوقِهِ قدرًا أو شرعاً ، أو هو ممتنع عليه من الجهتين ــ وهو الداء العُضال ــ فَمِن علاجه إشعارُ نفسه اليأسَ منه ، فإن النفس متى يئستْ من الشيء آستراحت منه ، ولم تلتفت إليه .

فإنْ لم يَزُلْ مرضُ العشق مع اليأس ، فقد انحرف الطبع انحرافاً شديدًا ، فينتقل إلى علاج آخر ، وهو علاجُ عقله ، بأن يعلم بأن تعلُّق القلب بما لا مطمع في حصولة نوعٌ من الجنون ، وصاحبه بمنزلة من يعشَق الشمس ، وروحُه متعلقة بالصعود إليها ، والدَّوَران معها في فلكها ، وهذا معدود ــ عند جميع العقلاء ــ في زُمرة المجانين .

وإن كان الوصال متعذرًا شرعاً لا قدرًا ، فعِلاجُه بأن يُنزلَه منزلة المتعذر قدرًا ، إذ ما لم يأذن اللهُ فيه ، فعلاجُ العبد ونجاتُه موقوف على اجتنابه ، فليُشعِرْ نفسَه أنه معدوم ممتنع لا سبيل له إليه ، وأنه بمنزلة سائر المُحالات ، فإن لم تُجِبْهُ النَّفْسُ الأمَّارة ، فليتركْه لأحد أمرين : إما خشيةٍ ، وإما فواتِ محبوب هو أحبُّ إليه ، وأنفع له ، وخير له منه ، وأدْوَم لذةً وسرورًا ، فإن العاقل متى وازَنَ بين نيل محبوب سريع الزوال ، بفوات محبوب أعظمَ منه وأدومَ وأنفعَ وألذَّ ــ أو بالعكس ــ ظهر له التفاوتُ ، فلا تَبِعْ لَذَّة الأبد ــ التي هي لا خطرَ لها ــ بلذَّة ساعة تنقلب آلاماً ، وحقيقتُها أنها أحلامُ نائم ، أو خيالٌ لا ثبات له ، فتذهب اللذةُ وتبقى التبعةُ وتزول الشهوة ، وتبقَى الشِّقوة .

الثاني : حصول مكروه أشَقّ عليه من فوات هذا المحبوب ، بل يجتمع له الأمران ، أعني : فواتَ ما هو أحبُّ إليه من هذا المحبوب ، وحصول ما هو أكرهُ إليه من فوات هذا المحبوب ، فإذا تيقَّن أن في إعطاء النفسِ حظَّها من هذا المحبوب ، هذين الأمرين ــ هان عليه تركُه ، ورأى أن صبره على فوته أسهلُ من صبره عليهما بكثير ، فعقلُه ودينه ومروءته وإنسانيته تأمره باحتمال الضرر اليسير ، الذي ينقلب سريعاً لذَّةً وسرورًا وفرحاً ، لدفع هذين الضررين العظيمين ، وجَهلُه وهواه وظلمه وطيشه وخفته

تأمره(٣٣٢) بإيثار هـذا المحبوب العاجل بما فيه ، جالباً عليه ما جلب ، والمعصومُ من عصمه الله .

فإن لم تقبل نفسُهُ هذا الدواء ، ولم تطاوعه لهذه المعالجة ـــ فلينظر ما تجلبُ عليه هذه الشهوة من مفاسدِ عاجلتِه ، وما تمنعه من مصالحها ، فإنها أجلبُ شيء لمفاسد الدنيا ، وأعظمُ شيء تعطيلاً لمصالحها ، فإنها تحول بين العبد وبين رشده الذي هو مِلاكُ أمره ، وقوامُ مصالحه .

فإن لم تقبل نفسه هذا الدواء ، فليتذكَّرْ قبائحَ المحبوب ، وما يدعوه إلى النُّفْرَة عنه ، فإنه إن طلبها وتأملها ، وجدها أضعافَ محاسنِه التي تدعو إلى حبه ، وليسألْ جيرانَهُ عَمَّا خَفِيَ عليه منها ، فإن المحاسن كما هي داعيةُ الحبِّ والإرادة ، فالمساوئ داعيةُ البغضِ والنُّفرة ، فليوازنْ بين الدَّاعِيَيْن ، وَلْيُحِبَّ أسبَقهما وأقربهما منه باباً ، ولا يكن مِمَّن غرَّه لونُ جمال على جسم أبرصَ مجذوم ، وليُجاوِزْ بَصَرُه حُسْنَ الصورة إلى قبح الفعل ، وليَعْبُرْ مِنْ حُسن المنظر والجسم ، إلى قبح المخبَر والقلب .

فإن عجزتْ عنه هذه الأدوية كلُّها ، لم يبق له إلا صدقُ اللَّجَإ إلى من يجيب المُضْطَرَّ إذا دعاه ، وليطرحْ نفسه بين يديه على بابه ، مستغيثاً به ، متضرعاً متذللاً مستكيناً ، فمتى وُفِّقَ لذلك ، فقد قرع باب التوفيق ، فليَعِفَّ وَلْيَكْتُمْ ، ولا يُشَبِّبْ بذكر المحبوب ، ولا يفضحْه بين الناس ويعرِّضْه للأذى ، فإنه يكون ظالماً متعدياً .

ولا يغترَّ بالحديث الموضوع على رسول الله ﷺ ـــ الذي رواه سُويد بن سعيد ، عن عليّ بن مُسْهِر ، عن أبي يحيى القَتَّات ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ . ورواه عن ابن مُسهِر أيضاً ، عن هشام بن عروةَ ، عن أبيه ، عن عائشة ، عن النبي ﷺ . ورواه الزبير بن بكَّار ، عن عبد الملك بن عبد العزيز بن الماجشون ، عن عبد العزيز بن [أبي] حازم(٣٣٣) ، عن ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ـــ أنه قال : « مَنْ عَشِقَ فَعَفَّ فَمَاتَ ،

---

(٣٣٢) في الزاد « يأمره » .

(٣٣٣) مابين المعقوفتين ساقط من النسخ المطبوعة ، ومثبت في الزاد ، وهو الصواب . وهو : عبد العزيز بن أبي حازم ، أبو تمام الأسلمي ، وأبو حازم اسمه سلمة بن دينار ، مات سنة ١٨٤ هـ وهو ساجد ، وله ثنتان وثمانون سنة . وقيل مات سنة ١٨٠ هـ .
[انظر ترجمته في رجال مسلم جـ ١ ص ٤٢٧] .

فَهُوَ شَهِيدٌ » ، وفي رواية : « مَنْ عَشِقَ وكَتَمَ وعَفَّ وصَبَرَ ، غَفَرَ له الله وأدخله الجنة » .

فإن هذا الحديث لا يَصِحُّ عن رسول الله ﷺ ، ولا يجوز أن يكون من كلامه ، فإنَّ الشَّهادَةَ درجةٌ عالية عند الله ، مقرونةٌ بدرجة الصِّدِّيقيّة ، ولها أعمال وأحوال هي شرط في حصولها ، وهي نوعان : عامةٌ وخاصةٌ ، فالخاصة : الشهادة في سبيل الله . والعامةُ : خمسٌ مذكورة في « الصحيح » ليس العشقُ واحدًا منها ، وكيف يكون العشقُ ــ الذي هو شِرْكٌ في المحبة ، وفراغ [القلب](٣٣٤) عن الله ، وتمليكُ القلب والروح والحب لغيره ــ تُنال به درجةُ الشهادة ؟ هذا من المحال ، فإنَّ إفساد عشق الصور للقلب فوق كل إفساد ، بل هو خمرُ الروح الذي يُسكرها ، ويصدُّها عن ذكر الله وحبِّه ، والتلذذِ بمناجاته ، والأنسِ به ، ويُوجب عبودية القلب لغيره ، فإن قلب العاشق مُتَعَبِّدٌ لمعشوقه ، بل العشقُ لُبُّ العبودية ، فإنها كمال الذل والحب والخضوع والتعظيم ، فكيف يكون تعبُّدُ القلب لغير الله ، مِمَّا تُنَالُ به درجةُ أفاضلِ الموحدين وساداتهم ، وخواصِّ الأولياء ؟! فلو كان إسنادُ هذا الحديث كالشمس ، كان غلطاً ووهماً ، ولا يُحفظ عن رسول الله ﷺ لفظُ العشق ، في حديث صحيح البتة .

ثم إن العشق منه حلالٌ ، ومنه حرامٌ ، فكيف يُظَنُّ بالنبي ﷺ ، أنه يحكم على كل عاشق يكتُم ويَعِفُّ بأنه شهيد ؟! فترَى من يعشَق امرأةَ غيره ، أو يعشَقُ المُرْدَانَ والبغَايا ــ يَنال بعشقه درجةَ الشهداء ، وهل هذا إلا خلافُ المعلوم من دينه ﷺ [بالضرورة](٣٣٥) ؟ كيف والعشقُ مرض من الأمراضِ التي جعل الله سبحانه لها الأدويَة شرعاً وقَدَرًا ، والتداوي منه إمَّا واجب ، إنْ كان عشقاً حراماً ، وإمَّا مستحب ؟! وأنت إذا تأملت الأمراضَ والآفاتِ ــ التي حكم رسول الله ﷺ لأصحابها بالشهادة ــ وجدتَها من الأمراض التي لا علاج لها ، كالمطعون والمَبْطُون والمجبوب(٣٣٦) والحريق والغريق ، وموتِ المرأة يقتلها ولدُها في بطنها ، فإن هذه بلايَا من الله لا صُنع للعبد فيها ، ولا علاجَ لها ، وليست أسبابها محرمةً ، ولا يترتب عليها ــ من فساد القلب ، وتعبُّده لغير الله ــ ما يترتب على العشق .

---

(٣٣٤) مابين المعقوفتين عن الزاد .

(٣٣٥) مابين المعقوفتين عن الزاد .

(٣٣٦) في الزاد « والمجنون » . والمجبوب : الخَصِيُّ الذى قد اسْتُؤْصِلَ ذَكَرُهُ وخُصْيَاهُ .

فإن لم يكفِ هذا في إبطال نسبة هذا الحديث إلى رسول الله ﷺ فقلِّدْ أئمةَ الحديث العالمين به وبعلله ، فإنه لا يُحفظ عن إمام واحد منهم قط ، أنه شهد له بصحة ، بل ولا بحُسن ، كيف وقد أنكروا على سُويدٍ هذا الحديث ، ورموه لأجله بالعظائم ، واستحل بعضهم غزوَه لأجله .؟! قال أبو أحمد بن عَدِيّ في « كامله » : « هذا الحديثُ أحدُ ما أُنكر على سُويد » ؛ وكذلك قال البَيْهقي : « إنه مما أُنكر عليه » . وكذلك قال ابن طاهر في « الذخيرة » وذكره الحاكم في « تاريخ نَيْسابورَ » وقال : « أنا أتعجب من هذا الحديث . فإنه لم يُحَدَّثْ به عن غير سُويد ، وهو ثقة » . وذكره أبو الفرج بن الجوزيّ في كتاب « الموضوعات » . وكان أبو بكر الأزرقُ يرفعه أوّلاً عن سُويد فَعُوتِبَ فيه ، فأسقط [ذكر][237] النبي ﷺ ، وكان لا يُجاوِزُ به ابنَ عباس رضي الله عنهما .

ومن المصائب التي لا تُحْتَمل ، جَعْلُ هذا الحديث من حديث هشام بن عروةَ ، عن أبيه ، عن عائشةَ رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ . ومن له أدنى إلمام بالحديث وعلله ، لا يَحْتَمِلُ هذا البتة ، ولا يحتمِلُ أن يكون من حديث ابن الماجشون ، عن ابن أبي حازم ، عن ابن أبي نَجيح ، عن مجاهد ، عن ابن عباس — رضي الله عنهما — مرفوعاً ، وفي صحته موقوفاً على ابن عباس نظرٌ .

وقد رمى الناس سويد بن سعيد — راوي هذا الحديث — بالعظائم ، وأنكره عليه يحيى بن مَعِين ، وقال : « هو ساقط كذاب ، لو كان لي فرس ورمح كنت أغزوه » . وقال الإمام أحمد : متروكُ الحديث . وقال النَّسائيُّ : ليس بثقة . وقال البخاري : « كان قد عمِيَ ، فيلقّن ما ليس من حديثه » . وقال ابن حبان : « يأتي بالمعضلات عن الثقات ، يجب مجانبةُ ما رَوى » انتهى . وأحسنُ ما قيل فيه قولُ أبي حاتم الرازيّ : « إنه صدُوق كثير التّدْليس » ؛ ثم قولُ الدّارَقُطنيّ : « هو ثقة . غير أنه لما كبِر كان ربما قُرِئَ عليه حديثٌ فيه بعضُ النّكارة ، فيُجيزه » انتهى . وعِيبَ على مسلم إخراجُ حديثه ، وهذه حالُه ، ولكنْ مسلم روى من حديثه ما تابعه عليه غيرُه ولم ينفرِدْ به ، ولم يكن مُنْكَرًا ولا شاذًا ، بخلاف هذا الحديث . والله أعلم .

٭٭٭

(٢٣٧) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

فصل في هديه ﷺ في حفظ الصحة بالطيب

لما كانت الرائحة الطيبة غذاءَ الروح ، والروح مطية القُوى ، والقوى تزداد بالطِّيب — وهو ينفع الدماغَ والقلب ، وسائر الأعضاء الباطنة(٣٣٨) ، ويُفَرِّح القَلب ويَسُرُّ النفس ، ويَبسُطُ الروحَ ، وهو أصدقُ شيء للروح ،وأشَدُّه ملاءمة لها ، وبينه وبين الروح الطيبة نسبةٌ قريبة — كان أحدَ المَحْبُوبَيْنِ من الدنيا ، إلى أطيب الطيِّبين صلوات الله عليه وسلامه .

وفي صحيح البخاريِّ : « أنه ﷺ كان لا يَردُّ الطِّيبَ »(٣٣٩) . وفي صحيح مسلم ، عنه ﷺ : « مَنْ عُرِضَ عَلَيْهِ رَيْحَانٌ فلا يَرُدَّهُ ، فإنه طَيِّبُ الرِّيح ، خفيفُ المَحْمَلِ »(٣٤٠) . وفي سنن أبي داودَ والنسائيِّ — عن أبي هريرةَ رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ : « من عُرِضَ عليه طِيبٌ فلا يردُّه ، فإنه خفيفُ المحمِلِ ، طيِّبُ الرائحة »(٣٤١) .

وفي مسند البزَّار ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « إن الله طَيِّبٌ يُحِبُّ الطِّيب ، نَظِيفٌ يُحِبُّ النَّظَافَةَ ، كريمٌ يُحِبُّ الكَرَمَ ، جَوَادٌ يُحِبُّ الجُودَ . فَنَظِّفُوا أَفْنَاءَكم وسَاحاتِكُم ، ولا تشبَّهُوا باليهود ، يَجْمَعُونَ الأَكْبَاءَ(٣٤٢) في دُورِهِمْ » . الأكْباء الزُّبالة .

وذكر ابن أبي شيبة : « أنه ﷺ كان له سُكَّة يتطيب منها » . وصح عنه أنه قال : « إنَّ لله حَقًّا على كُلِّ مُسْلِم : أن يَغْتَسِلَ في كُلِّ سَبْعَةِ أيَّام ، وإنْ كَانَ له طِيبٌ أَنْ يَمَسَّ مِنْهُ »(٣٤٣) .

---

(٣٣٨) في الزاد « الباطنية » .

(٣٣٩) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك في كتاب اللباس ، باب مَنْ لَمْ يَرُدَّ الطِّيب . [جـ ١٠ ص ٣٧٠ ، ٣٧١ من فتح الباري] .

(٣٤٠) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في كتاب الألفاظ من الأدب وغيرها ، باب استعمال المسك ، وكراهة ردّ الريحان والطِّيب [جـ ١٥ ص ٩ بشرح النووي] .

(٣٤١) أخرجه أبو داود في كتاب التَّرجُّل ، باب في رَدِّ الطِّيب . [جـ ٤ ص ٧٨] . وأخرجه النسائي في كتاب الزِّينة ، باب الطِّيب [جـ ٨ ص ١٨٩ بشرح السيوطي] .

(٣٤٢) في الزاد « الأكَبَ » وهي بمعناها .

(٣٤٣) أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري في كتاب الجمعة ، باب الطِّيب يوم الجمعة ، ولفظه : « الغُسل يوم الجمعة واجب على كل مُحتلم ، وأنْ يَستَنَّ ، وأنْ يَمَسَّ طيبًا إنْ وَجَد » . [جـ ٢ ص ٣٦٤ من فتح الباري] .

وفي الطيب من الخاصية : أن الملائكة تحبه ، والشياطين تَنفِرُ عنه . وأُحَبُّ شيء إلى الشياطين الرائحة المنتنة الكريهة ، فالأرواح الطيبة تُحِبُّ الرائحة الطيبة ، والأرواح الخبيثة تحب الراحة الخبيثة ، وكل روح تميل إلى ما يناسبها ، فالخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات . وهذا — وإن كان في النساء والرجال — فإنه يتناول الأعمالَ والأقوالَ ، والمطاعم والمشارب ، والملابس والروائح ، إمّا بعموم لفظه ، أو بعموم معناه .

فَصْلٌ فِي هَدْيِهِ ﷺ فِي حِفْظِ صِحَّةِ الْعَيْنِ

روى أبو داود في سننه ، عن عبد الرحمن بن النعمان بن معبد بن هَوْذَةَ الأنصاري ، عن أبيه ، عن جده ، رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ أمر بالإثْمِدِ المُرَوَّح عند النوم ، وقال : لِيتَّقِهِ الصَّائِمُ »(٣٤٤) . قال أبو عبيد : المروَّح : المطيَّب بالمسك .

وفي سنن ابن ماجه وغيره ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : « كانت للنبي ﷺ مُكحُلَةٌ يكتحل منها ثلاثاً في كُلِّ عَيْن »(٣٤٥) . وفي الترمذي ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، قال : « كان رسول الله ﷺ إذا اكتحَلَ يجعلُ في اليُمنَى ثلاثاً ، يبتدئ بها ويختم بها ، وفي اليسرى ثِنْتَيْن »(٣٤٦) .

---

(٣٤٤) أخرجه أبو داود في كتاب الصوم ، باب في الكحل عند النوم للصائم . [جـ ٢ ص ٣١٠] وعلّق عليه أبو داود قائلا : « قال لي يحيى بن معين هو حديث منكر – يعني حديث الكحل » .

(٣٤٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطب ، باب من اكتحل وتراً [جـ ٢ ص ١١٥٧] وفي سنده عباد بن منصور ، وهو من الضعفاء والمُدَلِّسين .

(٣٤٦) وفي مجمع الزوائد ، باب ماجاء في الإثمد والاكتحال . عن ابن عمر : « أنَّ رسول الله (ﷺ) كان إذا اكتحل جعل في العين اليمنى ثلاثاً ، وفي اليُسرى مِرْوَدَين ، فجعلها وِتراً » . رواه الطبراني في الكبير والأوسط والبزار ، وفيه عقبة بن عليّ ، وهو ضعيف . [انظر مجمع الزوائد جـ ٥ ص ٩٦ بتحرير الحافظين : العراقي وابن حجر] .

وقد روى أبو داود عنه ﷺ : « من اكتحل فلْيوتر »[٣٤٧] . فهل الوترُ بالنسبة إلى العينين كلتيهما ، فيكونَ في هذه ثلاث وفي هذه اثنتان[٣٤٨] ، واليمنى أولى بالابتداء والتفضيل ، أو هو بالنسبة إلى كل عين ، فيكون في هذه ثلاث ، وفي هذه ثلاث ؟ وهما قولان في مذهب أحمد وغيره .

وفي الكحل حفظ لصحة العين ، وتقويةٌ للنور الباصر ، وجلاءٌ لها ، وتلطيفٌ للمادة الرديئة ، واستخراجٌ لها مع الزينة في بعض أنواعه . وله عند النوم مزيد فضل ، لاشتمالها على الكحل ، وسكونها عقيبه عن الحركة المضرة بها ، وخدمةِ الطبيعة لها ، وللإثْمد في ذلك خاصيَّة .

وفي سنن ابن ماجه ، عن سالم ، عن أبيه يرفعه : « عَلَيْكُمْ بالإِثْمِد . فَإِنَّهُ يَجْلُو البَصَرَ ويُنْبِتُ الشَّعَرَ »[٣٤٩] . وفي كتاب أبي نُعيم : « فإنه مَنْبَتَةٌ للشَّعر ، مَذْهبة للقذَى ، مَصْفاة للبصر »[٣٥٠] . وفي سنن ابن ماجه أيضاً ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، يرفعه : « خيرُ أكْحالِكم الإثْمد ، يجلُو البَصَرَ ، ويُنْبِتُ الشعرَ »[٣٥١] .

---

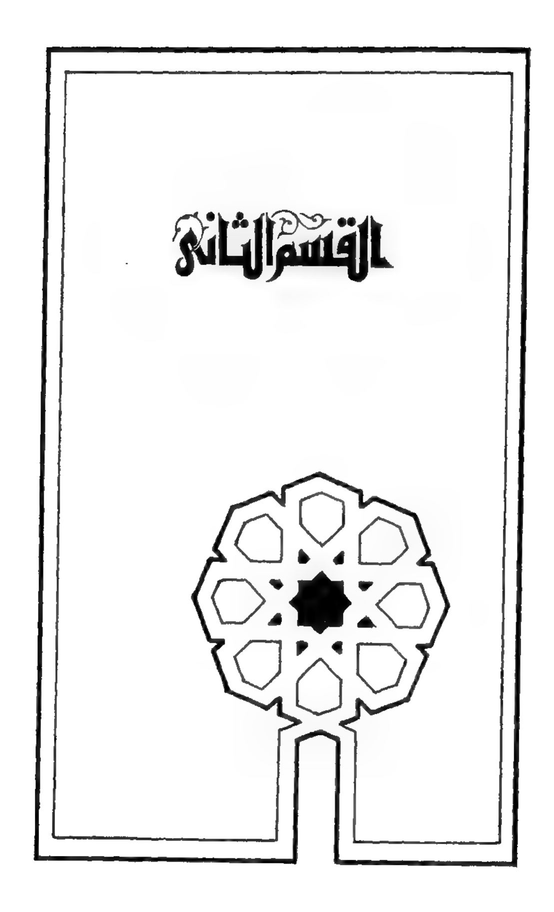
(٣٤٧) أخرجه أبو داود فى كتاب الطهارة ، باب الاستتار فى الخلاء ، من حديث أبى هريرة . [جـ ١ ص ٩] وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطهارة أيضاً باب الارتياد للغائط والبول . [جـ ١ ص ١٢٢] . وفى الزوائد عن عقبة بن عامر الجُهَنِيّ ، قال رسول الله (ﷺ) : « إذا اكتحل أحدكم فليكتحل وتراً .. » رواه أحمد ، وفيه ابن لهيعة ، وحديثه حسن ، وبقية رجاله ثقات .

(٣٤٨) فى الزاد « ثِنْتانِ » وكلاهما صواب .

(٣٤٩) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب الكحل بالإثمد ، من حديث سالم بن عبد الله بن عمر . [جـ ٢ ص ١١٥٦] .

(٣٥٠) أخرجه أبو نعيم فى الحلية [جـ ٣ ص ١٧٨] . ولفظه : « عليكم بالإثمِدْ ، فإنه مُنْبِتٌ للشَّعر ، مُذْهِبٌ للقذَى ، مصفاة للبصر » . وفى مجمع الزوائد : عن على قال : قال رسول الله (ﷺ) : « عليكم بالإثمد ، فإنه مَنْبَتة للشَّعر ، مَذْهَبة للقذَى ، مصفاة للبصر » رواه الطبرانى فى الكبير والأوسط [مجمع الزوائد ، باب ماجاء فى الإثمد والاكتحال ، جـ ٥ ص ٩٩] .

(٣٥١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب الكحل بالإثمد [جـ ٢ ص ١١٥٦] وأخرجه أبو داود فى كتاب الطب ، باب فى الأمر بالكحل [جـ ٤ ص ٨] ورَوِىَ فى الزوائد – فى باب : ماجاء فى الإثمد والاكتحال ، من حديث أبى هريرة بلفظه ، وقال : رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح [جـ ٥ ص ٩٩] .



القسم الثاني

فصل

في ذكر شيءٍ من الأدويةِ والأغذيةِ المفردةِ، التي جاءت على لسانه ﷺ مرتّبةً على حروفِ المعجمِ

حرف الهمزة

* **إثمِد** : هو حجر الكحل الأسود ، يؤتى به من أصبهان[1] وهو أفضله — ويُؤتى به من جهة المغرب[2] أيضاً . وأجودة السريع التفتيت ، الذي لفُتاتِهِ بصيص ، وداخله أملسُ ليس فيه شيء من الأوساخ .

ومزاجه بارد يابس ، ينفع العين ويُقوِّيها ، ويشد أعصابَها ، ويحفظُ صِحَّتها ، ويُذهب اللحم الزائد في القُروح ويُدملها ، وينقِّي أوساخها ويجلوها ، ويُذهب الصداع إذا اكتُحِلَ به مع العَسل المائي الرقيق . وإذا دُقَّ وخُلِطَ ببعضِ الشحوم الطرية ، ولُطخ على حرق النار — لم تعرض فيه خُشْكَرِيشةٌ ، ونفع من التنفط الحادث بسببه . وهو أجود أكحال العين — لا سيَّما للمشايخ والذين قد ضعفت أبصارهم — إذا جُعِلَ معه شيءٌ من المسك .

---

(١) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أصفهان » وكلاهما صواب . وأصبهان مدينة فارسية ، قد تكسر همزتها ، وقد تبدل باؤها فاءً . وقال ابن دريد : أصبهان اسم مركب ، والأصب بلسان الفُرس معناه : البلد . وهان : معناه : الفارس . وقيل غير ذلك . [انظر القاموس المحيط مادة (أصص) ومعجم البلدان مادة أصبهان] .

(٢) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « الغرب » .

* أُتْرُجٌّ[3] : ثبت في « الصحيح » ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن ، كَمَثَل الأُتْرُجَّةِ ، طعمُها طَيِّبٌ ، وريحُهَا طَيِّبٌ »[4] .

وفي[5] الأترج منافع كثيرة . وهو مركب من أربعة أشياءَ : قشر ، ولحم ، وحمْض ، وبزرٍ ، ولكل واحد منها مزاج يخصه ، فقشره حار يابس ، ولحمه حار رطب ، وحمضُه بارد يابس ، وبزرُه حار يابس .

ومن منافع قشره أنه إذا جُعل في الثياب منع السوس . ورائحتُهُ تصلح فساد الهواء والوباء . ويطيِّبُ النَّكْهَة إذا أمسكه[6] في الفم ، ويحلِّل الرياح . وإذا جعل في الطعام كالأبازِير ، أعان على الهضم . قال صاحب القانون : « وعُصَارة قشره تنفع من نهْش الأفاعي شرباً ، وقشرُه ضِمَادًا ، وحُرَاقة قشره طِلاءٌ جيد للبرص » انتهى .

وأمّا لحمه فملطف لحرارة المعدة ، نافعٌ لأصحابِ المِرَّة الصفراء ، قامع للبخارات الحارة . وقال الغافِقيُّ : « أكل لحمه ينفع البواسير » انتهى .

وأمّا حمضه[7] : فقابضٌ كاسر للصفراء ، ومسكنٌ للخفقان الحار ، نافعٌ من اليَرَقان شرباً واكتحالاً ، قاطعٌ للقيء الصفراوي[8] ، مُشَهٍّ للطعام ، عاقل للطبيعة ، نافع من الإسهال الصفراويِّ . وعُصَارةُ حمضه[9] يسكن غلْمَةَ النساء ، وينفع طِلاَءً من الكَلَف ، ويذهب بالقوبا . ويُستدل على ذلك من فعله في الحِبر ، إذا وقع على الثياب[10] قَلَعَه . وله قوة تلطف وتقطع وتبرد ، وتُطفئُ حرارة الكبد ، وتقوِّي المعدة ، وتمنع حدة المِرَّة الصفراء ، وتزيل الغم العارض منها ، وتسكن العطش .

---

(٣) الأُتْرُج :شجر ناعم الأغصان والورق والثمر . وثمره كالليمون الكبار ، وهو ذهبي اللون ، ذكي الرائحة حامض الماء .

(٤) أخرجه البخاري في كتاب فضائل القرآن ، باب فضل القرآن على سائر الكلام [جـ ٩ ص ٦٥ ، ٦٦ من فتح الباري] وأخرجه في غير هذا الباب . كما أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب فضيلة حافظ القرآن [جـ ٦ ص ٨٣ ، ٨٤ بشرح النووي] . وأخرجه النَّسائي في كتاب الإيمان وشرائعه ، باب مَثَلُ الذى يقرأ القرآن من مؤمن ومنافق [جـ ٨ ص ١٢٤ ، ١٢٥ بشرح السيوطي] .

(٥) في الزاد « في » .

(٦) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أمسكها » .

(٧) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « حُمَّاضُه » .

(٨) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « الصفراء » .

(٩) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « حُمَّاضه » .

(١٠) في الزاد « في الثياب » .

وأمَّا بزرُه فله قوة محلِّلة مجففة . وقال ابن ماسويه : « خاصية حَبِّه : النفع من السموم القاتلة ، إذا شرب منه وزنُ مثقالَيْن[11] مقشَّرًا بماء فاتر ، وطلاء مطبوخ . وإن دُقَّ وَوُضِعَ على موضع اللسعة ، نفع . وهو مليِّنٌ للطبيعة ، مطيبٌ للنكْهة . وأكثر هذا الفعل موجودٌ في قشره » .

وقال غيره : « خاصية حبه : النفع من لَسْع[12] العقارب ، إذا شُرِبَ منه وزنُ مثقالين مقشرًا بماء فاتر ، وكذلك إذا دُقَّ ووُضِعَ على موضع اللَّدغة » .

وقال غيره : « حَبُّه يصلح للسموم كلها ، وهو نافع من لدغ الهوام كلها » .

وذُكر : « أن بعض الأكاسرة غضب على قوم من الأطباء ، فأمر بحبسهم ، وخيَّرهم أدماً لا يزيد لهم عليه ، فاختارُوا الأترُج . فقيل لهم : لِمَ اخترتموه على غيره ؟ فقالوا : لأنه في العاجل ريحانٌ ، ومنظره مفرِّح ، وقشرُهُ طيب الرائحة ، ولحمه فاكهة ، وحَمْضُه أدم ، وحبُّه ترياق ، وفيه دُهنٌ » .

وحقيقٌ بشيء هذه منافعه أن يُشَبَّهَ به خلاصةُ الوجود ، وهو المؤمن الذي يقرأ القرآن . وكان بعض السلف يُحب النظر إليه ، لما في منظره من التفريح .

* أُرُزٌ : فيه حديثان باطلان ، موضوعان على رسول الله ﷺ ، أحدهما : « أنه لو كان رجلاً لكان حليماً » . الثاني : « كلُّ شيء أخرجتْه الأرضُ ففيه داءٌ وشفاءٌ ، إلَّا الأرُزَّ : فإنه شفاءٌ لا داءَ فيه » . ذكرناهما تنبيهاً وتحذيرًا من نسبتهما إليه ﷺ .

وبعد ، فهو حار يابس ، وهو أغْذَى الحُبُوب بعد الحِنْطَة ، وأحمدُها خلطاً ، يَشدُّ البطن شدًّا يسيرًا ، ويُقَوِّي المعدة ويَدبَغُها ، ويمكثُ فيها . وأطباءُ الهند تزعم أنه أحمدُ الأغذية وأنفعُها إذا طُبِخ بألبان البقر . وله تأثيرٌ في خِصب البدن ، وزيادةِ المنيِّ ، وكثرةِ التغذية ، وتصفيةِ اللون .

* أَرْزٌ : بفتح الهمزة وسكون الراء ، وهو : الصَّنَوْبَر . ذكره النبي ﷺ في قوله : « مَثَلُ المؤمن مَثَلُ الخامةِ من الزرع تفيِّؤها الرياح ، تُقيمُها مرةً ، وتُميلُها أُخرى . ومَثَلُ

---

(١١) في الزاد « مثقال » .

(١٢) في الزاد « لسعات » .

المُنَافِقِ مثل الأرزة ، لا تزالُ قائمةً على أصلِها ، حتى يكونَ انْجِعَافُها(١٣) مرةً واحدة »(١٤) .

وَحَبُّه حار رطب ، وفيه إنضاجٌ وتليين وتحليل ، ولذعٌ يَذهب بنقعه في الماء ، وهو عسيرُ الهضم ، وفيه تغذيةٌ كثيرةٌ ، وهو جيد للسُّعال ولتنقيةِ رطوبات الرِّئة ، ويَزيد في المنيِّ ، ويولِّد مغصاً . وتِرْيَاقُه : حَبُّ الرمان المُزّ .

* إِذْخِرٌ : ثبت في الصحيح ، عنه ﷺ ، أنه قال في مكةَ : « لا يُخْتَلَى خَلاَها » . قال(١٥) له العباس رضي الله عنه : إلا الإِذْخِرَ يارسول الله ، فإنه لِقَيْنِهم ولبيوتِهِم . فقال : « إلا الإِذْخِر »(١٦) .

والإِذْخِرُ حارٌّ في الثانية ، يابسٌ في الأولى ، لطيف مُفَتِّحٌ للسدد ، وأفواه العروق ، يُدِرُّ البول والطَّمْث ، ويفتِّت الحصا ، ويحلِّل الأورام الصُّلْبَة في المعدة والكبد والكُلْيَتين شُرْباً وضِماداً . وأصلُه يقوِّي عمودَ الأسنان والمعدة ، ويسكن الغَثَيان ويَعْقِل البطن .

***

حرف الباء

* بِطِّيخٌ : روى أبو داودَ والترمذيُّ ، عن النبي ﷺ : أنه كان يأكل البطيخَ بالرُّطب ، يقول : « يَدفعُ حرُّ هذا برد هذا »(١٧) . وفي البطيخ عدةُ أحاديث لا يصح منها شيء غيرُ هذا الحديث الواحد .

---

(١٣) انْجِعَافُها : انقلاعها .

(١٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في كتاب المرضى ، باب ماجاء في كفارة المرض [جـ ١٠ ص ١٠٣ من فتح الباري] . وأخرجه مسلم من حديث كعب بن مالك في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب مثل المؤمن والمنافق والكافر [جـ ١٧ ص ١٥١ بشرح النووي] .

(١٥) في الزاد « فقال » وهو مماثل لرواية مسلم .

(١٦) أخرجه البخاري في كتاب جزاء الصيد ، باب لايُنَفَّرُ صَيْدُ الحَرَمِ [جـ ٤ ص ٤٦ من فتح الباري] . وأخرجه مسلم في كتاب الحج ، باب تحريم مكة وتحريم صيدها وخلاها وشجرها ولقطتها . [جـ ٩ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، بشرح النووي] ولا يُخْتَلَى خَلاَهَا ، أي : لايُقْطَعُ شجرها وحشيشها . والإذخر : نبات غليظ الأصل ، كثير الفروع ، دقيق الورق ، طيب الرائحة .

(١٧) في الزاد « نَكْسِرُ حَرَّ هَذَا بِبَرْدِ هذا ، وبرد هذا بحرِّ هذا » وهو مطابق لرواية أبي داود ، الذي أخرجه في كتاب الأطعمة ، باب الجمع بين لونين في الأكل ، من حديث عائشة [جـ ٣ ص ٣٦٢] . وأخرجه الترمذي في كتاب الأطعمة باب ماجاء في أكل البطيخ بالرُّطب [جـ ٨ ص ٣٥ بشرح ابن العربي] .

والمراد به : الأخضر . وهو بارد رطب ، وفيه جلاءٌ ، وهو أسرع انحدارًا عن المعدة من القِثاء والخيار ، وهو سريع الاستحالة إلى أي خلط كان صادفه في المعدة ، وإذا كان آكله مَحْرُورًا انتفع به جدًّا ، وإن كان مَبْرودًا دفع ضرره بيسير من الزَّنْجَبيل ونحوه .

وينبغي أكله قبل الطعام ، ويُتْبَعُ به ، وإلَّا غَثَّى وقَيَّأ . وقال بعض الأطباء : « إنه قبل الطعام يَغسلُ البطن غسلاً ، ويَذهبُ بالداء أصلاً » .

• بَلَحٌ : روى النَّسائيُّ وابن ماجه في سننهما — من حديث هشام بن عروةَ ، عن أبيه ، عن عائشةَ رضي الله عنها — قالت : قال رسول الله ﷺ : « كلوا البلحَ بالتَّمر . فإن الشيطانَ إذا نظرَ إلى ابن آدمَ يأكلُ البلحَ بالتمر ، يقولُ : بَقِيَ ابنُ آدمَ حَتَّى أَكَلَ الحَدِيثَ بالعَتِيق »(١٨) . وفي رواية : « كلو البلح بالتمر ، فإن الشيطانَ يحزَنُ إذا رأى ابن آدمَ يأكُله ، يقول : عاش ابنُ آدمَ حتى أكل الجَديدَ بالخَلَق » . رواه البزار في مسنده ، وهذا لفظه .

قلت : الباءُ في الحديث بمعنى « مع » ، أي : كلوا هذا معَ هذا .

قال بعض أطباء الإسلام : « إنَّما أمر النبيُّ ﷺ بأكل البلح بالتمر ، ولم يأمُرْ بأكل البُسْر مع التمر ، لأن البلح بارد يابس ، والتمرَ حار رطب ، ففي كل منهما إصلاحٌ للآخر . وليس كذلك البُسْر مع التمر ، فإن كلَّ واحد منهما حارٌّ ، وإن كانت حرارة التمر أكثرَ » . ولا ينبغي — من جهة الطب — الجمعُ بين حارَّين أو باردَين ، كما تقدم .

وفي هذا الحديث : التنبيهُ على صحةِ أصل صناعة الطب ، ومراعاةِ التدبير الذي يصلح في دفع كيفيات الأغذية والأدوية بعضِها ببعض ، ومراعاةِ القانون الطبِّي الذي تُحفظ(١٩) به الصحة .

وفي البلح برودةٌ ويبوسةٌ ، وهو ينفع الفمَ واللِّثَة والمعدة ، وهو رديءٌ للصدر والرِّئة ، بالخشونة التي فيه ، بطيء في المعدة ، يسيرُ التغذية ، وهو للنخلة كالحِصْرِم

---

(١٨) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة ، باب أكل البلح بالتمر [جـ ٢ ص ١١٠٥] وفي سنده يحيى بن محمد ، وقد ضعفه ابن معين وغيره . وقال العقيلي : لايتابع على حديثه . وقال النسائي : حديث منكر . وقد وردت علة تعليقات من هذا القبيل على هذا الحديث في كتاب الموضوعات لابن الجوزي ، باب أكل البلح بالتمر . [انظر الضعفاء الكبير لأبي جعفر العقيلي جـ ٤ ص ٤٢٧ – وانظر الموضوعات لابن الجوزي جـ ٣ ص ٢٥ ، ٢٦] .

(١٩) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « يُحْفَظ » .

لشجرة العنب ، وهما جميعاً يولِّدان رياحاً وقراقرَ ونفخاً ، ولاسيما إذا شُرب عليهما الماء . ودفعُ مضرتهما بالتمر أو بالعسل والزُّبد .

* **بُسْرٌ** : ثبت في الصحيح : « أن أبا الهيثم بن التَّيِّهان لمَّا ضافه النبي ﷺ وأبو بكر وعمر ، رضي الله عنهما ، جاءهم بعَذْق ــ وهو من النخلة كالعنقود من العنب ــ فقال له : هلَّا انتقَيْت لنا من رُطبه ! فقال : أحببت أن تنتقُوا مِن بُسْرِهِ ورُطَبِه »[20] .

البسر : حار يابس ، ويُبسه أكثر من حرِّه ، ينشف الرطوبة ، ويدبغ المعدة ، ويحبس البطن ، وينفع اللِّثة والفم . وأنفعه ما كان هشًّا وحلوًا . وكثرة أكله وأكل البلح يحدث السُّدد في الأحشاء .

* **بَيْضٌ** : ذكر البيهقي في شعب الإيمان ، أثرًا مرفوعاً : « أن نبيًّا من الأنبياء شكا إلى الله سبحانه الضعفَ ، فأمره بأكل البيض » . وفي ثبوته نظرٌ .

ويُختار من البيض الحديثُ على العتيق ، وبيضُ الدَّجاج على سائر بيض الطير . وهو معتدل يميل إلى البرودة قليلاً .

قال صاحب القانون : « ومُحُّه[21] حار رطب ، يولِّد دماً صحيحاً محمودًا ، ويغذي غذاءً يسيرًا ، ويسرع الانحدار من المعدة ، إذا كان رِخوًا » . وقال غيره : « محُّ البيض مسكن للألم ، مُمَلِّسٌ للحلق وقصبة الرئة ، نافع للحلق والسعال وقروح الرئة والكُلَى والمثانة ، مُذهِبٌ للخشونة ، لا سيما إذا أُخذ بدهن اللوز الحلو ، ومنضجٌ لِمَا في الصدر ملين له ، مسهل لخشونة الحلق » .

وبياضه إذا قطر في العين الوارمة ورماً حارًّا برَّده ، وسكن الوجع ، وإذا لُطخ به حرقُ النار أولَ ما يعرِض له[22] ، لم يدَعه يتنفط ، وإذا لُطخ به الوجهُ منع من الاحتراق[23] العارض من الشمس ، وإذا خُلِطَ بالكُنْدُر[24] ولُطخ على الجبهة نفع من النزلة .

---

(٢٠) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة في كتاب الأشربة ، باب جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه [جـ ١٣ ص ٢١٠ - ٢١٤ بشرح النووي] وأخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة أيضاً في كتاب الزهد ، باب ماجاء في معيشة أصحاب النبي (ﷺ) [جـ ٩ ص ٢١٩ بشرح ابن العربي] .

(٢١) المُحُّ : ما في جوف البيضة من صُفرة .

(٢٢) في الزاد « أو مايعرض » .

(٢٣) في الزاد « منع الاحتراق » .

(٢٤) الكُنْدُر : اللبان الذكر .

وذكره صاحب القانون في الأودية القلبية ، ثم قال : « وهو — وإن لم يكن من الأدوية المطلقة — فإنه مما له مدخل في تقوية القلب جدًّا ، أعني : الصفرةَ ، وهي تجمع ثلاثة معان : سرعة الاستحالة إلى الدم ، وقلة الفضل ، وكون الدم المتولد منه مجانساً للدم الذي يغذو القلبَ ، خفيفاً مندفعاً إليه بسرعة ، ولذلك هو أوفقُ ما يُتلافَى به عاديةُ الأمراض المحلِّلة لجوهر الروح » .

* بَصَلٌ : روى أبو داودَ في سننه ، عن عائشةَ رضي الله عنها : أنها سُئلتْ عن البصل ، فقالت : « إنَّ آخِرَ طَعَامٍ أَكَلَه [رسول الله][25] ﷺ ، كان فيه بصل »[26] .

وثبت عنه في الصحيحين : « أنه مَنَعَ آكِلَهُ مِنْ دُخُولِ المَسْجِد »[27] .

والبصل حار في الثالثة ، وفيه رطوبة فَضليَّة، ينفع من تغير المياه ، ويدفع ريح السَّموم ، ويفتِّق الشهوة ، ويقوِّي المعدة ، ويهَيج الباه ، ويزيد في المنيِّ ، ويحسِّن اللون ، ويقطع البلغم ، ويجلو المعدة .

وبزْرُه يُذهب البَهَق ، ويدلَّك به حول داء الثعلب فينفع جدًّا ، وهو بالملح يقلع الثآليل ، وإذا شمه من شرب دواء مسهلاً منعه من القيء والغثيان ، وأذهب رائحة ذلك الدواء ، وإذا تُسُعِّطَ[28] بمائه نقَّى الرأس ، ويقطَّر في الأذن ، لثقَل السمع والطَّنين والقيح ، والماء الحادث في الأذنين ، وينفع من الماء النازل في العينين اكتحالاً ، يُكتَحَل ببزره مع العسل ، لبياض العين .

والمطبوخ منه كثيرُ الغذاء ، ينفع من اليَرقان والسعال وخشونة الصدر ، ويُدرُّ البول ، ويلين الطبع . وينفع من عضة الكلب غير الكلِب ، إذا نُطِلَ عليها ماؤه بملح وسَذَاب[29] . وإذا احتُمل فَتَحَ أفواهَ البواسير .

---

(٢٥) مابين المعقوفتين عن الزاد .

(٢٦) أخرجه أبو داود فى كتاب الأطعمة ، باب فى أكل الثوم [جـ ٢ ص ٣٦١ ، ٣٦٢] .

(٢٧) أخرجه البخارى فى كتاب الأطعمة ، باب مايُكرهُ من الثوم والبقول . [جـ ٩ ص ٥٧٥ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب نَهي آكِلِ الثوم والبصل ونحوهما عن حضور المسجد [جـ ٥ ص ٤٧ — ٥٤ بشرح النووى] .

(٢٨) فى الزاد « استُعِطَ » ، أى : أُدْخِلَ فى الأنف . والأول مثله .

(٢٩) السَّذَاب : نبات الفيجن [باليونانية] وهو نبات طبى ، ومن صفاته أنه يُذْهِب رائحة الثوم والبصل ، ويُستخدم فى علاج القروح ، والفالج ، وعرق النَّسا ، وغيرها . [انظر القانون فى الطب لابن سينا ص ٣٢٩ — ٣٣١ . وانظر تذكرة داود جـ ١ ص ١٨٦ ، ١٨٧] .

وإما ضررُه فإنه يورث الشَّقِيقة ،ويصدِّع الرأس ، ويولِّد أرياحاً ، ويُظلم البصر. وكثرة أكله تورث النسيان ، ويُفسد العقل ، ويغيِّر رائحة الفم والنَّكْهة ، ويؤذي الجليس والملائكة . وإماتتُه طبخاً تذهب بهذه المضرَّات منه .

وفي السنن : « أنه ﷺ أمر آكلَه وآكل الثوم أن يُميتهما طبخاً »[٣٠] . ويُذهب رائحته مضغُ ورق السَّذَاب عليه .

* **باذنجان** : في الحديث الموضوع المختلَق على رسول الله ﷺ : « الباذِنجانُ لما أُكل له » . وهذا الكلام مما يُستقبح نسبته إلى آحاد العقلاء ، فضلاً عن الأنبياء .

وبعد ، فهو نوعان : أبيضُ وأسودُ . وفيه خلاف : هل هو بارد أو حار ؟ والصحيح أنه حار . وهو مولِّد للسَّوداء والبواسير والسُّدد والسرطان والجُذام ، ويُفسد اللون ويسوده ، ويُضر بنتن الفم . والأبيض منه المستطيل عارٍ من ذلك .

***

حَرْفُ التَّاء

* **تَمْرٌ** : ثبت في الصحيح عنه ﷺ : « من تَصَبَّح بسبعِ تَمَراتٍ — وفي لفظ : من تمر العالية ، لم يضرَّه ذلك اليومَ سُمٌّ ولا سحرٌ »[٣١] . وثبت عنه أنه قال : « بيتٌ لا تَمْرَ فيه جياعٌ أهله »[٣٢] . وثبت عنه : أنه أكل التمرَ بالزُّبد ، وأكل التمر بالخبز ، وأكله مفردًا .

وهو حار في الثانية . وهل هو رَطب في الأولى ؟ أو يابس فيها ؟ على قولين .

---

(٣٠) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب أكل الثوم والبصل والكراث [جـ ٢ ص ١١١٦] . وأخرجه النسائى فى كتاب المساجد ، باب من يخرج من المسجد [جـ ٢ ص ٤٣ بشرح السيوطى] .

(٣١) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب الدواء بالعجوة للسحر [جـ ١٠ ص ٢٣٨ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الأشربة ، باب فضل تمر المدينة [جـ ١٤ ص ٢ بشرح النووى] .

(٣٢) أخرجه مسلم من حديث عائشة فى كتاب الأشربة ، باب إدخال التمر ونحوه للعيال [جـ ١٣ ص ٢٣٠ بشرح النووى] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة باب التمر [ج ٢ ص ١١٠٤] . وأخرجه أبو داود فى كتاب الأطعمة أيضًا ، باب التمر [جـ ٣ ص ٣٦٢] .

وهو مقوٍ للكبد ، مليِّن للطبع ، يزيد في الباه ، ولاسيما مع حَبِّ الصَّنَوْبر ، ويُبرئ من خشونة الحلق . ومن لم يعتدْه ــ كأهل البلاد الباردة ــ فإنهُ يُورث لهم السدد ، ويؤذي الأسنان ، ويهَيج الصداع . ودفعُ ضرره باللَّوز والخَشْخاش .

وهو من أكثر الثمار تغذيةً للبدن ، بما فيه من الجوهر الحار الرطب . وأكلُه على الريق يقتل الدود ، فإنه ــ مع حرارته ــ فيه قوةٌ تِرْياقيَّة ، فإذا أُديم استعمالُه على الريق جفف[٣٣] مادة الدود وأضعفه ، وقلَّله أو قتله . وهو فاكهة وغذاء ، ودواء وشراب وحَلوى .

* تينٌ : لما لم يكن التين بأرض الحجاز والمدينة ، لم يأتِ له ذكرٌ في السُّنة ، فإن أرضه تنافي أرضَ النخل ، ولكن قد أقسم الله به في كتابه ، لكثرة منافعه وفوائده . والصحيح أن المقْسَم به هو التين المعروف .

وهو حار ، وفي رطوبته ويبوسته قولان . وأجوده الأبيض الناضج القشر ، يجلو رمل الكُلى والمثانة ، ويؤمِّن من السُّموم . وهو أغْذَى من جميع الفواكه ، وينفع خشونة الحلق والصدر وقصبة الرئة ، ويغسل الكبد والطِّحال ، وينقِّي الخلْط البلغميَّ من المعدة ، ويَغذُو البدن غذاءً جيدًا ، إلا أنه يولِّد القمل إذا أكثر منه جدًّا .

ويابسُه يَغذُو وينفع العصب ، وهو مع الجَوْز واللَّوز محمودٌ . قال جالينوسُ : «وإذا أُكل مع الجوز والسَّذَاب ــ قبْلَ أخذِ السم القاتل ــ نفع وحفظ من الضرر » .

ويُذكر عن أبي الدَّرْداء : « أُهْدِىَ إلى النبي ﷺ طبقٌ من تين ، فقال : كلُوا . وأكل منه وقال : لو قلتُ : إن فاكهةً نزلتْ من الجنة ، قلتُ هذه . لأن فاكهة الجنة بلا عَجَم . فكلوا منها ، فإنها تقطعُ البواسير ، وتنفعُ من النِّقْرِس» . وفي ثبوت هذا نظرٌ .

واللحم منه أجودُ ، و[هو][٣٤] يُعطِّش المحرورين ، ويسكن العطش الكائن عن البلغم المالح ، وينفع السعال المُزْمن ، ويُدر البول ، ويفتح سدد الكبد والطحال ، ويوافق الكُلى والمثانة . ولأكلِه على الريق منفعة عجيبة في تفتيح مجاري الغذاء ، وخصوصاً باللَّوز والجوز . وأكلُه مع الأغذية الغليظة رديءٌ جدًّا .

---

(٣٣) في الزاد « غفف » .

(٣٤) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

والتُّوت الأبيض قريب منه . ولكنه[٣٥] أقلُّ تغذيةً ، وأضرُّ بالمعدة .

* تَلْبِينَة : قد تَقَدَّمَ أنها ماء الشعيرِ المطحون ، وذكرنا منافعها ، وأنها أنفع لأهل الحجاز من ماء الشعير الصحيح .

***

حَرفُ الثَّاء

* ثَلْجٌ : ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ ، أنه قال : « اَللهم اَغسِلْني من خطاياي بالماءِ والثلج والبَرَد » . وفي هذا الحديث ـــ من الفقه ـــ أن الداء يداوَى بضده ، فإن في الخطايا ، من الحرارة والحريق ، ما يضادُّ الثلج والبرد والماءَ البارد .

ولا يقال : إن الماء الحار أبلغ في إزالة الوسخ ، لأن في الماء البارد ـــ من تصليبِ الجسم وتقويته ـــ ما ليس في الحار . والخطايا توجب أثرين : التدنيس والإرخاءَ . فالمطلوبُ مداواتها[٣٦] بما ينظف القلب ويصلبه . فذكر الماء البارد والثلج والبرد ، إشارةٌ إلى هذين الأمرين .

وبعد ، فالثلجُ بارد على الأصح ، وغلِط من قال : حارٌّ ، وشُبهته تولُّد الحيوان فيه . وهذا لا يدل على حرارته ، فإنه يتولد في الفواكه الباردة ، وفي الخَل ، وأما تعطيشه ، فلتهييجه الحرارةَ ، لا لحرارته في نفسه ، ويضرُّ المعدة والعصب ، وإذا كان وجعُ الأسنان من حرارة مفرطة ، سكنها .

* ثُوْمٌ : هو قريب من البصل . وفي الحديث : « مَن أكلهما فلْيُمِتْهما طبخاً » . وأُهْدِيَ إليه طعامٌ فيه ثومٌ ، فأرسل به إلى أبي أيوب الأنصاريِّ ، فقال : يا رسول الله ، تَكْرهه وترسل به إليّ ؟! فقال : « إنيّ أناجي من لا تناجي »[٣٧] .

---

(٣٥) في الزاد « لكنه » .

(٣٦) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « تداويها » .

(٣٧) أخرجه البخارى فى كتاب الأذان ، باب ماجاء فى الثوم النيء والبصل والكرّاث [جـ ٢ ص ٣٣٩ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب نَهْيِ آكِلِ الثوم والبصل ونحوهما عن حضور المسجد [جـ ٥ ص ٥٠ بشرح النووى] . وأخرجه أبو داود فى كتاب الأطعمة ، باب فى أكل الثوم [جـ ٢ ص ٣٦٠] .

وبعد ، فهو حار يابس في الرابعة ، يسخن إسخاناً[٣٨] قويًّا ، ويجفف تجفيفاً بالغاً ، نافع[٣٩] للمَبْرُودين ، ولِمَنْ مزاجُه بلغميٌّ ، ولمن أشرف على الوقوع في الفالج ، وهو يجفف للمنيِّ ، مفتح للسُّدد ، محلل للرياح الغليظة ، هاضم للطعام ، قاطع للعطش ، مطلق للبطن ، مُدِرٌّ للبول ، يقوم في لسع الهوامِّ وجميع الأورام الباردة ، مقام التِّرياق . وإذا دُق وعُمِلَ به[٤٠] ضِماداً على نهش الحيات ، أو على[٤١] لسع العقارب — نفعها ، وجذب السموم منها ، ويسخن البدن ، ويزيد في حرارته ، ويقطع البلغم ، ويحلل النفخ ، ويصفِّي الحلق ، ويحفظ صحة أكثر الأبدان ، وينفع من تغير المياه والسعال المُزْمن ، ويؤكل نيئاً ومطبوخاً ومشوياً ، وينفع من وجع الصدر من البرد ، ويخرج العلق من الحلق ، وإذا دُق مع الخل والمِلح والعسل ، ثم وضع على الضرس المتآكِل فتَّتَه وأسقطه ، وعلى الضرس الوجع سكن وجعه ، وإن دق منه مقدارُ درهمين ، وأُخذ مع ماء العسل — أخرَج البلغم والدُّود ، وإذا طلي بالعسل على البَهق نفع .

ومن مضاره : أنه يصدِّع ، ويضر الدماغ والعينين ، ويضعف البصر والباهَ ، ويعطش ، ويهيج الصفراء ، ويجيِّف رائحة الفم ، ويذهب رائحته أن يمضغ عليه ورق السَّذاب .

• **ثَرِيدٌ** : ثبت في الصحيحين عنه ﷺ ، أنه قال : « فضلُ عائشةَ على النساء ، كفَضْل الثريد على سائر الطعام »[٤٢] .

والثريدُ — وإن كان مركَباً — فإنه مركب من خُبز ولحم . فالخبزُ أفضل الأقوات ، واللحمُ سيد الإدام ، فإذا آجتمعا لم يكن بعدهما غايةٌ .

وتنازع الناس : أيُّهما أفضل ؟ والصواب أن الحاجة إلى الخبز أكثر وأعمُّ ، واللحم

---

(٣٨) فى الزاد « تسخيناً » .

(٣٩) هكذا فى الزاد ، أى : وهو نافع .. وفى النسخ المطبوعة « نافعاً » على أنها صفة .

(٤٠) فى الزاد « منه » .

(٤١) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « فى » .

(٤٢) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل عائشة رضى الله عنها [جـ ٧ ص ١٠٦ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم من حديث أنس بن مالك ، فى كتاب فضائل الصحابة أيضاً ، باب فضائل أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها [جـ ١٥ ص ٢١٠ ، ٢١١ بشرح النووى] .

أجلُّ وأفضل ، وهو أشبهُ بجوهر البدن من كل ما عداه ، وهو طعام أهل الجنة . وقد قال تعالى لمن طلب البقل والقثّاء والفومَ والعدس والبصل : ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ ؟! ﴾[٤٣] . وكثير من السلف على أن الفُومَ [هو][٤٤] الحِنطة . وعلى هذا ، فالآيةُ نصٌّ على أن اللحم خير من الحنطة . [والله سبحانه أعلم] .

***

حرفُ الجِيم

* جُمَّارٌ : [وهو][٤٥] قلب النخل . ثبت في الصحيحين ، عن عبد الله بن عمرَ ، قال : بيْنَما[٤٦] نحنُ عندَ رسول الله ﷺ جلوسٌ ، إذ أُتِيَ بجُمَّارِ نخلة ، فقال النبي ﷺ : « إنَّ من الشجرِ شجرةً مِثْلَ الرجلِ المسلم لا يسقُط ورقُها »[٤٧] الحديثَ .

والجمار : بارد يابس في الأولى ، يختمُ القروح ، وينفع من نفْث الدم ، واستِطْلاقِ البطن ، وغلبةِ المِرَّة الصفراء ، وثائرةِ الدم . وليس برديء الكَيْموس[٤٨] ، ويغذُو غذاءً يسيرًا ، وهو بطيءُ الهضم ، وشجرتُه كلها منافعُ ، ولهذا مثَّلها النبيُّ ﷺ ، بالرجل المسلم ، لكثرةِ خيره ومنافعه .

* جُبْنٌ : في السنن ، عن عبد الله بن عمرَ [قال][٤٩] أُتِيَ النبي ﷺ بجبنة ، في

---

(٤٣) سورة البقرة – الآية ٦١ .

(٤٤) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد في الموضعين .

(٤٥) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٤٦) في الزاد « بينا » وكلاهما صواب .

(٤٧) أخرجه البخاري في أكثر من موضع ، أخرجه في كتاب العلم ، باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ماعندهم من العلم [جـ ١ ص ١٤٧ من فتح الباري] . كما أخرجه أيضا في كتاب الأطعمة ، باب أكل الجُمّار [جـ ٩ ص ٥٦٩] . وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب مثل المؤمن مثل النخلة [جـ ١٧ ص ١٥٢ بشرح النووي] .

(٤٨) الكيموس : الخلاصة الغذائية ، وهي مادة لَبَنِيّة بيضاء صالحة للامتصاص تستمدها الأمعاء من المواد الغذائية في أثناء مرورها بها .

(٤٩) مابين المعقوفتين عن الزاد .

تَبوكَ ، فدعا بسكين ، وسمَّى وقطع »[٥٠] . رواه أبو داود . وأكله الصحابةُ رضي الله عنهم بالشام والعراق .

والرَّطبُ [منه][٥١] غيرُ المَمْلوحِ ، جيدٌ للمعدة ، هيِّنُ السلوك في الأعضاء ، يزيد في اللحم ، ويليِّن البطن تليناً معتدلًا . والمَمْلوحُ أقلُّ غذاءً من الرَّطب ، وهو رديء للمعدة ، مؤذٍ للأمعاء . والعتيقُ يَعقِل البطن ــ وكذا المشويُّ ــ وينفع القروح ، ويمنع الإسهال .

وهو بارد رطب ، فإن استُعمل مشوياً ، كان أصلحَ لمزاجه ، فإن النار تصلحه وتعدِّله ، وتلطِّف جوهره ، وتطيِّب طعمه ورائحته . والعتيقُ المالح حار يابس ، وشَيُّه يُصلحه أيضاً بتلطيف جوهره ، وكسرِ حرَافته ، لِما تجذبه النار منه من الأجزاء الحارة اليابسة المناسبة لها . والمملَّحُ منه يهزل ، ويولِّد حَصاةَ الكُلى والمثانة ، وهو رديء للمعدة ، وخلطُه بالملطِّفات أردأ ، بسبب تنفيذها له إلى المعدة .

***

حَـرْفُ الحَاءِ

* حِنَّاءٌ : قد تقدمتِ الأحاديثُ في فضله وذكر منافعه ، فأغنى عن إعادته .

* حَبةُ السَّوداءِ : ثبت في الصحيحين من حديث أبي سلمةَ ، عن أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ أن رسول الله ﷺ ، قال : « عليكم بهذه الحبةِ السوداء ، فإن فيها شفاءً من كل داءٍ ، إلا السامَ »[٥٢] . والسامُ : الموت .

الحبة السوداء : هي الشُّونِيزُ ، في لغة الفُرس . وهي الكَمُّون الأسود ، وتسمى : الكمون الهنديُّ . قال الحَرْبيُّ عن الحسن [رضي الله عنه][٥٣] : إنها الخَرْدل . وحكى الهَرَويُّ : أنها الحبة الخضراء ، ثمرةُ البُطْم . وكلاهما وَهمٌ ، والصواب : أنها الشونيز .

---

(٥٠) أخرجه أبو داود فى كتاب الأطعمة ، باب فى أكل الجبن [جـ ٢ ص ٣٥٩] .

(٥١) مابين المعقوفتين عن الزاد .

(٥٢) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب الحبة السوداء . [جـ ١٠ ص ١٤٢ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب السلام ، باب التداوى بالعود الهندى [جـ ١٤ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ بشرح النووى] .

(٥٣) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

وهي كثيرة المنافع جدًّا . وقوله : « شفاءً من كل داءٍ » ، مثل قوله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾(٥٤) أي : كلَّ شيءٍ يَقبل التدمير ونظائرهِ . وهي نافعة من جميع الأمراض الباردة ، وتَدخل في الأمراض الحارة اليابسة بالعَرَض ، فتوصِّل قُوى الأدوية الباردة الرطبة إليها ، بسرعة تنفيذها إذا أُخذ يسيرُها .

وقد نصّ صاحب القانون وغيرُه ، على الزَّعْفران في قُرْص الكافور ، لسرعة تنفيذه وإيصاله قوَّتَه ، وله نظائرُ يعرفها حُذاق الصناعة . ولا تُستبعد منفعةُ الحار في أمراض حارة بالخاصية ، فإنك تجد ذلك في أدوية كثيرة ، منها : الأنزروت(٥٥) وما يركب معه من أدوية الرَّمَد ، كالسكر وغيره من المفردات الحارة . والرمدُ ورم حار باتفاق الأطباء . وكذلك نفع الكبريت الحار جدًّا من الجرب .

والشُّونيزُ حار يابس في الثالثة ، مُذهب للنفخ ، مخرج لحب القَرَع ، نافع من البَرص وحُمَّى الرِّبْع(٥٦) والبلغميَّة ، مفتِّح للسُّدد ، ومحلِّل للرياح ، مجفِّف لِبلة المعدة ورطوبتها ، وإن دُقَّ وعُجِنَ بالعسل ، وشُرِبَ بالماء الحار ـــ أذابَ الحصاة التي تكون في الكُلْيَتين والمثانة . ويُدِرُّ البول والحيض واللبن إذا أُديم شربُه أياماً . وإن سُخِّن بالخل ، وطلي على البطن ـــ قَتل حب القَرع . فإنْ عُجِنَ بماء الحَنْظل الرَّطب أو المطبوخ كان فعله في إخراج الدود أقوى . ويجلو ويقطع ويحلِّل ، ويشفي من الزكام البارد ، إذا دُق وصُرَّ(٥٧) في خرقة واشتُم دائماً أذهبه .

ودُهنه نافع لداء الحية ، ومن الثآليل والخِيلان(٥٨) . وإذا شُرب منه مِثقالٌ بماء نفع

---

(٥٤) سورة الأحقاف – الآية ٢٥ .

(٥٥) الأنْزَرُوت (Astragalus Sarcocolla) : عقار ذكره ديسقوريدس فى كتاب الحشائش – المقالة الثالثة .. وهو الاستراخان ، أو القتاد ، وهو نبات صلب له شوك كالإبر من الفصيلة القرنية ، فارع الأصل كالقصب ، له زهر فيه شعر يميل للاحمرار ، وهو حار يابس ، عصارته تبرئ السعال ، وضيق التنفس « شُرْبًا » ، والبهق ، والآثار « طلاء بالعسل والخل » .

[انظر تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط للأب قنواتى ص ١٠١ ، ١٠٥ وانظر تذكرة داود جـ ١ ص ٢٥٤] .

(٥٦) الرِّبْعُ فى الحُمَّى : إتيانها للمحموم فى اليوم الرابع ، وذلك أن يَحُمّ يوماً ، ويُتْرَكَ يومين لايُحَمُّ ، ويُحَمُّ فى اليوم الرابع ، وتُسمى حُمَّى الرِّبع . [انظر لسان العرب مادة رَبع] .

(٥٧) صُرَّ : أىْ جُمع فى خرقة أو نحوها – وشُدَّ عليه . وفى الزاد « وصُيِّر » .

(٥٨) الخيلان : جمع خال ، وهى الشامة ، أو النكتة السوداء فى البدن .

من البُهْر[٥٩] وضيق النَفس . والضمادُ به ينفع من الصداع البارد . وإذا نُقِع منه سبعُ حبّاتٍ عددًا في لبن امرأة ، وسُعِط به صاحِبُ اليَرقان[٦٠] نفعه نفعاً بليغاً .

وإذا طُبِخَ بخَلّ ، وتُمضمض به نفع من وجع الأسنان عن بَرْد . وإذا استُعِط به مسحوقاً نفع من ابتداء الماء العارض في العين ، وإن ضُمد به مع الخل قلع البُثور والجَرَب المتقرِّح ، وحلّل الأورام البلغمية المُزمِنة ، والأورامَ الصُّلبة .

وينفع من اللَّقْوة إذا تُسعُّط بدُهنه . وإذا شُرب منه مقدارُ نصفِ مثقال إلى مثقال نفع من لسع الرُّتَيْلاء[٦١] . وإن سُحِقَ ناعماً ، وخُلط بدُهن الحبة الخضراء ، وقُطِّر منه في الأذن ثلاث قطرات ـــ نفع من البرد العارض فيها ، والريح والسدد .

وإن قُلِي ، ثم دُقَّ ناعماً ، ثم نُقع في زيت ، وقُطِّر في الأنف ثلاث قطرات أو أربعٌ ـــ نفع من الزكام العارض معه عُطاسٌ كثير .

وإذا أُحرق وخُلط بشمع مُذابٍ بدُهن السَّوْسَن أو دُهن الحِناء ، وطُلِيَ به القروحُ الخارجة من الساقين ، بعدَ غسلها بالخل ـــ نفعها وأزال القروح .

وإذا سُحق بِخَلٍّ ، وطُلي به البَرصُ والبهَقُ الأسود والحَزَازُ[٦٢] الغليظ ـــ نفعها وأبرأها .

وإذا سُحق ناعماً ، وَاستُفَّ منه كلَّ يومٍ درهمين بماء بارد ، مَن عضهُ كلبٌ كَلِب ، قبل أن يفرُغ* من الماء ـــ نفعه نفعاً بليغاً ـــ وأمِن على نفسه من الهلاك . وإذا سُعِط[٦٣] بدُهنه نفع من الفالِج والكُزاز[٦٤] ، وقطع موادَّهما . وإذا دُخِّن به طرد الهوامَّ .

---

(٥٩) البُهْر : تتابع النَّفَس من الإعياء .

(٦٠) اليَرَقان : مرض يمنع الصفراء من بلوغ المِعَى بسهولة فتختلط بالدم ، فتصفّر بسبب ذلك الأنسجة

(٦١) الرُّتَيْلاء : نوع من العناكب .

(٦٢) الحزاز : قشر فى الرأس يتحرّ فيه ، ويتساقط منه كالنخالة .

(*) هكذا فى الزاد ، وفى سائر النسخ ، ولعل الصواب « يفزع من الماء » . إذ أن من عضه كَلب كَلِب فإنه تعتريه رهبة من الماء ويفزع عند رؤيته .

(٦٣) فى الزاد « استُعِطَ » .

(٦٤) الفالج : الشلل النصفى . والكُزاز : تشنج ، أو رِعْدة تصيب الإنسان من برد شديد ، أو خروج دم كثير .

وإذا أُذيب الأنزروت بماء ، ولُطخ على داخل الحَلْقة ، ثم ذُرَّ عليها الشونِيزُ ــ كان من الذُّرُورات الجيدة ، العجيبة النفع من البواسير . ومنافعُه أضعاف ما ذكرنا . والشَّربة منه درهمان . وزعم قوم أن الإكثار منه قاتلٌ .

حرير : قد تقدم أن النبي ﷺ أباحه للزبير ، ولعبد الرحمن بن عوف ، من حِكَّةٍ كانت بهما . وتقدم منافعه ومزاجه ، فلا حاجة إلى إعادته .

* حُرْف : قال أبو حنيفةَ الدِّينَوَرِيُّ : « هذا هو الحب الذي يُتداوى به ، وهو : الثُّفاء[٦٥] الذى جاء فيه الخبرُ عن النبي ﷺ . ونباتُه يقال له : الحُرْفُ ، وتسميه العامة : [حَبَّ][٦٦] الرَّشاد » . وقال أبو عُبيدٍ : « الثفَّاء هو الحُرْف » .

قلت : والحديث الذي أشار إليه ، ما رواه أبو عبيد وغيره ــ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ــ أنه قال : « ماذا في الأَمَرَّيْن من الشِّفاء ؟: الثُّفّاءِ والصبر »[٦٧] . رواه أبو داودَ في المراسيل .

وقوتُه في الحرارة واليبوسة ، في الدرجة الثالثة . وهو يسخن ويلين البطن ، ويُخرج الدود وحب القرع ، ويحلل أورام الطِّحال ، ويحرك شهوة الجماع ، ويجلو الجَرَب المتقرح والقوبَاء[٦٨] .

وإذا ضُمد به مع العسل حلّل ورم الطحال . وإذا طُبخ مع الحِناء أخرج الفضول التي في الصدر . وشُرْبُه ينفع من نَهْش الهوامِّ ولسعِها .

وإذا دُخن به في موضع طرد الهوامَّ عنه ، ويمسك الشعر المتساقط . وإذا خُلط بسَوِيق الشعير والخل ، وتُضُمِّد به نفع من عِرْق النَّسا ، وحلَّل الأورام الحارة فى آخرها .

وإذا تُضمد به مع الماء [والملح][٦٩] أنضج الدَّماميل ، وينفع من الاسترخاء في جميع

---

(٦٥) الثُّفّاء : جَمْع ، واحدته : ثُفّاءَة .. قيل : إنه الخردل . وقيل : الخردل المعالج بالصباغ ، وهو نبات عُشبيّ حِرّيف من الفصيلة الصليبية ، ينبت فى الحقول ، وعلى حواشى الطرق . وله فوائد طبية ، سيأتى ذكرها .

(٦٦) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٦٧) أخرجه أبو داود فى المراسيل فى كتاب الطب من حديث قيس بن رافع [ص ٢٢١ – ط دار القلم] .

(٦٨) القوباء : داء فى الجسد يَتَقَشَّر منه الجلد ، وينجرد منه الشعر .

(٦٩) مابين المعقوفتين من الزاد .

الأعضاء ، ويزيد في الباه ، ويشهِّي الطعام ، وينفع الرَّبو وعُسرة التَّفَس[٧٠] وغِلظ الطحال ، وينقِّي الرئة ، ويُدِر الطَّمْث . وينفع من عرق النَّسا ووجع حُق الوَرِك — مما يخرج من الفضول — إذا شُرب أو احتقن به . ويجلو ما في الصدر والرئة من البلغم اللزج .

وإن شُرب منه بعد سحقه ، وزنُ خمسة دراهم بالماء الحار — أسهلَ الطبيعة ، وحلَّل الرياح ، ونفع من وجع القُولَنْج البارد السبب . وإذا سُحِق وشُرِب نفع من البرص .

وإن لُطخ عليه وعلى البهَق الأبيض بالخل نفع منهما ، وينفع من الصداع الحادث من البرد والبلغم . وإن قُلِيَ وشُرب عقَل الطبع — لاسيما إذا لم يُسحق — لتحلل لزوجته بالقَلْي — وإذا غُسل بمائه الرأسُ نقَّاة من الأوساخ والرطوبات اللزجة .

قال جالينوسُ : « قوتُه مثل قوة بزر الخردل ، ولذلك قد يسخَّن به أوجاعُ الورِك المعروفةُ بالنَّسا ، وأوجاعُ الرأس ، وكلُّ واحد من العلل التي تحتاج إلى التسخين . كما يسخَّن بزرُ الخردل . وقد يُخلط أيضاً في أدوية يُسقاها أصحابُ الرَّبْو من طريق أن الأمر فيه معلومٌ أنه يقطع الأخلاط الغليظة تقطيعاً قويًّا ، كما يقطعها بزرُ الخردل ، لأنه شبيهٌ به في كل شيء » .

* حُلْبَةٌ : يذكر عن النبي ﷺ : « أنه عاد سعد بن أبي وقاص — رضي الله عنه — بمكة ، فقال : ادعُوا له طبيباً ، فدُعي الحارثُ بن كَلَدَة ، فنظر إليه فقال : ليس عليه بأسٌ ، فاتخذوا له فَرِيقةً — وهي الحلبةُ مع تمرِ عجوةٍ رُطبةٍ يُطبخان فيُحْساهما — ففَعل ذلك — فَبَرِئ »[٧١] .

وقوة الحلبة من الحرارة في الدرجة الثانية ، ومن اليُبوسة في الأولى . وإذا طُبخت بالماء ليَّنت الحلق والصدر والبطن ، وتسكِّن السعال والخشونة والرَّبْو وعُسر النفس ، وتزيد في الباه ، وهي جيدة للريح والبلغم والبواسير ، مُحْدِرة الكَيْمُوساتِ المرتبكة في

---

(٧٠) في الزاد « وعُسر التنفُّس » .

(٧١) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « بَرأ » وكلاهما صواب ، يقال : بَرِئَ من المرض (بالكسر – من باب سَلِمَ) : شُفِيَ . وبَرَأَ من المرض (من باب قطع عند أهل الحجاز) [انظر مختار الصحاح – مادة برئ] .

الأمعاء ، وتحلل البلغم اللزج من الصدر ، وتنفع من الدُّبَيْلات وأمراض الرئة . وتستعمل لهذه الأدْواء في الأحشاء ، مع السَّمن والفانيذ(٧٢) .

وإذا شربت مع وزن خمسة دراهم فُوَّةٍ(٧٣) أدرَّت الحيض . وإذا طُبخت وغُسل بها الشعر جعَّدته وأذهبت الحزاز .

ودقيقُها إذا خُلط بالنطرون والخل ، وضُمد به — حلَّل ورم الطِّحال . وقد تجلس المرأة في الماء الذي طُبخت فيه الحلبة ، فتنتفع به من وجع الرحِم العارض من ورم فيه . وإذا ضمد به الأورامُ الصلبة القليلة الحرارة نفعتها وحللتها . وإذا شُرب ماؤها نفع من المغص العارض من الرياح ، وأزلق الأمعاء .

وإذا أُكلت مطبوخة بالتمر أو العسل أو التين ، على الريق — حللت البلغم اللزج العارض في الصدر والمعدة ، ونفعت من السعال المتطاول منه .

وهي نافعة من الحصر ، مطلِقة للبطن . وإذا وُضعت على الظُّفر المتشنِّج أصلحته . ودهنُها ينفع — إذا خُلط بالشمع — من الشُّقَاق العارض من البرد . ومنافعها أضعاف ما ذكرنا .

ويذكر عن القاسم بن عبد الرحمن ، أنه قال : قال رسول الله ﷺ : « آستشفُوا بالحُلْبة » . وقال بعض الأطباء : « لو علم الناس منافعها ، لاشترَوها بوزنها ذهباً »(٧٤) .

---

(٧٢) الفانيذ : ضرب من الحلواء – لفظة فارسية معربة [انظر لسان العرب – مادة فنذ] .

(٧٣) الفُوَّة – أو عروق الصباغين : نبت أحمر طيب الرائحة ، وهو حار يابس يفتح السدد ، ويدر الفضلات ، وينفع من اليرقان والفالج وأوجاع الظهر وغيرها . [انظر تذكرة داود جـ ١ ص ٢٥٣] .

(٧٤) أحسن المصنف إذ أسند هذا القول إلى بعض الأطباء ، فقد ورد في كتاب الموضوعات لابن الجوزى حديثان منسوبان إلى رسول الله (ﷺ) ، أحدهما : عن خالد بن مَعْدان ، عن معاذ بن جبل ، قال : قال رسول الله (ﷺ) : « لو يعلم الناس مالهم فى الحلبة لاشتروها بوزنها ذهباً » . والآخر عن عائشة قالت : قال رسول الله (ﷺ) : « لو علم أمّتى مالهم فى الحلبة لاشتروها ولو بوزنها ذهباً » . فأمّا حديث معاذ فلم يَرْوه عن « بقية » إلا « جحدر » . قال ابن عدى : جحدر : يسرق الحديث ، ويروى المناكير ، ويزيد فى الإسناد . وبقية ، يروى عن الضعفاء ويدلّس . وأما حديث عائشة فلايصح ، وفى سنده حسين بن علوان ، وقد رُمِيَ بالكذب ، وقال عنه ابن حبان : كان يضع الحديث .

[انظر الموضوعات لابن الجوزى – باب ذكر الحلبة جـ ٢ ص ٢٩٧] وهذا لاينفى ما للحلبة من الفوائد الكثيرة التى رويت عنها قديماً وحديثاً .

حَرْفُ الخَاء

* خُبْزٌ : ثبت في الصحيح ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « تكونُ الأرضُ يوم القيامةِ خُبْزةً واحدة ، يَتكفَّؤُها الجبَّارُ بيده [كَمَا يَكفأُ أحَدُكم خُبْزَتَهُ فى السَّفر] نُزُلاً لأهل الجنة »(٧٥) .

وروى أبو داود في سننه — من حديث ابن عباس ، رضي الله عنهما — قال : « كان أحبُّ الطعام إلى رسول الله ﷺ الثريدُ من الخُبز ، والثريدُ من الحَيْس »(٧٦) .

وروى أبو داود في سننه أيضاً — من حديث ابن عمر ، رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « وَدِدْتُ أنَّ عندي خُبْزَةً بيضاءَ ، مِنْ بُرَّةٍ سَمْراءَ مُلَبَّقةٍ بسمن ولبن . فقام رجل من القوم ، فاتخذه فجاء به . فقال : في أيِّ شيء كان هذا السمن ؟ فقال : في عُكَّة ضَبٍّ . فقال : ارْفَعْه »(٧٧) .

وذكر البيهقي — من حديث عائشة ، رضي الله عنها ، ترفعه —: « أكرِمُوا الخبزَ . ومن كرامتِه أن لا يُنتظَر به الأُدْمُ »(٧٨) ، والموقوف أشْبَهُ ، فلا يثبت رفعُه ، ولا رفع ما قبله .

وأما حديث النهي عن قطع الخبز بالسكين ، فباطل لا أصل له عن رسول الله ﷺ . وإنما المرويُّ النهي عن قطع اللحم بالسكين ، ولا يصح أيضاً . قال مُهَنَّاً(٧٩) : « سألت

---

(٧٥) مابين المعقوفتين عن الزاد . ولم يرد بالنسخ المطبوعة . والحديث أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق ، باب يقبض الله الأرض يوم القيامة ، وله بقية [جـ ١١ ص ٣٧٢ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب صفات المنافقين وأحكامهم ، باب نُزل أهل الجنة ، ولفظه مطابق لما هنا ، وله بقية أيضاً [جـ ١٧ ص ١٣٥ بشرح النووى] .

(٧٦) الحيس : تمر وأقِط وسمن ، تُخْلَطُ وتُعْجَنُ وتسَوَّى كالثريد . والحديث أخرجه أبو داود فى كتاب الأطعمة ، باب فى أكل الثريد [جـ ٢ ص ٣٥٠ ، ٣٥١] . وقد ضَعَّفه أبو داود .

(٧٧) فى عُكَّة ضب : أى فى وعاء مصنوع من جلد ضب . والحديث أخرجه أبو داود فى كتاب الأطعمة ، باب الجمع بين لونين من الطعام [جـ ٢ ص ٣٥٩] . قال أبو داود : هذا حديث منكر . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب الخبز المُلَبَّق بالسمن ، عن ابن عمر [جـ ٢ ص ١١٠٩] وفى سنده أيوب بن خوط ، وهو متروك .

(٧٨) فى الزاد « الإدام » وهى بمعناها . وهناك ثمانية أحاديث وردت فى كتاب الموضوعات فى باب فضل الخبز ، بعضها لفظه قريب من هنا ، غير أنه مروىّ عن طريق آخر ، وكلها أحاديث مشكوك فى صحتها . [انظر كتاب الموضوعات لابن الجوزى جـ ٢ ص ٢٨٩ – ٢٩٢] .

(٧٩) فى الزاد « مهنا » ، بدون همزة ، ولعلها خففت للتخفيف .

أحمد عن حديث أبي معشر ، عن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ : « لا تقطعوا اللحم بالسكين ، فإن ذلك من فعل الأعاجم »(٨٠) . فقال : ليس بصحيح ، ولا يُعرف هذا ، وحديثُ عَمرو بن أُميَّة خلاف هذا . وحديثُ المغيرة ـــ يعني بحديث عمرو بن أمية : « كان النبي ﷺ يحتزُّ من لحم الشاة »(٨١) . وبحديث المغيرة : « أنه لمَّا أضافه أُمَرَ بجنب فشُوى ، ثم أخذ الشفرة فجعل يحزُّ »(٨٢) .

فصل

وأحمدُ أنواع الخبز أجودُها آختمارًا ، وعجنا ، ثم خبزُ التَّنُّور أجود أصنافه ، وبعده خبزُ الفرن ، ثم خبزُ المَلَّة في المرتبة الثالثة ، وأجوده ما اتُّخِذَ من الحِنْطَة الحديثة .

وأكثر أنواعه تغذيةً خبزُ السَّميد(٨٣) ، و هو أبطؤها هضماً لقلة نخالته ، ويتلوه خبز الحُوَّارَى ، ثم الخُشْكار .

وأحمدُ أوقات أكله في آخر اليوم الذي خُبِزَ فيه . واللَّيِّنُ منه أكثر تليناً وغذاءً وترطيباً ، وأسرع انحدارًا ، واليابسُ بخلافه .

ومِزاج الخبز من البُرِّ حارٌّ في وسط الدرجة الثانية ، وقريبٌ من الاعتدال في الرطوبة واليُبوسة ، واليُبْسُ يَغْلِبُ على ما جفَّفَتْه النار منه ، والرطوبة على ضده .

وفي خبز الحنطة خاصيَّةٌ ، وهو أنه يُسَمِّن سريعاً . وحبز القطائف يُوَلِّد خلطاً غليظاً ، والفَتيتُ نفاخ بطيءُ الهضم ، والمعمول باللبن مسدِّد ، كثير الغذاء ، بطيء الانحدار .

وخبزُ الشعير بارد يابس فى الأُولى ، وهو أقل غذاءً من خبزِ الحنطة .

---

(٨٠) أخرجه أبو داود فى كتاب الاطعمة ، باب فى أكل اللحم [جـ ٢ ص ٣٤٩] . وقال عنه أبو داود : ليس بالقوى .

(٨١) أخرجه البخارى فى كتاب الأطعمة ، باب قطع اللحم بالسكين [جـ ٩ ص ٥٤٧ من فتح البارى] .

(٨٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الطهارة ، باب فى ترك الوضوء مما مسّت النار [جـ ١ ص ٤٨] .

(٨٣) فى الزاد « السَّميذ » بالذال المعجمة ، وكلاهما صواب ، فالسميد والسميذ يُطلقان على لُباب الدقيق او الطعام . وهـ لفظة فارسية مُعَرَّبة [انظر لسان العرب والمعجم الوسيط] .

* خَلٌّ : روى مسلم في صحيحه ــ عن جابر بن عبد الله ، رضي الله عنهما ــ: « أن رسول الله ﷺ سأل أهلَه الإدَامَ ، فقالوا : ما عندنَا إلا خَلٌّ . فدعا به ، وجعل يأكل ويقول : نعم الإدَامُ الخَلُّ ، نِعْمَ الإدامُ الخلُّ »[٨٤] . وفي سنن ابن ماجه ــ عن أم سعد[٨٥] ، رضي الله عنها ، عن النبي ﷺ ــ: « نعم الإدامُ الخلُّ ، اللهمّ بارك في الخل . ولم يفتقرْ بيتٌ فيه الخلُّ »[٨٦] .

الخل مركّب من الحرارة ، والبرودة أغلب[٨٧] عليه ، وهو يابس في الثالثة ، قوي التجفيف ، يمنع من انصباب المواد ، ويُلَطِّف الطبيعة .

وخَلُّ الخمر ينفعُ المعدة الملتهبة ، ويَقْمَعُ الصفراء ، ويدفعُ ضَرَرَ الأدوية القتّالة ويُحَلِّلُ اللبن والدم إذا جَمَدا في الجوف ، وينفع الطِّحالَ ، ويدفع المعدة ، ويَعْقِلُ البطن ، ويقطع العطش ، ويمنع الورمَ حيث يريد أن يحدث ، ويُعين على الهضم، ويُضاد البلغم ، ويلطِّف الأغذية الغليظة ، ويُرِقُّ الدم .

وإذا شرب بالملح نفع من أكل الفُطُر القَتَّال . وإذا احتُسِيَ ، قطع العلق المتعلق بأصل الحَنَكِ . وإذا تُمضمض به مُسَخَّناً نفع من وجع الأسنان ، وقوّى اللِّثة .

وهو نافع للدّاحِس ، إذا طُلِيَ به ، والنملةِ ، والأورام الحارة ، وحرق النار . وهو مُشَهٍّ للأكل ، مُطَيِّب للمعدة ، صالح للشباب ، وفي الصيف لسكان البلاد الحارة .

* خِلَالٌ : فيه حديثان لا يثبُتان ، أحدهما : يُروَى من حديث أبي أيوبَ الأنصاريِّ يرفعه : « حَبَّذَا المُتَخَلِّلون من الطَّعَامِ ! إنَّهُ ليسَ شيءٌ أشَدَّ على المَلِكِ من بَقِيَّةٍ تبقَى في الفَم ، من الطَّعام » . وفيه واصلُ بن السائب ، قال البخاري والرازي : منكَرُ الحديث . وقال النسائيُّ والأزْدِيُّ : متروك الحديث .

الثاني : يُرْوَى من حديثِ ابن عباس ، قال عبد الله بن أحمد : « سألت أبي عن شيخ روى عنه صالحٌ الوُحَاظيُّ ــ يقال له : محمد بن عبد الملك الأنصاري ــ: حدثنا عطاءٌ

---

(٨٤) أخرجه مسلم فى كتاب الأشربة ، باب فضيلة الخل والتأدم به [جـ ١٤ ص ٦ – ٨ بشرح النووى] .

(٨٥) هكذا فى الزاد ، وهو الصواب . وفى النسخ المطبوعة « سعيد » تحريف .

(٨٦) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب الائتدام بالخل [جـ ٢ ص ١١٠٢]

(٨٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « وهى أغلب » .

عن ابن عباس ، قال : نهى رسول الله ﷺ أن يُتخلَّل باللِّيط(88) والآس ، وقال : إنهما يُسقيان عروقَ الجُذَام . فقال : إني(89) رأيت محمد بن عبد الملك ، وكان أعمى ، يضعُ الحديث ويكذب » .

وبعد ، فالخلالُ نافع لِلِّثَة(90) والأسنان ، محافظ لصحتها ، نافع من تغير النَّكهة . وأجوده ما اتُّخِذَ من عيدان الأخِلَّة ، وخشب الزيتون ، والخِلَاف . والتخلل بالقصب والآس والرَّيحان والباذروج(91) مضرٌّ .

***

حَرْفُ الدَّالِ

* دُهْنٌ : روى الترمذي في كتاب الشمائل — من حديث أَنَس بن مالك ، رضي الله عنهما — قال : « كان رسول الله ﷺ يُكْثِرُ دهْنَ رَأْسِهِ ، وتَسْرِيحَ لِحْيته ، ويُكْثِرُ القِناعَ . كَأَنَّ ثَوْبَهُ ثَوْبُ زَيَّات » .

الدهن يسد مسامَّ البدن ، ويمنع ما يتحلل منه ، وإذا استُعْمِلَ بعد الاغتسال بالماء الحار ، حَسَّنَ البَدَنَ ورَطَّبَهُ . وإن دُهِنَ به الشَّعر حَسَّنَه وطَوَّلَه ، وَنَفَعَ من الحَصْبَةِ ، ودفع أكثر الآفات عنه . وفي الترمذي — من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، مرفوعاً : « كلوا الزَّيت ، وادَّهنوا به »(92) . وسيأتي إن شاء الله تعالى .

---

(88) اللِّيط : جمع ليطة ، وهي قشرة القصبة والقوس والقناة ، وكل شيء له متانة .

(89) هكذا فى النسخ المطبوعة ، وفى « ميزان الاعتدال » [جـ 3 ص 631 فى ترجمة محمد بن عبد الملك الأنصارى] . وفى الزاد « أبى » أى : أبو عبد الله بن أحمد روای الحديث – المسئول – فكلاهما صواب .

(90) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « اللّثة » .

(91) هكذا فى الزاد ، وفى القانون فى الطب .. وفى النسخ المطبوعة ، وكذا فى تذكرة داود « والبادروج » بالدال المهملة ، وهى لفظة نبطية ، ويُسمى عندنا بالريحان الأحمر ، وبعضهم يسميه « السليمانى » ويُسمى بالعبرية « حوك » .. وهو بقلة تستنبتها النساء فى البيوت ، وقد ينبت بنفسه . وهو عريض الأوراق مربع الساق ، حرِّيف ، وفيه قبض وإسهال ، وفتيله يذهب بالضِّرس . [انظر القانون فى الطب ص 105 – مادة باذروج – وانظر تذكرة داود جـ 1 ص 66] .

(92) أخرجه الترمذى فى كتاب الأطعمة ، باب ماجاء فى أكل الزيت ، مرة من حديث عمر بن الخطاب ، وفى سنده اضطراب ، ومرة أخرى من حديث أبى أسيد ، وقال عنه الترمذى : حديث غريب . [جـ 8 ص 42 ، 43 بشرح ابن العربى] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب الزيت ، مرة من حديث عمر – المشار إليه آنفاً – ومرة أخرى من حديث أبى هريرة ، وفى إسناده عبد الله بن سعيد المقبرى ، وهو متروك [جـ 2 ص 1103] .

والدُّهن في البلاد الحارة — كالحجاز ونحوه — من أحد[93] أسباب حفظ الصحة ، وإصلاح البدن ، وهو كالضروريِّ لهم . وأما البلاد الباردة فلا يحتاج إليه أهلُها . والإلحاح به في الرأس ، فيه خطرٌ بالبصر .

وأنفع الأدهان البسيطة الزيت ، ثم السمن ، ثم الشَّيْرَج[94] .

وأما المركبة ، فمنها بارد رطب — كدهن البنفسج — ينفع من الصداع الحار ، وينوِّم أصحاب السهر ، ويُرَطِّب الدماغ ، وينفع من الشقاق وغلبة اليبس والجفاف ، ويُطلى به الجربُ والحِكة اليابسة ، فينفعها . ويسهِّل حركة المفاصل ، ويصلح لأصحاب الأمزجة الحارة ، في زمن الصيف .

وفيه حديثان باطلان موضوعان على رسول الله ﷺ . أحدهما : « فضل دُهن البَنَفْسَج على سائر الأدهان ، كَفَضْلي على سائر الناس » . والثاني : « فضل دُهن البنفسج على سائر الأدهان ، كفضل الإسلام على سائر الأديان » .

ومنها : حار رطب ، كدهن البان ، وليس دُهن زهره ، بل دُهن يُسْتَخْرَجُ من حَبٍّ أبيضَ أغبرَ نحو الفُسْتق ، كثير الدُّهنيَّة والدسم ، ينفع من صلابة العصب ويليِّنه ، وينفع من البَرَش والنَّمَش والكَلَف والبَهق ، ويُسَهِّلُ بلغماً غليظاً ، ويلين الأوتار اليابسة ، ويُسَخِّنُ العَصب .

وقد رُوِيَ فيه حديث باطل مختلَق لا أصل له : « ٱدَّهِنُوا بالبان ، فإنه أحظى لكم عند نسائكم » .

ومن منافعه : أنه[95] يَجلو الأسنان ويَكسبُها بهجةً ، ويُنَقِّيها من الصدأ . وَمَن مسح به وجهَه ورأسه[96] لم يُصبه حصبة[97] ولا شُقاق . وإذا دهن به حَقْوَه ومذَاكِيره وما والاها ، نفع من برد الكُلْيَتين وتقطير البول .

---

(٩٣) فى الزاد « آكد » .

(٩٤) الشَّيْرَج : زيت السمسم .

(٩٥) هكذا فى الزاد . وفى بعض النسخ المطبوعة « أ » .

(٩٦) فى الزاد « وأطرافه » .

(٩٧) فى الزاد « حَصَى » .

حَرفُ الذَّال

ذَرِيرَةٌ : ثبت في الصحيحين عن عائشة ، رضي الله عنها ، قالت : « طَيَّبتُ رسول الله ﷺ بيدي بذَرِيرَة ، فى حَجَّةِ الوَدَاع ، لِحِلِّه وإحرامِهِ »(٩٨) .

تقدم الكلام في الذَّريرة وَمَنافعها وماهيَّتها ، فلا حاجة لإعادته .

* ذُبَابٌ : تقدم في حديث أبي هريرة المتفق عليه ، في أمره ﷺ بغَمْس الذباب في الطعام إذا سقط فيه ، لأجل الشفاء الذي في جناحه ، وهو كالتِّرياق للسم الذي في الجناح الآخر . وذكرنا منافع الذباب هناك .

* ذَهَبٌ : روى أبو دَاودَ والترمذيُّ : « أن النبي ﷺ رَخَّص لعَرْفَجَةَ بن أسعدَ ـ لَمَّا قُطِعَ أَنْفُهُ يومَ الكُلَاب ، وَاتَّخَذَ أنفاً من وَرِقٍ ، فأَنْتَن عليه ـ فأَمَرَه النبي ﷺ أن يَتَّخِذَ أنفاً من ذَهبٍ »(٩٩) . وليس لعَرْفَجَة عندهم غيرُ هذا الحديث الواحد .

الذهبُ زينةُ الدنيا ، وطِلَّسْم الوجود ، ومفرِّح النفوس ، ومقوِّي الظهور ، وسرُّ الله في أرضه ، ومِزاجُهُ(١٠٠) في سائر الكيفيات ، وفيه حرارةٌ لطيفة تَدخل فى سائر المعجونات اللطيفة والمفرِّحات ، وهو أعدل المعادن(١٠١) على الإطلاق وأشرفُها .

ومن خواصه أنه إذا دُفِنَ في الأرض ، لم يضرَّه الترابُ ولم يَنقُصه شيئاً ، وبُرَادتُهُ إذا خُلِطَتْ بالأدوية ، نفعتْ من ضعف القلب والرَّجَفَان العارض من السوداء ، وينفع من حديث النفْس ، والحزن والغم ، والفزع والعشق ، ويسمِّن البدن ويقوِّيه ، ويُذهب الصفار ، ويحسِّن اللون ، وينفع من الجُذَام وجميع الأوجاع والأمراض السَّوْدَاوِيَّة ، ويَدخل بخاصيَّة في أدوية داء الثعلب وداء الحية ، شُرباً وطِلاءً . ويجلو العين ويقوِّيها ، وينفع من كثير من أمراضها ، ويقوِّي جميع الأعضاء .

---

(٩٨) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ، باب الذريرة [جـ ١٠ ص ٣٧١ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الحج ، باب استحباب الطيب قبل الإحرام [جـ ٨ ص ١٠٠ بشرح النووى] . والذريرة : نوع من الطيب يُجلب من الهند .

(٩٩) أخرجه أبو داود فى كتاب الخاتم ، باب ماجاء فى ربط الأسنان بالذهب [جـ ٤ ص ٩٢] . وأخرجه الترمذى فى كتاب اللباس ، باب ماجاء فى شد الأسنان بالذهب [جـ ٧ ص ٢٦٩ ، ٢٧٠ بشرح ابن العربى] .

(١٠٠) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « مزاجه » .

(١٠١) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « المعدنيات » .

وإمساكُهُ في الفم يُزيل البَخَر . وَمَن كان به مرض يَحتاج إلى الكَيّ ، وكُوِيَ به ، لم يتنفطْ موضعُهُ ، ويَبْرأ سريعاً . وإن اتُّخِذَ منه ميلاً واكتَحَلَ به ، قَوّى العين وجَلاهَا . وإن اتُّخِذَ منه خاتمٌ فصُّه منه ، وأُحْمِيَ وكُوِيَ به قَوَادِمُ أجنحةِ الحَمام ، أَلِفَتْ أبراجَها ، ولم تنتقلْ عنها .

وله خاصيَّة عجيبة في تقوية النفوس ، لأجلِها أُبيحَ في الحرب والسلاح منه ما أُبيح .

وقد رَوَى الترمذيُّ ـــ من حديث مَزِيدَة(١٠٢) العَصْرِيّ ، رضي الله عنه ـــ قال : « دخل رسول الله ﷺ ، يومَ الفَتْح ، وعلى سيفِهِ ذَهَبٌ وفِضةٌ »(١٠٣) .

وهو معشوق النفوس التي متى ظَفِرَتْ به سلاها عن غيره من محبوباتِ الدنيا .

قال تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَاتِ مِنَ ٱلنِّسَاءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَاطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ، وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَامِ وَٱلْحَرْثِ ﴾(١٠٤) .

وفي الصحيحين ـــ عن النبي ﷺ ـــ: « لو كان لابنِ آدمَ وادٍ من ذهب لا بْتَغَى إليه ثانياً ، ولو كان له ثانٍ لابْتَغَى ثالثاً ، ولا يَملأُ جَوْفَ ابنِ آدَمَ إلّا التُّرابُ ، وَيَتوبُ الله عَلى مَن تابَ »(١٠٥) .

هذا وإنه أعظم حائلٍ بين الخليقةِ وبيْنَ فوزِهَا الأكبر يومَ مَعَادها ، وأعظمُ شيء عُصيَ الله به ، وبه قُطِعَتِ الأرحامُ ، وأُرِيقتِ الدِّمَاءُ ، واستُحِلّتِ المَحَارِمُ ، ومُنِعَتِ الحُقوقُ ، وتَظَالَمَ العبادُ ، وهو المرغِّب في الدنيا وعاجِلِها ، والمزهِّد في الآخرة وما أعدَّه

---

(١٠٢) هكذا فى الزاد ، وفى صحيح الترمذى .. وفى النسخ المطبوعة « بريدة » تصحيف .

(١٠٣) أخرجه الترمذى فى كتاب الجهاد ، باب ماجاء فى اا سيوف وحليتها [جـ ٧ ص ١٨٤ ، ١٨٥ بشرح ابن العربى]
وفى سنده هود بن عبد الله بن سعد ، قيل عنه فى ميزان الاعتدال ، لايكاد يُعرف ، تفرد عنه طالب بن حجير .
وقال الترمذى عن هذا الحديث : حسن غريب . وقال الحافظ أبو الحسن بن القطان : هو عندى ضعيف لاحسن .
وقال الذهبى تعليقاً على ذلك : صدق أبو الحسن ، فما علمنا فى حلية سيفه (ﷺ) ذهباً .
[انظر ميزان الاعتدال ج ٢ ص ٣٢٢] .

(١٠٤) سورة آل عمران – الآية ١٤ .

(١٠٥) أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق ، باب مايتقى من فتنة المال [جـ ١١ ص ٢٥٣ من فتح البارى] وأخرجه مسلم فى كتاب الزكاة ، باب كراهة الحرص على الدنيا [جـ ٧ ص ١٣٨ ، ١٣٩ بشرح النووى] .

الله لأوليائه فيها ، فكم أُمِيتَ به من حقّ ، وأُحْيِيَ به من باطلٍ ، ونُصِرَ به ظالمٌ ، وقُهِرَ به مظلومٌ . وما أحسنَ ما قال فيه [أبو قاسم] الحريريّ :(١٠٦) .

تبـاً لَهُ من خادعٍ مُمَـاذِقِ(١٠٧) ... أصفَرَ ذِي وَجْهَيْنِ كالْمُنَافِقِ
يَبْدُو بِوَصْفَيْـنِ لِعَيـنِ ٱلرَّامِـقِ ... زِينة مَعشُوقٍ ، وَلَوْن عاشِقٍ(١٠٨)
وَحُبُّه عنـدَ ذَوِي ٱلْحَقَائِـقِ ... يَدْعُوا إلى ارْتِكَابِ سُخْطِ ٱلْخالِقِ
لَوْلَاهُ لَمْ تُقْطَعْ يَمِينُ السَّارِقِ ... وَلَا بَدَتْ مَظْلِمَةٌ من فاسِقِ
ولَا اشْمَـــأزَّ باخِــــلٌ من طارِقِ ... وَلَا آشتكى ٱلْمَمْطُولُ مَطْلَ ٱلْعَائِـقِ(١٠٩)
ولا آستُعِيذَ من حَسُودٍ رَاشِقِ ... وَشَرُّ ما فيـهِ مِنَ ٱلْخَلَائِـقِ(١١٠)
أن لَيْسَ يُغْنِي عنكَ في ٱلْمَضَايِقِ ... إلَّا إذَا فَرَّ فِرَارَ ٱلْآبِقِ(١١١)

***

حَرْفُ الرَّاءِ

* رُطَبٌ : قال الله تعالى لمريَمَ : ﴿ وَهُزِّي إِلَيكِ بِجذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيًّا• فكُلِي وَٱشْرَبِي وقَرِّي عَيْناً ﴾(١١٢) .

---

(١٠٦) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد . والحريرى هو أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى ، ولد بالبصرة سنة ٤٤٦ هـ ، وتولى منصب « صاحب الخبر » الذى يشبه مصلحة الاستعلامات الآن ، وله كتب أدبية ولغوية مشهورة ، منها « درة الغواص فى أوهام الخواص » التى لقيت عناية من علماء اللغة بعده ، ومنها ملحمة الإعراب فى النحو.. وهو صاحب المقامات المشهورة .. وهذه الأبيات من المقامة الثالثة « الدينارية » التى تتضمن مدح الدينار وذمه . توفى سنة ٥١٦ هـ على الأرجح .

(١٠٧) مُمَاذق : أى لايصافى الودّ .

(١٠٨) الرامق : الناظر للشىء . زينة معشوق : أى ملاحته ، وهو نقشه ، ولون عاشق : أى صُفْرته .

(١٠٩) الممطول : هو صاحب الدَّيْن . مَطْل العائق : المطل تأخير الدَّيْن ، والعائق : مانع أداء الدَّيْن .

(١١٠) حسود راشق : أى رامٍ بعينيه . وأصل الراشق : الرامى بالنبل . والخلائق : جمع خليقة ، وهى العادة والطبيعة .

(١١١) الآبق : الهارب : [انظر كتاب المقامات الأدبية للحريرى - المقامة الدينارية من ص ٢٥ - ٣١ ط الحسينية] .

(١١٢) سورة مريم - الآيتان ٢٥ ، ٢٦ .

وفي الصحيحين ، عن عبد الله بن جعفر ، قال : « رأيتُ رسول الله ﷺ يأكُلُ القِثَّاءَ بالرُّطَب »(١١٣) . وفي سنن أبي داودَ ، عن أنس ، قال : « كان رسول الله ﷺ يُفطِرُ على رُطَباتٍ قبلَ أن يُصَلِّيَ ، فإن لم تكن رطبات فتمراتٍ . فإن لم تكن تَمَرات حَسَا حَسَوَاتٍ من ماء »(١١٤) .

طبْعُ الرُّطَبِ طبعُ المياه ، حار رَطب ، يقوِّى المعدة الباردة ويُوافقها ، وَيَزيد في الباه ، ويُخصِبُ البدن ، ويوافق أصحاب الأمزجة الباردة ، ويَغذُو غذاءً كثيرًا .

وهو من أعظم الفاكهة موافقةً لأهل المدينة وغيرها — من البلاد التي هوَ فاكهتهُم فيها — وأنفعها للبدن ، وإن كان من لَمْ يَعْتَدْهُ يُسْرِعُ التعفُّن في جسده ، ويَتولَّدُ عنه دم ليس بمحمود ، ويحدُث في إكثاره منه صُداعٌ وسوداء ، ويؤذي أسنانه ، وإصلاحُه بالسَّكَنْجبين(١١٥) ونحوه .

وفي فِطْرِ النبي ﷺ من الصوم عليه ، أو على التمر أو الماء ، تدبيرٌ لطيف جدًّا ، فإن الصوم يُخْلي المعدة من الغذاء ، فلا تجد الكبدُ فيها ما تَجذِبه وترسله إلى القُوى والأعضاء . والحلوُ أسرع شيء وصولاً إلى الكبد ، وأحبُّه إليها — ولاسيما إن كان رُطباً — فيشتدُّ قبولها له ، فتنتفع به هي والقُوى ، فإن لم يكن فالتمرُ ، لحلاوته وتغذيته ، فإن لم يكن فحسواتُ الماء تطفيءُ لَهيبَ المعدة وحرارة الصوم ، فتنتبهُ(١١٦) بعده للطعام ، وتأخذه بشهوة .

* رَيْحانٌ : قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ، فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴾(١١٧) . وقال تعالى : ﴿ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَان ﴾(١١٨) .

---

(١١٣) أخرجه البخارى فى كتاب الأطعمة ، باب القثاء بالرطب ، وباب القثاء ، وباب اللونين – أو الطعامين – بمرّة . [جـ ٩ ص ٥٦٤ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الأشربة ، باب أكل القثاء بالرطب [جـ ١٣ ص ٢٢٦ بشرح النووى] . ويأكل القثاء بالرطب : أى يأكلهما معاً .

(١١٤) أخرجه أبو داود فى كتاب الصوم ، باب مايُفطَر عليه [جـ ٢ ص ٣٠٦] .

(١١٥) السَّكَنْجَبِين : شراب مُرَكَّب من حامض وحلو . وهو مُعَرَّب عن الفارسية « سركاانگبين » . ومعناها : خَلّ وعسل . [انظر تذكرة داود جـ ١ ص ١٩٦] .

(١١٦) فى الزاد « فتنتبه » .

(١١٧) سورة الواقعة – الآيتان ٨٨ ، ٨٩ .

(١١٨) سورة الرحمٰن – الآية ١٢ .

وفي صحيح مسلم ـــ عن النبي ﷺ :ـــ « من عُرض عليه رَيحانٌ فلا يردّه ، فإنه خفيفُ المحمِل ، طيِّبُ الرائحة » .

وفي سنن ابن ماجه ـــ من حديث أسامةَ ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ـــ أنه قال : « ألا مُشَمِّرٌ للجَنَّةِ ، فإن الجنة لا خَطَرَ لها ، هي ـــ ورب الكعبة ـــ نورٌ يتَلألأُ ، وَرَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ ، وقصرٌ مَشيدٌ ، ونهرٌ مُطَّرِدٌ ، وَثَمَرَة نَضيجَةٌ ، وَزَوْجَةٌ حسناءُ جميلةٌ ، وحُلَلٌ كثيرةٌ ، في مقام أبدًا ، في حَبْرَةٍ وَنَضْرَةٍ ، في دور عالية سليمة بهيَّة[119] قالوا : نعمْ يا رسول الله ، نحن المشمِّرون لها . قال : قولوا : إن شاء الله تعالى . فقال القوم : إن شاء الله »[120] .

الريحان : كل نبت طيب الريح ، فكلُّ أهل بلد يخصونه بشيء من ذلك ، فأهلُ الغرب يخصونه بالآس ، وهو الذي يعرفه العرب من الريحان ، وأهلُ العراق والشام يخصونه بالحَبَق .

فأما الآسُ ، فمزاجُه بارد في الأولى ، يابس في الثانية ، وهو ـــ مع ذلك ـــ مركب من قوى متضادة ، والأكثرُ فيه الجوهر الأرضيُّ البارد ، وفيه شيء حار لطيف . وهو يجفِّف [الرأس][121] تجفيفاً قويًا . وأجزاؤه متقاربةُ القوة ، وهي قوة قابضة حابسة من داخل وخارج معاً .

وهو قاطع للإسهال الصفراويِّ ، دافع للبخار الحار الرطب إذا شُمَّ ، مفرِّح للقلب تفريحاً شديدًا . وشمُّه مانع للوباء ، وكذلك افتراشُه في البيت .

ويبرئ الأورام الحادثة في الحالِبَيْن إذا وُضع عليها ، وإذا دُقَّ ورقُه وهو غَضٌّ ، وضُرِبَ بالخَلِّ ، ووُضع على الرأس ـــ قطع الرُّعاف ، وإذا سُحِقَ ورقُه اليابس ، وذُرَّ

---

(١١٩) هكذا فى الزاد ، وفى سنن ابن ماجه .. وفى النسخ المطبوعة « ومَقَامٌ فى أبدٍ ، فى دارٍ سليمة ، وفاكهةٌ وخُضْرَةٌ ، وَحَبْرةٌ ونِعْمَةٌ ، فى مَحَلَّةٍ عالية بَهِيَّة » .

(١٢٠) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب صفة الجنة [جـ ٢ ص ١١٤٨ ، ١١٤٩] . وفى سنده : الضَّحَّاك المَعَافِرِىّ الدمشقى ، وسليمان بن موسى . قال الذهبى فى طبقات التهذيب عن الضحاك : مجهول ، فى حين وثقه ابن حبان . وسليمان بن موسى : مُخْتَلَف فيه . وباقى رجال الإسناد ثقات .

(١٢١) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

على القروح ذواتِ الرطوبة ـــ نفعها ، ويقوي الأعضاء الواهية إذا ضُمِّدَ به ، وينفع داء الداحِس ، وإذا ذُرَّ على البثور والقروح التى في اليدين والرجلين ، نفعها .

وإذا دُلِكَ به البدنُ قَطَعَ العَرَقَ ، ونشف الرطوباتِ الفضلية ، وأذهب نَتْنَ الإبط ، وإذا جُلِسَ في طبيخه نفع من خروج المَقْعدة(١٢٢) والرحم ، ومن استرخاء المفاصل ، وإذا صُبَّ على الكسور العظام التي لم تَلتحِمْ نفعها .

ويجلو قشورَ الرأس وقروحه الرطبة وبُثورَه ، ويُمْسِكُ الشعر المتساقط ويسوِّده ، وإذا دُقَّ ورَقُه وصُبَّ عليه ماءٌ يسير ، وخُلِطَ به شيءٌ من زيت أو دُهن الورد ، وضُمد به – وافق القروح الرطبة ، والنملة والحُمرة ، والأورام الحادةَ والشرَى(١٢٣) والبواسير .

وحَبُّه نافع من نفْث الدم العارض في الصدر والرئة ، دابغٌ للمعدة ، وليس بِضَارٍّ للصَّدْر ولا الرئة ، لجلاوته . وخاصيتُه : النفعُ من استِطلاق البطن مع السُّعال ، وذلك نادر في الأدوية . وهو مُدِرٌّ للبول ، نافع من لذع المثانة ، وعضِّ الرُّتَيْلاء(١٢٤) ، ولسْع العقارب . والتخلل بِعِرْقِه مضر ، فلْيُحْذَر .

وأما الريحانُ الفارسيُّ ـــ الذي يُسَمَّى الحَبق ـــ فحارٌّ في أحد القولين . ينفع شمُّهُ من الصُّداع الحار إذا رُش عليه الماء ، ويبَرِّد ويرطِّب بالعَرَض ، وباردٌ في الآخر . وهل هو رطب أو يابس ؟ على قولين ، والصحيح أن فيه من الطبائع الأربع ، ويَجْلبُ النوم .

وبزرُه حابس للإسهال الصفراويِّ ، ومسكِّن للمغص ، مقوٍّ للقلب ، نافع للأمراض السوداويَّة .

* رُمَّانٌ : قال تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾(١٢٥) .

ويُذكر عن ابن عباس ـــ موقوفاً ومرفوعاً ـــ : « ما من رُمَّانٍ ، من رُمَّانِكم هذا ،

---

(١٢٢) المَقْعَدَةُ : السافلة من الشخص ، وموضع القعود منه . والمراد بها هنا « البواسير » .

(١٢٣) الشَّرى : بثُور حُمْرٌ كالدراهم حَكَّاكَةٌ مُؤْلِمَة .

(١٢٤) الرُّتَيْلاءُ : ضَرْبٌ من العناكب كبير البطن ، قصير الأرجل ، ولونه بين الأصفر والأسود ، ونهشه مؤلم مسموم

(١٢٥) سورة الرحمٰن – الآية ٦٨ .

إلَّا وهو مُلَقَّحٌ بحبةٍ من رُمانِ الجنة »[١٢٦] . والموقوفُ أشْبَهُ . وذكر حَربٌ وغيره ، عن علي ، أنه قال : « كلوا الرُّمانَ بِشحْمِه ، فإنه دباغُ المَعِدةِ »

حلوُ الرمان حار رطب ، جيد للمعدة ، مُقَوٍّ لها بما فيه من قبْضٍ لطيف ، نافع للحلق والصدر والرِّئة ، جيدٌ للسُّعال ، وماؤه مليِّن للبطن ، يَغْذُو البدن غذاءً فاضلاً يسيرًا ، سريع التحلل ، لرقَّته ولطافته ، ويولِّد حرارة يسيرة في المعدة وريحاً ، ولذلك يُعين على الباه ، ولا يصلح للمَحْمُومين . وله خاصيَّة عجيبة ، إذا أُكِلَ بالخبز يمنعه من الفساد في المعدة

وحامضه بارد يابس ، قابض لطيف ، ينفع المعدة الملتهبة ، ويُدِرُّ البول أكثرَ مِنْ غيره مِنَ الرمان ، ويسكِّن الصَّفْراء ، ويقطع الإسهال ، ويمنع القيء ، ويلطِّف الفضول ، ويطفئُ حرارة الكَبد ، ويقوِّي الأعضاء ، نافع من الخَفَقَان الصفراويِّ ، والآلام العارضة للقلب وفَم المعدة ، ويقوِّي المعدة ، ويدفع الفُضول عنها ، ويُطفئُ المِرَّة الصفراء والدم .

وإذا استُخْرِجَ ماؤه بشَحْمه ، وطُبِخَ بيسير من العسل حتى يصيرَ كالمَرْهم ، واكتُحل به قطع الصفرة من العين ، ونقَّاها من الرطوبات الغليظة ، وإذا لُطخ على اللِّثَة نفع من الأكِلة العارضة لها ، وإن استُخْرِجَ ماؤهما[١٢٧] بشحمهما أطلَق البطن ، وأحْدَر الرطوبات العَفِنَةَ المُرِّيَّة ، ونفع من حُميات الغب[١٢٨] المُتطاولة .

وأما الرمان المزُّ ، فمتوسط طبعاً وفعلاً بين النوعين ، وهذا أَمْيَلُ إلى لطافة الحامض

---

(١٢٦) هذا الحديث ذكره ابن الجوزى فى الموضوعات ، فى كتاب الأطعمة باب فضيلة الرُّمان ، وأخرجه من طريقين : الطريق الأول فيه عبد السلام بن عبيد بن أبى فروة . وقال عنه ابن حبان : كان يسرق الحديث ، ولايجوز الاحتجاج به بحال . وفى الطريق الثانى محمد بن الوليد بن أبان . قال عنه ابن حبان أيضاً : كان يضع الحديث ، ويوصله ويسرق ، ويقلب الأسانيد والمتون . وفى ميزان الاعتدال عدَّ الذهبى هذا الحديث من أباطيله . [انظر الموضوعات جـ ٢ ص ٢٨٥ ، والميزان جـ ٤ ص ٥٩] .

(١٢٧) هكذا فى الزاد . وفى بعض النسخ المطبوعة « ماؤها » . ولعله تحريف .

(١٢٨) حُمَّى الغِبِّ : هى التى تنوب يوماً بعد يوم . أى : المتقطعة التى تأتى يوماً وتنقطع يوماً .

قليلاً . وحبُّ الرمان مع العسل طِلاءٌ للداحِس والقروح الخبيثة ، وأقماعُه للجراحات . قالوا : ومَن ابتلع ثلاثة من جُنْبُذ[129] الرمان في كل سنة ، أمِنَ الرَّمد سنته[130] كلَّها .

حرف الزاي

* زَيْتٌ : قال تعالى : ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ، زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ، يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾[131] .

وفى الترمذي وابن ماجه ــ من حديث أبي هريرة ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ــ أنه قال : « كلُوا الزَّيتَ وادَّهِنُوا به ، فإنه من شجرةٍ مبارَكةٍ » . وللبَيْهَقيِّ وابن ماجه أيضاً ، عن [عبدالله][132] بن عمرَ ، رضي الله عنهما[133] ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ائْتَدِمُوا بالزَّيْتِ وادَّهِنوا به ، فإنَّهُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبارَكةٍ »[134] .

الزيت حار رطب في الأولى ، وغَلِطَ مَنْ قال : يَابسٌ . والزيت بحسب زيتونه ، فالمعتصرُ مِنَ النَّضيج أعدلُه وأجودُه ، ومن الفِجِّ فيه برودةٌ ويُبوسة ، ومن الزيتون الأحمر متوسط بين الزيتَيْن ، ومن الأسود يسخِّن ويرطب باعتدال ، وينفع من السُّموم ، ويُطلق البطن ، ويخرج الدود . والعتيقُ منه أشد تسخيناً وتحليلاً . وما استُخرج منه بالماء ، فهو أقل حرارة وألطف وأبلغ في النفع . وجميعُ أصنافه مليِّنة للبشرة ، وتبطئُ الشيب .

---

(١٢٩) جُنْبُذ الرُّمان : زهره .

(١٣٠) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « سنة » .

(١٣١) سورة النور – الآية ٣٥ .

(١٣٢) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(١٣٣) فى الزاد « عنه » .

(١٣٤) هذا الحديث ، والذى قبله أخرجهما ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب الزيت [جـ ٢ ص ١١٠٣] ورواه الطبرانى فى الأوسط بمعناه عن ابن عباس قال ، قال رسول الله (ص) ائتدموا بالشجرة – يعنى الزيت – ومَنْ عُرِضَ عليه طيب فليصب منه » . وفى سنده النضر بن طاهر ، وهو ضعيف . [انظر مجمع الزوائد جـ ٥ ص ٤٦] .

وماء الزيتون المالح يمنع من تنفُّط حرق النار ، ويَشُد اللِّثَة ، وورقه ينفع من الحُمرة والنملة والقُروح الوَسِخة والشَّرَى ، ويمنع العرق .ومنافعه أضعاف ما ذكرناه(١٣٥) .

* زُبْدٌ : روى أبو داود في سننه ، عن ابنَيْ بُسْرٍ السُّلَمِيَّيْن ، رضي الله عنهما ، قالا : « دخل علينا رسول الله ﷺ ، فقدَّمنا له زُبدًا وتمرًا ، وكان يُحب الزُّبدَ والتمرَ »(١٣٦) .

الزبد حار رطب ، فيه منافعُ كثيرة ، منها : الإنضاجُ والتحليل ، ويُبرئُ الأورامَ التي تكون إلى جانب الأُذُنَيْن والحالِبَيْن ، وأورامَ الفم ، وسائر الأورام التي تَعرِض في أبدان النساء والصبيان إذا استعمل وحده ، وإذا لُعِق منه نفع من نفْث الدم الذي يكون من الرئة ، وأَنْضَجَ الأورامَ العارضة فيها .

وهو مليِّن للطبيعة والعصب والأورام الصُّلبة العارضة من المِرَّة السوداء والبلغم ، نافعٌ من اليُبس العارض في البدن ، وإذا طُلِي على منابت أسنان الطفل كان مُعيناً على نباتها وطلوعها . وهو نافع من السُّعال العارض من البرد واليبس ، يُذهب القوباء(١٣٧) والخشونة التي في البدن ، ويلين الطبيعة ، ولكنه يُضعف(١٣٨) شهوة الطعام ، ويذهب بوخامة(١٣٩) الحلو ، كالعسل والتمر .

وفي جمعهِ ﷺ بين التمر وبينه ـــ من الحكمة ـــ إصلاحُ كل منهما بالآخر .

* زَبيبٌ : رُوِيَ فيه حديثان لا يَصِحَّان . أحدهما : « نِعْمَ الطعامُ الزَّبيبٌ ، يُطيِّبُ النَّكْهَةَ ، ويُذيبُ البلغم » . والثاني : « نِعْمَ الطعامُ الزَّبيبُ ، يذهبُ النَّصَبَ ، ويَشُد العصب ، ويُطفئُ الغَضَبَ ، ويُصفِّي اللونَ ، ويُطيِّبُ النَّكْهَةَ » . وهذا أيضاً لا يصح فيه شيء عن رسول الله ﷺ .

---

(١٣٥) فى الزاد « ماذكرنا » .

(١٣٦) أخرجه أبو داود فى كتاب الأطعمة ، باب الجمع بين لونين فى الأكل [جـ ٢ ص ٣٦١] . وأخرجه ابن ماجه أيضاً فى كتاب الأطعمة ، باب التمر بالزبد . [جـ ٢ ص ١١٠٦ ، ١١٠٧] .

(١٣٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « القُوبَى » . والقَوَباء (بالمد ، والواو مفتوحة ، وقد تخفف بالسكون) : داء فى الجسد يتقشر منه الجلد ، وينجرد منه الشعر .

(١٣٨) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « يُسْقِط » .

(١٣٩) فى الزاد « بوخامته » .

وبعد ، فأجود الزبيب ما كبُر جسمه ، وسَمِن شحمه ولحمه ، ورقّ قشره ، ونُزِعَ عَجَمُهُ ، وصغُر حَبُّه . وجِرْم الزبيب حارٌّ رَطْبٌ في الأولى ، وحَبُّهُ بارد يابس . وهو كالعنب المُتَّخَذ منه ، الحلُو منه حار ، والحامض قابض بارد ، والأبيض أشد قبضاً من غيره . وإذا أُكِلَ لحمُه ، وافق قصبة الرئة ، ونفع من السُّعال ووجع الكُلى والمثانة ، ويقوّي المعدة ، ويلين البطن .

والحلوُ اللحمِ أكثرُ غذاءً من العنب ، وأقلُّ غذاءً من التين اليابس ، وله قوة منضِجة هاضمة ، قابضة محلِّلة باعتدال ، وهو بالجملة يقوي المعدة والكبد والطِّحال ، نافعٌ من وجع الحلق والصدر والرئة والكُلى والمثانة .

وأعدلُه أن يؤكل بغير حبِّه[١٤٠] ، وهو يغذّي غذاءً صالحاً ، ولا يسدِّد كما يفعل التمرُ ، وإذا أُكل منه بعجَمِه كان أكثر نفعاً للمعدة والكبد والطِّحال ، وإذا لُصِقَ لحمُه على الأظافير المتحركة أسرع قلعها ، والحلوُ منه وما لا عَجَمَ له نافعٌ لأصحاب الرطوبات والبلغم ، وهو يُخصب الكَبِدَ وينفعها بخاصيَّته .

وفيه نفعٌ للحفظ . قال الزُّهريُّ : « من أحبَّ أن يحفظ الحديث ، فلْيأكل الزبيبَ » . وكان المنصور يذكر عن جده عبدِ الله بن عباس : « عجمُه داء ، ولحمُه دواء » .

* **زَنْجَبِيلٌ** : قال تعالى : ﴿ **وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً** ﴾[١٤١] .

وذكر أبو نُعيم في كتاب الطب النبويّ ــ من حديث أبي سعيد الخُدريّ ، رضي الله عنه ــ قال : « أهدى ملك الرُّوم إلى رسول الله ﷺ جَرَّةَ زَنجبيل ، فأطعمَ كلَّ إنسان قطعةً ، وأطعمني قطعةً » .

الزنجبيل حار في الثانية ، رطب في الأولى . مسخِّن ، معين على هضم الطعام ، ملين للبطن تليناً معتدلاً ، نافع من سُدد الكبد العارضة عن البرد والرطوبة ، ومن ظُلمة البصر الحادثة عن الرطوبة ، أكلاً واكتحالاً ، معين على الجماع ، وهو محلِّل للرياح الغليظة الحادثة في الأمعاء والمعدة .

---

(١٤٠) في الزاد « عَجَمه » وهي بمعناها ، فالعَجَم والعُجام : نوى كلّ شيء ، كالزبيب ، والرُّمّان ، والبلح ، وغيرها .

(١٤١) سورة الإنسان – الآية ١٧ .

وبالجملة ، فهو صالح للكبد والمعدة الباردتي المزاج ، وإذا أُخِذَ منه مع السكر وزنُ درهمين بالماء الحار ، أسهلَ فُضولاً لزجةً لُعابيَّةً ، ويقع في المعجونات التي تحلّل البلغم وتُذيبه .

والمُرِّيُّ منه حار يابس ، يهيج الجماع ، ويزيد المنيَّ ، ويسخّن المعدة والكبد ، ويُعين على الاستمراء ، وينشّف البلغم الغالب على البدن ، ويزيد في الحفظ ، ويوافق بَرْدَ الكبد والمعدة ، ويزيل(142) بِلّتَها الحادثة عن أكل الفاكهة ، ويطيِّب النَّكْهة ، ويُدفع به ضرر الأطعمة الغليظة الباردة .

***

حرف السين

* سَناً : قد تقدم ، وتقدم « سَنُّوت » أيضاً ، وفيه سبعة أقوال :

أحدها : أنه العسل . الثاني : أنه رُبُّ عُكَّة السمن ، يخرج خططاً سوداءَ على السمن . الثالث : أنه حب يُشبه الكَمُّون ، وليس بكمون . الرابع : الكمون الكِرْمانيُّ . الخامس : أنه الشَّبتّ(143) السادس : أنه التمر . السابع : أنه الرَّازِيَانج .

* **سَفَرْجَلٌ** : روى ابن ماجه في سننه ، [من](144) حديث إسماعيلَ بن محمد الطلحيِّ ، عن نقيب(145) بن حاجب ، عن أبي سعيد ، عن عبد الملك الزُّبيريِّ ، عن طلحةَ بن عُبيد الله ، رضي الله عنه ، قال : « دخلتُ على النبي ﷺ : وبيدِه سَفَرْجَلة ،

---

(١٤٢) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « يزيل » .

(١٤٣) الشَّبت (بفتح الشين والباء) : نبات عشبى من الفصيلة الخيمية ، تستعمل أوراقه وبذوره فى إكساب الأطعمة نكهة طيبة (ويكسرها وتسكين الباء) : بقلة .. وفى تذكرة داود (بكسر الشين وفتح الباء وتشديد التاء) : نبت كالرازيانج ، إلا أن زهره أبيض وأصفر ، وبذره أدق ، وأشد حِدَّة وحراقة . والرازيانج هو الشمرة أو الشمار . وفى القانون لابن سينا : بزره يشبه بزر الكرفس – أى البقدونس البرى .
[انظر القانون فى الطب ص ٢٩٥ – وانظر تذكرة داود جـ ١ ص ٢٠٨ – وانظر منافع الأعشاب ص ١٥٠] .

(١٤٤) مابين المعقوفتين عن الزاد .

(١٤٥) هكذا فى الزاد ، وفى سنن ابن ماجه .. وفى النسخ المطبوعة « شعيب » تحريف .قد ورد اسمه فى الميزان « نقيب » أو « نقيد بن حاجب » وقيل عنه : لايُدْرَى من هو . [انظر ميزان الاعتدال جـ ٤ ص ٢٧٣] .

فقال : دُونَكَها يا طَلْحَةُ ، فإنها تُجِمُّ الفؤادَ »(١٤٦) . ورواه النسائيُّ من طريق آخرَ ، وقال : « أتيتُ النبي ﷺ — وهو في جماعةٍ من أصحابه ، وبيده سَفَرْجَلة يقلِّبُها — فلمَّا جلستُ إليه ، دحَا بها إليَّ ، ثم قال : دونَكَها أبا ذَرّ ، فإنها تَشُدُّ القَلْبَ ، وتُطَيِّبُ النَّفْسَ ، وتَذْهَبُ بِطَخَاءِ الصَّدْرِ »(١٤٧) .

وقد رُوي في السفرجل أحاديثُ أُخَرُ ، هذا(١٤٨) أمثَلُها ، ولا تصح .

والسفرجل بارد يابس ، ويختلف في ذلك باختلاف طعمه ، وكلُّه بارد قابض ، جيد للمعدة ، والحلوُ منه أقلُّ بُرودَةً(١٤٩) ويُبساً ، وأَمْيَلُ إلى الاعتدال ، والحامضُ أَشَدُّ قبضاً ويبسًا وبرودة ، وكله يسكن العطش والقيء ، ويدر البول ، ويَعقِل الطبع ، وينفع من قَرْحة الأمعاء ، ونفْث الدم ، والهَيْضَة ، وينفع من الغَثَيان ، ويمنع من تصاعُد الأبخرة إذا استُعْمِلَ بعد الطعام ، وحُرَاقةُ أغصانه وورقه المغسولة ، كالتوتياء في فعلها(١٥٠) .

وهو قبل الطعام يقبض ، وبعده يليِّن الطبع ، ويسرع بانحدار الثفل(١٥١) . والإكثارُ منه مضر بالعصب ، مولِّد للقُولَنْج . ويُطْفِئُ المِرَّة الصفراء المتولدة في المعدة .

وإن شُوِيَ كان أقلَّ لخشونته وأخفَّ . وإذا قُوِّر وسطُه ، ونُزِعَ حبُّه ، وجُعِلَ فيه العَسَلُ ، وطُيِّن جِرمُه بالعجين ، وأُودِع الرماد الحارَّ — نفع نفعاً حسناً .

وأجود ما أُكِلَ مشويًّا أو مطبوخاً بالعسل ، وحَبُّه ينفع من خشونة الحلق ، وقصبة

---

(١٤٦) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب أكل الثمار [جـ ٢ ص ١١١٨]وفى الزوائد : فى إسناده عبد الملك الزبيرى : مجهول .. وقال الذهبى فى الكاشف عن أبى سعيد ، يُكره . وقال فى الميزان : نقيب بن حاجب : لايَدْرَى مَنْ هو .

(١٤٧) لم أقف عليه عند النسائى .

(١٤٨) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « هذه » . [انظر العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية جـ ٢ ص ٦٥٤ ، ٦٥٥] . والسفرجل : شجره مثمر من الفصيلة الوردية ، ومنابته بالشام ، وثمرته فى حجم ثمرة الرُّمَّان أو أصغر ، وأجوده الكبير الهش الحلو ، الكثير المائية . [انظر تذكرة داود جـ ١ ص ١٨٩] .

(١٤٩) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « بَرْداً » فى الموضعين .

(١٥٠) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « فعله » .

(١٥١) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « الثقل » . والثفل : مايستقر تحت الماء ونحوه من كدر ، أو مايتبقى من المادة بعد عصيرها . والمراد به هنا « الفضلات » .

الرئة ، وكثيرٍ من الأمراض ، ودُهنُه يمنع العَرَق ، ويقوي المعدة ، والمُرَبَّى منه تقوِّي المعدة والكبد ، وتشُد القلب ، وتطيِّب[١٥٢] النفس .

ومعنى « تُجِمُّ الفؤاد » : تُريحُه . وقيل : تفتِّحه وتوسِّعه ، من « جُمام الماء » وهو : اتساعه وكثرته . و « الطَّخاء » للقلب مِثْل الغيم على السماء ، قال أبو عُبيد : « الطَّخاء : ثِقَلٌ وغِشاءٌ[١٥٣] تقول : ما في السَّماءِ طَخَاءٌ ، أي : سحابٌ وظُلمة » .

* سِوَاكٌ : في الصحيحين ـــ عنه ﷺ ـــ: « لولا أن أشُقَّ على أُمَّتي لأمرتهم بالسِّواك عند كل صلاة »[١٥٤] . وفيهما : « أنه ﷺ كان إذا قام من الليل يَشُوصُ فاهُ بالسِّواك »[١٥٥] . وفي صحيح البخاري ـــ تعليقاً عنه ﷺ ـــ: « السِّواك مَطْهَرَةٌ للفم ، مرضاة للربِّ » . وفي صحيح مسلم : « أنه ﷺ كان إذا دخل بيته : بدأ بالسِّواك »[١٥٦] . والأحاديث فيه كثيرة .

وصح عنه : أنه استاك عند موته ، وصح عنه أنه قال : « أكثرت عليكم في السواك »[١٥٧] .

وأصلح ما اتُّخِذَ السواكُ من خشب الأراك ونحوه ، ولا ينبغي أن يؤخذ من شجرة مجهولة ، فربما كانت سُمّاً . وينبغي القصد في استعماله ، فإن بالغ فيه ، فربما أذهب طَلَاوةَ الأسنان وصقالتها ، وهيَّأها لقبول الأبخرة المتصاعدة من المعدة والأوساخ . ومتى استعمل باعتدال جَلَا الأسنان ، وقوَّى العمود ، وأطلق اللسان ، ومنع الحَفرَ ، وطيَّب النَّكْهَة ، ونقَّى الدماغ ، وشهَّى الطعام .

---

(١٥٢) في الزاد « ويطيِّب » .

(١٥٣) في الزاد « وغَشْيٌ » .

(١٥٤) أخرجه البخاري من حديث أبي هريرة في كتاب الجمعة ، باب السواك يوم الجمعة [جـ ٢ ص ٣٧٤ من فتح الباري] . وأخرجه مسلم في كتاب الطهارة ، باب السواك [جـ ٣ ص ١٤٣] .

(١٥٥) انظر المصدرين السابقين : [البخاري ص ٣٧٥ – ومسلم ص ١١٤] وانظر النسائي [كتاب الطهارة باب السواك إذا قام من الليل جـ ١ ص ٨ بشرح السيوطي] .

(١٥٦) انظر صحيح مسلم [جـ ٣ ص ١٤٤] .

(١٥٧) أخرجه البخاري من حديث أنس بن مالك في كتاب الجمعة ، باب السواك ، يوم الجمعة [جـ ٢ ص ٣٧٤ من فتح الباري] . وأخرجه النسائي في كتاب الطهارة ، باب الإكثار في السواك [جـ ١ ص ١١ بشرح السيوطي] .

وأجودُ ما استُعْمِلَ مبلولاً بماء الورد ، ومن أنفعه أصول الجوْز ، قال صاحب التيسير : « زعموا أنه إذا استاك به المستاك كلَّ خامسٍ من الأيام نقَّى الرأس ، وصفَّى الحواسَّ ، وأحدَّ الذهنَ » .

وفي السواك عدة منافع : يطيِّب الفم ، ويشد اللِّثَةَ ، ويقطع البلغم ، ويجلو البصر ، ويذهب بالحفر ، ويُصحُّ المعدة ، ويصفِّي الصوت ، ويعين على هضم الطعام ، ويسهل مجاريَ الكلام ، وينشط للقراءة والذكر والصلاة ، ويطرُد النوم ، ويُرضي الربَّ ، ويعجب الملائكة ، ويكثر الحسنات .

ويستحبُّ كلَّ وقت ، ويتأكد عند الصلاة ، والوضوء ، والانتباه من النوم ، وتغيُّر رائحة الفم ، ويستحب للمفطر والصائم في كل وقت ، لعموم الأحاديث فيه ، ولحاجة الصائم إليه ، ولأنه مرضاةٌ للرب ، ومرضاتُه مطلوبة في الصوم أشدّ من طلبها في الفطر ، ولأنه مَطْهَرَةٌ للفم ، والطُّهور للصائم من أفضل أعماله .

وفي السنن ، عن عامر بن ربيعة ، رضي الله عنه ، قال : « رأيت رسول الله ﷺ مالا أُحصِي ، يستاكُ وهو صائمٌ »[158] . وقال البخاريُّ : قال ابن عمرَ : « يستاك أول النهار وآخره » .

وأجمع الناسُ على أن الصائم يتمضمض وجوباً واستحباباً ، والمضمضة أبلغ من السواك . وليس لله غرضٌ في التقرُّب إليه بالرائحة الكريهة ، ولا هي من جنس ما شرع التعبُّد به ، وإنما ذكر « طِيب الخُلوف عند الله يوم القيامة » : حثًّا منه على الصوم ، لا حثًّا على إبقاء الرائحة ، بَل الصائم أحوج إلى السواك من المفطر .

وأيضاً : فإن رضوان الله أكبر من استطابته لخلوف فم الصائم .

وأيضاً : فإن محبته للسواك أعظمُ من محبته لبقاء خُلوف فم الصائم .

وأيضاً : فإن السوك لا يمنع طيبَ الخُلوفِ ـــ الذي يُزيله السواكُ ـــ عند الله يوم القيامة ، بل يأتي الصائمُ يوم القيامة وخُلوفُ فمِه أطيبُ من المسك ، علامةً على

---

(١٥٨) أخرجه أبو داود فى كتاب الصوم ، باب السواك للصائم [جـ ٢ ص٣٠٧] . وأخرجه الترمذى فى الصوم ، باب ماجاء فى السواك للصائم [جـ ٣ ص ٢٥٥ بشرح ابن العربى] .

صيامه ، ولو أزاله بالسواك . كما أن الجريحَ يأتي يوم القيامة ولونُ دم جُرحه لونُ الدم ، وريحه ريحُ المسك ، وهو مأمور بإزالته في الدنيا .

وأيضاً : فإن الخلوف لا يزول بالسواك ، فإن سببه قائم ، وهو : خلو المعدة عن الطعام ، وإنما يزول أثره ، وهو المنعقد على الأسنان واللّثة .

وأيضاً : فإن النبي ﷺ ـــ علّم أمته ما يُستَحَبُّ لهم في الصيام ، وما يُكْرَهُ لهم ، ولم يجعل السواك من القسم المكروه ، وهو يعلم أنهم يفعلونه ، وقد حضّهم عليه بأبلغ ألفاظ العموم والشمول ، وهم يشاهدونه يَستاك وهو صائم ، مرارًا كثيرة تفوت الإحصاء ، ويعلم أنهم يقتدون به ، ولم يقل لهم يوماً من الدهر : لا تستاكوا بعد الزّوال . وتأخير البيان عن وقت الحاجة ممتنع . والله أعلم .

* سَمْنٌ : روى محمد بن جرير الطبري بإسناده ـــ من حديث صهيب ، يرفعه ـــ: « عليكم بألبان البقَر ، فإنها شفاء ، وسمنها دواء ، ولحومها داء » . رواه عن أحمد بن الحسن الترمذي ، حدثنا محمد بن موسى النسائي ، حدثنا دَفّاع بن دَغْفَل السدوسي ، عن عبد الحميد بن صَيفي بن صهيب ، عن أبيه ، عن جده ، ولا يثبت ما في هذا الإسناد .

والسمن حار رطب في الأولى ، وفيه جلاء يسير ، ولطافة ، وتفشية للأورام الحادثة من الأبدان الناعمة ، وهو أقوى من الزُّبد في الإنضاج والتّليين ، وذكر جالينوس : « أنه أبرأ الأورام الحادثة في الأذن ، وفي الأرنبة » وإذا دلك به موضعُ الأسنان ، نبتت(١٥٩) سريعاً .

وإذا خُلِطَ مع عسل ولَوْزٍ مُرٍّ ، جلا ما في الصدر والرئة ، والكَيموساتِ الغليظة اللزجة ، إلا أنه ضار بالمعدة ، سيّما إذا كان مزاجُ صاحبها بلغميًّا .

وأما سمن البقر والمعز ، فإنه إذا شرب مع العسل نفع من شرب السم القاتل ، ومن لدغ الحيات والعقارب ، وفي كتاب ابن السُّنّي ، عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، قال : « لم يَسْتشفِ الناس بشيء أفضل من السمن » .

---

(١٥٩) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « نبت » .

* سَمَكٌ : روى الإمام أحمد بن حنبل ، وابن ماجه في سننه — من حديث عبد الله ابن عمر ، عن النبي ﷺ — أنه قال : « أُحِلَّتْ لنا مَيْتَتانِ ودمان : السمكُ والجراد ، والكبد والطِّحال »[١٦٠] .

أصناف السمك كثيرة ، وأجوده مالذَّ طعمه ، وطاب ريحه ، وتوسط مقداره ، وكان رقيق القشر ، ولم يكن صُلب اللحم ولا يابسه ، وكان في ماء عذب جارٍ على الحصباء ، ويتغذى[١٦١] بالنبات ، لا الأقذار ، وأصلح أماكنه ما كان في نهر جيدِ الماء ، وكان يأوي إلى الأماكن الصخرية ، ثم الرملية ، والمياه الجارية العذبة التي لا قذر فيها ولا حَمْأة ، الكثيرة الاضطراب والتموُّج ، المكشوفة للشمس والرياح .

والسمك البحري فاضل محمود لطيف ، والطري منه بارد رطب ، عَسِير الانهضام ، يولِّد بلغماً كثيرًا ، إلا البحري وما جرى مجراه ، فإنه يولد خَلْطاً محمودًا ، وهو يخصب البدن ، ويَزيد في المَنيِّ ، ويصلح الأمزجة[١٦٢] الحارة .

وأما المالحُ فأجوده ما كان قريب العهد بالتملُّح ، وهو حار يابس ، وكلما تقادم عهده ازداد حره ويبسه ، والسلُّور[١٦٣] منه كثير اللزوجة ، ويسمى الجرِّيَّ . واليهود لا تأكله ، وإذا أُكل طرياً كان مليِّناً للبطن ، وإذا مُلِّحَ وعتق وأُكِلَ صَفَّى قصبة الرئة ، وجَوَّدَ الصوت . وإذا دُق وَوُضع من خارج أخرج السَّلَى[١٦٤] والفضول من عمق البدن ، من طريق أن له قوة جاذبة .

وماء ملح الجرِّيِّ المالح إذا جلس فيه من كانت به قرحة الأمعاء ، في ابتداء العلة ، وافقه ، بجذبه الموادَّ إلى ظاهر البدن ، وإذا احتقن به أبرأ من عِرق النَّسا .

وأجود ما في السمك ما قَرُب من مؤخرها ، والطريُّ السمين منه يُخصب البدنَ لَحْمُهُ ووَدَكُه .

---

(١٦٠) أخرجه ابن ماجه في كتاب الأطعمة ، باب الكبد والطحال ، وفي كتاب الصيد باب صيد الحيتان والجراد [جـ ٢ ص ١١٠٢ ، ص ١١٧٣] . وأخرجه الدار قطني في باب الصيد والذبائح والأطعمة [جـ ٤ ص ٢٧٢] .

(١٦١) في الزاد « ويغتذى » .

(١٦٢) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « الأمزاج » .

(١٦٣) السلُّور : سمك بحريّ ونهريّ ، يبلغ طوله ثلاثة أمتار ، ومنه نوع كالرَّعّاد .

(١٦٤) السَّلَى : غشاء رقيق يحيط بالجنين ، ويخرج معه من بطن أمه .

في الصحيحين ــ من حديث جابر بن عبد الله ، رضي الله عنه ــ قال : « بعثنا النبي ﷺ في ثلثمائة راكب ، وأميرنا أبو عبيدة بن الجراح [رضى الله عنه][١٦٥] فأتينا الساحل ، فأصابنا جوع شديد ، حتى أكلنا الخَبَطَ[١٦٦] ، فألقى لنا البحر حوتاً يقال لها : عَنبر ، فأكلنا منه نصف شهرٍ ، وآئتدمْنا بوَدَكه ، حتى ثابت أجسامنا ، فأخذ أبو عبيدة ضلعاً من أضلاعه ، وحمل رجلاً على بعيره ، ونصبه فمرَّ تحته »[١٦٧] .

* سِلْقٌ : روى الترمذيُّ وأبو داودَ ، عن أم المُنذِر ، قالت : « دخل رسول الله ﷺ ومعه عليٌّ ، رضي الله عنه ، ولنا دَوَالٍ معلَّقةٌ . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يأكُلُ ، وعليٌّ معه يأكُل . فقال رسول الله ﷺ : مَهْ يا عليُّ ! فإنك ناقهٌ . قالت : فجعلتُ لهم سِلْقاً[١٦٨] وشعيرًا ، فقال النبي ﷺ : يا عليُّ ، فأصِبْ من هذا ، فإنه أوفَقُ لك » . قال الترمذيُّ : حديثٌ حسن غريب .

السلق حار يابس فى الأولى ، وقيل : رطب فيها . وقيل : مركب منهما ، وفيه برودةٌ ملطِّفة ، وتحليلٌ وتفتيحٌ ، وفي الأسود منه قبضٌ ، ونفعٌ من داء الثعلب ، والكَلَف ، والحزَازِ والثآليل إذا طُلِيَ بمائه ، ويقتل القمل ، ويُطلَى به القُوباءُ مع العسل ، ويفتِّح سدد الكبد والطِّحال .

وأسودُه يَعقُل البطن ، ولاسيَّما مع العدَس ، وهما رديئان ، والأبيض يليِّن مع العدس ويُحقن بمائه للإسهال ، وينفع من القُولَنْج مع المَريِّ والتَّوَابِل ، وهو قليل الغذاء ، رديء الكَيْمُوس ، يحرق الدم ، ويصلحه الخل والخَرْدَل ، والإكثار منه يولِّد القبض والنفخ .

---

(١٦٥) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(١٦٦) الخَبَط : ماسقط من ورق الشجر بالخَبْطِ والنَّفض .

(١٦٧) أخرجه البخارى فى كتاب الذبائح والصيد ، باب قول الله تعالى « أُحِلَّ لكم صيد البحر » [جـ ٩ ص ٦١٥ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الصيد والذبائح ، باب إباحة ميتات البحر [جـ ٢ ص ٨٤ – ٨٩ بشرح النووى] .

(١٦٨) السِّلْقَ : بقلة لها ورق طوال ، وأصل ذاهب فى الأرض ، وورقها غضٌّ طرىٌّ يؤكل مطبوخاً .

حرف الشين

• **شُونِيزُ** : هو الحبة السوداء . وقد تقدم في حرف الحاء .

• **شُبْرُمٌ** : روى الترمذيُّ وابن ماجه في سننهما — من حديث أسماءَ بنت عُمَيْس — قالت : « قال رسول الله ﷺ : بماذا كنتِ تَسْتَمْشِينَ ؟ قالت : بالشبْرُم . قال : حارٌّ جَارٌّ »(١٦٩) .

الشبرم : شجر صغير وكبير كقامة الرجل وأرجح ، له قضبانٌ حمر ملمعة ببياض ، وفي رءوس قضبانه جُمَّةٌ من ورَق ، وله نَوْر صغار أصفر إلى البياض ، يسقط ويخلفه مراودُ صغار ، فيها حبٌّ صغير مثل البُطْم في قدره ، أحمرُ اللون ، ولها عروقٌ عليها قشورٌ حمر ، والمستعمل منه قشرُ عروقه ، ولبن قضبانه .

وهو حار يابس في الدرجة الرابعة ، ويسهِّل السوداءَ والكَيْمُوساتِ الغليظةَ والماءَ الأصفر ، والبلغم . مُكْرِبٌ مُغَثٌّ ، والإكثار منه يقتل ، وينبغي إذا استُعْمِلَ أن يُنْقَعَ في اللبن الحليب يوماً وليلةً ، ويغيَّر عليه اللبن — في اليوم — مرتَيْن أو ثلاثاً ، وَيُخْرَجَ ويُجَفَّفَ في الظِّل ، ويُخْلَطَ معه الورود(١٧٠) والكَثِيراءُ(١٧١) ويُشربَ بماء العسل أو عصير العنب ، والشربة منه ما بيْنَ أربع دوانِقَ إلى دانَقَيْن ، على حسب القوة ، قال حُنَيْن : « أمَّا لبنُ الشُّبْرُم ، فلا خيرَ فيه ، ولا أرى شربه البتة ، فقد قتل به أطباءُ الطُّرقاتِ كثيرًا من الناس » .

• **شَعِيرٌ** : روى ابن ماجه — من حديث عائشة — قالت : « كان رسول الله ﷺ إذا أخذ أحدًا من أهله الوَعْكُ ، أمَر بالحَسَاء(١٧٢) من الشَّعير فصُنِعَ ، ثم أمَرهم فحسَوا

---

(١٦٩) هكذا فى الزاد ، وفى الترمذى وابن ماجه .. وفى النسخ المطبوعة « حارٌ يارّ » . يقال للرغيف إذا أخرج من التنور : « حارٌ يارٌ » . وكذلك إذا حميت الشمس على حَجَر أو شيء غيره صَلُب فلزمته حرارة شديدة يطلق عليه هذا التعبير على الاتباع [انظر لسان العرب – مادة يَرر] . وهذا الحديث أخرجه الترمذى فى الطب ، باب ماجاء فى السنا [جـ ٨ ص ٢٣٤ بشرح ابن العربى] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب دواء المشى [جـ ٢ ص ١١٤٥ ، ١١٤٦] .

(١٧٠) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « الورد » .

(١٧١) الكَثيراء : نبات من جنس الأسطرغالُس من الفصيلة القرنية . [انظر المعجم الوسيط – مادة كثر] .

(١٧٢) الوعك : هو الحُمَّى ، وقيل : ألمها .. والحساء : طبيخ يتخذ من دقيق وماء ودهن ، وقد يُحلَّى . ويكون رقيقاً يُحْتَى .

منه ، ثم يقول : إنه لَيَرتُو فؤادَ الحزين ، ويسرو[١٧٣] فؤاد السَّقيم ، كما تسرو إحداكن الوسخ بالماء عن وجهها »[١٧٤] . ومعنى « يرتوه » : يشدُّه ويقوِّيه . و « يَسرو » : يكشف ويُزيل .

وقد تقدم أن هذا هو ماء الشعير المغليُّ ، وهو أكثر غذاء من سويقه ، وهو نافع للسعال وخشونة الحلق ، صالح لقَمْع حِدَّة الفُضول ، مُدِرٌّ للبول ، جلاء لما في المعدة ، قاطع للعطش ، مُطْفِئٌ للحرارة ، وفيه قوة يجلو بها ويلطف ويحلل .

وصفتُه : أن يُؤْخَذَ من الشعير الجيد المرضُوض مقدارٌ ، ومن الماء الصافي العذب خمسةُ أمثاله ، ويُلْقَى في قِدْرٍ نظيف ، ويُطْبَخَ بنار معتدلة . إلى أن يَبقى منه خمساه ، ويُصَفَّى ويُستعمل منه مقدارُ الحاجة مُحَلاًّ .

« شِواء(*) : قال الله تعالى في ضيافة خليله إبراهيمَ ـــ عليه السلام ـــ لأضيافه : ﴿ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾[١٧٥] . والحَنِيذُ : المشوي على الرَّضْفِ ، وهي : الحجارة المُحْماة .

وفي الترمذي ـــ عن أم سَلَمة ، رَضِيَ الله عنها ـــ : « أنها قرَّبت إلى رسول الله ﷺ جنباً مشويًّا ، فأكل منه ، ثم قام إلى الصلاة : وما توضأ »[١٧٦] . قال الترمذي : حديث صحيح . وفيه أيضاً ، عن عبد الله بن الحارث ، قال : « أكلنا مع رسول الله ﷺ شِواءً في المسجد » . وفيه أيضاً ، عن مغيرَة بن شعبة ، قال : « ضِفت مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ـــ فأمر بجنبٍ فَشُوِيَ ، ثم أخذ الشفرة فجعل يحزُّ[١٧٧] لي بها منه . قال : فجاء بلالٌ يُؤَذِّنُ للصلاة ، فألقى الشفرة ، فقال : مالَه تَرِبَتْ يداه »[١٧٨] .

---

(١٧٣) هكذا فى الزاد وفى سنن ابن ماجه .. وفى النسخ المطبوعة « وتسْرو عن » .

(١٧٤) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب التلبينة [جـ ٢ ص ١١٤٠] .

(*) هكذا فى الزاد .. وفى النسخ المطبوعة « شَوِيٌّ » .

(١٧٥) سورة هود – الآية ٦٩ .

(١٧٦) أخرجه الترمذى فى الأطعمة ، باب ماجاء فى أكل الشّواء [جـ ٨ ص ٢٤ ، ٢٥ بشرح ابن العربى] .

(١٧٧) هكذا فى الزاد وفى سنن أبى داود .. وفى النسخ المطبوعة « يجزُّ » وكلاهما بمعنى : يقطع .

(١٧٨) أخرجه أبو داود فى كتاب الطهارة ، باب فى ترك الوضوء مما مسّت النار [جـ ١ ص ٤٨] .

أنفع الشواء شواء[١٧٩] الضأن الحَوْليّ ، ثم العجل اللطيف السمين ، وهو حار رطب إلى اليبوسة ، كثير التوليد للسوداء ، وهو من أغذية الأقوياء والأصحاء والمُرتاضين . والمطبوخ أنفع وأخف على المعدة ، وأرطب منه ومن المطجَّن .

وأردؤه : المشوي في الشمس ، والمشوي على الجمر خير من المشوي باللهب[١٨٠] ، وهو : الحنيذ .

• شَحْمٌ : ثبت في المسند عن أنس : « أن يهوديًّا أضاف رسول الله ﷺ فقدَّم له خبز شعير ، وإهالةً سَنِخَة » . والإهالة : الشحم المُذاب ، والألْية . والسَّنخة : المتغيرة .

وثبت في الصحيح ، عن عبد الله بن مغفل ، قال : « دُلِّيَ جِرَابٌ من شحم ، يوم خَيْبَر ، فالتزمْتُهُ وقلتُ : والله ، لا أعطي أحدًا منه شيئاً ، فالتفتُّ فإذا رسول الله ﷺ يضحك ، ولم يقل شيئاً »[١٨١] .

أجود الشحم ما كان من حيوان مكتمل ، وهو حار رطب ، وهو أقل رطوبةً من السمن ، ولهذا ، لو أُذيب الشحم والسمن كان الشحم أسرع جمودًا .

وهو ينفع من خشونة الحَلق ، ويُرْخِي ، ويعفن ، ويدفع ضرره بالليْمون المملُوح والزنجبيل ، وشحم المَعِز أقبض الشحوم ، وشحم التُّيوس أشد تحليلاً ، وينفع من قروح الأمعاء ، وشحم العنز أقوى فى ذلك ، ويُحتقَن به للسَّحْج والزَّحِير[١٨٢] .

---

(١٧٩) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « أنفع الشوىّ شوىٌ ... » .

(١٨٠) هكذا فى الزاد ،. وفى النسخ المطبوعة « اللهيب » .

(١٨١) أخرجه البخارى فى كتاب فرض الخمس ، باب مايصيب من الطعام فى أرض الحرب ، وفى آخره « ... فالتفت فإذا النبىُّ (ﷺ) فاستحييت منه » . [جـ ٦ ص ٢٥٥ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الجهاد والسير ، باب جواز الأكل من طعام الغنيمة فى دار الحرب [جـ ١٢ ص ١٠١ - ١٠٣ بشرح النووى] .

(١٨٢) السحج : الخدوش والقشور . والزحير : مرض يتميَّزُ بتبرُّز متقطع معظمه دم ومُخاط ، ويصحبه ألمٌ وتمنٍّ .

حَرْفُ الصَّاد

* صَلَاةٌ : قال الله تعالى : ﴿واستَعِينُوا بالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، وإنَّها لَكَبِيرَةٌ إلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾(١٨٣) . وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾(١٨٤) وقال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ ، وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾(١٨٥) .

وفي السنن : « كان رسول الله إذا حزَبه أمر فَزِعَ إلى الصَّلاة » .

وقد تقدم ذكر الاستشفاء بالصلاة من عامة الأوجاع ، قبل استحكامها .

والصلاة مَجلَبَةٌ للرزق ، حافظة للصحة ، دافعة للأذى ، مَطردة للأدواء ، مقوية للقلب ، مبيِّضة للوجه ، مفرحة للنفس ، مذهبة للكسل ، منشِّطة للجوارح ، مُمدَّة للقُوَى ، شارحة للصدر ، مغذية للرُّوح ، منوِّرة للقلب ، حافظة للنعمة ، دافعة للنقمة ، جالبة للبركة ، مُبعِدَة من الشيطان ، مُقَرِّبة من الرحمن .

وبالجملة ، فلها تأثير عجيب فى حفظ صحة البدن والقلب وقواهما ، ودفع المواد الرديئة عنهما . وما ابتلى رجلان بعاهة أو داء أو محنة أو بلية ، إلا كان حظ المصلي منهما أقلَّ ، وعاقبته أسلم .

وللصلاة تأثير عجيب في دفع شرور الدنيا ، ولاسيما إذا أعطيت حقها من التكميل ، ظاهرًا وباطناً ، فما استُدْفِعَتْ شرور الدنيا والآخرة ، ولا استُجْلِبَتْ(١٨٦) مصالحهما بمثل الصلاة . وسرُّ ذلك أن الصلاة صلةٌ بالله عز وجل ، وعلى قدر صلةِ العبد بربه عز وجل ، تفتح عليه من الخيرات أبوابها ، وتُقطع عنه من الشرور أسبابها ، وتفيض عليه مواد التوفيق من ربه عز وجل ، والعافية والصحة ، والغنيمة والغنى ، والراحة والنعيم ، والأفراح والمسرات — كلها محضرةٌ لديه ، ومسارعةٌ إليه .

---

(١٨٣) سورة البقرة – الآية ٤٥ .

(١٨٤) سورة البقرة – الآية ١٥٣ .

(١٨٥) سورة طه – الآية ١٣٢ .

(١٨٦) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « واستُجْلِبَتْ » .

« صَبْرٌ : الصبر نصف الإيمان ، فإنه ماهيَّة مركبة من صبر وشكر ، كما قال بعض السلف : الإيمانُ نصفان : نصفٌ صبرٌ ، ونصفٌ شكرٌ . قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾[187] .

والصبرُ من الإيمان ، بمنزلة الرأس من الجسد ، وهو ثلاثة أنواع : صبرٌ على فرائض الله ، فلا يضيِّعها ، وصبر عن مَحارمه ، فلا يرتكبُها ، وصبر على أقضيته وأقداره ، فلا يتسخَّطُها . ومن آستكمَلَ هذه المراتب الثلاث ، آستكمَل الصبرَ ولذة الدنيا والآخرة ونعيمهما[188] ، والفوزُ والظفَرُ فيهما ـــ لا يَصِل[189] إليه أحدٌ إلا على جِسر الصبر ، كما لا يَصل أحد إلى الجنة إلا على الصراط . قال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه : « خيرُ عيشٍ أدركناه بالصبر » .

وإذا تأملتَ مراتبَ الكمال المكتسب في العالم رأيتَها كلها مَنُوطةً بالصبر ، وإذا تأملتَ النقصان ـــ الذي يُذم صاحبُه عليه ، ويدخل تحت قدرته ـــ رأيته كله من عدم الصبر ، فالشجاعةُ والعفة والجود والإيثارُ ، كلُّه صبرُ ساعة .

فالصَّبْرُ طِلَّسْمٌ عَلَى كَنْزِ ٱلْعُلَا   مَنْ حَلَّ ذَا ٱلطِّلَّسْمَ فَازَ بِكَنْزِهِ[190]

وأكثرُ أسقام البدن والقلب ، إنما تنشأ من عدم الصبر ، فما حُفِظَتْ صحةُ القلوب والأبدان والأرواح ، بمثل الصبر ، فهو الفاروق الأكبر ، والتِّرياق الأعظم ، ولو لم يكن فيه إلا مَعِيَّةُ الله مع أهله ، فإن الله مع الصابرين ، ومحبتُه لهم ، فإن الله يُحب الصابرين ، ونصرُه لأهله ، « فإن النصرَ مع الصبر » ، وإنه خير لأهله : ﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾[191] ، وإنه سبب الفلاح : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ، ٱصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾[192] .

---

(١٨٧) سورة إبراهيم – الآية ٥ .

(١٨٨) في الزاد « ونعيمها » .

(١٨٩) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « فلا يصل » .

(١٩٠) الطِّلَّسْمُ : لفظ يوناني يطلق على كل غامض مبهم كالألغاز والأحاجي . وحَلُّ الطلسم : أي وضحه وفسّره .

(١٩١) سورة النحل – الآية ١٢٦ .

(١٩٢) سورة آل عمران – الآية ٢٠٠ .

* صَبِرٌ : روى أبو داودَ في كتاب المَرَاسيل — من حديث قيس بن رافع القَيْسيِّ [رضي الله عنه][193] — أن رسول الله ﷺ قال : « ماذا في الأَمَرَّيْن من الشفاء ؟ الصبرِ والثُّفَّاءِ » .

وفي السنن لأبي داودَ — من حديث أم سَلَمَةَ — قالت : « دخل عليَّ رسول الله ﷺ ، حين تُوفِّيَ أبو سلمةَ — وقد جعلتُ عليَّ صَبِرًا — فقال : ماذا يا أمَّ سلمةَ ؟ فقلت : إنما هو صَبِرٌ يا رسول الله ، ليس فيه طيبٌ ، قال : إنه يَشُبُّ الوجه ، فلا تجعليه إلا بالليل ، ونَهى عنه بالنهار »[194] .

الصَّبِرُ كثير المنافع — لاسيما الهنديَّ منه — ينقِّي الفُضول الصفراوية التي في الدماغ وأعصاب البصر ، وإذا طُلِيَ على الجبهة والصُّدْغ بدُهن الورد ، نفع من الصداع ، وينفع من قروح الأنف والفم ، ويسهل السَّوداء والماليخُولْيا .

والصبر الفارسي يذكِّي العقل ، ويَشُد[195] الفؤاد ، وينقِّي الفضول الصفراويةَ والبلغميةَ من المعدة إذا شُرِب منه مِلْعَقَتانِ بماء ، ويردُّ الشهوةَ الباطلة والفاسدة . وإذا شُرِب في البرد خِيف أن يُسهل دماً .

* صَوْمٌ : الصوم جُنة من أدواء الروح والقلب والبدن ، منافعهُ تفوت الإحصاء ، وله تأثيرٌ عجيب في حفظ الصحة ، وإذابة الفضلات ، وحبْس النفس عن تناول مؤذِياتها ، ولاسيما إذا كان باعتدال وقصدٍ في أفضلِ أوقاته شرعاً ، وحاجةِ البدن إليه طبعاً ، ثم إن فيه — من إراحة القُوى والأعضاء — ما يحفظ عليها قُواها ، وفيه خاصيةٌ تقتضي إيثاره ، وهي تفريحه للقلب عاجلاً وآجلاً . وهو أنفع شيء لأصحاب الأمزجة الباردة والرطبة ، وله تأثير عظيم في حفظ صحتهم .

وهو يدخل في الأدوية الروحانية والطبيعية ، وإذا راعى الصائم فيه ما ينبغي مراعاتُه طبعاً وشرعاً عَظُمَ انتفاعُ قلبه وبدنه به ، وحبَس عنه الموادَّ الغريبة الفاسدة التي هو مستعد لها ، وأزال الموادَّ الرديئة الحاصلة بحسب كماله ونقصانه ، ويَحفظ الصائمَ مما

---

(١٩٣) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(١٩٤) أخرجه أبو داود فى كتاب الطلاق ، باب فيما تجتنبه المُعْتَدَّةُ فى عدتها [جـ ٢ ص ٢٩٢ ، ٢٩٣] .

(١٩٥) فى الزاد « يُمِدُّ الفؤاد » .

ينبغي أن يتحفظ منه ، ويُعينه على قيامه بمقصود الصوم وسره وعلته الغائيّة ، فإن القصد منه أمر آخر وراءَ تركِ الطعام والشراب ، وباعتبار ذلك الأمر ، آختُصَّ من بين الأعمال بأنه لله سبحانه ، ولمَّا كان وقايةً وجُنةً بيْن العبد وبيْن ما يؤذي قلبه وبدنه عاجلاً وآجلاً ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ، كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[١٩٦] . فأحدُ مقصودَي الصيام : الجُنَّةُ والوقاية ، وهي حِمْيَة عظيمةُ النفع . والمقصودُ الآخر : آجتماعُ القلب والهمِّ على الله تعالى ، وتوفيرُ قُوى النفس على محابِّه وطاعته . وقد تقدم الكلام في بعض أسرار الصوم عند ذكر هديه ﷺ فيه .

حَرْفُ الضَّاد

* ضَبٌّ : ثبت في الصحيحين ـــ من حديث ابن عباس ـــ: أن رسول الله ﷺ سُئل عنه ـــ لمَّا قُدِّم إليه ، وامتنع من أكله ـــ: أحرام هو ؟ فقال : « لا ، ولكنْ لمْ يكن بأرض قومي ، فأجِدني أعافُه » . وأُكل بين يديه وعلى مائدته وهو ينظر . وفي الصحيحين ـــ من حديث ابن عمرَ ، رضي الله عنهما ، عنه ﷺ ـــ أنه قال : « لا أُحِلُّه ، ولا أُحرِّمُه » .

وهو حار يابس ، يقوِّي شهوة الجماع ، وإذا دُقَّ ووُضع على موضع الشَّوْكة آجتذَبَها .

* ضِفْدِعٌ : قال الإمام أحمدُ : « الضِّفدعُ لا يَحِل في الدواء ، نهى رسول الله ﷺ عن قتلها » . يريد الحديثَ الذي رواه في مسنده ـــ من حديث عثمان بن عبد الرحمن رضي الله عنه :ـــ « أن طبيباً ذكر ضِفدعاً في دواءٍ ، عندَ رسول الله ﷺ ، فنهاه عن قتلها » .

قال صاحب القانون : « من أكل من دم الضفدع أو جرمه ورِم بدنه ، وكمِد لونه ، وقذف المنيَّ حتى يموت ، ولذلك ترك الأطباء استعماله خوفاً من ضرره » .

وهي نوعان : مائية وترابيَّة ، والترابية يَقْتُلُ أكْلُها .

---

(١٩٦) سورة البقرة – الآية ١٨٣ .

حرف الطاء

* **طِيبٌ** : ثبت عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « حُبِّب إليَّ من دنياكم النساءُ والطِّيبُ ، وجُعِلَتْ قُرَّةُ عيني في الصَّلاة » . وكان رسول الله ﷺ : يُكثِرُ التطيُّبَ ، وتشتدُّ عليه الرائحة الكريهة ، وتَشقُّ عليه .

والطِّيب غذاء الروح التي هي مطية القُوى ، والقُوى تتضاعف وتزيد بالطيب ، كما تزيد بالغذاء والشراب ، والدَّعَة والسرور ، ومعاشرة الأحبة ، وحدوث الأمور المحبوبة ، وغَيبةِ من تسر غيبتُه ، ويَثقُل على الروح مشاهدتُه ، كالثُّقلاء والبُغَضَاء ، فإن معاشرتهم تُوهِن القُوى ، وتَجلب الهَمَّ والغَمَّ ، وهي للروح بمنزلة الحُمَّى للبدن ، وبمنزلة الرائحة الكريهة ، ولهذا كان مما حبَّب الله سبحانه الصحابَةَ نهيُهم[197] ، عن التخلُّق بهذا الخُلق في معاشرة رسول الله ﷺ ، لتأذِّيه بذلك ، فقال : ﴿ **إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ ؛ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ** ﴾[198] .

والمقصود : أن الطِّيب كان مِنْ أَحَبِّ الأشياء إلى رسول الله ﷺ ، وله تأثيرٌ في حفظ الصحة ، ودفع كثير من الآلام وأسبابها ، بسبب قوة الطبيعة به .

* **طِينٌ** : ورد في أحاديثَ موضوعةٍ لا يصح منها شيء ، مثل حديث : « من أكل الطِّين فقد أعانَ على قتلِ نفسِه » . ومثل حديثٍ : « يا حُمَيْراءُ ، لا تأكلي الطينَ ، فإنه يَعصِم البَطْن ، ويصفِّر اللونَ ، ويُذهب بهاءَ الوجه » .

وكلُّ حديث في الطين فإنه لا يصح ، ولا أصلَ له عن رسول الله ﷺ ، إلا أنه رديءٌ مؤذٍ ، يسُد مجاري العروق ، وهو بارد يابس ، قويُّ التجفيف ، ويمنع آستطلاقَ البطن ، ويُوجب نفْثَ الدم ، وقروحَ الفم .

* **طَلْحٌ** : قال تعالى : ﴿ **وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ** ﴾[199] . قال أكثر المفسرين : « هو المَوز . والمنضودُ هو : الذي قد نُضِد بعضُه على بعض كالمُشْط » . وقيل : « الطلحُ :

---

(١٩٧) في الزاد « بنهيهم » .

(١٩٨) سورة الأحزاب – الآية ٥٣ .

(١٩٩) سورة الواقعة – الآية ٢٩ .

الشجر ذو الشوك ، نُضد مكانَ كل شوكة ثمرةٌ . فثمرُه قد نُضد بعضُه إلى بعض ، فهو مثل الموز » . وهذا القول أصح ، ويكون مَنْ ذَكَرَ الموزَ — من السلف — أراد التمثيل ، لا التخصيص . والله أعلم .

وهو حار رطب ، أجوده النَّضيج الحلو ، ينفع من خشونة الصدر والرئة والسعال ، وقروح الكُلْيَتين والمثانة ، ويُدِر البول ، ويَزيد في المنيّ ، ويحرِّك شهوة الجماع ، ويليِّن البطن ، ويؤكل قبل الطعام ، ويَضر المعدة ، ويزيد في الصفراء والبلغم ، ودَفْعُ ضرره بالسُّكر أو العسل .

• **طَلْعٌ** : قال تعالى : ﴿ **وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ** ﴾(٢٠٠) . وقال تعالى : ﴿ **وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ** ﴾(٢٠١) .

طلعُ النخل : ما يبدو من ثمرته في أول ظهوره ، وقشرُه يسمى : الكُفُرَّى . والنضيدُ : المَنْضود الذي قد نُضِد بعضه على بعض ، وإنما يقال له نضيدٌ مادام في كُفُرَّاه ، فإذا انفتح فليس بنضيد ، وأما الهضيم فهو المنضم بعضُه إلى بعض ، فهو كالنضيد أيضاً ، وذلك يكون قبل تشقُّق الكُفُرَّى عنه .

والطلع نوعان : ذكرٌ وأنثى . والتَّلْقيحُ هو : أن يُؤخذَ من الذكر — وهو مثل دقيق الحِنطة — فيُجعلَ في الأنثى ، وهو : التأبيرُ ، فيكون ذلك بمنزلة اللِّقاح بين الذكر والأنثى .

وقد روى مسلم في صحيحه ، عن طلحةَ بن عُبيد الله ، رضي الله عنه ، قال : « مررتُ مع رسول الله ﷺ في نخلٍ ، فرأى قوماً يُلقِّحون ، فقال : ما يصنعُ هؤلاء ؟ قالوا : يأخُذون من الذكر ، فيجعلونه في الأنثى . قال : ما أظن ذلك يُغني شيئاً . فبلغهم فتركوه ، فلم يَصلُحْ ، فقال النبي ﷺ : إنما هو ظَنٌّ ، فإن كان يُغْني شيئاً فاصنَعوه ، فإنَّما أنا بشرٌ مثلُكم ، وإن الظن يُخطِئُ ويُصيبُ ، ولكنْ ما قلتُ لكم عن الله عز وجل ، فلن أكذب على الله »(٢٠٢) انتهى .

---

(٢٠٠) سورة ق – الآية ١٠ .

(٢٠١) سورة الشعراء – الآية ١٤٨ .

(٢٠٢) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل ، باب وجوب امتثال ماقاله شرعاً دون ماذكره (ﷺ) من معايش الدنيا على سبيل الرأي [جـ ١٥ ص ١١٦ ، ١١٧ بشرح النووي] .

طلعُ النخل ينفع من الباه ، ويَزيد في المُباضَعة ، ودَقيقُ طلعه إذا تحملتْ به المرأةُ قبل الجماع أعان على الحَبَلِ إعانةً بالغة ، وهو في البرودة واليُبوسة فى الدرجة الثانية ، يقوِّي المعدة ويجفِّفها ، ويسكِّن ثائرة الدم مع غلظةٍ وبطءِ هضم .

ولا يحتمله إلا أصحابُ الأمزجة الحارة ، ومن أكثر منه فإنه ينبغي أن يأخذ عليه شيئاً من الجُوَارشات(٢٠٣) الحارة ، وهو يَعقُل الطبع ، ويقوِّي الأحشاء ، والجُمَّارُ يجري مجراه ، وكذلك البلحُ والبُسرُ ، والإكثارُ منه يُضر بالمعدة والصدر ، وربما أورث القُولَنج . وإصلاحُه بالسمن ، أو بما تقدم ذكره .

حرف العين

• عِنَبٌ : في الغَيْلانيَّات ــ من حديث حَبيب بن يَسَار ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما(٢٠٤) ــ قال : « رأيتُ رسول الله ﷺ يأكلُ العِنبَ خَرْطاً » .

قال أبو جعفر العَقيليُّ : « لا أصلَ لهذا الحديث » . قلت : وفيه داودُ بن عبد الجبار أبو سُلَيم الكوفيُّ ، قال يحيى بن مَعين : كان يكذب .

ويُذكر عن رسول الله ﷺ : « أنه كان يُحِبُّ العِنَبَ والبطيخَ » .

وقد ذكر الله سبحانه العنب ــ في ستة مواضع(٢٠٥) من كتابه ــ في جملة نعمه التي أنعم بها على عباده في هذه الدار ، وفي الجنة ، وهو من أفضل الفواكه وأكثرِها منافعَ ، وهو يؤكل رطباً ويابساً ، وأخضر ويانعاً ، وهو فاكهةٌ مع الفواكه ، وقوت مع الأقوات ، وأُدمٌ مع الإدام ، ودواءٌ مع الأدوية ، وشرابٌ مع الأشربة ، وطبعُه طبعُ

---

(٢٠٣) الجَوَارشات : الأدوية المُسخِّنة المُلطِّفة . وقيل : الدواء الذى لم يُحكَم سحقه ، ولم يُطرح على النار ، بشرط تقطيعه رقاقاً . « لفظة فارسية » .
[انظر تذكرة دواد جـ ١ ص ١١٢] .

(٢٠٤) فى الزاد « عنه » .

(٢٠٥) ورد ذِكْرُ العنب فى القرآن الكريم فى أحَدَ عَشَر موضعاً . [انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٤٨٩] .

الحَبَّات : الحرارة والرطوبةُ ، وجيدُه : الكُبَّار المائيُّ ، والأبيضُ أحمدُ من الأسود ، إذا تساويا في الحلاوة ، والمتروكُ بعد قطفه يومين أو ثلاثة ، أحمدُ من المقطوف في يومه ، فإنه مُنفِخ مُطلِق للبطن ، والمُعَلَّقُ حتى يَضْمُرَ قشرهُ جيدٌ للغذاء ، مُقَوٌّ للبدن ، وغذاؤه كغذاء التِّين والزبيب ، وإذا أُلقِيَ عجم العنب كان أكثر تليينا للطبيعة ، والإكثار منه مُصَدِّعٌ للرأس ، ودفعٌ مضرته بالرُّمَّان المُزِّ ، ومنفعةُ العنب يُسَهِّل الطبع ، ويسمن ويَغذو جيده غذاء حسناً .

وهو أحد الفواكه الثلاث ــ التي هي ملوك الفواكه ــ هو والرُّطب والتين .

• **عَسَلٌ** : قد تقدم ذكر منافعه .

قال ابن جُرَيْج : قال الزُّهريُّ : « عليك بالعسل ، فإنه جيد للحفظ » .

وأجودُه أصفاه وأبيضُه ، وألينُه حِدَّةً ، وأصدقه حلاوةً . وما يؤخذ من الجبال والشجر ، له فضلٌ على ما يؤخذ من الخلايا ، وهو بحسب مَرْعَى نَحْله .

• **عَجْوَة** : في الصحيحين ــ من حديث سعد بن أبي وقّاص ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ــ أنه قال : « مَن تصبَّح بسبع تَمَراتٍ عجوةٍ ، لم يضرَّه ذلك اليومَ سمٌّ ولا سحرٌ » .

وفي سنن النَّسائيِّ وابن ماجه ــ من حديث جابر وأبي سعيد ، رضي الله عنهما ، عن النبي ﷺ ــ : « العجوةُ من الجنة ، وهي شفاء من السم ، والكَمْأَةُ من المَنِّ ، وماؤها شفاء للعين »(٢٠٦) .

وقد قيل : إن هذا في عجوة المدينة ، وهي أحد أصناف التمرِ بها ، ومن أنفع تمر الحجاز على الإطلاق ، وهو صِنف كريم ملذ(٢٠٧) ، متين الجسم(٢٠٨) والقوة ، من ألين التمر وأطيبه وألذّه .

---

(٢٠٦) لم أقف عليه عند النسائى . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب الكمأة والعجوة [جـ ٢ ص ١١٤٢] . وأخرجه الترمذى من حديث أبى هريرة فى الطب ، باب ماجاء فى الكمأة والعجوة [جـ ٨ ص ٢٢٥ – ٢٢٧ بشرح ابن العربى] .

(٢٠٧) هكذا فى الزاد ، وهى بمعنى شَهِىّ لآكِلِه . وفى النسخ المطبوعة « ملزّز » أى : قوى متماسك .

(٢٠٨) فى الزاد « للجسم » .

وقد تقدم ذكرُ التمر وطبعه ومنافعه في حرف التاء ، والكلامُ على دفع العجوة للسم والسحر ، فلا حاجة لإعادته .

* عَنْبَرٌ : تقدم في الصحيحين ، من حديث جابر ، في قصة أبي عُبيدةَ وأَكْلِهم من العنبر نصفَ شهر[٢٠٩] وأنهم تزوَّدُوا من لحمه وشائقَ إلى المدينة ، وأرسلوا منه إلى النبي ﷺ . وهو أحد ما يدل على أن إباحة ما في البحر لا يَختص بالسمك ، وعلى أن ميتته حلال .

واعتُرِض على ذلك بأن البحر ألقاه حيًّا ، ثم جَزَر عنه الماء فمات ، وهذا حلال ، فإن موته بسبب مفارقته للماء .

وهذا لا يصح ، فإنهم إنما وجدوه ميتاً بالساحل ، ولم يشاهدوه قد خرج عنه حيًّا ، ثم جزر عنه الماء ، وأيضاً : فلو كان حيًّا لما ألقاه البحر إلى ساحله ، فإنه من المعلوم أن البحر إنما يقذف إلى ساحله الميتَ من حيواناته ، لا الحيَّ منها .

وأيضاً : فلو قُدِّر احتمالُ ما ذكروه ، لم يَجُزْ أن يكون شرطاً في الإباحة ، فإنه لا يُباح الشيءُ مع الشك في سبب إباحته ، ولهذا مَنع النبي ﷺ من أكل الصيد ، إذا وجده الصائد غريقاً في الماء ، للشك في سبب موته : هل هو الآلة ؟ أم الماء ؟.

وأما العنبر الذى هو أحد أنواع الطِّيب ، فهو من أفخر أنواعه بعد المِسْك ، وأخطأ مَنْ قَدَّمَهُ على المِسْك ، وجعله سيدَ أنواع الطِّيب ، وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال فى المسك : « هو أطيب الطيب » . وسيأتي — إن شاء الله تعالى — ذكرُ الخصائص والمنافع التى خُص بها المسكُ ، حتى إنه طيبُ الجنة ، والكُثبانُ — التي هي مقاعدُ الصِّدِّيقين هناك — من مسك لا من عنبر .

والذي غرَّ هذا القائل ، أنه لا يدخله التغيرُّ على طول الزمان ، فهو كالذهب ، وهذا لا يدل على أنه أفضل من المسك ، فإنه بهذه الخاصيَّة الواحدة ، لا يقاوِم ما في المسك من الخواصِّ .

---

(٢٠٩) فى الزاد « شهراً » . والحديث تقدم تخريجه فى حرف السين – مادة « سمك » .

وبعد : فضروبه كثيرة ، وألوانه مختلفة ، فمنه الأبيض والأشهب ، والأحمر والأصفر ، والأخضر ، والأزرق ، والأسود ، وذو الألوان ، وأجوده الأشهب ، ثم الأزرق ، ثم الأصفر . وأردؤه الأسود .

وقد آختلف الناس في عنصره ، فقالت طائفة : هو نبات يَنبُت في قعر البحر ، فيبتلعه بعض دوابّه ، فإذا ثَمِلَتْ منه قذفته رَجِيعاً ، فيقذفه البحر إلى ساحله .

وقيل : طَلٌّ ينزل من السماء في جزائر البحر ، فتُلقيه الأمواج إلى الساحل . وقيل : رَوْثُ دابة بحرية ، تُشبه البقرة . وقيل : بل هو جُفَاء من جُفَاء البحر ، أي : زَبَدٌ .

وقال صاحب القانون : « هو — فيما يُظَنُّ — ينبع من عين في البحر ، والذي يُقال —: إنه زبد البحر ، أو روثُ دابة — بعيدٌ » انتهى .

ومزاجه حار يابس ، مقوٍّ للقلب والدماغ والحواس ، وأعضاء البدن ، نافع من الفالج واللَّقوة ، والأمراض البلغمية ، وأوجاع المعدة الباردة ، والرياح الغليظة ، ومن السدد إذا شُرِبَ أو طُلِيَ به من خارج ، وإذا تُبُخِّرَ به نفع من الزُّكام والصُّداع ، والشَّقِيقة الباردة .

• عُودٌ : العود الهندي نوعان : أحدهما ، يستعمل في الأدوية ، وهو : الكُسْتُ . ويقال له : القُسْط ، وسيأتي في حرف القاف . الثاني : يستعمل في الطيب ويقال له : الألُوَّة .

وقد روى مسلم في صحيحه — عن ابن عمر ، رضي الله عنهما —: « أنه كان يستجمرُ بالألُوَّة غير مُطَرَّاة ، وبكافور يطرح معها ، ويقول : هكذا كان يستجمر رسول الله ﷺ »(٢١٠) . وثبت عنه في صفة نعيم أهل الجنة : « مجامرُهم الألُوَّة »(٢١١) .

---

(٢١٠) أخرجه مسلم فى كتاب الألفاظ من الأدب ، باب استعمال المسك ، وكراهة ردّ الريحان [جـ ١٥ ص ١٠ بشرح النووى] . « ويستجمر بالألُوَّة غير مُطَرَّاة » الاستجمار هنا : استعمال الطيب والتبخّر به . « وغير مُطَرَّاة » أى : غير مخلوطة بغيرها من الطيب .

(٢١١) أخرجه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء ، باب خلق آدم وذريته [جـ ٦ ص ٣٦٢ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها [جـ ١٧ ص ١٧٢ ، ١٧٣ بشرح النووى] .

والمجامر ، جمع « مُجْمَر » ، وهو ما يتجمر به من عود وغيره ، وهو أنواع ، أجودها الهندي ، ثم الصيني ، ثم القماري ، ثم المَنْدَلي ، وأجوده الأسود والأزرق الصُّلب الرزين الدسم ، وأقله جودة ما خف وطفا على الماء ، ويقال : إنه شجر يقطع ويدفن في الأرض سنة ، فتأكل الأرض منه مالا ينفع ، ويبقى عود الطيب لا تعمل فيه الأرض شيئاً ، ويتعفن منه قشره ومالا طِيبَ فيه .

وهو حار يابس في الثالثة ، يفتح السدد ويكسر الرياح ، ويذهب بفضل الرطوبة ، ويقوّي الأحشاء والقلب ويفرّحه ، وينفع الدماغ ، ويقوي الحواس ، ويحبس البطن ، وينفع من سَلَس البول الحادث عن برد المثانة .

قال ابن سمجون(٢١٢) : « العود ضروب كثيرة ، يجمعها اسم الألُوَّة ، ويستعمل من داخل وخارج ، ويتجمّر به مفردًا ومع غيره ، وفي خلط(٢١٣) الكافور به عند التَّجمير معنى طبي ، وهو إصلاح كل منهما بالآخر ، وفي التجمير(٢١٤) مراعاة جوهر الهواء وإصلاحه ، فإنه أحد الأشياء الستة الضرورية ، التي في صلاحها صلاح(٢١٥) الأبدان » .

« عَدَسٌ » : قد ورد فيه أحاديث كلها باطلة على رسول الله ﷺ ، لم يقل منها شيئاً . كحديث : « إنه قُدِّسَ على لسان سبعين نبيًّا »(٢١٦) ، وحديث : « إنه يرق القلب ، ويُغْزِر الدَّمعة ، وإنه مأكول الصالحين » . وأرفع شيء جاء فيه وأصحه : « إنه شهوةُ اليهود التي قدموها على المنِّ والسلوَى » .

وهو قرين الثوم والبصل في الذكر ، وطبعه طبعُ المؤنث بارد يابس ، وفيه قوتان متضادَّتان ، إحداهما : يَعقِل الطبيعة ، والأخرى : يُطلقها ، وقشره حار يابس في

---

(٢١٢) هو : أبو بكر حامد بن سمجون ، طبيب تميز في معرفة الأدوية المفردة ، وله « كتاب » فيها ، ألفه في أيام المنصور الحاجب محمد بن أبي عامر . [انظر الأعلام للزركلي جـ ٢ ص ١٦٦] .

(٢١٣) في الزاد « وفي الخلط للكافور » .

(٢١٤) في الزاد « التَّجَمُّر » .

(٢١٥) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « إصلاح » .

(٢١٦) هكذا في الزاد وفي النسخ المطبوعة « إنه قُدّس فيه سبعون نبيًّا » .

الثالثة ، حِرِّيف مطلق للبطن ، وترياقُه في قشره ، ولهذا كان صَحاحه أنفع من مطحونه ، وأخف على المعدة ، وأقل ضررًا ، فإن لُبَّه بطيء الهضم ، لبرودته ويبوسته .

وهو مولِّد للسوداء ، ويضر بالماليخوليا ضررًا بيِّناً ، ويضر بالأعصاب والبصر .

وهو غليظ الدم ، وينبغي أن يتجنبه أصحاب السوداء ، وإكثارهم منه يولِّد لهم أدواءً رديئة : كالوسواس ، والجذام ، وحمَّى الرِّبع ، ويقلل ضرره السلقُ والإسفاناخ[٢١٧] ، وإكثار الدُّهن ، وأردأ ما أكل بالنمكسود[٢١٨] . وليُتَجَنَّب خلط الحلاوة به ، فإنه يورث سُددًا كبديَّة ، وإدمانه يظلم البصر لشدة تجفيفه ، ويعسِّر البول ، ويوجب الأورام الباردة ، والرياح الغليظة . وأجوده : الأبيض السمين السريع النُّضَاج[٢١٩] .

وأما ما يظنه الجهال أنه كان سماط الخليل الذي يقدمه لأضيافه ، فكذبٌ مُفْتَرى . وإنما حكي الله عنه الضيافة بالشواء[٢٢٠] ، وهو العجل الحنيذ .

وذكر البيهقي عن إسحاق ، قال : « سُئل ابن المبارك عن الحديث الذي جاء في العدس : أنه قُدِّسَ على لسان سبعين نبيًّا . فقال : ولا على لسان نبي واحد ، وإنه لمؤذٍ منفخ ، مَن حدثكم به ؟ قالوا : سَلم بن سالم . فقال : عمَّن ؟ قالوا : عنك . قال : وعني أيضا ؟! » .

***

حَرْفُ الغَيْن

• غَيْثٌ : مذكور في القرآن في عِدَّةِ مواضعَ ، وهو لذيذ الاسم على السمع ، والمُسَمَّى على الروح والبدن ، تبتهج الأسماع بذكره ، والقلوب بوروده ، وماؤه أفضل

---

(٢١٧) الإسفاناخ : مُعَرَّب عن الفارسية ، « اسباناناخ » ، وباليونانية سرماخيوس . وفي المعجم الوسيط هو « السبانخ » . بقل معروف ، ينفع من جميع أمراض الصدر ، والالتهاب والعطش ، وعصارته بالسكر تُذهب اليرقان والحصى وعسر البول وغيرها . [انظر تذكرة داود جـ ١ ص ٤٢] .

(٢١٨) هكذا في الزاد ، وفي تذكرة داود .. والنمكسود : هو اللَّحم إذا جُفِّف نيئاً . وفي النسخ المطبوعة « بالمكسود » .

(٢١٩) في الزاد « النضج » . وكلاهما صواب .

(٢٢٠) هكذا في الزاد – وفي النسخ المطبوعة « بالشَّوِيّ » .

المياه وألطفها ، وأنفعها وأعظمها بركة ، ولا سيما إذا كان من سحاب راعد ، واجتمع في مستنقعات الجبال ، وهو أرطب من سائر المياه ، لأنه لم تَطُلْ مدته على الأرض ، فيكتسبَ من يبوستها ، ولم يخالطْه جوهر يابس ، ولذلك يتغير ويتعفن سريعاً للطافته ، وسرعة انفعاله .

وهل الغيث الرَّبيعي ألطف من الشتوي ، أو بالعكس ؟ فيه قولان :

قال مَن رجَّح الغيث الشتويَّ : حرارة الشمس تكون حينئذ أقلَّ ، فلا تجتذب من ماء البحر إلا ألْطَفَه والجوُّ صافٍ ، وهو خالٍ من الأبخرة الدخانيَّة والغبار المخالط للماء ، وكُل هذا يوجب لُطْفَه وصفاءه ، وخُلوّه من مخالط . وقال(٢٢١) من رجّح الربيعي : الحرارة توجب تحلل الأبخرة الغليظة ، وتوجب رقة الهواء ولطافته ، فيَخِفُّ بذلك الماءُ ، وتَقِلُّ أجزاؤه الأرضية ، وتُصادِفُ وَقْتَ حياةِ النبات والأشجار وطِيبِ الهواء .

وذكر الشافعي ــ رحمه الله ــ عن أنس بن مالك ، رضي الله عنه(٢٢٢) ، قال : « كنا مع رسول الله ﷺ ، فأصابنا مطرٌ ، فَحَسَرَ [رسول الله ، ﷺ](٢٢٣) ثوبَه [عنه](٢٢٤) وقال : إنه حديثُ عهد بربه » . وقد تقدم في هديه في الاستسقاء ، ذكر استمطاره ﷺ وتبرُّكه بماء الغيث عند أول مجيئه .

حرف الفاء

فاتحة الكتاب : وأم القرآن ، والسَّبع المثاني ، والشِّفاءُ التام ، والدواء النافع ، والرُّقْيَةُ التامة ، ومفتاح الغنى والفلاح ، وحافظة القوة ، ودافعة الهم والغم والخوف والحزن ، لمن عرف مقدارها ، وأعطاها حقَّها ، وأحسن ترتيلها(٢٢٥) على دائه ، وعرف وجه الاستشفاء والتداوي بها ، والسرُّ الذي لأجله كانت كذلك .

---

(٢٢١) في الزاد « قال » .

(٢٢٢) في الزاد « عنهما » .

(٢٢٣) مابين المعقوفتين عن الزاد .

(٢٢٤) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٢٥) في الزاد « تنزيلها » .

ولمَّا وقَع بعضُ الصَّحابة على ذلك ، رقى بها اللَّديغ ، فبرأ لوقته ، فقال له النبى ﷺ : « وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّها رُقْيَةٌ » .

ومن ساعده التوفيق ، وأُعِينَ بنور البصيرة – حتى وقف على أسرار هذه السورة ، وما اشتملت عليه من التوحيد ، ومعرفةِ الذات والأسماء والصفات والأفعال ، وإثبات الشرع والقَدر والمعاد ، وتجريد توحيد الربوبية والإلهية ، وكمال التوكل والتفويض إلى مَنْ له الأمر كُلُّه ، وله الحمد كله ، وبيده الخير كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، والافتقار إليه فى طلب الهداية التي هي أصل سعادة الدارين ، وعَلِمَ ارْتباط معانيها بجلب مصالحهما ، ودفع مفاسدهما ، وأن العاقبة(٢٢٦) المُطْلَقَة التامة ، والنِّعْمَةَ الكاملة ، منُوطَةٌ بها ، مَوْقوفة على التحقق بها – أغْنَتْهُ عن كثير من الأدوية والرُّقى ، واستفتح بها من الخير أبوابَه ، ودفَع بِهَا مِنَ الشرِّ أسبابَهُ .

وهذا أمْرٌ يحتاج استحداثَ فِطْرةٍ أُخرى ، وعَقلٍ آخر ، وإيمان آخر ، وَتَاللهِ لا تجدُ مقالةً فاسدةً ، ولا بِدْعةً باطلةً ، إلا وفاتحةُ الكتاب مُتضمِّنة لردها وإبطالها ، بأقرب الطُّرق(٢٢٧) وأصحها وأوضحِها . ولا تجدُ باباً من أبواب المعارف الإلهية وأعمال القلوب وأدويتها من عللها وأسقامها ، إلا وفي فاتحة الكتاب مفتاحُه ، وموضعُ الدلالة عليه ، ولا منزلا من منازل السائرين إلى ربِّ العالمين ، إلا وبدايتُهُ ونهايته فيها .

ولعمرُ الله ، إن شأنها لأعْظَمُ من ذلك ، وهي فوق ذلك ، وما تحقَّق عبدٌ بها ، واعتصَم بها ، وعقَل عَمَّنْ تكلَّم بها ، وأنزلها شفاءً تامًّا ، وعِصْمَةً بالغةً ، ونُورًا مبيناً ، وفهِمَها وفهم لوازِمَها كما ينبغي ، ووقع في بدعة ولا شركٍ ، ولا أصَابَه مرض من أمراض القلوب إلا لماماً(٢٢٨) غير مستقر .

هذا ، وإنها المفتاح الأعظم لكنوز الأرض ، كما أنها المفتاح لكنوز الجنة ، ولكن ليس كل واحد يُحسن الفتح بهذا المفتاح ، ولو أن طُلَّاب الكنوز وقَفوا على سر هذه

---

(٢٢٦) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « العافية » .

(٢٢٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « طريق » .

(٢٢٨) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « إلماماً » .

السورة ، وتحقَّقوا بمعانيها ، وركَّبوا لهذا المفتاح أسناناً ، وأحسنوا الفتح به ــ لوصلوا إلى تناول الكنوز من غير معاوِق ، ولا ممانع .

ولم نقل هذا مجازفةً ، ولا استعارةً ، بل حقيقةً ، ولكنْ لله تعالى حكمةٌ بالغة في إخفاء هذا السر عن نفوس أكثر العالَمين ، كما له حكمة بالغة في إخفاء كنوز الأرض عنهم . والكنوزُ المحجوبة قد آستُخدم عليها أرواحٌ خبيثة شيطانية ، تحول بين الإنس وبينها ، ولا تقهرها إلّا أرواحٌ عُلْوية شريفة ، غالبة لها بحالها الإيماني ، معها منه أسلحةٌ لا تقوم لها الشياطين ، وأكثر نفوس الناس ليست بهذه المَثابة ، فلا يقاوِمُ تلك الأرواح ، ولا يَقْهَرُها ، ولا ينالُ من سلبِها شيئاً ، فإنَّ « مَنْ قَتَل قتيلاً فَلَهُ سَلَبُه » .

• **فَاغِيَةٌ** : هي نَوْرُ الحِناء ، وهي من أطيب الرياحين ، وقد روى البيهقيُّ في كتابه « شُعَب الإيمان » من حديث عبد الله بن بُرِيدَة ، عن أبيه ، رضي الله عنه ، يرفعه : « سَيِّدُ الرَّياحِين ــ في الدنيا والآخرة ــ الفاغية » . وروى فيه أيضاً ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : « كَانَ أَحبَّ الرَّياحِينِ إلى رسول الله ﷺ الفاغِيَةُ » . والله أعلم بحال هذين الحديثين ، فلا نشهدُ على رسول الله ﷺ بمالا نعلم صحته .

وهي معتدلة في الحَر واليُبْس ، فيها بعضُ القَبْضِ . وإذا وضعت بين طيِّ ثياب الصوف حَفِظَتْها من السوس ، وتدخل في مراهم الفالج والتمدد ، ودُهنُها يحلّل الأعضاء ، ويليِّن العصب .

• **فِضَّةٌ** : ثبت « أن رسول الله ﷺ كان خاتَمُه مِنْ فِضَّةٍ ، وفصُّه منه ، وكانت قَبيعةُ سيفه فضة »(٢٢٩) . ولم يصحَّ عنه في المنع من لباس الفضة والتحلِّي بها شيءٌ البتة ، كما صح عنه المنعُ مِن الشُّرْب في آنيتها . وبابُ الآنية أضيق من باب اللِّباس والتَّحلِّي ، ولهذا يُباح للنساء لباساً وحِليةً ، ما يحرُم عليهن استعماله آنية ، فلا يلزم من تحريم الآنية ، تحريم اللباس والحلية ، وفي السنن عنه : « وأمَّا الفِضَّةُ فَالْعَبُوا بِهَا لَعْباً »(٢٣٠) .

---

(٢٢٩) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ، باب خاتم الفضة [جـ ١٠ ص ٣١٨ ، و ص ٣٢٢ من فتح البارى] . وأخرجه أبو داود فى كتاب الجهاد ، باب فى السَّيف يُحَلَّى ، عن أنس بن مالك [جـ ٣ ص ٣٠] . وقبيعة السيف : ماعلى طَرَف مِقْبَضِه من فِضَّة أو حديد .

(٢٣٠) أخرجه أبو داود فى كتاب الخاتم ، باب ماجاء فى الذهب للنساء ، من حديث أبى هريرة ، وآخره « .. ولكن عليكم بالفضة فالعبوا بها » . [جـ ٤ ص ٩٣] .

فالمنع يحتاج إلى دليل يُثبته[٢٣١] ، إمَّا نصٌ أو إجماع ، فإن ثبت أحدهما ، وإلّا ففي القلب من تحريم ذلك على الرجال شيءٌ . والنبي ﷺ أمسك بيده ذهباً وبالأخرى حريرًا ، وقال : « هَذَانِ حَرَامٌ على ذُكُورِ أُمَّتِي ، حِلٌّ[٢٣٢] لإناثهم »[٢٣٣] .

والفضة : سِرٌّ من أسرار الله في الأرض ، وطِلَّسْمُ الحاجات ، وأحسابُ[٢٣٤] أهل الدنيا بينهم ، وصاحبها مَرْمُوقٌ بالعيون بينهم ، مُعَظَّمٌ في النفوس ، مُصَدَّرٌ في المجالس ، لا تُغْلَقُ دونه الأبواب ، ولا تُمَلُّ مجالستُه ولا معاشرتُه ، ولا يُستثقَلُ مكانه ، تشير الأصابعُ إليه ، وتعقِد العيون نِطاقها عليه ، إن قال سُمِعَ قَوْلُه ، وإن شَفَعَ قُبِلَتْ شفاعتُه ، وإن شَهِد زُكِّيتْ شهادتُه ، وإن خَطَبَ فكُفْء لا يُعاب ، وإن كان ذا شيبة بيضاء فهي أجمل عليه من حِلية الشباب .

وهي من الأدوية المفرِّحة ، النافعةِ من الهم والغم والحزن ، وضعف القلب وخفقانه ، وتدخُلُ في المعاجين الكِبار ، وتجتذب بخاصيتها ما يتولَّدُ في القلب من الأخلاط الفاسدة ، خصوصاً إذا أُضيفَتْ إلى العسل المُصَفَّى والزعفران .

ومِزاجُها إلى البرودة واليبوسة[٢٣٥] . ويتولَّد عنها ، من الحرارة والرطوبة ، ما يتولد . والجِنانُ ــ التي أعدها الله عز وجل لأوليائه ، يوم يلقونه ــ أَرْبَعٌ : جنتان من ذهب ، وجنتان من فضة ، آنيتهما ، وحليتهما وما فيهما .

وقد ثبت عنه ﷺ ، في الصحيح ، أنه قال : « الذي يَشْرَبُ في آنِيَةِ الذَّهبِ والفضَّة ، إنما يُجَرْجِرُ في بطنه نار جهنم »[٢٣٦] . وصح عنه ﷺ ، أنه قال : « لا

---

(٢٣١) فى الزاد « يبينه » .

(٢٣٢) هكذا فى الزاد ، وفى سنن ابن ماجه .. وفى النسخ المطبوعة « وحِلٌّ » .

(٢٣٣) أخرجه ابن ماجه فى كتاب اللباس ، باب لبس الحرير والذهب للنساء [جـ ٢ ص ١١٨٩] .

(٢٣٤) فى الزاد « وإحسان » .

(٢٣٥) فى الزاد « اليبوسة والبرودة » .

(٢٣٦) أخرجه البخارى فى الأشربة ، باب آنية الفضة [جـ ١٠ ص ٩٦ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب اللباس والزينة ، باب تحريم استعمال أوانى الذهب والفضة ، من حديث أم سلمة [جـ ١٤ ص ٢٧ بشرح النووى] .

تَشْرَبُوا في آنيةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، ولا تأكلوا في صَحَافِهِما فإنَّهَا لهم في الدُّنْيَا ، ولَكُمْ في الآخِرَة »(٢٣٧) .

فقيل : عِلَّةُ التحريم تضييقُ النقود ، فإنَّهَا إذا اتُّخِذَتْ أوانيَ فاتت الحِكمةُ التي وُضعت لأجلها مِنْ قيام مصالح بني آدمَ ، وقيل : العِلَّةُ الفخر والخُيلاء ، وقيل : العلةُ كسرُ قلوب الفقراء والمساكين ، إذا رأوها وعاينوها .

وهذه العِلَلُ فيها ما فيها ، فإن التعليل بتضييق النقود يَمنع من التَّحَلِّي بها ، وجعلِها سبائكَ ونحوَها ، مما ليس بآنيةٍ ولا نقْدٍ ، والفَخْرُ والخُيَلاء حرام بأي شيء كان ، وكَسْرُ قلوب المساكين لا ضابطَ له ، فإنْ قُلوبَهم تنكسر بالدُّور الواسعة ، والحدائق المعجِبة ، والمراكب الفارهة ، والملابس الفاخرة ، والأطعمة اللذيذة ، وغيرِ ذلك مِنَ المُباحات . وكُلُّ هذه عِلَلٌ منتقَضَة ، إذ توجد العِلَّةُ ويتخلَّف معلولُها .

فالصواب أن العلة ــ والله أعلم ــ ما يُكسِبُ استعمالُها القلبَ ــ مِنَ الهيئة والحالة المنافية للعبودية ــ منافاةً ظاهرة ، ولهذا عَلَّل النبي ﷺ ، بأنها للكفار في الدنيا ، إذ ليس لهم نصيب من العبودية التي ينالون بها في الآخرة [نعيمها](٢٣٨) ، فلا يصلح استعمالها لعبيد الله في الدنيا ، وإنما يستعملها مَن خرج عن عبوديته ، ورضيَ بالدنيا وعاجلها من الآخرة . [والله أعلم](٢٣٩) .

***

حرف القاف

* قُرآنٌ : قال تعالى : ﴿ ونُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٢٤٠) . والصحيح أن « مِنْ » ها هنا لبيان الجنس ، لا للتبعيض . وقال

---

(٢٣٧) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة ، باب الأكل في إناء مُفَضَّض [جـ ٩ ص ٥٥٤ من فتح الباري] . وأخرجه مسلم في كتاب اللباس والزينة ، باب تحريم استعمال الذهب والفضة في الشرب وغيره على الرجال والنساء [جـ ١٤ ص ٣٦ ، ٣٧ بشرح النووي] .

(٢٣٨) مابين المعقوفتين عن الزاد .

(٢٣٩) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٤٠) سورة الإسراء – الآية ٨٢ .

تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، قَدْ جَاءَتْكُم مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ ﴾[٢٤١]

فالقرآنُ هو الشفاء التام من جميع الأدواء القلبية والبدنية ، وأدواءِ الدنيا والآخرة ، وما كلُّ أحَدٍ يُؤَهَّل ولا يُوَفَّق للاستشفاء به ، وإذا أحسن العليل التداويَ به ، ووضعَه على دائه بصدقٍ وإيمان ، وقبولٍ تام ، واعتقادٍ جازم واستيفاءِ شروطه ـــ لم يُقاوِمْه الداء أبدًا .

وكيف تُقاوِمُ الأدواء كلامَ رَبِّ الأرض والسماء ، الذي لو نزل على الجبال لصَدَعَهَا أو على الأرض لقَطَعها ؟! فما من مرضٍ من أمراض القلوب والأبدان ، إلا وفي القرآن سبيل الدَّلالة على دوائه وسببه ، والحِمية منه ، لمن رزقه الله فهماً في كتابه .

وقد تقدم ـــ في أول الكلام على الطب ـــ بيانُ إرشاد القرآن العظيم إلى أصوله ومجامعه ، التي هي حفظُ الصحة ، والحميةُ ، واستفراغُ المؤذي ، والاستدلالُ بذلك على سائر أفراد هذه الأنواع . وأما الأدوية القلبية ، فإنه يذكرها مُفَصَّلةً ويذكر أسباب أدوائها وعلاجها . قال : ﴿ أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ ؟! ﴾[٢٤٢] فمن لم يَشفِهِ القرآنُ فلا شفاه الله ، ومن لم يَكفِه فلا كفاه الله .

• **قِثَّاءٌ** : في السنن ـــ من حديث عبد الله بن جعفر ، رضي الله عنه ـــ : « أن رسول الله ﷺ كان يأكلُ القِثَّاءَ بالرُّطب » . رواه الترمذيُّ وغيره .

القثاء بارد رطب في الدرجة الثانية ، مطفئٌ لحرارة المعدة الملتهبة ، بطيء الفساد فيها ، نافع من وجع المثانة ، ورائحته تنفع من الغَشْي ، وبزرُه يُدِرُّ البول ، وورقهُ إذا اتُّخِذَ ضِمادًا نفع من عضة الكلب .

وهو بطيءُ الانحدار عن المعدة ، وبرده[٢٤٣] مضر ببعضها ، فينبغي أن يُستعملَ معه

---

(٢٤١) سورة يونس – الآية ٥٧ .

(٢٤٢) سورة العنكبوت – الآية ٥١ .

(٢٤٣) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « برده » .

ما يُصلحه ويكسر برودته ورطوبَته ، كما فعل النبي(٢٤٤) ﷺ ، إذ أكله بالرُّطب ، فإذا أُكِلَ بتمر أو زبيب أو عسل ـــ عدَّله .

• **قُسْطٌ وكست** : بمعنى واحد . وفي الصحيحين ـــ من حديث أنس ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ـــ : « خيرُ ما تداوَيْتم به الحِجَامةُ ، والقُسْط البحريُّ » .

وفي المسند ـــ من حديث أُم قيس ، عن النبي ﷺ ـــ: « عليكم بهذا العُودِ الهنديِّ ، فإن فيه سَبْعَةَ أشفِيةٍ ، مِنْها : ذاتُ الجَنْب »(٢٤٥) .

القُسْطُ ضربان(٢٤٦) ، أحدهما : الأبيض الذي يُقَالُ له : البحريُّ . والآخر : الهنديُّ ، وهو أشَدُّهما حرًّا ، والأبيض أَلينهُما ، ومنافعُهما كثيرة جدًّا .

وهما حاران يابسان في الثالثة ، يُنَشِّفان البلغم ، قاطعان للزُّكام ، وإذا شُرِبَا ، نَفَعا من ضعف الكَبِدِ والمَعِدَة ، ومن بردهما ، ومِنْ حُمَّى الدَّوْرِ والرِّبع ، وقطعا وجع الجنب ، ونَفَعَا من السموم ، وإذا طُلِيَ به الوجهُ معجوناً بالماء والعسل قَلَعَ الكَلَفَ . وقال جالينوسُ : « ينفع من الكُزَاز ، ووجَع الجَنْبَيْن ، ويقتل حب القَرَع » .

وقد خَفِيَ على جُهَّال الأطباء نفعُه مِنْ وجَع ذاتِ الجَنْب ، فأنكروه ، ولو ظَفِر هذا الجاهل بهذا النقل عن جالينوس ، نزَّله منزلة النص ، كيف وقد نصّ كثيرٌ من الأطباء المتقدمين ، على أن القُسط يصلح للنوع البلغميِّ من ذات الجنب ؟! . ذكره الخطَّابيُّ عن محمد بن الجَهْم .

وقد تقدم أن طِبَّ الأطباء بالنسبة إلى طِبِّ الأنبياء ، أقلُّ من نسبة طب الطُّرُقِيَّة والعجائز إلى طِب الأطباء ، وأن بَيْنَ ما يُلَقَّى بالوحي وبيْن ما يُلَقَّى بالتجربة والقياس ـــ من الفَرْق ـــ أعظمَ مما بيْن القَدْم والقَرْم(٢٤٧) .

---

(٢٤٤) فى الزاد « كما فعل رسول الله » .

(٢٤٥) وأخرجه البخارى أيضاً فى كتاب الطب ، باب السَّعُوط بالقُسْط الهندى والبحرى [جـ ١٠ ص ١٤٨ من فتح البارى] . وأخرجه أيضاً فى كتاب الطب ، باب ذات الجنب [جـ ١٠ ص ١٧٢] .

(٢٤٦) فى الزاد « نوعان » .

(٢٤٧) القَدْمُ : العَيِيُّ ثقيل الفَهم ، والقَرْمُ : المقَدَّم فى المعرفة ، وتجارب الأمور . وفى الزاد « بين القَدَم والفرق » . والقدم : السابقة فى الأمر . والفَرَق : الخوف والفزع [انظر لسان العرب والمعجم الوسيط] . وما جاء فى النسخ المطبوعة أنسب للمقام .

ولو أن هؤلاء الجهال وجدوا دواءً منصوصاً عن بعض اليهود والنصارى والمشركين ــ من الأطباء ــ لتلقَّوه بالقبول والتسليم ، ولم يتوقفوا عن[٢٤٨] تجربته .

نعمْ ، نحن لا ننكر أن للعادة تأثيرًا في الانتفاع بالدواء وعدمه ، فمن اعتاد دواءً وغذاءً ، كان أنفعَ له وأوفق ممن لم يَعتدْه ، بل ربما لم ينتفع به مَنْ لَمْ يعتدْه .

وكلامُ فضلاء الأطباء ــ وإن كان مطلَقاً ــ فهو بحسب الأمزجة والأزمنة ، والأماكن والعوائد ، وإذا كان التقييد بذلك لا يقدح في كلامهم ومعارفهم ، فكيف يقدح في كلام الصادق المصدوق ؟! ولكن نفوس البشر مركبةٌ على الجهل والظلم ، إلَّا مَن أمدَّه[٢٤٩] الله بروح الإيمان ، ونوَّرَ بصيرته بنور الهُدَى .

* **قَصَبُ السُّكَّرِ** : جاء في بعض ألفاظ السنة الصحيحة في الحَوض : « ماؤه أحلى من السكَّر »[٢٥٠] . ولا أعرف « السكر » في الحديث ، إلا في هذا الموضع .

والسكر حادث لم يتكلم فيه متقدِّمو الأطباء ، ولا كانوا يعرفونه ، ولا يَصِفُونَه في الأشربة ، وإنما يعرفون العسل ، ويُدخلونه في الأدوية .

وقصبُ السكر حار رطب ، ينفع مِن السُّعال ، ويجلو الرطوبة والمَثانة ، وقصبةَ الرئة ، وهو أشد تليناً من السكر ، وفيه معونةٌ على القَيء ، ويُدِرُّ البول ، ويزيد في الباه ، قال عفان بن مسلم الصفَّار : « مَنْ مَصَّ قصب السكر بعد طعامه ، لم يزل يومَه أجمعَ في سرور » انتهى . وهو ينفع من خشونة الصدر والحلق إذا شُوِيَ ، ويولِّد رياحاً دَفْعُها بأن يُقشَّرَ ويُغسل بماء حار .

---

(٢٤٨) في الزاد « على » .

(٢٤٩) في الزاد « أيَّدَهُ » .

(٢٥٠) أخرج الترمذي في كتاب الزهد ، باب ماجاء في صفة الحوض من حديث ثوبان يرفعه : « ... ماؤه – أي ماء الحوض – أشد بياضاً من الثلج وأحلى من العسل ... » [جـ ١ ص ٢٧١ ، ٢٧٢ بشرح ابن العربي] . وهذا الوصف هو المشهور في صفة ماء الحوض ، أما لفظ « السكر » فلم يرد إلا في حديث واحد ، لاصلة له بالحوض ، ورد في كتاب الزهد أيضاً عن أبي هريرة .. وفيه « ... ألسنتهم أحلى من السكر ... » . [جـ ٩ ص ٢٤٦] وفي سنده يحيى بن عبيد الله بن موهب ، وهو مُجَرَّح ومتروك . [انظر الضعفاء الكبير جـ ٤ ص ٤١٥] . وانظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث مادة « سكر » .

والسكر حار رطب على الأصح ، وقيل : بارد ، وأجودُه الأبيض الشفاف الطَّبَرْزَد[٢٥١] . وعَتيقُه ألطف من جديده ، وإذا طُبخ ونُزِعَت رغوتُه سكنَ العطشَ والسُّعالَ . وهو يضر المعدة التي تتولد فيها الصفراءُ ، لاستحالته إليها ، ودفعُ ضرره بماء الليمون ، أو النارَنْج ، أو الرمان اللَّفَّاء[٢٥٢] .

وبعضُ الناس يُفَضِّلُه على العسل ، لِقلَّةِ حرارته ولينه ، وهذا تحامل منه على العسل ، فإن منافع العسل أضعافُ منافع السكر ، وقد جعله الله شفاءً ودواءً ، وإداماً وحلاوةً ، وأين نفعُ السكر من منافع العسل : من تقوية المعدة ، وتليين الطبع ، وإحدادِ البَصر ، وجَلاءِ ظُلمته ، ودفعِ الخوانيق بالغَرغرة به ، وإبرائِه من الفالج واللَّقوَة ، ومن جميع العلل الباردة ، التي تَحْدُثُ في جميع البدن من الرطوبات ، فيجذبُها من قعر البدن ومن جميع البدن ، وحفظِ صحتِه وتسخينِه ، والزيادة في الباه ، والتحليل والجِلاء ، وفتحِ أفواه العروق ، وتنقيةِ المِعَى ، وإحْدارِ الدود ، ومنعِ التخم وغيره من العفن ، والأدم النافع ، وموافقةِ مَن غَلب عليه البلغمُ ، والمشايخ ، وأهلِ الأمزجة الباردة ؟! وبالجملة ، فلا شيء أنفعُ منه للبدن ، وفي العلاج ، وعجن[٢٥٣] الأدوية وحفظِ قواها ، وتقوية المعدة إلى أضعاف هذه المنافع ، فأين للسُّكَّرِ مثلُ هذه المنافع والخصائص ، أو قريبٌ منها ؟!

حَرفُ الكَاف

• **كِتَابٌ لِلحُمَّى** : قال المَرْوَزِيُّ : بَلَغَ أبا عبد الله أني حُمِمْتُ ، فكتب لي من الحُمَّى رقعةً فيها : « بسم الله الرحمنٰ الرحيم ، باسم الله وبالله ، ومحمد[٢٥٤] رسول

---

(٢٥١) الطَّبَرْزَدَ – من السكر والعسل : ماطُبِخَ بِقِشْره من اللبن الحليب حتى ينعقد .. وفيه لطف وتبريد وإصلاح للحلق ، وكسر لسورة الأدوية . [انظر تذكرة داود جـ ١ ص ٢٢٩] .

(٢٥٢) اللَّفَّاء : المقشر ، أو القليل – وبتشديد الفاء : المُكتنز السمين . وفى الزاد « اللفان » ، تحريف .

(٢٥٣) فى الزاد « وعجز » .

(٢٥٤) فى الزاد « محمد » .

الله . ﴿ قُلْنَا : يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ، فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ اللهم ربَّ جبرائيلَ وميكائيلَ وإسرافيلَ ، اشْفِ صاحبَ هذا الكتابِ بحولِكَ وقوَّتِكَ وجَبَرُوتِكَ ، إلهَ الخلق(٢٥٥) . آمين » .

قال المَرْوزيُّ : « وقُرِئ(٢٥٦) على أبي عبد الله ــ وأنا أسمع ــ: [حدثنا](٢٥٧) أبو المُنذر عَمْرُو بن مجمع ، حدثنا يونس بن حِبّانَ ، قال : سألت أبا جعفر محمدَ بن علي ، أَنْ أُعلِّقَ التَّعْويذَ ، قال(٢٥٨) : إن كانْ من كتاب الله أو كلام عن نبي الله ، فَعَلِّقْهُ واستَشْفِ به ما استطعتَ . قلتُ : أكتبُ هذه من حُمَّى الرِّبع(٢٥٩) : باسم الله وبالله ومحمد رسول الله ﷺ إلى آخره ؟ قال : أيْ نعم » .

وذكر [الإمام](٢٦٠) أحمدُ ــ عن عائشة رضي الله عنها ، وغيرها ــ: أنهم سهلوا في ذلك . قال حربٌ : « ولم يشددْ فيه أحمد بن حنبل » . قال أحمد : « وكان ابن مسعود يكرهه كراهةً شديدة جدًّا » . وقال أحمد ــ وقد سُئِل عن التمائم تُعَلَّق بعد نزول البلاء ؟ قال : « أرجو أن لا يكونَ به بأس » . قال الخَلّال : وحدثنا عبد الله بن أحمد ، قال : « رأيت أبي يكتب التعويذَ للذي يفزَع ، وللحُمَّى بعد وقوع البلاء » .

كتاب لعُسْر الولادة : قال الخَلّال : حدثني عبد الله بن أحمد ، قال : رأيتُ أبي يكتب للمرأة إذا عَسُرَ عليها ولادتها ــ في جامٍ أبيضَ ، أو شيء نظيف ــ يكتب حديث ابن عباس ، رضي الله عنهما(٢٦١) : « لا إله إلا الله الحليم الكريم ، سبحان الله ربِّ العرش العظيم » ، ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾(٢٦٢) ، ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ

---

(٢٥٥) فى الزاد « الحق » .

(٢٥٦) فى الزاد « وقرأ » .

(٢٥٧) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٥٨) فى الزاد « فقال » .

(٢٥٩) هكذا فى الزاد . وقد تقدم شرحها . وفى النسخ المطبوعة « الربع » تصحيف .

(٢٦٠) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٦١) فى الزاد « عنه » .

(٢٦٢) سورة الفاتحة – الآية الثانية .

يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾(٢٦٣) ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ ، لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ، بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(٢٦٤) .

قال الخلّال : أنبأنا أبو بكر المَرْوزيُّ : « أن أبا عبد الله جاءه رجل ، فقال : يا أبا عبد الله ، تكتبُ لامرأة قد عَسُرَ عليها ولدها منذ يومين ؟ فقال : قل له يَجِيءُ بجامٍ واسع وزعفران ، ورأيتُهُ يكتب لغير واحد » . ويذكر عن عِكرمةَ عن ابن عباس ، قال : « مر عيسى ـــ صلّى الله على نبيّنا وعليه وسلم ـــ على بقرة ، وقد(٢٦٥) آعترَض ولدُها في بطنها ، فقالت : يا كلمةَ الله ، آدع الله لي أن يُخَلِّصني مما أنا فيه . فقال : يا خالقَ النفس من النفس ، ويا مخلِّصَ النفس من النفس ، ويا مُخْرِجَ النفس من النفس : خلِّصهْا . قال : فرمتْ بولدها ، فإذا هي قائمةٌ تَشَمُّه ، قال : فإذا عَسُرَ على المرأة ولدُها ، فاكتبْه لها » .

وكلُّ ما تقدم من الرُّقَي ، فإن كتابته نافعة ، ورخَّص جماعةٌ من السلف في كتابة بعض القرآن وشُرْبه ، وجعَلَ ذلك من الشفاء الذي جعل الله فيه .

كتاب آخرُ لذلك : يُكتب في إناء نظيف : ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ، وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ، وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ، وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾(٢٦٦) ، وتشرب منه الحامل ، ويُرَشُّ على بطنها .

كتاب للرُّعاف : كان شيخ الإسلام ابن تيْمِية ـــ رحمه الله(٢٦٧) يكتب على جبهته : وَقِيلَ : ﴿ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ، وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ، وَغِيضَ الْمَاءُ ، وَقُضِيَ الْأَمْرُ ﴾(٢٦٨) . وسمعته يقول : « كتبتُها لغير واحد ، فبرأ » ، فقال : « ولا يجوز كتابتُها بدم الرَّاعِف ، كما يفعله الجُهّال ، فإن الدم نجسٌ ، فلا يجوز أن يُكتبَ به كلامُ الله تعالى » .

---

(٢٦٣) سورة النازعات – الآية ٤٦ . وفى الزاد أتى بالآية الأخيرة من سورة الأحقاف مكان هذه الآية .

(٢٦٤) سورة الأحقاف – الآية ٣٥ . وفى الزاد انتهت الآية عند لفظ « بلاغ » .

(٢٦٥) فى الزاد « قد » .

(٢٦٦) سورة الانشقاق – الآيات من ١ – ٤ .

(٢٦٧) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « قدس الله روحه » .

(٢٦٨) سورة هود – الآية ٤٤ .

كتاب آخر له : خرج موسى عليه السلام برداء ، فوجد منبَعاً فسدَّه[٢٦٩] بردائه . ﴿ يَمْحُو ٱللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِنْدَهُ أُمُّ ٱلْكِتَابِ ﴾[٢٧٠] .

كتاب آخر للحَزَاز : يُكتب عليه : ﴿ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ﴾[٢٧١] بحول الله وقوته .

كتاب آخر له : عندَ اصفرار الشمس ، يُكتب عليه : ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا ، ٱتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُم كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ، وَٱللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[٢٧٢] .

كتاب آخر للحُمَّى المثلَّثة : يكتب على ثلاث ورقات لطافٍ : « باسم الله فَرَّتْ ، باسم الله مَرَّتْ ، باسم الله قَلَّتْ » ، ويأخذ كلَّ يوم ورقةً ، ويجعلها في فمه ، ويبتلعه بماء .

كتاب آخر لِعِرْق النَّسا : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اَللَّهم ربَّ كل شيء ، وَمَليكَ كل شيء ، وخالقَ كل شيء ، أنت خلقتَني ، وأنت خلقت عرقَ النَّسا فيَّ[٢٧٣] ، فلا تُسلِّطْهُ عليَّ بأذًى ، ولا تُسَلِّطْني عليه بقطع ، واشفِني شفاءً لا يغادرُ سقماً ، لا شافيَ إلا أنت » .

كتاب للعِرْقِ الضارب : روى الترمذيُّ في جامعه ـــ من حديث ابن عباس ، رضي الله عنهما ـــ : « أن رسول الله ﷺ كان يعلِّمُهم من الحُمَّى ومن الأوجاع كلِّها ، أن يقولوا : باسم الله الكبير ، أعوذ بالله العظيم ، من شر [كُل][٢٧٤] عِرْقٍ نعَّارٍ ، ومن شر حرِّ النار » .

---

(٢٦٩) في الزاد « فوجد شيئاً فشده » أي لفّه وأصلحه .

(٢٧٠) سورة الرعد – الآية ٣٩ .

(٢٧١) سورة البقرة – الآية ٢٦٦ .

(٢٧٢) سورة الحديد – الآية ٢٨ .

(٢٧٣) في الزاد « وأنت خلقت النَّسا فلا ... » .

(٢٧٤) مابين المعقوفتين عن الزاد .

كتاب لوجع الضرس : يُكتب على الخدّ الذي يلي الوجع : بسم الله الرحمن الرحيم ، ﴿ **قل : هُوَ ٱلَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَارَ وَٱلْأَفْئِدَةَ ، قَلِيلاً ما تَشْكُرُونَ** ﴾[٢٧٥] . وإن شاء كتب : ﴿ **وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ، وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ** ﴾[٢٧٦] .

كتاب للخُرَّاج : يكتب عليه : ﴿ **وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ، فَقُلْ : يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً، فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً، لَاتَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً** ﴾[٢٧٧] .

* **كَمْأَةٌ** : ثبت عن النبي ﷺ ، أنه قال : « الكمأة من المَنِّ ، وماؤها شفاءٌ للعين »[٢٧٨] أخرجاه في الصحيحين .

قال ابن الأعرابي : « الكمأة جمع ، واحده « كَمْء » . وهذا خلاف قياس العربية ، فإن ما بينه وبين واحده التاءُ ، فالواحد منه بالتاء . وإذا حذفت كان للجمع ، وهل هو جمع ؟ أو اسم جمع ؟ على قولين مشهورين ، قالوا : ولم يخرج عن هذا إلا حرفان : كمأة وكَمْء ، وخَبْأة وخَبء »[٢٧٩] . وقال غير ابن الأعرابي : « بل هي على القياس : الكمأة للواحد ، والكمءُ للكثير » وقال غيرهما : « الكمأة تكون واحدًا وجمعاً » .

واحتج أصحاب القول الأول : « بأنهم قد جمعوا (كمأ) على (أكمؤ) ، قال الشاعر :

ولقد جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وَعَسَاقِلاً ... وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عن بَنَاتِ الأَوْبَرِ[٢٨٠] .

---

(٢٧٥) سورة المُلك - الآية ٢٣ .

(٢٧٦) سورة الأنعام - الآية ١٣ .

(٢٧٧) سورة طه - الآيات من ١٠٥ - ١٠٧ .

(٢٧٨) أخرجه البخارى فى كتاب الطب ، باب المَنّ شفاء للعين [جـ ١٠ ص ١٦٣ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الأشربة ، باب فضل الكمأة ومداواة العين بها [جـ ١٤ ص ٣ - ٥ بشرح النووى] .

(٢٧٩) فى الزاد « وجبأة وجبء » .

(٢٨٠) جنيتك : أى جنيت لك . وعساقل : جمع عُسْقول ، وهو ضرب من الكمأة أبيض اللون جيد . وبنات الأوبر : نوع صغير ردىء من الكمأة له زغب بلون التراب .

وهذا يدل على أن كَمْأ[٢٨١] مفرد ، وكَمْأة جمع .

والكمأة تكون في الأرض من غير أن تزرع ، وسميت كمأةً لاستتارها ، ومنه « كَمَأ الشهادة » : إذا سَتَرَهَا وأخفاها . والكمأة مختفية[٢٨٢] تحت الأرض ، لا ورق لها ولا ساق .

ومادتها من جوهر أرضي بخاريٌّ ، محتقن في الأرض نحو سطحها ، يُحتقن ببرد الشتاء ، وتنمِّيه أمطار الربيع ، فيتولد ويندفع نحو سطح الأرض متجسدًا ، ولذلك يقال لها : جُدَرِيُّ الأرض ، تشبيهاً بالجدري في صورته ومادته ، لأن مادته رطوبة دموية تندفع[٢٨٣] عند سن الترعرع في الغالب ، وفي ابتداء استيلاء الحرارة ونماء القوة .

وهي مما يوجد في الربيع ، ويؤكل نيئاً ومطبوخاً ، وتسميها العرب نباتَ الرعد ، لأنها تكثر بكثرته ، وتنفطر عنها الأرض ، وهي من أطعمة أهل البوادي ، وتكثر بأرض العرب ، وأجودها ما كانت أرضها رمليةً قليلة الماء ، وهي أصناف منها : صِنف قتَّال يضرب لونه إلى الحُمرة ، يحدث [لأجله][٢٨٤] الاختناق .

وهي باردة رطبة في الدرجة الثالثة ، رديئة للمعدة ، بطيئة الهضم ، وإذا أدمنت أورثت القُولَنْجَ والسكتة والفالج ، ووجع المعدة ، وعسر البول ، والرطبة أقل ضررًا من اليابسة ، ومَن أكلها فليدفنها في الطين الرطب ، ويَسلِقها بالماء والملح والصَّعْتر ، ويأكلها بالزيت والتوابل الحارة ، لأن جوهرها أرضيٌّ غليظ ، وغذاءها[٢٨٥] رديء ، لكنْ فيها جوهر مائيٌّ لطيف يدل على خفتها ، والاكتحال بها نافع من ظلمة البصر والرمد الحار ، وقد اعترف فضلاء الأطباء بأن ماءها يجلو العين ، وممن ذكره المسيحيُّ وصاحب القانون ، وغيرهما .

---

(٢٨١) فى الزاد « كم » .

(٢٨٢) فى الزاد « مخفية » .

(٢٨٣) فى الزاد « فتندفع » .

(٢٨٤) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٨٥) فى الزاد « وغذاؤها » . مرفوعة على الابتداء .

وقوله ﷺ : « الكَمْأة من المَنِّ » ، فيه قولان :

أحدهما : أن المن الذي أنزل على بني إسرائيل لم يكن هذا الحلوَ فقط ، بل أشياءَ كثيرة منَّ الله عليهم بها من النبات الذي يوجد عفوًا من غير صنعة ، ولا علاج ، ولا حرث . فإن « المَنَّ » مصدر بمعنى المفعول ، أي : ممنون به ، فكل ما زرقه الله العبد عفوًا بغير كسب منه ولا علاج ، [فهو مِنْ مَنِّ الله تعالى عليه ، لأنه لم يشبه كسب العبد ، ولم يكدره تعب العمل][٢٨٦] فهو مَنٌّ محض ، وإن كانت سائر نعمه مَنًّا منه على عبده ، فخص منها مالا كسب له فيه ولا صُنْعَ ، باسم المَنِّ ، فإنه مَنٌّ بلا واسطة العبد ، وجعل سبحانه قوتهم بالتِّيه الكَمْأةَ ، وهي تقوم مقام الخبز ، وجعل أُدمهم السَّلوى ، وهو يقوم مقام اللحم ، وجعل حَلواهم الطَّلَّ الذي ينزل على الأشجار ، [وهو][٢٨٧] يقوم لهم مقام الحلوى ، فكمل عيشهم ، وتأمل قوله ﷺ : « الكمأة من المنِّ الذي أنزله[٢٨٨] الله على بني إسرائيل » فجعلها من جملته وفردًا من أفراده . والترنْجبين ــ الذى يسقط على الأشجار ــ نوع من المَنِّ ، ثم غلب استعمال المَنِّ عليه عُرْفاً حادثاً .

والقول الثاني : أنه شَبَّهَ الكَمْأة بالمَنِّ المنزل من السماء ، لأنه يُجْمَعُ من غير تعب ولا كُلْفَة ، ولا زرع بزر ولا سقي .

فإن قلت : فإذا كان[٢٨٩] هذا شأن الكمأة ، فما بال هذا الضرر فيها ؟ ومن أين أتاها ذلك ؟

فاعلم أن الله سبحانه أتقن كل شيء صُنْعَه ، وأحسن كل شيء خلقه ، فهو ــ عند مبدأ خلقه ــ بريءٌ من الآفات والعِلل ، تامُّ المنفعة لما هيِّئَ وخُلِق [له][٢٩٠] . وإنما تعرض له الآفات ــ بعد ذلك ــ بأمور أُخَر ، من مجاورة ، أو امتزاج واختلاط ، أو

---

(٢٨٦) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٨٧) ما بين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٨٨) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « أنزل » .

(٢٨٩) فى الزاد « فإن كان » .

(٢٩٠) مابين المعقوفتين عن الزاد .

أسباب أُخَرَ تقتضي فساده ، فلو تُرِكَ على خلقته الأصلية ، من غير تعلق أسباب الفساد به ، لم يفسد .

ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه ، يعرف أن جميع الفساد — في جوه ونباته وحيوانه ، وأحوال أهله — حادث بعد خلقه ، بأسباب اقتضت حدوثه ، ولم تزل أعمال بني آدَم ومخالفتُهم للرسل تُحدث لهم ، من الفساد العام والخاص ، ما يجلب عليهم — من الآلام والأمراض والأسقام والطواعين ، والقحوط والجدوب ، وسلب بركات الأرض وثمارها ونباتها ، وسلب منافعها أو نقصانها — أمورًا متتابعة يتلو بعضها بعضاً .

فإن لم يتسع علمك لهذا ، فاكتفِ بقوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ ﴾[٢٩١] ، وَنَزِّلْ هذه الآية على أحوال العالم ، وطَابِقْ بين الواقع وبينها ، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعِلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان ، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة ، بعضها آخذ برقاب بعض . وكلما أحدث الناس ظُلماً وفُجورًا أحدث لهم ربهم — تبارك وتعالى — من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم ، وأهويتهم ومياههم ، وأبدانهم ، وخلقهم ، وصورهم ، وأشكالهم — وأخلفهم[٢٩٢] من النقص والآفات ، ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم .

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم ، كما كانت البركة فيها أعظم . وقد روى الإمام أحمد بإسناده : « أنه وجد في خزائن بعض بني أمية ، صُرَّة فيها حنطة أمثال نوى التمر ، مكتوب عليها : هذا كان ينبت أيام العدل » وهذه القصة ذكرها في مسنده على أثر حديث رواه .

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة ، بقية عذاب عُذبت به الأمم السالفة ، ثم بقيت منها بقية مُرصدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم ، حكماً قسطاً وقضاءً عدلا ، وقد

---

(٢٩١) سورة الروم – الآية ٤١ .

(٢٩٢) في الزاد « وأخلاقهم » .

أشار النبي ﷺ إلى هذا ، بقوله في الطاعون : « إنه بقية رجز – أو عذاب – أرسل على بني إسرائيل » .

وكذلك سلط الله – سبحانه وتعالى – الريحَ على قوم [عاد][٢٩٣] سبعَ ليال وثمانية أيام ، ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام ، و في نظيرها[٢٩٤] عظة وعبرة .

وقد جعل الله سبحانه أعمال البرِّ والفاجر مقتضيات لآثارها في هذا العالم ، اقتضاء لابد منه ، فجعل منع الإحسان والزكاة والصدقة ، سبباً لمنع الغيث من السماء والقحط والجدب ، وجعل ظلم المساكين ، والبخس في المكاييل والموازين ، وَتَعَدِّى القوي على الضعيف – سبباً لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استُرْحِموا ، ولا يعطفون إن استُعْطِفُوا ، وهم – في الحقيقة – أعمال الرعايا ، ظهرت في صور ولاتهم ، فإن الله سبحانه – بحكمته وعدله ، يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبهم[٢٩٥] فتارة بقحط وجدب ، وتارة بِعَدُوٍّ ، وتارة بولاة جائرين ، وتارة بأمراض عامة ، وتارة بهموم وآلام وغموم تحصرها[٢٩٦] نفوسهم لا ينفكون عنها ، وتارة بمنع بركات السموات[٢٩٧] والأرض عنهم ، وتارة بتسليط الشياطين عليهم ، تَؤُزُّهُم إلى أسباب العذاب أَزًّا ، لتحق عليهم الكلمة ، وليصير كل منهم إلى ما خلق له .

والعاقل يسيِّر بصيرته بين أقطار العالم ، فيشاهده ، وينظر مواقع عدل الله وحكمته ، وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة ، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون ، وإلى دار البوار صائرون ، والله بالغ أمره ، لا معقِّب لحكمه ، ولا رادَّ لأمره . وبالله التوفيق .

وقوله ﷺ في الكمأة : « وماؤها شفاء للعين » فيه ثلاثة أقوال :

---

(٢٩٣) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٢٩٤) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أو في نظيرها » .

(٢٩٥) في الزاد « تناسبها » .

(٢٩٦) في الزاد « تحصرها » .

(٢٩٧) في الزاد « السماء » .

أحدها : أن ماءها يُخلط في الأدوية التي يعالج بها العين ، لا أنه يستعمل وحده . ذكره أبو عبيد .

الثاني : أنه يستعمل بَحْتاً بعد شَيِّها ، واستقطار مائها ، لأن النار تلطفه وتنضجه ، وتذيب فضلاته ورطوبته المؤذية ، ويبقى النافع[٢٩٨] .

الثالث : أن المراد بمائها الماء الذى يحدث به من المطر ، وهو أول قطر ينزل إلى الأرض ، فتكون الإضافة إضافة اقتران ، لا إضافة جزء ذكره ابن الجوزي ، وهو أبعد الوجوه وأضعفها .

وقيل : إن استعمل ماؤها لتبريد ما في العين ، فماؤها مجرداً شفاء ، وإن كان لغير ذلك فمركب مع غيره .

وقال الغافقيُّ : « ماء الكمأة أصلح الأدوية للعين إذا عُجن به الإثمد ، واكتحل به . ويقوِّي أجفانها ، ويزيد الروح الباصرة قُوَّة وَحِدَّة ، ويدفع عنها نزول النوازل » .

كَبَاثٌ : في الصحيحين ـــ من حديث جابر بن عبد الله ، رضي الله عنه ـــ قال : « كنا مع رسول الله ﷺ نجني الكباث ، فقال : عليكم بالأسود منه ، فإنه أطيبه »[٢٩٩] .

الكباث (بفتح الكاف والباء الموحدة المخففة ، والثاء المثلثة) : ثمر الأراك ، وهو بأرض الحجاز ، وطبعة حار يابس ، ومنافعه كمنافع الأراك ، يقوي المعدة ويُجيد الهضم ، ويجلو البلغم ، وينفع من أوجاع الظهر ، وكثير من الأدواء ، وقال[٣٠٠] ابن جُلْجُل : « إذا شرب طبيخه[٣٠١] أدرَّ البول ، ونقى المثانة » . وقال ابن رضوان : « يقوي المعدة ، ويمسك الطبيعة » .

---

(٢٩٨) فى الزاد « وتبقى المنافع » .

(٢٩٩) أخرجه البخارى فى الأطعمة ، باب الكباث ، وهو ورق الأراك [جـ ٩ ص ٥٧٥ ، ٥٧٦ من فتح البارى] .
وأخرجه مسلم فى كتاب الأشربة ، باب فضيلة الأسود من الكباث [جـ ١٤ ص ٥ بشرح النووى] .

(٣٠٠) فى الزاد « قال » .

(٣٠١) فى الزاد « طحينه » .

كَتَمٌ : روى البخارى في صحيحه ، عن عثمان بن عبد الله بن مَوْهب ، قال : « دخلنا على أم سلمة ، رضي الله عنها ، فأخرجت إلينا شعرًا من شعر رسول الله ﷺ ، فإذا هو مخضوب بالحناء والكَتَم »[٣٠٢] . وفي السنن الأربعة عن النبي ﷺ ، أنه قال : « إن أحسن ما غَيَّرْتُم به الشَّيْبَ ، الحِناءُ والكَتم »[٣٠٣] .

وفي الصحيحين – عن أنس رضي الله عنه –: « أن أبا بكر ، رضي الله عنه اختضب بالحناء والكتم » . وفي سنن أبي داود ، عن ابن عباس ، رضي الله عنهما ، قال : « مرَّ على النبي ﷺ رجلٌ قد خضب بالحناء ، فقال : ما أحسن هذا ! فمرَّ آخرُ قد خضب بالحناء والكتم ، فقال : هذا أحسن من هذا . فمر آخر قد خَضَب بالصفرة ، فقال[٣٠٤] هذا أحسن من هذا كله »[٣٠٥] .

قال الغافقيُّ : « الكتم نبت ينبت بالسهول ، ورقه قريب من ورق الزيتون ، يعلو فوق القامة ، وله ثمر قدر حب الفُلفُل في داخله نَوى ، إذا رُضِخَ اسود ، وإذا استُخرِجَتْ عصارة ورقه ، وشرب منها قَدْرُ أوقية قَيَّأ قيئاً شديدًا ، وينفع من عضة الكلب ، وأصله إذا طُبِخَ بالماء كان منه مدادٌ يُكتب به » . وقال الكِنديُّ : « بزر الكتم إذا اكتحِل به حلل الماء النازل في العين وأبرأها » .

وقد ظن بعض الناس أن الكتم هو الوَسْمة ، وهي ورق النِّيل ، وهذا وَهَمٌ ، فإن الوسمة غير الكَتم . قال صاحب الصحاح : « الكتم (بالتحريك) : نبت يُخْلط بالوَسْمَة ، يُختضَب به » . قيل : والوَسْمة نبات له ورق طويل يضرب لونه إلى الزُّرقة ، أكبر من ورق الخلاف ، يشبه ورق اللُّوبياء[٣٠٦] وأكبر منه ، يُؤْتَى به من الحجاز واليمن .

---

(٣٠٢) أخرجه البخارى فى كتاب اللباس ، باب مايُذكر فى الشيب [جـ ١٠ ص ٣٥٢ من فتح البارى] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب اللباس ، باب الخضاب بالحناء [جـ ٢ ص ١١٩٦ ، ١١٩٧] .

(٣٠٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الترجُّل ، باب فى الخضاب [جـ ٤ ص ٨٥] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب اللباس ، باب الخضاب بالحناء [جـ ٢ ص ١١٩٦] . وأخرجه الترمذى أيضاً فى أبواب اللباس ، باب ماجاء فى الخضاب [جـ ٧ ص ٢٢٥ بشرح ابن العربى] وأخرجه النسائى فى كتاب الزينة ، باب الخضاب بالحناء والكتم [جـ ٨ ص ١٣٩ ، ١٤٠ بشرح السيوطى] .

(٣٠٤) هكذا فى الزاد وفى سنن أبى داود . وفى النسخ المطبوعة « وقال » .

(٣٠٥) أخرجه أبو داود فى كتاب الترجل ، باب ماجاء فى خضاب الصفرة [جـ ٤ ص ٨٦] .

(٣٠٦) فى الزاد « اللوبيا » .

فإن قيل : قد ثبت في الصحيح ، عن أنس ، رضي الله عنه ، أنه قال : « لم يختضب النبي ﷺ » .

قيل : قد أجاب [الإمام][307] أحمد بن حنبل عن هذا ، وقال : « قد شهد به غير أنس – رضي الله عنه – على النبي ﷺ : أنه خضب ، وليس مَنْ شهد ، بمنزلة مَنْ لم يشهد » . فأحمد أثبت خضاب النبي ﷺ – ومعه جماعة من المحدثين – ومالك أنكره .

فإن قيل : قد[308] ثبت في صحيح مسلم النهيُ عن الخِضابِ بالسواد ، في شأن أبي قحافةَ ، لمَّا أُتِيَ به ، ورأسُه ولحيتُه كالثَّغَامة بياضًا ، فقال : « غيِّروا هذا الشَّيْبَ ، وجنِّبوه السَّوادَ » . والكَتَمُ يُسَوِّدُ الشَّعر

فالجواب من وجهين ، أحدهما : أن النهي عن التسويد البحتِ ، فأمَّا إذا أُضيف إلى الحناء شيءٌ آخرُ ـــ كالكَتَم ونحوه ـــ فلا بأس به ، فإن الكَتَم والحناء يجعل الشعر بَيْنَ الأحمر والأسود ، بخلاف الوَسْمَة ، فإنها تجعله أسْوَدَ فاحماً . وهذا أصح الجوابين .

الجواب الثاني : أن الخضاب بالسواد المنهيّ عنه خضابُ التدليس ، كخضاب شعر الجارية والمرأةِ الكبيرة ، تغر الزوج والسيد بذلك ، وخضابِ الشيخ يغر المرأة بذلك ، فإنه من الغش والخداع ، فأما إذا لم يتضمن تدليساً ولا خداعاً ، فقد صح عن الحسن والحسين ، رضي الله عنهما أنهما كانا يخضبان بالسواد ، ذكر ذلك ابن جرير عنهما ، في كتاب تهذيب الآثار ، وذكره عن عثمانَ بن عفان ، وعبد الله بن جعفر ، وسعد بن أبي وقاص ، وعقبةَ بن عامر ، والمغيرة بن شُعْبَةَ ، وجرير بن عبد الله ، وعمرو بن العاص [رضي الله عنهم أجمعين][309] . وحكاه عن جماعة من التابعين ، منهم : عمرو بن عثمانَ ، وعلي بن عبد الله بن عباس ، وأبو سَلَمةَ بن عبد الرحمن ، وعبد الرحمن بن الأسود ، وموسى بن طلحةَ ، والزهريُّ ، وأيوبُ ، وإسماعيلُ بن معد يكرب [رضي الله عنهم أجمعين] وحكاه ابن الجوزيُّ عن محارب بن دِثَار ، ويزيدَ ، وابن جُريج ، وأبي يوسفَ ، وأبي إسحاق ، وابن أبي ليلى ، وزياد بن عَلاقةَ ، وغَيلانَ بن جامع ، ونافع ابن جُبير ، وعمرو بن علي المُقَدَّميّ ، والقاسم بن سلَّام [رضي الله عنهم أجمعين] .

---

(٣٠٧) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٣٠٨) فى الزاد « فقد » .

(٣٠٩) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد فى المواضع الثلاثة .

* كَرْمٌ : شجرة العنب ، وهي الحَبَلَةُ ، ويكره تسميتها كرماً ، لما رَوَى مسلم في صحيحه ، عن النبي ﷺ ، أنه قال : « لا يَقُولَنَّ أحدكم للعنب الكَرْم ، الكرمُ : الرجل المسلم » ، وفي رواية : « إنما الكرم : قلبُ المؤمن » وفي أخرى : « لا تقولوا : الكرمُ ، وقولوا : العنبُ والحَبَلة » .

وفي هذا معنيان ، أحدهما : أن العرب كانت تسمي شجرة العنب الكرمَ ، لكثرة منافعها وخيرها ، فكَرِهَ النبي ﷺ تسميتَها باسْمٍ يُهَيِّج النفوس على محبتها ومحبة ما يُتَّخذُ منها مِنَ المسكر ، وهو أُمُّ الخبائث ، فكره أن يُسَمَّى أصلُه بأحسن الأسماء وأجمعها للخير .

والثاني : أنه من باب قوله : « ليس الشديد بالصُّرعة ، وليس المسكين بالطوَّاف » ، أي : أنكم تسمون شجرة العنب كَرْماً لكثرة منافعه ، وقلب المؤمن أو الرجل المسلم أولى بهذا الاسم منه ، فإن المؤمن خير كلُّه ونفع ، فهو من باب التنبيه والتعريف لما في قلب المؤمن من الخير والجود ، والإيمان والنور ، والهدى والتقوى ، والصفاتِ التي يستحق بها هذا الاسم أكثر من استحقاق الحَبَلَة له .

وبعد ، فقوةُ الحَبَلَة باردة يابسة ، وورقها وعلائقها وعُروشها مبردة[٣١٠] في آخر الدرجة الأولى ، وإذا دُقَّتْ وضُمِّدَ بها من الصداع سكنته ، ومن الأورام الحارة ، والتهاب المعدة .

وعُصارة قضبانه إذا شُرِبَتْ سكنت القيء ، وعقَلت البطن ، وكذلك إذا مُضِغَت قلوبها الرطبة ، وعصارة ورقها تنفع من قروح الأمعاء ، ونفث الدم وقيئه ، ووجع المعدة . ودمعةُ[٣١١] شجره — الذي يحمل على القضبان — كالصمغ ، إذا شُرِبَتْ[٣١٢] أخرجت الحصاة ، وإذا لُطِخ بها أبرأت القُوَبَ[٣١٣] والجرَب المتقرح وغيره ، وينبغي غسل العضو — قبل استعمالها — بالماء والنَّطْرون ، وإذا تُمُسِّح بها مع الزيت حلقت[٣١٤] الشعر .

---

(٣١٠) فى الزاد « وعرموشها مبرد » تحريف.

(٣١١) فى الزاد « ودمع » .

(٣١٢) فى الزاد « شُرِبِتْ » .

(٣١٣) فى الزاد « وإذا لُطِخَ به أبرأ القُوَبَ » .

(٣١٤) فى الزاد « حلق » .

ورمادُ قضبانه إذا تُضُمِّدَ به مع الخل ودهن الورد والسَّذابِ نفع من الورم العارض في الطِّحال ، وقوةُ دُهن زهرة الكرم قابضة ، شبيهةٌ بقوة دهن الورد ، ومنافعها كثيرة قريبة من منافع النخلة .

• **كَرَفْس** : رُوِيَ في حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ، أنه قال : « مَن أَكَلَهُ ثم نامَ عليه ، نَامَ ونَكْهَتُه طَيِّبَةٌ ، وينامُ آمِناً من وجع الأَضْراسِ والأَسْنان » .

وهذا باطل على رسول الله ﷺ ولكنَّ البستانيَّ منه يُطيِّب النكهة جدًّا . وإذا عُلِّق أصله في الرقبة نفع من وجع الأسنان .

وهو حار يابس ، وقيل : رطب ، مفتِّح لسدد[٣١٥] الكبد والطِّحال ، وورقُه رطباً ينفع المعدة والكبد الباردة[٣١٦] ويُدِرُّ البول والطَّمْث ، ويفتِّت الحصاة ، وحبّه أقوى في ذلك ، ويُهيِّج الباه وينفع من البَخَر ، قال الرازيُّ : « وينبغي أن يُجْتَنَبَ أَكْلُهُ إذا خِيفَ من لَدْغ العقارب » .

• **كُرَّاثٌ** : فيه حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ ــ بل هو باطل موضوع ــ: « مَن أَكل الكُرَّاث ثم نام عليه ، نام آمِناً من ريح البواسير ، واعتَزَلَهُ المَلَكُ ــ لِنَتَنِ نَكْهَتِه ــ حتى يُصْبِحَ » .

وهو نوعان : نَبَطيٌّ وشاميٌّ ، فالنبطيُّ [هو][٣١٧] : البقل الذي يوضع على المائدة ، والشاميُّ : الذي له رءوس ، وهو حار يابس مصدِّع ، وإذا طُبِخَ وأُكِلَ أو شُرِبَ ماؤه ، نفع من البواسير الباردة ، وإنْ سُحِقَ بزره ، وعُجِنَ بقَطِرَانٍ ، وبُخِّرَتْ به الأَضْرَاسُ التي فيها الدودُ ــ نثرها وأخرجها ، ويسكن الوجع العارض فيها ، وإذا دُخنت المقعدةُ ببزره جففت[٣١٨] البواسير . هذا كله في الكراث النَّبَطِيّ .

وفيه ــ مع ذلك ــ فساد الأسنان واللِّثة ، ويصدع ويُرِى أحلاماً رديئة ، ويُظلم

---

(٣١٥) في الزاد « لسُداد » .

(٣١٦) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « البارد » . والكبد مؤنثة ، وقد تُذكَّر .

(٣١٧) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٣١٨) في الزاد « خفّت » .

البصر ، ويُنتن النَّكهة ، وفيه إدرارٌ للبول والطَّمث ، وتحريكٌ للباه . وهو بطيء الهضم .

***

حرف اللام

* لَحْمٌ : قال الله تعالى : ﴿ وَأَمْدَدْنَاهُمْ بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾(٣١٩) . وقال : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُون ﴾(٣٢٠) . وفي سنن ابن ماجه ــ من حديث أبي الدرداء ، عن رسول الله ﷺ : « سيدُ طعام أهل الدنيا وأهل الجنة اللحمُ »(٣٢١) . ومن حديث بُريدةَ يرفعه : « خير الإدام في الدنيا والآخرة اللحمُ » .

وفي الصحيح عنه ﷺ : « فضلُ عائشةَ على النساء ، كفضل الثَّريد على سائر الطعام »(٣٢٢) .

والثريد : الخبز واللحم . قال الشاعر :

إِذَا مَا الْخُبْزُ تَأْدِمُهُ بِلَحمٍ فَذَاكَ ــ أَمَانَةَ اللهِ ــ الثَّرِيدُ

وقال الزهريُّ : « أكل اللحم يزيد سبعين قوّة » . وقال محمد بن واسع : « اللحم يزيد في البصر » . ويروى عن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه : « كلوا اللحم ، فإنه يصفِّي اللون ، ويَخمِص البطنَ ، ويحسِّن الخُلق » . وقال نافع : « كان ابن عمرَ إذا كان رمضانُ لم يَفُتْه اللحم ، وإذا سافر لم يفته اللحم » . ويُذكر عن علي [رضي الله عنه](٣٢٣) : « من تركه أربعين يوماً(٣٢٤) ساء خُلقه » .

---

(٣١٩) سورة الطور – الآية ٢٢ .

(٣٢٠) سورة الواقعة – الآية ٢١ .

(٣٢١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب اللحم [جـ ٢ ص ١٠٩٩] وفى سنده أبو مَشْجَعة وابن أخيه مَسْلَمة بن عبد الله ، وهما مجهولان . وفيه أيضاً سليمان بن عطاء وقد ضُعِّفَ واتُّهِمَ بالوَضْع .

(٣٢٢) أخرجه البخارى فى كتاب فضائل الصحابة ، باب فضل عائشة ، رضى الله عنها [ج ٧ ص ١٠٦ من فتح البارى] .
وأخرجه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة أيضاً ، فى فضائل أم المؤمنين عائشة [جـ ١٥ ص ٢١١ بشرح النووى] .
وأخرجه الدارمى فى سننه فى كتاب الأطعمة باب فى فضل الثريد [جـ ٢ ص ١٠٦] .

(٣٢٣) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٣٢٤) فى الزاد « ليلة » .

وأما حديث عائشةَ ، رضي الله عنها ـــ الذي رواه أبو داودَ مرفوعاً ـــ: « لا تَقطعوا اللحم بالسِّكين ، فإنه من صنيع[٣٢٥] الأعاجم ، وَانْهَسُوه[٣٢٦] فإنه أَهْنَأُ وأمرأ »[٣٢٧] ، فرده الإمام أحمد بما صح عنه ﷺ ـــ: من قطعِه بالسكين ـــ في حديثين . وقد تقدّما .

واللحمُ أجناس يختلف باختلاف أصوله وطبائعه . فنذكرُ حُكمَ كل جنس وطبعه ، ومنفعَته ومضرتَه .

لحم الضأن : حار في الثانية ، رطب في الأولى ، جيده الحَوْليُّ ، يولّد الدم المحمود المقوِّيَ[٣٢٨] لمن جاد هضمُه ، يصلح لأصحاب الأمزجة الباردة والمعتدلة ، ولأهل الرياضات التامة ، في المواضع والفصول الباردة . نافع لأصحاب المِرَّة السوداء ، يقوِّي الذهن والحفظ ، ولحم الهَرِم والعَجِف[٣٢٩] رديء ، وكذلك لحمُ النعاج .

وأجوده لحم الذكر الأسود منه ، فإنه أخف وألذ وأنفع ، والخصيُّ أنفع وأجود ، والأحمر من الحيوان السمين أخف وأجود غذاء ، والجَذع من المَعْز أقل تغذية ، ويطفو في المعدة .

وأفضل اللحم عائذه بالعظم ، والأيمن أخف وأجود من الأيسر ، والمقدَّم أفضل من المؤخر ، وكان أحبُّ الشاة إلى رسول الله ﷺ مقدَّمَها ، وكلُّ ما علا منه ـــ سوى الرأس ـــ كان أخفَّ وأجود مما سَفَلَ ، وأعطى الفرزدق رجلاً يشترى له لحماً ، وقال له : « خذ المقدَّم ، وإياك والرأسَ والبطنَ ، فإن الداء فيهما » .

---

(٣٢٥) هكذا فى الزاد وفى سنن أبى دواد .. وفى النسخ المطبوعة « صنع » .

(٣٢٦) هكذا فى الزاد وفى سنن أبى داود .. وفى النسخ المطبوعة « وانهشوه نهشاً » . والنهس – بالسين المُهْمَلة يكون بأطراف الأسنان . والنهش – بالشين المعجمة – يكون بالأسنان والأضراس . [انظر المصباح المنير – مادة « نهس »] .

(٣٢٧) أخرجه أبو داود فى الأطعمة ، باب فى أكل اللحم [جـ ٢ ص ٣٤٩] قال أبو داود : ليس بالقوى .. وفى سنده أبو معشر نجيح بن عبد الرحمن السندى ، قال عنه البخارى : منكر الحديث . وقيل : ليس بقوى فى الحديث ولا يضبط الإسناد . [انظر الضعفاء الكبير جـ ٤ ص ٣٠٨] .

(٣٢٨) فى الزاد « القوى » .

(٣٢٩) العَجِف : الهزيل . وفى الزاد « والعجيف » أى المعجوف . وهى بمعناها .

ولحم العنق جيد لذيذ ، سريع الهضم خفيف ، ولحم الذراع أخف اللحم وألذّه وألطفه وأبعده من الأذى ، وأسرعه انهضاماً ، وفي الصحيحين : « أنه كان يُعجب رسول الله ﷺ » .

ولحم الظهر كثير الغذاء ، يولِّد دماً محمودًا . وفي سنن ابن ماجه مرفوعاً : « أطيب اللحم لحمُ الظهر »(٣٣٠) .

لحمُ المَعْز : قليل الحرارة يابس ، وخِلْطُه المتولد منه ليس بفاضل ، وليس بجيد الهضم ، ولا محمودِ الغذاء ، ولحمُ التيس رديء مطلقاً ، شديد اليُبس ، عسِر الانهضام ، مولد للخلْط السوداويّ .

قال الجاحظ : قال لي فاضل من الأطباء : « يا أبا عثمانَ ، إياك ولحمَ المَعْز ، فإنه يُورث الغم ، ويحرِّك السوداء ، ويورث النسيان ، ويُفسد الدم . وهو ـــ والله ـــ يُخَبِّل الأولاد » .

وقال بعض الأطباء : « إنما المذمومُ منه المُسِنُّ ، ولا سيما للمُسنِّين ، ولا رداءةَ فيه لمن اعتاده » . وجالينوسُ جعل الحوليَّ منه ، من الأغذية المعتدلة المعدِّلة للكَيْموس المحمود ، وإناثُه أنفع من ذكوره ، وقد رَوَى النسائيُّ في سننه ـــ عن النبي ﷺ ـــ: « أحسِنوا إلى الماعز ، وأمِيطُوا عنها الأذى ، فإنها من دوابِّ الجنة »(٣٣١) . وفي ثبوت هذا الحديث نظرٌ .

وحكمُ الأطباء عليه بالمضرة حكمٌ جزئيٌّ ، ليس بكليٍّ عام ، وهو بحسب المعدة الضعيفة ، والأمزجة الضعيفة التي لم تعتدْه ، واعتادت المأكولات اللطيفةَ ، وهؤلاء أهل الرفاهية من أهل المدن ، وهم القليلون من الناس .

لحم الجَدْي : قريب إلى الاعتدال ، خاصةً ما دام رَضيعاً ، ولم يكن قريبَ العهد بالولادة . وهو أسرع هضماً ، لما فيه من قوة اللبن ، مليِّن للطبع ، موافق لأكثر النا س في أكثر الأحوال ، وهو ألطف من لحم الجمل ، والدمُ المتولد عنه معتدل .

---

(٣٣٠) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب أطايب اللحم [جـ ٢ ص ١١٠٠] .

(٣٣١) لم أقف عليه عند النسائى . ولا فى المعجم المفهرس لألفاظ الحديث .

لحم البَقَر : بارد يابس ، عسِرُ الانهضام ، بطيءُ الانحدار ، يولِّد دماً سوداويًّا ، لا يصلح إلَّا لأهل الكد والتعب الشديد ، ويورث إدمانه الأمراض السوداويَّة : كالبَهَق والجرَب ، والقُوباء[٣٣٢] والجذام ، وداء الفيل والسَّرطانِ ، والوَسواس ، وحمَّى الرِّبع ، وكثير من الأورام ، وهذا لمن لم يعتدْه ، أو لم يَدفعْ ضرره بالفُلفل ، والثُّوم ، والدارصيني[٣٣٣] ، والزنجبيل ونحوه ، وذَكَرُه أقل برودة ، وأنثاه أقل يبساً .

ولحمُ العجل ـــ ولاسيما السمينَ ـــ من أعدل الأغذية وأطيبها ، وألذِّها وأحمدها ، وهو حار رطب ، وإذا نهضم غذَّى غذاءً قويًّا .

لحم الفَرَس : ثبت في الصحيح ، عن أسماءَ ، رضي الله عنها ، قالت : « نَحرْنا فرساً فأكلناه على عهدِ رسول الله ﷺ »[٣٣٤] . وثبت عنه ﷺ : « أنه أَذِنَ في لحوم الخيل ، ونَهى عن لحوم الحُمُر »[٣٣٥] . أخرجاه في الصحيحين .

ولا يثبت عنه حديثُ المِقدام بن معد يكرب ، رضي الله عنه : « أنه نهى عنه » . قاله أبو داودَ وغيره من أهل الحديث[٣٣٦] . واقترانُه بالبغال والحمير في القرآن لا يدل على أن حكم لحمه حكمُ لحومها بوجه من الوجوه ، كما لا يدل على أن حكمها في السهم في الغنيمة حكمُ الفَرَس ، والله سبحانه يَقْرِن في الذِّكْرِ بين المُتماثِلات تارة ، وبين المختلفات ، وبين المتضادَّات . وليس في قوله : ﴿ لِتَرْكَبُوهَا ﴾[٣٣٧] ، ما يمنع من أكلها كما ليس فيه ما يمنع من غير الركوب من وجوه الانتفاع ، وإنما نَصَّ على أَجَلِّ منافعها ، وهو الركوب . والحديثان في حِلِّها صحيحان ، لا معارض لهما .

---

(٣٣٢) هكذا في الزاد .. وفي النسخ المطبوعة « والقُوَب » جمع قوباء : مرض جلدى .

(٣٣٣) الدار صينى : لفظة معربة عن الفارسية « دارشين » وهى تطلق على شجر هندى يكون بتخوم الصين كالرمان ، وأوراقه كأوراق الجوز ، إلاّ أنها أدق ، ولازهر لها ، ولابزر له . والدار صينى قشر تلك الأغصان لاكل الشجرة . [انظر فوائده فى تذكرة داود جـ ١ ص ١٤٩] .

(٣٣٤) أخرجه البخارى فى كتاب الذبائح والصيد ، باب لحوم الخيل [جـ ٩ ص ٦٤٨ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الصيد والذبائح . باب إباحة أكل لحم الخيل [جـ ١٣ ص ٩٦ بشرح النووى] .

(٣٣٥) أخرجه البخارى فى كتاب الذبائح والصيد ، باب لحوم الحُمر الإنسية [جـ ٩ ص ٦٥٣ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الصيد والذبائح ، باب إباحة لحم الخيل [جـ ١٣ ص ٩٥ بشرح النووى] .

(٣٣٦) انظر سنن أبى داود ، كتاب الأطعمة ، باب فى أكل لحوم الخيل [جـ ٣ ص ٣٥٢] .

(٣٣٧) سورة النحل – الآية ٨ .

وبعد : فلحمُها حار يابس ، غليظ سوداويٌّ ، مضر . لا يصلح للأبدان اللطيفة .

لحم الجَمَل : فَرْقٌ ما بين الرافضة وأهل السنة ، كما أنه أحد الفروق بين اليهود وأهل الإسلام ، فاليهود والرافضة تذمّه ولا تأكله ، وقد عُلم ــ بالاضطرار من دين الإسلام ــ حِلّه ، وطالَما أكله رسول الله ﷺ وأصحابُه ، حَضَرًا وسفرًا .

ولحم الفَصيل منه من ألذِّ اللحوم وأطيبها ، وأقواها غذاءً ، وهو لِمَن اعتاده ، بمنزلة لحم الضأن ، لا يضرهم البتة ، ولا يولِّد لهم داءً ، وإنما ذمه بعض الأطباء بالنسبة إلى أهل الرفاهية ، من أهل الحضر الذين لم يعتادوه(٣٣٨) . فإن فيه حرارة ويبساً ، وتوليدًا للسوداء ، وهو عسير الانهضام ، وفيه قوةٌ غير محمودة ، لأجلها أمر النبي ﷺ ، بالوضوء من أكله ، في حديثين صحيحين ، لا معارض لهما ، ولا يصح تأويلُهما بغسل اليد ، لأنه خلاف المعهود من الوضوء في كلامه ﷺ ، لتفريقه بينه وبين لحم الغنم ، فخيَّر بين الوضوء وتركه منها ، وحتم الوضوء من لحوم الإبل ، ولو حُمل الوضوءُ على غسل اليد فقط ، لحُمل على ذلك قوله(٣٣٩) : « مَن مسَّ فرجه فليتوضأ »(٣٤٠) .

وأيضاً : فإن آكلها قد لا يباشر أكلها بيده بأن يوضَعَ في فمه ، فإن كان وضوءه غسل يده ، فهو عبث ، وحملٌ لكلام الشارع على غير معهوده وعُرفه !! ولايصح معارضته بحديث : « كان آخرَ الأمْرَيْن من رسول الله ﷺ ، ترك الوضوء مما مست النار » لعدة أوجه :

أحدها : أن هذا عامٌّ ، والأمر بالوضوء منها خاصٌّ .

الثاني : أن الجهة مختلفة ، فالأمر بالوضوء منها بجهة كونها لحمَ إبل ، سواء كان نيئًا ، أو مطبوخاً ، أو قديدًا ، ولا تأثير للنار في الوضوء ، وأمَّا تركُ الوضوء مما مَسَّتِ النار ، ففيه بيان أن مَسَّ النار ليس بسبب للوضوء ، فأين أحدهما من الآخر ؟ هذا فيه إثبات

---

(٣٣٨) هكذا فى الزاد . وفى بعض النسخ المطبوعة « لايعتادوه » .

(٣٣٩) فى الزاد « فى قوله » .

(٣٤٠) أخرجه أبود داود فى كتاب الطهارة ، باب الوضوء من مس الذكر [جـ ١ ص ٤٦] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الطهارة وسننها ، باب الوضوء من مس الذكر [جـ ١ ص ١٦١] . وأخرجه غيرهما .

سبب الوضوء ، وهو كونه لحمَ إبل ، وهذا فيه نفي لسببِ الوضوء ، وهو كونه ممسوسَ النار ، فلا تعارض بينهما بوجه .

الثالث : أن هذا ليس فيه حكايةُ لفظ عام عن صاحب الشرع ، وإنما هو إخبار عن واقعةِ فعل في أمرين : أحدهما متقدم على الآخر ، كما جاء ذلك مُبيَّناً في نفس الحديث : « أنهم قرَّبوا إلى النبي ﷺ لحماً ، فأكل ، ثم حضرت الصلاة ، فتوضأ وصلى ، ثم قرَّبوه[٣٤١] إليه فأكل ، ثم صلى ولم يتوضأ ، فكان آخرُ الأمرين منه تركَ الوضوء مما مست النارُ » هكذا جاء الحديث ، فاختصره الراوي لمكان الاستدلال ، فأين في هذا ما يصلُح لنسخ الأمر بالوضوء منه ؟ حتى لو كان لفظاً عامًّا متأخرًا مقاوِماً لم يصلح للنسخ ، ووجب تقديمُ الخاص عليه ، وهذا في غاية الظهور !! .

لحم الضّب : تقدم الحديث في حِلّه ، ولحمه حار يابس ، يقوِّي شهوة الجماع .

لحم الغزال : الغزالُ أصلح الصيد ، وأحمده لحماً ، وهو حار يابس . وقيل : معتدل جدًّا ، نافع للأبدان المعتدلة الصحيحة ، وجيِّده الخِشْف .

لحم الظَّبي : حار يابس في الأولى ، مجفِّف للبدن ، صالح للأبدان الرطبة .

قال صاحب القانون : « وأفضلُ لحوم الوحش لحمُ الظبي ، مع ميله إلى السوداويّة » .

لحم الأرانب * : ثبت في الصحيحين ، عن أنس بن مالك ، قال : « أَنْفَجْنَا أرنباً ، فسعَوا في طلبها ، فأخذوها ، فبعث أبو طلحةَ بورِكها إلى رسول الله ﷺ ، فقبِله »[٣٤٢] .

لحم الأرنب : معتدل إلى الحرارة واليبوسة ، وأطيبُها وركها ، وأحمدُ لحمها ما أُكِل

---

(٣٤١) فى الزاد « ... فصلى ثم قرّبُوا إليه ... » .

(*) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « الأرنب » .

(٣٤٢) أخرجه البخارى فى كتاب الذبائح والصيد ، باب الأرنب [جـ ٩ ص ٦٦١ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الصيد والذبائح ، باب إباحة أكل الأرنب [جـ ١٣ ص ١٠٤ بشرح النووى] . وأنفجنا : أى أثرْنا .

مشويا[٣٤٣] ، وهو يَعقُل البطن ، ويُدر البول ، ويفتِّت الحَصَى . وأكل رءوسها ينفع من الرَّعشة .

لحم حمار الوَحْش : ثبت في الصحيحين — من حديث أبي قتادةَ ، رضي الله عنه —: « أنهم كانوا مع رسول الله ﷺ في بعض عُمَرِهِ ، وأنه صاد حمارَ وحشٍ ، فأمرهم النبي ﷺ بأكله ، وكانوا مُحْرِمِين ، ولم يكن أبو قتادة مُحْرِماً »[٣٤٤] .

وفي سنن ابن ماجه ، عن جابر ، قال : « أكلنا زمن خيبرَ الخيلَ وحُمُرَ الوحش »[٣٤٥] .

ولحمه[٣٤٦] حار يابس ، كثير التغذية ، مولِّد دماً غليظاً سوداويًّا ، إلا أن شحمه نافع — من دهن القُسط — لوجع الضِّرس[٣٤٧] ، والريح الغليظة المرخية للكُلى ، وشحمُه جيد للكَلَف طلاءً . وبالجملة : فلحومُ الوحش[٣٤٨] كلها تولِّد دماً غليظاً سوداويًّا ، وأحمده الغزال ، وبعده الأرنبُ .

لحوم الأجنَّة : غير محمودة ، لاحتقان الدم فيها . وليست بحرام لقوله ﷺ : « ذكاةُ الجنين ذكاة أمه »[٣٤٩] .

ومنعَ أهل العراق من أكله ، إلا أن يدركه حيًّا فيُذكيه ، وأوَّلوا الحديث على أن المراد به : أن ذكاته كذكاة أمه ، قالوا : فهو حجة على التحريم .

---

(٣٤٣) فى الزاد « وأحمدها أكلُ لحمها مشويًّا » .

(٣٤٤) أخرجه البخارى فى كتاب الصيد والذبائح ، باب ماجاء فى التصيد [جـ ٩ ص ٦١٣ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الحج ، باب تحريم الصيد البرى المأكول للمحرم [جـ ٨ ص ١٠٧ بشرح النووى] .

(٣٤٥) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الذبائح ، باب لحوم الخيل [جـ ٢ ص ١٠٦٤] .

(٣٤٦) فى الزاد « لحمه » .

(٣٤٧) فى الزاد « الظَّهر » .

(٣٤٨) فى الزاد « الوحوش » .

(٣٤٩) أخرجه أبو داود فى كتاب الأضاحى ، باب ماجاء فى ذكاة الجنين [جـ ٣ ص ١٠٣ ، ١٠٤] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الذبائح ، باب ذكاة الجنين ذكاة أمّه [جـ ٢ ص ١٠٦٧] . وأخرجه غيرهما .

وهذا فاسد ، فإن أول الحديث : « أنهم سألوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، نذبحُ الشاةَ فنجدُ في بطنها جنيناً ، أفنأكلُه ؟ فقال : كلوه إن شئتم ، فإن ذكاته ذكاة أُمه » .

وأيضاً : فالقياسُ يقتضي حِلَّه ، فإنه ما دام حَمْلاً ، فهو جزء من أجزاء الأم ، فذكاتها ذكاةٌ لجميع أجزائها ، وهذا هو الذي أشار إليه صاحب الشرع ، بقوله : « ذكاته ذكاةُ أمه » ، كما يكون ذكاتُها ذكاةَ سائر أجزائها ، فلو لم تأت(٣٥٠) السنةُ الصريحة بأكله ، لكن القياس الصحيح يقتضي حِلَّه . [وبالله التوفيق](٣٥١) .

لحم القديد : في السنن ــ من حديث ثوبان(٣٥٢) رضي الله عنه ــ قال : ذبحتُ لرسول الله ﷺ شاةً ، ونحن مسافرون ، فقال : أَصْلِحْ لَحْمَهَا ، فَلَمْ أَزَلْ أُطعمُه منه إلى المدينة »(٣٥٣) .

القديد أنفع من النمكسود(٣٥٤) ، ويقوّي الأبدان ، ويحدث حِكَّةً ، ودفعُ ضرره بالأبازير الباردة الرطبة ، ويُصلح الأمزجة الحارة ، والنمكسود حار يابس مجفِّف ، جيده من السمين الرطب ، يُضر بالقولَنْج . ودفعُ مضرته طبخُه باللبن والدهن ، ويصلح للمزاج الحار الرطب .

***

---

(٣٥٠) فى الزاد « لمْ تأتِ عنه ... » .

(٣٥١) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٣٥٢) هكذا فى الزاد ، وفى سنن أبي داود وفى صحيح مسلم .. وفى النسخ المطبوعة « بلال » .

(٣٥٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الأضاحى ، باب فى المسافر يُضَحّى [جـ ٣ ص ١٠٠] . وأخرجه مسلم فى كتاب الأضاحى أيضاً ، باب النهى عن أكل لحوم الأضاحى بعد ثلاث ، ونسخه [جـ ١٣ ص ١٣٣ ، ١٣٤ بشرح النووى] .

(٣٥٤) هكذا فى الزاد – فى الموضعين – وفى النسخ المطبوعة « المكسود » . وقد سبق التعليق عليها فى حرف العين ، مادة « عدس » .

فَصْلٌ فِي لُحُومِ الطَّيْرِ

قال الله تعالى : ﴿ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴾(٣٥٥) . وفي مسند البزّار وغيره مرفوعاً : « إنك لتَنْظُرُ(٣٥٦) إلى الطير في الجنة ، فتشتَهيه ، فيَخرُّ مشويًّا بين يدَيك » .

ومنه حلال ، ومنه حرام . فالحرامُ : ذو المِخلَب كالصقر والبازي والشاهِين ، وما يأكل الجِيَفَ : كالنَّسر والرَّخَم ، واللَّقْلَق والعَقْعَق ، والغراب الأبْقع ، والأسود الكبير ، وما نُهيَ عن قتله : كالهُدهُد والصُّرد ، وما أُمِرَ بقتله : كالحِدَأة والغراب . والحلالُ أصناف كثيرة ، فمنه : الدَّجاج : ففي الصحيحين — من حديث أبي موسى [رضي الله عنه](٣٥٧) : « أن النبي ﷺ أكل لحم الدَّجاج »(٣٥٨) .

وهو حار رطب في الأولى ، خفيف على المعدة ، سريع الهضم ، جيد الخِلْط ، يَزيد في الدماغ والمَنيّ ، ويصفّي الصوت ، ويحسّن اللون ، ويقوّي العقل ، ويولّد دماً جيدًا ، وهو مائل إلى الرطوبة . ويقال : إن مداومة أكله تُورث النِّقْرس ، ولا يثبت ذلك .

ولحمُ الديك : أسخنُ مزاجاً ، وأقل رطوبةً . والعتيقُ منه دواء ينفع القُولنج والرَّبو والرياح الغليظة ، إذا طُبخ بماء القُرْطم [والقِرْفة] والشبت(٣٥٩) وخَصيُّها محمودة الغذاء ، سريعة(٣٦٠) الانهضام ، والفَراريجُ سريعة الهضم ، مليِّنة للطبع ، والدمُ المتولد منها دم لطيف جيد .

---

(٣٥٥) سورة الواقعة – الآية ٢١ .

(٣٥٦) هكذا في الزاد . وفي بعض النسخ المطبوعة « تنظر » .

(٣٥٧) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٣٥٨) أخرجه البخاري في كتاب الذبائح والصيد ، باب لحم الدجاج [جـ ٩ ص ٥ ٦ من فتح الباري] . وأخرجه مسلم في كتاب الأيمان ، باب مَنْ حلف يميناً فرأى غيرها خيراً منها [جـ ١١ ص ١١١ بشرح النووي] .

(٣٥٩) الشِّبت « بالتاء » : مر شرحه . والشِّبْث « بالثاء » : نبات أصفر ، كريه الرائحة ، يوجد بالجبال والصخور ، ماؤه يحبس القيء ويقوى المعدة [انظر تذكرة داود جـ ١ ص ٢٠٩] . ومابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٣٦٠) في الزاد « محمود الغذاء سريع الانهضام » .

لحم الدُّرَّاج : حار يابس في الثانية ، خفيف لطيف ، سريع الانهضام ، مولِّد للدّم المعتدل ، والإكثار منه يُحدِ البصر .

لحم الحَجَل* : يولِّد الدم الجيد ، سريعُ الانهضام .

لحم الإوَزّ : حار يابس ، رديء الغذاء ، إذا اعتيد . وليس بكثير الفضول .

لحم البَطّ : حار رطب ، كثير الفضول ، عسير الانهضام ، غير موافق للمعدة .

لحم الحُبَارَى : في السنن ــ من حديث بُرَيْه(٣٦١) بن عمرَ بن سَفينةَ ، عن أبيه ، عن جده ، رضي الله عنه ــ قال : « أكلت مع رسول الله ﷺ لحمَ حُبارَى »(٣٦٢) . وهو حار يابس ، عسير الانهضام ، نافع لأصحاب الرياضة والتعب .

لحم الكُرْكيّ : يابس خفيف ، وفي حره وبرده خلافٌ ، يولِّد دماً سوداويًّا ، ويصلح لأصحاب الكد والتعب ، وينبغي أن يُترك بعد ذبحه يوماً أو يومين ، ثم يؤكَل .

لحم العصافير والقَنَابِر : روى النَّسائيُّ في سننه ــ من حديث عبد الله بن عَمْرو(٣٦٣) رضي الله عنه : « أن النبي ﷺ قال : ما من إنسان يقتُلُ عُصفورًا فما فوقَه ، بغير حقه ــ إلّا سأله عز وجل . قيل : يا رسول الله ، وما حقُّه ؟ قال : تذبحُه فتأكلُه ، ولا تقطعُ رأسه وترمي به »(٣٦٤) .

(*) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « لحم الحَجَل والقَبج » نقلاً عن الزاد « الطبعة المصرية » والقبج : الحجل ، فهى لفظة مُرَادِفَة مُفَسِّرة ، وهو جنس طيور تُصاد . من فصيلة الطيهوجيات [انظر المعجم الوسيط – مادة قبج] .

(٣٦١) هكذا فى الزاد وفى سنن أبى داود ، وفى ميزان الاعتدال .. وفى النسخ المطبوعة ورد مضبوطاً « بُرَيَّة » هكذا ، وهذا لَيِّن قال عنه البخارى : إسناده مجهول . وقال ابن عدى : أحاديثه لايتابعه عليها الثقات [انظر ميزان الاعتدال جـ ١ ص ٣٠٦] .

(٣٦٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الأطعمة ، باب فى أكل لحم الحبارى [جـ ٣ ص ٣٥٤] . وأخرجه الترمذى أيضاً فى الأطعمة ، باب ماجاء فى أكل الحبارى [جـ ٨ ص ٢٣ ، ٢٤ بشرح ابن العربى] . وقال الترمذى : حديث غريب .

(٣٦٣) هكذا فى الزاد ، وفى سنن النسائى .. وفى النسخ المطبوعة وسنن الدارمى « عبد الله بن عمر » . وفى ميزان الاعتدال يذكر أنه روى عن عبد الله بن عَمْرو وليس عبد الله بن عمر [انظر الميزان جـ ٢ ص ٣٢١] .

(٣٦٤) أخرجه النَّسائى فى كتاب الصيد ، باب إباحة أكل العصافير [جـ ٧ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ بشرح السيوطى] . وأخرجه الدارمى فى كتاب الأضاحى ، باب من قتل شيئاً من الدواب عبثاً [جـ ٢ ص ٨٤] .

وفي سننه أيضاً ــ عن عمرو بن الشَّريد ، عن أبيه ــ قال : « سمعت رسول الله ﷺ ، يقول : من قتل عُصفورًا عبثاً ، عَجَّ إلى الله يقول : يا رب ، إن فلاناً قتلني عبثاً ، ولم يقتلْني لمنفعة »(٣٦٥) .

ولحمُه حار يابس ، عاقل للطبيعة ، يَزيد في الباه ، ومرقُه يليِّن الطبع ، وينفع المفاصل ، وإذا أُكِلَتْ أدمغتُها بالزنجبيل والبصل هيجتْ شهوة الجماع ، وخِلطُها غير محمود .

لحم الحَمام : حار رطب ، وحشيُّه أقل رطوبةً ، وفراخُه أرطب ، وخاصةً(٣٦٦) ما رُبي في الدُّور . وناهضُه أخف لحماً ، وأحمد غذاءً . ولحمُ ذكورها شفاءٌ من الاسترخاء والخَدَر ، والسكتة والرِّعشة ، وكذلك شمُّ رائحة أنفاسها ، وأكلُ فراخها معين على النساء ، وهو جيد للكُلى يزيد في الدم .

وقد روى فيها حديثٌ باطل لا أصل له ــ عن رسول الله ﷺ ــ : « أن رجلاً شكا إليه الوَحدة ، فقال : اتَّخِذْ زوجاً من الحَمام » . وأجودُ من هذا الحديث : « أنه ﷺ رأى رجلاً يتبع حمامةً ، فقال : شيطانٌ يَتْبَعُ شيطانةً »(٣٦٧) .

وكان عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ــ في خطبته ــ يأمر بقتل الكلاب ، وذبح الحمام .

لحم القَطَا : يابس يولِّد السوداء ، ويحبس الطبع ، وهو من شر الغذاء ، إلا أنه ينفع من الاستسقاء .

لحم السُّمَانى : حار يابس ، ينفع المفاصل ، ويضر بالكبد الحار ، ودفعُ مضرته بالخل والكُسْبرة(٣٦٨) . وينبغى أن يُجتنبَ من لحوم الطير ، ما كان في الآجام والمواضع العفِنة .

---

(٣٦٥) أخرجه النسائى فى كتاب الضحايا ، باب من قتل عصفوراً بغير حقها [جـ ٧ ص ٢٣٩ بشرح السيوطى] .

(٣٦٦) فى الزاد « أرطب خاصية » .

(٣٦٧) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب من حديث أبى هريرة [جـ ٤ ص ٢٨٥] . وأخرجه ابن ماجه فى كتاب الأدب ، باب اللعب بالحمام[جـ ٢ ص ١٢٣٨] .

(٣٦٨) الكسبرة ، أو الكزبرة (بالزاى والسين) : بقلة زراعية من الفصيلة الخيمية ، تضاف أوراقها إلى بعض الأطعمة ، وتستعمل بذورها فى الطعام والصيدلة .. وفى الزاد « والكسفرة » بالفاء .

ولحومُ الطير كلها أسرع آنهضاماً من المواشي ، وأسرعُها آنهضاماً أقلها غذاءً ، وهي الرقاب والأجنحة ، وأدمغتُها أحمد من أدمغة المواشي .

الجراد : في الصحيحين ، عن عبد الله بن أبي أَوْفَى ، قال : « غزونا مع رسول الله ﷺ سبعَ غَزَواتٍ ، نأكل الجراد »[٣٦٩] . وفي المسند عنه : « أُحِلَّتْ لنا مَيْتتانِ ودمَانِ : الحوتُ والجرادُ ، والكبِدُ والطِّحالُ »[٣٧٠] . يروى مرفوعاً ، وموقوفاً على ابن عمرَ رضي الله عنه .

وهو حار يابس ، قليل الغذاء ، وإدامةُ أكله تُورث الهُزال ، وإذا تُبُخِّرَ به نفع من تقطير البول وعُسره ، وخصوصا للنساء ، ويُتبَخَّرُ به للبواسير . وسمانُه ــ التي لا أجنحة لها ــ تشوى ، وتؤكل[٣٧١] للسع العقرب . وهو ضار لأصحاب الصرع ، رديء الخِلط .

وفي إباحة ميته[٣٧٢] بلا سبب ، قولان : فالجمهور على حِلِّه ، وحرَّمَهُ مالك . ولا خلافَ في إباحة ميته إذا مات بسبب ، كالكبس والتحريق ونحوه .

فصل

وينبغي أن لا يداوَمَ على أكل اللحم ، فإنه يورث الأمراض الدموية والامتلائية ، والحمَّياتِ الحادةَ . وقال عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه : إياكم واللحمَ ، فإن له ضَرَاوةً كضراوة الخَمر ، [وإن الله يُبغض أهل البيت اللَّحِمِين][٣٧٣] . ذكره مالك في « الموطأ » عنه . وقال أبقراط : « لا تجعلوا أجوافكم مقبرةً للحيوان » .

---

(٣٦٩) أخرجه البخارى فى كتاب الذبائح والصيد ، باب أكل الجراد [جـ ٩ ص ٦٢٠ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الصيد والذبائح ، باب إباحة الجراد [جـ ١٣ ص ١٠٢ بشرح النووى] .

(٣٧٠) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الصيد ، باب صيد الحيتان والجراد [جـ ٢ ص ١٠٧٣] .

(٣٧١) فى الزاد « وسانه يُشوى ويُؤكل » .

(٣٧٢) فى الزاد « ميتته » فى الموضعين .

(٣٧٣) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد ، ومن الحديث الذى أورده مالك فى موطئه ، فى كتاب صفة النبى (ﷺ) باب ماجاء فى أكل اللحم (ص ٥٨٧ ط الشعب) .

* لبن* : قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ، نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ ﴾[٣٧٤] . وقال في الجنة : ﴿ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ﴾[٣٧٥] .

وفي السنن مرفوعاً : « مَن أطعمه الله طعاماً ، فليقلْ : ٱللهم ، باركْ لنا فيه ، وارزقْنا خيرًا منه . وَمَن سقاه الله لبناً ، فليقل : ٱللهم باركْ لنا فيه ، وزِدْنا منه . فإني لا أعلم ما يُجزيءُ[٣٧٦] من الطعام والشراب ، إلا اللبنَ »[٣٧٧] .

اللبن وإن كان بسيطاً في الحس ، إلا أنه مركب في أصل الخلقة تركيباً طبيعياً ، من جواهرَ ثلاثة : الجُبْنِيَّةِ ، والسَّمْنِيَّةِ ــ والمائيَّة . فالجبنيةُ باردة رطبة ، مغذية للبدن ، والسمنيةُ معتدلة في الحرارة[٣٧٨] والرطوبة ، ملائمة للبدن الإنساني الصحيح ، كثيرة المنافع . والمائيةُ حارة رطبة ، مطلقة للطبيعة ، مرطبة للبدن . واللبنُ ــ على الإطلاق ــ أبرد وأرطب من المعتدل . وقيل : قُوَّتُه عند حلبه الحرارةُ والرطوبة . وقيل : معتدل في الحرارة والبرودة .

وأجود ما يكون اللبن حين يُحلب ، ثم لا يزال تنقص جودتُهُ على ممر الساعات ، فيكون حين يُحلب أقل برودةً وأكثر رطوبةً ، والحامض بالعكس . ويُختار اللبن بعد الولادة بأربعين يوماً . وأجوده ما اشتد بياضه ، وطاب ريحه ، ولذ طعمه ، وكان فيه حلاوة يسيرة ، ودسومة معتدلة ، واعتدل قِوامه في الرقة والغلظة ، وحُلب من حيوان فَتِيٍّ صحيح ، معتدِل اللحم ، محمود المَرْعَى والمَشرب . وهو محمود ، يولِّد دماً جيدًا ، ويرطب البدن اليابس ، ويغذو غذاءً حسناً ، وينفع من الوَسواس والغم والأمراض السوداويَّة ، وإذا شُرِبَ مع العسل نقّى القُروح الباطنة ، من الأخلاط العَفِنة . وشربُه مع السكر يحسن اللون جدًّا .

(*) في الزاد « اللبن » .

(٣٧٤) سورة النحل – الآية ٦٦ .

(٣٧٥) سورة محمد – الآية ١٥ .

(٣٧٦) هكذا في الزاد ، وفي سنن أبي داود .. وفي النسخ المطبوعة « يجزي » بدون همز .

(٣٧٧) أخرجه أبو داود في كتاب الأشربة ، باب مايقول إذا شرب اللبن [جـ ٣ ص ٣٣٩] .

(٣٧٨) في الزاد « معتدلة الحرارة » .

والحليب يتدارك ضرر الجماع ، ويوافق الصدر والرئة ، جيد لأصحاب السل ، رديء للرأس والمعدة والكبد والطحال ، والإكثار منه مضر بالأسنان واللثة ، ولذلك ينبغي أن يُتَمَضْمَضَ بعده بالماء . وفي الصحيحين : « أن النبي ﷺ شرب لبناً ، ثم دعا بماء فتمضمض ، وقال : إن له دسما »[٣٧٩] .

وهو رديء للمحمومين وأصحاب الصداع ، مؤذٍ للدماغ والرأس الضعيف . والمُداومةُ عليه تُحدث ظلمة البصر والغِشاء ، ووجع المفاصل ، وسدة الكبد ، والنفخ في المعدة والأحشاء . وإصلاحُهُ بالعسل والزنجبيل المربىِّ ونحوه . وهذا كله لمن لم يعتده .

لبن الضأن : أغلظ الألبان وأرطبها ، وفيه من الدُّسومة والزُّهومة ما ليس في لبن الماعز والبقر . يولِّد فضولاً بلغمية[٣٨٠] ، ويُحدث في الجلد بياضاً إذا أُدمن استعمالُهُ . ولذلك ينبغي أن يُشَابَ[٣٨١] هذا اللبن بالماء ، ليكون ما نال البدنُ منه أقلَّ ، وتسكينُهُ للعطش أسرع ، وتبريدُهُ [للبدن][٣٨٢] أكثر .

لبن المَعْز : لطيف معتدل ، مطلق للبطن ، مرطِّب للبدن اليابس ، نافع من قروح الحلق ، والسعال اليابس ، ونفْث الدم .

واللبنُ المطلَقُ أنفع المشروبات للبدن الإنسانيِّ ، لما اجتمع فيه من التغذية والدموية ، ولا عتيادِهِ حالَ الطفولية ، وموافقتِهِ للفطرة الأصلية . وفي الصحيحين : « أن رسول الله ﷺ أُتيَ ليلةَ أُسْرِيَ به ، بقدَح من خمر ، وقدح من لبن ، فنظر إليهما ، ثم أخذ اللبن ، فقال جبريل[٣٨٣] عليه السلام : الحمد لله الذي هداك للِفِطْرة ، لو أخذتَ الخمر غوتْ أُمَّتُك »[٣٨٤] .

---

(٣٧٩) أخرجه البخارى فى كتاب الوضوء ، باب هل يمضمض من اللبن [جـ ١ ص ٣١٢ من فتح البارى] .

(٣٨٠) فى الزاد « بلغميًا » .

(٣٨١) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « يُشرب » .

(٣٨٢) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٣٨٣) هكذا فى الزاد وفى البخارى ، ومسلم .. وفى النسخ المطبوعة « جبرائيل » وكلاهما صواب .

(٣٨٤) أخرجه البخارى فى كتاب أحاديث الأنبياء ، باب « وهل أتاك حديث موسى - وكلم الله موسى تكليما » [جـ ٦ ص ٤٢٨ ، ص ٤٧٧ من فتح البارى] . وفى كتاب التفسير ، باب أسرى بعبده ليلا [جـ ٨ ص ٣٩١] وغيرهما . وأخرجه مسلم فى كتاب الأشربة ، باب جواز شرب اللبن [جـ ٢ ص ١٨٠ ، ١٨١ بشرح النووى] . وأخرجه أيضاً فى كتاب الإيمان .

والحامض منه بطيء الاستمراء ، خامُ الخِلط . والمعدة الحارة تهضمه ، وتنتفع به .

لبن البَقَر : يغذو البدن ويَخصبه ، ويطلق البطن باعتدال ، وهو من أعدل الألبان وأفضلها ، بين لبن الضأن ، ولبن المعز ، في الرقة والغِلظ والدسَم .

وفي السنن ـــ من حديث عبد الله بن مسعود ، يرفعه ـــ: « عليكم بألبانِ البقرِ ، فإنها تَرُمُّ[٣٨٥] من كل الشجرِ »[٣٨٦] .

لبن الإبل : تقدم ذكره في أول الفصل ، وذكر منافعه . فلا حاجة لإعادته .

* **لُبَانٌ** : هو الكُنْدُر . قد ورد فيه عن النبي ﷺ : « بَخِّروا بيوتكم باللبان والصَّعْتر » . ولا يصح عنه .

ولكن يروى عن عليّ ، أنه قال لرجل شكا إليه النسيان : « عليك باللبان ، فإنه يشجع القلب ، وَيَذهب بالنسيان » . ويُذكر عن ابن عباس ، رضي الله عنهما : « أن شربه مع السكر على الريق ، جيد للبول والنسيان » . ويُذكر عن أنس ، رضي الله عنه : « أنه شكا إليه رجلٌ النسيانَ ، فقال : عليك بالكندر ، وانقعه من الليل ، فإذا أصبحت فخذ منه شربةً على الريق ، فإنه جيد للنسيان » .

ولهذا سبب طبيعيٌّ ظاهر ، فإن النسيان إذا كان لسوء مزاج بارد رطب ـــ يغلب على الدماغ ، فلا يحفظ ما ينطبع فيه ـــ نفع منه اللبان ، وأمَّا إذا كان النسيان لغلبة شيء عارض ، أمكن زواله سريعاً بالمرطبات ، والفرق بينهما أن اليُبُوسيَّ يتبعه سهر وحفظ للأمور الماضية دون الحالية ، والرُّطوبيّ بالعكس .

وقد يُحْدِثُ النِّسيَانَ أشياءُ بالخاصية ، كحجامة نُقْرة القفا ، وإدمان أكل الكُسيرة[٣٨٧] الرطبة ، والتفاح الحامض ، وكثرة الهم والغم ، والنظر في الماء الواقف والبول فيه ، والنظر إلى المصلوب ، والإكثار من قراءة ألواح القبور ، والمشي بين جَمَلين

---

(٣٨٥)هكذا في الزاد . وترم : أي تأكل . وفي النسخ المطبوعة « ترتَمّ » .

(٣٨٦) لم أقف عليه في السنن ، ورواه أحمد بن حنبل في مسنده [انظر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث] .

(٣٨٧) في الزاد « الكُسْفَرة » .

مقطُورَين ، وإلقاء القمل في الحياض ، وأكل سُؤْر الفأر ، وأكثرُ هذا معروف بالتجربة (٣٨٨) .

والمقصود : أن اللُّبان مُسَخِّن في الدرجة الثانية ، ومجفِّف في الأولى ، وفيه قبض يسير ، وهو كثير المنافع ، قليل المضار ، فمن منافعه أنه ينفع من قذف الدم ونزفه ، ووجع المعدة ، واستطلاق البطن ، ويهضم الطعام ، ويطرُد الرياح ، ويجلو قروح العين ، ويُنبت اللحم في سائر القروح ، ويقوِّي المعدة الضعيفة ويسخِّنها ، ويجفف البلغم ، وينشف رطوباتِ الصدر ، ويجلو ظلمة البصر ، ويمنع القروح الخبيثة من الانتشار .

وإذا مُضِغَ وحده أو مع الصَّعتر (٣٨٩) الفارسيِّ جَلب البلغم ، ونفع من اعتقال اللسان ، ويزيد في الذهن ويذكّيه ، وإن بُخِّر به نفع من الوباء وطَيَّبَ رائحة الهواء .

حَرْفُ المِيم

* ماء : مادةُ الحياة ، وسيد الشراب ، وأحد أُركان العالَم ، بل ركنه الأصليُّ ، فإن السمٰواتِ خُلِقَتْ من بُخاره ، والأرضَ من زَبَده ، وقد جعل الله منه كل شيء حيّ .

وقد اختُلف فيه : هل يَغذُو ؟ أو يُنفذ الغذاءَ فقط ؟ على قولين ، وقد تقدما ، وذكرنا القول الراجح ودليله . وهو بارد رطب ، يَقمع الحرارة ، ويحفظ على البدن رطوباتِهِ ، ويَرُد عليه بدلَ ما تحلَّل منه ، ويرقِّق الغذاء وينفذه في العروق .

وتعتبر جودة الماء من عشرة طرق : **أحدها** : من لونه ، بأن يكون صافياً . **الثاني** : من رائحته ، بأن لا يكون له رائحة البتة . **الثالث** : من طعمه ، بأن يكون عذب الطعم حلوه ، كماء النيل والفُرات . **الرابع** : من وزنه ، بأن يكون خفيفاً رقيق القِوام . **الخامس** : من مجراه ، بأن يكون طيب المجرى والمسلك . **السادس** : من منبَعه ، بأن

---

(٣٨٨) كان الأجدر بالمصنف – رحمه الله – ألاَّ يذكر هذه الأوهام التي يرددها العوامُّ والجهال ، وتأباها الطبيعة المستقيمة ويرفضها العقل السليم .

(٣٨٩) الصَّعْتر : نبات أحمر ، حاد الرائحة حرّيف .

يكون بعيدَ المنبع . **السابع** : من بروزه للشمس والريح ، بأن لا يكون مختفياً تحت الأرض ، فلا تتمكن الشمس والريح من قُصارتِهِ(٣٩٠) . **الثامن** : من حركته ، بأن يكون سريع الجري والحركة . **التاسع** : من كثرته ، بأن يكون له كثرة تدفع الفضلاتِ المخالطةَ له . **العاشر** : من مصبه ، بأن يكون آخذًا من الشَّمال إلى الجنوب ، أو من المغرب إلى المشرق .

وإذا اعتُبرت هذه الأوصاف ، لم تجدها بكمالها إلا في الأنهار الأربعة : النيل ، والفُرات ، وسَيْحُونَ ، وجَيْحُونَ . وفي الصحيحين — من حديث أبي هريرة — رضي الله عنه — قال : قال رسول الله ﷺ : « سَيْحَانُ وجَيْحَانُ والنِّيلُ والفُرَاتُ كلها من أنهار الجنة »(٣٩١) .

وتعتبر خفة الماء من ثلاثة أوجه : **أحدها** : سرعة قبوله(*) للحر والبرد . قال أبقراط : « الماء الذي يسخن سريعاً ويبرُد سريعاً ، أخفُّ المياه » . **الثاني** : بالميزان . **الثالث** : أن تُبل قطنتان متساويتا الوزن بماءين مختلفين ، ثم يُجفَّفا بالغاً ، ثم توزَنا ، فأيُّهما(٣٩٢) كانت أخفَّ ، فماؤها كذلك .

والماءُ — وإن كان في الأصل باردًا رطباً — فإن قوته تنتقل وتتغير لأسباب عارضة توجب انتقالها(٣٩٣) ، فإن الماء المكشوف للشَّمال ، المستورَ عن الجهات الأُخَر يكون باردًا ، وفيه يبس مكتسب من ريح الشمال ، وكذلك الحكم على سائر الجهات الأخر . والماء الذي ينبعُ من المعادن يكون على طبيعة ذلك المعدِن ، ويؤثر في البدن تأثيرَه .

والماء العذب نافع للمرضَى والأصحَّاء ، والباردُ منه أنفع وألذُّ ، ولا ينبغي شربه على الريق ، ولا عَقِيبَ الجماع ، ولا الانتباه من النوم ، ولا عقيب الحمَّام ، ولا عقيب أكل الفاكهة ، وقد تقدم . وأما على الطعام ، فلا بأس به إذا اضْطُرَّ إليه ، بل يتعين ، ولا

---

(٣٩٠) أى : من مَعْبَسه ، أو مكانه الذى اقتصر عليه .

(٣٩١) أخرجه مسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، من حديث أبى هريرة [جـ ١٧ ص ١٧٦ بشرح النووى] . ولم يخرجه البخارى .

(*) هكذا فى الزاد . وفى بعض النسخ « سرعة القبول » .

(٣٩٢) فى الزاد « فأيتهما » .

(٣٩٣) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « انفعالها » .

يكثر منه ، بل يتمصَّصه مَصًّا ، فإنه لا يضره البتة ، بل يقوي المعدة ، ويُنهض الشهوة ، ويُزيل العطش .

والماء الفاتر ينفخ ويفعل ضد ما ذكرناه ، وبائتُهُ أجود من طريِّه ، وقد تقدم . والبارد ينفع من داخل ، أكثرَ من نفعه من خارج ، والحار بالعكس . وينفع البارد من عفونة الدم ، وصعود الأبخرة إلى الرأس ، ويدفع العفوناتِ ، ويوافق الأمزجة والأسنان ، والأزمان والأماكن الحارة ، ويضر على كل حالة تحتاج إلى نُضج وتحليل ، كالزكام والأورام . والشديدُ البرودةِ منه يؤذي الأسنان ، والإدمانُ عليه يحدث انفجار الدم والنزلات ، وأوجاع الصدر .

والبارد والحار بإفراط ضارَّان للعصب ولأكثر الأعضاء ، لأن أحدهما مُحَلِّل ، والآخر مكثِّف . والماء الحار يسكِّن لذع الأخلاط الحارة ، ويحلِّل ويُنضج ، ويخرج الفضول ، ويرطِّب ويسخِّن ، ويفسد الهضمَ شربُه ، ويَطفُو بالطعام إلى أعلى المعدة ويُرخيها ، ولا يسرع في تسكين العطش ، ويُذبل البدن ، ويؤدي إلى أمراض رديئة ، ويضر في أكثر الأمراض . على أنه صالح للشيوخ وأصحاب الصَّرْع والصداع البارد والرمد ، وأنفعُ ما استُعمل من خارج .

ولا يصح في الماء المسخَّن بالشمس حديثٌ ولا أثرٌ ، ولا كرهه أحد من قدماء الأطباء ولاعابه . والشديد السخونةِ يُذيب شحم الكُلى .

وقد تقدم الكلام على ماء الأمطار ، في حرف الغين .

ماء الثلج والبَرَد : ثبت في الصحيحين ، عن النبي ﷺ ، أنه كان يدعو في الاستفتاح وغيره : « اللهم ، اغسِلني من خطاياي بماء الثلج والبرَد » .

الثلج له في نفسه كيفية حادة دخَانية ، فماؤه كذلك . وقد تقدم وجه الحكمة في طلب الغسل من الخطايا بمائه ، لما يحتاج إليه القلب من التبريد والتصْليب والتقوية . ويُستفاد من هذا أصلُ طب الأبدان والقلوب ، ومعالجةُ أدوائها بضدها .

وماء البرَد ألطف وألذ من ماء الثلج ، وأما ماءُ الجَمَد ــ وهو الجليد ــ فبحسب أصله . والثلج يكتسب كيفية الجبال والأرض ــ التي يسقط عليها ــ في الجودة والرداءة .

وينبغي تجنُّب شرب الماء المثلوج ، عقيبَ الحمَّام ، والجماع ، والرياضة ، والطعام الحار ، ولأصحاب السعال ، ووجع الصدر ، وضعف الكبد ، وأصحاب الأمزجة الباردة .

ماء الآبار والقُنِيّ : مياهُ الآبار قليلة اللطافة ، وماء القُنِيِّ[٣٩٤] المدفونة تحت الأرض ثقيل ، لأن أحدهما محتقن لا يخلو عن تعفُّن ، والآخر محجوب عن الهواء . وينبغي أن لا يُشربَ على الفور ، حتى يصمدَ للهواء وتأتيَ عليه ليلةٌ . وأردؤه ما كانت مجاريه من رَصاص ، أو كانت بئره معطلة ، ولاسيما إذا كانت تربتها رديئة ، فهذا الماء وبيء وخيم .

ماء زمزمَ : سيد المياه وأشرفها وأجلها قدرًا ، وأحبُّها إلى النفوس ، وأغلاها ثمناً ، وأنفَسُها عند الناس . وهو هَزْمَةُ جبريل ، وسُقيَا الله إسماعيلَ[٣٩٥] .

وثبت في الصحيح[٣٩٦] ، عن النبي ﷺ ، أنه قال لأبي ذر — وقد أقام بين الكعبة وأستارِها أربعين ما بيْن يوم وليلة ، وليس[٣٩٧] له طعام غيرُه — فقال النبي ﷺ : « إنها طعامُ طُعْمٍ »[٣٩٨] ، وزاد غير مسلم بإسناده : « وشفاءُ سُقْمٍ » .

وفي سنن ابن ماجه — من حديث جابر بن عبد الله ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ — أنه قال : « ماءُ زمزمَ لِما شُرب له »[٣٩٩] .

---

(٣٩٤) القُنِيُّ : جمع قناة وهى الآبار التى تُحْفَرُ فى الأرض متتابعة ليُسْتَخرَجَ ماؤها ويسيح على وجه الأرض .

(٣٩٥) هكذا فى الزاد ، وفى سنن الدارقطنى .. وفى النسخ المطبوعة « وهو هَزْمة جبرائيل وسُقْيا إسماعيل » . وهَزْمَةُ جبريل : يعنى ضربها برجله فنبع الماء . وأصل الهزمة : النقرة فى الصدر . وهزمت البئر ، إذا حفرتها . وسقيا الله إسماعيل : أى أظهره الله ليسقى به إسماعيل فى أول الأمر . [انظر سنن الدارقطنى جـ ٢ ص ٢٨٩] .

(٣٩٦) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « الصحيحين » والحديث لم أقف عليه فى صحيح البخارى .

(٣٩٧) فى الزاد « ليس » .

(٣٩٨) أخرجه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة ، باب من فضائل أبى ذر رضى الله عنه [جـ ١٦ ص ٣٠ بشرح النووى] .

(٣٩٩) أخرجه ابن ماجه فى كتاب المناسك ، باب الشرب من زمزم [جـ ٢ ص ١٠١٨] . قال السيوطى فى حاشية الكتاب : هذا الحديث مشهور على الألسنة كثيراً ، واختلف الحفاظ فيه ، فمنهم من صححه ، ومنهم من حَسَّنَهُ ، ومنهم من ضعّفه . والمعتمد الأول .
وفى الزوائد : إسناده ضعيف بضعف عبد الله بن المؤمل . وقد أخرجه الحاكم فى المستدرك من طريق ابن عباس ، وقال : هذا حديث صحيح الإسناد .

وقد ضعَّف هذا الحديثَ طائفة ، بعبد الله بن المؤمَّل ، رواية عن محمد بن مسلم[٤٠٠] المكي .

وقد روينا عن عبد الله بن المبارَك : «أنه لمَّا حج أتى زمزمَ ، فقال : اللهم ، إن ابن أبي الموالى حدثنا عن محمد بن المُنْكَدِر ، عن جابر ، رضى الله عنه ، عن نبيِّك ﷺ ، أنه قال : ماء زمزمَ لما شرب له ، فإني أشرب لظمإ يوم القيامة » . وابن أبي الموالى ثقة . فالحديث إذًا حسن .

وقد صححه بعضهم ، وجعله بعضهم موضوعاً . وكلا القولين فيه مجازفة .

وقد جربت أنا وغيري — من الاستشفاء[٤٠١] بماء زمزمَ — أمورًا عجيبة ، واستشفيتُ به من عدة أمراض فبرأتُ بإذن الله ، وشاهدت من يتغذَّى به الأيامُ ذواتِ العدد — قريباً من نصف الشهر أو أكثرَ — ولا يَجِدُ جوعاً ، ويطوف مع الناس كأحدهم ، وأخبرني أنه ربما بقي عليه أربعين يوماً ، وكان له قوةٌ يجامع بها أهله ، ويصوم ، ويطوف مرارًا .

ماء النيل : أحد أنهار الجنة ، أصله من وراء جبال القمر — في أقصى بلاد الحبشة — من أمطار تجتمع هنالك[٤٠٢] ، وسيول يُمد بعضُها بعضاً ، فيسوقُه الله تعالى إلى الأرض الجُرُز التي لا نبات لها ، فيُخرج به زرعاً تأكل منه الأنعام والأنام .

ولمَّا كانت الأرض التي يسوقه إليها إبْليزا صلبة — إن أُمطرت مطر العادة لم تُرْوَ ، ولم تتهيأ للنبات ، وإن أُمطرت فوق العادة ضَرَّتِ المساكن والساكن ، وعطَّلتِ المعايش والمصالح — فأمطَر البلاد البعيدة ، ثم ساق تلك الأمطار إلى هذه الأرض في نهر عظيم ، وجعل — سبحانه — زيادته في أوقات معلومة ، على قدر ري البلاد وكفايتها ، فإذا رَوَّى[٤٠٣] البلاد وعمَّها ، أذن — سبحانه — بتناقصه وهبوطه ، لتتم المصلحة بالتمكن

---

(٤٠٠) فى الزاد « محمد بن المنكدر » تحريف ناشئ من التأثر بالرواية الأخرى للحديث ، والتى ستأتى بعد قليل . [انظر ميزان الاعتدال جـ ٤ ص ٣٧ ، وتذكرة الحفاظ جـ ١ ص ١٢٦ ، ١٢٧] .

(٤٠١) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « الاستسقاء » .

(٤٠٢) فى الزاد « هناك » .

(٤٠٣) فى الزاد « أروى » أى : جعلها تَرْوَى .

من الزرع . واجتمع في هذا الماء الأمور العشرة التي تقدم ذكرها ، وكان من ألطف المياه وأخفّها ، وأعذبها وأحلاها .

ماء البحر : ثبت عن النبي ﷺ ، أنه قال في البحر : « هو الطَّهورُ ماؤه ، الحِلُّ ميتتُه » .

وقد جعله الله سبحانه مِلْحاً أُجاجاً ، مُرًّا زُعَاقاً لتمام مصالح مَن هو على وجه الأرض مِن الآدميين والبهائم ، فإنه دائم راكد ، كثير الحيوان ، وهو يموت فيه كثيرًا ولا يُقبر ، فلو كان حلوًا لأنتنَ من إقامته ، وموت حيوانه فيه وأجاف ، وكان الهواء المحيط بالعالم يكتسب منه ذلك وينْتَن ويجيِّف ، فيفسد العالم ، فاقتضت حكمة الرب ــ سبحانه وتعالى أن جعله كالملاّحة التي لو أُلقيَ فيه جيفُ العالم كلها وأنتانُه وأمواتُه لم تغيِّره شيئاً ، ولا يتغير على مكثه ، من حين خُلق ، وإلى أن يطويَ الله العالم ، فهذا هو السبب الغائيُّ الموجب لملوحته ، وأمَّا الفاعليُّ فكونُ أرضِه سَبِخةً مالحة .

وبعد ، فالاغتسالُ به نافع من آفات عديدةٍ في ظاهر الجلد ، وشربُه مضر بداخله وخارجه ، فإنه يُطلق البطن ويهزل ، ويُحدث حِكَّة وجربًا ، ونفخاً وعطشاً .

ومن اضطر إلى شربه ، فله طرق من العلاج به مضرته ، منها : أن يُجعل في قِدْرٍ ، ويجعل فوق القِدر قصباتٌ ، وعليها صوف جديد منفوش ، ويُوقد تحت القدر حتى ترتفع بخارها إلى الصوف ، فإذا كثر عَصَره ، ولا يزال يفعل ذلك حتى يجتمع له ما يريد ، فيحصل في الصوف من البخار ما عَذُبَ ، ويبقى في القِدر الزُّعاقُ .

ومنها : أن يُحفر على شاطئه حفرة واسعة يرشح ماؤه إليها ، ثم إلى جانبها قريباً منها أخرى ترشَح هي إليها ، ثم ثالثةٌ إلى أن يعذُب الماء .

وإذا ألجَأتْه الضرورة إلى شرب الماء الكَدِر ، فعلاجُه أن يُلقيَ فيه نَوى المِشمش ، أو قطعة من خشب الساج ، أو جمرًا ملتهباً يُطْفَأُ فيه ، أو طيناً أرْمَنياً ، أو سَويقَ حنطة ، فإن كُدْرَتَه ترسُب إلى أسفلَ .

* **مِسْكٌ** : ثبت في صحيح مسلم ــ عن أبي سعيد الخدريِّ ، رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ ــ أنه قال : « أطيبُ الطِّيب المِسكُ »(٤٠٤) .

(٤٠٤) أخرجه مسلم فى كتاب الألفاظ ، باب استعمال المسك ، وأنه أطيب الطيب [جـ ١٥ ص ٨ بشرح النووى] .

وفي الصحيحين عن عائشة ، رضي الله عنها : « كنت أطيِّب النبي ﷺ — قبل أن يُحرِمَ ، ويومَ النحر ، قبل[405] أن يطوفَ بالبيت — بطيبٍ فيه مسكٌ »[406] .

المسك : ملكُ أنواع الطيب وأشرفها وأطيبها ، وهو الذي يُضرب[407] به الأمثال ، ويُشبَّه به غيره ، ولا يشبَّه بغيره . وهو كُثبان الجنة .

وهو حار يابس في الثانية ، يسر النفس ويقوِّيها ، ويقوِّي الأعضاء الباطنة جميعها شرباً وشماً ، والظاهرةَ إذا وُضع عليها ، نافع للمشايخ والمبرودين [المرطوبين][408] لاسيما زمن الشتاء ، جيد للغَشْي والخفقان وضعف القوة ، بإنعاشه للحرارة الغريزية ، ويجلو بياض العين ، وينشِّف رطوبتها ، ويَفُشُّ[409] الرياح منها ومن جميع الأعضاء ، ويُبطل عمل السموم ، وينفع من نَهْش الأفاعي ، ومنافعه كثيرة جدًّا ، وهو أقوى المفرِّحات .

• مَرْزَنْجُوش (*) : ورد فيه حديث — لا نعلم صحته —: « عليكم بالْمَرْزَنْجُوش ، فإنه جيدٌ للخُشام » . والخشام : الزكام .

وهو حار في الثالثة ، يابس في الثانية ، ينفع شمه من الصداع البارد ، والكائن عن البلغم والسوداء ، والزكام والرياح الغليظة ، ويفتح السدد الحادثة في الرأس والمنْخرَين ، ويحلِّل أكثر الأورام الباردة ، فينفع من أكثر الأورام والأوجاع الباردة الرطبة .

وإذا احتُمل أدرَّ الطَّمث ، وأعان على الحَبَل ، وإذا دُقَّ ورقه اليابس وكُمِّد به أذهب آثارَ الدم العارض[410] تحت العين ، وإذا ضُمِّدَ به مع الخل نفع لسعة العقرب .

---

(٤٠٥) هكذا فى الزاد وفى صحيح مسلم .. وفى النسخ المطبوعة « وقبل » .

(٤٠٦) أخرجه البخارى فى كتاب الحج ، باب الطيب عند الإحرام ، وباب الطيب عند رمى الجمار [جـ ٣ ص ٣٩٦ ، ٥٨٥ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الحج ، باب استحباب الطيب قبل الإحرام [جـ ٨ ص ١٠٢ بشرح النووى] .

(٤٠٧) فى الزاد « تُضْرَب » .

(٤٠٨) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٤٠٩) يَفُشُّ : يخرج ويزيل .

(*) نبات عشبى طبىّ طيب الرائحة ، ويقال له « مردقوش » [انظر فوائده الطبية فى تذكرة دواد جـ ١ ص ٢٩٢] .

(٤١٠) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « العارضة » .

ودهنُه نافع لوجع الظهر والركبتين ، ويذهب بالإعياء ، ومَنْ أدْمَن شمه لم ينزل في عينيه الماء ، وإذا استُعِطَ بمائه مع دُهن اللَّوز المُرّ فتح سدد المَنْخِرَين ، ونفع من الريح العارضة فيها وفي الرأس .

* مِلْحٌ : روى ابن ماجه في سننه — من حديث أنس ، يرفعه —: « سيدُ إدامكم المِلحُ »[411] . وسيد الشيء هو الذي يُصلحه ويقوم عليه ، وغالبُ الإدام إنما يصلح بالملح .

وفي مسند البزّار مرفوعاً : « سيوشِكُ أن تكونوا في الناس كالملح[412] في الطعام ، ولا يصلُح الطعام إلا بالملح » .

وذكر البغويُّ في تفسيره — عن عبد الله بن عمر ، رضي الله عنهما ، مرفوعاً —: « أن الله أنزل أربعَ بركاتٍ من السماء إلى الأرض : الحديدَ ، والنارَ ، والماءَ ، والمِلح » . والموقوف أشبَهُ .

الملح يُصلح أجسام الناس وأطعمتهم ، ويُصلح كلَّ شيء يخالطه ، حتى الذهبَ والفضة ، وذلك أن فيه قوةً تزيد الذهبَ صفرةً ، والفضةَ بياضاً ، وفيه جِلاءٌ وتحليل ، وإذهاب للرطوبات الغليظة ، وتنشيف لها ، وتقوية للأبدان ، ومنعٌ من عفونتها وفسادها ، ونفع من الجرب المتقرح .

وإذا اكتُحِلَ به قلع اللحم الزائد من العين ، ومحَقَ الصَّفرة[413] ، والأُندراني[414] أبلغ في ذلك ، ويمنع القروح الخبيثة من الانتشار ، ويُحْدِر البراز ، وإذا دُلك به بطونُ أصحاب الاستسقاء نفعهم ، وينقي الأسنان ، ويدفع عنها العفونة ، ويشد اللِّثة ويقويها . ومنافعه كثيرة جدًّا .

***

---

(٤١١) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الأطعمة ، باب الملح [جـ ٢ ص ١١٠٢] . وفى سنده عيسى بن أبى عيسى الخياط [ويقال له أيضاً الحناط والخباط] وهو متروك . وقد ضعّفه أحمد وغيره [انظر الضعفاء الصغير ص ١٧٢] .

(٤١٢) فى الزاد « مثل الملح » .

(٤١٣) محق الصفرة : أى أزالها وأبادها . وفى الزاد « الظَّفَرة » ، وهى جليدة تغشى العين من الجانب الذى يلى الأنف .

(٤١٤) الأندرانى : الملح الشديد البياض ، وهو أجود أنواع الملح . [انظر تذكرة داود جـ ١ ص ٣٢٣] .

حرف النون

* **نخل** : مذكور في القرآن في غير موضع . وفي الصحيحين ، عن ابن عمر ، رضي الله عنهما ، قال : « بينا[٤١٥] نحن عند رسول الله ﷺ [جلوسٌ][٤١٦] إذ أُتِيَ بجُمار نخلة ، فقال النبي ﷺ : إن من الشجر شجرةً مَثَلُها مثل الرجل المسلم ، لا يسقطُ ورقها ، أخبروني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي ، فوقع في نفسي أنها النخلة ، فأردت أن أقول هي النخلة ، ثم نظرتُ فإذا أنا أصغرُ القوم سناً ، فسكتُّ . فقال رسول الله ﷺ : هي النخلة . فذكرت ذلك لعمرَ ، فقال : لأَنْ تكونَ قلتَها أحبُّ إليَّ من كذا وكذا[٤١٧] » .

ففي هذا الحديث : إلقاءُ العالم المسائلَ على أصحابه وتمرينُهم ، واختبارُ ما عندهم . وفيه ضربُ الأمثال والتشبيه . وفيه ما كان عليه الصحابة من الحياء من أكابرهم وإجلائهم[٤١٨] ، وإمساكهم عن الكلام بين أيديهم . وفيه فرحُ الرجل بإصابة ولده وتوفيقِه للصواب . وفيه أنه لا يُكره للولد أن يجيب بما يعرف[٤١٩] بحضرة أبيه ، وإن لم يَعرفه الأبُ ، وليس في ذلك إساءةُ أدب عليه . وفيه ما تضمنه تشبيهُ المسلم بالنخلة ، مِنْ كثرة خيرها ، ودوام ظلها ، وطيب ثمرها ، ووجوده على الدوام .

وثمرُها يؤكل رطباً ويابساً ، وبلحاً ويانعاً ، وهو غذاء ودواء ، وقوت وحَلْوَى ، وشراب وفاكهة ، وجذوعُها للبناء والآلات والأواني ، ويُتخذ من خوصها الحصُرُ والمكاتل ، والأواني ، والمراوح ، وغير ذلك . ومن ليفها الحبالُ والحشايا ، وغيرُها . ثم آخر شيء نواها علف للإبل ، ويدخل في الأدوية والأكحال ، ثم جمالُ ثمرتها ونباتها ، وحسنُ هيئتها ، وبهجةُ منظرها ، وحسنُ نَضْدِ ثمرها وصنعته وبهجته ، ومسرةُ النفوس عند رؤيته ، فرؤيتُها مذكّرة

---

(٤١٥) هكذا في الزاد وفي صحيح البخاري .. وفي النسخ المطبوعة « بينما » وكلاهما صواب .

(٤١٦) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد ، ومثبت في البخاري وفي سائر النسخ المطبوعة .

(٤١٧) أخرجه البخاري في كتاب الأطعمة ، باب أكل الجمار [جـ ٩ ص ٥٦٩ من فتح الباري] وأخرجه أيضا في كتاب العلم ، باب الحياء في العلم [جـ ١ ص ٢٢٩] وأخرجه مسلم في كتاب صفة القيامة والجنة والنار ، باب مثل المؤمن مثل النخلة [جـ ١٧ ص ١٥٣ – ١٥٥ بشرح النووي] .

(٤١٨) أجلائهم : أي عظمائهم ، جمع جليل . وفي الزاد « وإجلالهم » أي : وتعظيمهم .

(٤١٩) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « عرَف » .

لفاطِرها وخالِقها وبديع صنعته ، وكمال قدرته ، وتمام حكمته ، ولا شيء أشبَهُ بها من الرجل المؤمن ، إذ هو خير كله ، ونفع ظاهر وباطن .

وهي الشجرة التي حَنَّ جِذعُها إلى رسول الله ﷺ ، لمَّا فارقه ، شوقاً إلى قربه وسماع كلامه . وهي التي نزلتْ تحتها مريمُ لمَّا ولدتْ عيسى [عليه السلام](٤٢٠) .

وقد ورد في حديث ــ في إسناده نظرٌ ــ : « أكرِمُوا عمتَكم النخلةَ ، فإنها خُلقتْ من الطين الذي خُلق منه آدمُ »(٤٢١) .

وقد اختلف الناس في تفضيلها على الحَبلة(٤٢٢) أو بالعكس ، على قولين . وقد قرن الله بينهما في كتابه ، في غير موضع . وما أقْربَ أحدهما من صاحبه ! وإن كان كل واحد منهما ــ في محل سلطانه ومَنبته ، والأرض التي توافقه ــ أفضلَ وأنفع .

* نَرْجِس : فيه حديث لا يصح : « عليكم بِشَمِّ النرجس ، فإن في القلب حبةَ الجنون والجُذام والبَرص ، لا يقطعُها إلَّا شمُّ النرجس »(٤٢٣) .

وهو حار يابس فى الثانية ، وأصلُه يدمُل القروح الغائرة إلى العصب ، وله قوة غسَّالة جالية(٤٢٤) جابذة . وإذا طُبِخَ وشُرب ماؤه ، أو أُكِلَ مسلوقاً هَيَّجَ القَيْءَ وجذب الرطوبة من قعر المعدة ، وإذا طُبخ مع الكِرْسِنَّة(٤٢٥) والعسل ، نقَّى أوساخ القروح ، وفجَّر الدُّبَيْلاتِ(٤٢٦) العسرةَ النضج .

---

(٤٢٠) مابين المعقوفتين عن الزاد .

(٤٢١) الحديث أورده العقيلى فى الضعفاء الكبير [جـ ٤ ص ٢٥٦] وفى سنده مسرور بن سعيد ، يرويه عن الأوزاعى ، وقال عنه ابن حبان ، يَرْوِى عن الأوزاعى المناكير الكثيرة . [انظر المصدر السابق وانظر ميزان الاعتدال جـ ٤ ص ٩٧] .

(٤٢٢) الحَبْلة : الكَرْمُ .

(٤٢٣) أورده ابن الجوزى فى « الموضوعات » [جـ ٣ ص ٦١] وقال : حديث موضوع ولا أصل له .

(٤٢٤) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « جالبة » .

(٤٢٥) الكِرْسِنَّة : عشب حولى من الفصيلة القَرْنية ، ويسمى « الكشنين » ، وحبه يميل إلى الصّفرة والخضرة ، وطعمه فيه بعض المرارة والحرافة ، وله عدة فوائد طبية ، منها تنقية البشرة من الحكة والجرب والقروح والأورام ، كما ينفع فى علاج السعال ، وأمراض الصدر ، وغيرها . [انظر تذكرة داود جـ ١ ص ٢٧١] .

(٤٢٦) الدُّبَيْلات : دمامل صغيرة .

وزهرهُ معتدل الحرارة لطيف ، ينفع الزكام البارد ، وفيه تحليل قوي ، ويفتّح سدد الدماغ والمَنْخِرين ، وينفع من الصداع الرطب والسوداويّ ، ويصدِّع الرءوس الحارة . والمحرَق منه إذا شُق بصلِه صَلِيباً وغُرِسَ ، صار مضاعفاً . ومَن أدْمَن شمَّه في الشتاء أمِنَ من البِرْسام في الصيف ، وينفع من أوجاع الرأس الكائنة من البلغم والمِرَّة السوداء ، وفيه من العِطرية ما يقوّي القلب والدماغ ، وينفع من كثير من أمْراضها . وقال صاحب التيسير(٤٢٧) : « شمُّه يَذهب بصَرْع الصبيان » .

* نُورَةٌ : روى ابن ماجه — من حديث أم سلمة ، رضي الله عنها : « أن النبي ﷺ كان إذا طَّلى ، بدأ بعورتِه فطَلَاها بالنُّورَة ، وسائر جسدِه »(٤٢٨) . وقد ورد فيها عدةُ أحاديثَ هٰذا أمثَلُها .

وقد قيل : « إن أول من دخل الحمّام ، وصُنعتْ له النُّورةُ ، سليمانُ بن داودَ .

وأصلُها : كِلْس جزآن ، وزِرْنيخ جزء ، يُخلطان بالماء ، ويُتركان في الشمس أو الحمام بقدر ما ينضَج(٤٢٩) وتشتد زُرقته ، ثم يطلى به ، ويجلس ساعة رَيْثما يعمل ، ولا يمس بماء ، ثم يغسل ، ويطلى مكانها بالحناء ، لإذهاب ناريَّتها .

* نَبْقٌ : ذكر أبو نعيم — في كتابه الطب النبوي ، مرفوعاً —: « أن آدم لمَّا هبط(٤٣٠) إلى الأرض ، كان أول شيء أكل من ثمارها النبقُ »(٤٣١) .

---

(٤٢٧) هو أبو مروان عبد الملك بن زهر الأندلسى ، ولد بأشبيلية ، ودرس الطب على أبيه ، وكتابه « التيسير فى المداواة والتدبير » موسوعة فى الطب والصيدلة والعقاقير ، ترجم إلى اللاتينية سنة ١٤٩٠ ، وأثر فى الطب الأوربى أثراً بالغاً . وانحصرت فلسفته فى أن التجربة خير مرشد ، وهو أول من كشف الجرب والطفيلية التى تنقله ، وعرّف الأورام السرطانية ووصفها وصفاً دقيقاً ،كما استعمل الحقن الشرجية ، وألّف كتاباً عن التغذية الصناعية للمريض ، يدخل أنبوبة من الفضة فى فم المريض ويصب منها فى جوفه اللبن والسوائل الغذائية ، فكان بذلك أول روادها ، توفى سنة ١١٦١ .

[انظر الموسوعة العربية الميسرة ص ١٧ وانظر كتاب الصيدلة علم وفن سلسلة اقرأ ص ٩٩ ، ١٠٠] .

(٤٢٨) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الأدب ، باب الاطلاء بالنُّورة [جـ ٢ ص ١٢٣٤] وفى سنده انقطاع . والنورة : حجر الكِلْس ، أو الجير الذى يُمْزج بالزرنيخ لإزالة الشعر .

(٤٢٩) فى الزاد « تنضج » .

(٤٣٠) فى الزاد « أُهْبِط » .

(٤٣١) أورده ابن الجوزى فى كتابه « العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية » وقال : حديث لايصح ، وفى سنده بكر ابن بكار ، قال عنه يحيى بن معين : ليس بشىء . [جـ ٢ ص ٦٥٥ ، ٦٥٦] .

وقد ذكر النبي ﷺ النبقَ — في الحديث المتفق على صحته —: « أنه رأى سِدْرَة المُنتهى ليلةَ أُسْرِيَ به ، وإذا نبقُها مِثل قِلالِ هَجَر »[٤٣٢] .

والنبق : ثمر شجر السِّدْر ، يعقل الطبيعة ، وينفع من الإسهال ، ويدبغ المعدة ، ويسكن الصفراء ، ويَغذو البدن ، ويشهِّي الطعام ، ويولد بلغماً ، وينفع الذَّرَب الصفراويَّ . وهو بطيء الهضم ، وسَويقه يقوي الحشا ، وهو يصلح الأمزجة الصفراوية — وتُدفع مضرتُه بالشهد .

واختُلف فيه : هل هو رطب ، أو يابس ؟ على قولين . والصحيح : أن رطبه بارد رطب ، ويابسه بارد يابس .

***

حرف الهاء

* هِنْدَبَا* : ورد فيه ثلاثة أحاديث ، لا تصح عن رسول الله ﷺ ، بل هي مرفوعة :

أحدها : « كلوا الهِندباءَ ، ولا تَنْفُضُوه . فإنه ليس يوم من الأيام إلا وقَطَراتٌ من الجنة تَقْطُر عليه » .

الثاني : « من أكل الهِندبا ، ثم نام عليه[٤٣٣] ، لم يَحُل فيه سمٌّ ولا سِحرٌ » .

الثالث : « ما من ورقةٍ — من ورق الهندبا — إلا وعليها قطرةٌ من الجنة »[٤٣٤] .

---

(٤٣٢) أخرجه البخارى فى كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة [جـ ٦ ص ٣٠٢ من فتح البارى] .

(*) الهِنْدبا [أو الهندباء] : بقل زراعى حَوْلى من الفصيلة المركبة ، يُطْبَخ ورقه أو يُجمل « سَلَطة » .

(٤٣٣) فى الزاد « عليها » وفيه أيضا « الهندباء » بالمد ، فى الموضعين ، وكلاهما صواب .

(٤٣٤) أورده ابن الجوزى فى « الموضوعات » وفى سنده عمرو بن حفص ، ومحمد بن يونس الكديمى ، والأول جرّحه أحمد بن حنبل ، والثانى قال عنه ابن حبان : كان يضع الحديث . [انظر الموضوعات جـ ٢ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩] .

وبعد ، فهي مستحيلة المزاج ، منقلبة بانقلاب فصول السنة ، فهي في الشتاء باردة رطبة ، وفي الصيف حارة يابسة ، وفي الربيع والخريف معتدلة ، وفي غالب أحوالها تميل إلى البرودة واليبس ، وهي قابضة مبردة ، جيدة للمعدة ، وإذا طُبخت وأُكلت بخلّ عقلت البطن وخاصةً البَرِّيِّ منها ، فهي أجود للمعدة وأشد قبضاً ، وتنفع من ضعفها .

وإذا ضمد بها سكّنت[٤٣٥] الالتهاب العارض في المعدة ، وتنفع من النِّقْرِس ، ومن أورام العين الحارة ، وإذا تُضمد بورقها وأُصولها ، نفعت من لسع العقرب .

وهي تقوي المعدة ، وتفتح السُّدد العارضة في الكبد ، وتنفع من أوجاعها حارِّها وباردها ، وتفتّح سدد الطحال والعروق والأحشاء ، وتنقي مجاري الكُلى .

وأنفعها للكبد أمرُّها . وماؤها المعتصر ينفع من اليَرَقان السدَديِّ ، ولا سيما إذا خلط به ماء الرَّازِيَانج الرطب . وإذا دُقّ ورقها ، ووُضع على الأورام الحارة ــ برَّدها وحَلَّلها ، ويجلو ما في الصدر[٤٣٦] ، ويطفئُ حرارة الدم والصفراء .

وأصلح ما أُكِلَتْ غير مغسولة ولا منفوضة ، لأنها متى غُسلت أو نُفِضَتْ ، فارقتها قوتها . وفيها ــ مع ذلك ــ قوة تِرياقيَّة تنفع من جميع السموم .

وإذا اكْتُحِلَ بمائها ، نفع من العشا[٤٣٧] ، ويدخل ورقها في الترياق ، وينفع من لدغ العقرب ، ويقاوِم أكثر السموم ، وإذا اعتُصر ماؤها ، وصب عليه الزيت ــ خلَص من الأدوية القتَّالة [كلها][٤٣٨] . وإذا اعتصر أصلها وشُرِب ماؤه ، نفع من لسع الأفاعي ، ولسع العقرب ، ولسع الزُّنْبُور ، ولبن أصلها يجلو بياض العين .

***

---

(٤٣٥) فى الزاد « وإذا تضمد بها سلبت الالتهاب » .

(٤٣٦) فى الزاد « المعدة » .

(٤٣٧) هكذا فى الزاد ، والعَشا : ضعف الإبصار . وفى النسخ المطبوعة « الغِشاء » أى : الغطاء ، يقال : غَشَّى الله على بصره : جعل عليه غِشاءً .

(٤٣٨) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

حرف الواو

* **وَرْسٌ**(*) : ذكر الترمذي في جامعه ـــ من حديث زيد بن أرْقَمَ ، عن النبي ﷺ ـــ : « أنه كان ينعَتُ الزيت والوَرْسَ ، من ذات الجنب ، قال قتادة : يُلَدُّ به ، ويُلَدُّ من الجانب الذي يشتكيه »[٤٣٩] . وروى ابن ماجه في سننه ـــ من حديث زيد بن أرقم أيضاً ـــ قال : « نَعَتَ رسولُ الله ﷺ ، مِنْ ذَاتِ الجَنْبِ ، وَرْساً وقُسْطاً وزيتاً يُلَدُّ به »[٤٤٠] .

وصح عن أم سلمة ، رضي الله عنهما ، قالت : « كانت النُّفَساء تقعد بعد نِفاسها أربعين يوما ، وكانت إحدانا تَطلِي الوَرْسَ على وجهها من الكَلَف» .

قال أبو حنيفة اللغويُّ : « الورس يزرع زرعاً ، وليس بِبَرِّيٍّ ، ولست أعرفه بغير أرض العرب ، ولا من أرض [العرب][٤٤١] بغير بلاد اليمن » .

وقوته في الحرارة واليبوسة ، في أوّل الدرجة الثانية . وأجودها الأحمر اللَّيِّن فى اليد ، القليل النُّخالة . ينفع من الكلَف والحِكَّة والبثور الكائنة في سطح البدن ، إذا طُلِيَ به . وله قوة قابضة صابغة . وإذا شُرِبَ نفع من الوَضَح ، ومقدار الشربة منه وزن درهم .

وهو ـــ في مزاجه ومنافعه ـــ قريب من منافع القُسْط البحريِّ . وإذا لُطِخ به على البَهق والحِكَّة والبثور والسَّعْفة[٤٤٢] نفع منها . والثوب المصبوغ بالوَرْس يقوِّي على الباه .

* **وسْمَةٌ** : وهي ورق النيل . وهي تسود الشعر .

وقد تقدم قريباً ذكر الخلاف في جواز الصبغ بالسواد ، ومَن فعله .

(*) الوَرْسُ : نبت من الفصيلة القرنية « الفراشية » ، ينبت فى بلاد العرب والحبشة والهند ، ويطلق عليه « الكُرْكُم » . [انظر المعجم الوسيط وتذكرة داود جـ ١ ص ٣٣٩] .

(٤٣٩) أخرجه الترمذى فى أبواب الطب ، باب ماجاء فى دواء ذات الجنب [جـ ٨ ص ٢٣٢ بشرح ابن العربى] .

(٤٤٠) أخرجه ابن ماجه فى كتاب الطب ، باب دواء ذات الجنب [جـ ٢ ص ١١٤٨] .

(٤٤١) مابين المعقوفتين عن الزاد .

(٤٤٢) السَّعْفَة : مرض جلدى .. وفى الزاد « والسُّعْفة » وهى سواة [فى الجلد] مُشْرَبةٌ بِحُمْرَة .

حرف الياء

• **يَقْطِينٌ** : وهو الدُّبَّاء والقرع ، وإن كان اليقطين أعم ، فإنه في اللغة : كل شجرة[443] لا تقوم على ساق ، كالبطيخ والقِثاء والخيار . قال الله تعالى : ﴿ **وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِن يَقْطِينٍ** ﴾[444] .

فإن قيل : مالا يقوم على ساق يسمى نجماً ، لا شجرًا ، والشجر : ما له ساق . قاله أهل اللغة . فكيف قال : « شجرةً من يقطين » ؟ .

فالجواب : أن الشجر إذا أُطْلِقَ ، كان ما له ساق يقوم عليه ، وإذا قُيد بشيء ، تقيَّد به . فالفرق بين المطلَق والمقيَّد في الأسماء باب مهم عظيم النفع في الفهم ومراتب اللغة . واليقطين المذكور في القرآن هو نبات الدُّبَّاء ، وثمره يسمى الدباءَ ، والقَرْعَ ، وشجرةَ اليقطين .

وقد ثبت فى الصحيحين ــ من حديث أنس بن مالك [رضي الله عنه][445] : « أن خياطاً دعا رسول الله ﷺ لطعام صنَعه . قال أنس [رضى الله عنه][446] : فذهبت مع رسول الله ﷺ ، فقرَّب إليه خُبزًا من شعير ، ومرَقاً فيه دُبَّاءٌ وقَدِيدٌ ، قال أنس : فرأيت رسول الله ﷺ يَتتبَّع الدبّاءَ من حوالي الصفحة ، فلم أزل أُحب الدبّاء من ذلك اليوم »[447] .

وقال أبو طالُوتَ : « دخلت على أنس بن مالك ، رضي الله عنه ، وهو يأكل القَرْع ، ويقول : يا لكِ من شجرة ما أحبَّكِ إليّ ! لحبِّ رسول الله ﷺ إياكِ » .

وفي الغَيْلانيَّات ــ من حديث هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشةَ ، رضي الله

---

(٤٤٣) فى الزاد « شجر » تحريف .

(٤٤٤) سورة الصافات – الآية ١٤٦ .

(٤٤٥) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٤٤٦) مابين المعقوفتين عن الزاد . وساقط من النسخ المطبوعة .

(٤٤٧) أخرجه البخارى فى كتاب الأطعمة ، باب المرق [جـ ٩ ص ٥٦٢ من فتح البارى] . وأخرجه مسلم فى كتاب الأشربة ، باب جواز أكل المرق واستحباب أكل اليقطين [جـ ١٣ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ بشرح النووى] .

عنها ــ قالت : قال لي رسول الله ﷺ : « يا عائشةُ ، إذا طبَختم قِدرًا فأكثِروا فيها من الدُّباء ، فإنها تَشُدُّ قلبَ الحزين » .

اليقطين بارد رطب ، يغذو غذاءً يسيرًا ، وهو سريع الانحدار ، وإن لم يفسُد قبل الهضم ، تولَّد منه خِلْط محمود . ومن خاصيته أنه يتولَّد منه خلِط محمود مجانس لما يصحبه ، فإن أُكِلَ بالخَرْدل ، تولد منه خِلطٌ حِرِّيف ، وبالملح خِلْط مالح ، ومع القابض قابضٌ ، وإن طُبِخَ بالسفرجل ، غَذَا البدن غذاءً جيدًا .

وهو لطيف مائي ، يغذو غذاءً رطباً بلغميًّا ، وينفع المَحْرورين ، ولا يلائم المَبْرودين ، ومَن الغالبُ عليهم البلغمُ . وماؤه يقطع العطش ، ويُذهب الصداع الحار إذا شُرِبَ أو غُسِلَ به الرأسُ . وهو مليِّن للبطن كيف استُعْمِل ، ولا يَتَدَاوَى المحرورون بمثله ولا أعجلَ منه نفعاً .

ومن منافعه أنه إذا لُطخ بعجين ، وشُوِيَ في الفرن أو التَّنُّور ، واستُخرِجَ ماؤه ، وشُرِبَ ببعض الأشربة اللطيفة ــ سكَّن حرارة الحُمَّى الملتهبة ، وقطع العَطَش ، وغَذَا غذاءً حسناً . وإذا شُرِبَ بترنْجبين وسَفَرْجَل(٤٤٨) مربَّى ، أسهل صفراءَ محضةً .

وإذا طُبِخَ القرعُ ، وشُرِبَ ماؤه بشيء من عسل ، وشيء من نَطْرون ــ أَحْدَر بلغماً ومِرةً معاً . وإذا دُقَّ وعُمِلَ منه ضِمادٌ على اليافوخ ، نفع من الأورام الحارة في الدماغ .

وإذا عُصِرَتْ جُرَادتُه ، وخُلِطَ ماؤها بدُهن الورد ، وقُطِّر منها في الأذن ــ نفعتْ من الأورام الحارَّة . وجُرادتُه نافعة من أورام العين الحارة ، ومن النِّقْرِس الحار .

وهو شديد النفع لأصحاب الأمزجة الحارة والمحمومين . ومتى صادف في المَعِدَة خِلْطاً رديئاً ، آستحال إلى طبيعته وفَسد ، وولَّد في البدن خِلْطاً رديئاً . ودفعُ مضَرَّتِهِ بالخَلِّ والمُرِّيّ(٤٤٩) .

---

(٤٤٨) الترنجبين ، لفظة فارسية معناها : عسل رطب ، وهو طَلٌّ يسقط على القاطول بفارس ، ويُجمع كالمَنّ ، وأجوده الأبيض النقى الحلو . والسفرجل : شجر مثمر من الفصيلة الوردية ، وثمره فى حجم الرمان أو أصغر .
[انظر المعجم الوسيط وتذكرة داود جـ ١ ص ٩١ ، ١٨٩] .

(٤٤٩) المُرِّىّ : إدام يُؤْتَدم به ، مثل المخلّلات المُشَهِّية .

وبالجملة ، فهو مِنْ ألطف الأغذية وأسرعها انفعالاً . ويُذكر عن أنس ، رضي الله عنه : « أن رسول الله ﷺ كان يُكثِرُ من أكلِه » .

فصل

وقد رأيت أن أختم الكلام في هذا الباب ، بفصل مختصر عظيم النفع في المحاذير(٤٥٠) والوصايا الكلية النافعة ، لتتمَّ منفعة الكتاب .

ورأيت لابن ماسَوَيْه فصلاً في كتاب « المحاذير » نقلته بلفظه ، قال : « مَن أكل البصل أربعين يوماً ، وكَلِف [وجههُ](٤٥١) ، فلا يلومَنَّ إلا نفسَه . ومَن افتصد فأكل مالحاً ، فأصابه بَهَق أو جرَب ، فلا يلومنَّ إلا نفسه . ومَن جمع في معدته البيض والسمك ، فأصابه فالِج أو لَقْوة ، فلا يلومنَّ إلا نفسه . ومَن دخل الحمام وهو ممتلئ فأصابه فالج ، فلا يلومنَّ إلا نفسه . ومَن جمع في معدته اللبن والسمك ، فأصابه جُذام أو بَرص أو نِقْرِس ، فلا يلومنَّ إلّا نفسه . ومَن جمع في معدته اللبن والنبيذ ، فأصابه برص أو نقرس ، فلا يلومنَّ إلا نفسه . ومَن احتَلم ، فلم يغتسل حتى وطئ أهلَه ، فولدتْ مجنوناً أو مُخبَّلاً ، فلا يلومنَّ إلا نفسه . ومن أكل بيضاً مسلوقاً باردًا ، وامتلأ منه ، فأصابه رَبوٌ ، فلا يلومنَّ إلا نفسه . ومَن جامع ، فلم يصبر حتى يُفرِغَ ، فأصابه حصاة ، فلا يَلُومَنَّ إلا نفسه . ومَن نظر في المرآة ليلاً ، فأصابه لَقْوة ، أو أصابه داء — فلا يلومنَّ إلّا نفسه » .

فصل

وقال ابن بَخْتَيْشُوع(٤٥٢) : « آحذر أن تجمع [بين](٤٥٣) البيض والسمك ، فإنهما

---

(٤٥٠) فى الزاد « المحاذر » .

(٤٥١) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٤٥٢) هو جبريل بن بَخْتَيْشَوع ، كان حكيماً نابغاً ، وكان طبيباً لجعفر بن يحيى البرمكى حتى قدمه إلى الخليفة هارون الرشيد ، فصار طبيبه الخاص ، ونزل لديه منزلة ممتازة ، وجعله رئيساً للأطباء ، وظل على ذلك زمن الأمين والمأمون حتى توفى فى خلافته سنة ٢١٣ هـ [انظر طبقات الأطباء والحكماء ص ٦٤] .

(٤٥٣) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد فى الموضعين .

يورثان القُولنج و [أرياح] البواسير ، ووجع الأضراس . وإدامةُ أكل البيض يولِّد[٤٥٤] الكَلَف في الوجه . وأكلُ الملوحة والسمك المالح والافتصاد بعد الحمَّام ، يولد البَهَق والجرَب . وإدامةُ أكل كُلى الغنم يَعقِر المثانة . الاغتسالُ بالماء البارد بعد أكل السمك الطريِّ ، يولِّد الفالج . وطءُ المرأة الحائض ، يولد الجُذام . الجماعُ من غير أن يُهَرِيقَ الماء عقيبه ، يولد الحصاة . طولُ المكث في المَخْرج ، يولد الداء الدَّوِيَّ » .

وقال[٤٥٥] أبقراط : « الإقلال من الضار ، خير من الإكثار من النافع » . وقال : « آستديموا الصحة بترك التكاسل عن التعب ، وبترك الامتلاء من الطعام والشراب » .

وقال بعض الحكماء : « من أراد الصحة فلْيُجَوِّد الغذاء ، وليأكل على نقاء ، وليشرب على ظمإ وليقلِّل من شرب الماء ، ويتمددْ بعد الغداء ، ويتمش بعد العشاء ، ولا ينم حتى يعرض نفسه على الخَلاء ، وليحذر دخول الحمام عقيب الامتلاء . ومرةٌ في الصيف خير من عشر في الشتاء ، وأكل القديد اليابس بالليل معين على الفناء ، ومجامعة العجائز تُهرِم أعمار الأحياء ، وتسقِم أبدان الأصحاء » ، ويروى هذا عن عليٍّ كرم الله وجهه . ولا يصح عنه ، وإنما بعضه من كلام الحارث بن كلَدَةَ طبيب العرب ، وكلام غيره .

وقال الحارث : « من سرَّه البقاء — ولا بقاء — فليباكرْ الغَداء ، وليعجِّل العشاء ، وليخفف الرداء ، وليُقلِّ غِشيان النساء » .

وقال الحارث : « أربعة أشياءَ تهدم البدن ، الجماع على البِطْنة ، ودخول الحمام على الامتلاء ، وأكل القديد ، وجماع العجوز » .

ولمَّا احتُضِر الحارث اجتمع إليه الناس ، فقالوا : مُرْنا بأمر ننتهي إليه من بعدك . فقال : « لا تتزوجوا من النساء إلا شابةً ، ولا تأكلوا من الفاكهة إلّا في أوان نُضجها ، ولا يتعالجنَّ أحدكم ما احتمل بدنه الداء . وعليكم بتنظيف المعدة في كل شهر ، فإنها

---

(٤٥٤) هكذا فى الزاد . وفى النسخ المطبوعة « تولِّد » .

(٤٥٥) فى الزاد « قال » .

مُذيبة للبلغم ، مُهلكة للمِرَّة ، منبتة للحم . وإذا تغدَّى(٤٥٦) أحدكم فلينم على إثر غدائه ساعة . وإذا تعشى فليمش أربعين خطوةً » .

وقال بعض الملوك لطبيبه : لعلك لا تبقى لي ، فصِفْ لي صفة آخذها عنك . فقال : « لا تنكِحْ إلا شابةً ، ولا تأكل من اللحم إلا فَتِيًّا ، ولا تشرب الدواء إلا من عِلَّة ، ولا تأكل الفاكهة ، إلا في نضجها . وأجِدْ مضغ الطعام . وإذا أكلت نهارًا ، فلا بأس أن تنام . وإذا أكلت ليلاً ، فلا تنم حتى تمشي ولو خمسين خطوة . ولا تأكلنَّ حتى تجوع ، ولا تتكارَهنَّ على الجماع ، ولا تحبس البول . وخذ من الحمام قبل أن يأخذ منك ، ولا تأكلن طعاماً ، وفي معدتك طعام . وإياك أن تأكل ما تعجز أسنانك عن مضغه ، فتعجزَ معدتك عن هضمه . وعليك في كل أسبوع بِقَيْئَةٍ تنقي جسمك . ونِعْمَ الكنز الدم في جسدك ، فلا تخرجه إلا عند الحاجة إليه . وعليك بدخول الحمام ، فإنه يخرج من الأطباق ما لا تصل الأدوية إلى إخراجه » .

وقال الشافعي [رحمه الله تعالى](٤٥٧) : « أربعة تقوِّي البدن : أكل اللحم ، وشم الطيب ، وكثر الغسل من غير جماع ، ولُبس الكتَّان . وأربعة توهن البدن : كثرة الجماع ، وكثرة الهم ، وكثرة شرب الماء على الريق ، وكثرة أكل الحامض . وأربعة تقوِّي البصر : الجلوس تِجاه(٤٥٨) الكعبة ، والكحل عند النوم ، والنظر إلى الخُضرة ، وتنظيف المجلس . وأربعة توهن البصر : النظر إلى القَذَرِ ، وإلى المصلوبِ ، وإلى فرج المرأة ، والقعود مستدبرَ القبلة . وأربعة تزيد في الجماع : أكل العصافير ، والإطْرِيفل [الأكبر](٤٥٩) ، والفستق ، والخَرُّوب . وأربعة تزيد في العقل : تَرْكُ الفُضول مِنَ الكلام ، والسِّواكُ ، ومجالسة الصالحين ، ومجالسة العلماء » .

---

(٤٥٦) فى بعض النسخ المطبوعة « تغذى » . تصحيف .

(٤٥٧) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

(٤٥٨) فى الزاد « حيال » وهى بمعناها .

(٤٥٩) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد . والإطريفل : لفظة يونانية معناها : الإهْليلَج ، وهو شجر ينبت فى الهند والصين ، ثمره على هيئة حَب الصَّنَوْبر . وقيل : هو من الأدوية المركبة التى تبقى قوتها إلى سنتين ونصف ، وينفع فى أمراض الدماغ وتقوية الأعصاب [انظر المعجم الوسيط وتذكرة داود جـ ١ ص ٥٠] .

وقال أفلاطون : « خمسٌ يُذِبْنَ البدنَ — وربما قَتَلْنَ —: قصرُ ذات اليد ، وفراق الأحِبَّة ، وتجرُّع المغايظ ، وردُّ النصح ، وضحك ذوي الجهل بالعقلاء » .

وقال طبيب المأمون : « عليك بخصالٍ — مَنْ حَفِظَها فهو جدير ألّا يعتلّ إلا علّةَ الموت —: لا تأكل طعاماً وفي معدَتِك طعام ، وإياك أن تأكل طعاماً يُتْعِبُ[٤٦٠] أضراسَك في مَضْغِه ، فتعجزُ معدتك عن هضمه . وإياك وكثرة الجماع ، فإنه يقتبس[٤٦١] نور الحياة ، وإياك ومجامعة العجوز ، فإنه يورث موت الفجْأة . وإياك والفصدَ إلا عند الحاجة إليه ، وعليك بالقيء في الصيف » .

ومن جوامع كلمات أبقراط ، قوله : « كُلُّ كَثيرٍ فهو مُعادٍ للطبيعة » .

وقيل لجالينوسَ : مالك لا تَمْرَضُ ؟ فقال : « لأني لم أجمع بين طعامَين رديئين ، ولم أُدْخِلْ طعاماً على طعام ، ولم أحبس في المعدة طعاماً تأذَّيْتُ به » .

فصل

وأربعة أشياء تُمرض الجسم : الكلامُ الكثير ، والنومُ الكثير ، والأكلُ الكثير ، والجماعُ الكثير . فالكلام الكثير يقلِّل مُخَّ الدماغ ويُضعفه ، ويعجِّل الشيب . والنومُ الكثير يصفِّر الوجه ، ويُعمي القلب ، ويُهيِّج العين ، ويُكْسِل عن العمل ، ويُوَلِّد الرطوباتِ في البدن . والأكلُ الكثير يُفسد فَمَ المعدة ، ويُضعف الجسم ، ويولِّد الرياح الغليظة ، والأدواء العَسِرة . والجماعُ الكثير يَهُدّ البدن ، ويُضْعِفُ القُوَى ، ويُجفِّف رطوباتِ البدن ، ويُرخي العصَب ، ويُورث السُّدد ، ويَعُمّ ضرره جميع البدن ، ويخصُّ[٤٦٢] الدماغ لكثرة ما يتحلل به[٤٦٣] من الروح النفسانيِّ . وإضعافُه أكثر من إضعاف جميع المستفرغات ، ويَستفرغ مِنْ جوهر الروح شيئاً كثيرًا .

---

(٤٦٠) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « تتعب » .

(٤٦١) في الزاد « يطفئ » .

(٤٦٢) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « ونخص » .

(٤٦٣) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « منه » .

وأنفع ما يكون إذا صادف شهوةً صادقة ، من صورة جميلة حديثة السن حلالاً ، مع سِنِّ الشُّبوبية ، وحَرارةِ المزاج ورطوبته ، وبُعدِ العهد به ، وخَلاءِ القلب من الشواغل النفسانية ، ولم يُفرِطْ فيه ، ولم يُقارِنْه ما ينبغي تركُه معه ، من امتلاء مفرط ، أو خَوَاء واستفراغ[٤٦٤] ، أو رياضة تامة ، أو حر مفرط ، أو برد مفرط . فإذا راعى فيه هذه الأمورَ العشرة ، انتفعَ به جدًّا . وأيُّها فُقِد[٤٦٥] ، حصَل له من الضرر بحسبه . وإن فُقِدَتْ كلها أو أكثرُها[٤٦٦] فهو الهلاك المعجَّل .

فصل

والحِميةُ المفرطة في الصحة ، كالتخليط في المرض . والحميةُ المعتدلة نافعة .

وقال جالينوسُ لأصحابه : « اجتنبوا ثلاثاً ، وعليكم بأربع ، ولا حاجةَ لكم[٤٦٧] إلى طبيب : اجتنبوا الغُبار ، والدخان ، والنَّتن . وعليكم بالدسم ، والطِّيب والحَلْوى ، والحمَّام . ولا تأكلوا فوق شِبَعِكم ، ولا تتخلَّلوا بالباذَرُوج[٤٦٨] والرَّيحان ، ولا تأكلوا الجَوز عند المساء ، ولا ينمْ من به زُكمةٌ على قفاه ، ولا يأكل من به غَمٌّ حامِضاً ، ولا يسرع المشي من افتصد ، فإنه [يكون][٤٦٩] مخاطرة الموت ، ولا يتقيَّأْ من تؤلمه عينه ، ولا تأكلوا في الصيف لحماً كثيرًا ، ولا ينمْ صاحب الحُمَّى الباردة في الشمس ، ولا تقرَبوا الباذَنجان العتيق المبزر . ومَنْ شرب كلَّ يوم في الشتاء ، قدَحاً من ماء حار ، أمِنَ من الأعلال . ومَن دلك جسمه في الحمّام بقشور الرمان ، أمِنَ من الجرَب والحِكَّة . ومن أكل خمس سوْسنات — مع قليل من مُصْطَكى روميٍّ . وعودٍ

---

(٤٦٤) في الزاد « أو استفراغ » .

(٤٦٥) في الزاد « وأيها فُقِدَ فَقد حصل ... » .

(٤٦٦) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « أكثر » .

(٤٦٧) في الزاد « بِكُم » .

(٤٦٨) الباذَروج : لفظة نبطية ، وتطلق على الريحان الأحمر أو السليماني كما يسميه البعض .. وهي بقلة عريضة الأوراق ، مربعة الساق ، حريفة ، غير شديدة الحرافة ، تنفع في علاج الرعاف وفيها قبض وإسهال . [انظر القانون في الطب ص ١٠٥ ، وتذكرة داود جـ ١ ص ٦٦] .

(٤٦٩) مابين المعقوفتين ساقط من الزاد .

خام ، ومسك — بقيَ طولَ عمره لا تضعفُ معدته ولا تفسدُ . ومن أكل بزر البِطيخ مع السكر ، نظَّف الحَصَى من معدته ، وزالت عنه حُرْقة البول .

فصل

أربعةٌ تَهدِم البدن : الهمُّ ، والحزنُ ، والجوعُ ، والسهرُ . وأربعة تُفرح : النظرُ إلى الخضرة ، وإلى الماء الجاري ، والمحبوب ، والثمار .

وأربعةٌ تُظلم البصر : المشيُ حافياً ، والتصبُّحُ والتَّمسِّي[٤٧٠] بوجه البغيض ، والثقيل ، والعدو ، وكثرةُ البكاء ، وكثرةُ النظر في الخط الدقيق .

وأربعةٌ تقوِّي الجسم : لُبسُ الثوب الناعم ، ودخولُ الحمام المعتدل ، وأكلُ ، الطعام الحلو والدسِم ، وشمُّ الروائح الطيبة .

وأربعةٌ تُيبِّسُ الوجه ، وتُذهب ماءه وبهجته وطلاقته[٤٧١] : الكذبُ ، والوقاحةُ ، وكثرةُ السؤال عن غير علم ، وكثرةُ الفجور .

وأربعةٌ تزيد في ماء الوجه وبهجته : المروءة ، والوفاء ، والكرم ، والتقوى .

وأربعةٌ تَجلِب البغضاء والمقت : الكِبرُ ، والحسدُ ، والكذبُ ، والنَّميمةُ .

وأربعةٌ تجلب الرزق : قيامُ الليل ، وكثرةُ الاستغفار بالأسحار ، وتعاهُد الصَّدَقة ، والذِّكْرُ أولَ النهار وآخرَه .

وأربعةٌ تمنع الرزق : نومُ الصُّبحة ، وقِلَّةُ الصلاة ، والكسلُ ، والخيانةُ .

وأربعةٌ تُضر بالفهم والذهن : إدمانُ أكل الحامض والفواكه ، والنومُ على القفا ، والهمُّ ، والغمُّ .

وأربعةٌ تزيد في الفهم : فراغُ القلب ، وقلةُ التملِّي من الطعام والشراب ، وحسنُ تدبير الغذاء بالأشياء الحُلوة والدسِمة ، وإخراجُ الفَضلاتِ المُثقِلَة للبدن .

---

(٤٧٠) هكذا في الزاد . وفي النسخ المطبوعة « والإمساء » .

(٤٧١) في الزاد « وطلاوته » أي : حُسْنه ورَوْنَقه .

وممَّا يُضر بالعقل : ادمانُ أكل البصل ، والباقِلّا[٤٧٢] ، والزيتون ، والباذنجان ، وكثرةُ الجماع ، والوحدة ، والأفكار ، والسُّكْرُ ، وكثرةُ الضحك ، والغَم .

وقال[٤٧٣] بعض أهل النظر : « قُطِعتُ في ثلاث(*) مجالسَ ، فلم أجِد لذلك علةً ، إلّا أني أكثرت من أكل الباذنجان في أحد تلك الأيام ، ومن الزيتون في الآخر ، ومن الباقِلا في الثالث » .

***

فصل

قد أتَيْنا على جمل نافعة من أجزاء الطب العلميِّ [والعملي][٤٧٤] ، لعل الناظر فيها لا يظفَر بكثير منها إلا في هذا الكتاب ، وأرَيْناك قُرب ما بينها وبين الشريعة ، وأن الطب النبويَّ ، نسبةُ طب الطبائعيين إليه ، أقلُّ من نسبة طب العجائز إلى طبهم .

والأمر فوق ما ذكرناه ، وأعظمُ مما وصفناه بكثير ، ولكنْ فيما ذكرناه تنبيهٌ باليسير على ما وراءه . ومن لم يرزقْه الله بصيرة على التفصيل ، فليعلمْ ما بيْن القوةِ المؤيَّدة بالوحي من عند الله ، والعلومِ التي رزقها الله الأنبياء ، والعقول والبصائر التي منحهم الله إياها ، وبيْن ما عند غيرهم .

ولَعَلَّ قائلاً يقول : ما لهدي الرسول ﷺ ، وما لهذا الباب ، وذِكْرِ قُوى الأدوية وقوانين العلاج ، وتدبير أمر الصحة؟!.

وهذا من تقصير هذا القائل ، في فهم ما جاء به الرسول ﷺ ، فإن هذا وأضعافَه ، وأضعافَ أضعافه ـــ من فهم بعض ما جاء به ، وإرشادِه إليه ، ودلالتِه عليه . وحسنُ الفهم عن الله ورسوله مَنٌّ يَمُنُّ الله به على من يشاء من عباده .

---

(٤٧٢) الباقِلاّ : نبات عشبى حولى من الفصيلة القَرْنِيَّة ، تُؤكل قُرونه مطبوخة ، وكذلك بذوره .

(٤٧٣) فى الزاد « قال » .

(*) هكذا فى الزاد وفى سائر النسخ ، والصواب « ثلاثة » .

(٤٧٤) مابين المعقوفتين عن الزاد .

فقد أوجدناك أصولَ الطب الثلاثَة في القرآن ، وكيف تُنكر أن تكون شريعة المبعوث بصلاح الدنيا والآخرة مشتملةً على صلاح الأبدان ، كاشتمالها على صلاح القلوب ، وأنها مرشدة إلى حفظ صحتها ، ودفع آفاتها ، بطرق كليَّة ، قد وُكِلَ تفصيلُها إلى العقل الصحيح والفِطرة السليمة ، بطريق القياس والتنبيه والإيماء ، كما هو فى كثير من مسائل فروع الفقه ، ولا تكن مِمَّنَ إذا جهل شيئاً عاداه .

ولو رُزق العبد تَضَلُّعاً من كتاب الله وَسُنَّة رسوله ، وفهماً تامًّا في النصوص ولوازمها ـــ لاستغنى بذلك عن كل كلام سواه ، ولاستنبَط جميع العلوم الصحيحة منه .

فمدارُ العلوم كلها على معرفة الله وأمره وخَلْقه ، وذلك مُسَلَّم إلى الرسل ، صلوات الله عليهم وسلامه ، فهم أعلم الخلق بالله وأمره وَخَلْقه ، وحكمته في خلقه وأمره .

وطبُّ أتباعهم أصح وأنفع من طب غيرهم . وطبُّ أتباع خاتمهم وسيدهم وإمامهم ـــ محمدِ بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم ـــ أكملُ الطب وأصحه وأنفعه .

ولا يعرف هذا إلا مَن عرف طبَّ الناس سواهم وطبَّهم ، ثم قارن[٤٧٥] بينهما ، فحينئِذٍ يظهر له التفاوت . وهم أصح الأمم عقولاً وفِطَرًا ، وأعظمهم علما ، وأقربهم في كل شيء إلى الحق ، لأنهم خِيرة الله في الأمم[٤٧٦] ، كما رسولُهم خيرتُه من الرسل ، والعلمُ الذي وهبهم إيَّاه ، والحِلمُ والحكمةُ ـــ أمرٌ لا يدانيهم فيه غيرهم .

وقد روى الإمام أحمد في مسنده ـــ من حديث بَهْز بن حكيم ، عن أبيه عن جده ، رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « أنتم تُوفون سبعين أُمَّةً ، أنتم خيرُها وأكرمُها على الله »[٤٧٧] .

---

(٤٧٥) فى الزاد « وازن » .

(٤٧٦) فى الزاد « مِنَ الأمم » .

(٤٧٧) وأخرجه أيضاً ابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب صفة أمّة محمد ، صلى الله عليه وسلم [جـ ٢ ص ١٤٣٣] .

فظهر أثر كرامتها على الله ــ سبحانه في علومهم وعقولهم ، وأحلامهم وفِطَرهم . وهم الذين عُرضت عليهم علومُ الأمم قبلهم وعقولُهم ، وأعمالهم ودرجاتُهم ــ فازدادوا بذلك علماً وحلماً وعقولاً ، إلى ما أفاض الله سبحانه وتعالى عليهم من علمه وحلمه .

ولذلك كانت الطبيعة الدمويَّةُ لهم ، والصفراويَّةُ لليهود ، والبلغميَّةُ للنصارى .

ولذلك غلَب على النصارى البلادةُ وقِلَّةُ الفهم والفِطنِة ، وغلَب على اليهود الحزنُ والهم والغَمّ والصَّغار ، وغلَب على المسلمين العقلُ والشجاعة ، والفهمُ والنجدة ، والفرحُ والسرور .

وهذه أسرار وحقائقُ إنما يعرف مقدارَها مَنْ حَسُنَ فَهْمُه ، ولَطُفَ ذهنُه ، وغَزُرَ عِلْمُهُ ، وعرف ما عند الناس . وبالله التوفيق .

***



مراجع التحقيق والتعليق

١ – الأدب المفرد ، للبخارى . دار الكتب العلمية – بيروت .

٢ – أسد الغابة ، لابن الأثير . تحقيق محمد البنا وآخرين . دار الشعب – القاهرة ١٩٧٠ م .

٣ – الأعلام ، للزركلى . مطبعة كوستا – القاهرة ١٩٥٤ م .

٤ – أعلام النساء ، لعمر كحالة ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٤ م .

٥ – الأغانى ، لأبى فرج الأصبهانى ، تحقيق إبراهيم الإبيارى . دار الشعب – القاهرة ١٩٦٩ م .

٦ – تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى . دار الكتب العلمية – بيروت .

٧ – تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط ، للأب قنواتى . دار المعارف – القاهرة .

٨ – تاريخ العلم ودور العلماء العرب فى تقدمه ، للدكتور عبد الحليم منتصر . دار المعارف – القاهرة .

٩ – تذكرة أولى الألباب ، لداود بن عمر الأنطاكى . المكتبة الثقافية – بيروت .

١٠ – تذكرة الحفاظ ، للذهبى . دار إحياء التراث العربى ١٩٨٥ م .

١١ – حلية الأولياء ، لأبى نعيم الأصفهانى ، دار الفكر .

١٢ – خزانة الأدب ، للبغدادى ، تحقيق عبد السلام هارون . الهيئة المصرية العامة للكتاب .

١٣ – ديوان الأعشى الكبير . شرح وتعليق د . محمد حسين . مكتبة الآداب بالجماميز .

١٤ - ديوان المتنبى . بشرح البرقوقى . دار الكتاب العربى - بيروت ١٩٧٩ م .
١٥ - رجال صحيح البخارى ، للكلاباذى ، تحقيق عبد الله الليثى .
١٦ - رجال صحيح مسلم ، لابن منجويه ، تحقيق عبد الله الليثى ، دار المعرفة - بيروت ١٩٨٧ م .
١٧ - زاد المعاد ، لابن قيم الجوزية . تحقيق شعيب وعبد القادر الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ١٩٨٦ م .
١٨ - الزهد ، لأحمد بن حنبل ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٣ م .
١٩ - سنن ابن ماجه ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى ، المكتبة العلمية - بيروت .
٢٠ - سنن أبى داود ، لأبى داود السجستانى ، محيى الدين عبد الحميد - دار إحياء السنة النبوية .
٢١ - سنن الدارمى ، نشر دار إحياء السنة النبوية ، بعناية محمد أحمد دهمان .
٢٢ - سنن الدارقطنى ، تحقيق السيد عبد الله هاشم يمانى المدنى . دار المحاسن - القاهرة ١٩٦٦ م .
٢٣ - سنن النسائى ، بشرح جلال الدين السيوطى . دار الكتاب العربى - بيروت .
٢٤ - سير أعلام النبلاء للذهبى ، تحقيق مجموعة من العلماء . مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٥ م .
٢٥ - شرح القصائد السبع الطوال ، لأبى بكر الأنبارى ، تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف ١٩٦٩ م .
٢٦ - الصحاح ، للجوهرى ، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار . دار العلم للملايين ١٩٨٤ م .
٢٧ - صحيح الترمذى . بشرح ابن العربى المالكى . دار الكتاب العربى - بيروت .
٢٨ - صحيح مسلم بشرح النووى . دار إحياء التراث العربى - بيروت .

٢٩ - الضعفاء الصغير، للبخارى ، تحقيق بوران الضناوى . عالم الكتب - بيروت ١٩٨٤ م .
٣٠ - الضعفاء الكبير، للعقيلى ، تحقيق د . عبد المعطى قلعجى . دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٤ م .
٣١ - الطب النبوى ، لابن القيم ، تحقيق د . عبد المعطى قلعجى . دار التراث ١٩٨٢ م .
٣٢ - الطب النبوى ، لابن القيم ، تحقيق عبد الغنى عبد الخالق وآخرين . دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ١٩٥٧ م .
٣٣ - الطب النبوى ، لابن القيم ، إعداد المكتب العالمى للبحوث - منشورات مكتبة الحياة - بيروت .
٣٤ - الطب من الكتاب والسنة ، لموفق الدين البغدادى . تحقيق د . عبد المعطى قلعجى . دار المعرفة - بيروت ١٩٨٦ م .
٣٥ - طبقات الأطباء والحكماء ، لابن جلجل ، تحقيق فؤاد سيد - مؤسسة الرسالة ١٩٨٥ م .
٣٦ - العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية ، لابن الجوزى . لخليل الميس ، اعتمادا على النسخة المطبوعة فى الهند بتحقيق إرشاد الحق الأثرى - دار الكتب العلمية ١٩٨٣ م .
٣٧ - علوم الحديث ، لابن الصلاح ، تحقيق نور الدين عتر . المكتبة العلمية - بيروت ١٩٨١ م .
٣٨ - العلاج بعسل النحل - ن بويريش ، ترجمة محمد الحلوجى - دار المعارف .
٣٩ - غريب الحديث ، لابن الجوزى ، تحقيق د . عبد المعطى قلعجى . دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٨٥ م .
٤٠ - فتح البارى بشرح صحيح البخارى ، لابن حجر العسقلانى . تحقيق عبد العزيز بن عبد الله باز وآخرين - دار المعرفة .

٤١ – فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية ، للدكتور عامر النجار . دار المعارف – القاهرة ١٩٨٧ م .
٤٢ – فى رحاب السيرة والسنة ، للدكتور عبد المنعم النمر . دار الكتاب المصرى اللبنانى – القاهرة .
٤٣ – القانون فى الطب ، لابن سينا ، جبران جبور وآخرين . مؤسسة المعارف – بيروت ١٩٨٦ م .
٤٤ – القرآن الكريم .
٤٥ – كتاب الجرح والتعديل ، لأبى محمد عبد الرحمن الرازى . دار الكتب العلمية – بيروت .
٤٦ – اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة ، لجلال الدين السيوطى . دار المعرفة – بيروت .
٤٧ – لسان العرب ، لابن منظور ، تحقيق عبد الله الكبير وآخرين – دار المعارف ١٩٨١ م .
٤٨ – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ نور الدين الهيثمى ، بتحرير الحافظين : العراقى وابن حجر – مؤسسة المعارف – بيروت ١٩٨٦ م .
٤٩ – مختار الصحاح ، للرازى ، لجنة من العلماء – دار المعارف ١٩٧٣ م .
٥٠ – المراسيل ، لأبى داود السجستانى ، تحقيق عبد العزيز السيروان – دار القلم بيروت ١٩٨٦ م .
٥١ – مشكلات الأحاديث النبوية وبيانها ، للقصيمى . تحقيق خليل الميس دار العلم – بيروت ١٩٨٥ م .
٥٢ – المصباح المنير ، للفيومى ، تحقيق د . عبد العظيم الشناوى . دار المعارف ١٩٧٧ م .
٥٣ – معجم البلدان ، لياقوت . دار بيروت ١٩٨٤ م .
٥٤ – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم . محمد فؤاد عبد الباقى . دار الشعب .

٥٥ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث ، ونسنك . طبعة بريل - ليدن ١٩٣٦ م ..
٥٦ - المعجم الوسيط ، مجمع اللغة العربية بالقاهرة - دار المعارف ١٩٧٢ م .
٥٧ - مغنى اللبيب ، لابن هشام ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد . مطبعة صبيح - القاهرة .
٥٨ - المقامات الأدبية ، للحريرى . المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٦ هـ .
٥٩ - مقدمة ابن خلدون - طبعة دار الشعب ، وطبعة دار الكتاب اللبنانى .
٦٠ - الموسوعة العربية الميسرة - دار القلم بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين - القاهرة ١٩٦٥ م.
٦١ - الموضوعات ، لابن الجوزى ، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان - المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ١٩٦٦ م .
٦٢ - الموطأ ، للإمام مالك ، مخمد فؤاد عبد الباقى . دار الشعب .
٦٣ - ميزان الاعتدال ، للذهبى ، تحقيق على البجاوى . دار المعرفة - بيروت ١٩٦٣ م .
٦٤ - النهاية فى غريب الحديث ، لابن الأثير ، تحقيق طاهر الزاوى ، ومحمود الطناحى . المكتبة العلمية - بيروت ١٩٦٥ .
٦٥ - وفيات الأعيان ، لابن خلكان ، تحقيق إحسان عباس . دار الثقافة - بيروت ١٩٦٨ م .



الفهـــرس

صفحة

صفحة

فصل

في ذكر شيء من الأدوية والأغذية المفردة، التي جاءت على لسانه ﷺ مرتبة على حروف المعجم

حرف الهمزة

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

صفحة

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

صفحة

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

صفحة

حرف الميم

حرف النون

صفحة

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

رقم الايداع ۸۷٤ لسنة ۱۹۹۳
I.S.B.N
977 - 270 - 107 - 3

مطبعة المدني المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة

